تيسير التفسير
(١)

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي
مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٨

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار
للنشر والتوزيع

تيسير التفسير

(١)

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٨

أ. د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى: ١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٧
سورة الرعد	٧
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٧
مقاطع السورة ونظمها:	٨
١. الله رفع السماوات وسخر الشمس والقمر:	٩
٢. الله مد الأرض والرواسي والأنهار والثمرات آيات:	١٥
٣. الله قطع الأرض المتجاورة وخلق الجنات والماء الواحد:	١٧
٤. الكفار يستبعدون البعث وهم أصحاب النار:	٢٠
٥. الكفار يستعجلون السيئة قبل الحسنة:	٢٣
٦. النبي منذر ولكل قوم هاد:	٢٥
٧. الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام:	٢٨
٨. الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم:	٣١
٩. البرق والسحاب والرعد والصواعق آيات الله:	٣٤
١٠. دعوة الحق لله والذين يدعون من دونه لا يستجيبون:	٣٦
١١. لله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً:	٣٩
١٢. الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار:	٤٣
١٣. المطر والأودية والزبد والحق والباطل:	٤٦
١٤. المستجيبون لله لهم الحسنى والكافرون لهم سوء الحساب:	٥٢
١٥. أولو الألباب يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر به:	٥٣
١٦. جنات عدن والصالحون والملائكة:	٦١
١٧. نقض العهد وقطع ما أمر الله به سبب اللعنة وسوء الدار:	٦٢
١٨. الله يبسط الرزق لمن يشاء والدنيا متاع قليل:	٦٢
١٩. الكفار يطلبون آية والله يضل من يشاء ويهدي من أناب:	٦٣
٢٠. المؤمنون تطمئن قلوبهم بذكر الله:	٦٤
٢١. مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات:	٦٧
٢٢. أهداف إرسال النبي إلى أمة قد خلت من قبلها أمم:	٧٠

٢٣. القرآن وتسيير الجبال وتقطيع الأرض:	٧١
٢٤. قيومية الله على كل نفس بما كسبت:	٧٧
٢٥. مثل الجنة التي وعد المتقون:	٧٩
٢٦. أهل الكتاب يفرحون بالوحي الإلهي ومن الأحزاب من ينكر بعضه:	٨١
٢٧. القرآن والأهواء والعلم والولاية:	٨٢
٢٨. الرسل والأزواج والذرية والآيات:	٨٣
٢٩. الله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب:	٨٤
٣٠. البلاغ والحساب ونقص الأرض من أطرافها:	٩٠
٣١. المعاندون والمكر:	٩١
٣٢. الرسالة والشهادة وعلم الكتاب:	٩٢
سورة إبراهيم	٩٨
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٩٨
مقاطع السورة ونظمها:	٩٨
١. الكتاب والنور والظلمات والصراط:	١٠٠
٢. كل رسول أرسل بلسان قومه:	١٠٧
٣. موسى أرسل لإخراج قومه من الظلمات وتذكيرهم بأيام الله:	١٠٩
٤. تذكير بني إسرائيل بنعمة الله ونجاتهم من آل فرعون:	١١١
٥. الشكر والزيادة، والكفر والعذاب:	١١٢
٦. أنباء الأمم السابقة من نوح وعاد وثمود وتكذيبهم للرسل:	١١٥
٧. الرسل والتوحيد:	١١٧
٨. بشرية الرسل وفضل الله:	١٢٢
٩. الكفار وتهديد الرسل بالإخراج:	١٢٥
١٠. استفتاح الظالمين وخيبتهم ومصيرهم:	١٢٦
١١. أعمال الكافرين كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف:	١٢٧
١٢. الله والخلق والاستبدال:	١٢٨
١٣. الضعفاء والمستكبرون والتخاصم يوم القيامة:	١٣٠
١٤. الشيطان يتبرأ من أتباعه يوم القيامة:	١٣١
١٥. المؤمنون يدخلون الجنة وتحيتهم فيها سلام:	١٣٦

١٦. مثل الكلمة الطيبة: ١٣٧
١٧. مثل الكلمة الخبيثة: ١٤٠
١٨. الله يثبت المؤمنين بالقول الثابت ويضل الظالمين: ١٤٢
١٩. الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار: ١٤٥
٢٠. المؤمنون وإقامة الصلاة والإنفاق: ١٤٨
٢١. الله وعنايته بخلقه: ١٥٠
٢٢. إبراهيم يدعو ربه أن يجعل البلد آمناً ويجتنب الأصنام: ١٥٣
٢٣. إبراهيم يسكن ذريته بواد غير ذي زرع عند البيت الحرام: ١٦٢
٢٤. إبراهيم يحمد الله على هبة إسماعيل وإسحاق ويستغفر للمؤمنين: ١٦٣
٢٥. تأخير الظالمين ليوم تشخص فيه الأبصار: ١٦٥
٢٦. الإنذار وطلب التأخير والأمثال: ١٦٦
٢٧. المكر والجبال والوعد والانتقام: ١٦٨
٢٨. تبديل الأرض والسماوات والبروز: ١٧٠
٢٩. المجرمون والأصفاد والنار والحساب: ١٧٤
٣٠. البلاغ والإنذار والتوحيد: ١٧٥
سورة الحجر ١٧٧
مقاصد السورة ومحتوياتها: ١٧٧
مقاطع السورة ونظمها: ١٧٧
١. الكتاب والكافرون وتمني الإسلام: ١٧٩
٢. لكل أمة أجل: ١٨٠
٣. الكفار يستعجلون إتيان الملائكة: ١٨٢
٤. الله نزّل الذكر وهو له حافظ: ١٨٦
٥. الرسل وتكذيب الأمم وسنة الله في الماضين: ١٨٧
٦. السماء ذات البروج محفوظة من الشياطين بالشهب: ١٩٠
٧. الأرض والرواسي والمعايش: ١٩٢
٨. خزائن كل شيء عند الله وما ينزل إلا بقدر معلوم: ١٩٤
٩. الرياح لواقح والمطر والسقيا من عند الله: ١٩٩
١٠. الله يحيي ويميت وهو الوارث والعالم بالمستقدمين والمستأخرين: ٢٠٠

١١. خلق الإنسان من صلصال والجان من نار السموم: ٢٠٢

١٢. خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود وامتناع إبليس: ٢٠٤

١٣. إبليس يطلب الإنظار ويقسم على إغواء بني آدم إلا المخلصين: ٢١٠

١٤. الصراط المستقيم والغاوون: ٢١٨

١٥. لجهنم أبواب ولكل منهم جزء مقسوم: ٢٢٢

١٦. المتقون في جنات وعيون آمنين: ٢٢٤

١٧. الله غفور رحيم وعذابه هو العذاب الأليم: ٢٢٨

١٨. قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم له بغلام عليم: ٢٢٩

١٩. الملائكة تخبر إبراهيم بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط: ٢٣١

٢٠. لوط يستضيف الملائكة: ٢٣٢

٢١. لوط يدعو قومه إلى تقوى الله: ٢٣٤

٢٢. قوم لوط والصيحة والحجارة من سجيل: ٢٣٥

٢٣. أصحاب الأيكة والظلم والانتقام الإلهي: ٢٣٦

٢٤. أصحاب الحجر وتكذيب المرسلين: ٢٣٦

٢٥. الخلق والحق والساعة والصفح: ٢٣٧

٢٦. الله الخلاق العليم، والسبع المثاني والقرآن العظيم: ٢٣٩

٢٧. الزهد وخفض الجناح للمؤمنين: ٢٤١

٢٨. المقتسمون جعلوا القرآن عضين: ٢٤٣

٢٩. الصدع بالرسالة والإعراض عن المشركين: ٢٤٤

٣٠. الله كافٍ نبيه المستهزئين: ٢٤٥

٣١. ضيق الصدر والتسبيح والسجود: ٢٤٦

سورة النحل ٢٥٠

مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢٥٠

مقاطع السورة ونظمها: ٢٥١

١. الأمر والملائكة والروح والإنذار: ٢٥٣

٢. خلق السماوات والأرض بالحق والإنسان والخصومة: ٢٦٠

٣. الأنعام فيها دفء ومنافع وجمال وحمل الأثقال: ٢٦١

٤. الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة: ٢٦٢

٥. الماء والزرع والزيتون والنخيل والأعناب آيات للمتفكرين: ٢٦٦
٦. تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آيات للعقلاء: ٢٦٦
٧. تسخير البحر للأكل منه واستخراج الحلية ورؤية الفلك: ٢٦٧
٨. الرواسي والأنهار والسبل والنجم وسائل الهداية: ٢٦٨
٩. عدم استواء الخالق وغير الخالق: ٢٧٠
١٠. نعم الله لا تُحصى: ٢٧١
١١. الله يعلم السر والعلن، والذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئاً: ٢٧٢
١٢. الله إله واحد، والمستكبرون منكرون للآخرة: ٢٧٤
١٣. الأساطير والأوزار والإضلال: ٢٧٨
ظظ: ٢٧٨
١٤. المكر والبنيان والعذاب: ٢٧٨
١٥. القيامة والخزي والشركاء: ٢٧٩
١٦. الملائكة والظالمون وأبواب جهنم: ٢٨١
١٧. المتقون والإنزال والجنات: ٢٨٢
١٨. الملائكة تتوفى الطيبين وتسلم عليهم وتدخلهم الجنة: ٢٨٤
١٩. الكفار ينتظرون الملائكة أو أمر الله: ٢٨٥
٢٠. المشركون يحتجون بالمشيئة، والرسل عليهم البلاغ المبين: ٢٨٦
٢١. بعثة رسول في كل أمة يدعو لعبادة الله واجتناب الطاغوت: ٢٩١
٢٢. حرص النبي على هدايتهم: ٢٩٤
٢٣. الكفار يقسمون أن لا بعث، والله يبعثهم ليبين لهم الحق: ٢٩٦
٢٤. المهاجرون في سبيل الله بعد الظلم: ٢٩٨
٢٥. إرسال الرسل بالوحي وسؤال أهل الذكر: ٣٠٠
٢٦. المكر والخسف والعذاب: ٣٠٨
٢٧. السجود والظلال والملائكة: ٣١٠
٢٨. الله واحد والرهبة والدين: ٣١٥
٢٩. النعمة والضر والشرك: ٣١٧
٣٠. الرزق والبنات والافتراء: ٣٢٠
٣١. الظلم والأجل والتأخير: ٣٢٦

٣٢. الكراهة والكذب والنار:	٣٢٩
٣٣. الشيطان يزين أعمال الكفار وهو وليهم:	٣٢٩
٣٤. المطر يحيي الأرض بعد موتها:	٣٣١
٣٥. الأنعام واللبن والعبرة:	٣٣١
٣٦. النخيل والأعناب والسكر والرزق الحسن:	٣٣٢
٣٧. الوحي إلى النحل باتخاذ البيوت والأكل من الثمرات:	٣٣٥
٣٨. الخلق والوفاة وأرذل العمر:	٣٣٧
٣٩. التفضيل والجحود والنعمة:	٣٣٨
٤٠. الأزواج والبنون والحفدة والطيبات نعم من الله:	٣٤١
٤١. العبادة والرزق والأمثال:	٣٤٢
٤٢. مثل العبد المملوك:	٣٤٣
٤٣. مثل الأبكم العاجز:	٣٤٥
٤٤. الغيب والساعة والقرب:	٣٤٨
٤٥. السمع والأبصار والأفئدة والشكر:	٣٥٣
٤٦. الطير والسماء والقدرة:	٣٥٤
٤٧. نعمة البيوت والسكن وجلود الأنعام:	٣٥٥
٤٨. نعمة الظلال والأكنان والسرابيل:	٣٥٦
٤٩. البلاغ والإنكار والنعمة:	٣٥٧
٥٠. الشهيد والكفر والعذاب:	٣٦٠
٥١. العذاب والشركاء والمضاعفة:	٣٦١
٥٢. الشهادة والكتاب والهدى والبشرى:	٣٦٤
٥٣. الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي:	٣٧٠
٥٤. العهد والكفيل والوفاء:	٣٧٥
٥٥. النقض والأنكاث والأيمان:	٣٧٦
٥٦. الأمة الواحدة والضلال والهداية:	٣٧٧
٥٧. الأيمان والزلل والعذاب:	٣٧٨
٥٨. العهد والصبر والأجر:	٣٨٠
٥٩. جزاء الإحسان في الدنيا والآخرة:	٣٨٢

٦٠. تحصين النفس بالاستعاذة والتوكل: ٣٨٥
٦١. تنزيل القرآن بالحق تثبيتاً وبشرى: ٣٨٧
٦٢. وحي الله بلسان عربي مبين: ٣٩٠
٦٣. عاقبة الكفر والافتراء على الله: ٣٩٢
٦٤. ترخيص التقية وحرمة ارتداد القلب: ٣٩٣
٦٥. استحباب الدنيا سبب الخسران والطبع على القلوب: ٣٩٤
٦٦. مغفرة الله للمهاجرين المجاهدين الصابرين: ٣٩٥
٦٧. يوم القيامة ومجادلة كل نفس عن نفسها: ٣٩٨
٦٨. عقاب كفر النعمة بالجوع والخوف: ٣٩٩
٦٩. أكل الحلال الطيب وشكر النعمة: ٤٠١
٧٠. تحريم افتراء القول على الله في الحلال والحرام: ٤٠٣
٧١. المحرمات على اليهود نتيجة ظلمهم: ٤٠٤
٧٢. باب التوبة مفتوح للذين يعملون السوء بجهالة: ٤٠٥
٧٣. إبراهيم نموذج الأمة القانتة الحنيفية: ٤٠٦
٧٤. السبت فتنة والله يحكم يوم القيامة: ٤٠٨
٧٥. الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: ٤١٠
٧٦. العدل في العقاب وخيرية الصبر: ٤١٣
٧٧. الصبر بالله وعدم الحزن على الكافرين: ٤١٤
سورة الإسراء ٤١٦
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٤١٦
مقاطع السورة ونظمها: ٤١٧
١. الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى: ٤٢٠
٢. موسى وهدى الكتاب لبني إسرائيل: ٤٤٠
٣. الإفساد في الأرض مرتين والعلو الكبير: ٤٤٣
٤. الوعد الأول وبعث أولي البأس الشديد: ٤٤٦
٥. رد الكرة وإمداد الأموال والبنين: ٤٤٧
٦. الوعد الآخر والتدمير: ٤٤٨
٧. الرحمة المشروطة: ٤٥٠

٨. القرآن يهدي للتي هي أقوم: ٤٥٠
٩. عجلة الإنسان في دعائه بالشر: ٤٥٣
١٠. الليل والنهار آيتان للحساب والفضل: ٤٥٥
١١. الكتاب والحساب: ٤٥٨
١٢. الهدى والضلال والوزر والرسل: ٤٦٢
١٣. سنة الله في إهلاك المترفين الفاسقين: ٤٦٤
١٤. العاجلة والآخرة والسعي: ٤٦٧
١٥. عطاء الله للجميع في الدنيا: ٤٧٠
١٦. تفاضل الدنيا وتفوّق الآخرة: ٤٧٤
١٧. النهي عن الشرك والذم والخذلان: ٤٧٥
١٨. وصية الله بالإحسان إلى الوالدين: ٤٧٥
١٩. الله عليم بما في النفوس وغفور للأوابين: ٤٧٩
٢٠. إيتاء الحقوق والنهي عن التبذير: ٤٨٠
٢١. القول الميسور عند الإعراض عن السائل: ٤٨١
٢٢. التوسط في الإنفاق وعدم البخل ولا الإسراف: ٤٨٢
٢٣. تحريم قتل الأولاد خشية الفقر: ٤٨٤
٢٤. تحريم الزنا وقبحه وسوء سبيله: ٤٨٥
٢٥. تحريم القتل وإقامة القصاص: ٤٨٧
٢٦. حفظ مال اليتيم والوفاء بالعهد: ٤٨٨
٢٧. إيفاء الكيل والميزان بالقسط: ٤٨٩
٢٨. النهي عن اتباع الظنون والجهل: ٤٩٠
٢٩. النهي عن المشي في الأرض مرحاً: ٤٩٥
٣٠. السيئات مكروهة عند الله: ٤٩٦
٣١. الحكمة في الوحي والتحذير من الشرك: ٤٩٦
٣٢. إفتراء المشركين وجحودهم للذكر: ٤٩٧
٣٣. تنزيه الله عن الشركاء وتسبيح الكائنات: ٤٩٨
٣٤. حجاب الكافرين عن فهم القرآن: ٥٠١
٣٥. إعراض المشركين واستهزاؤهم بالرسول: ٥٠٤

٣٦. إعادة الخلق وبعثهم من جديد:	٥٠٥
٣٧. الأمر بالقول الحسن ومخاطبة الناس بالتي هي أحسن:	٥٠٧
٣٨. علم الله ورحمته وتفضيل النبيين:	٥٠٨
٣٩. عجز المعبودات من دون الله وكشف الضر:	٥١٠
٤٠. سنة الإهلاك أو العذاب الشديد قبل القيامة:	٥١٤
٤١. الآيات للتخويف وليست للعبث:	٥١٧
٤٢. الرؤيا والشجرة الملعونة فتنة للناس:	٥١٩
٤٣. إبليس وعداوته المعلنة لذرية آدم:	٥٢٨
٤٤. الفلك والبحر والكفران:	٥٣٢
٤٥. تكريم الله لبني آدم وتفضيلهم:	٥٣٥
٤٦. دعوة الناس بأئمتهم:	٥٤١
٤٧. تثبيت الله لنبيه ومنعه من الركون:	٥٤٧
٤٨. محاولة إخراج النبي وسنة الله في الرسل:	٥٥٠
٤٩. فضل صلاة الفجر وأوقات الصلاة:	٥٥١
٥٠. تهجد الليل نافلة والمقام المحمود:	٥٥٢
٥١. طلب مدخل ومخرج الصدق:	٥٥٤
٥٢. مجيء الحق وزهوق الباطل:	٥٥٥
٥٣. القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين:	٥٥٦
٥٤. طبيعة الإنسان بين الكفر واليأس:	٥٥٨
٥٥. الروح من أمر الله وعلم الإنسان قليل:	٥٦٣
٥٦. قدرة الله على الوحي ورحمته وفضله:	٥٦٤
٥٧. تحدّي الإنس والجن بالإتيان بمثل القرآن:	٥٦٥
٥٨. تصريف المثل في القرآن واقتراحات الكافرين المعجزة:	٥٦٥
٥٩. حجة الله على الناس بإرسال بشر رسولاً:	٥٦٨
٦٠. الهدى من الله والضلال والعقاب يوم القيامة:	٥٧٢
٦١. عقاب الكافرين وإنكارهم للبعث:	٥٧٣
٦٢. شح الإنسان وخوفه من الإنفاق:	٥٧٥
٦٣. معجزة موسى وموقف فرعون وإغراقه:	٥٧٦

٦٤. نزول القرآن بالحق وبشيراً ونذيراً: ٥٧٨
٦٥. خشوع العلماء عند سماع القرآن: ٥٨٠
٦٦. أسماء الله الحسنى والتوسط في الصلاة: ٥٨٢
سورة الكهف ٥٨٩
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٨٩
مقاطع السورة ونظمها: ٥٨٩
١. حمد لله على إنزال الكتاب القيّم: ٥٩٤
٢. إنذار من نسب لله الولد: ٥٩٧
٣. نهي النبي عن الحزن والأسى على الكافرين: ٥٩٨
٤. الدنيا زينة وابتلاء: ٥٩٨
٥. قصة أصحاب الكهف آية عجيبة: ٦٠٠
٦. الفتية يلوذون بالكهف داعين ربهم: ٦٠٦
٧. إيمان الفتية وتوحيدهم وبراءتهم من الشرك: ٦١٢
٨. أمر الفتية بالاعتزال إلى الكهف: ٦١٥
٩. حراسة الله للفتية في كهفهم: ٦١٦
١٠. رقاد أصحاب الكهف وهيبته: ٦١٧
١١. بعث أصحاب الكهف وسؤالهم عن مدة لبثهم وحاجتهم: ٦٢١
١٢. حكمة الله في العثور على أصحاب الكهف وبناء المسجد عليهم: ٦٢٧
١٣. الجدال في عدد أصحاب الكهف: ٦٣١
١٤. الاستثناء بالمشيئة عند التحدث عن المستقبل: ٦٣٤
١٥. مدة لبث أصحاب الكهف وغيب الله وحكمه: ٦٣٩
١٦. الأمر بتلاوة كتاب الله وعدم تبديل كلماته: ٦٤٢
١٧. الصحبة الصالحة وعدم إغفال القلب عن ذكر الله: ٦٤٣
١٨. الحق من الله، ومصير الكفرة: ٦٤٥
١٩. المؤمنون والجنات والأساور: ٦٤٦
٢٠. مثل صاحب الجنتين وغروره بماله: ٦٤٧
٢١. غرور صاحب الجنة وإنكاره للبعث: ٦٤٨
٢٢. رد المؤمن على الكافر المغتر: ٦٥١

٢٣. ندم الكافر وحسرته حين خسر ماله وجنته: ٦٥٤
٢٤. ضرب مثل الحياة الدنيا بالنبات والهشيم: ٦٥٧
٢٥. المال والبنون زينة والباقيات الصالحات خير: ٦٥٧
٢٦. يوم تسير الجبال ويعرض الناس صفاً: ٦٥٨
٢٧. عرض الكتاب وعدل الله: ٦٦١
٢٨. سجود الملائكة وعداوة إبليس: ٦٦٢
٢٩. الله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولم يتخذ عضدا: ٦٦٤
٣٠. الشركاء والموبق والنار: ٦٦٧
٣١. صرف الأمثال في القرآن وجدال الإنسان: ٦٦٩
٣٢. عاقبة الإعراض عن آيات الله ونسيان الذنوب: ٦٧٠
٣٣. الغفران والظلم والأجل: ٦٧١

سورة الرعد

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة بيان حقية ما نزل على النبي ﷺ من الكتاب، وأنه آية الرسالة، وأن قولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهم يعرضون به للقرآن ولا يعدونه آية ـ كلام مردود إليهم، ولا ينبغي للنبي ﷺ أن يصغي إليه ولا لهم أن يتفوهوا به.

ب. ويدل على ذلك ابتداء السورة بمثل قوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ واختتامها بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، وتكرار حكاية قولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

ج. ومحصل البيان على خطاب النبي ﷺ أن هذا القرآن النازل عليك حق لا يخالطه باطل، فإن الذي يشتمل عليه من كلمة الدعوة هو التوحيد الذي تدل عليه آيات الكون من رفع السماوات ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر وسائر ما يجري عليه عجائب تدبيره وغرائب تقديره تعالى.

د. وتدل على حقية دعوته أيضاً أخبار الماضين وآثارهم، جاءتهم الرسل بالبينات فكفروا وكذبوا، فأخذهم الله بذنوبهم، فهذا ما يتضمنه هذا الكتاب وهو آية دالة على رسالتك.

هـ. وقولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ تعريضاً منهم للقرآن مردود إليهم، أولاً بأنك لست إلا منذراً وليس لك من الأمر شيء حتى يقترح عليك بمثل هذه الكلمة، وثانياً أن الهداية والإضلال ليسا كما يزعمون في وسع الآيات حتى يرجوا الهداية من آية يقترحونها، وإنما ذلك إلى الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء على نظام حكيم.

و. وأما قولهم: لست مرسلاً، فيكفيك من الحجة شهادة الله في كلامه على رسالتك ودلالة ما فيه من المعارف الحقة على ذلك.

ز. ومن الحقائق الباهرة المذكورة في هذه السورة ما يتضمنه قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ الآية، وقوله: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، وقوله: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾، وقوله:

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾

ح. والسورة مكية كلها على ما يدل عليه سياق آياتها وما تشتمل عليه من المضامين، ونقل عن بعضهم أنها مكية إلا آخر آية منها فإنها نزلت بالمدينة في عبد الله بن سلام، وعزي ذلك إلى الكلبي ومقاتل، ويدفعه أنها مختتم السورة قوبل بها ما في مفتتحها من قوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾

ط. وقيل: إن السورة مدنية كلها إلا آيتين منها وهما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ﴾ الآية والآية التي بعدها، ونسب ذلك إلى الحسن وعكرمة وقتادة، ويدفعه سياق الآيات بما تشتمل عليه من المضامين، فإنها لا تناسب ما كان يجري عليه الحال في المدينة وبعد الهجرة.

ي. وقيل: إن المدني منها قوله تعالى: ﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ﴾ الآية، والباقي مكي، وكان القائل اعتمد في ذلك على قبولها الانطباق على أوائل حال الإسلام بعد الهجرة إلى الفتح، وسيأتي في بيان معنى الآية ما يتضح به اندفاعه.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن حق، وتذكر أن الله رفع السماوات بغير عمد، وسخر الشمس والقمر، وبسط الأرض وألقى فيها رواسي وجعل فيها أزواجاً من الثمرات، وتشير إلى آياته في خلق الليل والنهار والأرض والثمار، وأن في ذلك آيات لقوم يتفكرون.

٢. الآيات [٥ ـ ٦] عطف على بعض ما كان يتفوه به المشركون في الرد على الدعوة والرسالة كقولهم: أنّى يمكن بعث الإنسان بعد موته وصيرورته تراباً؟ وقولهم: لولا أنزل علينا العذاب الذي ينذرنا به ومتى هذا الوعد إن كنت من الصادقين؟ والجواب عن ذلك بما يناسب المقام.

٣. الآيات [٧ ـ ١٦] تتعرض الآيات لقولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وترده عليهم أن الرسول ليس له إلا أنه منذر أرسله الله على سنة الهداية إلى الحق، ثم تسوق الكلام فيما يعقبه.

٤. الآيات [١٧ ـ ٢٦]:

أ. لما أتم الحجة على المشركين في ذيل الآيات السابقة، ثم أبان لهم الفرق الجلي بين الحق والباطل والفرق بين من يأخذ بهذا أو يتعاطى ذاك بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ﴾، أخذ في البيان التفصيلي للفرق بين الطريقين: طريق الحق الذي هو الإيمان بالله والعمل الصالح،

وطريق الباطل الذي هو الشرك والعمل السيئ، وأهلهما الذين هم المؤمنون والمشركون.

ب. وأن للأولين السلام وعاقبة الدار، وللآخرين اللعنة ولهم سوء الدار، والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

ج. وبدأ سبحانه الكلام في ذلك كله بمثل يبين به حال الحق والباطل وأثر كل منهما الخاص به، ثم بنى الكلام على ذلك في وصف حال الطريقين والفريقين.

٥. الآيات [٢٧ ـ ٣٥]:

أ. عود ثان إلى قول الكفار: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ نراها فنهتدي بها ونعدل بذلك عن الشرك إلى الإيمان، ويجيب تعالى عنه بأن الهدى والضلال ليس شيء منهما إلى ما ينزل من آية، بل إن ذلك إليه تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ب. وقد جرت السنة الإلهية على هداية من أناب إليه وكان له قلب يطمئن إلى ذكره، وأولئك لهم حسن المآب وعقبى الدار، وإضلال من كفر بآياته الواضحة، وأولئك لهم عذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشق، وما لهم من دون الله من واق.

ج. وأن الله أنزل عليهم آية معجزة مثل القرآن، لو أمكنت هداية أحد من غير مشية الله لكانت به، لكن الأمر إلى الله، وهو سبحانه لا يريد هداية من كتب عليهم الضلال من أهل الكفر والمكر، ومن يضلل الله فما له من هاد.

٦. الآيات [٣٦ ـ ٤٢] تتمة الآيات السابقة وتعقب قولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

٧. الآيات [٤٣] الآية خاتمة السورة وتعطف الكلام على ما في مفتتحها من قوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾، وهي كرة ثالثة على منكري حقية كتاب الله، يستشهد فيها بأن الله يشهد على الرسالة، ومن حصل له العلم بهذا الكتاب يشهد بها.

١. الله رفع السماوات وسخر الشمس والقمر:

المقطع [١] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ

تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٨٤»:

١. ﴿المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُ﴾:

أ. الحروف المصدرة بها السورة هي مجموع الحروف التي صدرت بها سور ﴿الم﴾ وسور ﴿الر﴾ كما أن المعارف المبينة في السورة كأنها المجموع من المعارف المعنية في ذينك الصنفين من السور، وفي الرجاء أن نشرح القول في ذلك فيما سيأتي إن شاء الله العزيز.

ب. ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ﴾ ظاهر سياق الآية وما يتلوها من الآيات الثلاث على ما بها من الاتصال وهي تعد الآيات الكونية من رفع السماوات ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك الدالة على توحيد الله سبحانه الذي يفصح عنه القرآن الكريم وتندب إليه الدعوة الحقة، وهي تذكر أن التدبر في تفصيلها والتفكر فيها يورث اليقين بالمبدإ والمعاد والعلم، بأن الذي أنزل إلى النبي ﷺ حق.

ج. فظاهر ذلك كله أن يكون المراد بالآيات المشار إليها بقوله: ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ﴾ الموجودات الكونية والأشياء الخارجية المسخرة في النظام العام الإلهي، والمراد بالكتاب هو مجموع الكون الذي هو بوجه اللوح المحفوظ أو المراد به القرآن الكريم بما يشتمل على الآيات الكونية بنوع من العناية والمجاز، وعلى هذا يكون في الآية إشارة إلى نوعين من الدلالة وهما الدلالة الطبيعية التي تتلبس بها الآيات الكونية من السماء والأرض وما بينهما، والدلالة اللفظية التي تتلبس بها الآيات القرآنية المنزلة من عنده تعالى إلى نبيه ﷺ، ويكون قوله: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ استدراكا متعلق بالجملتين معا أعني بقوله: ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُ﴾ لا بالجملة الأخيرة فحسب.

د. والمعنى، والله أعلم، تلك الأمور الكونية، وقد أشير بلفظ البعيد دلالة على ارتفاع مكانتها، آيات الكتاب العام الكوني دالة على أن الله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته والقرآن الذي أنزل إليك من ربك حق ليس بباطل، واللام في قوله: ﴿الْحَقُ﴾ للحصر فتفيد المحوضة، فتلك آيات قاطعة في دلالتها وهذا حق في نزوله ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، لا بتلك الآيات العينية ولا بهذا الحق النازل، وفي لحن الكلام شيء من اللوم والعتاب.

هـ. وقد بان مما مر أن اللام في قوله: ﴿الْحَقُ﴾ للحصر، ومفاده أن الذي أنزل إليه حق فحسب وليس بباطل ولا مختلطا من حق وباطل.

و. وللمفسرين في تركيب الآية ومعنى مفرداتها كالمراد باسم الإشارة والمراد بالآيات وبالكتاب ومعنى الحصر في قوله: ﴿الْحَقُّ﴾ والمراد بأكثر الناس أقوال متنوعة مختلفة والأظهر الأنسب لسياق الآيات هو ما قدمناه وعلى من أراد الاطلاع على تفصيل أقوالهم أن يراجع المطولات.

٢. ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب في المفردات: (العمود ما تعتمد عليه الخيمة وجمعه عمد، بضمتين، وعمد، بفتحتين، قال: في عمد ممددة، وقرئ في عمد، وقال: بغير عمد ترونها)، وقيل: إن العمد بفتحتين اسم جمع للعماد لا جمع.

ب. والمراد بالآية التذكير بدليل ربوبيته تعالى وحده لا شريك له وإن السماوات مرفوعة بغير عمد تعتمد عليها تدركها أبصاركم وهناك نظام جار وهناك شمس وقمر مسخران يجريان إلى أجل مسمى، ولا بد ممن يقوم على هذه الأمور فيرفع السماء وينظم النظام ويسخر الشمس والقمر ويدبر الأمر ويفصل هذه الآيات بعضها عن بعض تفصيلا فيه رجاء أن توقنوا بلقاء ربكم فالله سبحانه هو ذاك القائم بما ذكر من أمر رفع السماوات وتنظيم النظام وتسخير الشمس والقمر وتدبير الأمر وتفصيل الآيات فهو تعالى رب الكل لا رب غيره.

٣. فقوله: ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّماوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾:

أ. رفع السماوات هو فصلها من الأرض فصلا يتسلط به على الأرض بإلقاء أشعتها وإنزال أمطارها وصواعقها عليها وغير ذلك فهي مرفوعة على الأرض من غير عمد محسوسة للإنسان تعتمد عليها فعلى الإنسان أن يتفطن أن لها رافعا حافظا لها أن تتحول من مكانها ممسكا لها أن تزول من مستقرها.

ب. وذلك أن استقرار السماوات في رفيع مستقرها من غير عمد وإن لم يكن بأعجب من استقرار الأرض في مستقرها وهما محتاجتان في ذلك إليه تعالى قائمتان مقامهما بقدرته وإرادته ذلك من طريق أسباب مختصة بهما بإذنه تعالى، ولو كانت السماوات مرفوعة معتمدة على عمد منصوبة لم يغنها ذلك عن الحاجة إليه تعالى والافتقار إلى قدرته وإرادته فالأشياء كلها في حالاتها محتاجة إليه تعالى احتياجا مطلقا لا يزول عنها أبدا ولا في حال.

ج. لكن الإنسان، في عين أنه يرى قانون العلية الكلي ويذعن بحاجة الحوادث إلى علل موجدة،

وفي فطرته البحث عن علل الحوادث والأمور الممكنة، إذا وجد بعض الحوادث مقرونا بعلله وتكرر ذلك على حسه أقنعه ذلك ولم يتعجب من مشاهدته على حاله ولا بحث عنه فإذا رأى الأجرام الثقيلة تسقط على الأرض ثم وجد سقفا مرتفعا عن الأرض لا تسقط عليها تعجب وبحث عن ذلك حتى يحصل على أركان أو أعمدة يقوم عليها السقف وعند ذلك مع ما فيه من التكرر على الحس تقف نفسه عن البحث في كل مورد يشاهد فيه شيئا رفيعا معتمدا على أعمدة أو أركان.

د. أما إذا وجد أمرا يخرق هذه العادة المألوفة له كالأجرام العلوية القائمة على سمكها من غير عماد تعتمد عليه والطير الصافات ويقبضن فعند ذلك تنتزع نفسه إلى البحث عن السبب الفاعل له كالمتنبه من رقدته.

٤. فقوله تعالى: ﴿رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ إنما وصف السماوات فيه بقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ لا للدلالة على نفي مطلق العماد عنها على أن يكون قوله: ﴿تَرَوْنَها﴾ وصفا توضيحيا لا مفهوم له، أو الدلالة على نفي العماد المحسوس فيفيد على التقديرين أنها لما لم تكن لها عمد كان الله سبحانه هو الرافع الممسك لها من غير توسيط سبب، ولو كانت لها أعمدة كسائر ما يعتمد على عماد لكانت الأعمدة هي الرافعة الممسكة لها من غير حاجة إلى الله سبحانه كما ربما يذهب إليه أوهام العامة أن الذي يستند إلى الله من الأمور هو ما يجهل سببه كالأمور السماوية والحوادث الجوية والروح وأمثال ذلك، فإن كلامه تعالى ينص:

أ. أولا: على أن كل ما يصدق عليه الشيء ما خلا الله فهو مخلوق لله وكل خلق وأمر لا يخلو عن الاستناد إليه كما قال تعالى: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]

ب. وثانيا: على أن سنة الأسباب جارية مطردة وأنه تعالى على صراط مستقيم فلا معنى لكون حكم الأسباب جاريا في بعض الأمور الجسمانية غير جار في بعض، واستناد بعض الحوادث كالحوادث الأرضية إليه تعالى بواسطة الأسباب، واستناد بعضها الآخر كالأمور السماوية مثلا إليه تعالى بلا واسطة، فإن قام سقف مثلا على عمود فقد قام بسبب خاص به بإذن الله، وإن قام جرم سماوي من غير عمود يقوم عليه فقد قام أيضا بسبب خاص به كطبيعته الخاصة أو التجاذب العام مثلا بإذن الله، بل إنما قيد رفع

السماوات بقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ لتنبيه فطرة الناس وإيقاظها لتنتزع إلى البحث عن السبب وينتهي ذلك لا محالة إلى الله سبحانه، وقد سلك نظير هذا المسلك في قوله في الآية التالية: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً﴾ على ما سنوضحه.

٥. ولما كان المطلوب في المقام، على ما يهدي إليه سياق الآيات، هو توحيد الربوبية وبيان أن الله سبحانه رب كل شيء لا رب سواه لا أصل إثبات الصانع عقب قوله: ﴿رَفَعَ السَّماواتِ﴾ بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، الدال على التدبير العام المتحد باتصال بعض أجزائه ببعض ليثبت به أن رب الجميع ومالكها المدبر لأمرها واحد، وذلك أن الوثنية الذين يناظرهم القرآن لا ينكرون أن خالق الكل وموجده واحد لا شريك له في إيجاده وإبداعه، وهو الله سبحانه، وإنما يرون أنه فوض تدبير كل شأن من شئون الكون ونوع من أنواعه كالأرض والسماء والإنسان والحيوان والبر والحرب والسلم والحياة والموت إلى واحد من الموجودات القوية فينبغي أن يعبد ليجلب بها خيره ويتقي بها شره فلا ينفع في ردهم إلا قصر الربوبية في الله سبحانه وإثبات أنه رب لا رب سواه، وأما توحيد الألوهية بمعنى إثبات أن الواجب الوجود واحد لا واجب غيره وإليه ينتهي كل وجود فهو أمر لا تنكره الوثنية ولا يضرهم شيئا.

٦. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾:

أ. موضوع في صدر الآية توطئة وتمهيدا لقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ من غير أن يكون مقصودا بالذات فيما سيق من البرهان فوزان هذا الصدر من ذيله وزان الصدر من الذيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الآية: [الأعراف: ٥٤]، [يونس: ٣]، وما يشابهها من الآيات.

ب. ويظهر أيضا: أن قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ متعلق برفع و﴿تَرَوْنَها﴾ وصف للعمد والمراد رفعها بغير عمد محسوسة مرئية، وأما قول من يجعل: ﴿تَرَوْنَها﴾ جملة مستأنفة تفيد دفع الدخل كأن السامع لما سمع قوله: ﴿رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ قال: ما الدليل على ذلك؟ فأجيب وقيل: ﴿تَرَوْنَها﴾ أي الدليل على ذلك أنها مرئية لكم، فبعيد، إلا على تقدير أن يكون المراد بالسماوات مجموع جهة العلو على ما فيها من أجرام النجوم والكواكب والهواء المتراكم فوق الأرض والسحب والغمام فإنها جميعا مرفوعة من غير عمد

ومرئية للإنسان.

٧. ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ تقدم الكلام في معنى العرش والاستواء والتسخير في تفسير سورة الأعراف [الآية: ٥٤]

٨. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي كل منهما يجري إلى أجل معين يقف عنده ولا يتعداه كذا قيل ومن الجائز بل الراجح أن يكون الضمير المحذوف ضمير جمع راجعا إلى الجميع والمعنى كل من السماوات والشمس والقمر يجري إلى أجل مسمى فإن حكم الجري والحركة عام مطرد في جميع هذه الأجسام، وقد تقدم الكلام في معنى الأجل المسمى في تفسير سورة الأنعام [الآية: ١]

٩. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ التدبير هو الإتيان بالشيء عقيب الشيء ويراد به ترتيب الأشياء المتعددة المختلفة ونظمها بوضع كل شيء في موضعه الخاص به بحيث يلحق بكل منها ما يقصد به من الغرض والفائدة ولا يختل الحال بتلاشي الأصل وتفاسد الأجزاء وتزاحمها يقال: دبر أمر البيت أي نظم أموره والتصرفات العائدة إليه بحيث أدى إلى صلاح شأنه وتمتع أهله بالمطلوب من فوائده، فتدبير أمر العالم نظم أجزائه نظما جيدا متقنا بحيث يتوجه به كل شيء إلى غايته المقصودة منه وهي آخر ما يمكنه من الكمال الخاص به ومنتهى ما ينساق إليه من الأجل المسمى، وتدبير الكل إجراء النظام العام العالمي بحيث يتوجه إلى غايته الكلية وهي الرجوع إلى الله وظهور الآخرة بعد الدنيا.

١٠. ﴿يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ظاهر السياق أن المراد بالآيات هي الآيات الكونية فالمراد بتفصيلها هو تمييز بعضها من بعض وفتقها بعد رتقها، وهذا من سنته تعالى يفصل الأشياء ويميز كل شيء من كل شيء ويخرج من كل شيء ما هو كامن فيه مستخف في باطنه فينفصل به النور من الظلمة والحق من الباطل والخير من الشر والصالح من الطالح والمثيب من المجرم.

١١. ولذا عقبه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فإن يوم اللقاء هو الساعة التي سماها الله بيوم الفصل ووعد فيه تمييز المتقين من المجرمين والفجار قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال: ﴿وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]

١٢. والأشهر عند المفسرين أن المراد بالآيات آيات الكتب المنزلة من عند الله فالمراد بتفصيلها

لغرض كذا شرحها وكشفها بالبيان في الكتب المنزلة على أنبياء الله ليتدبر فيها الناس ويتفكروا ويفقهوا فإن في ذلك رجاء أن يوقنوا بلقاء الله تعالى والرجوع إليه وما قدمناه من المعنى أوضح لزوما وأمس بالسياق.

١٣. وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ﴾ ولم يقل: لعلكم بلقائه، وضع الظاهر موضع المضمر والوجه فيه الإصرار على تثبيت الربوبية والتأكيد له والإشارة إلى أن الذي خلق العالم ودبر أمره فصار ربا له هو رب لكم أيضا فلا رب إلا رب واحد لا شريك له.

٢. الله مد الأرض والرواسي والأنهار والثمرات آيات:

المقطع [٢] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٩٠»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً﴾:

أ. الرواسي جمع راسية من رسا إذا ثبت وقر، والمراد بها الجبال لثباتها في مقرها، والزوج خلاف الفرد ويطلق على مجموع الأمرين وعلى أحدهما فهما زوج وهما زوجان، وربما يقيد الزوجان باثنين تأكيدا للدلالة على أن المراد هو اثنان لا أربعة كما في الآية.

ب. ﴿هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي بسطها بسطا صالحا لأن يعيش فيه الحيوان وينبت فيه الزرع والشجر، والكلام في نسبة مد الأرض إليه تعالى وكونه كالتوطئة والتمهيد لما يلحق به من قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً﴾، نظير الكلام في قوله في الآية السابقة: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾

ج. ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً﴾ الضمير للأرض والكلام مسوق بحيث يستتبع بعض أجزائه بعضا والغرض، والله أعلم، بيان تدبيره تعالى أمر سكنة الأرض من إنسان وحيوان في حركته لطلب الرزق وسكونه للارتياح فقد مد الله سبحانه الأرض ولو لا ذلك لم يصلح لبقاء نوع الإنسان والحيوان ولو كانت ممدودة فحسب من غير ارتفاع وانخفاض في سطحها لم تصلح لظهور ما ادخر فيها من خزائن الماء على سطحها لشرب الزروع والبساتين فجعل سبحانه فيها الجبال الرواسي وادخر فيها ما ينزل على الأرض من ماء السماء وشق من أطرافها أنهارا وفجر منها عيونا مطلة على السهل تسقي الزروع والجنان فيخرج به

ثمرات مختلفة حلوة ومرة صيفية وشتوية برية وأهلية، وسلط على وجه الأرض الليل والنهار وهما عاملان قويان في رشد الأثمار والفواكه بتسليط الحرارة والبرودة المؤثرتين في النضج والنمو والانبساط والانقباض، وتسليط الضوء والظلمة النظامين لحركة الدواب والإنسان وسعيهما في طلب الرزق وسكونهما للنوم والرقدة، فمد الأرض يسهل الطريق لجعل الجبال الرواسي وذلك لشق الأنهار وذلك لجعل الثمرات المزدوجة المختلفة وبالليل والنهار يتم المطلوب وفي ذلك كله تدبير متصل متحد يكشف عن مدبر حكيم واحد لا شريك له في ربوبيته، وإن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

٢. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾:

أ. أي ومن جميع الثمرات الممكنة الكينونة جعل في الأرض أنواعا متخالفة نوعا يخالف آخر كالصيفي والشتوي والحلو وغيره والرطب واليابس.

ب. هذا هو المعروف في تفسير زوجين اثنين فالمراد بالزوجين الصنف يخالفه صنف آخر سواء كانا صنفين لا ثالث لهما أم لا، نظير ما تأتي فيه التثنية للتكرير كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] أريد به الرجوع كرة بعد كرة وإن بلغ من الكثرة ما بلغ.

ج. وقال في تفسير الجواهر في قوله تعالى: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: جعل فيها من كل أصناف الثمرات الزوجين اثنين ذكر وأنثى في أزهارها عند تكونها فقد أظهر الكشف الحديث أن كل شجر وزرع لا يتولد ثمره وحبه إلا من بين اثنين ذكر وأنثى، فعضو الذكر قد يكون مع عضو الأنثى في شجرة واحدة كأغلب الأشجار وقد يكون عضو الذكر في شجرة والآخر في شجرة أخرى كالنخل، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة إما أن يكونا معا في زهرة واحدة، وإما أن يكون كل منهما في زهرة وحده والثاني كالقرع والأول كشجرة القطن فإن عضو التذكير مع عضو التأنيث في زهرة واحدة)

د. وما ذكره وإن كان من الحقائق العلمية التي لا غبار عليها إلا أن ظاهر الآية الكريمة لا يساعد عليه فإن ظاهرها أن نفس الثمرات زوجان اثنان لا أنها مخلوقة من زوجين اثنين ولو كان المراد ذلك لكان الأنسب به أن يقال: وكل الثمرات جعل فيها من زوجين اثنين.

هـ. نعم لا بأس أن يستفاد ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٦] وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠] وقوله:

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]

و. وذكر بعضهم أن زوجين اثنين الذكر والأنثى والحلو والحامض وسائر الأصناف فيكون الزوجان أربعة أفراد الذكر والأنثى وكل منهما مختلف بصفات هي أكثر من واحد كالحلو وغيره والصيفي وخلافه، وهو كما ترى.

٣. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ أي يلبس ظلمة الليل ضوء النهار فيظلم الهواء بعد ما كان مضيئا، وذكر بعضهم أن المراد به إغشاء كل من الليل والنهار غيره وتعقيب الليل النهار والنهار الليل، ولا قرينة تدل على ذلك.

٤. ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن التفكر في النظام الجاري عليها الحاكم فيها القاضي باتصال بعضها ببعض وتلاؤم بعضها مع بعض المؤدي إلى توجه المجموع وكل جزء من أجزائها إلى غايات تخصها يكشف عن ارتباطها بتدبير واحد عقلي في غاية الإتقان والإحكام فيدل على أن لها ربا واحدا لا شريك له في ربوبيته عليما لا يعتريه جهل قديرا لا يغلب في قدرته ذا عناية بكل شيء وخاصة بالإنسان يسوقه إلى ما فيه سعادته الخالدة.

٣. الله قطع الأرض المتجاورة وخلق الجنات والماء الواحد:

المقطع [٣] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٩٤»:

١. ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب: (الصنو الغصن الخارج عن أصل الشجرة يقال: هما صنوا نخلة وفلان صنو أبيه والتثنية صنوان وجمعه صنوان قال تعالى: ﴿صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾)، وقال: والأكل لما يؤكل بضم الكاف وسكونه قال تعالى: ﴿أُكُلُها دائِمٌ﴾ والأكلة للمرة والأكلة كاللقمة)

ب. والمعنى أن من الدليل على أن هذا النظام الجاري قائم بتدبير مدبر وراءه يخضع له الأشياء بطبائعها ويجريها على ما يشاء وكيف يشاء أن في الأرض قطعا متجاورات متقاربة بعضها من بعض متشابهة

في طبع ترابها وفيها جنات من أعناب والعنب من الثمرات التي تختلف اختلافا عظيما في الشكل واللون والطعم والمقدار واللطافة والجودة وغير ذلك، وفيها زرع مختلف في جنسه وصنفه من القمح والشعير وغير ذلك، وفيها نخيل صنوان أي أمثال نابتة على أصل مشترك فيه وغير صنوان أي متفرقة تسقي الجميع من ماء واحد ونفضل بعضها على بعض بما فيه من المزية المطلوبة في شيء من صفاته.

٢. سؤال وإشكال: فإن قيل: هذه الاختلافات راجعة إلى طبائعها الخاصة بكل منها أو العوامل الخارجية التي تعمل فيها فتتصرف في إشكالها وألوانها وسائر صفاتها على ما تفصل الأبحاث العلمية المتعرضة لشئونها الشارحة لتفاصيل طبائعها وخواصها، والعوامل التي تؤثر في كيفية تكونها وتتصرف في صفاتها، والجواب:

أ. نعم لكن ينتقل السؤال حينئذ إلى سبب اختلاف هذه الطبائع الداخلية والعوامل فما هي العلة في اختلافها المؤدية إلى اختلاف الآثار؟ وتنتهي بالأخرة إلى المادة المشتركة بين الكل المتشابهة الأجزاء، ومثلها لا يصلح لتعليل هذا الاختلاف المشهود فليس إلا أن هناك سببا فوق هذه الأسباب أوجد هو المادة المشتركة، ثم أوجد فيها من الصور والآثار ما شاء، وبعبارة أخرى هناك سبب واحد ذي شعور وإرادة تستند هذه الاختلافات إلى إراداته المختلفة ولولاه لم يتميز شيء من شيء ولا اختلف في شيء هذا.

ب. ومن الواجب على الباحث المتدبر في هذه الآيات أن يتنبه أن استناد اختلاف الخلقة إلى اختلاف إرادة الله سبحانه ليس إبطالا لقانون العلة والمعلول كما ربما يتوهم فإن إرادة الله سبحانه ليست صفة طارئة لذاته كإرادتنا حتى تتغير ذاته بتغير الإرادات بل هذه الإرادات المختلفة صفة فعله ومنتزعة من العلل التامة للأشياء فليكن عندك إجمال هذا المطلب حتى يوافيك توضيحه في محل يناسبه إن شاء الله.

٣. ولما كانت الحجة مبنية على مقدمات عقلية لا تتم بدونها عقبها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقد ظهر من البيان المتقدم أن نسبة اختلاف الأكل إليه تعالى من غير ذكر الواسطة أو الوسائط مثل نسبة رفع السماء بغير عمد مرئية ومد الأرض وجعل الجبال والأنهار إليه تعالى بإسقاط الوسائط، والمراد بذلك تنبيه فطرة السامعين لتنتزع إلى البحث عن سبب الاختلافات وتنتهي بالآخرة إلى الله عز من سبب.

٤. وفي الآية التفات لطيف من الغيبة إلى التكلم بالغير وهو ما في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَها

عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ ولعل النكتة فيه تعريف السبب الحقيقي بأوجز بيان كأنه قيل: ويفضل بعضها على بعض في الأكل وليس المفضل إلا الله سبحانه ثم عرف المتكلم نفسه وأظهر بلفظ التعظيم أنه هو السبب الذي يبحث عنه الباحثون وإلى حضرته ينتهي هذا التفضيل ثم أوجز هذا التفضيل فقيل: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ ولا يخلو التعبير بلفظ المتكلم مع الغير عن إشعار بأن هناك أسبابا إلهية دون الله سبحانه عاملة بأمره ومنتهية إليه سبحانه.

٥. وقد ظهر مما تقدم:

أ. أن الآية إنما سيقت حجة لتوحيد الربوبية لا لإثبات الصانع أو توحيد الذات، وملخصها أن اختلاف الآثار في الأشياء مع وحدة الأصل يكشف عن استنادها إلى سبب وراء الطبيعة المشتركة المتحدة وانتظامها عن مشيته وتدبيره فالمدبر لها هو الله سبحانه وهو ربها لا رب غيره، فما يتراءى من المفسرين أن الآية مسوقة لإثبات الصانع في غير محله، على أن الآيات على ما يظهر من سياقها مسوقة للاحتجاج على الوثنيين وهم إنما ينكرون وحدة الربوبية ويثبتون أربابا شتى ويعترفون بوحدة ذات الواجب الحق عز اسمه فلا معنى للاحتجاج عليهم بما ينتج أن للعالم صانعا، وقد تنبه به بعضهم فذكر أن الآية احتجاج على دهرية العرب المنكرين لوجود الصانع وهو مردود بأنه لا دليل من ناحية سياق الآيات يدل على ما ادعاه.

ب. وظهر أيضا أن الفرق بين الحجتين أعني ما في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ وما في قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أن الأولى تسلك من طريق الوحدة في الكثرة والارتباط والاتصال في التدبير المتعلق بهذه الأشياء المختلفة وذلك يؤدي إلى وحدة مدبرها، والثانية تسلك من طريق الكثرة في الوحدة واختلاف الآثار والخواص في الأشياء التي لها أصل واحد وذلك يكشف عن أن المبدئ المفيض لهذه الآثار والخواص المختلفة المتفرقة أمر وراء طبائعها وسبب فوق هذه الأسباب الراجعة إلى أصل واحد وهو رب الجميع لا رب غيره.

ج. وأما الحجة الأولى المذكورة قبل الحجتين أعني ما في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ فهي كالسالكة من المسلكين معا فإنها تذكر التدبير وفيه توحيد الكثير وجمع متفرقات الأمور، والتفصيل وفيه تكثير الواحد وتفريق المجتمعات، ومحصلها أن أمر العالم على تشتته وتفرقه تحت تدبير واحد فله رب واحد هو الله سبحانه، وأنه تعالى يفصل الآيات فيميز كل شيء من كل شيء فيفصل السعيد من الشقي

والحق من الباطل وهو المعاد، ولذلك استنتج منها الربوبية والمعاد معا إذ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن الخطاب الأعور رفعه إلى أهل العلم والفقه من آل محمد ﷺ قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ﴾ يعني هذه الأرض الطيبة، تجاور مجاورة هذه الأرض المالحة وليست منها، كما يجاور القوم القوم وليسوا منهم.

ب. وفي تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن الخركوشي في شرف المصطفى والثعلبي في الكشف والبيان والفضل بن شاذان في الأمالي، واللفظ له، بإسناده عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي عليه السلام: الناس من شجرة شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة ثم قرأ: ﴿جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ، يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ﴾ بالنبي وبك: قال: ورواه النطنزي في الخصائص عن سلمان، وفي رواية: أنا وعلي من شجرة والناس من أشجار شتى، قال صاحب البرهان: وروي حديث جابر بن عبد الله الطبرسي، وعلي بن عيسى في كشف الغمة.

ج. ورواه في الدر المنثور، عن الحاكم وابن مردويه عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا علي الناس من شجر شتى، وأنا وأنت يا علي من شجرة واحدة، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ، صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾

د. أخرج الترمذي وحسنه والبزاز وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ قال: الدقل والفارسي والحلو والحامض.

٤. الكفار يستبعدون البعث وهم أصحاب النار:

المقطع [٤] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٩٧»:

١. ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في المجمع: (العجب والتعجب هجوم ما لا يعرف سببه على النفس والغل طوق تشد به اليد إلى العنق)

ب. أشار تعالى في مفتتح كلامه إلى حقية ما أنزله إلى نبيه من معارف الدين في كتابه ملوحا إلى أن آيات التكوين تهدي إليه وتدل عليه وأصولها التوحيد والرسالة والبعث ثم فصل القول في دلالة الآيات التكوينية على ذلك واستنتج من حجج ثلاث ذكرها توحيد الربوبية والبعث بالتصريح، ويستلزم ذلك حقية الرسالة والكتاب المنزل الذي هو آيتها، فلما اتضح ذلك واستنار تمهدت الطريق لذكر شبه الكفار فيما يرجع إلى الأصول الثلاثة فأشار في هذه الآية إلى شبهتهم في البعث وسيتعرض لشبههم وأقاويلهم في الرسالة والتوحيد في الآيات التالية.

ج. وشبهتهم في ذلك قولهم: ﴿أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أورده بعنوان أنه عجب أحرى به أن يتعجب منه لظهور بطلانه وفساده ظهورا لا مسوغ لإنسان سليم العقل أن يرتاب فيه فلو تفوه به إنسان لكان من موارد العجب فقال: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾

د. ومعنى الجملة على ما يرشد إليه حذف متعلق ﴿تَعْجَبْ﴾ إن تحقق منك تعجب ولا محالة يتحقق لأن الإنسان لا يخلو منه، فقولهم هذا عجيب يجب أن يتعلق به تعجبك، فالتركيب كناية عن وجوب التعجب من قولهم هذا لكونه قولا ظاهر البطلان لا يميل إليه ذو لب وحجى.

٢. وقولهم: ﴿أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مرادهم من التراب بقرينة السياق ما يصير إليه بدن الإنسان بعد الموت من صورة التراب وينعدم عند ذلك الإنسان الذي هو الهيكل اللحمي الخاص المركب من أعضاء خاصة المجهز بقوى مادية على زعمهم وكيف يشمل الخلقة أمرا منعدما من أصله فيعود مخلوقا جديدا؟

٣. ولشبهتهم هذه جهات مختلفة أجاب الله سبحانه في كلامه عن كل واحدة منها بما يناسبها ويحسم مادتها:

أ. فمنها: استبعاد أن يستحيل التراب إنسانا سويا، وقد أجيب عنه بأن إمكان استحالة المواد الأرضية منيا ثم المني علقة ثم العلقة مضغة ثم المضغة بدن إنسان سوي ووقوع ذلك بعد إمكانه لا يدع ريبا في جواز صيرورة التراب ثانيا إنسانا سويا قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا

خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ الآية: [الحج: ٥]

ب. ومنها: استبعاد إيجاد الشيء بعد عدمه، وأجيب بأنه مثل الخلق الأول فليجز كما جاز قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]

ج. ومنها: أن الإنسان تنتفي ذاته بالموت فلا ذات حتى تتلبس بالخلق الجديد ولا إنسان بعد الموت والفوت إلا في تصور المتصور دون الخارج بنحو، وقد أجيب في كلامه تعالى عنه:

• ببيان أن الإنسان ليس هو البدن المركب من عدة أعضاء مادية حتى ينعدم من أصله ببطلان التركيب وانحلاله بل حقيقته روح علوية، وإن شئت قلت: نفس، متعلق بهذا المركب المادي تستعمله في أغراضه ومقاصده وبها حياة البدن يبقى بها الإنسان محفوظ الشخصية وإن تغير بدنه وتبدل بمرور السنين ومضي العمر ثم الموت هو أن يأخذها الله من البدن وتقطع علقتها به ثم البعث هو أن يجدد الله خلق البدن وتعليقها به وهو القيام لله لفصل القضاء.

• قال تعالى: ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] يقول إنكم بالموت لا تضلون في الأرض ولا تنعدمون بل الملك الموكل بالموت يأخذ الأمر الذي تدل عليه لفظة (كم) و(نا) وهي النفوس فتبقى في قبضته ولا تضل ثم إذا بعثتم ترجعون إلى الله بلحوق أبدانكم إلى نفوسكم وأنتم أنتم.

• فللإنسان حياة باقية غير محدودة بما في هذه الدنيا الفانية وله عيشة في دار أخرى باقية ببقاء الله ولا يتمتع في حياته الثانية إلا بما يكتسبه في حياته الأولى من الإيمان بالله والأعمال الصالحة ويعده في يومه لغده من مواد السعادة فإن اتبع الحق وآمن بآيات الله سعد في أخراه بكرامة القرب والزلفى وملك لا يبلى، وإن أخلد إلى الأرض وانكب على الدنيا وأعرض عن الذكرى بقي في دار الشقاء والبوار وغل بأغلال الخيبة والخسران في مهبط اللعن وحضيض البعد وكان من أصحاب النار.

٤. وإذا عرفت هذا الذي قدمناه وتأملته تأملا كافيا بان لك أن قوله تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ إلى آخر الآية ليس بمجرد تهديد بالعذاب لهؤلاء القائلين: ﴿أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ على ما يتخيل في بادئ النظر بل جواب بلازم القول، وتوضيح ذلك:

أ. أن لازم قولهم: إن الإنسان إذا مات وصار ترابا بطلت الإنسانية وانعدمت الشخصية أن يكون الإنسان صورة مادية قائمة بهذا الهيكل البدني المادي العائش بحياة مادية من غير أن تكون له حياة أخرى خالدة بعد الموت يبقى فيها ببقاء الرب تعالى ويسعد بقربه ويفوز عنده وبعبارة أخرى تكون حياته محدود بهذه الحياة المادية غير أن تنبسط على ما بعد الموت وتدوم أبدا، وهذا في الحقيقة إنكار للعالم الربوبي إذ لا معنى لرب لا معاد إليه.

ب. ولازم ذلك أن يقصر الإنسان همه في المقاصد الدنيوية والغايات المادية من غير أن يرتقي فهمه إلى ما عند الله من النعيم المقيم والملك العظيم فيسعى لقربه تعالى ويعمل في يومه لغده كالمغلول الذي لا يستطيع حراكا ولا يقدر على السعي لواجب أمره.

ج. ولازم ذلك أن يثبت الإنسان في شقاء لازم وعذاب دائم فإنه أفسد استعداد السعادة وقطع الطريق وهذه اللوازم الثلاث هي التي أشار تعالى إليه بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

٥. فقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى اللازم الأول وهو إعراض منكري المعاد عن العالم الربوبي والحياة الباقية والستر على ما عند الله من النعيم المقيم والكفر به.

٦. ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إشارة إلى اللازم الثاني وهو الإخلاد إلى الأرض والركون إلى الهوى والتقيد بقيود الجهل وأغلال الجحد والإنكار، وقد مر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ الآية: [البقرة: ٢٦] في الجزء الأول من الكتاب كلام في كون هذه التعبيرات القرآنية حقائق أو مجازات فراجع إليه.

٧. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إشارة إلى اللازم الثالث وهو مكثهم في العذاب والشقاء.

٥. الكفار يستعجلون السيئة قبل الحسنة:

المقطع [٥] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٠٠»:

١. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في المجمع: (الاستعجال طلب التعجيل بالأمر والتعجيل تقديم الأمر قبل وقته، والسيئة خصلة تسوء النفس ونقيضها الحسنة وهي خصلة تسر النفس، والمثلات العقوبات واحدها مثلة بفتح الميم وضم الثاء، ومن قال في الواحد: مثلة بضم الميم وسكون الثاء قال في الجمع: مثلات بضمتين نحو غرفة وغرفات، وقيل في الجمع: مثلات ومثلات، أي بسكون الثاء وفتحها) وقال الراغب في المفردات: (المثلة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالا يرتدع به غيره وذلك كالنكال وجمعه مثلات ومثلات، أي بضم الميم أو فتحها وضم الثاء، وقد قرئ: من قبلهم المثلات، والمثلات بإسكان الثاء على التخفيف نحو عضد وعضد)

ب. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ ضمير الجمع للذين كفروا المذكورين في الآية السابقة، والمراد باستعجالهم بالسيئة قبل الحسنة سؤالهم نزول العذاب إليهم استهزاء بالنبي ﷺ قبل سؤال الرحمة والعافية، والدليل عليه قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾، والجملة في موضع الحال، فإن المراد به العقوبات النازلة على الأمم الماضين القاطعة لدابرهم، والمعنى: يسألك الذين كفروا أن تنزل عليهم العقوبة الإلهية قبل الرحمة والعافية بعد ما سمعوك تنذرهم بعذاب الله استهزاء وهم على علم بالعقوبات النازلة قبلهم على الأمم الماضين الذين كفروا برسلهم والآية في مقام التعجيب.

٢. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ﴾ استئناف أو في موضع الحال، ويفيد بيان السبب في كون استعجالهم أمرا عجيبا أي إن ربك ذو رحمة واسعة تسع الناس في جميع أحوالهم حتى حال ظلمهم وذو غضب شديد وقد سبقت رحمته غضبه فما بالهم يعرضون عن وسيع رحمته ومغفرته ويسألون شديد عقابه وهم مستعجلون؟إن ذلك لعجيب.

٣. ويظهر من هذا المعنى الذي يعطيه السياق:

أ. أولا: أن التعبير عنه تعالى بقوله: ﴿رَبَّكَ﴾ إنما هو للدلالة على كونهم مشركين وثنيين لا يأخذونه تعالى ربا بل النبي ﷺ هو الذي يأخذه ربا من بين قومه.

ب. وثانيا: أن المراد بالمغفرة والعقاب هو الأعم من المغفرة والعقوبة الدنيويتين فإن المشركين إنما كانوا يستعجلون بالسيئة والعقوبة الدنيويتين، والمثلات التي يذكر الله تعالى أنها خلت من قبلهم إنما هي العقوبات الدنيوية النازلة عليهم.

• على أن العفو والمغفرة لا يختصان بها بعد الموت أو بيوم القيامة ولا أن آثارهما تختص بذلك، وقد

تقدم ذلك مرارا فله تعالى أن يبسط مغفرته على كل من شاء حتى على الظالم حين هو ظالم فيغفر له مظلمته إن اقتضته الحكمة، وله أن يعاقب قال تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]

• ولهذه النكتة عبر تعالى عن مورد المغفرة بقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل للمؤمنين أو للتائبين ونحو ذلك فلو التجأ أي واحد من الناس إلى رحمته وسأله المغفرة كان له أن يغفر له سواء في ذلك الكافر والمؤمن والمعاصي الكبيرة والصغيرة غير أن المشرك لو سأله أن يغفر له شركه انقلب بذلك مؤمنا غير مشرك، والله سبحانه لا يغفر المشرك ما لم يعد إلى التوحيد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ٤٨]

• فكان على هؤلاء الذين كفروا أن يسألوه تعالى، ويستعجلوا به، أن يغفر لهم شركهم أو ما يتفرع على شركهم من المعاصي بتقديم الإيمان به وبرسوله أو أن يسألوه العافية والبركة وخير المال والولد على كونهم ظالمين فإنه برحمته الواسعة يفعل ذلك حتى بمن لا يؤمن به ولا ينقاد له، وأما الظلم حال ما يتلبس به الظالم فإن المغفرة لا تجامعه وقد قال تعالى: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]

ج. وثالثا: أن قوله: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ولم يقل: لغفور أو غافرة كأنه للتحرز من أن يدل على فعلية المغفرة لجميع الظالمين على ظلمهم كأنه قيل: عنده مغفرة للناس على ظلمهم لا يمنعه من إعمال هذه المغفرة عند المصلحة شيء، ويمكن أن يستفاد من الجملة معنى آخر وهو أنه تعالى عنده مغفرة الناس له أن يغفر بها لمن شاء منهم، ولا يستوجب ظلم الناس أن يغضب تعالى فيترك الاتصاف بالمغفرة من أصلها فلا يغفر لأحد، وهذا يوجب تغيرا في بعض ما تقدم من نكت الآية غير أنه غير ظاهر من السياق.

٤. وفي الآية مشاجرات بين المعتزلة وغيرهم من أهل السنة وهي مطلقة لا دليل على تقييدها بشيء إلا بما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية: [النساء: ٤٨]

٥. أحاديث وآثار: أخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ﴾ قال رسول الله ﷺ، لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش، ولو لا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد.

٦. النبي منذر ولكل قوم هاد:

المقطع [٦] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٠٤»:

١. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ إلى آخر الآية ليس المراد بهذه الآية الآية القاضية بين الحق والباطل المهلكة للأمة وهي المذكورة في الآية السابقة بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بأن يكون تكرارا لها وذلك لعدم إعانة السياق على ذلك، ولو أريد ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: ويقولون لولا، بل المراد أنهم يقترحون على النبي ﷺ آية أخرى غير القرآن تدل على صدقه في دعوى الرسالة وكانوا يحقرون أمر القرآن الكريم ولا يعبئون به ويسألون آية أخرى معجزة كما أوتي موسى وعيسى وغيرهما عليه السلام فكان في قولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ تعريض منهم للقرآن.

٢. وأما قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾:

أ. فإعطاء جواب للنبي ﷺ وفي توجيه الخطاب إليه دونهم وعدم أمره أن يبلغ الجواب إياهم تعريض لهم أنهم لا يستحقون جوابا لعدم فقههم به وفقدهم القدر اللازم من العقل والفهم وذلك أن اقتراحهم الآية مبني على زعمهم، كما يدل عليه كثير مما حكى عنهم القرآن في هذا الباب على أن من الواجب أن يكون للرسول قدرة غيبية مطلقة على كل ما يريد فله أن يوجد ما أراد وعليه أن يوجد ما أريد منه.

ب. والحال أن الرسول ليس إلا بشرا مثلهم أرسله الله إليهم لينذرهم عذاب الله ويحذرهم أن يستكبروا عن عبادته ويفسدوا في الأرض بناء على السنة الإلهية الجارية في خلقه أنه يهدي كل شيء إلى كماله المطلوب ويدل عباده على ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم.

ج. فالرسول بما هو رسول بشر مثلهم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وليس عليه إلا تبليغ رسالة ربه وأما الآيات فأمرها إلى الله ينزلها إن شاء وكيف شاء فاقتراحها على الرسول جهل محض.

د. فالمعنى: أنهم يقترحون عليك آية، وعندهم القرآن أفضل آية، وليس إليك شيء من ذلك وإنما أنت هاد تهديهم من طريق الإنذار وقد جرت سنة الله في عباده أن يبعث في كل قوم هاديا يهديهم.

٣. والآية تدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهدي الناس إلى الحق إما نبي منذر وإما هاد غيره

يهدي بأمر الله وقد مر بعض ما يتعلق بالمقام في أبحاث النبوة في الجزء الثاني وفي أبحاث الإمامة في الجزء الأول من الكتاب.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الرحيم القصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ فقال: قال رسول الله ﷺ: أنا المنذر وعلي الهادي الحديث.

• أقول: وروى هذا المعنى الكليني في الكافي، والصدوق في المعاني، والصفار في البصائر، والعياشي والقمي في تفسيريهما وغيرهم بأسانيد كثيرة مختلفة.

• ومعنى قوله ﷺ: (أنا المنذر وعلي الهادي) أني مصداق المنذر والإنذار هداية مع دعوة وعلى مصداق للهادي من غير دعوة وهو الإمام لا أن المراد بالمنذر هو رسول الله ﷺ والمراد بالهادي هو علي عليه السلام فإن ذلك مناف لظاهر الآية البتة.

ب. أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر وابن النجار قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: أنا المنذر وأومأ بيده إلى منكب علي فقال: أنت الهادي، يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي.

• أقول: ورواه الثعلبي في الكشف، عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

ج. وفي مستدرك الحاكم، بإسناده عن إبراهيم بن الحكم بن ظهير عن أبيه عن الحكم بن جرير عن أبي بريدة الأسلمي قال: دعا رسول الله ﷺ بالطهور وعنده علي بن أبي طالب، فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي بعد ما تطهر فألصقها بصدره، ثم قال: {إنما أنت منذر} ويعني نفسه ثم ردها إلى صدر علي، ثم قال: {ولكل قوم هاد} ثم قال له: أنت منار الأنام وغاية الهدى وأمير القراء، أشهد على ذلك أنك كذلك.

• أقول: ورواه ابن شهرآشوب عن الحاكم في شواهد التنزيل، والمرزباني في ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين.

د. أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ قال:

رسول الله المنذر وأنا الهادي، وفي لفظ: والهادي رجل من بني هاشم يعني نفسه.

• أقول: ومن طرق أهل السنة في هذا المعنى روايات أخرى كثيرة.

هـ. وفي المعاني، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ قال: كل إمام هاد لكل قوم في زمانهم.

و. وفي الكافي، بإسناده عن فضيل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ فقال: كل إمام هاد للقرن الذي هو فيهم.

ز. وفيه، بإسناده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ فقال: قال رسول الله ﷺ: أنا المنذر وعلي الهادي، يا با محمد هل من هاد اليوم؟ فقلت: جعلت فداك ما زال منكم هاد من بعد هاد حتى رفعت إليك، فقال: رحمك الله يا با محمد لو كانت إذا نزلت آية على رجل، ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية مات الكتاب، ولكنه يجري فيمن بقي كما جرى فيما مضى.

• أقول: والرواية تشهد على ما قدمناه أن شمول الآية لعلي عليه السلام من الجري وكذلك يجري في باقي الأئمة، وهذا الجري هو المراد مما ورد أنها نزلت في علي عليه السلام.

٧. الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام:

المقطع [٧] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٠٥»:

١. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾:

أ. قال في المفردات: (غاض الشيء وغاضه غيره نحو نقص ونقصه غيره قال تعالى: ﴿وَغِيضَ الْماءُ﴾ ﴿وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ﴾ أي تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض والغيضة المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه وليلة غائضة أي مظلمة)

ب. وعلى هذا فالأنسب أن تكون الأمور الثلاثة المذكورة في الآية أعني قوله: ﴿ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى﴾ و﴿ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ﴾ و﴿ما تَزْدادُ﴾ إشارة إلى ثلاثة من أعمال الأرحام في أيام الحمل فما تحمله كل أنثى هو الجنين الذي تعيه وتحفظه وما تغيضه الأرحام هو دم الحيض تنصب فيها فتصرفه الرحم في غذاء الجنين،

وما تزداده هو الدم التي تدفعها إلى خارج كدم النفاس والدم أو الحمرة التي تراها أيام الحمل أحيانا وهو الذي يظهر من بعض ما روي عن أئمة أهل البيت عليه السلام وربما ينسب إلى ابن عباس.

ج. وأكثر المفسرين على أن المراد بها تغيض الأرحام الوقت الذي تنقصه الأرحام من مدة الحمل وهي تسعة أشهر، والمراد بها تزداد ما تزيد على ذلك، وفيه خلوه عن شاهد يشهد عليه فإن الغيض بهذا المعنى نوع من الاستعارة التي لا غنى لها عن القرينة.

د. ويروى عن بعضهم أن المراد بها تغيض الأرحام ما تنقص عن أقل مدة الحمل وهي ستة أشهر وهو السقط وبها تزداد ما يولد لأقصى مدة الحمل، وعن بعض آخر أن الغيض النقصان من الأجل والإزدياد الإزدياد فيه، ويرد على الوجهين ما أوردناه على سابقهما، وقد عرفت أن الأنسب بسياق الآية النقص والزيادة فيما يقذف في الرحم من الدم.

٢. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾:

أ. المقدار هو الحد الذي يحد به الشيء ويتعين ويمتاز به من غيره إذ لا ينفك الشيء الموجود عن تعين في نفسه وامتياز من غيره ولو لا ذلك لم يكن موجدا البتة.

ب. وهذا المعنى أعني كون كل شيء مصاحبا لمقدار وقرينا لحد لا يتعداه حقيقة قرآنية تكرر ذكرها في كلامه تعالى كقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وغير ذلك من الآيات.

ج. فإذا كان الشيء محدودا بحد لا يتعداه وهو مضروب عليه ذلك الحد عند الله وبأمره ولن يخرج من عنده وإحاطته ولا يغيب عن علمه شيء كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] وقال: ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، وقال: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ﴾ [السبأ: ٣] فمن المحال أن لا يعلم تعالى ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد.

د. فذيل الآية أعني قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ تعليل لصدرها أعني قوله: ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى﴾ والآية وما يتلوها كالتذييل للآية السابقة أن الله يعلم بكل شيء ويقدر على كل شيء ويجيب الدعوة ويخضع له كل شيء فهو أحق بالربوبية فإليه أمر الآيات لا إليك وإنما أنت منذر.

٣. ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾:

أ. الغيب والشهادة كما سمعت مرارا معنيان إضافيان فالشيء الواحد يمكن أن يكون غيبا بالنسبة إلى شيء وشهادة بالنسبة إلى آخر وذلك أن الأشياء، كما تقدم، لا تخلو من حدود تلزمها ولا تنفك عنها فما كان من الأشياء داخلا في حد الشيء غير خارج عنه فهو شهادة بالنسبة إليه مشهود لإدراكه وما كان خارجا عن حد الشيء غير داخل فيه فهو غيب بالنسبة إليه غير مشهود لإدراكه.

ب. ومن هنا يظهر أن الغيب لا يعلم به إلا الله سبحانه أما أنه لا يصير معلوما لشيء فلأن العلم نوع إحاطة ولا معنى لإحاطة الشيء بما هو خارج عن حد وجوده أجنبي عن إحاطته، وأما أنه تعالى يعلم الغيب فلأنه تعالى غير محدود الوجود بحد وهو بكل شيء محيط فلا يمتنع شيء عنه بحده فلا يكون غيبا بالنسبة إليه وإن فرض أنه غيب بالنسبة إلى غيره.

ج. فيرجع معنى علمه بالغيب والشهادة بالحقيقة إلى أنه لا غيب بالنسبة إليه بل الغيب والشهادة اللذان يتحققان فيما بين الأشياء بقياس بعضها إلى بعض هما معا شهادتان بالنسبة إليه تعالى، ويصير معنى قوله: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ أن الذي يمكن أن يعلم به أرباب العلم وهو الذي لا يخرج عن حد وجودهم والذي لا يمكن أن يعلموا به لكونه غيبا خارجا عن حد وجودهم هما معا معلومان مشهودان له تعالى لإحاطته بكل شيء.

٤. ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾:

أ. اسمان من أسمائه تعالى الحسنى، والكبر ويقابله الصغر من المعاني المتضائفة فإن الأجسام إذا قيس بعضها إلى بعض من حيث حجمها المتفاوت فما احتوى على مثل حجم الآخر وزيادة كان كبيرا وما لم يكن كذلك كان صغيرا ثم توسعوا فاعتبروا ذلك في غير الأجسام، والذي يناسب ساحة قدسه تعالى من معنى الكبرياء أنه تعالى يملك كل كمال لشيء ويحيط به فهو تعالى كبير أي له كمال كل ذي كمال وزيادة.

ب. والمتعال صفة من التعالي وهو المبالغة في العلو كما يدل عليه قوله: ﴿تَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٤٣] فإن قوله: ﴿عُلُوًّا كَبِيراً﴾ مفعول مطلق لقوله: ﴿تَعالى﴾ وموضوع في محل قولنا: (تعاليا) فهو سبحانه علي ومتعال أما أنه علي فلأنه علا كل شيء وتسلط عليه والعلو هو التسلط، وأما أنه متعال فلأن له غاية العلو لأن علوه كبير بالنسبة إلى كل علو فهو العالي المتسلط على كان عال من كل جهة.

ج. ومن هنا تظهر النكتة في تعقيب قوله: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ بقوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾ لأن

مفاد مجموع الاسمين أنه سبحانه محيط بكل شيء متسلط عليه ولا يتسلط عليه ولا يغلبه شيء من جهة البتة فهو يعلم الغيب كما يعلم الشهادة ولا يتسلط عليه ولا يغلبه غيب حتى يعزب عن علمه بغيبته كما لا يتسلط عليه شهادة فهو عالم الغيب والشهادة لأنه كبير متعال.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ﴾ قال: ما لم يكن حملا، ﴿وَما تَزْدادُ﴾ قال: الذكر والأنثى جميعا.

• أقول: وقوله: الذكر والأنثى جميعا، يريد ما يزيد على الواحد من الواحد بدليل الرواية التالية.

ب. وفيه، عن محمد بن مسلم وغيره عنهما عليه السلام قال: ﴿ما تَحْمِلُ﴾ كل من أنثى أو ذكر ﴿وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ﴾ قال: ما لم يكن حملا ﴿وَما تَزْدادُ﴾ عن أنثى أو ذكر.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن حريز عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام: في قول الله عز وجل: ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ﴾ قال: الغيض كل حمل دون تسعة أشهر ﴿وَما تَزْدادُ﴾ كل شيء تزداد على تسعة أشهر فكلما رأت المرأة الدم الخالص في حملها من الحيض فإنها تزداد بعدد الأيام التي رأت في حملها من الدم.

• أقول: وهذا معنى آخر ونقل عن بعض قدماء المفسرين.

د. وفي المعاني، بإسناده عن ثعلبة بن ميمون عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ قال: الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان.

• أقول: ليس المراد من (ما لم يكن) المعدوم الذي ليس بشيء بل الأمر الذي بالقوة ما لم يدخل في ظرف الفعلية، وما ذكره عليه السلام بعض المصاديق وهو ظاهر.

٨. الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم:

المقطع [٨] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٠٨»:

١. ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾:

أ. السرب بفتحتين والسروب الذهاب في حدور وسيلان الدمع والذهاب في مطلق الطريق يقال سرب سربا وسروبا نحو مر مرا ومرورا، كذا في المفردات، فالسارب هو الذاهب في الطريق المعلن بنفسه.

ب. والآية كالتفريع على الآية السابقة أي إذا كان الله سبحانه عالما بالغيب والشهادة على سواء فسواء منكم من أسر القول ومن جهر به أي بالقول والله سبحانه يعلم بقولهما ويسمع حديثهما من غير أن يخفى عليه إسرار من أسر بقوله، وسواء منكم من هو مستخف بالليل يستمد بظلمة الليل وإرخاء سدولها لأن يخفى من أعين الناظرين ومن هو سارب بالنهار ذاهب في طريقه متبرز غير مخف لنفسه فالله يعلم بهما من غير أن يخفى المستخفي بالليل بمكيدته.

٢. ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ[تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وبيان حقيقة المعقبات]، خلاصته:

أ. بيان أن الضمائر في الآية تعود على الإنسان المذكور في الآية السابقة، وأن المعقبات هي ملائكة موكلة بحفظ الإنسان في مسيره إلى الله.

ب. توضيح أن الإنسان ليس مجرد بدن، بل هو نفس وبدن، والمعقبات تحفظ الإنسان من جميع الجهات الجسمانية والروحية.

ج. إثبات أن المعقبات تحفظ الإنسان بأمر الله ومن أمر الله، أي أن حفظها وفناؤها جميعاً بإذن الله وتقديره.

د. بيان أن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ في موضع التعليل، وأن تغيير النعم مرتبط بتغيير الحالة النفسية من شكر إلى كفر أو من طاعة إلى معصية.

هـ. توضيح أن التلازم بين تغير الحالة النفسية وتغيير النعم إنما يتم في النوع الإنساني، لا في الشخص دائماً، لأن الله يعفو عن كثير من السيئات.

و. الرد على الأقوال المختلفة في تفسير الآية، وبيان أن التحقيق هو ما يقتضيه السياق القرآني.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس: أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله ﷺ فانتهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه فقال عامر ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال النبي ﷺ: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم قال: أتجعل لي إن أسلمت الأمر من بعدك؟ قال: ليس لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل، قال: فاجعل لي الوبر ولك المدر فقال النبي ﷺ: لا، فلما قفى من عنده قال: لأملأنها عليك خيلا ورجالا، قال النبي ﷺ: يمنعك الله، فلما خرج أربد وعامر قال عامر: يا أربد إني سألهي محمدا عنك بالحديث فأضربه بالسيف فإن الناس إذا قتلت محمدا لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب فسنعطيهم الدية فقال أربد: افعل، فأقبلا راجعين فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك فقام منه فخليا إلى الجدار ووقف معه عامر يكلمه وسل أربد السيف فلما وضع يده على سيفه يبست على قائم السيف فلا يستطيع سل سيفه وأبطأ أربد على عامر بالضرب فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع فانصرف عنهما، وقال عامر لأربد: ما لك حشمت قال: وضعت يدي على قائم السيف فيبست، فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بحرة رقم نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقال: أشخصا يا عدوي الله لعنكما الله ووقع بهما، فقال عامر: من هذا يا سعد؟ فقال سعد: هذا أسيد بن حضير الكتائب، فقال: أما والله إن كان حضير صديقا لي، حتى إذا كان بالرقم أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريب أرسل الله عليه قرحة، فأدركه الموت فيها فأنزل الله: ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى﴾ إلى قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمدا ﷺ، ثم ذكر أربد وما قتله فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ﴾

• أقول: وروي ما في معناه عن الطبري وأبي الشيخ عن ابن زيد وفي آخره: وقال لبيد في أخيه أربد وهو يبكيه.

أخشى على أربد الحتوف ولا... أرهب نوء السماء والأسد

فجعني الرعد والصواعق بالفارس... يوم الكريهة النجد

• وما تذكره الرواية من نزول هذه الآيات في القصة لا يلائم سياق آيات السورة الظاهر في كونها مكية بل لا يناسب سياق نفس الآيات أيضا على ما مر من معناها.

ب. أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن علي: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ قال: ليس من عبد إلا ومعه ملائكة، يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى في بئر، أو يأكله سبع أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر.

• أقول: وروي أيضا ما في معناه عن أبي داود في القدر وابن أبي الدنيا وابن عساكر عنه، وروي ما في معناه عن الصادقين عليه السلام.

ج. وفي تفسير العياشي، عن فضيل بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام: قال حدثنا هذه الآية: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية قال: من المقدمات المؤخرات، المعقبات الباقيات الصالحات.

• أقول: ظاهره أن الباقيات الصالحات من مصاديق المعقبات المذكورة في الآية تحفظ صاحبها من سوء القضاء ولا تحفظه إلا بالملائكة الموكلة عليها فيرجع معناه إلى ما قدمناه في بيان الآية، ويمكن أن تكون المقدمات المؤخرات نفس الباقيات الصالحات ورجوعه إلى ما قدمناه ظاهر.

د. وفيه، عن أبي عمرو المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن أبي كان يقول: إن الله قضى قضاء حتما، لا ينعم على عبد بنعمة، فسلبها إياه قبل أن يحدث العبد ما، يستوجب بذلك الذنب سلب تلك النعمة، وذلك قول الله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ، حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾

هـ. وفيه، عن أحمد بن محمد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: في قول الله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ، حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً، فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ فصار الأمر إلى الله تعالى.

• أقول: إشارة إلى ما قدمناه من معنى الآية.

و. وفي المعاني، بإسناده عن عبد الله بن الفضل عن أبيه قال، سمعت أبا خالد الكابلي يقول: سمعت زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقول: الذنوب التي تغير النعم، البغي على الناس والزوال عن العادة في الخير، واصطناع المعروف وكفران النعم وترك الشكر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ، حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾

٩. البرق والسحاب والرعد والصواعق آيات الله:

المقطع [٩] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣١٦»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ﴾:

أ. السحاب بفتح السين جمع سحابة بفتحها ولذلك وصف بالثقال، والإراء إظهار ما من شأنه أن يحس بالبصر للمبصر ليبصره أو جعل الإنسان على صفة الرؤية والإبصار، والتقابل بين قوله: ﴿يُرِيكُمُ﴾ وقوله: ﴿يُنْشِئُ﴾ يؤيد المعنى الأول.

ب. ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ مفعول له أي لتخافوا وتطمعوا، ويمكن أن يكون مصدرين بمعنى الفاعل حالين من ضمير ﴿يُرِيكُمُ﴾ أي خائفين وطامعين، والمعنى: هو الذي يظهر لعيونكم البرق ليظهر فيكم صفتا الخوف والطمع كما أن المسافر يخافه والحاضر يطمع فيه، وأهل البحر يخافونه وأهل البر يطعمون فيه ويخاف صاعقته ويطمع في غيثه، ويخلق بإنشائه السحابات التي تثقل بالمياه التي تحملها، وفي ذكر آية البرق بالإراءة وآية السحاب بالإنشاء لطف ظاهر.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ﴾، الصواعق جمع صاعقة وهو القطعة النارية النازلة من السماء عن برق ورعد، والجدل المفاوضة والمنازعة في القول على سبيل المغالبة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله، والمحال بكسر الميم مصدر ماحله يماحله إذا ماكره وقاواه ليتبين أيهما أشد وجادله لإظهار مساويه ومعايبه فقوله: ﴿وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ﴾ معناه، والله أعلم، أن الوثنيين، وإليهم وجه الكلام في إلقاء هذه الحجج، يجادلون في ربوبيته تعالى بتلفيق الحجة على ربوبية أربابهم كالتمسك بدأب آبائهم والله سبحانه شديد المماحلة لأنه عليم بمساويهم ومعايبهم قدير على إظهارها وفضاحتهم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن الحسن بن فضال عن الرضا عليه السلام: في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ قال: خوفا للمسافر وطمعا للمقيم.

ب. وفي تفسير النعماني، عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ

الْمِحالِ﴾ يريد المكر.

ج. وفي أمالي الشيخ، بإسناده عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ بعث رجلا إلى فرعون من فراعنة العرب، يدعوه إلى الله عز وجل فقال للرسول: أخبرني عن هذا الذي تدعوني إليه، أمن فضة هو أم من ذهب أم من حديد؟ فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره بقوله فقال النبي ﷺ: ارجع إليه فادعه قال: يا نبي الله إنه اعتاص من ذلك، قال: ارجع إليه فرجع فقال كقوله فبينا هو يكلمه، إذ رعدت سحابة رعدة فألقت على رأسه صاعقة، ذهبت بقحف رأسه فأنزل الله جل ثناؤه ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ، وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ﴾

• أقول: الكلام في آخره كالكلام في آخر ما مر من قصة عامر وأربد ويزيد هذا الخبر أن قوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ﴾ بعض من آية ولا وجه لتقطيع الآيات في النزول.

١٠. دعوة الحق لله والذين يدعون من دونه لا يستجيبون:

المقطع [١٠] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣١٧»:

١. ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الدعاء والدعوة توجيه نظر المدعو إلى الداعي ويتأتى غالبا بلفظ أو إشارة، والاستجابة والإجابة إقبال المدعو على الداعي عن دعائه، وأما اشتمال الدعاء على سؤال الحاجة واشتمال الاستجابة على قضائها فذلك غاية متممة لمعنى الدعاء والاستجابة غير داخلة في مفهوميهما.

ب. نعم: الدعاء إنما يكون دعاء حقيقة إذا كان المدعو ذا نظر يمكن أن يوجه إلى الداعي وذا جدة وقدرة يمكنه بهما استجابة الدعاء وأما دعاء من لا يفقه أو يفقه ولا يملك ما ترفع به الحاجة فليس بحق الدعاء وإن كان في صورته.

ج. ولما كانت الآية الكريمة قرر فيها التقابل بين قوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ﴾ وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلخ، الذي يذكر أن دعاء غيره خال عن الاستجابة ثم يصف دعاء الكافرين بأنه في ضلال علمنا بذلك أن المراد بقوله: ﴿دَعْوَةُ الْحَقِ﴾ الدعوة الحقة غير الباطلة وهي الدعوة التي يسمعها

المدعو ثم يستجيبها البتة، وهذا من صفاته تعالى وتقدس فإنه سميع الدعاء قريب مجيب وهو الغني ذو الرحمة وقد قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فأطلق ولم يشترط في الاستجابة إلا أن تتحقق هناك حقيقة الدعاء وأن يتعلق ذلك الدعاء به تعالى لا غير.

د. فلفظة دعوة الحق من إضافة الموصوف إلى الصفة أو من الإضافة الحقيقة بعناية أن الحق والباطل كأنهما يقتسمان الدعاء فقسم منه للحق وهو الذي لا يتخلف عن الاستجابة، وقسم منه للباطل وهو الذي لا يهتدي إلى هدف الإجابة كدعاء من لا يسمع أو لا يقدر على الاستجابة.

هـ. فهو تعالى لما ذكر في الآيات السابقة أنه عليم بكل شيء وأن له القدرة العجيبة ذكر في هذه الآية أن له حقيقة الدعاء والاستجابة فهو مجيب الدعاء كما أنه عليم قدير، وقد ذكر ذلك في الآية بطريقي الإثبات والنفي أعني إثبات حق الدعاء لنفسه ونفيه عن غيره.

• أما الأول فقوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ﴾ وتقديم الظرف يفيد الحصر ويؤيده ما بعده من نفيه عن غيره.

• وأما الثاني فقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ﴾ وقد أخبر فيه أن الذين يدعوهم المشركون من دون الله لا يستجيبون لهم بشيء وقد بين ذلك في مواضع من كلامه فإن هؤلاء المدعوين إما أصنام يدعوهم عامتهم وهي أجسام ميتة لا شعور فيها ولا إرادة، وإما أرباب الأصنام من الملائكة أو الجن وروحانيات الكواكب والبشر كما ربما يتنبه له خاصتهم فهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فكيف بغيرهم ولله الملك كله وله القوة كلها فلا مطمع عند غيره تعالى.

٢. ثم استثنى من عموم نفي الاستجابة صورة واحدة فقط وهي ما يشبه مورد المثل المضروب بقوله: ﴿كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ﴾:

أ. فإن الإنسان العطشان إذا أراد شرب الماء كان عليه أن يدنو من الماء ثم يبسط كفيه فيغترفه ويتناوله ويبلغ فاه ويرويه وهذا هو حق الطلب يبلغ بصاحبه بغيته في هدى ورشاد، وأما الظمآن البعيد من الماء يريد الري لكن لا يأتي من أسبابه بشيء غير أنه يبسط إليه كفيه يبلغ فاه فليس يبلغ البتة فاه وليس

له من طلبه إلا صورته فقط.

ب. ومثل من يدعو غير الله سبحانه مثل هذا الباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وليس له من الدعاء إلا صورته الخالية من المعنى واسمه من غير مسمى فهؤلاء المدعوون من دون الله لا يستجيبون للذين يدعونهم بشيء ولا يقضون حاجتهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ويقضي حاجته أي لا يحصل لهم إلا صورة الدعاء كما لا يحصل لذلك الباسط إلا صورة الطلب ببسط الكفين.

ج. ومن هنا يعلم أن هذا الاستثناء ﴿إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ﴾، لا ينتقض به عموم النفي في المستثنى منه ولا يتضمن إلا صورة الاستثناء فهو يفيد تقوية الحكم في جانب المستثنى منه فإن مفاده أن الذين يدعون من دون الله لا يستجاب لهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه إلى الماء ولن يستجاب له، وبعبارة أخرى لن ينالوا بدعائهم إلا أن لا ينالوا شيئا أي لن ينالوا شيئا البتة.

د. وهذا من لطيف كلامه تعالى ويناظر من وجه قوله تعالى الآتي: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ وآكد منه كما سيجيء إن شاء الله.

٣. وقد تبين بما تقدم:

أ. أولا: أن قوله: ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ المراد به حق الدعاء وهو الذي يستجاب ولا يرد البتة، وأما قول بعضهم: إن المراد كلمة الإخلاص شهادة أن لا إله إلا الله فلا شاهد عليه من جهة السياق.

ب. وثانيا: أن تقدير قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ إلخ بإظهار الضمائر: الذين يدعوهم المشركون من دون الله لا يستجيب أولئك المدعوون للمشركين بشيء.

ج. وثالثا: أن الاستثناء من قوله: ﴿لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ وفي الكلام حذف وإيجاز والمعنى: لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينيلونهم شيئا إلا كما يستجاب لباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وينال من بسطه، ولعل الاستجابة مضمن معنى النيل ونحوه.

٤. ثم أكد سبحانه الكلام بقوله: ﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ مع ما فيه من الإشارة إلى حقيقة أصيلة أخرى وهي أنه لا غرض لدعاء إلا الله سبحانه فإنه العليم القدير والغني ذو الرحمة فلا طريق له إلا طريق التوجه إليه تعالى فمن دعا غيره وجعله الهدف لدعائه فقد الارتباط بالغرض والغاية وخرج بذلك عن الطريق فضل دعاؤه فإن الضلال هو الخروج عن الطريق وسلوك ما لا يوصل إلى المطلوب.

١١. لله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً:

المقطع [١١] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٢٠»:

١. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ السجود الخرور على الأرض بوضع الجبهة أو الذقن عليها قال تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً﴾ [الإسراء: ١٠٧]، والواحدة منه سجدة:

أ. والكره ما يأتي به الإنسان من الفعل بمشقة فإن حمل عليه من خارج فهو الكره بفتح الكاف وما حمل عليه من داخل نفسه فهو الكره بضمها والطوع يقابل الكره مطلقا.

ب. وقال الراغب: (الغدوة والغداة من أول النهار، وقوبل في القرآن الغدو بالآصال نحو قوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ وقوبل الغداة بالعشي قال: ﴿بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ﴾) والغدو جمع غداة كقنى وقناة وقال في المجمع: (الآصال جمع أصل، بضمتين، وأصل جمع أصيل فهو جمع الجمع مأخوذ من الأصل فكأنه أصل الليل الذي ينشأ منه وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس)

ج. والأعمال الاجتماعية التي يؤتى بها لأغراض معنوية كالتصدر الذي يمثل به الرئاسة والتقدم الذي يمثل به السيادة والركوع الذي يظهر به الصغر والصغار والسجود الذي يظهر به نهاية تذلل الساجد وضعته قبال تعزز المسجود له واعتلائه تسمى غاياتها بأساميها كما تسمى نفسها فكما يسمى التقدم تقدما كذلك تسمى السيادة تقدما وكما أن الانحناء الخاص ركوع كذلك الصغر والصغار الخاص ركوع وكما أن الخرور على الأرض سجود كذلك التذلل سجود كل ذلك بعناية أن الغاية من العمل هي المطلوبة بالحقيقة دون ظاهر هيئة العمل.

د. وهذه النظرة هي التي يعتبرها القرآن الكريم في نسبة السجود وما يناظره من القنوت والتسبيح والحمد والسؤال ونحو ذلك إلى الأشياء كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: ٤٩]

هـ. والفرق بين هذه الأمور المنسوبة إلى الأشياء الكونية وبينها وهي واقعة في ظرف الاجتماع الإنساني أن الغايات موجودة في القسم الأول بحقيقة معناها بخلاف القسم الثاني فإنها إنما توجد فيها بنوع من الوضع والاعتبار فذلة المكونات وضعتها تجاه ساحة العظمة والكبرياء ذلة وضعة حقيقية بخلاف الخرور على الأرض ووضع الجبهة عليها فإنه ذلة وضعة بحسب الوضع والاعتبار ولذلك ربما يتخلف.

٢. فقوله تعالى: ﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. أخذ بما تقدم من النظر ولعله إنما خص أولي العقل بالذكر حيث قال: ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع شمول هذه الذلة والضعة جميع الموجودات كما في آية النحل المتقدمة وكما يشعر به ذيل الآية حيث قال: ﴿وَظِلالُهُمْ﴾، لأن الكلام في السورة مع المشركين والاحتجاج عليهم فكان في ذلك بعثا لهم أن يسجدوا لله طوعا كما يسجد له من دونهم من عقلاء السماوات والأرض طوعا حتى أن ظلالهم تسجد له، ولذلك أيضا تعلقت العناية بذكر سجود الظلال ليكون آكد في استنهاضهم فافهمه.

ب. ثم إن هذا التذلل والتواضع، الذي هو من عامة الموجودات لساحة ربهم عز وعلا، خضوع ذاتي لا ينفك عنها ولا يتخلف فهو بالطوع البتة وكيف لا وليس لها من نفسها شيء حتى يتوهم لها كراهة أو امتناع وجموح وقد قال تعالى: ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]

ج. فالعناية المذكورة توجب الطوع لجميع الموجودات في سجودهم لله تعالى وتقطع دابر الكره عنهم البتة غير أن هناك عناية أخرى ربما صححت نسبة الكره إلى بعضها في الجملة وهي أن بعض هذه الأشياء واقعة في مجتمع التزاحم مجهزة بطباع ربما عاقتها عن البلوغ إلى غاياتها ومبتغياتها أسباب أخر وهي الأشياء المستقرة في عالمنا هذا عالم المادة التي ربما زوحمت في مآربها ومنعتها عن البلوغ إلى مقتضيات طباعها موانع متفرقة ولا شك أن مخالف الطبع مكروه كما أن ما يلائمه مطلوب.

د. فهذه الأشياء ساجدة لله خاضعة لأمره في جميع الشئون الراجعة إليها غير أنها فيما يخالف طباعها كالموت والفساد وبطلان الآثار والآفات والعاهات ونحو ذلك ساجدة له كرها، وفيما يلائم طباعها كالحياة والبقاء والبلوغ إلى الغايات والظفر بالكمال ساجدة له طوعا كالملائكة الكرام الذين لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

٣. ومما تقدم يظهر:

أ. فساد قول بعضهم إن المراد بالسجدة هو الحقيقي منها يعني الخرور على الأرض بوضع الجبهة عليها مثلا فهم جميعا ساجدون غير أن المؤمن يسجد طوعا والكافر يسجد خوفا من السيف وقد نسب القول به إلى الحسن.

ب. وكذا قول بعض: إن المراد بالسجود الخضوع فله يخضع الكل إلا أن ذلك من المؤمن خضوع طوع ومن الكافر خضوع كره لما يحل به من الآلام والأسقام ونسب إلى الجبائي.

ج. وكذا قول آخرين: إن المراد بالآية خضوع جميع ما في السماوات والأرض من أولي العقل وغيرهم والتعبير بلفظ يخص أولي العقل للتغليب.

٤. وأما قوله: ﴿وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾:

أ. ففيه إلحاق أظلال الأجسام الكثيفة بها في السجود فإن الظل وإن كان عدميا من حجب الجسم بكثافته عن نفوذ النور إلا أن له آثارا خارجية وهو يزيد وينقص في طرفي النهار ويختلف اختلافا ظاهرا للحس فله نحو من الوجود ذو آثاره يخضع في وجوده وآثاره لله ويسجد له.

ب. وهي تسجد لله سبحانه سجدة طوع في جميع الأحيان، وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لا لما قيل: إن المراد بهما الدوام لأنه يذكر مثل ذلك للتأبيد إذ لو أريد سجودها الدائم لكان الأنسب به أن يقال: بأطراف النهار حتى يعم جميع ما قبل الظهر وما بعده كما وقع في قوله: ﴿وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ [طه: ١٣٠]

ج. بل النكتة فيه، والله أعلم، أن الزيادة والنقيصة دائمتان للأظلال في الغداة والأصيل فيمثلان للحس السقوط على الأرض وذلة السجود، وأما وقت الظهيرة وأوساط النهار فربما انعدمت الأظلال فيها أو نقصت وكانت كالساكنة لا يظهر معنى السجدة منها ذلك الظهور.

د. ولا شك في أن سقوط الأظلال على الأرض وتمثيلها لخرور السجود منظور إليه في نسبة السجود إلى الأظلال في تفيؤها، وليس النظر مقصورا على مجرد طاعتها التكوينية في جميع أحوالها وآثارها والدليل على ذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] فإن العناية بذلك ظاهرة فيه.

هـ. وليس ذلك قولا شعريا وتصويرا تخييليا يتوسل به في الدعوة الحقة في كلامه تعالى، وحاشاه، وقد نص أنه ليس بشعر بل الحقائق المتعالية عن الأوهام الثابتة عند العقل السليم البعيدة بطباعها عن الحس إذا صادفت موارد أمكن أن يظهر فيها للحس نوع ظهور ويتمثل لها بوجه كان من الحري أن يستمد به في تعليم الأفهام الساذجة والعقول البسيطة ونقلها من مرتبة الحس والخيال إلى مرحلة العقل السليم المدرك للحقائق من المعارف فإنه من الحس والخيال الحق المستظهر بالحقائق المؤيد بالحق فلا بأس بالركون إليه.

و. ومن هذا الباب عده تعالى ما يشاهد من الضلال المتفيئة من الأجسام المنتصبة بالغدو والآصال ساجدة لله سبحانه لما فيها من السقوط على الأرض كخرور السجود من أولي العقل.

ز. ومن هذا الباب أيضا ما تقدم من قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ حيث أطلق التسبيح على صوت الرعد الهائل الذي يمثل لسانا ناطقا بتنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين والثناء عليه لرحمته المبشر به بالريح والسحاب والبرق مع أن الأشياء قاطبة مسبحة بحمده بوجوداتها القائمة به تعالى المعتمدة عليه، وهذا تسبيح ذاتي منهم ودلالته دلالة ذاتية عقلية غير مرتبطة بالدلالات اللفظية التي توجد في الأصوات بحسب الوضع والاعتبار لكن الرعد بصوته الشديد الهائل يمثل للسمع والخيال هذا التسبيح الذاتي فذكره الله سبحانه بما له من الشأن لينتقل به الأذهان البسيطة إلى معنى التسبيح الذاتي الذي يقوم بذات كل شيء من غير صوت قارع ولا لفظ موضوع.

ح. ويقرب من هذا الباب ما تقدم في مفتتح السورة في قوله تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ الآية إن التمسك في مقام الاحتجاج عليه تعالى بالأمور المجهول أسبابها عند الحس ليس لأن سببيته تعالى مقصورة على هذا النوع من الموجودات والأمور المعلومة الأسباب في غنى عنه تعالى فإن القرآن الكريم ينص على عموم قانون السببية وأنه تعالى فوق الجميع بل لأن الأمور التي لا تظهر أسبابها على الحس لبادئ نظرة تنبه الأفهام البسيطة وتمثل لها الحاجة إلى سبب أحسن تمثيل فتنتزع إلى البحث عن أسبابها وينتهي البحث لا محالة إلى سبب أول هو الله سبحانه، وفي القرآن الكريم من ذلك شيء كثير.

ط. وبالجملة فتسمية سقوط ظلال الأشياء بالغدو والآصال على الأرض سجودا منها لله سبحانه

مبنية على تمثيلها في هذه الحال معنى السجدة الذاتية التي لها في ذواتها بمثال حسي ينبه الحس لمعنى السجدة الذاتية ويسهل للفهم البسيط طريق الانتقال إلى تلك الحقيقة العقلية.

ي. هذا هو الذي يعطيه التدبر في كلامه تعالى، وأما حمل هذه المعاني على محض الاستعارة الشعرية أو جعلها مجازا مثلا يراد به انقياد الأشياء لأمره تعالى بمعنى أنها توجد كما شاء أو القول بأن المراد بالظل هو الشخص فإن من يسجد يسجد ظله معه فإن هذه معان واهية لا ينبغي الالتفات إليها.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية: أما من يسجد من أهل السماوات طوعا فالملائكة، يسجدون لله طوعا، وأما من يسجد من أهل الأرض ممن ولد في الإسلام، فهو يسجد له طوعا، وأما من يسجد له كرها فمن جبر على الإسلام، وأما من لم يسجد فظله يسجد له بالغدو والآصال.

• أقول: ظاهر الرواية يخالف سياق الآية الكريمة فإن الآية مسوقة لبيان عموم قهره تعالى بعظمته وعلوه من في السماوات والأرض أنفسهم وأظلالهم وهي تنبئ عن سجودها له تعالى بحقيقة السجدة، وظاهر الرواية أن السجدة بمعنى الخرور ووضع الجبهة أو ما يشبه السجدة عامة موجودة إما فيهم وإما في ظلالهم فإن سجدوا حقيقة طوعا أو كرها فهي وإلا فسقوط ظلالهم على الأرض يشبه السجدة وهذا معنى لا جلالة فيه لله الكبير المتعال.

• على أنه لا يوافق العموم المتراءى من قوله: ﴿وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ وأوضح منه العموم الذي في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً للهِ وَهُمْ داخِرُونَ وَللهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]

١٢. الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار:

المقطع [١٢] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٢٤»:

١. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ

نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ الآية بما تشتمل على أمر النبي ﷺ بالاحتجاج على المشركين بمنزلة الفذلكة من الآيات السابقة:

أ. وذلك أن الآيات السابقة تبين بأوضح البيان أن تدبير السماوات والأرض وما فيهما من شيء إلى الله سبحانه كما أن خلقها منه وأنه يملك ما يفتقر إليه الخلق والتدبير من العلم والقدرة والرحمة وأن كل من دونه مخلوق مدبر لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا وينتج ذلك أنه الرب دون غيره.

ب. فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يسجل عليهم نتيجة بيانه السابق ويسألهم بعد تلاوة الآيات السابقة عليهم الكاشفة عن وجه الحق لهم بقوله: ﴿مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من هو الذي يملك السماوات والأرض وما فيهما ويدبر أمرها؟ ثم أمره أن يجيب هو نفسه عن السؤال ويقول: ﴿اللهُ﴾ لأنهم وهم مشركون معاندون يمتنعون عن الإقرار بتوحيد الربوبية وفي ذلك تلويح إلى أنهم لا يعقلون حجة ولا يفقهون حديثا.

ج. ثم استنتج بمعونة هذه النتيجة نتيجة ثانية بها يتضح بطلان شركهم أوضح البيان وهي أن مقتضى ربوبيته تعالى الثابتة بالحجج السابقة أنه هو المالك للنفع والضرر فكل من دونه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فكيف لغيره؟ فاتخاذ أرباب من دون الله أي فرض أولياء من دونه يلون أمر العباد ويملكون لهم نفعا وضرا في الحقيقة فرض لأولياء ليسوا بأولياء لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فكيف يملكون لغيرهم ذلك؟

٢. وهذا هو المراد بقوله مفرعا على السؤال السابق: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ أي فكيف يملكون لغيرهم ذلك: أي إذا كان الله سبحانه هو رب السماوات والأرض فقد قلتم باتخاذكم أولياء آلهة من دونه قولا يكذبه نفسه وهو عدم ولايتهم في عين ولايتهم وهو التناقض الصريح بأنهم أولياء غير أولياء وأرباب لا ربوبية لهم.

٣. وبالتأمل فيما قدمناه أن الآية بمنزلة الفذلكة من سابق البيانات يعود مفاد الآية إلى مثل قولنا: إذا تبين ما تقدم فمن رب السماوات والأرض إلا الله؟ أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون نفعا ولا ضرا؟ فالعدول عن التفريع إلى أمر النبي ﷺ بقوله: قل كذا وقل كذا وتكراره مرة بعد مرة إنما هو للتنزه عن خطابهم على ما بهم من قذارة الجهل والعناد وهذا من لطيف نظم القرآن.

٤. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ﴾ مثلان ضربهما الله سبحانه بعد تمام الحجة وإتمامها عليهم وأمر النبي ﷺ أن يضربهما لهم يبين بأحدهما حال المؤمن والكافر فالكافر بالحجة الحقة والآيات البينات غير المسلم لها أعمى والمؤمن بها بصير فالعاقل لا يسوي بينهما ببديهة عقله، ويبين بالثاني أن الكفر بالحق ظلمات كما أن الكافر الواقع فيها غير بصير والإيمان بالحق نور كما أن المؤمن الأخذ به بصير ولا يستويان البتة فمن الواجب على المشركين إن كان لهم عقول سليمة، كما يدعون، أن يسلموا للحق ويرفضوا الباطل ويؤمنوا بالله وحده.

٥. ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ في التعبير بقوله: ﴿جَعَلُوا﴾ و﴿عَلَيْهِمْ﴾ دون أن يقال جعلتم وعليكم دليل على أن الكلام مصروف عنهم إلى النبي ﷺ دون أن يؤمر بإلقائه إليهم.

٦. ثم العود في جواب هذا الاحتمال الذي يتضمنه قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى الأمر بإلقائه إليهم بقوله: ﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ دليل على أن السؤال إنما هو عن النبي ﷺ والمطلوب من إلقاء توحيد الخالق إليهم هو الإلقاء الابتدائي لا الإلقاء بنحو الجواب، وليس إلا لأنهم لا يقولون بخالق غير الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، [الزمر: ٣٨] وقد كرر تعالى نقل ذلك عنهم، فهؤلاء الوثنيون ما كانوا يرون لله سبحانه شريكا في الخلق والإيجاد وإنما كانوا ينازعون الإسلام في توحيد الربوبية لا في توحيد الألوهية بمعنى الخلق والإيجاد، وتسليمهم توحيد الخالق المبدع وقصر ذلك على الله يبطل قولهم بالشركاء في الربوبية وتتم الحجة عليهم لأن اختصاص الخلق والإيجاد بالله سبحانه ينفي استقلال الوجود والعلم والقدرة عن غيره تعالى ولا ربوبية مع انتفاء هذه النعوت الكمالية.

٧. ولذلك لم يبق لهم في القول بربوبية شركائهم مع الله سبحانه إلا أن ينكروا توحده تعالى في الخلق والإيجاد ويثبتوا بعد الخلق والإيجاد لآلهتهم وهم لا يفعلونه وهذا هو الموجب لذكره تعالى هذا الاحتمال لنبيه ﷺ من دون أن يخاطبهم به أو يأمره أن يخاطبهم.

٨. فكأنه تعالى إذ يقول: ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول لنبيه ﷺ: هؤلاء تمت عليهم الحجة في توحيد الربوبية من جهة اختصاصه تعالى بالخلق والإيجاد فلم يبق لهم إلا أن

يقولوا بشركة شركائهم في الخلق والإيجاد فهل هم قائلون بأن شركائهم خلقوا خلقا كخلقه ثم تشابه الخلق عليهم فقالوا بربوبيتهم إجمالا مع الله.

٩. ثم أمر النبي ﷺ أن يلقي إليهم ما يقطع دابر هذا الاحتمال فقال: ﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ والجملة صدرها دعوى دليلها ذيلها أي أنه تعالى واحد في خالقيته لا شريك له فيها، وكيف يكون له فيها شريك وله وحدة يقهر كل عدد وكثرة وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] بعض الكلام في معنى كونه تعالى هو الواحد القهار، وتبين هناك أن مجموع هاتين الصفتين ينتج صفة الأحدية.

١٠. وقد بان مما ذكرناه وجه تغيير السياق في قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ والإعراض عن سياق الخطاب السابق فتأمل في ذلك واعلم أن أكثر المفسرين اشتبه عليهم الحال في الحجج التي تقيمها الآيات القرآنية لإثبات ربوبيته تعالى وتوحيده فيها ونفي الشريك عنه فخلطوا بينها وبين ما أقيمت لإثبات الصانع فتنبه لذلك.

١٣. المطر والأودية والزبد والحق والباطل:

المقطع [١٣] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ﴾ [الرعد: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٣٤»:

١. ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في مجمع البيان: (الوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر، ومنه اشتقاق الدية لأنه جمع المال العظيم الذي يؤدى عن القتيل، والقدر اقتران الشيء بغيره من غير زيادة ولا نقصان والوزن يزيد وينقص فإذا كان مساويا فهو القدر، وقرأ الحسن بقدرها بسكون الدال، وهما لغتان يقال: أعطي قدر شبر وقدر شبر، والمصدر بالتخفيف لا غير)، قال: (والاحتمال رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له، ويقال: علا صوته على فلان فاحتمله ولم يغضبه، والزبد وضر الغليان وهو خبث الغليان ومنه زبد القدر وزبد السيل، والجفاء ممدود مثل الغثاء وأصله الهمز يقال: جفأ الوادي جفاء قال أبو زيد:

يقال: جفأت الرجل إذا صرعته وأجفأت القدر بزبدها إذا ألقيت زبدها عنها، قال الفراء: كل شيء ينضم بعضه إلى بعض فإنه يجيء على فعال مثل الحطام والقماش والغثاء والجفاء، والإيقاد إلقاء الحطب في النار استوقدت النار، واتقدت وتوقدت، والمتاع ما تمتعت به، والمكث السكون في المكان على مرور الزمان يقال: مكث ومكث، بفتح الكاف وضمها، وتمكث أي تلبث)

ب. وقال الراغب: (الباطل نقيض الحق وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه قال تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ﴾ وقد يقال ذلك في الاعتبار إلى المقال والفعال يقال: بطل بطولا وبطلا بطلانا وأبطله غيره قال عز وجل: ﴿وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ﴾)

ج. فبطلان الشيء هو أن يقدر للشيء نوع من الوجود ثم إذا طبق على الخارج لم يثبت على ما قدر ولم يطابقه الخارج والحق بخلافه فالحق والباطل يتصف بهما أولا الاعتقاد ثم غيره بعناية ما، فالقول نحو السماء فوقنا والأرض تحتنا يكون حقا لمطابقة الواقع إياه إذا فحص عنه وطبق عليه، ولقولنا: السماء تحتنا والأرض فوقنا كان باطلا لعدم ثباته في الواقع على ما قدر له من الثبات، والفعل يكون حقا إذا وقع على ما قدر له من الغاية أو الأمر كالأكل للشبع والسعي للرزق وشرب الدواء للصحة مثلا إذا أثر أثره وبلغ غرضه، ويكون باطلا إذا لم يقع على ما قدر عليه من الغاية أو الأمر والشيء الموجود في الخارج حق من جهة أنه موجود كما اعتقد كوجود الحق تعالى، والشيء غير الموجود وقد اعتقد له الوجود باطل وكذا لو كان موجودا لكن قدر له من خواص الوجود ما ليس له كتقدير الاستقلال والبقاء للموجود الممكن فالموجود الممكن باطل من جهة عدم الاستقلال أو البقاء المقدر له وإن كان حقا من جهة أصل الوجود قال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل...وكل نعيم لا محالة زائل

٢. والآية الكريمة من غرر الآيات القرآنية تبحث عن طبيعة الحق والباطل فتصف بدء تكونهما وكيفية ظهورهما والآثار الخاصة بكل منهما وسنة الله سبحانه الجارية في ذلك ولن تجد لسنة الله تحويلا ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٣. بين تعالى ذلك بمثل ضربه للناس، وليس بمثلين كما قاله بعضهم ولا بثلاثة أمثال كما ذكره

آخرون كما سنشير إليه إن شاء الله وإنما هو مثل واحد ينحل إلى أمثال فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً﴾ وقوله: ﴿أَنْزَلَ﴾ فعل فاعله هو الله سبحانه لم يذكر لوضوحه، وتنكير ﴿السَّماءِ﴾ للدلالة على النوع وهو الماء الخالص الصافي يعني نفس الماء من غير أن يختلط بشيء أو يشوبه تغير، وتنكير ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ للدلالة على اختلافها في الكبر والصغر والطول والقصر وتغايرها في السعة والوعي، ونسبة السيلان إلى الأودية نسبة مجازية نظير قولنا: جرى الميزاب وتوصيف الزبد بالرابي لكونه طافيا يعلو سيل دائما وهذا كله بدلالة السياق، وإنما مثل بالسيل لأن احتمال الزبد الرابي فيه أظهر.

٤. والمعنى: أنزل الله سبحانه من السماء وهي جهة العلو ماء بالأمطار فسالت الأدوية الواقعة في محل الأمطار المختلفة بالسعة والضيق والكبر والصغر بقدرها أي كل بقدره الخاص به فالكبير بقدره والصغير بقدره فاحتمل السيل الواقع في كل واحد من الأودية المختلفة زبدا طافيا عاليا هو الظاهر على الحس يستر الماء سترا.

٥. ثم قال تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ من نشوية وما يوقدون عليه أنواع الفلزات والمواد الأرضية القابلة للإذابة المصوغة منها آلات الزينة وأمتعة الحياة التي يتمتع بها والمعنى ويخرج من الفلزات والمواد الأرضية التي يوقدون عليها في النار طلبا للزينة كالذهب والفضة أو طلبا لمتاع كالحديد وغيره يتخذ منه الآلات والأدوات، زبد مثل الزبد الذي يربو السيل يطفو على المادة المذابة ويعلوه.

٦. ثم قال تعالى: ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ﴾:

أ. أي يثبت الله الحق والباطل نظير ما فعل في السيل وزبده وما يوقدون عليه في النار وزبده.

ب. فالمراد بالضرب، والله أعلم، نوع من التثبيت من قبيل قولنا: ضربت الخيمة أي نصبتها وقوله: ضربت عليهم الذلة والمسكنة أي أوقعت وأثبتت وضرب بينهم بسور أي أوجد وبني، واضرب لهم طريقا في البحر أي افتح وثبت وإلى هذا المعنى أيضا يعود ضرب المثل لأنه تثبيت ونصب لما يماثل الممثل حتى يتبين به حاله، والجميع في الحقيقة من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللازم فإن الضرب وهو إيقاع شيء على شيء بقوة وعنف لا ينفك عادة عن تثبيت أمر في ما وقع عليه الضرب كثبوت الوتد في الأرض بضرب المطرقة وحلول الألم في جسم الحيوان بضربه فقد أطلق الضرب وهو الملزوم وأريد التثبيت وهو الأمر

اللازم.

٧. ومن هنا يظهر أن قول المفسرين إن في الجملة حذفا أو مجازا والتقدير كذلك يضرب الله مثل الحق والباطل أو مثل الحق ومثل الباطل، على اختلاف تفسيرهم، في غير محله:

أ. فإنه تكلف من غير موجب ولا دليل يدل عليه.

ب. على أنه لو أريد به ذلك لكان موضعه المناسب له هو آخر الكلام وقد وقع فيه قوله تعالى: ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ﴾ وهو يغني عنه.

ج. على أن ما ذكروه من المعنى يرجع إلى ما ذكرناه بالآخرة فإن كون حديث السيل والزبد أو ما يوقد عليه والزبد مثلا للحق والباطل يوجب كون ثبوت الحق نظير ثبوت السيل وثبوت ما يوقد عليه، وكون ثبوت الباطل نظير ثبوت الزبد فلا موجب للتقدير مع استقامة المعنى بدونه.

٨. ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. جمع بين الزبدين أعني زبد السيل وزبد ما يوقدون عليه وقد كانا متفرقين في الذكر لاشتراك الجميع فيما يذكر من الخاصة وهو أنه يذهب جفاء، ولذا قدمنا آنفا أن الآية تتضمن مثلا واحدا وإن انحل إلى غير واحد من الأمثال.

ب. وقد عدل عن ذكر الماء وغيره إلى قوله: ﴿وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ للدلالة على خاصة يختص بها الحق وهو أن الناس ينتفعون به وهو الغاية المطلوبة لهم.

ج. والمعنى: فأما الزبد الذي كان يطفو على السيل ويعلوه أو يخرج مما يوقدون عليه في النار فيذهب جفاء ويصير باطلا متلاشيا، وأما الماء الخالص أو العين الأرضية المصوغة وفيهما انتفاع الناس وتمتعهم في معاشهم فيمكث في الأرض ينتفع به الناس.

٩. ثم قال تعالى: ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ﴾:

أ. وختم به القول أي إن الأمثال المضروبة للناس في كلامه تعالى يشابه المثل المضروب في هذه الآية في أنها تميز الحق من الباطل وتبين للناس ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم.

ب. ولا يبعد أن تكون الإشارة بقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ إلى ما ذكره من أمر نزول المطر وجريان الأدوية بسيولها المزبدة وإيقاد المواد الأرضية وخروج زبدها، أعني أن تكون الإشارة إلى نفس هذه الحوادث

الخارجية والتكونات العينية لا القول فيدل على أن هذه الوقائع الكونية والحوادث الواقعة في عالم الشهادة أمثال مضروبة تهدي أولي النهي والبصيرة إلى ما في عالم الغيب من الحقائق كما أن ما في عالم الشهادة آيات دالة على ما في عالم الغيب على ما تكرر ذكره في القرآن الكريم، ولا كثير فرق بين كون هذه المشهودات أمثالا مضروبة أو آيات دالة وهو ظاهر.

١٠. وقد تبين بهذا المثل المضروب في الآية أمور هي من كليات المعارف الإلهية:

أ. أحدها: أن الوجود النازل من عنده تعالى على الموجودات الذي هو بمنزلة الرحمة السماوية والمطر النازل من السحاب على ساحة الأرض:

• خال في نفسه عن الصور والأقدار وإنما يتقدر من ناحية الأشياء أنفسها كماء المطر الذي يحتمل من القدر والصورة وما يطرأ عليه من ناحية قوالب الأودية المختلفة في الأقدار والصور فإنما تنال الأشياء من العطية الإلهية بقدر قابليتها واستعداداتها وتختلف باختلاف الاستعدادات والظروف والأوعية.

• وهذا أصل عظيم يدل عليه أو يلوح إليه آيات كثيرة من كلامه تعالى كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ [الزمر: ٦] ومن الدليل عليه جميع آيات القدر.

• ثم إن هذه الأمور المسماة بالأقدار وإن كانت خارجة عن الإفاضة السماوية مقدرة لها لكنها غير خارجة عن ملك الله سبحانه وسلطانه ولا واقعة من غير إذنه وقد قال تعالى، ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿بَلْ للهِّ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ [الآية: ٣١] من السورة وبانضمام هذه الآيات إلى الآيات السابقة يظهر أصل آخر أدق معنى وأوسع مصداقا.

ب. وثانيها: أن تفرق هذه الرحمة السماوية في أودية العالم وتقدرها بالأقدار المقارنة لها:

• لا ينفك عن أخباث وفضولات تعلوها وتظهر منها غير أنها باطلة أي زائلة غير ثابتة بخلاف تلك الرحمة النازلة المتقدرة بالأقدار فإنها باقية ثابتة أي حقة وعند ذلك ينقسم ما في الوجود إلى حق وهو الثابت الباقي وباطل وهو الزائل غير الثابت.

• والحق من الله سبحانه والباطل ليس إليه وإن كان بإذنه قال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠] وقال: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾،: [ص: ٢٧] فهذه الموجودات يشتمل كل

منها على جزء حق ثابت غير زائل سيعود إليه ببطلان ما هو الباطل منها كما قال: ﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣] وقال: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ [يونس: ٨٢] وقال: ﴿إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١] وقال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]

ج. وثالثها: أن من حكم الحق أنه لا يعارض حقا غيره ولا يزاحمه:

- بل يمده وينفعه في طريقه إلى كماله ويسوقه إلى ما يسلك إليه من السعادة، يدل على ذلك تعليقه البقاء والمكث في الآية على الحق الذي ينفع الناس.
- وليس المراد بنفي التعارض ارتفاع التنازع والتزاحم من بين الأشياء في عالمنا المشهود فإنما هو دار التنازع والتزاحم لا يرى فيه إلا نار يخمدها ماء وماء تفنيها نار وأرض يأكلها نبات ونبات يأكله حيوان ثم الحيوان يأكل بعضه بعضا ثم الأرض يأكل الجميع بل المراد أن هذه الأشياء على ما بينها من الافتراس والانتهاش تتعاون في تحصيل الأغراض الإلهية ويتسبب بعضها ببعض للوصول إلى مقاصدها النوعية فمثلها مثل القدوم والخشب فإنهما مع تنازعهما يتعاونان في خدمة النجار في صنعة الباب مثلا، ومثل كفتي الميزان فإنهما في تعارضهما وتصارعهما يطيعان من بيده لسان الميزان لتقدير الوزن، وهذا بخلاف الباطل كوجود كلال في القدوم أو بخس في المثقال فإنه يعارض الغرض الحق ويخيب السعي فيفسد من غير إصلاح ويضر من غير نفع.
- ومن هذا الباب غالب آيات التسخير في القرآن كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فكل شيء منها يفعل ما يقتضيه طبعه غير أنه يسلك في ذلك إلى تحصيل ما أراده الله سبحانه من الأمر.

١١. وهذه الأصول المستفادة من الآية الكريمة هي المنتجة لتفاصيل أحكام الصنع والإيجاد، ولئن تدبرت في الآيات القرآنية التي تذكر الحق والباطل وأمعنت فيها رأيت عجبا.

١٢. واعلم أن هذه الأصول كما تجري في الأمور العينية والحقائق الخارجية كذلك تجري في العلوم والاعتقادات فمثل الاعتقادات الحق في نفس المؤمن مثل الماء النازل من السماء الجاري في الأودية على اختلاف سعتها وينتفع به الناس وتحيى قلوبهم ويمكث فيهم الخير والبركة، ومثل الاعتقاد الباطل في نفس

الكافر كمثل الزبد الذي يربو السيل لا يلبث دون أن يذهب جفاء ويصير سدى، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

١٣. أحاديث وآثار: في الاحتجاج، عن أمير المؤمنين عليه السلام:، في حديث يذكر فيه أحوال الكفار، قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ الزبد في هذا الموضع كلام الملحدين، الذين أثبتوه في القرآن، فهو يضمحل ويبطل ويتلاشى عند التحصيل، والذي ينفع الناس منه، فالتنزيل الذي لا يأتيه الباطل، من بين يديه ولا من خلفه والقلوب تقبله، والأرض في هذا الموضع هي محل العلم وقراره.

• أقول: المراد بالتنزيل المراد الحقيقي من كلامه تعالى، وبكلام الملحدين المثبت في القرآن هو ما فسروه برأيهم، وما ذكره عليه السلام بعض المصاديق والآية أعم مدلولا كما مر.

١٤. المستجيبون لله لهم الحسنى والكافرون لهم سوء الحساب:

المقطع [١٤] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٤٠»:

١. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. المهاد الفراش الذي يوطأ لصاحبه والمكان الممهد الموطأ وسميت جهنم مهادا لأنها مهدت لاستقرارهم فيها لكفرهم وأعمالهم السيئة.

ب. والآية وما بعدها من الآيات التسعة متفرعة على المثل المضروب في الآية السابقة، كما تقدمت الإشارة إليه يبين الله سبحانه فيها آثار الاعتقاد الحق والإيمان به والاستجابة لدعوته، وآثار الاعتقاد الباطل والكفر به وعدم استجابة دعوته ويشهد بذلك سياق الآيات فإن الحديث فيها يدور حول عاقبة الإيمان والكفر وأن العاقبة المحمودة التي للإيمان لا يقوم مقامها شيء ولو كان ضعف ما في الدنيا من نعمة.

ج. وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد بالحسنى العاقبة الحسنى وما ذكره بعضهم أن المراد بها المثوبة الحسنى أو الجنة وإن كان حقا بحسب المآل فإن عاقبة الإيمان والعمل الصالح المحمودة هي المثوبة الإلهية

الحسنى وهي الجنة لكن المثوبة أو الجنة غير مقصودة في المقام بما أنها مثوبة أو جنة بل بما أنها عاقبة أمرهم وينتهي إليها سعيهم.

د. ويؤيده بل يدل عليه قوله تعالى فيهم في الآيات التالية بعد تعريفهم بصفاتهم المختصة بهم: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية.

هـ. وعلى هذا أيضا فقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ موضوع موضع الغاية المحذوفة للدلالة على فخامة أمرها وبلوغها الغاية من حمل الهول والدهشة والشر والشقوة بما لا يذكر.

و. والمعنى: والذين لم يستجيبوا لربهم يحل بهم أمر، أو يفوتهم أمر وهو نتيجة الاستجابة وعاقبتها الحسنى من صفته أنه لو أن لهم ما في الأرض من نعمة تلتذ بها النفس الإنسانية وهو غاية ما يمكن لإنسان أن يأمله ويتمناه ثم أضيف إليه مثله وهو فوق منية الإنسان وبعبارة ملخصة لو كانوا يملكون غاية مناهم في الحياة وما فوق هذه الغاية رضوا أن يفتدوا بهذا الذي يملكونه فرضا عما يفوتهم من الحسنى، وفي بعض كلمات علي عليه السلام في وصفه: (غير موصوف ما نزل بهم)

٢. ثم أخبر تعالى عن هذا الذي لا يوصف من عاقبة أمرهم فقال: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وسوء الحساب الحساب الذي يسوؤهم ولا يسرهم فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ثم ذم تعالى ذلك مشيرا إلى سوء العاقبة بقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ أي بئس المهاد مهادهم الذي مهد لهم ويستقرون فيه، ومجموع قوله: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ﴾ في موضع التعليل لما ذكر من الافتداء والتعليل بالإشارة كثير في الكلام يقال: افعل بفلان كذا وكذا ذاك الذي من صفته كذا وكذا.

٣. ومعنى الآية والله أعلم، للذين استجابوا لدعوة ربهم الحقة العاقبة الحسنى والذين لم يستجيبوا له لهم من عاقبة الأمر ما يرضون أن يفدوا للتخلص منه فوق ما يمكنهم أن يتمنوه لأن الذي يحل بهم من العاقبة السيئة يتضمن أو يقارن سوء الحساب والقرار في وبئس المهاد مهادهم.

٤. وقد وضع في الآية الاستجابة وعدم الاستجابة مكان الإيمان والكفر لمناسبة المثل المضروب في الآية السابقة من نزول الماء من السماء وقبول الأودية منه كل بقدره، والاستجابة قبول الدعوة.

١٥. أولو الألباب يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر به:

المقطع [١٥] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٤١»:

١. ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ استفهام إنكاري وهو في موضع التعليل لما تتضمنه الآية السابقة، وبيان تفصيلي لعاقبة حال الفريقين من حيث استجابة دعوة الحق وعدمها، وملخص البيان:

أ. أن الحق يستقر في قلوب هؤلاء الذين استجابوا لربهم فتصير قلوبهم ألبابا وقلوبا حقيقية لها آثارها وبركاتها وهو التذكر والتبصر، ومن خواص هذه القلوب التي يعرف بها صاحبوها أن أولي الألباب يثبتون على الوفاء بعهد الله المأخوذ عنهم بفطرتهم فلا ينقضون ميثاق ربهم، ويثبتون على احترام ما وصلهم الله به وهي الرحم التي أجرى الله الخلقة من طريقها فيصلونها وهم خاشعون خائفون، ويثبتون بالصبر عند المصائب وعن المعصية وعلى الطاعة، ويجرون بالتوجه إلى ربهم وهو الصلاة، وإصلاح المجتمع وهو الإنفاق، ودرء السيئات بالحسنات.

ب. فهؤلاء لهم عاقبة الدار المحمودة وهي الجنة يدخلونها وتنعكس إليهم فيها مثوبات أعمالهم الحسنة المذكورة فيصاحبون فيها الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم كما وصلوا الرحم في الدنيا، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب مسلمين عليهم بما صبروا كما فتحوا أبواب العبادات والطاعات المختلفة في الدنيا فهذا هو أثر الحق.

٢. ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ الاستفهام فيه للإنكار، كما تقدم، وفيه نفي التساوي بين من استقر في قلبه العلم بالحق ومن جهل الحق وفي توصيف الجاهل بالحق بالأعمى إيماء إلى أن العالم به بصير وقد سماه بالأعمى والبصير في قوله آنفا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الآية، فالعلم بالحق بصيرة والجهل به عمى والتبصر يفيد التذكر ولذا عده من خواص أولي العلم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾

٣. ﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ في مقام التعليل لما سبقه أعني قوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾، أي أنهما لا يستويان لأن لأولي العلم تذكر ليس لأولي العمى والجهل، وقد وضع في موضع أولي العلم أولوا الألباب فدل على دعوى أخرى تفيد فائدة التعليل كأنه قيل: لا يستويان لأن لأحد الفريقين تذكرا ليس للآخر، وإنما اختص التذكر بهم لأن لهم ألبابا وقلوبا وليس ذلك لغيرهم.

٤. ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ﴾ ظاهر السياق أن الجملة الثانية عطف تفسيري على الجملة الأولى فالمراد بالميثاق الذي لا ينقضونه هو عهد الله الذي يوفون به، والمراد بهذا العهد والميثاق بقرينة ما ذكر في الآية السابقة من تذكرهم هو ما عاهدوا به ربهم وواثقوه بلسان فطرتهم أن يوحدوه ويجروا على ما يقتضيه توحيده من الآثار فإن الإنسان مفطور على توحيده تعالى وما يهتف به توحيده، وهذا عهد عاهدته الفطرة وعقد عقدته، وأما العهود والمواثيق المأخوذة بوسيلة الأنبياء والرسل عن أمر من الله والأحكام والشرائع فكل ذلك من فروع الميثاق الفطري فإن الدين فطري.

٥. ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، الظاهر أن المراد بالأمر هو الأمر التشريعي النازل بشهادة ذيل الآية ﴿وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾ فإن الحساب على الأحكام النازلة في الشريعة ظاهرا وإن كانت مدركة بالفطرة كقبح الظلم وحسن العدل فإن المستضعف الذي لم يبلغه الحكم الإلهي ولم يقصر لا يحاسب عليه كما يحاسب غيره، وقد تقدم في أبحاثنا السابقة أن الحجة لا تتم على الإنسان بمجرد الإدراك الفطري لولا انضمام طريق الوحي إليه قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، والآية مطلقة فالمراد به كل صلة أمر الله سبحانه بها ومن أشهر مصاديقه صلة الرحم التي أمر الله بها وأكد القول في وجوبها، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ﴾ [النساء: ١]

٦. وقد أكد القول فيه بما في ذيل الآية من قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾:

أ. فأشار إلى أن في ترك الصلة مخالفة لأمر الله فليخش الله في ذلك وعملا سيئا مكتوبا في صحيفة العمل محفوظا على الإنسان يجب أن يخاف من حسابه السيئ.

ب. والظاهر أن الفرق بين الخشية والخوف أن الخشية تأثر القلب من إقبال الشر أو ما في حكمه، والخوف هو التأثر عملا بمعنى الإقدام على تهيئة ما يتقى به المحذور وإن لم يتأثر القلب ولذا قال سبحانه في صفة أنبيائه: ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، فنفى عنهم الخشية عن غيره وقد أثبت

الخوف لهم عن غيره في مواضع من كلامه كقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى﴾ [طه: ٦٧] وقوله: ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨]

ج. ولعله إليه يرجع ما ذكره الراغب في الفرق بينهما أن الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم، ولذا خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ وكذا قول بعضهم: إن الخشية أشد الخوف لأنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية أي يابسة، وكذا قول بعضهم: إن الخوف يتعلق بالمكروه وبمنزله يقال: خفت المرض وخفت زيدا بخلاف الخشية فإنها تتعلق بالمنزل دون المكروه نفسه يقال: خشيت الله، ولو لا رجوعها إلى ما قدمناه لكانت ظاهرة النقض وذكر بعضهم أن الفرق أغلبي لا كلي، والآخرون أن لا فرق بينهما أصلا وهو مردود بما قدمناه من الآيات.

٧. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا﴾ إلى آخر الآية:

أ. إطلاق الصبر يدل على اتصافهم بجميع شعبه وأقسامه وهي الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية لكنه مع ذلك مقيد بقوله: ﴿ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي طلبا لوجه ربهم فصفتهم التي يمدحون بها أن يكون صبرهم لوجه الله لأن الكلام في صفاتهم التي تنشأ وتنمو فيهم من استجابتهم لربهم وعلمهم بحقية ما أنزل إليهم من ربهم لا كل صفة يمدحها الناس فيما بينهم وإن لم ترتبط بعبوديتهم وإيمانهم بربهم كالصبر عند الكريهة تمنعا وعجبا بالنفس أو طلبا لجميل الثناء ونحوه كما قيل:

وقولي كلما جشأت وجاشت... مكانك تحمدي أو تستريحي

ب. والمراد بوجه الرب تعالى هو الجهة المنسوبة إليه تعالى من العمل ونحوه وهي الجهة التي عليها يظهر ويستقر العمل عنده تعالى أعني المثوبة التي له عنده الباقية ببقائه وقد قال تعالى: ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]

٨. ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ أي جعلوها قائمة غير ساقطة بالإخلال بأجزائها وشرائطها أو بالاستهانة بأمرها، وعطف الصلاة وما بعدها على الصبر من عطف الخاص على العام اعتناء بشأنه وتعظيما لأمره، كما قيل.

٩. ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ المراد به مطلق الإنفاق أعم من الواجب وغيره، والآية

مكية لم ينزل وجوب الزكاة عند نزولها بعد، وتقييد الإنفاق بقوله: ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ للدلالة على استيفائهم حقه فإن من الإنفاق ما يحسن فيه الإسرار ومنه ما يحسن فيه الإعلان فعلى من آمن بما أنزله الله بالحق أن يستوفي من كل حقه فيسر بالإنفاق إذا كان في إعلانه مظنة الرياء أو السمعة أو إهانة أو إذهاب ماء الوجه، ويعلن فيه فيما كان في إعلانه تشويق الناس على البر والمعروف ودفع التهمة ونحو ذلك.

١٠. ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ الدرء الدفع والمعنى إذا صادفوا سيئة جاءوا بحسنة تزيد عليها أو تعادلها فيدفعون بها السيئة، وهذا أعم من أن يكون ذلك في سيئة صدرت من أنفسهم فدفعوها بحسنة جاءوا بها فإن الحسنات يذهبن السيئات أو دفعوها بتوبة إلى ربهم فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له أو في سيئة أتى بها غيرهم بالنسبة إليهم كمن ظلمهم فدفعوه بالعفو أو بالإحسان إليه أو من جفاهم فقابلوه بحسن الخلق والبشر كما إذا خاطبهم الجاهلون فقالوا، سلاما أو أتى بمنكر فنهوا عنه أو ترك معروف فأمروا به، فذلك كله من درء السيئة بالحسنة ولا دليل من جانب اللفظ يدل على التخصيص ببعض هذه الوجوه البتة.

١١. وقد اختلف التعبير في هذه الصفات المذكورة لأولي الألباب: (الذين يوفون، ولا ينقضون، ويصلون، ويخشون، ويخافون، وصبروا، وأقاموا، وأنفقوا، ويدرءون) فأتي في بعضها، وهي ستة بلفظ المضارع، وفي بعضها، وهي ثلاثة، بلفظ الماضي:

أ. وقد نقل عن بعضهم في وجه ذلك أن التعبير في قوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ﴾ بلفظ الماضي وفيما تقدم بلفظ المضارع على سبيل التفنن في الفصاحة لأن هذه الأفعال وقعت صلة للموصول يعني ﴿الَّذِينَ﴾ والموصول وصلته في معنى اسم الشرط مع الجملة الشرطية، والماضي والمضارع يستويان معنى في الجملة الشرطية نحو إن ضربت ضربت وإن تضرب أضرب فكذا فيما بمعناه، ولذا قال النحويون: إذا وقع الماضي صلة أو صفة لنكرة عامة احتمل أن يراد به المضي وأن يراد به الاستقبال فمن الأول ﴿الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ ومن الثاني ﴿إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾

• وفيه أن إلغاء خصوصية زمان الفعل من المضي والاستقبال في الشرط وما في معناه لا يستوجب إلغاء لوازم الأزمنة كالتحقق في الماضي والجريان والاستمرار ونحوهما في المضارع فإن في الماضي مثلا عناية

بالتحقق وإن كان ملغى الزمان فصحة السؤال عن نكتة اختلاف التعبير في محله بعد.

ب. ويستفاد من كلام بعض آخر في وجهه أن المراد بالأوصاف المتقدمة أعني الوفاء بالعهد والصلة والخشية والخوف الاستصحاب والاستمرار لكن الصبر لما كان مما يتوقف على تحققه التلبس بتلك الأوصاف اعتنى بشأنه فعبر بلفظ الماضي الدال على التحقق وكذا في الصلاة والإنفاق اعتناء بشأنهما.

• وفيه أن بعض الصفات السابقة لا يقصر في الأهمية عن الصبر والصلاة والإنفاق كالوفاء بعهد الله الذي أريد به الإيمان بالله بإجابة دعوة الفطرة فلو كان الاعتناء بالشأن هو الوجه كان من الواجب أن يعبر عنه بلفظ الماضي كغيره من الصبر والصلاة والإنفاق.

١٢. والذي أحسب، والله أعلم، أن مجموع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ مسوق لبيان معنى واحد وهو الإتيان بالعمل الصالح:

أ. أعني إتيان الواجبات وترك المحرمات وتدارك ما يقع فيه من الخلل استثناء بالحسنة فالعمل الصالح هو المقصود بالأصالة ودرء السيئة بالحسنة الذي هو تدارك الخلل الواقع في العمل مقصود بالتبع كالمتمم للنقيصة.

ب. فلو جرى الكلام على السياق السابق وقيل: (والذين يصبرون ابتغاء وجه ربهم ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة) فاتت هذه العناية وبطل ما ذكر من حديث الأصالة والتبعية لكن قيل: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فأخذ جميع الصبر المستقر أمرا واحدا مستمرا ليدل على وقوع كل الصبر منهم ثم قيل: ﴿وَيَدْرَؤُنَ﴾ ليدل على دوام مراقبتهم بالنسبة إليه لتدارك ما وقع فيه من الخلل وكذا في الصلاة والإنفاق فافهمه.

ج. وهذه العناية بوجه نظيرة العناية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ الآية، حيث يدل على تفرع تنزل الملائكة على تحقق قولهم ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ واستقامتهم دون الاستمرار عليه.

١٣. ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبتها المحمودة فإنها هي العاقبة حقيقة لأن الشيء لا ينتهي بحسب ما جبله الله عليه إلا إلى عاقبة تناسبه وتكون فيها سعادته، وأما العاقبة المذمومة السيئة ففيها بطلان

عاقبة الشيء لخلل واقع فيه، وإنما تسمى عاقبة بنحو من التوسع، ولذلك أطلق في الآية عقبى الدار وأريدت بها العاقبة المحمودة وقوبلت فيما يقابلها من الآيات بقوله: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، ومن هنا يظهر أن المراد بالدار هذه الدار الدنيا أي حياة الدار فالعاقبة عاقبتها.

١٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة: في قوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيْثاقَ﴾ عليكم بالوفاء بالعهد ولا تنقضوا الميثاق، فإن الله قد نهى عنه وقدم فيه أشد التقدمة، وذكره في بضع وعشرين آية نصيحة لكم، وتقدمة إليكم وحجة عليكم، وإنما يعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل، وأهل العلم بالله، وذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له.

• أقول: ظاهر كلامه حمل العهد والميثاق في الآية الكريمة على ما يدور بين الناس أنفسهم وقد عرفت أن ظاهر السياق خلافه.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن عمر بن يزيد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: قرابتك.

ج. وفيه، أيضا بإسناد آخر عنه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ الله بِهِ، أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: نزلت في رحم آل محمد، وقد يكون في قرابتك، ثم قال: ولا تكونن ممن يقول في الشيء أنه في شيء واحد.

• أقول: يعني لا تقصر القرآن على معنى واحد إذا احتمل معنى آخر فإن للقرآن ظهرا وبطنا وقد جعل الله مودة ذي القربى، وهي من الصلة، أجر الرسالة في قوله: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ [الشورى: ٢٣] ويدل على ما ذكرنا الرواية الآتية.

د. وفي تفسير العياشي، عن عمر بن مريم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ الله بِهِ، أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: من ذلك صلة الرحم، وغاية تأويلها صلتك إيانا.

هـ. وفيه، عن محمد بن الفضيل قال: سمعت العبد الصالح يقول: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قال هي رحم آل محمد معلقة بالعرش تقول: اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني، وهي

تجري في كل رحم.

• أقول: وفي هذه المعاني روايات أخر، وقد تقدم معنى تعلق الرحم بالعرش في تفسير أوائل سورة النساء في الجزء الرابع من الكتاب.

و. وفي الكافي، بإسناده عن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ومما فرض الله عز وجل أيضا في المال من غير الزكاة قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره.

ز. وفي تفسير العياشي، عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه قال لرجل: فلان ما لك ولأخيك؟ قال: جعلت فداك كان لي عليه حق فاستقصيت منه حقي، قال أبو عبد الله عليه السلام أخبرني عن قول الله: ﴿وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾ أتراهم خافوا أن يجور عليهم أو يظلمهم: لا والله خافوا الاستقصاء والمداقة.

• أقول: ورواه في المعاني، وتفسير القمي.

ح. وفيه، عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾ قال: الاستقصاء والمداقة، وقال: يحسب عليهم السيئات، ولا يحسب لهم الحسنات.

• أقول: وذيل الحديث مروي بطرق مختلفة عنه عليه السلام، وعدم حساب الحسنات إنما هو لمكان المداقة والحصول على وجوه الخلل الخفية كما تدل عليه الرواية التالية.

ط. وفيه، عن هشام عنه عليه السلام: في الآية قال: يحسب عليهم السيئات، ولا يحسب لهم الحسنات وهو الاستقصاء.

ي. وفيه، عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: بر الوالدين وصلة الرحم يهون الحساب، ثم تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾

ك. وفي الكافي، بإسناده عن عمرو بن شمر اليماني يرفع الحديث إلى علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: الصبر ثلاثة، صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة، كما بين السماء إلى

الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة، كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش.

١٦. جنات عدن والصالحون والملائكة:

المقطع [١٦] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ـ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٤٦»:

١. ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾:

أ. العدن الاستقرار يقال: عدن بمكان كذا إذا استقر فيه ومنه المعدن لمستقر الجواهر الأرضية وجنات عدن أي جنات نوع من الاستقرار فيه خلود وسلام من كل جهة.

ب. و﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله: ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة هذه الدار المحمودة هي جنات العدن والخلود فليست هذه الحياة الدنيا بحسب ما طبعها الله عليه إلا حياة واحدة متصلة أولها عناء وبلاء وآخرها رخاء نعيم وسلام، وهذا الوعد هو الذي يحكي وفاءه تعالى به حكاية عن أهل الجنة بقوله: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]

ج. والآية، كما سمعت، تحاذي قوله: ﴿يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ وبيان لعاقبة هذا الحق الذي أخذوه وعملوا به وبشرى لهم أنهم سيصاحبون الصالحين من أرحامهم وأهليهم من الآباء والأمهات والذراري والإخوان والأخوات وغيرهم ويشمل الجميع قوله: ﴿آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ لأن الأمهات أزواج الآباء والإخوان والأخوات والأعمام والأخوال وأولادهم ذريات الآباء والآباء، من الداخلين فمعهم أزواجهم وذرياتهم ففي الآية إيجاز لطيف.

٢. ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وهذا عقبى أعمالهم الصالحة التي داموا عليها في كل باب من أبواب الحياة بالصبر على الطاعة وعن المعصية وعند المصيبة مع الخشية والخوف.

٣. ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ قول الملائكة وقد خاطبوهم بالأمن والسلام

الخالد وعقبى محمودة لا يعتريها ذم وسوء أبدا.

١٧ . نقض العهد وقطع ما أمر الله به سبب اللعنة وسوء الدار:

المقطع [١٧] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٤٧»:

١ . ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى آخر الآية، بيان حال غير المؤمنين بطريق المقابلة وقد قوبل بقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بقية ما ذكر في الآيات السابقة بعد الوفاء بعهد الله والصلة، من الأعمال الصالحة وفيه إيماء إلى أن الأعمال الصالحة هي التي تضمن صلاح الأرض وعمارة الدار على نحو يؤدي إلى سعادة النوع الإنساني ورشد المجتمع البشري، وقد تقدم بيانه في دليل النبوة العامة.

٢ . وقد بين تعالى جزاء عملهم وعاقبة أمرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ واللعن الإبعاد من الرحمة والطرد من كل كرامة، وليس ذلك إلا لانكبابهم على الباطل ورفضهم الحق النازل من الله، وليس للباطل إلا البوار.

١٨ . الله يبسط الرزق لمن يشاء والدنيا متاع قليل:

المقطع [١٨] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٤٧»:

١ . ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إلى آخر الآية بيان أن ما أوتي الفريقان من العاقبة المحمودة والجنة الخالدة ومن اللعنة وسوء الدار هو من الرزق الذي يرزقه الله من يشاء وكيف يشاء من غير حجر عليه أو إلزام، وقد بين أن فعله تعالى يستمر على وفق ما جعله من نظام الحق والباطل فالاعتقاد الحق والعمل به ينتهي إلى الارتزاق بالجنة والسلام والباطل من الاعتقاد والعمل به ينتهي إلى اللعنة وسوء الدار ونكد العيش.

٢ . ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ يريد به، على ما يفيده السياق، أن الرزق هو رزق الأخرى لكنهم لميلهم إلى ظاهر الحياة الدنيا وزينتها ركنوا إليها وفرحوا بها، وقد أخطئوا

فإنها حياة غير مقصودة بنفسها ولا خالدة في بقائها بل مقصودة لغيرها الذي هو الحياة الآخرة فهي بالنسبة إلى الآخرة متاع يتمتع به في غيره ولغيره غير مطلوب لنفسه فالحياة الدنيا بالقياس إلى الحياة الآخرة إنما تكون من الحق إذا أخذت مقدمة لها يكتسب بها رزقها وأما إذا أخذت مطلوبة بالاستقلال فليست إلا من الباطل الذي يذهب جفاء ولا ينتفع به في شيء، قال تعالى: ﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

١٩. الكفار يطلبون آية والله يضل من يشاء ويهدي من أناب:

المقطع [١٩] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٥٢»:

١. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾:

أ. عود إلى قول الكفار ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وإنما أرادوا به أنه لو أنزل على النبي ﷺ آية من ربه لاهتدوا به واستجابوا له وهم لا يعدون القرآن النازل إليه آية.

ب. والدليل على إرادتهم هذا المعنى قوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ﴾ وقوله بعد: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ وقوله بعد: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ إلى آخر الآية، فأجاب تعالى عن قولهم بقوله آمرا نبيه أن يلقيه إليهم: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ فأفاد أن الأمر ليس إلى الآية حتى يهتدوا بنزولها ويضلوا بعدم نزولها بل أمر الإضلال والهداية إلى الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ج. ولما لم يؤمن أن يتوهموا منه أن الأمر يدور مدار مشية جزافية غير منتظمة أشار إلى دفعه بتبديل قولنا: ويهدي إليه من يشاء من قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ فبين أن الأمر إلى مشية الله تعالى جارية على سنة دائمة ونظام متقن مستمر وذلك أنه تعالى يشاء هداية من أناب ورجع إليه ويضل من أعرض ولم ينب فمن تلبس بصفة الإنابة والرجوع إلى الحق ولم يتقيد بأغلال الأهواء هداه الله بهذه الدعوة الحقة ومن كان دون ذلك ضل عن الطريق وإن كان مستقيما ولم تنفعه الآيات وإن كانت معجزة وما تغن الآيات والنذر

عن قوم لا يؤمنون.

٢. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُضِلُ﴾، على تقدير: أن الله يضل بمشيته من لم ينب إليه ويهدي إليه بمشيته من أناب إليه، ويظهر أيضا أن الضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ في ﴿يَهْدِي إِلَيْهِ﴾ راجع إليه تعالى وأن ما ذكره بعضهم أنه راجع إلى القرآن، وآخرون أنه راجع إلى النبي ﷺ غير وجيه.

٢٠. المؤمنون تطمئن قلوبهم بذكر الله:

المقطع [٢٠] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٥٣»:

١. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾:

أ. الاطمئنان السكون والاستقرار والاطمئنان إلى الشيء السكون إليه.

ب. وظاهر السياق أن صدر الآية بيان لقوله في ذيل الآية السابقة: ﴿مَنْ أَنابَ﴾ فالإيمان واطمئنان القلب بذكر الله هو الإنابة، وذلك من العبد تهيؤ واستعداد يستعقب عطية الهداية الإلهية كما أن الفسق والزيغ في باب الضلال تهيؤ واستعداد يستعقب الإضلال من الله كما قال: ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]

ج. وليس الإيمان بالله تعالى مثلا مجرد إدراك أنه حق فإن مجرد الإدراك ربما يجامع الاستكبار والجحود كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] مع أن الإيمان لا يجامع الجحود فليس الإيمان بشيء مجرد إدراك أنه حق مثلا بل مطاوعة وقبول خاص من النفس بالنسبة إلى ما أدركته يوجب تسليمها له ولما يقتضيه من الآثار وآيته مطاوعة سائر القوى والجوارح وقبولها له كما طاوعته النفس وقبلته فترى المعتاد ببعض الأعمال المذمومة ربما يدرك وجه القبح أو المساءة فيه غير أنه لا يكف عنه لأن نفسه لا تؤمن به ولا تستسلم له وربما طاوعته وسلمت له بعد ما أدركته وكفت عنه عند ذلك بلا مهل وهو الإيمان.

د. وهذا هو الذي يظهر من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فالهداية من الله سبحانه تستدعي من قلب العبد أو صدره وبالأخرة من نفسه أمرا نسبته إليها نسبة القبول والمطاوعة إلى الأمر

المقبول المطاوع، وقد عبر عنه في آية الأنعام بشرح الصدر وتوسعته، وفي الآية المبحوث عنها بالإيمان واطمئنان القلب وهو أن يرى الإنسان نفسه في أمن من قبوله ومطاوعته ويسكن قلبه إليه ويستقر هو في قلبه من غير أن يضطرب منه أو ينقلع عنه.

هـ. ومن ذلك يظهر أن قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ عطف تفسيري على قوله: ﴿آمَنُوا﴾ فالإيمان بالله يلازم اطمئنان القلب بذكر الله تعالى.

و. ولا ينافي ذلك ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] فإن الوجل المذكور فيه حالة قلبية متقدمة على الاطمئنان المذكور في الآية المبحوث عنها كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ [الزمر: ٢٣] وذلك أن النعمة هي النازلة من عنده سبحانه وأما النقمة أيا ما كانت فهي بالحقيقة إمساك منه عن إفاضة النعمة وإنزال الرحمة وليست فعلا ثبوتيا صادرا منه تعالى على ما يفيده قوله:، ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]

ز. وإذا كان الخوف والخشية إنما هو من شر متوقع ولا شر عنده سبحانه فحقيقة الخوف من الله هي خوف الإنسان من أعماله السيئة التي توجب إمساك الرحمة وانقطاع الخير المفاض من عنده، والنفس الإنسانية إذا قرعت بذكر الله سبحانه التفتت أولا إلى ما أحاطت به من سمات القصور والتقصير فأخذتها القشعريرة في الجلد والوجل في القلب ثم التفتت ثانيا إلى ربه الذي هو غاية طلبة فطرته فسكنت إليه واطمأنت بذكره.

ح. وقال في مجمع البيان: (وقد وصف الله المؤمن هاهنا بأنه يطمئن قلبه إلى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه وإنعامه وآلاءه التي لا تحصى وأياديه التي لا تجازى فيسكن إليه، وبالثاني أنه يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويوجل قلبه)، وهذا الوجه أوفق بتفسير من فسر الذكر في الآية بالقرآن الكريم وقد سماه الله تعالى ذكرا في مواضع كثيرة من كلامه كقوله: ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وغير ذلك.

ط. لكن الظاهر أن يكون المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي وأعني به مطلق انتقال الذهن

والخطور بالبال سواء كان بمشاهدة آية أو العثور على حجة أو استماع كلمة، ومن الشاهد عليه قوله بعده: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ فإنه كضرب القاعدة يشمل كل ذكر سواء كان لفظيا أو غيره، وسواء كان قرآنا أو غيره.

٢. ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾:

أ. فيه تنبيه للناس أن يتوجهوا إليه ويريحوا قلوبهم بذكره فإنه لا هم للإنسان في حياته إلا الفوز بالسعادة والنعمة ولا خوف له إلا من أن تغتاله الشقوة والنقمة والله سبحانه هو السبب الوحيد الذي بيده زمام الخير وإليه يرجع الأمر كله، وهو القاهر فوق عباده والفعال لما يريد وهو ولي عباده المؤمنين به اللاجئين إليه فذكره للنفس الأسيرة بيد الحوادث الطالبة لركن شديد يضمن له السعادة، المتحيرة في أمرها وهي لا تعلم أين تريد ولا أنى يراد بها؟ كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه وتستريح معه نفسه، والركون إليه والاعتماد عليه والاتصال به كتناول ذاك السليم لذلك الترياق وهو يجد من نفسه نشاط الصحة والعافية آنا بعد آن.

ب. فكل قلب، على ما يفيده الجمع المحلى باللام من العموم، يطمئن بذكر الله ويسكن به ما فيه من القلق والاضطراب نعم إنما ذلك في القلب الذي يستحق أن يسمى قلبا وهو القلب الباقي على بصيرته ورشده، وأما المنحرف عن أصله الذي لا يبصر ولا يفقه فهو مصروف عن الذكر محروم عن الطمأنينة والسكون قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]

ج. وفي لفظ الآية ما يدل على الحصر حيث قدم متعلق الفعل أعني قوله: ﴿بِذِكْرِ اللهِ﴾ عليه فيفيد أن القلوب لا تطمئن بشيء غير ذكر الله سبحانه، وما قدمناه من الإيضاح ينور هذا الحصر إذ لا هم لقلب الإنسان وهو نفسه المدركة إلا نيل سعادته والأمن من شقائه وهو في ذلك متعلق بذيل الأسباب، وما من سبب إلا وهو غالب في جهة ومغلوب من أخرى إلا الله سبحانه فهو الغالب غير المغلوب الغني ذو الرحمة فبذكره أي به سبحانه وحده تطمئن القلوب ولا يطمئن القلب إلى شيء غيره إلا غفلة عن حقيقة حاله ولو ذكر بها أخذته الرعدة والقلق.

٣. ومما قيل في الآية الكريمة أعني قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ إنها استئناف،

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ خبره قوله في الآية التالية: ﴿طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ بدل من المبتدإ وقوله: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ اعتراض بين المبتدإ وخبره، وهو تكلف بعيد من السياق.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن خالد بن نجيح عن جعفر بن محمد عليه السلام: في قوله: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ فقال بمحمد ﷺ تطمئن القلوب وهو ذكر الله وحجابه.

• أقول: وفي كلامه تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً﴾

ب. أخرج أبو الشيخ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين نزلت هذه الآية: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أتدرون ما معنى ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: من أحب الله ورسوله وأحب أصحابي.

ج. وفي تفسير العياشي، عن ابن عباس: أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ثم قال لي: أتدري يا ابن أم سليم من هم؟ قلت: من هم يا رسول الله؟ قال: نحن أهل البيت وشيعتنا.

د. أخرج ابن مردويه عن علي: أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ قال: ذاك من أحب الله ورسوله وأحب أهل بيتي صادقا غير كاذب، وأحب المؤمنين شاهدا وغائبا ألا بذكر الله يتحابون.

• أقول: والروايات جميعا من باب الانطباق والجري فإن النبي ﷺ والطاهرون من أهل بيته والخيار من الصحابة والمؤمنين من مصاديق ذكر الله لأن الله يذكر بهم، والآية الكريمة أعم دلالة.

٢١. مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

المقطع [٢١] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٥٦»:

١. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾:

أ. طوبى على وزن فعلى بضم الفاء مؤنث أطيب فهي صفة لمحذوف وهو على ما يستفاد من

السياق، الحياة أو المعيشة وذلك أن النعمة كائنة ما كانت إنما تغتبط وتهنأ إذا طابت للإنسان ولا تطيب إلا إذا اطمأن القلب إليه وسكن ولم يضطرب ولا يوجد ذلك إلا لمن آمن بالله وعمل عملا صالحا فهو الذي يطمئن منه القلب ويطيب له العيش فإنه في أمن من الشر والخسران وسلام مما يستقبله ويدركه وقد أوى إلى ركن لا ينهدم واستقر في ولاية الله لا يوجه إليه ربه إلا ما فيه سعادته إن أعطى شيئا فهو خير له وإن منع فهو خير له.

ب. وقد قال في وصف طيب هذه الحياة: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وقال في صفة من لم يرزق اطمئنان القلب بذكر الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ [طه: ١٢٤]، ولعل وصف الحياة أو المعيشة في الآية التي نحن فيها بزيادة الطيب تلميحا إلى أنها نعمة لا تخلو من طيب على أي حال إلا أنها فيمن اطمأن قلبه بذكر الله أكثر طيبا لخلوصها من شوائب المنغصات.

ج. فقوله: ﴿طُوبى لَهُمْ﴾ في تقدير لهم حياة أو معيشة طوبى، فطوبى مبتدأ و(لهم) خبره وإنما قدم المبتدأ المنكر على الظرف لأن الكلام واقع موقع التهنئة وفي مثله يقدم ما به التهنئة استعجالا بذكر ما يسر السامع ذكره نظير قولهم في البشارة: بشرى لك.

د. وبالجملة في الآية تهنئة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله اطمئنانا مستمرا، بأطيب الحياة أو العيش وحسن المرجع، وبذلك يظهر اتصالها بما قبلها فإن طيب العيش من آثار اطمئنان القلب كما تقدم.

٢. وقال في مجمع البيان: (﴿طُوبى لَهُمْ﴾ وفيه أقوال:

أ. أحدها: أن معناه فرح لهم وقرة عين، عن ابن عباس.

ب. والثاني: غبطة لهم، عن الضحاك.

ج. والثالث: خير لهم وكرامة، عن إبراهيم النخعي.

د. والرابع: الجنة لهم، عن مجاهد.

هـ. والخامس: معناه العيش المطيب لهم، عن الزجاج، والحال المستطابة لهم، عن ابن الأنباري لأنه فعلى من الطيب، وقيل: أطيب الأشياء لهم وهو الجنة، عن الجبائي.

و. والسادس: هنيئا يطيب العيش لهم.

ز. والسابع: حسنى لهم، عن قتادة.

ح. والثامن: نعم ما لهم، عن عكرمة.

ط. التاسع: طوبى لهم دوام الخير لهم.

ي. العاشر: أن طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ وفي دار كل مؤمن منها غصن عن عبيد بن عمير ووهب وأبي هريرة وشهر بن حوشب وروي عن أبي سعيد الخدري مرفوعا) انتهى موضع الحاجة.

• وأكثر هذه المعاني من باب الانطباق وهي خارجة عن دلالة اللفظ.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام: في حديث الإسراء بالنبي ﷺ قال: فإذا شجرة لو أرسل طائر في أصلها ما دارها سبعمائة سنة، وليس في الجنة منزل إلا وفيه غصن منها فقلت: ما هذه يا جبرئيل؟ فقال: هذه شجرة طوبى قال الله تعالى: ﴿طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي في روايات كثيرة وفي عدة منها: أن جبرئيل ناولني منها ثمرة، فأكلتها فحول الله ذلك إلى ظهري، فلما أن هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة، فما قبلت فاطمة إلا وجدت رائحة شجرة طوبى منها.

ب. وفي كتاب الخرائج، أن رسول الله ﷺ قال: يا فاطمة إن بشارة أتتني من ربي في أخي وابن عمي، أن الله عز وجل زوج عليا بفاطمة، وأمر رضوان خازن الجنة فهز شجرة طوبى، فحملت رقاعا بعدد محبي أهل بيتي فأنشأ ملائكة من نور، ودفع إلى كل ملك خطا فإذا استوت القيامة بأهلها، فلا تلقى الملائكة محبا لنا إلا دفعت إليه صكا، فيه براءة من النار.

ج. وفي تفسير البرهان، عن الموفق بن أحمد في كتاب المناقب بإسناده عن بلال بن حمامة عن النبي ﷺ: مثله وروي هذا المعنى أيضا عن أم سلمة وسلمان الفارسي وعلي بن أبي طالب: وفيها أن الله لما أن أشهد على تزوج فاطمة، من علي بن أبي طالب ملائكته أمر شجرة طوبى، أن ينثر حملها وما فيها من الحلي

والحلل، فنثرت الشجرة ما فيها والتقطته الملائكة والحور العين، لتهادينه وتفتخرن به إلى يوم القيامة وروي أيضا ما يقرب منه عن الرضا عليه السلام.

د. وفي المجمع: (روى الثعلبي بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: طوبى شجرة أصلها في دار علي في الجنة، وفي دار كل مؤمن منها غصن، قال: ورواه أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام.

هـ. وفي تفسير البرهان، عن تفسير الثعلبي يرفع الإسناد إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سئل رسول الله ﷺ عن طوبى فقال: شجرة في الجنة أصلها في دار علي وفرعها على أهل الجنة، فقالوا: يا رسول الله سألناك فقلت: أصلها في داري وفرعها على أهل الجنة فقال: داري ودار علي واحدة في الجنة بمكان واحد.

• أقول: ورواه أيضا في المجمع: (بإسناده عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني بإسناده عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ: مثله.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة مروية من طرق الشيعة وأهل السنة، والظاهر أن الروايات غير ناظرة إلى تفسير الآية، وإنما هي ناظرة إلى بطنها دون ظهرها فإن حقيقة المعيشة الطوبى هي ولاية الله سبحانه وعلي عليه السلام صاحبها وأول فاتح لبابها من هذه الأمة والمؤمنون من أهل الولاية أتباعه وأشياعه، وداره عليه السلام في جنة النعيم وهي جنة الولاية ودار النبي ﷺ واحدة لا اختلاف بينهما ولا تزاحم فافهم ذلك.

٢٢. أهداف إرسال النبي إلى أمة قد خلت من قبلها أمم:

المقطع [٢٢] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٥٨»:

١. ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ إلى آخر الآية:

أ. متاب مصدر ميمي للتوبة وهي الرجوع، والإشارة بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى ما ذكره تعالى من سنته الجارية من دعوة الأمم إلى دين التوحيد ثم إضلال من يشاء وهداية من يشاء على وفق نظام الرجوع إلى

الله والإيمان به وسكون القلب بذكره وعدم الرجوع إليه.

ب. والمعنى: وأرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم إرسالا يماثل هذه السنة الجارية ويجري في أمره على وفق هذا النظام لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وتبلغهم ما يتضمنه هذا الكتاب وهم يكفرون، بالرحمن وإنما قيل بالرحمن، دون أن يقال: (بنا) على ما يقتضيه ظاهر السياق إيماء إلى أنهم في ردهم هذا الوحي الذي يتلوه النبي ﷺ عليهم وهو القرآن وعدم اعتنائهم بأمره حيث يقولون مع نزوله: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يكفرون برحمة إلهية عامة تضمن لهم سعادة دنياهم وأخراهم لو أخذوه وعملوا به.

٢. ثم أمر تعالى: أن يصرح لهم القول في التوحيد فقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ﴾ أي هو وحده ربي من غير شريك كما تقولون ولربوبية لي وحده أتخذه القائم على جميع أموري وبها، وأرجع إليه في حوائجي وبذلك يظهر أن قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ﴾ من آثار الربوبية المتفرعة عليها فإن الرب هو المالك المدبر فمحصل المعنى هو وكيلي وإليه أرجع:

أ. وقيل: إن المراد بالمتاب هو التوبة من الذنوب لما في المعنى الأول من لزوم كون (إليه متاب) تأكيدا لقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهو خلاف ظاهر، وفيه منع رجوعه إلى التأكيد ثم منع كونه خلاف الظاهر وهو ظاهر.

ب. وذكر بعضهم: أن المعنى إليه متابي ومتابكم، وفيه أنه مستلزم لحذف وتقدير لا دليل عليه ومجرد كون مرجعهم إليه في الواقع لا يوجب التقدير من غير أن يكون في الكلام ما يوجب ذلك.

٣. أحاديث وآثار: أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريح: في قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ﴾ قال: هذا لما كاتب رسول الله ﷺ قريشا في الحديبية، كتب بسم الله الرحمن الرحيم قالوا: لا نكتب الرحمن وما ندري ما الرحمن؟ وما نكتب إلا باسمك اللهم فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ﴾

• أقول: ورواه أيضا عن ابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة وأنت تعلم أن الآيات على ما يعطيه سياقها مكية وصلح الحديبية من حوادث ما بعد الهجرة، على أن سياق الآية وحدها أيضا لا يساعد على نزول جزء من أجزائها في قصة وتقطعه عن الباقي.

٢٣. القرآن وتسيير الجبال وتقطيع الأرض:

المقطع [٢٣] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ

قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣١-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٥٨»:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾:

أ. المراد بتسيير الجبال قلعها من أصولها وإذهابها من مكان إلى مكان وبتقطيع الأرض شقها وجعلها قطعة قطعة، وبتكليم الموتى إحياؤهم لاستخبارهم عما جرى عليهم بعد الموت ليستدل على حقية الدار الآخرة فإن هذا هو الذي كانوا يقترحونه.

ب. فهذه أمور عظيمة خارقة للعادة فرضت آثارا لقرآن فرضه الله سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً﴾ إلخ، وجزاء لو محذوف لدلالة الكلام عليه فإن الكلام معقب بقوله: ﴿بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ والآيات، كما عرفت، مسوقة لبيان أن أمر الهداية ليس براجع إلى الآية التي يقترحونها بقولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ بل الأمر إلى الله يضل من يشاء كما أضلهم ويهدي إليه من أناب.

ج. وعلى هذا يجري سياق الآيات كقوله تعالى بعد: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾، وقوله: ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ الآية إلى غير ذلك، وعلى مثله جرى سياق الآيات السابقة.

د. فجزاء لو المحذوف هو نحو من قولنا: ما كان لهم أن يهتدوا به إلا أن يشاء الله والمعنى: ولو فرض أن قرآنا من شأنه أنه تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يحيا به الموتى فتكلم ما كان لهم أن يهتدوا به إلا أن يشاء الله بل الأمر كله لله ليس شيء منه لغيره حتى يتوهم متوهم أنه لو أنزلت آية عظيمة هائلة مدهشة أمكنها أن تهديهم لا بل الأمر لله جميعا والهداية راجعة إلى مشيته.

هـ. وعلى هذا فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الأنعام: ١١١]

٢. وما قيل: إن جزاء لو المحذوف نحو من قولنا: لكان ذلك هذا القرآن، والمراد بيان عظم شأن

القرآن وبلوغه الغاية القصوى في قوة البيان ونفوذ الأمر وجهالة الكفار حيث أعرضوا عنه واقترحوا آية غيره، والمعنى: أن القرآن في رفعة القدر وعظمة الشأن بحيث لو فرض أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى، أو في الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع، لكان ذلك هذا القرآن لكن الله لم ينزل قرآنا كذلك فالآية بوجه نظيرة قوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وفيه أن سياق الآيات كما عرفت لا يساعد على هذا التقدير ولا يلائمه قوله بعده: ﴿بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ وكذا قوله بعده: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ كما سنشير إليه إن شاء الله ولذلك تكلفوا في قوله: ﴿بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ بما لا يخلو عن تكلف.

أ. فقيل: إن المعنى لو أن قرآنا فعل به ذلك لكان هو هذا القرآن ولكن لم يفعل الله سبحانه بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده.

ب. وقيل: إن حاصل الإضراب أنه لا تكون هذه الأمور العظيمة الخارقة بقرآن بل تكون بغيره مما أراده الله فإن جميع الأمر له تعالى وحده.

ج. وقيل: إن الأحسن أن يكون قوله: ﴿بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾، معطوفا على محذوف والتقدير: ليس لك من الأمر شيء بل الأمر لله جميعا.

• وأنت ترى أن السياق لا يساعد على شيء من هذه المعاني، وأن حق المعنى الذي يساعد عليه السياق أن يكون إضرابا عن نفس الشرطية السابقة على تقدير الجزاء نحوا من قولنا: لم يكن لهم أن يهتدوا به إلا أن يشاء الله.

٣. ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ تفريع على سابقه:

أ. ذكر بعضهم أن اليأس بمعنى العلم وهي لغة هوازن وقيل لغة حي من النخع وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحي:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني... ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

وقول رباح بن عدي:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه... وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

ومحصل التفريع على هذا أنه إذا كانت الأسباب لا تملك من هدايتهم شيئا حتى قرآن سيرت به

الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى وأن الأمر لله جميعا فمن الواجب أن يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هداية الذين كفروا لو يشاء الله لهدى الناس جميعا الذين آمنوا والذين كفروا لكنه لم يهد الذين كفروا فلم يهتدوا ولن يهتدوا.

ب. وذكر بعضهم أن اليأس بمعناه المعروف وهو القنوط غير أن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ مضمن معنى العلم والمراد بيان لزوم علمهم بأن الله لم يشأ هدايتهم ولو شاء ذلك لهدى الناس جميعا ولزوم قنوطهم عن اهتدائهم وإيمانهم، فتقدير الكلام بحسب الحقيقة: أفلم يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هدايتهم ولو يشاء لهدى الناس جميعا أولم ييأسوا من اهتدائهم وإيمانهم؟ ثم ضمن اليأس معنى العلم ونسب إليه من متعلق العلم الجملة الشرطية فقط أعني قوله: ﴿لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ إيجازا وإيثارا للاختصار.

ج. وذكر بعضهم: أن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ على ظاهر معناه من غير تضمين وقوله: ﴿أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ﴾ إلخ، متعلق بقوله: ﴿آمَنُوا﴾ بتقدير الباء ومتعلق ﴿يَيْأَسِ﴾ محذوف وتقدير الكلام أفلم ييأس الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من إيمانهم وذلك أن الذين آمنوا يرون أن الأمر لله جميعا ويؤمنون بأنه تعالى لو يشاء لهدى الناس جميعا ولو لم يشأ لم يهد فإذ لم يهد ولم يؤمنوا فليعلموا أنه لم يشأ وليس في مقدره سبب من الأسباب أن يهديهم ويوفقهم للإيمان فلييأسوا من إيمانهم.

• وهذه وجوه ثلاثة لعل أعدلها أوسطها والآية على أي حال لا تخلو من إشارة إلى أن المؤمنين كانوا يودون أن يؤمن الكفار ولعلهم لمودتهم ذلك لما سمعوا قول الكفار: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ طمعوا في إيمانهم ورجوا منهم الاهتداء إن أنزل الله عليهم آية أخرى غير القرآن فسألوا النبي ﷺ أن يجيبهم على ذلك فأيأسهم الله من إيمانهم في هذه الآيات، وفي آيات أخرى من كلامه مكية ومدنية كقوله في سورة يس وهي مكية: ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ١٠]، وقوله في سورة البقرة وهي مدنية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [آية: ٦]

٤. ﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ سياق الآيات يشهد أن المراد بقوله: ﴿بِما صَنَعُوا﴾ كفرهم بالرحمن قبال الدعوة الحقة، والقارعة هي المصيبة تقرع الإنسان قرعا كأنها تؤذنه بأشد من نفسها وفي الآية تهديد ووعيد قطعي

للذين كفروا بعذاب غير مردود وذكر علائم وأشراط له تقرعهم مرة بعد مرة حتى يأتيهم العذاب الموعود، والمعنى: ولا يزال هؤلاء الذين كفروا بدعوتك الحقة تصيبهم بما صنعوا من الكفر بالرحمن مصيبة قارعة أو تحل تلك المصيبة القارعة قريبا من دارهم فلا يزالون كذلك حتى يأتي ما وعدهم الله من العذاب لأن الله لا يخلف ميعاده ولا يبدل قوله.

٥. والتأمل في كون السورة مكية على ما يشهد به مضامين آياتها ثم في الحوادث الواقعة بعد البعثة وقبل الهجرة وبعدها إلى فتح مكة يعطي:

أ. أن المراد بالذين كفروا هم كفار العرب من أهل مكة وغيرهم الذين ردوا أول الدعوة وبالغوا في الجحود والعناد وألحوا على الفتنة والفساد.

ب. والمراد بالذين تصيبهم القارعة من كان في خارج الحرم منهم تصيبهم قوارع الحروب وشن الغارات، وبالذين تحل القارعة قريبا من دارهم أهل الحرم من قريش تقع حوادث السوء قريبا من دارهم فتصيبهم معرتها وتنالهم وحشتها وهمها وسائر آثارها السيئة، والمراد بما وعدهم عذاب السيف الذي أخذهم في غزوة بدر وغيرها.

٦. واعلم أن هذا العذاب الموعود للذين كفروا في هذه الآيات غير العذاب الموعود المتقدم في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، إلى قوله ثانيا، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] فإن الذي في سورة يونس وعيد عام للأمة، والذي في هذه الآيات وعيد خاص بالذين كفروا في أول الدعوة النبوية من قريش وغيرهم، وقد تقدم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] في الجزء الأول من الكتاب أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في القرآن إذا أطلق إطلاقا المعاندون من مشركي العرب في أول الدعوة كما أن المراد بالذين آمنوا إذا أطلق كذلك السابقون إلى الإيمان في أول الدعوة.

٧. واعلم أيضا أن للمفسرين في الآية أقوالا شتى تركنا إيرادها إذ لا طائل تحت أكثرها وفيما ذكرناه من الوجه كفاية للباحث المتدبر، وسيوافيك بعضها في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

٨. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾:

أ. تأكيد لما في الآية السابقة من الوعيد القطعي ببيان نظائر له تدل على إمكان وقوعه أي لا يتوهمن

متوهم أن هذا الذي نهددهم به وعيد خال لا دليل على وقوعه كما قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]، وذلك أنه قد استهزئ برسل من قبلك بالكفر وطلب الآيات كما كفر هؤلاء بدعوتك ثم اقترحوا عليك آية مع وجود آية القرآن فأمليت وأمهلت للذين كفروا ثم أخذتهم بالعذاب فكيف كان عقابي؟ أكان وعيدا خاليا لا شيء وراءه؟ أم كان أمرا يمكنهم أن يتقوه أو يدفعوه أو يتحملوه؟ فإذا كان ذلك قد وقع بهم فليحذر هؤلاء وفعالهم كفعالهم أن يقع مثله بهم، ومن ذلك يظهر أن قولهم: إن الآية تسلية وتعزية للنبي ﷺ في غير محله.

ب. وقد بدل الاستهزاء في الآية ثانيا من الكفر إذ قيل: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقل بالذين استهزءوا للدلالة على أن استهزاءهم كان استهزاء كفر كما أن كفرهم كان كفر استهزاء فهم الكافرون المستهزءون بآيات الله كالذين كفروا بالنبي ﷺ وقالوا مستهزئين بالقرآن وهو آية: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

٩. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عطية العوفي قال: قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع، فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض، كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا الموتى، كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ﴾ الآية إلى قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: أفلم يتبين الذين آمنوا، قالوا: هل تروي هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: عن سعيد الخدري عن النبي ﷺ.

• أقول: وفيما يقرب من هذا المضمون روايات أخرى.

ب. وفي تفسير القمي، قال: لو كان شيء من القرآن كذلك لكان هذا.

ج. وفي الكافي، عن محمد بن يحيى عن أحمد بن أبي زاهر أو غيره عن محمد بن حماد عن أخيه أحمد بن حماد عن إبراهيم عن أبيه عن أبي الحسن الأول عليه السلام في حديث: وإن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾ وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال، وتقطع به البلدان ويحيى به الموتى، الحديث.

• أقول: والحديثان ضعيفان سندا.

د. أخرج ابن جرير عن علي: أنه قرأ: (أفلم يتبين الذين آمنوا)

• أقول: ورِوي هذه القراءة أيضا عن ابن عباس.

هـ. وفي المجمع: (قرأ علي عليه السلام وابن عباس وعلي بن الحسين عليه السلام وزيد بن علي وجعفر بن محمد عليه السلام وابن أبي مليكة والجحدري وأبو يزيد المدني: أفلم يتبين والقراءة المشهورة: أفلم ييأس.

و. وفي تفسير القمي، قال وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ﴾ وهي النقمة ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ﴾ فتحل بقوم غيرهم فيرون ذلك ويسمعون به، والذين حلت بهم عصاة كفار مثلهم، ولا يتعظ بعضهم ببعض ولا يزالون كذلك، حتى يأتي وعد الله الذي وعد المؤمنين من النصر، ويخزي الله الكافرين.

٢٤. قيومية الله على كل نفس بما كسبت:

المقطع [٢٤] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ (٣٣ـ٣٤)﴾ [الرعد: ٣٣ـ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٦٣»:

١. ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ﴾:

أ. القائم على شيء هو المهيمن المتسلط عليه والقائم بشيء من الأمر هو الذي يدبره نوعا من التدبير والله سبحانه هو القائم على كل نفس بما كسبت أما قيامه عليها فلأنه محيط بذاتها قاهر عليها شاهد لها، وأما قيامه بما كسبت فلأنه يدبر أمر أعمالها فيحولها من مرتبة الحركة والسكون إلى أعمال محفوظة عليها في صحائف الأعمال ثم يحولها إلى المثوبات والعقوبات في الدنيا والآخرة من قرب وبعد وهدى وضلال ونعمة ونقمة وجنة ونار.

ب. والآية متفرعة على ما تقدمها أي إذا كان الله سبحانه يهدي من يشاء فيجازيه بأحسن الثواب ويضل من يشاء فيجازيه بأشد العقاب وله الأمر جميعا فهو قائم على كل نفس بما كسبت ومهيمن مدبر لنظام الأعمال فهل يعدله غيره حتى يشاركه في ألوهيته؟

ج. ومن ذلك يظهر أن الخبر في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ﴾، محذوف يدل عليه قوله: ﴿وَجَعَلُوا للهِ

﴿شُرَكاءَ﴾ ومن سخيف القول ما نسب إلى الضحاك أن المراد بقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ الملائكة لكونهم موكلين على الأعمال والمعنى أفيكون الملائكة الموكلون على الأعمال بأمره شركاء له سبحانه؟ وهو معنى بعيد من السياق غايته.

٢. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ لما ذكر سبحانه قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ﴾ عاد إليهم ببيان يبطل به قولهم ذلك مأخوذ من البيان السابق بوجه، فأمر نبيه بأن يحاجهم بنوع من الحجاج عجيب في بابه فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي صفوهم فإن صفات الأشياء هي التي تتعين بها شئونها وآثارها فلو كانت هذه الأصنام شركاء لله شفعاء عنده وجب أن يكون لها من الصفات ما يسوي لها الطريق لهذا الشأن كما يقال فيه تعالى إنه حي عليم قدير خالق مالك مدبر فهو رب كل شيء لكن الأصنام إذا ذكرت فقيل: هبل أو اللات أو العزى لم يوجد لها من الصفات ما يظهر به أنها شريكة لله شفيعة عنده.

٣. ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ وأم منقطعة أي بل أتنبئونه بكذا والمعنى أن اتخاذكم الأصنام شركاء له إنباء له في الحقيقة بما لا يعلم فلو كان له شريك في الأرض لعلم به لأن الشريك في التدبير يمتنع أن يخفى تأثيره في التدبير على شريكه والله سبحانه يدبر الأمر كله ولا يرى لغيره أثرا في ذلك لا موافقا ولا مخالفا، والدليل على أنه لا يرى لنفسه شريكا في الأمر أنه تعالى هو القائم على كل نفس بما كسبت، وبعبارة أخرى أن له الخلق والأمر وهو على كل شيء شهيد بالبرهان الذي لا سبيل للشك إليه، والآية بالجملة كقوله في موضع آخر: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]

٤. ثم قال: ﴿أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾:

أ. أي بل أتنبئونه بأن له شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة وهذا كقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ [النجم: ٢٣]

ب. وعن بعضهم أن المراد بظاهر من القول ظاهر كتاب نازل من الله تسمى فيه الأصنام آلهة حقة وحاصل الآية نفي الدليل العقلي والسمعي معا على ألوهيتها وكونها شركاء لله سبحانه وهو بعيد من اللفظ.

٥. ووجه الارتباط بين هذه الحجج الثلاث أنهم في عبادتهم الأصنام وجعلهم لله شركاء مترددون بين محاذير ثلاثة إما أن يقولوا بشركتها من غير حجة إذ ليس لها من الأوصاف ما يعلم به أنها شركاء لله، وإما أن يدعوا أن لها أوصافا كذلك هم يعلمونها ولا يعلم بها الله سبحانه، وإما أن يكونوا متظاهرين بالقول بشركتها من غير حقيقة وهم يغرون الله بذلك تعالى عن ذلك علوا كبيرا، قال الزمخشري في الكشاف: (وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف على نفسه)

٦. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ﴾ إضراب عن الحجج المذكورة ولوازمها والمعنى دع هذه الحجج فإنهم لا يجعلون له شركاء لشيء من هذه الوجوه بل مكر زينه لهم الشيطان وصدهم بذلك عن سبيل الله تعالى وذلك أنهم على علم بأنه لا حجة على شركتها وأن مجرد الدعوى لا ينفعهم لكنهم يريدون بترويج القول بألوهيتها وتوجيه قلوب العامة إليها عرض الدنيا وزينتها، ودعوتك إلى سبيل الله مانعة دون ذلك فهم في تصلبهم في عبادتها ودعوة الناس إليها والحث على الأخذ بها يمكرون بك من وجه وبالناس من وجه آخر وقد زين لهم هذا المكر وهو السبب في جعلهم إياها شركاء لا غير ذلك من حجة أو غيرها وصدوا بذلك عن السبيل، فهم زين لهم المكر وصدوا به عن السبيل والذي زين لهم وصدهم هو الشيطان بإغوائهم، وأضلوا والذي أضلهم هو الله سبحانه بإمساك نعمة الهدى منهم ومن يضلل الله فما له من هاد.

٧. ﴿لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ أشق أفعل من المشقة وواق اسم فاعل من الوقاية بمعنى الحفظ.

٨. وفي الآية إيجاز القول فيما وعد الله الذين كفروا من العذاب في الآيات السابقة، وفي قوله: ﴿وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ نفي الشفاعة وتأثيرها في حقهم أصلا، ومعنى الآية ظاهر.

٢٥. مثل الجنة التي وعد المتقون:

المقطع [٢٥] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٦٦»:

١. ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾:

أ. المثل هو الوصف يمثل الشيء.

ب. وفي قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ بيان ما خص الله به المتقين من الوعد الجميل مقابلة لما أوعد به الذين كفروا وليكون تمهيدا لما يختم به القول من الإشارة إلى محصل سعي الفريقين في مسيرهم إلى ربهم ورجوعهم إليه وقد قابل الذين كفروا بالمتقين إشارة إلى أن الذين ينالون هذه العاقبة الحسنى هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات دون المؤمنين من غير عمل صالح فإنهم مؤمنون بالله كافرون بآياته.

ج. ومن لطيف الإشارة في الكلام المقابلة بين المؤمنين والمشركين أولا بتعبير (المتقون والذين كفروا) وأخيرا بقوله (الذين اتقوا والكافرون) ولعل فيه تلويحا إلى أن الفعل الماضي والصفة هاهنا واحد مدلولا ومجموع أعمالهم في الدنيا مأخوذ عملا واحدا، ولازم ذلك أن يكون تحقق العمل وصدور الفعل مرة واحدة عين اتصافهم به مستمرا، ويفيد حينئذ قولنا: (الكافرون والمتقون) الدالان على ثبوت الاتصاف وقولنا: (الذين كفروا والذين اتقوا) الدالان على تحقق ما للفعل مفادا واحدا، وهو قصر الموصوف على صفته، وأما من تبدل عليه العمل كأن تحقق منه كفر أو تقوى ثم تبدل بغيره ولم يختتم له العمل بعد فهو خارج عن مساق الكلام فافهم ذلك.

٢. واعلم أن في الآيات السابقة وجوها مختلفة من الالتفات كقوله: ﴿كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ﴾ ثم قوله: ﴿بَلْ للهِ الْأَمْرُ﴾ ثم قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم قوله: ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ﴾ والوجه فيه غير خفي فالتعبير بمثل ﴿أَرْسَلْناكَ﴾ للدلالة على أن هناك وسائط كملائكة الوحي مثلا، والتعبير بمثل ﴿بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ للدلالة على رجوع كل أمر ذي وسط أو غير ذي وسط إلى مقام الألوهية القيوم على كل شيء، والتعبير بمثل ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ للدلالة على أنه لا واسطة في الحقيقة يكون شريكا أو شفيعا كما يدعيه المشركون.

٣. ثم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾ إشارة إلى خاتمة أمر الفريقين وعقباهما كما تقدم، وبه يختتم البحث في المؤمنين والمشركين من حيث آثار الحق والباطل في عقيدتها وأعمالها، فقد عرفت أن هذه الآيات التسع التي نحن فيها من تمام الآيات العشر السابقة المبتدئة بقوله:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ الآية.

٢٦. أهل الكتاب يفرحون بالوحي الإلهي ومن الأحزاب من ينكر بعضه:

المقطع [٢٦] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَّ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٧١»:

١. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الظاهر أن المراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى أو هم والمجوس فإن هذا هو المعهود من إطلاقات القرآن والسورة مكية وقد أثبت التاريخ أن اليهود ما كانوا يعاندون النبوة العربية في أوائل البعثة وقبلها ذاك العناد الذي ساقتهم إليه حوادث ما بعد الهجرة وقد دخل جمع منهم في الإسلام أوائل الهجرة وشهدوا على نبوة النبي ﷺ وكونه مبشرا به في كتبهم كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠]

ب. وأنه كان من النصارى يومئذ قوم على الحق من غير أن يعاندوا دعوة الإسلام كقوم من نصارى الحبشة على ما نقل من قصة هجرة الحبشة وجمع من غيرهم، وقد قال تعالى في أمثالهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] وقال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وكذا كانت المجوس ينتظرون الفرج بظهور منج ينشر الحق والعدل وكانوا لا يعاندون الحق كما يعانده المشركون.

ج. فالظاهر أن يكونوا هم المعنيون بالآية وخاصة المحقون من النصارى وهم القائلون بكون المسيح بشرا رسولا كالنجاشي وأصحابه، ويؤيده ما في ذيل الآية من قوله: ﴿قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ فإنه أنسب أن يخاطب به النصارى.

٢. ﴿وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ اللام للعهد أي ومن أحزاب أهل الكتاب من ينكر بعض ما أنزل إليك وهو ما دل منه على التوحيد ونفي التثليث وسائر ما يخالف ما عند أهل الكتاب من المعارف والأحكام المحرفة.

٣. ﴿قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾ دليل على أن المراد من البعض الذي ينكرونه ما

يرجع إلى التوحيد في العبادة أو الطاعة وقد أمره الله أن يخاطبهم بالموافقة عليه بقوله: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]

٤. ثم تمم الكلام بقوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾:

أ. أي مرجعي فكان أول الكلام مفصحا عن بغيته في نفسه ولغيره، وآخره عن سيرته أي أمرت لأعبد الله وحده في عملي ودعوتي، وعلى ذلك أسير بين الناس فلا أدعو إلا إليه ولا أرجع في أمر من أموري إلا إليه فذيل الآية في معنى قوله: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]

ب. ويمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ المعاد ويفيد حينئذ فائدة التعليل أي إليه أدعوه وحده لأن مآبي إليه وحده.

٥. وقد فسر:

أ. بعضهم الكتاب في الآية بالقرآن والذين أوتوا الكتاب بأصحاب النبي ﷺ والأحزاب بالأعراب الذين تحزبوا على النبي ﷺ وأداروا عليه الدوائر من قريش وسائر القبائل.

• وفيه أنه خلاف المعهود من إطلاق القرآن لفظة: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ على أن ذلك يؤدي إلى كون الآية مشتملة على معنى مكرر.

ب. وربما ذكر بعضهم أن المراد بهم اليهود خاصة والكتاب هو التوراة والمراد بإنكار بعض أحزابهم بعض القرآن وهو ما لا يوافق أحكامهم المحرفة مع أن الجميع ينكرون ما لا يوافق ما عندهم إنكاره من غير فرح وأما الباقون فكانوا فرحين ومنكرين وقد أطالوا البحث عن ذلك.

ج. وعن بعضهم: أن المراد بالموصول عامة المسلمين، وبالأحزاب اليهود والنصارى والمجوس، وعن بعضهم أن تقدير قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ وإليه مآبي ومآبكم، وهذه أقوال لا دليل من اللفظ على شيء منها ولا جدوى في إطالة البحث عنها.

٢٧. القرآن والأهواء والعلم والولاية:

المقطع [٢٧] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ

اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٧٣»:

١. ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ﴾:

أ. الإشارة بقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ إلى الكتاب المذكور في الآية السابقة وهو جنس الكتاب النازل على الأنبياء الماضين كالتوراة والإنجيل.

ب. والمراد بالحكم هو القضاء والعزيمة فإن ذلك هو شأن الكتاب النازل من السماء المشتمل على الشريعة كما قال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٢] فالكتاب حكم إلهي بوجه وحاكم بين الناس بوجه فهذا هو المراد بالحكم دون الحكمة كما قيل.

ج. ﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة لحكم وإشارة إلى كون الكتاب بلسان عربي وهو لسانه ﷺ سنة الله التي قد خلت في عباده، قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] وهذا، كما لا يخفى، من الشاهد على أن المراد بالمذكورين في الآية السابقة اليهود والنصارى، وأن هذه الآيات متعرضة لشأنهم كما كانت الآيات السابقة عليها متعرضة لشأن المشركين.

٢. وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ﴾، النهي عن اتباع أهواء أهل الكتاب، وقد ذكر في القرآن من ذلك شيء كثير، وعمدة ذلك أنهم كانوا يقترحون على النبي ﷺ آية غير القرآن كما كان المشركون يقترحونها، وكانوا يطمعون أن يتبعهم فيما عندهم من الأحكام لإحالتهم النسخ في الأحكام، وهذان الأمران ولا سيما أولهما عمدة ما تتعرض له هذه الآيات.

٣. والمعنى: وكما أنزلنا على الذين أوتوا الكتاب كتابهم أنزلنا هذا القرآن عليك بلسانك مشتملا على حكم أو حاكما بين الناس ولئن اتبعت أهواء أهل الكتاب فتمنيت أن ينزل عليك آية غير القرآن كما يقترحون أو داهنتهم وملت إلى اتباع بعض ما عندهم من الأحكام المنسوخة أو المحرفة أخذناك بالعقوبة وليس لك ولي يلي أمرك من دون الله ولا واق يقيك منه فالخطاب للنبي ﷺ وهو المراد به دون الأمة كما ذكره بعضهم.

٢٨. الرسل والأزواج والذرية والآيات:

المقطع [٢٨] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٧٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ﴾ لما نهى النبي ﷺ عن اتباع أهوائهم فيما اقترحوا عليه من إنزال آية غير القرآن ذكره بحقيقة الحال التي تؤيسه من الطمع في ذلك ويعزم عليه أن يتوكل على الله ويرجع إليه الأمور، وهو أن سنة الله الجارية في الرسل أن يكونوا بشرا جارين على السنة المألوفة بين الناس من غير أن يتعدوها فيملكوا شيئا مما يختص بالغيب كأن يكونوا ذا قوة غيبية فعالة لما تشاء قديرة على كل ما أرادت أو أريد منها حتى تأتي بكل آية شاءت إلا أن يأذن الله له فليس للرسول وهو بشر كسائرهم من الأمر شيء بل لله الأمر جميعا، فهو الذي ينزل الآية إن شاء غير أنه سبحانه إنما ينزل من الآيات إذا اقتضته الحكمة الإلهية وليست الأوقات مشتركة متساوية في الحكم والمصالح وإلا لبطلت الحكمة واختل نظام الخليقة بل لكل وقت حكمة تناسبه وحكم يناسبه فلكل وقت آية تخصه، وهذا هو الذي تشير إليه الآية فقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً﴾ إشارة إلى السنة الجارية في الرسل من البشرية العادية، وقوله: ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ إشارة إلى حرمانهم من القدرة الغيبية المستقلة بكل ما أرادت إلا أن يمدهم الإذن الإلهي.

٢. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي وقت محدود ﴿كِتابٌ﴾ أي حكم مقضي مكتوب يخصه إشارة إلى ما يلوح إليه استثناء الإذن وسنة الله الجارية فيه، والتقدير فالله سبحانه هو الذي ينزل ما شاء ويأذن فيما شاء لكنه لا ينزل ولا يأذن في كل آية في كل وقت فإن لكل وقت كتابا كتبه لا يجري فيه إلا ما فيه.

٣. ومما تقدم يظهر أن ما ذكره بعضهم أن قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ﴾ من باب القلب وأصله: لكل كتاب أجل أي إن لكل كتاب منزل من عند الله وقتا مخصوصا ينزل فيه ويعمل عليه فللتوراة وقت وللإنجيل وقت وللقرآن وقت، وجه لا يعبأ به.

٢٩. الله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب:

المقطع [٢٩] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ

أُمُّ الْكِتابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٧٥»:

١. ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾:

أ. محو الشيء هو إذهاب رسمه وأثره يقال: محوت الكتاب إذا أذهبت ما فيه من الخطوط والرسوم قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤] أي يذهب بآثار الباطل كما قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً﴾ وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] أي أذهبنا أثر الإبصار من الليل فالمحو قريب المعنى من النسخ يقال: نسخت الشمس الظل أي ذهبت بأثره ورسمه.

ب. وقد قوبل المحو في الآية بالإثبات وهو إقرار الشيء في مستقره بحيث لا يتحرك ولا يضطرب يقال: أثبت الوتد في الأرض إذا ركزته فيها بحيث لا يتحرك ولا يخرج من مركزه فالمحو هو إزالة الشيء بعد ثبوته برسمه ويكثر استعماله في الكتاب.

ج. ووقوع قوله: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾ بعد قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ﴾ واتصاله به من جانب وبقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ من جانب ظاهر في أن المراد محو الكتب وإثباتها في الأوقات والآجال فالكتاب الذي أثبته الله في الأجل الأول إن شاء محاه في الأجل الثاني وأثبت كتابا آخر فلا يزال يمحى كتاب ويثبت كتاب آخر.

د. وإذا اعتبرنا ما في الكتاب من آية وكل شيء آية صح أن يقال لا يزال يمحو آية ويثبت آية كما يشير إليه قوله: ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾ الآية: [النحل: ١٠١]

هـ. فقوله: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾ على ما فيه من الإطلاق يفيد فائدة التعليل لقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ﴾ والمعنى أن لكل وقت كتابا يخصه فيختلف فاختلاف الكتب باختلاف الأوقات والآجال إنما ظهر من ناحية اختلاف التصرف الإلهي بمشيته لا من جهة اختلافها في أنفسها ومن ذواتها بأن يتعين لكل أجل كتاب في نفسه لا يتغير عن وجهه بل الله سبحانه هو الذي يعين ذلك بتبديل كتاب مكان كتاب ومحو كتاب وإثبات آخر.

٢. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾:

أ. أي أصله فإن الأم هي الأصل الذي ينشأ منه الشيء ويرجع إليه، وهو دفع للدخل وإبانة لحقيقة الأمر فإن اختلاف حال الكتاب المكتوب لأجل بالمحو والإثبات أي تغير الحكم المكتوب والقول المقضي به حينا بعد حين ربما أوهم أن الأمور والقضايا ليس لها عند الله سبحانه صورة ثابتة وإنما يتبع حكمه العلل والعوامل الموجبة له من خارج كأحكامنا وقضايانا معاشر ذوي الشعور من الخلق أو أن حكمه جزافي لا تعين له في نفسه ولا مؤثر في تعينه من خارج كما ربما يتوهم أرباب العقول البسيطة أن الذي له ملك، بكسر اللام، مطلق وسلطنة مطلقة له أن يريد ما يشاء ويفعل ما يريد على حرية مطلقة من رعاية أي قيد وشرط وسلوك أي نظام أو لا نظام في عمله فلا صورة ثابتة لشيء من أفعاله وقضاياه عنده، وقد قال تعالى: ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ [الرعد: ٨] إلى غير ذلك من الآيات.

ب. فدفع هذا الدخل بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ أي أصل جنس الكتاب والأمر الثابت الذي يرجع إليه هذه الكتب التي تمحى وتثبت بحسب الأوقات والآجال ولو كان هو نفسه تقبل المحو والإثبات لكان مثلها لا أصلا لها ولو لم يكن من أصله كان المحو والإثبات في أفعاله تعالى إما تابعا لأمور خارجة تستوجب ذلك فكان تعالى مقهورا مغلوبا للعوامل والأسباب الخارجية مثلنا والله يحكم لا معقب لحكمه.

ج. وإما غير تابع لشيء أصلا وهو الجزاف الذي يختل به نظام الخلقة والتدبير العام الواحد بربط الأشياء بعضها ببعض جلت عنه ساحته، قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]

د. فالملخص من مضمون الآية أن لله سبحانه في كل وقت وأجل كتابا أي حكما وقضاء وأنه يمحو ما يشاء من هذه الكتب والأحكام والأقضية ويثبت ما يشاء أي يغير القضاء الثابت في وقت فيضع في الوقت الثاني مكانه قضاء آخر لكن عنده بالنسبة إلى كل وقت قضاء لا يتغير ولا يقبل المحو والإثبات وهو الأصل الذي يرجع إليه الأقضية الآخر وتنشأ منه فيمحو ويثبت على حسب ما يقتضيه هو.

٣. ويتبين بالآية:

أ. أولا: أن حكم المحو والإثبات عام لجميع الحوادث التي تداخله الآجال والأوقات:

• وهو جميع ما في السماوات والأرض وما بينهما، قال تعالى: ﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]، وذلك لإطلاق قوله: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾

واختصاص المورد بآيات النبوة لا يوجب تخصيص الآية لأن المورد لا يخصص.

- وبذلك يظهر فساد:
- قول بعضهم: إن ذلك في الأحكام وهو النسخ.
- وقول ثان: إن ذلك في المباحات المثبتة في صحائف الأعمال يمحوها الله ويثبت مكانها طاعة أو معصية مما فيه الجزاء.
- وقول ثالث: إنه محو ذنوب المؤمنين فضلا وإثبات ذنوب للكفار عقوبة.
- وقول رابع: إنه في موارد يؤثر فيها الدعاء والصدقة في المحن والمصائب وضيق المعيشة ونحوها.
- وقول خامس: إن المحو إزالة الذنوب بالتوبة والإثبات تبديل السيئات حسنات.
- وقول سادس: إنه محو ما شاء الله من القرون والإثبات إنشاء قرون آخرين بعدهم.
- وقول سابع: إنه محو القمر وإثبات الشمس وهو محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة.
- وقول ثامن: إنه محو الدنيا وإثبات الآخرة.
- وقول تاسع: إن ذلك في الأرواح حالة النوم يقبضها الله فيرسل من يشاء منهم ويمسك من يشاء.
- وقول عاشر: إن ذلك في الآجال المكتوبة في ليلة القدر يمحو الله ما يشاء منها ويثبت ما يشاء.
- فهذه وأمثالها أقوال لا دليل على تخصيص الآية الكريمة بها من جهة اللفظ البتة وللآية إطلاق لا ريب فيه ثم المشاهدة الضرورية تطابقه فإن ناموس التغير جار في جميع أرجاء العالم المشهود، وما من شيء قيس إلى زمانين في وجوده إلا لاح التغير في ذاته وصفاته وأعماله، وفي عين الحال إذا اعتبرت في نفسها وبحسب وقوعها وجدت ثابتة غير متغيرة فإن الشيء لا يتغير عما وقع عليه.
- فللأشياء المشهودة جهتان جهة تغير يستتبع الموت والحياة والزوال والبقاء وأنواع الحيلولة والتبدل، وجهة ثبات لا تتغير عما هي عليها وهما إما نفس كتاب المحو والإثبات وأم الكتاب، وإما أمران مترتبان على الكتابين وعلى أي حال تقبل الآية الصدق على هاتين الجهتين،، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٧٧»

ب. وثانيا: أن لله سبحانه في كل شيء قضاء ثابتا لا يتغير وبه يظهر فساد ما ذكره بعضهم أن كل

قضاء يقبل التغيير واستدل عليه بمتفرقات الروايات والأدعية الدالة على ذلك والآيات والأخبار الدالة على أن الدعاء والصدقة يدفعان سوء القضاء، وفيه أن ذلك في القضاء غير المحتوم.

ج. وثالثا: أن القضاء ينقسم إلى قضاء متغير وغير متغير وستستوفي تتمة البحث في الآية عن قريب إن شاء الله تعالى.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال): قالت قريش حين أنزل: ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ ما نراك يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفا لهم ووعيدا لهم، ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا.

• أقول: والآية كما تقدم بيانه أجنبية عن هذا المعنى، وفي ذيل هذا الحديث ويحدث الله في كل رمضان فيمحو الله ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم، وفي رواية أخرى عن جابر عن النبي ﷺ: في الآية: قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، وهذا من قبيل التمثيل والآية أعم.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: أن النبي ﷺ سئل عن قوله: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: ذلك كل ليلة القدر يرفع ويخفض ويرزق، غير الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإن ذلك لا يزول.

• أقول: والرواية على معارضتها الروايات الكثيرة جدا المأثورة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام والصحابة تخالف إطلاق الآية وحجة العقل، ومثلها ما عن ابن عمر عن النبي ﷺ: يمحو الله ما يشاء ويثبت، إلا الشقوة والسعادة والحياة والموت.

ج. أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن علي: أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال له: لأقرن عينيك بتفسيرها ولأقرن عين أمتي بعدي بتفسيرها، الصدقة على وجهها وبر الوالدين واصطناع المعروف يحول الشقاء سعادة، ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء.

• أقول: والرواية لا تزيد على ذكر بعض مصاديق الآية.

د. وفي الكافي، بإسناده عن هشام بن سالم وحفص بن البختري وغيرهما عن أبي عبد الله عليه

السلام: في هذه الآية: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: فقال: وهل يمحى إلا ما كان ثابتا؟ وهل يثبت إلا ما لم يكن؟

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره عن جميل عنه عليه السلام.

هـ. وفي تفسير العياشي، عن الفضيل بن يسار قال، سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: من الأمور أمور محتومة كائنة لا محالة، ومن الأمور أمور موقوفة عند الله يقدم فيها ما يشاء، ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، لم يطلع على ذلك أحدا يعني الموقوفة، فأما ما جاءت به الرسل فهي كائنة، لا يكذب نفسه ولا نبيه ولا ملائكته.

• أقول: وروي بطريق آخر وكذا في الكافي بإسناده عن الفضيل عنه عليه السلام ما في معناه.

و. وفيه، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: لو لا آية في كتاب الله، لحدثتكم بما كان وبما يكون إلى يوم القيامة، فقلت له، أية آية؟ فقال: قال الله: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾

• أقول: معناه أن اللائح من الآية أن الله سبحانه لا يريد من خلقه إلا أن يعيشوا على جهل بالحوادث المستقبلة ليقوموا بواجب حياتهم بهداية من الأسباب العادية وسياقة من الخوف والرجاء، وظهور الحوادث المستقبلة تمام ظهورها يفسد هذه الغاية الإلهية فهو سبب الكف عن التحديث لا الخوف من أن يكذبه الله بالبداء فإنه مأمون منه فلا تعارض بين الرواية وما قبلها.

ز. وفيه، عن الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى كتب كتابا فيه ما كان وما هو كائن، فوضعه بين يديه فما شاء منه قدم وما شاء منه أخر، وما شاء منه محى وما شاء منه كان وما لم يشأ لم يكن.

ح. وفيه، عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: إن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب، وقال: كل أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يضعه، وليس شيء يبدو له إلا وقد كان في علمه، أن الله لا يبدو له من جهل.

• أقول: والروايات في البداء عنهم عليه السلام متكاثرة مستفيضة فلا يعبأ بما نقل عن بعضهم أنه خبر واحد.

• والرواية كما ترى تنفي البداء بمعنى علمه تعالى ثانيا بما كان جاهلا به أولا بمعنى تغير علمه في ذاته كما ربما يتفق فينا تعالى عن ذلك، وإنما هو ظهور أمر منه تعالى ثانيا بعد ما كان الظاهر منه خلافه أولا فهو محو الأول وإثبات الثاني والله سبحانه عالم بهما جميعا.

• وهذا مما لا يسع لذي لب إنكاره فإن للأمور والحوادث وجودا بحسب ما تقتضيه أسبابها الناقصة من علة أو شرط أو مانع ربما تخلف عنه، ووجودا بحسب ما تقتضيه أسبابها وعللها التامة وهو ثابت غير موقوف ولا متخلف، والكتابان أعني كتاب المحو والإثبات وأم الكتاب إما أن يكونا أمرين تتبعهما هاتان المرحلتان من وجود الأشياء اللتان إحداهما تقبل المحو والإثبات والأخرى لا تقبل إلا الثبات، وإما أن يكونا عين تينك المرحلتين، وعلى أي حال ظهور أمر أو إرادة منه تعالى بعد ما كان الظاهر خلافه واضح لا ينبغي الشك فيه.

• والذي أحسب أن النزاع في ثبوت البداء كما يظهر من أحاديث أئمة أهل البيت عليه السلام ونفيه كما يظهر من غيرهم نزاع لفظي ولهذا لم نعقد لهذا البحث فصلا مستقلا على ما هو دأب الكتاب ومن الدليل على كون النزاع لفظيا استدلالهم على نفي البداء عنه تعالى بأنه يستلزم التغير في علمه مع أنه لازم البداء بالمعنى الذي يفسر به البداء فينا لا البداء بالمعنى الذي يفسره به الأخبار فيه تعالى.

ط. أخرج الحاكم عن أبي الدرداء: أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾ مخففة.

٣٠. البلاغ والحساب ونقص الأرض من أطرافها:

المقطع [٣٠] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤٠ـ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٧٨»:

١. ﴿وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ ﴿إِنْ ما﴾ هو إن الشرطية وما الزائدة للتأكيد والدليل عليه دخول نون التأكيد في الفعل بعده، وفي الآية إيضاح لما للنبي ﷺ من الوظيفة وهو الاشتغال بأمر الإنذار والتبليغ فحسب فلا ينبغي له أن يتبع أهواءهم في نزول آية عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغي له أن ينتظر نتيجة بلاغه أو حلول ما أوعدهم الله من العذاب بهم، وفي الآية دلالة على أن الحساب الإلهي يجري في الدنيا كما يجري في الآخرة.

٢. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾:

أ. كلام مسوق للعبرة بعد ما قدم إليهم الوعيد بالهلاك، ومنه يعلم أن إتيان الأرض ونقصها من أطرافها كناية عن نقص أهلها بالإماتة والإهلاك فالآية نظيرة قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]

ب. وقول بعضهم إن المراد به أولم ير أهل مكة أنا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بفتح القرى واحدة بعد واحدة للمسلمين فليخافوا أن نفتح بلدتهم وننتقم منهم يدفعه أن السورة مكية وتلك الفتوحات إنما كانت تقع بعد الهجرة، على أن الآيات بوعيدها ناظرة إلى هلاكهم بغزوة بدر وغيرها لا إلى فتح مكة.

٣. ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ يريد به أن الغلبة لله سبحانه فإنه يحكم وليس قبال حكمه أحد يعقبه ليغلبه بالمنع والرد وهو سبحانه يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهلة حتى يتصرف فيه غيره بالإخلال فقوله: ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ﴾ في معنى قوله في ذيل آية سورة الأنبياء المتقدمة: ﴿أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: في قوله: ﴿نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾ قال: ذهاب العلماء.

ب. وفي المجمع: (عن أبي عبد الله عليه السلام: ننقصها بذهاب علمائها وفقهائها وأخيارها.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن محمد بن علي عمن ذكره عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: إنه ليسخي نفسي في سرعة الموت أو القتل فينا قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾ فقال: فقد العلماء.

• أقول: كأن المراد أنه يسخي نفسي أن الله تعالى نسب توفي العلماء إلى نفسه لا إلى غيره فيهنأ لي الموت أو القتل.

٣١. المعاندون والمكر:

المقطع [٣١] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ

الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٧٩»:

١. ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ إلى آخر الآية، أي وقد مكر الذين من قبلهم فلم ينفعهم مكرهم ولم يقدروا على صدنا من أن نأتي الأرض فننقصها من أطرافها فالله سبحانه يملك المكر كله ويبطله ويرده إلى أهله فليعتبروا.

٢. ﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ في مقام التعليل لملكه تعالى كل مكر فإن المكر إنما يتم مع جهل الممكور به وأما إذا علم به فعنده بطلانه.

٣. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ قطع للحجاج بدعوى أن مسألة انتهاء الأمور إلى عواقبها من الأمور الضرورية العينية لا تتخلف عن الوقوع وسيشهدونها شهود عيان فلا حاجة إلى الإطالة والإطناب في إعلامهم ذلك فسيعلمون.

٣٢. الرسالة والشهادة وعلم الكتاب:

المقطع [٣٢] من سورة الرعد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٣٨٣»:

١. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ بناء الكلام في السورة على إنكارهم حقية الكتاب وعدم عدهم إياه آية إلهية للرسالة ولذا كانوا يقترحون آية غيره كما حكاه الله تعالى في خلال الآيات مرة بعد مرة وأجاب عنه بما يرد عليهم قولهم فكأنهم لما يئسوا مما اقترحوا أنكروا أصل الرسالة لعدم إذعانهم بما أنزل الله من آية وعدم إجابتهم فيما اقترحوه من آية فكانوا يقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾، فلقن الله نبيه ﷺ الحجة عليهم لرسالته بقوله: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ وهو حجة قاطعة وليس بكلام خطابي ولا إحالة إلى ما لا طريق إلى حصول العلم به.

٢. فقوله: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:

أ. استشهاد بالله سبحانه وهو ولي أمر الإرسال وإنما هي شهادة تأدية لا شهادة تحمل فقط فإن أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من آيات القرآن وكونه آية معجزة من الله

ضروري، وكونه قولا وكلاما له سبحانه ضروري واشتماله على تصديق الرسالة بدلالة المطابقة المعتمدة على علم ضروري أيضا ضروري، ولا نعني بشهادة التأدية إلا ذلك.

ب. ومن فسر شهادته تعالى من المفسرين بأنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الأدلة والحجج ما فيه غنى عن شهادة شاهد آخر ثم قال: وتسمية ذلك شهادة مع أنه فعل وهي قول من المجاز حيث إنه يغني غناها بل هو أقوى منها)، فقد قصد المطلوب من غير طريقه، وذلك أن الأدلة والحجج الدالة على حقية رسالته ﷺ إما القرآن وهو الآية المعجزة الخالدة، وإما غيره من الخوارق والمعجزات وآيات السورة، كما ترى، لا تجيب الكفار على ما اقترحوه من هذا القسم الثاني ولا معنى حينئذ للاستشهاد بها لم يجابوا عليه، وأما القرآن فمن البين أن الاستناد إليه من جهة أنه معجزة تصدق الرسالة بدلالتها عليها أي كلام له تعالى يشهد بالرسالة، وإذا كان كذلك فما معنى العدول عن كونه كلاما له تعالى يدل على حقية الرسالة أي شهادة لفظية منه تعالى على ذلك بحقيقة معنى الشهادة إلى كونه دليلا فعليا منه عليها سمي مجازا بالشهادة؟ على أن كون فعله تعالى أقوى دلالة على ذلك من قوله ممنوع.

ج. فقد تحصل أن معنى قوله: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أن ما وقع في القرآن من تصديق الرسالة شهادة إلهية بذلك.

د. وأما جعل الشهادة شهادة تحمل ففيه إفساد المعنى من أصله وأي معنى لإرجاع أمر متنازع فيه إلى علم الله واتخاذ ذلك حجة على الخصم ولا سبيل له إلى ما في علم الله في أمره؟ أهو كما يقول أو فرية يفتريها على الله؟

٣. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ أي وكفى بمن عنده علم الكتاب شهيدا بيني وبينكم:

أ. وقد ذكر بعضهم أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويتعين على هذا أن يكون المراد بالموصول هو الله سبحانه فكأنه قيل: كفى بالله الذي عنده علم الكتاب شهيدا.

• وفيه أولا أنه خلاف ظاهر العطف، وثانيا أنه من عطف الذات مع صفته إلى نفس الذات وهو قبيح غير جائز في الفصيح ولذلك ترى الزمخشري لما نقل في الكشاف، هذا القول عن الحسن بقوله: وعن الحسن: (لا والله ما يعني إلا الله) قال بعده: (والمعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيدا بيني وبينكم) فاحتال إلى تصحيحه بتبديل لفظة الجلالة ﴿بِالله﴾ من (الذي يستحق

العبادة) وتبديل ﴿مَنْ﴾ من (الذي) ليعود المعطوف والمعطوف عليه وصفين فيكون في معنى عطف أحد وصفي الذات على الآخر وإناطة الحكم بالذات بما له من الوصفين كدخالتهما فيه فافهم ذلك.

• لكن من المعلوم أن تبديل لفظ من لفظ يستقيم إفادته لمعنى لا يوجب استقامة ذلك في اللفظ الأول وإلا لبطلت أحكام الألفاظ.

• على أن التأمل فيما تقدم في معنى هذه الشهادة وأن المراد به تصديق القرآن لرسالة النبي ﷺ يعطي أن وضع لفظة الجلالة في هذا الموضع لا للتلميح إلى معناه الوصفي بل لإسناده الشهادة إلى الذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال لأن شهادته أكبر الشهادات قال سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

ب. وذكر آخرون: أن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل أو خصوص التوراة والمعنى وكفى بعلماء الكتاب شهداء بيني وبينكم لأنهم يعلمون بما بشر الله به الأنبياء في ويقرءون نعتي في الكتاب.

• وفيه أن الذي أخذ في الآية هو الشهادة دون مجرد العلم، والسورة مكية ولم يؤمن أحد من علماء أهل الكتاب يومئذ كما قيل ولا شهد للرسالة بشيء فلا معنى للاحتجاج بالاستناد إلى شهادة لم يقم بها أحد بعد.

• وقيل: المراد القوم الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود وسلمان الفارسي، وقيل هو عبد الله بن سلام، ورد بأن السورة مكية وهؤلاء إنما أسلموا بالمدينة.

ج. وللقائلين بأنه عبد الله بن سلام جهد بليغ في الدفاع عنه فقال بعضهم: إن مكية السورة لا تنافي كون بعض آياتها مدنية فلم لا يجوز أن تكون هذه الآية مدنية مع كون السورة مكية.

• وفيه أولا: أن مجرد الجواز لا يثبت ذلك ما لم يكن هناك نقل صحيح قابل للتعويل عليه، على أن الجمهور نصوا على أنها مكية كما نقل عن البحر.

• وثانيا: أن ذلك إنما هو في بعض الآيات الموضوعة في خلال آيات السور النازلة وأما في مثل هذه الآية التي هي ختام ناظرة إلى ما افتتحت به السورة فلا إذ لا معنى لإرجاء بعض الكلام المرتبط الأجزاء إلى أمد غير محدود.

د. وقال بعضهم: إن كون الآية مكية لا ينافي أن يكون الكلام إخبارا عما سيشهد به.

• وفيه أن ذلك يوجب رداءة الحجة وسقوطها فأي معنى لأن يحتج على قوم يقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ فيقال: صدقوا به اليوم لأن بعض علماء أهل الكتاب سوف يشهدون به.

هـ. وقال بعضهم: إن هذه الشهادة شهادة تحمل لا يستلزم إيمان الشهيد حين الشهادة فيجوز أن تكون الآية مكية والمراد بها عبد الله بن سلام أو غيره من علماء اليهود والنصارى وإن لم يؤمنوا حين نزول الآية.

• وفيه أن المعنى حينئذ يعود إلى الاحتجاج بعلم علماء أهل الكتاب وإن لم يعترفوا به ولم يؤمنوا، ولو كان كذلك لكان المتعين أن يستشهد بعلم الذين كفروا أنفسهم فإن الحجة كانت قد تمت عليهم بكون القرآن كلام الله ولا يكون ذلك إلا عن علمهم به فما الموجب للعدول عنهم إلى غيرهم وهم مشتركون في الكفر بالرسالة ونفيها على أنه تقدم أن الشهادة في الآية ليست إلا شهادة أداء دون التحمل.

و. وقال بعضهم، وهو ابن تيمية وقد أغرب، أن الآية مدنية بالاتفاق، وهو كما ترى.

ز. وذكر بعضهم: أن المراد بالكتاب القرآن الكريم:

• والمعنى أن من تحمل هذا الكتاب وتحقق بعلمه واختص به فإنه يشهد على أنه من عند الله وأني مرسل به فيعود مختتم السورة إلى مفتتحها من قوله: ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وينعطف آخرها على أولها وعلى ما في أواسطها من قوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾

• وهذا في الحقيقة انتصار وتأييد منه تعالى لكتابه قبال ما أزرى به واستهانه الذين كفروا حيث قالوا: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مرة بعد مرة و﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ فلم يعبئوا بأمره ولم يبالوا به وأجاب الله عن قولهم مرة بعد مرة ولم يتعرض لأمر القرآن ولم يذكر أنه أعظم آية للرسالة وكان من الواجب ذلك فقوله: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي ﴿وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ استيفاء لهذا الغرض الواجب الذي لا يتم البيان دونه وهذا من أحسن الشواهد على ما تقدم أن الآية كسائر السورة مكية.

• وبهذا يتأيد ما ذكره جمع ووردت به الروايات من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام أن الآية نزلت في علي عليه السلام فلو انطبق قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ على أحد ممن آمن بالنبي ﷺ يومئذ لكان هو فقد كان أعلم الأمة بكتاب الله وتكاثرت الروايات الصحيحة على ذلك ولو لم يرد فيه إلا قوله

ﷺ في حديث الثقلين المتواتر من طرق الفريق: (لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) لكان فيه كفاية.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في البصائر، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام يقول: في الآية: علي عليه السلام.

• أقول: ورواه أيضا بأسانيد عن جابر وبريد بن معاوية وفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام وبإسناده عن عبد الله بن بكير وعبد الله بن كثير الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام وبإسناده عن سلمان الفارسي عن علي عليه السلام.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن بريد بن معاوية: في الآية قال: إيانا عنى وعلي أولنا وأفضلنا، وخيرنا بعد النبي ﷺ.

ج. وفي المعاني، بإسناده عن خلف بن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله جل ثناؤه: ﴿قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ﴾ قال: ذاك وصي أخي سليمان بن داود فقلت له: يا رسول الله فقول الله: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ قال ذاك أخي علي بن أبي طالب.

د. وفي تفسير العياشي، عن عبد الله بن عطاء قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: هذا ابن عبد الله بن سلام بن عمران، يزعم أن أباه الذي يقول الله: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ قال: كذب، هو علي بن أبي طالب.

هـ. وفي تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب قال: عن محمد بن مسلم وأبي حمزة الثمالي وجابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام وعلي بن فضال وفضيل بن داود عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام وأحمد بن محمد الكلبي ومحمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام وقد روي عن موسى بن جعفر عليه السلام وعن زيد بن علي وعن محمد بن الحنفية وعن سلمان الفارسي وعن أبي سعيد الخدري وإسماعيل السدي أنهم قالوا: في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

و. وفي تفسير البرهان، عن الثعلبي في تفسيره بإسناده عن معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن

ابن عباس وروي عن عبد الله بن عطاء عن أبي جعفر: أنه قيل له: زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام قال: لا ذلك علي بن أبي طالب، وروي: أنه سئل سعيد بن جبير ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ عبد الله بن سلام؟ قال: لا وكيف؟ وهذه السورة مكية.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه عن ابن جبير.

ز. وفي تفسير البرهان، أيضا عن الفقيه ابن المغازلي الشافعي بإسناده عن علي بن عابس قال: دخلت أنا وأبو مريم على عبد الله بن عطاء قال، يا أبا مريم حدث عليا بالحديث الذي حدثتني عن أبي جعفر، قال: كنت عند أبي جعفر جالسا إذ مر عليه ابن عبد الله بن سلام، قلت: جعلني الله فداك هذا ابن الذي عنده علم الكتاب، قال: لا ولكنه صاحبكم علي بن أبي طالب الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله عز وجل: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية.

ح. أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير أن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام قال (: قال عبد الله بن سلام: قد أنزل الله في القرآن ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾

• أقول: وروي ما في معناه عن ابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه وعن جندب، وقد عرفت حال الرواية فيما تقدم، وقد روي عن ابن المنذر عن الشعبي): ما نزل في عبد الله بن سلام شيء من القرآن.

سورة إبراهيم

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٠] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة الكريمة تصف القرآن النازل على النبي ﷺ من حيث إنه آية رسالته، يخرج به الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله سبحانه الذي هو عزيز حميد، أي غالب غير مغلوب، وغني غير محتاج إلى الناس، وجميل في فعله منعم عليهم.

ب. وإذا كان المنعم غالباً غنياً حميد الأفعال، كان على المنعم عليهم أن يجيبوا دعوته ويلبوا نداءه حتى يسعدوا بما أفاض عليهم من النعم، وأن يخافوا سخطه وشديد عذابه، فإنه قوي غير محتاج إلى أحد، له أن يستغني عنهم فيذهب بهم ويأتي بآخرين، كما فعل بالذين كفروا بنعمته من الأمم الماضين، فإن آيات السماوات والأرض ناطقة بأن النعمة كلها له، وهو رب العزة وولي الحمد لا رب سواه.

ج. وبهذا تختتم السورة إذ يقول عز من قائل: ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾

د. ولعل ما ذكرنا هو مراد من قال: إن السورة مفتتحة ببيان الغرض من الرسالة والكتاب يشير إلى قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾

هـ. والسورة مكية على ما يدل عليه سياق آياتها، ونسب إلى ابن عباس والحسن وقتادة: أنها مكية إلا آيتين منها نزلتا في قتلى بدر من المشركين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ وسيأتي أن الآيتين غير صريحتين ولا ظاهرتين في ذلك.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن الكريم كتاب أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتمجد الله الذي له ما في السماوات والأرض، وتذكر أنه أرسل كل رسول بلسان قومه ليبين لهم، ويضل من يشاء ويهدي من يشاء، وتذكر إرسال موسى بآياته إلى قومه.

٢. الآيات [٦ ـ ١٨]:

أ. الآيات تشتمل على ذكر نبذة من نعم الله ونقمه في أيامه.

ب. وظاهر سياق الآيات أنها من كلام موسى عليه السلام، غير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ الآية، فهي حكاية قول موسى يذكر فيها قومه ببعض أيام الله سبحانه على ما يقتضيه عزته المطلقة من إنزال النعم والنقم، ووضع كل في موضعه الذي يليق به حسب ما اقتضته حكمته البالغة.

٣. الآيات [١٩ ـ ٣٤] تشتمل الآيات على تذكرة الناس في صورة خطاب النبي ﷺ مرة بعد مرة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾:

أ. يذكر تعالى بها أن الخلقة مبنية على الحق، فهم سيبرزون جميعاً، فالذين ساروا بالحق وآمنوا بالحق وعملوا الحق ينالون السعادة والجنة، والذين اتبعوا الباطل وعبدوا الشيطان وأطاعوا الطغاة المستكبرين منهم غروراً بظاهر عزتهم وقدرتهم، لزمهم شقاء لازم، وتبرأ منهم متبوعوهم من الجن والإنس، ولله العزة والحمد.

ب. ثم يذكر أن هذا التقسم إلى فريقين إنما هو لانقسام سلوكهم إلى قسمين: سلوك هدى وسلوك ضلال، والذي يلزمه الهدى هو المؤمن، والذي يلزمه الضلال هو الظالم، والقاضي بذلك هو الله سبحانه يفعل ما يشاء وله العزة والحمد.

ج. ثم يذكر بالأمم الماضية الهالكة وما وقعوا فيه من البوار بسبب كفرانهم بنعمة الله العزيز الحميد، ويعاتب الإنسان بظلمه وكفره بالنعم الإلهية التي ملأت الوجود، وإن تعدوها لا تحصوها.

٤. الآيات [٣٥ ـ ٤١]:

أ. تتضمن الآيات تذكرة ثانية بجملة من نعمه عقيب التذكرة الأولى التي يتضمنها قوله: ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية.

ب. فذكر سبحانه أولاً نعمته على جمع من عباده المؤمنين وهم بنو إسرائيل من ولد إبراهيم، ثم ذكر ثانياً نعمته على جمع آخر منهم وهم بنو إسماعيل من ولد إبراهيم، وهي التي يتضمنها دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ إلى آخر دعائه.

ج. وفيها نعمة توفيقه تعالى لهم أن يجتنبوا عبادة الأصنام، ونعمة الأمن بمكة، وميل الأفئدة إلى

أهله، ورزقهم من الثمرات، وغير ذلك، كل ذلك لأن الله سبحانه هو العزيز الحميد.

٥. الآيات [٤٢ ـ ٥٢]:

أ. لما أنذر وبشر سبحانه في الآيات السابقة ودعا إلى صراطه بما أنه العزيز الحميد، ختم بيانه بدفع ما ربما يسبق إلى أوهام ضعفاء العقول من الناس من أن الأمر لو كان على ما ذكر، وكانت هذه الدعوة دعوة نبوية من لدن رب عزيز حميد، فما بال هؤلاء الظالمين يتمتعون بما شاءوا؟ وما باله لا يأخذ الظالمين بظلمهم، ولا يلجم المتخلفين عن دعوته المخالفين عن أمره؟ أهو في غفلة عما يعملونه أم هو مخلف وعده رسله يعدهم بالنصر ثم لا يفي بوعده؟

ب. فأجاب تعالى أنه ليس بغافل عما يعمل الظالمون، ولا مخلف وعده رسله، كيف؟ وهو تعالى عليم بما يمكرون وعزيز ذو انتقام، بل إنما يؤخرهم ليوم شديد وهو يوم الجزاء، على أنه تعالى ربما أخذهم بذنوبهم في الدنيا كما أخذ الأمم الماضين.

ج. ثم ختم السورة بقوله: ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ وهي آية جامعة لغرض السورة كما سيجيء بيانه إن شاء الله.

١. الكتاب والنور والظلمات والصراط:

المقطع [١] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٦»:

١. ﴿الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك فهو خبر لمبتدإ محذوف على ما يعطيه السياق وقيل غير ذلك.

٢. ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾:

أ. ظاهر السياق عموم الناس لا خصوص قومه ﷺ ولا خصوص المؤمنين منهم إذ لا دليل على التقييد من جهة اللفظ، وكلامه تعالى صريح في عموم الرسالة كقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾

[الأعراف: ١٥٨]

ب. والآيات الصريحة في دعوة اليهود وعامة أهل الكتاب، وعمله ﷺ في دعوتهم وقبول إيمان من آمن منهم كعبد الله بن سلام وسلمان وبلال وصهيب وغيرهم تؤيد ذلك، على أن آخر السورة: ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ الآية، وقد قوبل به أولها يؤيد أن المراد بالناس أعم من المؤمنين الذين خرجوا من الظلمات إلى النور بالفعل.

ج. وقد نسب الإخراج من الظلمات إلى النور إلى النبي ﷺ لكونه أحد الأسباب الظاهرية لذلك وإليه ينتهي إيمان المؤمنين بدعوته بلا واسطة أو بواسطة ولا، ينافيه قوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [القصص: ٥٦] فإن الآية إنما تنفي أصالته ﷺ في الهداية واستقلاله فيها من غير أن تنفي عنه مطلق الهداية حتى ما يكون على نحو الوساطة وبإذن من الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولذلك قيد سبحانه قوله: ﴿لِتُخْرِجَ﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾

د. والمراد بالظلمات والنور والضلال والهدى وقد تكرر في كلامه تعالى اعتبار الهدى نورا وعد الضلال ظلمة وجمع الظلمات دون النور لأن الهدى من الحق والحق واحد لا تغاير بين أجزائه ومصاديقه ولا كثرة بخلاف الضلال فإنه من اتباع الهوى والأهواء مختلفة متغاير بعضها مع بعض لا وحدة بينها ولا اتحاد لأبعاضها ومصاديقها قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

٣. واللام في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾، لام الغرض بناء على عموم الناس كما هو ظاهر الآية، وليس بلام المعاقبة إذ لو كان كذلك لكان الناس كلهم مؤمنين، والمعلوم خلافه، وأما ما اعترض عليه بعضهم أن التربية الإلهية بإخراج الناس من الظلمات إلى النور وإيصالهم إلى السعادة والكمال مشروطة بالتهيؤ والاستعداد مع كون الفيض عاما فالمقدار الممكن من هذه العاقبة على تقدير عمومه هو هذا المقدار:

أ. ففيه أنه اعتراف بأن كون اللام للعاقبة خلاف ظاهر الآية، فإن الذي ذكره لا يتم إلا بتقييد ﴿النَّاسَ﴾ بالمستعدين، لكن الذي يجب أن يعلم أن هذا الغرض غرض تشريعي معناه أن للحكم غاية مقصودة وهي المصلحة التي يستعقبها، فإن الله سبحانه يدعو الناس ليغفر لهم ويهديهم إلى الإيمان والعمل الصالح ليسعدهم بذلك ويدخلهم الجنة، ويرسل الرسل وينزل عليهم الكتاب ليخرجوا الناس من

الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ويريد بما يوجهه إليهم من الأمر والنهي أن يطهرهم ويذهب عنهم رجز الشيطان، والآيات الدالة على ذلك كثيرة لا موجب لإيرادها وكذا الروايات ولعلها تزهو الألوف.

ب. وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقال: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾، فبين أن ما نعقله من كتابه ويظهر لنا من بيان رسوله حجة لا مناص عنه، ونحن لا نعقل من قوله مثلا: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، إلا أن المغفرة غرض الدعوة كما لا نعقل من قول السيد لعبده أو أي متبوع لتابعه: ايتني بماء لأشربه أو بغذاء لآكله أو اكس فلانا ليستتر به عورته إلا أن الشرب والأكل وستر العورة أغراض لأوامرها، فلله سبحانه فيما ينزله من الأحكام والشرائع أغراض وغايات مقصودة.

ج. نعم بين سبحانه أن ساحته منزهة عن الفقر والحاجة مبرأة عن النقص والشين إذ قال: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وقال: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [فاطر: ١٥] فأفاد أنه في غنى عن كل شيء لا ينتفع بشيء من هذه الأغراض وليست أفعاله تعالى بالعبث والجزاف حتى تخلو عن الغرض، كيف؟ وقد وصف نفسه بالحكمة والحكيم لا يعبث ولا يجازف، ونص على انتفاء العبث من فعله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً﴾ [المؤمنون: ١١٥] والأمر والنهي اللذان يتم بهما الكمال في العالم الإنساني يعودان بالآخرة إلى ما يتم به الخلقة.

د. فلله سبحانه في خلقه وأمره أغراض، وإن كان لا يستكمل بأغراض أفعاله كما نستكمل نحن بأغراض أفعالنا لكنه سبحانه لا يتأثر عن أغراضه وبعبارة أخرى الحكم والمصالح لا تؤثر فيه تعالى كما أن مصلحة الفعل تؤثر فينا فيبعثنا تعقلها نحو الفعل ونرجح الفعل على الترك، فإنه سبحانه هو القاهر غير المقهور والغالب غير المغلوب، يملك كل شيء ولا يملكه شيء، ويحكم على كل شيء ولا يحكم عليه شيء، ولم يكن له شريك في الملك ولا ولي من الذل، فلا يكون تعالى محكوما بعقل بل هو الذي يهدي العقل إلى ما يعقله، ولا تضطره مصلحة إلى فعل ولا مفسدة إلى ترك بل هو الهادي لهما إلى ما توجبانه.

هـ. فالغرض والمصلحة منتزعة من مقام فعله بمعنى أن فعله يتوقف على المصلحة لكنها لا تحكم في ذاته تعالى ولا تضطره إلى الفعل، فكما أنه تعالى إذا خلق شيئا وقال له: كن فكان كزيد مثلا انتزع العقل

من العين الخارجية نفسها أنها إيجاد من الله تعالى ووجود لزيد وحكم بأن وجوده يتوقف على إيجاده، كذلك ينتزع العقل من فعله تعالى بالنظر إلى ما أشرنا إليه من صفاته العليا أنه فعله وأنه ذو مصلحة مقصودة ثم يحكم بأن تحقق الفعل يتوقف على كونه ذا مصلحة.

و. فهذا هو الذي يعطيه التدبر في كلامه تعالى في كون أفعاله تعالى مشتملة على الحكم والمصالح متوقفة على الأغراض والمتحصل من ذلك أن له تعالى في أفعاله أغراضا لكنها راجعة إلى خلقه دونه.

ز. وملخصه أن غرضه في فعله يفارق أغراضنا في أفعالنا من وجهين: أحدهما أنه تعالى لا يستكمل بأغراض أفعاله وغاياتها بخلافنا معاشر ذوي الشعور والإرادة من الإنسان وسائر الحيوان، وثانيهما أن المصلحة والمفسدة لا تحكمان فيه تعالى بخلاف غيره.

ح. وأما النزاع المعروف بين الأشاعرة والمعتزلة في أن أفعال الله معللة بالأغراض أم لا؟ بمعنى أنه تعالى هل هو محكوم بالمصلحة الواقعية في فعله بحيث إن المصلحة ترجح له الفعل على الترك ولولاها لم يكن له ليفعل؟ أو أنه لا غاية له في فعله وإنما يفعل بإرادة جزافية من غير غرض؟

ط. فذلك مما لا يهدي إلى شيء من طرفيه النظر المستوفى والحق خلاف القولين جميعا، وهو أمر بين الأمرين كما أشرنا إليه ولعلنا نوفق فيما سيأتي من الكتاب لعقد بحث مستقل في المسألة نستوفي فيه النظر العقلي والنقلي فيها إن شاء الله تعالى.

٤. وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة والنكتة فيه التخلص إلى ذكر صفة الربوبية وتسجيل أنه تعالى هو رب هؤلاء المشركين الذين اتخذوا له أندادا فإن وجه الكلام في الحقيقة إليهم وإن كان المخاطب به هو النبي ﷺ دونهم ولتكون هذه التسمية وهي في مفتتح الكلام مبدأ لما سيذكر في السورة من الحجة على توحيد الربوبية.

٥. ﴿إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. العزة تقابل الذلة، قال الراغب: (العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم: أرض عزاز أي صلبة، قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ وتعزز اللحم اشتد وعز كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه) فعزة العزيز هي كونه بحيث يصعب نيله والوصول إليه ومنه عزيز القوم وهو الذي يقهر ولا يقهر لأنه ذو مقام لا يصل إليه من قصده دون أن يمنع قبل الوصول إليه ويقهر، ومنه

العزيز لما قل وجوده لصعوبة نيله، ومنه العزيز بمعنى الشاق لأن الذي يشق على الإنسان يصعب حصوله، قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ومنه قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ [ص: ٢٣] أي غلبني على ما فسر به.

ب. والله سبحانه عزيز لأنه الذات الذي لا يقهره شيء من جهة وهو يقهر كل شيء من كل جهة ولذلك انحصرت العزة فيه تعالى فلا توجد عند غيره إلا باكتساب منه وبإذنه قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩] وقال ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]

ج. والحميد فعيل بمعنى المفعول من الحمد وهو الثناء على الجميل الاختياري، وإذ كان كل جمال ينتهي إليه سبحانه كان جميع الحمد له كما قال: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾: سورة [الحمد: ٢] ومن غريب القول ما عن الإمام الرازي على ما سننقله: أن الحميد معناه العالم الغني.

د. ﴿إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ يبين به ما يوصل إليه الكتاب الذي أنزله على نبيه ﷺ بيانا بعد بيان فنبه أولا بأنه نور يميز الحق من الباطل والخير من الشر والسعادة من الشقاوة، وثانيا بأنه طريق واضح يجمع سالكيه في متنه وينتهي بهم جميعا إلى الله العزيز الحميد.

هـ. والوجه في ذكر الصفتين الكريمتين: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أنهما مبدءان لما سيورد في السورة من الكلام الموجه إليهم فإن عمدة الكلام في السورة هي تذكيرهم أن الله أنعم عليهم بربوبيته كل نعمة عظيمة، ثم عزم عليهم من طريق رسله أن يشكروه ولا يكفروه ووعد رسله أنهم إن آمنوا أدخلهم الجنة، وإن كفروا انتقم منهم وأوردهم مورد الشقاء والعذاب، فليخافوا ربهم وليحذروا مخالفة أمره وكفران نعمته لأن له كل العزة لا نمنع عن حلول سخطه بهم ونزول عذابه عليهم شيء، حميد لا يذم في إثابته المؤمنين، ولا في تعذيب الكافرين، كما لا يذم فيما بسط عليهم من نعمه التي لا تحصى، فجل الكلام في هذه السورة فيما يقتضيه الصفات الثلاث: توحده تعالى بالربوبية وعزته وكونه حميدا في أفعاله فليخف من عزته المطلقة، وليشكر وليوثق بما وعد وليتذكر من آيات ربوبيته:

• وفي روح المعاني عن أبي حيان: (النكتة في ذلك أنه لما ذكر قبل إنزاله تعالى لهذا الكتاب وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ناسب ذكر هاتين الصفتين صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة لإنزاله مثل هذا الكتاب المعجز الذي لا يقدر عليه سواه، وصفة الحمد لإنعامه بأعظم النعم لإخراج

الناس من الظلمات إلى النور، قال: ووجه التقديم والتأخير على هذا ظاهوهو أجنبي عن سياق آيات السورة البتة ولعله مأخوذ من قوله تعالى في وصف القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] لكن المقام غير المقام.

• وعن الإمام في تفسيره: (إنما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد لأن الصحيح أن أول العلم بالله تعالى العلم بكونه قادرا ثم بعد ذلك العلم بكونه عالما ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيا عن الحاجات والعزيز هو القادر، والحميد هو العالم الغني فلما كان العلم بكونه قادرا متقدما على العلم بكونه عالما بالكل غنيا عنه لا جرم قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد)، وهو مجازفة عجيبة.

• وقريب منه في المجازفة قول بعضهم: (قدم العزيز على الحميد اعتناء بأمر الصفات السلبية كما يؤذن به قولهم: التخلية أولى من التحلية فإن العزة، كما تقدم، من الصفات السلبية بخلاف الحمد، وربما قيل في وجه تخصيص الوصفين بالذكر أنه للترغيب في سلوك هذا الصراط لأنه صراط العزيز الحميد فيعز سالكه ويحمد سابل، وهو وجه الأحرى به أن يجعل من الفوائد المتفرعة دون السبب الموجب، والوجه ما قدمناه.

٦. وأما قوله: ﴿اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. فبيان للعزيز الحميد، والمراد بما في السماوات والأرض كل ما في الكون فيشمل نفس السماوات والأرض كما يشمل ما فيهما، فهو تعالى يملك كل شيء من كل جهة بحقيقة معنى الملك.

ب. وفيه إشارة إلى الحجة في كونه تعالى عزيزا حميدا، فإنه تعالى وإن كان هو الذي يحق الحق بكلماته وهو الذي ينجح كل حجة في دلالتها، لكنه جاري عباده في كلامه على ما فطرهم عليه، وذلك أنه تعالى لما ملك كل خلق وأمر بحقيقة معنى الملك فهو المالك لكل قهر وغلبة فلا قهر إلا منه ولا غلبة إلا له فهو تعالى عزيز وله أن يتصرف في ما يشاء بما يشاء ولا يكون تصرفه إلا محمودا غير مذموم لأن التصرف إنما يكون مذموما إذا كان المتصرف لا يملكه إما عقلا أو شرعا أو عرفا، وأي تصرف نسبه إليه تعالى عقل أو شرع أو عرف فإنه يملكه، فهو تعالى حميد محمود الأفعال.

٧. ﴿وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ بيان لما تقتضيه صفة العزة من القهر لمن يرد دعوته ويكفر بنعمته.

٨. ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (وقوله عز وجل: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي إن آثروه عليه، وحقيقة الاستحباب أن يتحرى الإنسان في الشيء أن يحبه، واقتضى تعديته بعلى معنى الإيثار، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى﴾)

ب. ومعنى استحباب الدنيا على الآخرة اختيار الدنيا وترك الآخرة رأسا، ويقابله اختيار الآخرة على الدنيا بمعنى أخذ الآخرة غاية للسعي وجعل الدنيا مقدمة لها يتوسل بها إليها، وأما اختيار الآخرة وترك الدنيا من أصلها فإنه مضاف إلى عدم إمكانه بحقيقة معنى الكلمة يوجب اختلال أمر الآخرة، وينجر إلى تركها بالآخرة، فالحياة الدنيا حياة منقطعة والحياة الآخرة حياة دائمة يتوسل إلى سعادتها من طريق الدنيا بالاكتساب، فمن اختار الآخرة وأثبتها لزمه إثبات الدنيا لمكان مقدميتها، ومن اختار الدنيا وجعلها غاية لزمه نفي الآخرة من أصلها لأنها لو ثبتت ثبتت غاية وإذ لم يجعل غاية انتفت، فليس بين يدي الإنسان إلا خصلتان: اختيار الآخرة على الدنيا بجعل الآخرة غاية وإثبات الدنيا معها للمقدمية، واختيار الدنيا على الآخرة بجعل الدنيا غاية ونفي الآخرة من أصلها.

ج. وإيضاح المقام أن الإنسان لا بغية له إلا سعادة حياته وحبه لها فطري، وقد أوضحنا ذلك في مواضع متفرقة فيما تقدم، والذي يثبته كتاب الله من أمر الحياة أنها دائمة غير منقطعة بالموت فلا محالة تنقسم بالنظر إلى تخلل الموت إلى حياتين: الحياة الدنيا المؤجلة بالموت والحياة الآخرة بعد الموت، وهي تتفرع في سعادتها وشقائها على الحياة الدنيا وما يكتسبه الإنسان في الدنيا من ناحية الأعمال الحيوية من حسنة أو سيئة، ولا مفر للإنسان من هذه الأعمال لما عنده من حب الحياة الفطري.

د. وهذه الأعمال أعني السنة التي يستن بها الإنسان في حياته الدنيا الكاسبة له التقوى أو الفجور والحسنة أو السيئة هي التي تسمى في كتاب الله دينا وسبيلا، فلا مفر للإنسان من سنة حسنة أو سيئة ودين حق أو باطل.

هـ. ولما كان من سنة الله سبحانه الجارية أن يهدي كل نوع من الأنواع إلى سعادته وكماله ومن كمال الإنسان وسعادته أن يعيش عيشة اجتماعية ويستن بسنة حيوية، شرع الله سبحانه له دينا مبنيا على فطرته التي فطر عليها وهو سبيل الله الذي يسلكه ودينه الذي يتدين به، فإن جرى على ما شرعته له الربوبية

وهدته إليه الفطرة فقد سلك سبيل الله وابتغاه مستقيما، وإن اتبع الهوى وصد نفسه عن سبيل الله واشتغل بما يزينه له الشيطان فقد ابتغى سبيل الله عوجا منحرفا.

و. أما أنه يبتغي سبيل الله فإن الله هو الذي فطره على طلب السبيل وابتغاء الصراط ولا يهدي البتة إلا إلى ما يرتضيه وهو سبيل نفسه، وأما أنه منحرف ذو عوج فلأنه لا يهدي إلى الحق وما ذا بعد الحق إلا الضلال؟ والآيات القرآنية الدالة على هذا الذي قدمناه متكاثرة لا حاجة إلى إيرادها.

ز. إذا عرفت هذا لاح لك أن قوله في تفسير الكافرين: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ مفاده أنهم يتعلقون تمام التعلق بالحياة الدنيا ويعرضون عن الآخرة بنفيها، وهو الكفر بالمعاد المستلزم للكفر بالتوحيد والنبوة.

٩. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ مفاده أنهم يكفون أنفسهم عن الاستنان بسنة الله والتدين بدينه أو يصدون ويصرفون الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر والتشرع بشريعته عنادا منهم للحق، ويطلبون سنة الله عوجا ومنحرفة بالاستنان بغيرها من سنة اجتماعية أيا ما كانت ثم سجل عليهم الضلال بقوله سبحانه.

١٠. ويظهر بما تقدم فساد:

أ. قول بعضهم: (إن المراد بقوله: ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يبغون لها عوجا أي يطلبون لها زيغا واعوجاجا حتى يعيبوها به ويصدوا الناس عنها بسببه)

ب. وقول بعضهم: (المعنى يطلبون أن يروا فيها عوجا يكون قادحا فيقدحوا فيها به)

ج. وقول بعضهم: (المعنى يطلبون لأهلها أن يعوجوا وينحرفوا بالرد فهو المراد بطلبهم الدين منحرفا، وانحرافه فساد ما عند المؤمنين من معارفه وفساد هذه الأقوال ظاهر)

٢. كل رسول أرسل بلسان قومه:

المقطع [٢] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٥»:

١. ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. اللسان هو اللغة، قال تعالى: ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، والضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ عائد إلى ﴿رَسُولٍ﴾ وفي ﴿لَهُمْ﴾ إلى ﴿قَوْمِهِ﴾ والمحصل ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ذلك الرسول ليبين لقومه، ومن الخطإ إرجاع ضمير قومه إلى النبي ﷺ ليفيد أن الله سبحانه كان يوحي إلى جميع الرسل بالعربية لفساد المعنى بذلك لرجوع ضمير ﴿لَهُمْ﴾ إلى ﴿قَوْمِهِ﴾ فيفيد أن الله أنزل التوراة لموسى مثلا بالعربية ليبين للعرب كما في الكشاف.

ب. والمراد بإرسال الرسول بلسان قومه إرساله بلسان القوم الذين كان يعيش فيهم ويخالطهم ويعاشرهم وليس المراد به الإرسال بلسان القوم الذين هو منهم نسبا لأنه سبحانه يصرح بمهاجرة لوط عليه السلام من كلدة وهم سريانية اللسان إلى المؤتفكات، وهم عبرانيون وسماهم قومه وأرسله إليهم ثم أنجاه وأهله إلا امرأته وهي منهم وأهلكهم قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] وفي مواضع من كلامه تعالى ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾

ج. وأما من أرسل إلى أزيد من أمة وهم أولوا العزم من الرسل فمن الدليل على أنهم كانوا يدعون أقواما من غير أهل لسانهم ما حكاه الله من دعوة إبراهيم عليه السلام عرب الحجاز إلى الحج، ودعوة موسى عليه السلام فرعون وقومه إلى الإيمان وعموم دعوة النبي ﷺ وقد اشتمل القرآن على دعوة اليهود والنصارى وغيرهم وقبول إيمان من آمن منهم بالنبي ﷺ وكذا ما يستفاد من عموم دعوة نوح عليه السلام، وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ و- الله أعلم، أن الله لم يبن إرسال الرسل والدعوة الدينية على أساس معجز خارق للعادة الجارية ولا فوض إلى رسله من الأمر شيئا بل أرسلهم باللسان العادي الذي كانوا يكالمون قومهم ويحاورونهم به ليبينوا لهم مقاصد الوحي فليس لهم إلا البيان، وأما ما وراء ذلك من الهداية والإضلال فإلى الله سبحانه لا يشاركه في ذلك رسول ولا غيره.

د. فتعود الآية كالبيان والإيضاح لقوله تعالى قبل: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وإن معنى إخراجك الناس من الظلمات إلى النور أن تبين لهم ما أنزل الله لا أزيد من ذلك فيكون في معنى قوله: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]

٢. وأما قوله: ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ فإشارة إلى ما أومأنا إليه أن أمر الهدى والضلال إلى الله لا يتحقق شيء منهما إلا عن مشية منه تعالى غير أنه سبحانه أخبرنا أن هذه المشية منه

ليست جزافية غير منتظمة بل لها نظم ثابت فمن اتبع الحق ولم يعانده هداه الله، ومن جاحده واتبع هواه أضله الله فهو إضلال مجازاة غير الإضلال الابتدائي المذموم.

٣. وقد قدم سبحانه الإضلال على الهداية إذ قال: ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ لأن ذلك أحوج إلى البيان بالنظر إلى أن الكلام مبني على عزته المطلقة فكان من الواجب أن يبين أن ضلال من يضل عن السبيل كهدى من اهتدى إليها إنما هو بمشية منه تعالى ولم يغلب في إرادته ولم يزاحم في ملكه حتى لا يخيل إلى كل مغفل من الناس أن الله يصف نفسه بالعزة المطلقة وأنه غالب غير مغلوب وقاهر غير مقهور ثم يدعو الناس فلا يستجيبون دعوته ويأمرهم وينهاهم فيعصون ولا يطيعون وهل هذا إلا غلبة منهم وقهر وهو مغلوب مقهور؟

٤. فكأنه تعالى أجاب عن ذلك بأن معنى دعوته تعالى أن يرسل رسولا بلسان قومه فيبين لهم ما يسعدهم مما يشقيهم وأما ضلال من ضل من الناس كهدى من اهتدى منهم فبمشية من الله وإذنه، وحاشاه أن يقهر في سلطانه أو يتصرف في ملكه أحد بغير إذنه، فضلال من ضل منهم دليل عزته فضلا أن يكون ناقضا لها كما أن هدى من اهتدى كذلك، ولذلك ذيل الكلام بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهو سبحانه عزيز لا يغلبه ولا يضره ضلال من ضل منهم، ولا ينفعه هدى من اهتدى حكيم لا يشاء ما شاء جزافا وعبثا بل عن نظام متقن دائمي.

٣. موسى أرسل لإخراج قومه من الظلمات وتذكيرهم بأيام الله:

المقطع [٣] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهَّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]للبيب، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ إلى آخر الآية، إذ كان الكلام في السورة مبنيا على الإنذار والتذكير بعزة الله سبحانه ناسب أن يذكر إرسال موسى بالآيات لهداية قومه فإن قصة رسالته من أوضح مصاديق ظهور العزة الإلهية من بين الرسل وقد قال تعالى فيه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣] وقال حاكيا عنه عليه السلام: ﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٩]

٢. فوزان الآية أعني قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾، من قوله: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وزان التنظير بداعي التأييد وتطييب النفس كما في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦]:

أ. وأما ما ذكر بعضهم أن الآية شروع في تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فبعيد كل البعد.

ب. ونظيره في البعد قول بعضهم: (إن المراد بالآيات التي أرسل بها موسى آيات التوراة دون المعجزات التي أرسل عليه السلام بها كالثعبان واليد البيضاء وغيرهما)

ج. على أن الله سبحانه وتعالى لم يعد في كلامه التوراة من آيات رسالة موسى ولا ذكر أنه أرسله بها قط وإنما ذكر أنه أنزلها عليه وآتاه إياها، ولم يقيد قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بالإذن كما قيد به قوله للنبي ﷺ ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ لأن قوله هاهنا: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أمر يتضمن معنى الإذن بخلاف قوله هناك: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾

٣. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾:

أ. لا شك أن المراد بها أيام خاصة، ونسبة أيام خاصة إلى الله سبحانه مع كون جميع الأيام وكل الأشياء له تعالى ليست إلا لظهور أمره تعالى فيها ظهورا لا يبقى معه لغيره ظهور، فهي الأزمنة والظروف التي ظهرت أو سيظهر فيها أمره تعالى وآيات وحدانيته وسلطنته كيوم الموت الذي يظهر فيه سلطان الآخرة وتسقط فيه الأسباب الدنيوية عن التأثير، ويوم القيامة الذي لا يملك فيه نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله، وكالأيام التي أهلك الله فيها قوم نوح وعاد وثمود فإن هذه وأمثالها أيام ظهر فيها الغلبة والقهر الإلهيان وأن العزة لله جميعا.

ب. ويمكن أن يكون منها أيام ظهرت فيها النعم الإلهية ظهورا ليس فيه لغيره تعالى صنع كيوم خروج نوح عليه السلام وأصحابه من السفينة بسلام من الله وبركات ويوم إنجاء إبراهيم من النار وغيرهما فإنها أيضا كسوابقها لا نسبة لها في الحقيقة إلى غيره تعالى فهي أيام الله منسوبة إليه كما ينسب الأيام إلى الأمم والأقوام ومنه أيام العرب كيوم ذي قار ويوم فجار ويوم بغاث وغير ذلك.

ج. وتخصيص بعضهم الأيام بنعماء الله سبحانه بالنظر إلى ما سيأتي من ذكر نعمه تعالى كتخصيص

آخرين لها بنقماته تعالى خال عن الوجه بعد ما كان الكلام جاريا في السورة على ما تقتضيه عزته تعالى، ومن مقتضى صفة عزته الإنعام على العباد والأخذ الشديد إن كفروا بنعمته.

٤. ثم تمم الكلام بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي كثير الصبر عند الضراء وكثير الشكر على النعماء.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ قال: بنعم الله وآلائه.

• أقول: وهو بيان بعض المصاديق، وروى ما في معناه الطبرسي والعياشي عن الصادق عليه السلام.

ب. وفي أمالي الشيخ، بإسناده عن عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله في حديث طويل عن النبي ﷺ: أيام الله نعماؤه وبلاؤه وهو مثلاته سبحانه.

ج. وفي تفسير القمي، قال: قال أيام الله ثلاثة: يوم القائم ويوم الموت ويوم القيامة.

• أقول: المراد بيان أيامه تعالى العظيمة لا حصر مطلق أيامه.

د. وفي المعاني، بإسناده عن مثنى الحناط عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا: أيام الله ثلاثة: يوم يقوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة.

• أقول: وهي كسابقتها واختلاف الروايات في تعداد المصاديق يؤيد ما قدمناه في بيان الآية.

٤. تذكير بني إسرائيل بنعمة الله ونجاتهم من آل فرعون:

المقطع [٤] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١»:

١. ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية، السوم على ما ذكره الراغب بمعنى الذهاب في ابتغاء الشيء فهو لفظ لمعنى يتركب من الذهاب والابتغاء فكأنه في الآية بمعنى إذاقة

العذاب، والاستحياء استبقاء الحياة.

٢. والمعنى واذكر أيها الرسول لزيادة التثبت في أن الله عزيز حميد إذ قال موسى لقومه وهم بنو إسرائيل: اذكروا نعمة الله عليكم يوم أنجاكم من آل فرعون وخاصة من القبط والحال أنهم مستمرون على إذاقتكم سوء العذاب ويكثرون ذبح الذكور من أولادكم وعلى استبقاء حياة نسائكم للاسترقاق، وفي ذلكم بلاء ومحنة من ربكم عظيم.

٥. الشكر والزيادة، والكفر والعذاب:

المقطع [٥] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٢»:

١. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ﴾ وموقع الآية التالية: ﴿وَقالَ مُوسى﴾، من هذه الآية كموقع قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى﴾، من قوله: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾، فافهم ذلك فهو الأنسب بسياق كلامه تعالى:

ب. وذكر بعضهم أنه داخل في مقول موسى وليس بكلام مبتدإ وعليه فهو معطوف على قوله: ﴿نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ والتقدير: اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا إذ تأذن ربكم، وفيه أنه لو كان كذلك لكان الأنسب أن يقال: اذكروا إذ أنجاكم فأنعم عليكم وإذ تأذن ربكم، لما فيه من رعاية حكم الترتيب.

ج. وقيل: إنه معطوف على قوله: ﴿إِذْ أَنْجاكُمْ﴾ والمعنى اذكروا نعمة الله عليكم إذ تأذن ربكم، فإن هذا التأذن نفسه نعمة لما فيه من الترغيب والترهيب الباعثين إلى نيل خير الدنيا والآخرة، وفيه أن هذا التأذن ليس إلا نعمة للشاكرين منهم خاصة وأما غيرهم فهو نقمة عليهم وخسارة فنظمه في سلك ما تقدمه من غير تقييد أو استثناء ليس على ما ينبغي.

د. فالظاهر أنه كلام مبتدأ وقد بين تعالى هذه الحقيقة أعني كون الشكر، الذي حقيقته استعمال النعمة بنحو يذكر إنعام المنعم ويظهر إحسانه ويئول في مورده تعالى إلى الإيمان به والتقوى، موجبا لمزيد النعمة والكفر لشديد العذاب، في مواضع من كلامه، وقد حكى عن نوح فيما ناجى ربه ودعا على قومه:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ﴾ الخ: [نوح: ١٢]

٢. ومن لطيف كرمه تعالى اللائح من الآية، كما ذكره بعضهم، اشتمالها على التصريح بالوعد والتعريض في الوعيد حيث قال: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقال ﴿إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ ولم يقل لأعذبنكم وذلك من دأب الكرام في وعدهم ووعيدهم غالبا.

٣. والآية مطلقة لا دليل على اختصاص ما فيها من الوعد والوعيد بالدنيا ولا بالآخرة، وتأثير الإيمان والكفر والتقوى والفسق في شئون الحياة الدنيا والآخرة معا معلوم من القرآن.

٤. وقد استدل بالآية على وجوب شكر المنعم، والحق أن الآية لا تدل على أزيد من أن الكافر على خطر من كفره فإن الله سبحانه لم يصرح بفعلية العذاب على كل كفر إذ قال: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ ولم يقل: لأعذبنكم.

٥. ﴿وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لما أمر تعالى بشكر نعمه بذكر ما تأذن به من الزيادة على الشكر والعذاب على الكفر على ما تقتضيه العزة المطلقة ذكر في تأييده من كلام موسى عليه السلام ما يجري مجرى التنظير فقال: ﴿وَقالَ مُوسى﴾ والكلام جار على هذا النمط إلى تمام عشر آيات:

أ. وأما أن الله غني وإن كفر من في الأرض جميعا فإنه غني بالذات عن كل شيء فلا ينتفع بشكر ولا يتضرر بكفر، وإنما يعود النفع والضرر إلى الإنسان فيما أتى به، وأما أنه حميد فلأن الحمد هو إظهار الحامد بلسانه ما لفعل المحمود من الجمال والحسن وفعله تعالى حسن جميل من كل جهة فهو جميل ظاهر الجمال يمتنع خفاؤه وإخفاؤه، فهو تعالى محمود سواء حمده حامد باللسان أو لم يحمد.

ب. على أن كل شيء يحمده بتمام وجوده حتى الكافر بنعمته كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] فهو تعالى محمود سواء حمده الناس بألسنتهم أو لم يحمدوه، وله كل الحمد سواء قصد به هو أو قصد به غيره.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أعطي الشكر

أعطي الزيادة، يقول الله عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

ب. أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي زهير يحيى بن عطارد بن مصعب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ما أعطي أحد أربعة فمنع أربعة: ما أعطي أحد الشكر فمنع الزيادة لأن الله يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وما أعطي أحد الدعاء فمنع الإجابة لأن الله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وما أعطي أحد الاستغفار فمنع المغفرة لأن الله يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً﴾ وما أعطي أحد التوبة فمنع التقبل لأن الله يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]

ج. أخرج أبو نعيم في الحلية من طريق مالك بن أنس عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: لما قال له سفيان الثوري: لا أقوم حتى تحدثني قال جعفر: أما إني أحدثك وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان إذا أنعم الله عليك بنعمة، فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ﴾، يعني في الدنيا والآخرة، ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾، يا سفيان إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره، فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق الفريقين.

د. وفي الكافي، بإسناده عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله.

هـ. وفيه، بإسناده عن حماد بن عثمان قال: خرج أبو عبد الله عليه السلام من المسجد وقد ضاعت دابته، فقال: لئن ردها الله علي لأشكرن الله حق شكره، فما لبث أن أتي بها فقال: الحمد لله، فقال قائل له: جعلت فداك ألست، قلت: لأشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ألم تسمعني قلت: الحمد لله؟

و. وفيه، بإسناده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرا؟ قال: نعم، قلت: وما هو؟ قال: الحمد لله، على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما أنعم الله عليه في ماله حق أداه، ومنه قوله عز وجل: ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ومنه

قوله: ﴿أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً﴾

ز. وفي تفسير العياشي، عن أبي ولاد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أرأيت هذه النعمة الظاهرة علينا من الله، أليس إن شكرناه عليها وحمدناه زادنا، كما قال الله في كتابه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فقال: نعم من حمد الله على نعمه وشكره، وعلم أن ذلك منه لا من غيره زاد الله نعمه.

• أقول: والروايتان الأخيرتان تفسران الشكر أحسن تفسير، وينطبق عليهما ما قدمناه في البيان أن الشكر إظهار النعمة اعتقادا وقولا وفعلا، ويؤيده إطلاق قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]

٦. أنباء الأمم السابقة من نوح وعاد وثمود وتكذيبهم للرسل:

المقطع [٦] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣»:

١. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ﴾ إلى آخر الآية، من كلام موسى عليه السلام يذكر قومه من أيام الله في الأمم الماضين ممن فنيت أشخاصهم وخمدت أنفاسهم وعفت آثارهم وانقطعت أخبارهم فلا يعلمهم بحقيقة حالهم تفصيلا إلا الله كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم.

٢. ومن هنا يعلم:

أ. أولا: أن المراد بالنبإ، في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ خبر هلاكهم وانقراضهم، فإن النبأ هو الخبر الذي يعتنى بأمره فلا ينافي ما يتعقبه من قوله: ﴿لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾

ب. وثانيا: أن قوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ﴾، من قبيل ذكر الأمثلة، وإن قوله: ﴿لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ بيان لقوله: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ والمراد بعدم العلم بهم لغير الله الجهل بحقيقة حالهم وعدم الإحاطة بتفاصيل تاريخ حياتهم.

٣. ومن الممكن أن يكون قوله: ﴿لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ اعتراضا وإن كان ما ذكرناه أنسب للسياق،

وأما احتمال أن يكون خبرا لقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كما ذكره بعضهم فسخافته ظاهرة، وأسخف منه تجويز بعضهم أن يكون حالا من ضمير من بعدهم وكون قوله: ﴿جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ خبرا لقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾

٤. ﴿جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ﴾:

أ. الظاهر أن المراد به أن رسلهم جاءوهم بحجج بينة تبين الحق وتجليه من غير أي إبهام وريب فمنعوهم أن يتفوهوا بالحق وسدوا عليهم طريق التكلم.

ب. فالضميران في: ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ و﴿أَفْواهِهِمْ﴾ للرسل، ورد أيديهم في أفواههم كناية عن إجبارهم على أن يسكتوا ويكفوا عن التكلم بالحق كأنهم أخذوا بأيدي رسلهم وردوها في أفواههم إيذانا بأن من الواجب عليكم أن تكفوا عن الكلام، ويؤيده قوله بعد: ﴿وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فإن دعوى الشك والريب قبال الحجة البينة والحق الصريح الذي لا يبقي مجالا للشك لا تتحقق إلا من جاحد مكابر متحكم مجازف لا يستطيع أن يسمع كلمة الحق فيجبر قائلها على السكوت والصمت.

٥. وللقوم في معنى الآية أقوال أخر:

أ. منها قول بعضهم المعنى أن الكفار ردوا أيديهم في أفواه الرسل تكذيبا لهم وردا لما جاءوا به، فالضمير الأول للكفار والثاني للرسل، وفيه أنه مستلزم لاختلاف مرجع الضميرين من غير قرينة ظاهرة.

ب. ومنها: أن المراد أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه أنفسهم مومين به إلى الرسل أن اسكتوا كما يفعله الواحد من الناس مع غيره إذا أراد إسكاته فالضميران معا للكفار.

ج. ومنها: أن المعنى عضوا أصابعهم من شدة الغيظ من استماع دعوة الرسل، فالضميران للكفار كما في الوجه السابق وفيه أنه كناية بعيدة غير مفهومة من اللفظ.

د. ومنها: أن المراد بالأيدي الحجج وهي إما جمع اليد بمعنى الجارحة لكون الحجة بمنزلة اليد التي بها البطش والدفع، وإما جمع اليد بمعنى النعمة لكون حجج الرسل نعما منهم على الناس والمعنى أنهم ردوا حجج الرسل إلى أفواههم التي خرجت منها.

هـ. وقريب من هذا الوجه قول بعضهم: (إن المراد بالأيدي نعم الرسل وهي أوامرهم ونواهيهم

والضميران أيضا للرسول، والمعنى أنهم كذبوا الرسل في أوامرهم ونواهيهم.

و. وقريب منه أيضا قول آخرين: إن المراد بالأيدي النعم، وضمير ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ للرسل، و﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ بمعنى الباء والضمير للكفار والمعنى كذب الكفار بأفواههم نعم الرسل وهي حججهم.

ز. وأنت خبير بأن هذه معان بعيدة عن الفهم يجل كلامه تعالى أن يحمل عليها وعلى أمثالها.

٦. وأما قوله: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فهو نحو بيان لقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ والجملة الأولى أعني قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ إنكار للشريعة الإلهية التي هي متن الرسالة، والجملة الثانية أعني قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ إنكار لما جاءوا به من الحجج والبينات وإظهار ريب فيما كانوا يدعون إليه وهو توحيد الربوبية.

٧. أحاديث وآثار: أخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب: أنا أنسب الناس، قال: إنك لا تنسب الناس، قال: بلى، فقال له علي: أرأيت قوله تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾؟ قال أنا أنسب ذلك الكثير، قال: أرأيت قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ فسكت.

٧. الرسل والتوحيد:

المقطع [٧] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٥»:

١. ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾:

أ. أصل الفطر على ما ذكره الراغب الشق طولا يقال: فطرت الشيء فطرا أي شققته طولا، وأفطر الشيء فطورا وانفطر انفطارا أي قبل الفطر، واستعمل في القرآن فيما انتسب إليه تعالى بمعنى الإيجاد بنوع من العناية كأنه تعالى شق العدم شقا فأظهر من بطنه الأشياء فهي ظاهرة ما أمسك هو تعالى على شقي

العدم موجودة ما كان ممسكا لها ولو ترك الإمساك لانعدمت وزالت كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]

ب. وعلى هذا فتفسير الفطر بالخلق الذي هو جمع الأجزاء والأبعاض كما وقع في بعض العبارات ليس على ما ينبغي، ويؤيد ذلك أن الفطر لو كان بمعنى الخلق لكان البرهان الذي أشير إليه بقوله: ﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ مسوقا لإثبات وجود الخالق فكان أجنبيا عن المقام لأن الوثنية لا تنكر وجود خالق للعالم وأنه هو الله عز اسمه لا غير، وإنما ينكرون توحيد الربوبية والعبادة وهو أن يكون الله سبحانه هو الرب المعبود لا غير، والبرهان على كونه تعالى خالقا للسماوات والأرض لا ينفع فيه شيئا.

٢. وكيف كان فقوله: ﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾، كلام قوبل به قولهم: ﴿وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وقد عرفت أن قولهم هذا يتضمن إنكارين: إنكارهم للرسالة وتشككهم في توحيد الربوبية فكلام الرسل المورد جوابا منهم عن قولهم بالمقابلة متضمن لجزءين:

أ. فقولهم: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ برهان على توحيد الربوبية إذ لو سيق لمجرد الإنكار على الكفار من غير إشارة إلى برهان لم يكن حاجة إلى ذكر الوصف ﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، ففي ذكره دلالة على أنه مزيل كل شك وريب عنه تعالى.

ب. وذلك أنا نرى في أول ما نعقل أن لهذا العالم المشهود الذي هو مؤلف من أشياء كثيرة كل واحد منها محدود في نفسه متميز من غيره وجودا، وليس وجوده ولا وجود شيء من أجزائه من نفسه وقائما بذاته وإلا لم يتغير ولم ينعدم فوجوده ووجود أجزائه وكذا كل ما يرجع إلى الوجود من الصفات والآثار من غيرها ولغيرها وهذا الغير هو الذي نسميه (الله) عز اسمه.

ج. فهو تعالى الذي يوجد العالم وكل جزء من أجزائه ويحده ويميزه من غيره فهو في نفسه موجود غير محدود وإلا لاحتاج إلى آخر يحدده فهو تعالى واحد لا يقبل الكثرة لأن ما لا يحد بحد لا يقبل الكثرة.

د. وهو بوحدته يدبر كل أمر كما أنه يوجده لأنه هو المالك لوجودها والكل أمر يرجع إلى وجودها، ولا يشاركه غيره في شيء لأن شيئا من الموجودات غيره لا يملك لنفسه ولا لغيره فهو تعالى رب كل شيء لا رب غيره، كما أنه موجد كل شيء لا موجد غيره.

هـ. وهذا برهان تام سهل التناول حتى للأفهام البسيطة يناله الإنسان الذي يذعن بفطرته أن للعالم

المشهود حقيقة وواقعية من غير أن يكون وهما مجردا كما يبديه السفسطة والشك، ويثبت به توحد الألوهية والربوبية ولذلك تمسك به في هذا المقام الذي هو مقام خصام الوثنية.

٣. ومن هنا يظهر فساد زعم من زعم أن قوله: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ حجة مسوقة لإثبات خالق للعالم، وكذا قول من قال: إنه دليل اتصال التدبير لتوحيد الربوبية:

أ. بل هو برهان عليه تعالى من جهة قيام وجود كل شيء وآثار وجوده به من كل جهة فينتج توحده في الربوبية ويزول به ما أيدوه من الشك بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، ثم قولهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إشارة إلى برهان النبوة التي أنكروها بقولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ يريدون به دين الرسل والشريعة السماوية بالوحي.

ب. وبيانه أن من سنته تعالى الجارية هداية كل شيء إلى كماله وسعادته النوعية، والإنسان أحد هذه الأنواع المشمولة للهداية الإلهية فمن الواجب في العناية الإلهية فهو قريب من مضمون قوله تعالى: ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً﴾ وقد تقدم.

ج. أن يهتدي إلى سعادة حياته، ولكن له حياة خالدة غير محدودة بالدنيا ولا منقطعة بالموت، وسعادته في الحياة أن يعيش في الدنيا عيشة مطمئنة على أساس تعديل قواه في التمتع من أمتعة الحياة من مأكول ومشروب ولباس ونكاح وغير ذلك وهي الأعمال الصالحة، وفي الآخرة أن يعيش على ما اكتسبه من الاعتقاد الحق والعمل الصالح.

د. وهو وإن كان مجهزا بفطرة تذكره حق الاعتقاد وصالح العمل لكنه مجبول من جهة أخرى على العيشة الاجتماعية التي تدعوه إلى اتباع الأهواء والظلم والفسق، فمجرد ذكرى الفطرة لا يكفي في حمله على سنة حقة عادلة تحصل له الاستقامة في الاعتقاد والعمل، وإلا لم يفسد المجتمع الإنساني ولا واحد من أجزائه قط وهم مجهزون بالفطرة.

هـ. فمن الواجب في العناية أن يمد النوع الإنساني مع ما له من الفطرة الداعية إلى الصلاح والسعادة بأمر آخر تتلقى به الهداية الإلهية وهو النبوة التي هي موقف إنساني طاهر ينكشف له عنده الاعتقاد الحق والعمل الصالح بوحي إلهي وتكليم غيبي يضمن اتباعه سعادة الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة.

و. أما سعادة الدنيا فلما تقدم كرارا أن بين المعاصي والمظالم وبين النكال والعقوبة الإلهية التي تنتهي إلى الهلاك ملازمة فلو لم يفسد المجتمع وداموا على الصلاح الفطري لم يختر منهم الهلاك ولم يفاجئهم النكال وعاشوا ما قدر لهم من الآجال الطبيعية، والعيشة المغبوطة.

ز. وأما سعادة الآخرة فلأن اتباع الدعوة الإلهية وبعبارة أخرى الإيمان والتقوى يحليان النفس بالهيأة الصالحة ويذهبان بدرن النفس الذي هو الذنوب بمقدار الاتباع.

ح. فربوبيته تعالى لكل شيء المستوجبة لتدبيرها أحسن تدبير وهدايته كل نوع إلى غايته السعيدة تستدعي أن تعني بالناس بإرسال رسل منهم إليهم ودعوته الناس بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح ليتم بذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبالتخلص عن النكال والعقوبة القاضية عليهم، وأما في الآخرة فبالمغفرة الإلهية بمقدار ما تلبسوا به من الإيمان والعمل الصالح.

٤. إذا عرفت ما ذكرناه بان لك أن قوله تعالى حاكيا عن الرسل: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾:

أ. إشارة منهم عليه السلام إلى حجة النبوة العامة وأن قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، إشارة إلى غاية الدعوة الأخروية وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ إشارة إلى غايتها الدنيوية، وقدم ما للآخرة على ما للدنيا لأن الآخرة هي المقصودة بالذات وهي دار القرار.

ب. وقد نسبوا الدعوة في كلامهم إلى الله سبحانه للتنبيه لما هو الحق تجاه قول الكفار ﴿تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ حيث نسبوها إلى الرسل.

٥. وقوله: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ظاهر في التبعيض، ولعله للدلالة على أن المغفرة على قدر الطاعة، والمجتمع الإنساني لا يخلو عن المعصية المستوجبة للمؤاخذة البتة، فالمغفور على أي حال بعض ذنوب المجتمع لا جميعها فافهم ذلك:

أ. وربما ذكر بعضهم أن المراد به أنه يغفر حقوق الله لا حقوق الناس، ورد بأنه صح عن النبي ﷺ أن الإسلام يجب ما قبله.

ب. وربما قيل: إن ﴿مِنْ﴾ زائدة وأيد بقوله تعالى في موضع آخر: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ بدون من، وفيه أن من إنما يزاد في النفي دون الإثبات كقولهم: ما جاءني من رجل وتدخل على النكرة دون المعرفة

كما قيل، على أن مورد الآيتين مختلف فإن قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الظاهر في مغفرة الجميع إنما هو في مورد الإيمان والجهاد وهو قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] والذي حكاه الله عن نوح عليه السلام في مثل المقام وهو أول هؤلاء الرسل المذكورين في الآية قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٤] وهو يوافق الآية التي نحن فيها فالتبعيض لا مفر منه ظاهرا.

ج. ومما قيل في توجيه الآية أن المراد بالبعض الكل توسعا، ومن ذلك أن المراد مغفرة ما قبل الإيمان من الذنوب وأما ما بعد ذلك فمسكوت عنه، ومن ذلك أن المراد مغفرة الكبائر وهي بعض الذنوب إلى غير ذلك، وهذه وجوه ضعيفة لا يعبأ بها.

د. وقال الزمخشري في الكشاف: (فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾؟ قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين بقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد) وكأن مراده أن المغفور من الذنوب في الفريقين واحد وهو جميع الذنوب، إلا أن تشريف مقام الإيمان أوجب أن يصرح في المؤمنين بمغفرة الجميع، ويقتصر في وعد الكفار على مغفرة البعض والسكوت عن الباقي، ومغفرة بعضها لا تنافي مغفرة البعض الآخر، فليكن هذا مراده وإلا فمجرد التفرقة بين الخطابين لا ينتج ارتكاب مخالفة الواقع بتاتا.

٦. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي لا يعاجلكم بالعقوبة والهلاك ويؤخركم إلى الأجل الذي لا يؤخر وقد سماه لكم ولا يبدل القول لديه، وقد تقدم في تفسير أول سورة الأنعام أن الأجل أجلان: أجل موقوف معلق، وأجل مسمى لا يؤخر، ومن الدليل على هذا الذي ذكرناه قول نوح لقومه في هذا المقام على ما حكاه الله سبحانه: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]

٧. ﴿قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ قد تقدم في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب أن الآية المعجزة حجة عامة على نبوة النبي لا حجة عامية وخاصة الوحي والنبوة التي هي نوع اتصال بالغيب أمر خارق للعادة الجارية بين أفراد الإنسان لا يجدونها

من أنفسهم فعلى من يدعيها الإثبات ولا طريق إلى إثباتها إلا بالإتيان بخارق عادة آخر يدل على صحة هذا الاتصال الغيبي لأن حكم الأمثال واحد، وإذا جاز أن تخترق العادة بشيء جاز أن تخترق بما يماثله.

٨. والرسل عليه السلام لما احتجوا على كفار أممهم في النبوة العامة بقولهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ عادت الكفار إليهم بطلب الدليل منهم على ما يدعونه من النبوة لأنفسهم معتذرين في ذلك بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، ثم صرحوا بما يطلبونه من الدليل وهو الآية المعجزة بقولهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾

٩. فالمعنى سلمنا أن من مقتضى العناية الإلهية أن يدعونا إلى المغفرة والرحمة، لكنا لا نسلم لكم أن هذه الدعوة قائمة بكم كما تدعون فإنكم بشر مثلنا لا تزيدون علينا بشيء، ولو كان مجرد البشرية يوجب ذلك لكنا وجدناه من أنفسنا ونحن بشر، فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه فأتونا بسلطان مبين أي ببرهان قاطع يتسلط على عقولنا ويضطرنا إلى الإذعان بنبوتكم وهو آية معجزة غيبية تخرق العادة كما أن ما تدعونه خارق مثلها.

١٠. وبهذا البيان يظهر:

أ. أولا: أن كلامهم هذا من قبيل منع الدعوى، وقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ سند المنع، وقولهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ تصريح بطلب الدليل.

ب. وثانيا: أن قولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من قبيل الاعتراض الواقع بين المنع وسنده ومعناه أنكم لما كنتم بشرا مثلنا لا فضل لكم علينا بشيء فلا وجه لأن نقبل منكم ما لا نجده من أنفسنا ولا نعهده من أمثالنا، والذي نعهده من أمثال هذه الأمور أنها إنما تظهر عن أغراض ومطامع دنيوية مادية فليس إلا أنكم تريدون أن تصرفونا عن سنتنا القومية وطريقتنا المثلى.

٨. بشرية الرسل وفضل الله:

المقطع [٨] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣١»:

١. ﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. جواب الرسل عما أوردوه على رسالتهم بأنكم بشر مثلنا فلستم ذوي هوية ملكوتية حتى تتصلوا بالغيب فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه القدرة الغيبية فأتونا بسلطان مبين.

ب. ومحصل الجواب أن كوننا بشرا مثلكم مسلم لكنه يوجب خلاف ما استوجبتموه أما قولكم إن كونكم بشرا مثلنا يوجب أن لا تختصوا بخصيصة لا نجدها من أنفسنا وهي الوحي والرسالة فجوابه: أن المماثلة في البشرية لا توجب المماثلة في جميع الكمالات الصورية والمعنوية الإنسانية كما أن اعتدال الخلقة وجمال الهيئة وكذا رزانة العقل وإصابة الرأي والفهم والذكاء كمالات صورية ومعنوية توجد في بعض أفراد الإنسان دون بعض، فمن الجائز أن ينعم الله بالوحي والرسالة على بعض عباده دون بعض فإن الله يمن على من يشاء منهم.

٢. وأما قولكم: ﴿فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ فإنه مبني على كون النبي ذا شخصية ملكوتية وقدرة غيبية فعالة لما تشاء، وليس كذلك فما النبي إلا بشر مثلكم يوحى إليه بالرسالة وليس له من الأمر شيء، وما كان له أن يأتي بآية من عنده إلا أن يشاء الله ذلك ويأذن فيه.

٣. فقوله: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ تسليم من الرسل لقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ لاستنتاج خلاف ما استنتجوه منه، وقوله: ﴿وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾ إشارة إلى مقدمة بانضمامها يستنتج المطلوب، وقوله: ﴿وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ جواب منهم استنتجوه من كونهم بشرا مثلهم.

٤. وتذييل هذا الكلام بقولهم: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ للإشارة إلى ما يجري مجرى حجة ثانية على إرجاع الأمر كله، ومنه أمر الآية المعجزة، إلى الله وهي حجة خاصة بالمؤمنين، وملخصها أن الإيمان بالله سبحانه يقتضي منهم أن يذعنوا بأن الإتيان بالآية إنما هو إلى الله لأن الحول والقوة له خاصة لا يملك غيره من ذلك شيئا إلا بإذنه، وذلك لأنه هو الله عز شأنه، فهو الذي يبدأ منه وينتهي إليه ويقوم به كل شيء فهو رب كل شيء المالك لتدبير أمره لا يملك شيء أمرا إلا بإذنه فهو وكيل كل شيء القائم بما يرجع إليه من الأمر، فعلى المؤمن أن يتخذ ربه وكيلا في جميع ما يرجع إليه حتى في أعماله التي تنسب إليه لما أن القوة كلها له سبحانه وعلى الرسول أن يذعن بأن ليس له الإتيان بآية معجزة إلا بإذن الله.

٥. والآية ظاهرة في أن الرسل عليهم السلام لم يدعوا امتناع إتيانهم بالآية المعجزة المسماة سلطانا مبينا، وإنما ادعوا امتناع أن يستقلوا بذلك من غير حاجة فيه إلى إذن الله سبحانه واحتجوا على ذلك أولا، وثانيا.

٦. ﴿وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

أ. ما استفهامية والاستفهام للإنكار، وقوله: ﴿وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا﴾ حال من الضمير في ﴿لَنا﴾ وسبل الأنبياء والرسل الشرائع التي كانوا يدعون إليها، قال تعالى: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] والمعنى ما الذي نملكه من العذر في أن لا نتوكل على الله والحال أنه تعالى هدانا سبلنا ولم يكن لنا صنع في هذه النعمة والسعادة التي من بها علينا فإذا كان سبحانه فعل بنا هذا الفعل الذي هو كل الخير فمن الواجب أن نتوكل عليه في سائر الأمور.

ب. وهذا في الحقيقة حجة ثانية على وجوب التوكل عليه وإلقاء الزمام إليه سلك فيها من طريق الآثار الدالة على وجوب التوكل عليه كما أن الحجة السابقة سلك فيها من النظر في نفس المؤثر، وتقرير الحجة أن هدايته تعالى إيانا إلى سبلنا دليل على وجوب التوكل عليه لأنه لا يخون عباده ولا يريد بهم إلا الخير ومع وجود الدليل على التوكل لا معنى لوجود دليل على عدم التوكل يكون عذرا لنا فيه فلا سبيل لنا إلى عدم التوكل عليه تعالى، فقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يجري مجرى اللم، وقوله: ﴿وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا﴾ مجرى الإن فتدبر في هذا البيان العذب والاحتجاج السهل الممتنع الذي قدمه القرآن الكريم إلى متدبريه في أوجز لفظ.

٧. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا﴾ من تفريع الصبر على ما بين من وجوب التوكل عليه أي إذا كان من الواجب أن نتوكل عليه ونحن مؤمنون به وقد هدانا سبلنا فلنصبرن على إيذائكم لنا في سبيل الدعوة إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد ويفعل ما يشاء من غير أن نأوي في ذلك إلى ما عندنا من ظاهر الحول والقوة.

٨. ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كلام مبني على الترقي أي كل من تلبس بالتوكل فعليه أن يتوكل على الله سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن إذ لا دليل غيره غير أن المتوكل بحقيقة التوكل لا يكون إلا

مؤمنا فإنه مذعن أن الأمر كله لله فلا يسعه إلا أن يطيعه فيما يأمر وينتهي عما ينهى ويرضى بما رضي به ويسخط عما سخط عنه وهذا هو الإيمان.

٩. الكفار وتهديد الرسل بالإخراج:

المقطع [٩] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٤»:

١. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ هذا تهديد منهم بعد ما عجزوا في مناظرتهم وخسروا في محاجتهم، والخطاب في قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾ للرسل والذين آمنوا معهم فما كانوا ليرضوا أن يعود الرسل في ملتهم ويبقى أتباعهم على دين التوحيد، على أن الله سبحانه صرح بذلك في قصص بعضهم كقوله في شعيب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]

٢. ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ عاد من الأفعال الناقصة بمعنى الصيرورة وهي الحيلولة من حال إلى حال سواء كان عليها سابقا أو لا ومن الدليل عليه، كما قيل، قوله: ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ ولو كان بمعنى الرجوع إلى ما كان لتعين أن يقال: إلى ملتنا.

٣. ومن هنا يظهر فساد ما قيل: إن ظاهر الآية أن الرسل كانوا قبل الرسالة في ملتهم فكلفهم الكفار أن يعودوا إلى ما كانوا عليه، على أن خطابهم لم يكن للرسل خاصة بل لهم ولمن آمن بهم ممن كان على ملة الكفار من قبل فالخطاب لهم ولرسلهم بالعود إلى ملتهم على تقدير كون العود بمعنى الرجوع، إنما هو من باب التغليب.

٤. ومن لطيف الصناعة في الآية دخول لام القسم ونون التأكيد على طرفي الترديد: (لنخرجنكم أو لتعودن) مع أن أو للاستدراك وتفيد معنى الاستثناء ولا معنى لأن يقال: إلا أن تعودوا والله في ملتنا، إلا أن عودهم لما كان بإجبار من الكفار كان في معنى الإعادة وعاد قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ طرف الترديد وصح دخول اللام والنون وآل المعنى إلى قولنا: والله لنخرجنكم من أرضنا أو نعيدنكم في ملتنا.

٥. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، ضمير

الجميع الأول والثاني للرسل والثالث للذين كفروا بدلالة السياق، والتعبير عنهم بالظالمين للإشارة إلى سببية ظلمهم للإهلاك فإن تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعلية كما أن قوله: ﴿ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ مشعر بعلية الخوف للإسكان:

أ. ﴿مَقامِي﴾ مصدر ميمي أريد به قيامه تعالى على الأمر كله أو اسم مكان أريد به مرتبة قيمومته تعالى للأمر كله، والمراد من وعيده تعالى ما أوعد به المخالفين عن أمره من العذاب.

ب. فالمراد بالخوف من مقامه تعالى تقواه بما أنه الله القائم بأمر عباده والمراد بالخوف من وعيده تقواه بما أنه الله الذي حذر عباده من مخالفة أمره بلسان أنبيائه ورسله فيعود على أي حال إلى التقوى وينطبق على قول موسى لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] كما أشار إليه في الكشاف.

٦. والمعنى فأوحى رب الرسل إليهم، وقد أخذت صفة الربوبية الخاصة بهم لمكان توكلهم الجالب للرحمة والعناية، وأقسم لنهلكن هؤلاء المهددين لكم بظلمهم ولنسكننكم هذه الأرض التي هددوكم بالإخراج منها ونورثكم إياها لصفة مخافتكم مني ومن وعيدي وكذلك نفعل فنورث الأرض عبادنا المتقين.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، قال: حدثني أبي رفعه عن النبي ﷺ: قال: من آذى جاره طمعا في مسكنه ورثه الله داره، وهو قوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾

ب. وفي التفسيرين المجمع، وروح المعاني، عن النبي ﷺ: من آذى جاره أورثه الله داره.

١٠. استفتاح الظالمين وخيبتهم ومصيرهم:

المقطع [١٠] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٥»:

١. ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾:

أ. الاستفتاح طلب الفتح والنصر، والخيبة انقطاع الرجاء والخسران والهلاك، والعنيد هو اللجوج ومنه المعاند.

ب. والضمير في ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ للرسل أي طلبوا النصر من الله لما انقطعت بهم الأسباب من كل جانب وبلغ بهم ظلم الظالمين وتكذيب المعاندين كقول نوح فيما حكاه الله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ويمكن رجوع الضمير إلى الرسل والكفار جميعا فإن الكفار أيضا كانوا يصرون على أن يأتيهم الرسل بما يقضي بينهم كقولهم: ﴿مَتى هذَا الْفَتْحُ﴾ [السجدة: ٢٨] ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ﴾ [يس: ٤٨] وعلى هذا التقدير يكون المعنى: واستفتح الرسل والكفار جميعا، وكانت الخيبة للجبارين وهو عذاب الاستئصال.

٢. ﴿مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ﴾ إلى آخر الآيتين، الصديد القيح السائل من الجرح، وهو بيان للماء الذي يسقونه في جهنم، والتجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار، والإساغة إجراء الشراب في الحلق يقال: ساغ الشراب وأسغته أنا كذا في المجمع والباقي ظاهر.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام: الصديد هو الدم، والقيح من فروج الزواني في النار.

ب. أخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي الدنيا في صفة النار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾ قال: يقرب إليه فيتكرهه، فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾

ج. وفي تفسير القمي، في الآية قال: قال: يقرب إليه فيتكرهه، فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شرب تقطعت أمعاؤه، ومزقت تحت قدميه، وإنه ليخرج من أحدهم مثل الوادي صديد وقيح، الحديث.

١١. أعمال الكافرين كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف:

المقطع [١١] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:

١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٦»:

١. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ﴾ إلى آخر الآية، يوم عاصف شديد الريح تمثيل لأعمال الكفار من حيث تترتب نتائجها عليها وبيان أنها حبط باطلة لا أثر لها من جهة السعادة فهو كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣] فأعمالهم كذرات من الرماد اشتدت به الريح في يوم شديد الريح فنثرته ولم يبق منه شيئا هذا مثلهم من جهة أعمالهم.

٢. ومن هنا يظهر أن لا حاجة إلى تقدير شيء في الكلام وإرجاعه إلى مثل قولنا: مثل أعمال الذين كفروا.، والظاهر أن الآية ليست من تمام كلام موسى بل هي كالنتيجة المحصلة من كلامه المنقول.

١٢. الله والخلق والاستبدال:

المقطع [١٢] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٤١»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾

أ. المراد بالرؤية هو العلم القاطع، فإنه الصالح لأن يتعلق بكيفية خلق السماوات والأرض دون الرؤية البصرية.

ب. ثم الفعل الحق ويقابله الباطل هو الذي يكون لفاعله فيه غاية مطلوبة يسلك إليه بذاته فمن المشهود أن كل واحد من الأنواع من أول تكونه متوجه إلى غاية مؤجلة لا بغية له دون أن يصل إليها ثم البعض منها غاية للبعض ينتفع به في طريق كينونته ويصلح به في حدوثه وبقائه كالعناصر الأرضية التي ينتفع بها النبات، والنبات الذي ينتفع به الحيوان وهكذا قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٩]، وقال: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]، فلا تزال الخلقة تقع مرحلة بعد مرحلة وتنال غاية بعد غاية حتى تتوقف في غاية لا غاية بعدها، وذلك رجوعها إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾ [النجم: ٤٢]

ج. وبالجملة الفعل إنما يكون فعلا حقا إذا كان له أمر يقصده الفاعل بفعله وغاية يسلك بالفعل إليها، وأما إذا كان فعلا لا يقصد به إلا نفسه من غير أن يكون هناك غرض مطلوب فهو الفعل الباطل، وإذا كان الفعل الباطل ذا نظام وترتيب فهو الذي يسمى لعبا كما يلعب الصبيان بإتيان حركات منظمة مرتبة لا غاية لهم وراءها ولا أن لهم هما إلا إيجاد ما تخيلوه من صورة الفعل لشوق نفساني منهم إلى ذلك.

د. وفعله تعالى ملازم للحق مصاحب له فخلق السماوات والأرض يخلف عالما باقيا بعد زواله، ولو لم يكن كذلك كان باطلا لا أثر له ولا خلف يخلفه، وكان العالم المشهود بما فيه من النظام البديع لعبا منه سبحانه اتخذه لحاجة منه إليه كالتنفس من كرب وسأمة والتفرج من هم أو التخلص من وحشة وحدة ونحو ذلك وهو سبحانه العزيز الحميد لا تمسه حاجة ولا يذله فقر وفاقة.

هـ. وبما مر يظهر أن الباء في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ للمصاحبة وأن قول بعضهم: (إن الباء للسببية أو الآلة وإن المعنى كيف خلقها بقوله الحق أو للغرض الحق ليس على ما ينبغي.

٢. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾:

أ. أي بشاق صعب والخطاب لعامة البشر بجعل النبي ﷺ مثالا لهم يمثلون به لأن الخطاب متوجه إليه في قوله قبل وبعد: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ﴿وَما ذلِكَ﴾

ب. قد تقدم أن كون الخلقة بالحق هو مقتضى كونه تعالى عزيزا غنيا بالذات إذ لو لم يقتض غناه ذلك وأمكن صدور اللعب منه تعالى وكان هذا الخلق المشهود بما له من النظام البديع لعبا لا يقصد به إلا حدوث وفناء كان ذلك لشوق خيالي منه إليه وحاجة داخلية كتنفيس كرب وتفريج هم أو أنس عن وحشة وسأمة ونحو ذلك وغناه تعالى بالذات يدفع ذلك.

ج. ولعل هذه النكتة هي التي أوجبت تعقيب قوله: ﴿أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إلخ فقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إلخ، في موضع البيان لما تقدمه والمعنى ألم تعلم أن الله خلق هذا الخلق المشهود عن عزة منه وغنى وأنه إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك عليه تعالى بعزيز وهو الله عز اسمه له الأسماء الحسنى وكل العزة والكبرياء.

د. وبهذا يظهر أن وضع الظاهر في موضع المضمر في قوله: ﴿عَلَى اللهِ﴾ للدلالة على الحجة وأن عدم عزة ذلك عليه تعالى من جهة كونه هو الله عز اسمه.

٣. سؤال وإشكال: فإن قلت: لو كان الإتيان بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ إلخ، للدلالة على غناه المطلق وعدم كونه لاعبا بالخلق لكان الأنسب الاقتصار على قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ وترك قوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فإن إذهاب القديم والإتيان بجديد لا ينفي اللعب لجواز أن يكون نفس إذهاب بعض وإتيان بعض لعبا، والجواب:

أ. هذا كذلك لو قيل: إن يشأ يذهب جميع الخلق ويأت بخلق جديد ولكن لما قيل: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ والخطاب لعامة البشر أو لأمة النبي ﷺ فقط أو للموجودين في عصره كان من اللازم أن يعقبه بقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فإن هذا الخلق المشهود بما بين أجزائه من الارتباط والتعلق لا يتم الغرض منه إلا بهذه الصفة الموجودة والتركب والتآلف الخاص، ولو أذهب الناس على بقاء من السماوات والأرض بحالها الحاضرة كان ذلك باطلا ولعبا من جهة أخرى.

ب. وبعبارة أخرى إذهاب الإنسان فقط من غير إتيان بخلق جديد على إبقاء لسائر الخلق المشهود لعب باطل كما أن إذهاب الخلق من أصله من غير غاية مترتبة لعب باطل، وإنما الحق الذي يكشف عن غناه تعالى أن يذهب قوما ويأتي بآخرين وهو الذي تذكره الآية الكريمة فافهم ذلك.

١٣. الضعفاء والمستكبرون والتخاصم يوم القيامة:

المقطع [١٣] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٤٣»:

١. ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً﴾ إلى آخر الآية:

أ. البروز هو الخروج إلى البراز بفتح الباء وهو الفضاء يقال: برز إليه إذا خرج إليه بحيث لا يحجبه عنه حاجب، ومنه المبارزة والبراز كخروج المقاتل من الصف إلى كفئه من العدو، والتبع بفتحتين جمع تابع كخدم وخادم، وقيل: اسم جمع، وقيل: مصدر جيء به للمبالغة، والإغناء الإفادة وضمن معنى الدفع ولذا عدي بعن كما قيل، والجزع والصبر متقابلان، والمحيص اسم مكان من حاص يحيص حيصا وحيوصا إذا زال عن المكروه كما في المجمع فالمحيص هو المكان الذي يزول إليه الإنسان عن المكروه والشدة.

ب. ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً﴾ أي ظهروا له تعالى ظهورا لا يحجبهم عنه حاجب وهذا بالنسبة إلى

أنفسهم حيث كانوا يتوهمون في الدنيا أن ربهم في غيبة عنهم وهم غائبون عنه، فإذا كان يوم القيامة زال كل ستر متوهم وشاهدوا أن لا حاجب هناك يحجبهم عنه، وأما هو تعالى فلا ساتر يستر عنه في دنيا ولا آخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ [آل عمران: ٥]

ج. ويمكن أن تكون الجملة كناية عن خلوصهم لحساب الأعمال وتعلق المشيئة الإلهية بانقطاع الأعمال وإنجاز الجزاء الموعود كما قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن: ٣١]

٢. ﴿فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. تخاصم بين الكفار يوم القيامة، على ما يعطيه السياق، فالضعفاء هم المقلدون المطيعون لأوليائهم من الكفار، والمستكبرون هم أولياؤهم المتبوعون أولوا الطول والقوة المستنكفون عن الإيمان بالله وآياته.

ب. والمعنى فقال الضعفاء المقلدون للذين استكبروا منهم إنا كنا في الدنيا لكم تابعين مطيعين من غير أن نسألكم حجة على ما تأمروننا به فهل أنتم مفيدون لنا اليوم تدفعون عنا شيئا من عذاب الله الذي قضي علينا.

ج. وعلى هذا فلفظة (من) في قوله: ﴿مِنْ عَذابِ اللهِ﴾ للبيان، وفي قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ زائدة للتأكيد كما في قولنا: ما جاءني من أحد، والنفي والاستفهام متقاربان حكما ولا دليل على امتناع تقدم البيان على المبين وخاصة مع اتصالهما وعدم الفصل بينهما.

٣. ﴿قالُوا لَوْ هَدانَا اللهُ لَهَدَيْناكُمْ﴾ ظاهر السياق أن المراد بالهداية هنا الهداية إلى طريق التخلص من العذاب ويمكن أن يكون المراد بها الهداية إلى الدين الحق في الدنيا، والمآل واحد لما بين الدنيا والآخرة من التطابق، ولا يبرز في الأخرى إلا ما كان كامنا في الأولى، قال تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣] مزجوا الهدايتين بعضا ببعض كما هو ظاهر.

٤. ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾ سواء والاستواء والتساوي واحد، وسواء خبر لمبتدإ محذوف والجملة الاستفهامية بيان لذلك، وقوله: ﴿ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾ بيان آخر للتساوي، والمعنى الأمران متساويان علينا وبالنسبة إلينا وهما الجزع والصبر لا مهرب لنا عن العذاب اللازم.

١٤. الشيطان يتبرأ من أتباعه يوم القيامة:

المقطع [١٤] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٤٥»:

١. ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. في المجمع: (الإصراخ الإغاثة بإجابة الصارخ ويقال: استصرخني فلان فأصرخته أي استغاث بي فأغثته)

ب. وهذا كلام جامع يلقيه الشيطان يوم القيامة إلى الظالمين يبين فيه موقعه منهم وينبئ أهل الجمع منهم بوجه الحق في الرابطة التي كانت بينه وبينهم في الدنيا وقد وعد الله سبحانه أنه سينبؤهم يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون، وأن الحق سيظهر يوم القيامة عن قبل كل من كان له من قبله خفاء أو التباس، فالملائكة يتبرءون من شركهم والجن والقرناء من الشياطين يطردونهم والأصنام والآلهة التي اتخذوها أربابا من دون الله يكفرون بشركهم، وكبراؤهم وأئمة الضلال لا يستجيبون لهم، والمجرمون أنفسهم يعترفون بضلالهم وجرمهم، كل ذلك واقعة في آيات كثيرة غير خفية على المتتبع المتدبر فيها.

ج. والشيطان وإن كان بمعنى الشرير وربما أطلق في كلامه تعالى على كل شرير من الجن والإنس كقوله: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] لكن المراد به في الآية الشيطان الذي هو مصدر كل غواية وضلال في بني آدم وهو إبليس فإن ظاهر السياق أنه يخاطب بكلامه هذا عامة الظالمين من أهل الجمع ويعترف أنه كان يدعوهم إلى الشرك، وقد نص القرآن على أن الذي له هذا الشأن هو إبليس وقد ادعى هو ذلك ولم يرد الله ذلك عليه كما في قوله: ﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]

د. وأما ذريته وقبيله الذين يذكرهم القرآن بقوله: ﴿إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ﴾ [الكهف: ٥٠] فولاية الواحد منهم إما لبعض الناس دون بعض أو في بعض الأعمال دون بعض وأما ولاية على نحو العونية فهو العون، والأصل الذي ينتهي إليه أمر الإضلال والإغواء هو إبليس.

٢. فهذا القائل: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِ﴾:

أ. هو إبليس يريد بكلامه رد اللوم على فعل المعاصي إليهم والتبري من شركهم فقوله: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي وعدكم الله وعدا حققه الوقوع وصدقته المشاهدة من البعث والجمع والحساب وفصل القضاء والجنة والنار، ووعدتكم أنا أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ولم أف بما وعدت حيث ظهر خلاف ما وعدت، كذا ذكره المفسرون.

ب. وعلى هذا فالموعود جميع ما يرجع إلى المعاد إثباتا ونفيا أثبته الله سبحانه ونفاه إبليس، وإخلاف الوعد كناية عن ظهور الكذب وعدم الوقوع من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

ج. ومن الممكن، بل هو الوجه، أن يشمل الوعد ما يترتب على الإيمان والشرك في الدنيا والآخرة جميعا لأنهما متطابقتان فقد وعد الله أهل الإيمان حياة طيبة وعيشة سعيدة، وأهل الشرك المعرضين عن ذكره معيشة ضنكا وحرجا في صدورهم وعذابا في قلوبهم في الدنيا، ووعد الجميع بعثا وحسابا وجنة ونارا في الآخرة.

د. ووعد إبليس أولياءه بالأهواء اللذيذة والآمال الطويلة وأنساهم الموت وصرفهم عن البعث والحساب وخوفهم الفقر والذلة وملامة الناس، وكان مفتاحه في جميع ذلك إغفالهم عن مقام ربهم وتزيين ما بين أيديهم من الأسباب مستقلة بالتأثير خالقة لآثارها وتصوير نفوسهم لهم في صورة الاستقلال مهيمنة على سائر الأسباب تدبرها كيف شاءت فتغريهم على الاعتماد بأنفسهم دون الله وتسخير الأسباب في سبيل الآمال والأماني.

هـ. وبالجملة وعدهم الله فيما يرجع إلى الدنيا والآخرة بما وفى لهم فيه، ودعاهم إبليس من طريق الإغفال والتزيين إلى الأوهام والأماني وهي بين ما لا يناله الإنسان قطعا وما إذا ناله وجده غير ما كان يظنه، فيتركه إلى ما يظنه كما يريد هذا في الدنيا وأما الآخرة فينسيه شئونها كما تقدم.

٣. ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾:

أ. السلطان، كما ذكره الراغب، هو السلاطة وهو التمكن من القهر، وتسمى الحجة أيضا سلطانا لما فيها من التمكن من قهر العقول على ما لها من النتائج، وكثيرا ما يطلق ويراد به ذو السلطان كالملك وغيره.

ب. والظاهر أن المراد ما هو أعم من السلطة الصورية والمعنوية فالمعنى وما كان في الدنيا لي عليكم من تسلط لا من جهة أشخاصكم وأعيانكم فأجبركم على معصية الله بسلب اختياركم وتحميل إرادتي عليكم، ولا من جهة عقولكم فأقيم لكم الحجة على الشرك كيفما شئت فتضطر عقولكم لقبوله وتطيعها نفوسكم فيما تأمرها به.

ج. والظاهر أيضا أن يكون الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ منقطعا والمعنى لكن دعوتكم من غير أي سلطان فاستجبتم لي، ودعوته الناس إلى الشرك والمعصية وإن كانت بإذن الله لكنها لم تكن تسليطا فإن الدعوة إلى فعل ليست تسلطا من الداعي على فعل المدعو وإن كان نوع تسلط على نفس الدعوة، ومن الدليل عليه قوله تعالى فيما يأذن له ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥]

٤. ومن هنا يظهر سقوط ما وجه به الرازي في تفسيره كون الاستثناء متصلا إذ قال: (إن القدرة على حمل الإنسان على الشيء تارة تكون بالقهر من الحامل وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه، وذلك بإلقاء الوسواس إليه، وهذا نوع من أنواع التسلط فكأنه قال: ما كان لي تسلط عليكم إلا بالوسوسة لا بالضرب ونحوه)

أ. وجه السقوط: أن عدم كون مجرد الدعوة سلطانا وتمكنا من القهر على المدعو بديهي لا يقبل التشكيك فعده من أنواع التسلط مما لا يصغي إليه.

ب. نعم: ربما انبعثت من المدعو ميل نفساني إلى المدعو إليه فانقاد للدعوة وسلط الداعي بدعوته على نفسه، لكنه تسليط من المدعو لا تسلط من الداعي وبعبارة أخرى هي سلطة يملكها المدعو من نفسه فيملكها الداعي وليس الداعي يملكها عليه من نفسه، وإبليس إنما ينفي التسلط الذي يملكه من نفسه لا ما يسلطونه على أنفسهم بالانقياد بقرينة قوله: ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾

ج. وهذا هو التسلط الذي يثبته الله سبحانه له في قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] أو قوله: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] والآيات، كما ترى، ظاهرة في

أن سلطانه متفرع على الاتباع والتولي والإشراك لا بالعكس.

د. ولانتفاء سلطانه عليهم بالمرة استنتج قوله بعد: ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ والفاء للتفريع أي إذا لم يكن لي عليكم سلطان بوجه من الوجوه، كما يدل عليه وقوع النكرة في سياق النفي والتأكيد بمن في قوله: ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾، فلا يعود إلى شيء من اللوم العائد إليكم من جهة الشرك والمعصية فلا يحق لكم أن تلوموني بل الواجب عليكم أن تلوموا أنفسكم لأن لكم السلطان على عملكم.

٥. ﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. أي ما أنا بمغيثكم ومنجيكم وما أنتم بمغيثي ومنجي فلا أنا شافع لكم ولا أنتم شافعون لي اليوم.

ب. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾:

• أي إني تبرأت من إشراككم إياي في الدنيا، والمراد بالإشراك الإشراك في الطاعة دون الإشراك في العبادة كما يظهر من قوله تعالى خطابا لأهل الجمع: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: ٦١]

• وهذا الكلام منه تبر من شركهم كما حكى سبحانه تبري كل متبوع باطل من تابعه يوم القيامة وهو إظهار أن إشراكهم إياه بالله في الدنيا لم يكن إلا وهما سرابيا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقال: ﴿وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧] وقال: ﴿قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]

ج. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ من تمام كلام إبليس على ما يعطيه السياق يسجل عليهم العذاب الأليم لأنهم ظالمون ظلما لا يرجع إلا إلى أنفسهم.

د. وظاهر السياق أن قوله: ﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ﴾ كناية عن انتفاء الرابطة بينه وبين تابعيه كما يشير تعالى إليه في مواضع أخرى بمثل قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقوله: ﴿فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨]، وذلك لظهور أنه لو لم يكن كناية لكان قوله: ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ﴾ مستدركا مستغنى عنه لعدم تعلق

غرض به فلا هم يتوهمون أنهم قادرون على إغاثة إبليس والشفاعة له ولا هو يتوهم ذلك ولا المقام يوهم ذلك فهو يقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لأن الرابطة مقطوعة بيني وبينكم لا ينفعكم أني كنت متبوعكم ولا ينفعني أنكم كنتم أتباعي إني تبرأت من شرككم فلست بشريك له تعالى، وإنما تبرأت لأنكم ظالمون في أنفسكم والظالمون لهم عذاب أليم لا مسوغ يومئذ للحماية عنهم والتقرب منهم.

هـ. وهذا السياق، كما ترى، يشهد أن تابعي إبليس يلومونه يوم القيامة على ما أصابهم من المصيبة على اتباعه متوقعين منه أن يشاركهم في مصابهم بنحو، وهو يرد عليهم ذلك بأنه لا رابط بينه وبينهم فلا يلحق لومهم إلا بأنفسهم ولا يسعه أن يواسيهم ويقترب منهم لأنه يخاف العذاب الأليم الذي هيئ للظالمين وهم ظالمون، فهو قريب المعنى من قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]

و. ولعله من هنا قال بعضهم إن المراد بقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾، كفره في الدنيا على أن يكون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلقا بقوله: ﴿كَفَرْتُ﴾ فقط، أو به وبقوله: ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾ على سبيل التنازع.

ز. وبالجملة المطلوب العمدة في الآية أن الإنسان هو المسئول عن عمله لأن السلطان له لا لغيره فلا يلومن إلا نفسه، وأما رابطة التابعية والمتبوعية فهي وهمية لا حقيقة لها وسيظهر هذه الحقيقة يوم القيامة عند ما يتبرأ منه الشيطان ويعيد لائمته إلى نفسه كما بين في الآية السابقة أن الرابطة بين الضعفاء والمستكبرين وهمية لا تغني عنهم شيئا عند ما تقع إليها الحاجة يوم القيامة حين انكشاف الحقائق.

٦. وللمفسرين في فقرات الآية أقوال شتى مختلفة أغمضنا عن إيرادها، ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع مطولات التفاسير.

٧. وفي الآية دلالة واضحة على أن للإنسان سلطانا على عمله هو الذي يوجب ارتباط الجزاء به ويسلبه عن غيره، وهو الذي يعيد اللائمة إليه لا إلى غيره، وأما كونه مستقلا بهذا السلطان فلا دلالة فيها على ذلك البتة، وقد تكلمنا في ذلك في الجزء الأول من الكتاب في ذيل قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

١٥. المؤمنون يدخلون الجنة وتحيتهم فيها سلام:

المقطع [١٥] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٥٠»:

١. ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ بيان ما ينتهي إليه حال السعداء من المؤمنين، وفي قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾ مقابلة حالهم من انعكاس السلام والتحية المباركة من بعضهم إلى بعض مع حال غيرهم المذكورين في الآيتين السابقتين من الخصام وتجبيه بعضهم بعضا بالكفر والتبري والإيئاس.

١٦. مثل الكلمة الطيبة:

المقطع [١٦] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٥١»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها﴾:

أ. ذكروا أن ﴿كَلِمَةً﴾ بدل اشتمال من ﴿مَثَلاً﴾ و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفة بعد صفة لقوله: ﴿كَلِمَةً﴾ أو خبر مبتدإ محذوف والتقدير هي كشجرة، وقيل: إن ﴿كَلِمَةً﴾ مفعول أول متأخر لضرب و﴿مَثَلاً﴾ مفعوله الثاني قدم لدفع محذور الفصل بين ﴿كَلِمَةً﴾ وصفتها وهي ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ والتقدير ضرب الله كلمة طيبة كشجرة طيبة.، مثلا.

ب. وقيل: ﴿ضَرَبَ﴾ متعد لواحد و﴿كَلِمَةً﴾ منصوب بفعل مقدر كجعل واتخذ والتقدير ضرب الله مثلا جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة.، وأظن أن هذا أحسن الوجوه لو وجه بكون ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ عطف بيان لقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ من بيان الجملة للجملة، ويتعين حينئذ نصب ﴿كَلِمَةً﴾ بمقدر هو جعل أو اتخذ لأن المدلول أنه مثل الكلمة بالشجرة وشبهها بها وهو معنى قولنا: اتخذ كلمة طيبة كشجرة..

٢. ﴿أَصْلُها ثابِتٌ﴾ أي مرتكز في الأرض ضارب بعروقه فيها، وقوله: ﴿وَفَرْعُها فِي السَّماءِ﴾ أي ما يتفرع على ذلك الأصل من أغصانها في جهة العلو فكل ما علا وأظل سماء، وقوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها﴾ أي تثمر ثمرها المأكول كل زمان بإذن الله، وهذا نهاية ما تفيده شجرة من البركات.

٣. واختلفوا في الآية:

أ. أولا: في المراد من الكلمة الطيبة فقيل: هي شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل: الإيمان، وقيل: القرآن، وقيل: مطلق التسبيح والتنزيه، وقيل: الثناء على الله مطلقا، وقيل: كل كلمة حسنة، وقيل: جميع الطاعات، وقيل: المؤمن.

ب. وثانيا: في المراد من الشجرة الطيبة فقيل: النخلة وهو قول الأكثرين، وقيل: شجرة جوز الهند، وقيل: كل شجرة تثمر ثمرة طيبة كالتين والعنب والرمان، وقيل: شجرة صفتها ما وصفه الله وإن لم تكن موجودة بالفعل.

٤. ثم اختلفوا في المراد بالحين فقيل: شهران، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سنة كاملة، وقيل: كل غداة وعشي، وقيل: جميع الأوقات، والاشتغال بأمثال هذه المشاجرات مما يصرف الإنسان عما يهمه من البحث عن معارف كتاب الله والحصول على مقاصد الآيات الكريمة وأغراضها.

٥. والذي يعطيه التدبر في الآيات أن المراد بالكلمة الطيبة التي شبهت بشجرة طيبة من صفتها كذا وكذا هو الاعتقاد الحق الثابت فإنه تعالى يقول بعد وهو كالنتيجة المأخوذة من التمثيل: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الآية والقول هي الكلمة ولا كل كلمة بما هي لفظ بل بما هي معتمدة على اعتقاد وعزم يستقيم عليه الإنسان ولا يزيغ عنه عملا.

٦. وقد تعرض تعالى لما يقرب من هذا المعنى في مواضع من كلامه كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]:

أ. وهذا القول والكلمة الطيبة هو الذي يرتب تعالى عليه تثبيته في الدنيا والآخرة أهله وهم الذين آمنوا ثم يقابله بإضلال الظالمين ويقابله بوجه آخر بشأن المشركين، وبهذا يظهر أن المراد بالممثل هو كلمة التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله حق شهادته.

ب. فالقول بالوحدانية والاستقامة عليه هو حق القول الذي له أصل ثابت محفوظ عن كل تغير وزوال وبطلان وهو الله عز اسمه أو أرض الحقائق، وله فروع نشأت ونمت من غير عائق يعوقه عن ذلك

من عقائد حقة فرعية وأخلاق زاكية وأعمال صالحة يحيي بها المؤمن حياته الطيبة ويعمر بها العالم الإنساني حق عمارته وهي التي تلائم سير النظام الكوني الذي أدى إلى ظهور الإنسان بوجوده المفطور على الاعتقاد الحق والعمل الصالح.

ج. والكمل من المؤمنين وهم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فتحققوا بهذا القول الثابت والكلمة الطيبة مثلهم كمثل قولهم الذي ثبتوا لا يزال الناس منتفعين بخيرات وجودهم ومنعمين ببركاتهم.

د. وكذلك كل كلمة حقة وكل عمل صالح مثله هذا المثل، له أصل ثابت وفروع رشيدة وثمرات طيبة مفيدة نافعة.

هـ. فالمثل المذكور في الآية يجري في الجميع كما يؤيده التعبير بكلمة طيبة بلفظ النكرة غير أن المراد في الآية على ما يعطيه السياق هو أصل التوحيد الذي يتفرع عليه سائر الاعتقادات الحقة، وينمو عليه الأخلاق الزاكية وتنشأ منه الأعمال الصالحة.

٧. ثم ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليتذكر به المتذكر أن لا محيص لمريد السعادة عن التحقق بكلمة التوحيد والاستقامة عليها.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الترمذي والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حيان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس قال: أتي رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال: ﴿مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، حتى بلغ، ﴿تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها﴾، قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، حتى بلغ، ﴿ما لَها مِنْ قَرارٍ﴾، قال: هي الحنظلة.

• أقول: وكون الشجرة الطيبة هي النخلة مروي في عدة روايات عنه ﷺ، وهي لا تدل على أزيد من انطباق المثل عليها، وذيل الرواية ينافي الرواية التالية.

أخرج البيهقي في سننه عن علي قال: الحين ستة أشهر.

• أقول: والكلام فيه كالكلام في سابقه.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن عمرو بن حريث قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ﴾ قال: فقال: رسول الله ﷺ أصلها وأمير المؤمنين فرعها،

والأئمة من ذريتها أغصانها، وعلم الأئمة ثمرتها وشيعتهم المؤمنون ورقها، هل في هذا فضل؟ قال: قلت: لا والله، قال: والله إن المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، وإن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها.

• أقول: والرواية مبنية على كون المراد بالكلمة الطيبة هو النبي ﷺ، وقد أطلقت الكلمة في كلامه على الإنسان كقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، ومع ذلك فالرواية من باب التطبيق ومن الدليل عليه اختلاف الروايات في كيفية التطبيق ففي بعضها أن الأصل رسول الله ﷺ والفرع علي عليه السلام والأغصان الأئمة عليهمالسلام والثمرة علمهم والورق الشيعة كما في هذه الرواية، وفي بعضها أن الشجرة رسول الله وفرعها علي والغصن فاطمة وثمرها أولادها وورقها شيعتنا كما فيما رواه الصدوق عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام، وفي بعضها أن النبي والأئمة هم الأصل الثابت والفرع الولاية لمن دخل فيها كما في الكافي، بإسناده عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام.

١٧. مثل الكلمة الخبيثة:

المقطع [١٧] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٥٢»:

١. ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ﴾:

أ. الاجتثاث الاقتلاع، يقال: جثته واجتثته أي قلعته واقتلعته، والجث بالضم ما ارتفع من الأرض كالأكمة، وجثة الشيء شخصه الناتئ، كذا في المفردات.

ب. والكلمة الخبيثة ما يقابل الكلمة الطيبة ولذا اختلفوا فيها فقال كل قوم فيها ما يقابل ما قاله في الكلمة الطيبة وكذا اختلفوا في المراد بالشجرة الخبيثة فقيل: هي الحنظلة، وقيل: الكشوث وهو نبت يلتف على الشوك والشجر لا أصل له في الأرض ولا ورق عليه، وقيل: شجرة الثوم، وقيل: شجرة الشوك، وقيل: الطحلب، وقيل: الكمأة، وقيل: كل شجرة لا تطيب لها ثمرة.

ج. وقد عرفت حال هذه الاختلافات في الآية السابقة، وعرفت أيضا ما يعطيه التدبر في معنى الكلمة الطيبة وما مثلت به ويجري ما يقابله في الكلمة الخبيثة وما مثلت به حرفا بحرف فإنما هي كلمة الشرك مثلت بشجرة خبيثة مفروضة اقتلعت من فوق الأرض ليس لها أصل ثابت وما لها من قرار، وإذ كانت خبيثة فلا أثر لها إلا الضر والشر.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قعد ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فذكروا هذه الآية: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ﴾ فقالوا: يا رسول الله نراه الكمأة، فقال رسول الله ﷺ: الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم.

• أقول: والكلام يجري في الحنظلة فإن لها خواص طبية هامة.

ب. وفي المجمع: (روى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: أن هذا، يعني قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ إلخ، مثل بني أمية.

ج. وفي تفسير العياشي، عن عبد الرحمن بن سالم الأشل عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الآيتين قال: هذا مثل ضربه الله لأهل بيت نبيه ﷺ، ولمن عاداهم هو مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار

• أقول: قال الآلوسي في تفسير روح المعاني، ما لفظه: وروى الإمامية وأنت تعرف حالهم، عن أبي جعفر، تفسيرها، يعني الشجرة الخبيثة، ببني أمية، وتفسير الشجرة الطيبة برسول الله ﷺ، وعلي كرم الله وجهه وفاطمة، وما تولد منهما، وفي بعض روايات أهل السنة، ما يعكر على تفسير الشجرة الخبيثة ببني أمية، فقد أخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قلب العباد ظهرا وبطنا، فكان خير عباده العرب، وقلب العرب ظهرا وبطنا، فكان خير العرب قريشا، وهي الشجرة المباركة التي قال الله تعالى في كتابه ﴿مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ لأن بني أمية من قريش)

• وهو عجيب فإن كون أمة أو طائفة مباركة بحسب طبعهم لا يوجب كون جميع الشعب المنشعبة منها كذلك فالرواية على تقدير تسليمها لا تدل إلا على أن قريشا شجرة مباركة وأما أن جميع الشعب المنشعبة منها مباركة طيبة كبني عبد الدار مثلا أو كون كل فرد منهم كذلك كأبي جهل وأبي لهب فلا قطعا فأي ملازمة بين كون شجرة بحسب أصلها مباركة طيبة وبين كون بعض فروعها التي انفصلت منها ونمت نماء فاسدا، مباركا طيبا؟

• وقد روى ابن مردويه هذا عن عائشة: أنها قالت لمروان بن الحكم سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن.

• وروى أصحاب التفاسير كالطبري وغيره عن سهل بن ساعد وعبد الله بن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن علي وسعيد بن المسيب: أنهم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ الآية، ولفظ سعد: رأى رسول الله ﷺ بني فلان، ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات، وأنزل الله: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾ الآية.

• وستأتي الرواية عن عمر وعن علي: في تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ أنهم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية.

١٨. الله يثبت المؤمنين بالقول الثابت ويضل الظالمين:

المقطع [١٨] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٥٣»:

١. ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الظاهر أن ﴿بِالْقَوْلِ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُثَبِّتُ﴾ لا بقوله: ﴿آمَنُوا﴾، والباء للآلة أو السببية لا للتعدية، وأن قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق أيضا بقوله: ﴿يُثَبِّتُ﴾ لا بقوله: ﴿الثَّابِتِ﴾

ب. فيعود المعنى إلى أن الذين آمنوا إذا ثبتوا على إيمانهم واستقاموا ثبتهم الله عليه في الدنيا والآخرة، ولو لا تثبيته تعالى لهم لم ينفعهم الثبات من أنفسهم شيئا ولم يستفيدوا شيئا من فوائده فإليه تعالى يرجع الأمر كله، فقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، في باب الهداية يوازن قوله: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] في باب الإضلال.

ج. غير أن بين البابين فرقا وهو أن الهدى يبتدئ من الله سبحانه ويترتب عليه اهتداء العبد والضلال يبتدئ من العبد بسوء اختياره فيجازيه الله بالضلال على الضلال، كما قال: ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقد تكاثرت الآيات القرآنية أن الهداية من الله سبحانه ليس لغيره فيها صنع.

٢. وتوضيح المقام:

أ. أن الله سبحانه خلق الإنسان على فطرة سليمة ركز فيها معرفة ربوبيته وألهمها فجورها وتقواها، وهذه هداية فطرية أولية ثم أيدها بالدعوة الدينية التي قام بها أنبياؤه ورسله.

ب. ثم إن الإنسان لو جرى على سلامة فطرته واشتاق إلى المعرفة والعمل الصالح هداه الله فاهتدى العبد للإيمان عن هدايته تعالى، وأما جريه على سلامة الفطرة فلو سمي اهتداء فإنما هو اهتداء متفرع على السلامة الفطرية لو سميت هداية.

ج. ولو انحرف الإنسان عن صراط الفطرة بسوء اختياره وجهل مقام ربه وأخلد إلى الأرض واتبع الهوى وعاند الحق فهو ضلال منه غير مسبوق بإضلال من الله وحاشاه سبحانه لكنه يستعقب إضلاله عن الطريق مجازاة وتثبيته على ما هو عليه بقطع الرحمة منه وسلب التوفيق عنه وهذا إضلال مسبوق بضلالة من نفسه بسوء اختياره وإزاغة له عن زيغ منه.

٣. ومن هنا وجه اختلاف السياق في الآيتين أما قوله: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فقد فرض فيه زيغ منهم ثم أزاغه منه تعالى وأما قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ فقد فرض فيه إيمان ثابت على التثبيت وهو في نفسه يستلزم هداية منه واهتداء منهم ثم أضيف إلى ذلك القول الثابت وهو ثباتهم واستقامتهم بحسن اختيارهم على ما آمنوا به وهو فعلهم فيعقبه الله بتثبيتهم بسبب ذاك القول الثابت وحفظهم من الزيغ والزلل يدفع عنهم بذلك مخاطر الحياة في الدنيا والآخرة وهذا هداية منه تعالى غير مسبوقة باهتداء من عند أنفسهم يرتبط بها فافهم ذلك.

٤. وكيف كان فهذا التثبيت بالنظر إلى التمثيل بمنزلة إحكام الشجرة الطيبة من جهة ثبوت أصلها في الأرض، وإذا ثبت أصل الشجرة نمت وتفرعت بالفروع وأتت بالأثمار في كل حين والدنيا والآخرة تحاذيان: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ فإن الدنيا والآخرة تشملان جميع الأحيان فهذا ما يعطيه السياق من معنى الآية:

أ. وقيل: إن المعنى يثبت الله الذين آمنوا ويقرهم في كرامته وثوابه بالقول الثابت الذي وجد منهم وهو كلمة الإيمان لأنه ثابت بالحجج والأدلة فالمراد بتثبيتهم تقريبهم منه وإسكانهم الجنة وبثبوت قولهم تأيده بالحجة والبرهان، وفيه أنه تقييد من غير مقيد.

ب. وقيل: المعنى أنه يثبتهم بالتمكين في الأرض والنصرة والفتح والغلبة في الدنيا وإسكان الجنة في الآخرة، وهو بعيد من السياق.

٥. ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. ظاهر المقابلة بين الظالمين والذين آمنوا في الجملة السابقة أن المراد بهم أهل الكفر بالله وبآياته

على أنه تعالى فسر الظالمين بقول مطلق في بعض كلامه بما يقرب منه إذ قال: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥]

ب. والجملة كالنتيجة المستخرجة من المثل الثاني المذكور: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ﴾ والمعنى أن الله يضل أهل الكفر بحرمانهم من صراط الهداية فلا يهتدون إلى عيشة سعيدة في الدنيا ولا إلى نعمة باقية ورضوان من الله في الآخرة فلا يوجد عندهم إن كشف عن قلوبهم إلا الشك والتردد والقلق والاضطراب والأسى والأسف والحسرة.

٦. ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾:

أ. أي يجري تثبيت هؤلاء وإضلال أولئك على ما تقتضيه مشيته لا مانع له ولا دافع فلا حائل بين مشيته وفعله، ويظهر من ذلك أن الله تعالى قد شاء تثبيت هؤلاء وإضلال أولئك وهو فاعلهما لا محالة فمن القضاء المحتوم سعادة المؤمن وشقاء الكافر وقد وردت به الرواية.

ب. ووقوع لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ﴾ وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ﴾ من وقوع الظاهر موقع المضمر ويدل على فخامة الأمر ومهابة الموقف كما قيل.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن صفوان بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا، فيأتيه عند موته ويأتيه عن يمينه وعن يساره، ليصده عما هو عليه فيأبى الله ذلك وكذلك قال الله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

ب. وفيه، عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا: إذا وضع الرجل في قبره أتاه ملكان، ملك عن يمينه وملك عن شماله، وأقيم الشيطان بين يديه عيناه من نحاس فيقال له: ما تقول في هذا الرجل الذي خرج من بين ظهرانيكم، يزعم أنه رسول الله؟ فيفزع لذلك فزعة فيقول إن كان مؤمنا: محمد رسول الله فيقال عند ذلك: نم نومة لا حلم فيها ويفسح له في قبره تسعة أذرع، ويرى مقعده من الجنة وهو قول الله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ وإن كان كافرا قالوا: من هذا الرجل الذي كان بين ظهرانيكم، يقول: إنه رسول الله؟ فيقول: ما أدري، فيخلى بينه وبين الشيطان.

ج. أخرج الطيالسي والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله فذلك قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

د. أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: في الآخرة القبر.

• أقول: وهناك روايات كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة وردت في تفصيل سؤال القبر وإتيان الملكين منكر ونكير وثبات المؤمن وضلال الكافر عند ذلك وقد وقع في كثير منها التمسك بالآية.

• وظاهرها أن المراد بالآخرة هو القبر وعالم الموت، ولعل ذلك مبني على ظاهر معنى التثبيت فإن الظاهر من إعطاء الثبات أن يكون في مقام يجوز فيه الزلل والخبط، وهذا إنما يتصور في غير يوم القيامة الذي ليس فيه إلا المجازاة بالأعمال وأما بالنظر إلى أن كل ثابت في الوجود فإنما ثباته بالله سبحانه سواء كان مما يجوز عليه الزوال أم لا فلا فرق بين البرزخ والقيامة في أن المؤمن ثابت بتثبيت الله سبحانه والأولى أخذ الروايات من قبيل التطبيق.

١٩. الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار:

المقطع [١٩] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٥٥»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ﴾

أ. قال في المجمع: (الإحلال وضع الشيء في محل إما بمجاورة إن كان من قبيل الأجسام أو بمداخلة إن كان من قبيل الأعراض، والبوار الهلاك يقال: بار الشيء يبور بورا إذا هلك ورجل بور أي هالك وقوم بور أيضا)

ب. وقال الراغب: (البوار فرط الكساد ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد كما قيل: كسد حتى فسد، عبر بالبوار عن الهلاك يقال: بار الشيء يبور بورا وبؤرا قال عز وجل: ﴿تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾)

ج. والآية تذكر حال أئمة الكفر ورؤساء الضلال في ظلمهم وكفرانهم نعمة الله سبحانه التي أحاطت بهم من كل جهة بدل أن يشكروها ويؤمنوا بربهم، وقد ذكر قبل كيفية خلقه تعالى السماوات والأرض على غنى منه وهي نعمة، ثم ذكر كلمة الحق التي يدعو إليها وما لها من الآثار الثابتة الطيبة وهي نعمة.

٢. والآية مطلقة لا دليل على تقييدها بكفار مكة أو كفار قريش وإن كان الخطاب فيها للنبي ﷺ، وكان في ذيلها مثل قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ لظهور أن ذلك لا يوجب تقييدا في الآية مع إطلاق مضمونها وشمولها للطواغيت من الأمم وما صنعوا بأقوامهم:

أ. فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ يذكر حال أئمة الكفر ورؤساء الضلال من الأمم السابقة ومن هذه الأمة والدليل على اختصاصه بهم قوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ﴾ المشعر بكونهم نافذي الكلمة مطاعين في قومهم فهم الأئمة والرؤساء.

ب. والمراد بتبديلهم نعمة الله كفرا تبديلهم شكر نعمته الواجب عليهم كفرا ففي الجملة مضاف محذوف والتقدير: بدلوا شكر نعمة الله كفرا، ويمكن أن يراد تبديل نفس النعمة كفرا بنوع من التجوز، ونظير الآية في هذه العناية قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]

ج. وذكر إحلالهم قومهم دار البوار يستلزم إحلال أنفسهم فيها لأنهم أئمة الضلال ضلوا ثم أضلوا والتبعة تبعة الضلال، ونظير الآية في هذا المعنى قوله في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]

د. والمعنى ألم تنظر إلى الأئمة والرؤساء من الأمم السابقة ومن أمتك الذين بدلوا شكر نعمة الله كفرا واتبعتهم قومهم فحلوا وأحلوا قومهم دار الهلاك وهو الشقاء والنار.

٣. ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ بيان لدار البوار، واحتمال بعضهم أن يكون: ﴿جَهَنَّمَ﴾ منصوبا بالاشتغال والتقدير يصلون جهنم يصلونها والجملة مستأنفة خال عن الوجه لأن النصب مرجوح ولا نكتة تستوجب الاستئناف.

٤. ومن هنا يظهر فساد قول من قال إن الآيات مدنية والمراد بالذين كفروا هم عظماء مكة وصناديد قريش الذين جمعوا الجموع على النبي ﷺ وحاربوه ببدر فقتلوا وأحلوا قومهم دار البوار:

أ. وذلك أنك عرفت من معنى الآية أنها مطلقة ولا موجب لتخصيصها بقتلى بدر من الكفار أصلا، بل الآية تشمل كل إمام ضلال أحل قومه دار البوار ممن تقدم وتأخر، والمراد بإحلال دار البوار إقرارهم في شقاء النار وإن لم يقتلوا ولا ماتوا ولا دخلوا النار بعد.

ب. على أن ظاهر الآية التالية ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أن ضمير الجمع راجع إلى الذين كفروا المذكورين في هذه الآية ولازمه كون خطاب قل تمتعوا خطابا للباقين منهم وهم الذين أسلموا يوم الفتح وهو إيعاد بشقاء قطعي منجز من غير استثناء.

٥. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾:

أ. الأنداد جمع ند وهو المثل وهم الآلهة الذين اتخذوهم آلهة من دون الله من الملائكة والجن والإنس.

ب. وإنما جعلوها أندادا مع اعترافهم بأنهم مخلوقون لله سبحانه من جهة أنهم سموهم آلهة وأربابا ونسبوا إليهم تدبير أمر العالم ثم عبدوهم خوفا وطمعا مع أن الأمر والخلق كله لله وقد اعترفت بذلك فطرتهم وأيد الله ذلك بما ألهمه أنبياءه ورسله من الآيات والحجج الدالة على وحدانيته.

ج. فهم كانوا على بصيرة من أمر التوحيد لم يتخذوا الأنداد عن غفلة أو خطإ بل عمدوا إلى ذلك ابتغاء عرض الحياة الدنيا وليستعبدوا الناس ويستدروهم بإضلالهم عن سبيل الله، ولذلك علل اتخاذهم الأنداد بقوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ثم أمر النبي ﷺ أن يوعدهم بالنار التي إليها مرجعهم لا مرجع لهم سواها فقال: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾

د. وكان من طبع الكلام أن يقال لهم: اتخذوا الأنداد أو أضلوا عن سبيل الله فإن مصيركم إلى النار، لكن بدل من قوله: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ ليصرح بغرضهم الفاسد الذي كانوا يخفونه ليكون أبلغ في فضاحتهم.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ قال: نحن نعمة الله التي أنعم الله بها على العباد.

• أقول: وهو من الجري والتطبيق.

ب. وفيه، عن معصم المسرف عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ

الْبَوارِ﴾ قال: هما الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة: أقول: ورواه أيضا في البرهان، عن ابن شهر آشوب عن أبي الطفيل عنه عليه السلام.

ج. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه والحاكم وصححه من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ قال: هما الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فقطع الله دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

• أقول: وهو مروي عن عمر كما يأتي.

د. أخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ قال: هما الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

هـ. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: أنه قال لعمر: يا أمير المؤمنين هذه الآية: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ قال: هم الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين.

و. وفي تفسير العياشي، عن ذريح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: جاء ابن الكواء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فسأله عن قول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ الآية قال: تلك قريش بدلوا نعمة الله كفرا وكذبوا نبيه يوم بدر.

• أقول: واختلاف التطبيق في كلامه عليه السلام من الشاهد على أنه من باب بيان انطباق الآية لا من قبيل سبب النزول.

٢٠. المؤمنون وإقامة الصلاة والإنفاق:

المقطع [٢٠] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٥٧»:

١. ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ

لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾:

أ. لما توعدهم على لسان رسوله بعذاب يوم القيامة لإضلالهم الناس عن سبيل الله، أمره أن يأمر عباده الذين آمنوا بالتزام سبيله من قبل أن يأتي يوم القيامة فلا يسعهم تدارك ما فات منهم من السعادة بشيء من الأسباب الدائرة بينهم لذلك وهي ترجع إلى أحد شيئين: إما المعارضة بإعطاء شيء وأخذ ما يعادله وهو البيع بالمعنى الأعم، وإما الخلة والمحبة، ولا أثر من هذه الأسباب في يوم محض للحساب والجزاء فإن ذلك شأن يوم القيامة لا شأن له دون ذلك.

ب. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا﴾ بيان لسبيل الله وقد اكتفى بهذين الركنين اللذين بهما يلحق سائر الوظائف الشرعية مما يصلح حياة الإنسان الدنيوية فيما بينه وبين ربه وما بينه وبين سائر أفراد نوعه.

٢. ﴿يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا﴾:

أ. مجزومان لوقوعهما في جواب الأمر ومقول القول محذوف لدلالة الفعلين عليه، والتقدير: قل: أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا، والإشكال فيه بأن المجزوم في جواب الأمر يجب أن يكون مترتبا عليه ولا يلزم من الأمر بالصلاة والإنفاق أن يطيعوا ذلك، ساقط فإن اللازم فيه أن يكون الجواب مما يقتضيه الأمر بوجه، وأمر عباده المؤمنين وهم عباد مؤمنون مما يقتضي الطاعة بلا إشكال.

ب. والإنفاق المذكور في الآية مطلق الإنفاق في سبيل الله فإن السورة مكية ولم تنزل آية الزكاة بعد، والمراد بالإنفاق سرا وعلانية أن يجري الإنفاق على ما يقتضيه الأدب الديني الحق فيسر به فيما يحسن الإسرار ويعلن فيما يحسن الإعلان، والمطلوب بذلك على أي حال الإتيان بما يصلح ما في مظنة الفساد ويقيم أود المجتمع من أمور المسلمين.

ج. ولا ينافي ما في هذه الآية من نفي المخالة قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فإن النسبة بين الآيتين نسبة العموم والخصوص المطلق فتخصص هذه الآية بتلك الآية ويتحصل المراد من الآيتين أن كل خلة من غير جهة التقوى ترتفع يوم القيامة، وأما الخلة التي من جهتها وهي الخلة في ذات الله فإنها تثبت وتنفع فنفي الخلال مطلقا ثم إثبات بعضه في الآيتين نظير نفي الشفاعة مطلقا في قوله: ﴿وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ثم إثباتها فيما كان بإذن الله كما في قوله:

﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]

د. وما قيل في نفي التنافي: إن المراد بالخلال في الآية النافية المخالة التي هي من الأسباب الدنيوية لتدارك ما فات بخلاف ما في الآية المثبتة، وكذا ما قيل إن المراد بالمخالة المنفية هي التي تكون بحسب ميل الطبع ورغبة النفس بخلاف المخالة المثبتة فإنها التي تكون في ذات الله، مرجعها بالحقيقة إلى ما ذكرناه.

٢١. الله وعنايته بخلقه:

المقطع [٢١] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٥٩»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾:

أ. لما ذكر سبحانه جعلهم لله أندادا لإضلال الناس عن سبيل الله وأوعد عليه أورد في هذه الآية إلى تمام ثلاث آيات الحجة على اختصاص الربوبية بنفسه تعالى وتقدس من طريق اختصاص التدبير العام به من نظم الخلقة وإنزال الماء وإخراج الرزق وتسخير البحار، الفلك، والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار، وأشار في آخر الآيات إلى أنها وما لا تحصى من غيرها نعمة منه تعالى للإنسان لأن البيان في هذه السورة، كما تقدمت الإشارة إليه، يجري في ضوء الاسمين: العزيز الحميد.

ب. فقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ﴾، في معنى قولنا: فهو الرب وحده دون الذين جعلتموهم أندادا له.

٢. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ﴾، المراد بالسماء جهة العلو وهو معناها اللغوي، والماء النازل منها هو المطر النازل منها فإليه ينتهي الماء في الأرض الذي تعيش به ذوات الحياة من النبات والحيوان.

٣. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ﴾:

أ. تسخير الفلك للناس هو جعلها بحيث تنفعهم في مقاصدهم وهي العبور بأنفسهم وأحمالهم وغير ذلك من غير أن ترسب في الماء أو تمتنع عن الحركة.

ب. وأما قول بعضهم: (تسخيرها لهم هو إقدارهم على صنعتها واستعمالها بإلهامهم طريق ذلك

بعيد، فإن الظاهر من تسخير شيء للإنسان هو التصرف فيه بجعله موافقا لما يقصده من منافع نفسه دون التصرف في الإنسان نفسه بإلهام ونحوه، وكان من طبع الكلام أن يقال: وسخر لكم البحر لتجري فيه الفلك بأمره وسخر لكم الأنهار غير أنه عكس، وقيل: وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره لكون الفلك من أوضح النعم البحرية وإن لم تنحصر فيها نعمه ولعل ذلك هو السبب في العكس، لأن المقام مقام عد النعمة والنعمة في الفلك أوضح وإن كانت في البحر أعظم.

ج. وإسناد جريها في البحر إلى أمره تعالى مع كونه مستندا إلى الأسباب الطبيعية العاملة كالريح والبخار وسائر الأسباب، لكونه تعالى هو السبب المحيط الذي إليه ينتهي كل سبب.

٤. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ﴾ وهي المياه الجارية في مختلف أقطار الأرض وتسخيرها هو تدليلها بحيث ينتفع بها الإنسان بالشرب والغسل وإزالة الأوساخ وغير ذلك ويعيش بها الحيوان والنبات المسخران له.

٥. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ قال الراغب: (الدأب إدامة السير دأب في السير دأبا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ﴾ والدأب العادة المستمرة دائما على حالة، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كعادتهم التي يستمرون عليها)، ومعنى الآية واضح.

٦. ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾:

أ. السؤال هو الطلب ويفارقه أن السؤال إنما يكون ممن يعقل والطلب أعم وإنما تنبه الإنسان للسؤال من جهة الحاجة الداعية إليه فأظهر له أن يرفع ما حلت به من حاجة وكانت الوسيلة العادية إليه هي اللفظ فتوسل به إليه وربما توسل إليه بإشارة أو كتابة وسمي سؤالا حقيقة من غير تجوز.

ب. وإذ كان الله سبحانه هو الذي يرفع حاجة كل محتاج ممن سواه لا يتعلق شيء بذاته فيما يحتاج إليه في وجوده وبقائه إلا بذيل جوده وكرمه سواء أقر به أو أنكره وهو تعالى أعلم بهم وبحاجاتهم ظاهرة وباطنة من أنفسهم كان كل من سواه عاكفا على باب جوده سائلا يسأله رفع ما حلت به من حاجة سواء أعطاه أو منعه وسواء أجابه في جميع ما سأل أو بعضه.

ج. هذا هو حق السؤال وحقيقته يختص به تعالى لا يتعداه إلى غيره، ومن السؤال ما هو لفظي، كما تقدم، ربما يسأل به الله سبحانه وربما يسأل به غيره فهو تعالى مسئول يسأله كل شيء بحقيقة السؤال ويسأله

بعض الناس من المؤمنين به بالسؤال اللفظي.

د. هذا بالنسبة إلى السؤال وأما بالنسبة إلى الإيتاء وهو الإعطاء فقد أطلق من غير أن يقيد باستثناء ونحوه فيدل على أنه ما من سؤال إلا وعنده إعطاء وهذه قرينة أن الخطاب للنوع كما يؤيده أيضا قوله ذيلا ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

هـ. والمعنى أن النوع الإنساني لم يحتج بنوعيته إلى نعمة من النعم إلا رفع الله حاجته إما كلا أو بعضا وإن كان الفرد منه ربما احتاج وسأل ولم يقض حاجته.

و. وهذا المعنى هو الذي يؤيده قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فقد مر في تفسير الآية أنه تعالى لا يرد دعاء من دعاه إلا أن لا يكون دعاء حقيقة أو يكون دعاء إلا أنه ليس دعاءه بل دعاء غيره والفرد من الإنسان ربما لم يواطئ لسانه قلبه أو لغا في دعائه لكن النوع بنوعيته لا يعرف هذرا ولا نفاقا ولا يعرف ربا غيره سبحانه فكلما مسته حاجة فإنه يسأله حقيقة ولا يسأله إلا من ربه فجميع أدعيته مستجابة وسؤالاته مؤتاة وحاجاته مقضية.

ز. وقد ظهر مما تقدم أن ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ ابتدائية تفيد أن الذي يؤتيه الله مأخوذ مما سألوه سواء كان جميع ما سألوه كما في بعض الموارد أو بعضه كما في بعضها الآخر، ولو كانت من تبعيضية لأفادت أنه تعالى يؤتي في كل سؤال بعض المسئول والواقع خلافه كما أنه لو قيل: وآتاكم كل ما سألتموه أفاد إيتاء الجميع وليس كذلك ولو قيل: مما سألتموه أفاد أن من الجائز أن لا يستجاب بعض الأدعية ويرد بعض الأسئلة من أصله والآية، وهي في مقام الامتنان، تأبى ذلك.

ح. فبالجملة معنى الآية أن الله تعالى أعطى النوع الإنساني ما سأله فما من حاجة من حوائجه إلا رفع كلها أو بعضها حسب ما تقتضيه حكمته البالغة.

ط. وربما قيل: إن تقدير الكلام: وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه وهو مبني على كون المراد بالسؤال هو السؤال اللفظي وقد تقدم خلافه، وسياق الآية لا يساعد عليه.

٧. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾:

أ. قال الراغب: (الإحصاء: التحصيل بالعدد يقال: أحصيت كذا وذلك من لفظ الحصى واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدونه بالعد كاعتمادنا فيه على الأصابع)

ب. وفي الجملة إشارة إلى خروج النعم عن طوق الإحصاء ولازمه كون حوائج الإنسان التي رفعها الله بنعمه غير مقدور للإنسان إحصاؤها.

ج. وكيف يمكن إحصاء نعمه تعالى وعالم الوجود بجميع أجزائه وما يلحق بها من الأوصاف والأحوال مرتبطة منتظمة نافع بعضها في بعض متوقف بعضها على بعض، فالجميع نعمه بالنسبة إلى الجميع وهذا أمر لا يحيط به إحصاء.

د. ولعل ذلك هو السر في إفراد النعمة في قوله: ﴿نِعْمَتَ اللهِ﴾ فإن الحق أن ليس هناك إلا النعمة فلا حاجة إلى تفخيمها بالجمع ليدل على الكثرة، والمراد بالنعمة جنس المنعم فيفيد ما يفيده الجمع.

٨. ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي كثير الكفران يظلم نفسه فلا يشكر نعمة الله ويكفر بها فيؤديه ذلك إلى البوار والخسران، أو كثير الظلم لنعم الله لا يشكرها ويكفر بها، والجملة استئناف بياني يؤكد بها ما يستفاد من البيان السابق، فإن الواقف على ما مر بيانه من حال نعمه تعالى وما آتى الإنسان من كل ما سأله منها لا يرتاب في أن الإنسان وهو غافل عنها طبعا ظالم لنفسه كافر بنعمة ربه.

٩. أحاديث وآثار: في الكافي، عن علي بن محمد عن بعض أصحابه رفعه قال: كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ يقول: سبحان الذي لم يجعل في أحد من معرفة نعمه، إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه، أكثر من العلم أنه لا يدركه، فشكر جل وعز معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكرا، كما علم علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله علما.، الحديث.

٢٢. إبراهيم يدعو ربه أن يجعل البلد آمناً ويجتنب الأصنام:

المقطع [٢٢] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥ـ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٦٧»:

١. ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾:

أ. أي واذكر إذ قال إبراهيم والإشارة إلى مكة شرفها الله تعالى:

ب. وقد حكى الله سبحانه نظير هذا الدعاء على اختصار فيه عن إبراهيم عليه السلام في موضع

آخر بقوله: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]

ج. ومن الممكن أن يستفاد من اختلاف المحكيين في التعبير أعني قوله: ﴿اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً﴾ وقوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ أنهما دعاءان دعا عليه السلام بهما في زمانين مختلفين، وأنه بعد ما أسكن إسماعيل وأمه أرض مكة ورجع إلى أرض فلسطين ثم عاد إليهما وجد من إقبال جرهم إلى مجاورتهما مكانا ما سر بذلك فدعا عند ذلك مشيرا إلى مكانهم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً﴾ فسأل ربه أن يجعل المكان بلدا ولم يكن به وأن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات، ثم لما عاد إليهم بعد ذلك بزمان وجد المكان بلدا فسأل ربه أن يجعل البلد آمنا.

د. ومما يؤيد كونهما دعاءين ما فيهما من الاختلاف من غير هذه الجهة ففي آية البقرة الدعاء لأهل البلد بالرزق من الثمرات وفي الآيات المبحوث عنها الدعاء بذلك لذريته خاصة مع أمور أخرى دعا بها لهم.

هـ. وعلى هذا يكون هذا الدعاء المحكي عن إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات آخر ما أورده الله تعالى في كتابه من كلام إبراهيم عليه السلام ودعائه، وقد دعا به بعد ما أسكن إسماعيل وأمه بها وجاورتهما قبيلة جرهم وبنى البيت الحرام وبنيت بلدة مكة بأيدي القاطنين هناك كما تدل عليه فقرات الآيات.

و. وعلى تقدير أن يكون المحكيان دعاء واحدا يكون قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ﴾ تقديره: رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا وقد حذف في إحدى الآيتين المشار إليه وفي الأخرى الموصوف اختصارا.

ز. والمراد بالأمن الذي سأله عليه السلام الأمن التشريعي دون التكويني، كما تقدم في تفسير آية البقرة، فهو يسأل ربه أن يشرع لأرض مكة حكم الحرمة والأمن، وهو، على خلاف ما ربما يتوهم، من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده فإنا لو تأملنا هذا الحكم الإلهي الذي شرعه إبراهيم عليه السلام بإذن ربه أعني حكم الحرمة والأمن وأمعنا فيما يعتقده الناس من تقديس هذا البيت العتيق وما أحاط به من حرم الله الآمن وقد ركز ذلك في نفوسهم منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم وجدنا ما لا يحصى من الخيرات والبركات الدينية والدنيوية عائدة إلى أهلها وإلى سائر أهل الحق ممن يحن إليهم ويتعلق قلبه بهم، وقد ضبط التاريخ من ذلك شيئا كثيرا وما لم يضبط أكثر فجعله تعالى مكة بلدا آمنا من النعم العظيمة التي

أنعم الله بها على عباده.

٢. ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. يقال: جنبه وأجنبه أي أبعده، وسؤاله عليه السلام أن يجنبه الله ويبعده وبنيه من عبادة الأصنام لواذ والتجاء إليه تعالى من الإضلال الذي نسبه إليهن في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾:

ب. ومن المعلوم أن هذا الإبعاد والإجناب منه تعالى كيفما كان وأيا ما كان تصرف ما وتأثير منه تعالى في عبده بنحو، غير أنه ليس بنحو يؤدي إلى الإلجاء والاضطرار ولا ينجر إلى القهر والإجبار بسلب صفة الاختيار منه إذ لا مزية لمثل هذا الابتعاد حتى يسأل ذلك مثل إبراهيم خليل الله.

ج. فرجع بالحقيقة إلى ما تقدم في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية، أن كل خير من فعل أو ترك فإنه منسوب إليه تعالى أولا، ثم إلى العبد ثانيا بخلاف الشر من فعل أو ترك فإنه منسوب إلى العبد ابتداء ولو نسب إليه تعالى فإنما ينسب إذا كان على سبيل المجازاة، وقد أوضحنا ذلك.

د. فالاجتناب من عبادة الأصنام إنما يتحقق عن إجناب من الله رحمة منه لعبده وعناية، وليس في الحقيقة إلا أمرا تلبس واتصف به العبد غير أنه إنما يملكه بتمليك الله سبحانه فهو المالك له بذاته والعبد يملكه بأمر منه وإذن كما أن العبد إنما يهتدي عن هداية من الله، وليس هناك إلا هدى واحد لكنه مملوك لله سبحانه لذاته والعبد إنما يملكه بتمليك منه سبحانه، وأبسط كلمة في هذا المعنى ما وقع في أخبار آل العصمة أن الله يوفق عبده لفعل الخير وترك الشر هذا.

هـ. فتلخص أن المراد بقوله عليه السلام ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ سؤال ما لله سبحانه من الصنع في ترك العبد عبادة الأصنام وبعبارة أخرى هو يسأل ربه أن يحفظه وبنيه من عبادة الأصنام ويهديهم إلى الحق إن هم عرضوا أنفسهم لذلك وأن يفيض عليهم إن استفاضوا لا أن يحفظهم منها سواء عرضوا لذلك أنفسهم أو لم يعرضوا وأن يفيض عليهم سواء استفاضوا أو امتنعوا فهذا معنى دعائه عليه السلام.

و. ومنه يعلم أن نتيجة الدعاء لبعض المدعوين لهم وإن كان بلفظ يستوعب الجميع، وهذا البعض هم المستعدون لذلك دون المعاندين والمستكبرين منهم وسنزيده بيانا.

ز. ثم هو عليه السلام يدعو بهذا الدعاء لنفسه وبنيه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ وبنوه

جميع من جاء من نسله بعده وهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق فإن الابن كما يطلق على الولد من غير واسطة كذلك يطلق على غيره، ويصدق ذلك القرآن الكريم قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وقد تكرر إطلاق بني إسرائيل على اليهود في نيف وأربعين موضعا من كلامه تعالى.

ح. فهو عليه السلام يسأل البعد عن عبادة الأصنام لنفسه ولجميع من بعده من بنيه بالمعنى الذي تقدم، اللهم إلا أن يقال: إن قرائن الحال والمقال تدل على اختصاص الدعاة بآل إسماعيل القاطنين بالحجاز فلا يعم بني إسحاق.

٣. ثم عقب عليه السلام دعاءه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ وهو في مقام التعليل لدعائه وقد أعاد النداء ﴿رَبِ﴾ إثارة للرحمة الإلهية، أي إني إنما أسألك أن تبعدني وبني عن عبادتهن لأنهن أضللن كثيرا من الناس ونسبة الإضلال إلى الأصنام لمكان الربط الذي بين الضلال وبينهن وإن لم يكن ارتباطا شعوريا وليس من اللازم في نسبة أي فعل أو أثر إلى شيء أن يقوم به قياما شعوريا وهو ظاهر.

٤. ثم قوله عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. تفريع على ما تقدم من كلامه أي إذا كان كثير من الناس أضلتهم الأصنام بعبادتهن واستعذت بك وعرضت نفسي وبني عليك أن تجنبنا من عبادتهن افترقنا نحن والناس طائفتين: الضالون عن طريق توحيدك والعارضون لأنفسهم على حفظك وإجنابك فمن تبعني.

ب. وقد عبر عليه السلام في تفريعه بقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ والاتباع إنما يكون في طريق، وقد لوح إلى الطريق أيضا بقوله: ﴿أَضْلَلْنَ﴾ لأن الضلال إنما يكون عن الطريق، فمراده باتباعه التدين بدينه والسير بسيرته لا مجرد الاعتقاد بوحدانيته تعالى بل سلوك طريقته المبنية على توحيد الله سبحانه ليكون في ذلك عرض النفس على رحمته تعالى وإجنابه من عبادة الأصنام.

ج. ومن الدليل على كون المراد بالاتباع هو سلوك سبيله قوله في ما يعادله من كلامه: ﴿وَمَنْ عَصانِي﴾ فإنه نسب العصيان إلى نفسه ولم يقل: ومن كفر بك أو عصاك أو فسق عن الحق ونحو ذلك كما لم يقل فمن آمن بك أو أطاعك أو اتقاك وما أشبهه.

د. فمراده باتباعه سلوك طريقه والتدين بجميع ما أتى به من الاعتقاد والعمل وبعصيانه ترك

سيرته وما أتى به من الشريعة اعتقادا وعملا كأنه عليه السلام يقول: من تبعني وعمل بشريعتي وسار بسيرتي فإنه ملحق بي ومن أبنائي تنزيلا أسألك أن تجنبني وإياه أن نعبد الأصنام، ومن عصاني بترك طريقتي كلها أو بعضها سواء كان من بني أو غيرهم فلا ألحقه بنفسي ولا أسألك إجنابه وإبعاده بل أخلي بينه وبين مغفرتك ورحمتك.

٥. ومن هنا يظهر:

أ. أولا: أن قوله عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ بالتصرف في البنين تعميما وتخصيصا فهو كتعميم البنين لكل من تبعه من جهة وتخصيصه بالعاصين له منهم من جهة أخرى فليسوا منه ولا ملحقين به، وبالجملة هو عليه السلام يلحق الذين اتبعوه من بعده بنفسه وأما غير متبعيه فيخلي بينهم وبين ربهم الغفور الرحيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨]، وهذه التوسعة والتضييق منه عليه السلام نظير مجموع ما وقع منه ومن ربه في الفقرة الأخرى من دعائه على ما يحكيه آية البقرة: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ حيث سأل الرزق أولا لأهل البلد ثم خصه لمن آمن منهم فعممه الله سبحانه بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ ثانيا.

ب. وثانيا: أن من الممكن أن يستفاد من قوله عليه السلام فيمن تبعه: إنه مني وسكوته فيمن عصاه بعد ما كان دعاؤه في نفسه وبنيه أن ذلك تبن منه لكل من تبعه وإلحاق له بنفسه، ونفي لكل من عصاه عن نفسه وإن كان من بنيه بالولادة، أو إلحاق لتابعيه بنفسه مع السكوت عن غيرهم بناء على عدم صراحة السكوت في النفي، ولا إشكال في ذلك بعد ظهور الدليل فإن الولادة الطبيعية لا يجب أن تكون هي الملاك في النسب إثباتا ونفيا، ولا تجد واحدة من الأمم يقتصرون في النسب إثباتا ونفيا على مجرد الولادة الطبيعية لا بل لا يزالون يتصرفون بالتوسعة والتضييق وللإسلام أيضا تصرفات في ذلك كنفي الدعي والمولود من الزنا والكافر والمرتد وإلحاق الرضيع والمولود على الفراش إلى غير ذلك، وفي كلامه تعالى في ابن نوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]

ج. وثالثا: أنه عليه السلام وإن لم يسأل المغفرة والرحمة صريحا لمن عصاه وإنما عرضهم للمغفرة

والرحمة بقوله: ﴿وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لكنه لا يخلو عن إيماء ما إلى الطلب لمن ترك طريقته وسيرته التي تعد الإنسان للرحمة الإلهية بحفظه من عبادة الأصنام، وهذا المقدار من المعصية لا يمنع عن شمول الرحمة وإن لم يكن مقتضيا أيضا لذلك، وليس المراد به نفس الشرك بالله حتى ينافي سؤال المغفرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ١١٦]

٦. هذا محصل ما يعطيه التدبر في الآيتين الكريمتين وهو في معزل عما استشكله المفسرون في أطراف الآيتين ثم ذهبوا في التخلص عنه مذاهب شتى بعيدة عن الذوق السليم:

أ. سؤال وإشكال: فقد استشكلوا أولا قوله عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ من حيث إن ظاهره سؤال الحفظ عن عبادة الأصنام لنفسه ولبنيه جميعا فيكون دعاء غير مستجاب فإن قريشا من بنيه وقد كانوا وثنيين يعبدون الأصنام، وكيف يمكن أن يدعو مثل الخليل عليه السلام ثم لا يستجاب له؟ أم كيف يمكن أن يذكر تعالى دعاءه وهو لغو غير معني به ثم لا يذكر رده على خلاف مسلك القرآن في جميع المواضع المشابهة؟ ثم كيف يمكن أن يسأل لنفسه المصونية والعصمة عن عبادة الأصنام وهو نبي والأنبياء معصومون؟ والجواب:

- قد قيل في الجواب عن إشكال عدم استجابة دعائه في بنيه:
- إن المراد ببنيه أبناؤه بلا واسطة كإسماعيل وإسحاق وغيرهما وقد استجيب دعاؤه فيهم، وقيل: المراد الموجودون من بنيه وقت الدعاء وهم موحدون، وقيل: إن الله قد استجاب دعاءه في بعض بنيه دون بعض ولا نقص فيه.
- وقيل: إن المشركين من بنيه لم يكونوا يعبدون الأصنام وإنما كانوا يتخذونها شفعاء، وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان دون الأصنام وبينهما فرق فإن الأصنام هي التماثيل المصورة والأوثان هي التماثيل غير المصورة، وقيل: إنهم ما كانوا يعبدون الأصنام بل كان الواحد منهم ينصب حجرا ويقول: هذا حجر والبيت حجر، فكان يدور حوله ويسمونه الدوار.
- وسقوط هذه الوجوه ظاهرة: أما الأول والثاني فلكونهما خلاف ظاهر اللفظ وأما الثالث فلأن الإشكال ليس في ورود نقص على النبي بعدم استجابة دعائه أو بعضه لحكمة بل من جهة منافاته لمسلك القرآن في حكاية لغو الكلام من غير رده، وأما باقي الوجوه فلأن ملاك الضلال في عبادة الأصنام هو شرك

العبادة وهو موجود في جميع ما افترضوه من الوجوه.

• وقيل في الجواب عن إشكال سؤال النبي الإبعاد والإجناب عن الشرك وهو نبي معصوم:

● إن المراد الثبات والدوام على ذلك، وقيل إنه عليه السلام ذكر ذلك هضما لنفسه وإظهارا للحاجة إلى فضله تعالى.

● وقيل: المراد سؤال الحفظ عن الشرك الخفي وإلا فالأنبياء مصونون عن الشرك الجلي هذا.

● وهذه وجوه ردية:

● أما الأول فلأنه لا ينحسم به مادة الإشكال إذ العصمة والمصونية كما أنها لازمة للنبوة حدوثا لازمة لها بقاء فلو لم يصح للنبي أن يسأل حدوثها لمكان اللزوم لم يصح له أن يسأل بقاءها لذلك بعينه، والأصل في جوابهم هذا أنهم يزعمون انفصال الفيض عن المفيض واستقلال المستفيض فيما استفاضه بمعنى أن الله سبحانه إذا أفاض بشيء على شيء خرج ما أفاضه من ملكه ووقع في ملك المستفيض ولا معنى للسؤال ممن لا يملك وإذا قضى سبحانه بشيء حدوثا أو بقاء قضاء حتم لا يتغير عما هو عليه فإنه لا يتعلق على خلافه قدرة ولا مشية وهو خطأ فإن الحاجة من جانب المستفيض باقية على حالها قبل الإفاضة لا تختلف أصلا وملكه تعالى باق بعد الإفاضة على ما كان عليه قبلها ولا يزال سبحانه قادرا له أن يشاء ما يشاء وإن كان لا يشاء فيما قضى بخلافه قضاء حتم، والسؤال والطلب من آثار الحاجة لا من آثار الفقدان فافهم ذلك وقد أشبعنا القول في هذا المعنى في المباحث المتقدمة مرارا.

● وأما الثاني فلأن هضم النفس إنما يستقيم في غير الضروريات وأما الأمور الضرورية فلا، فلا معنى لقول القائل: لست إنسانا وهو يريد نفي الماهية هضما لنفسه اللهم إلا أن يريد نفي الكمال وكذا القول في إظهار الحاجة وهم لا يرون في الأمور الضرورية المحتومة كالعصمة في الأنبياء حاجة.

● وأما الثالث فلأن الشرك الخفي هو الركون والتوجه إلى غير الله على مراتبه، وإبراهيم عليه السلام يعلل قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ بقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ فهو إنما يسأل الإبعاد من عبادة هذه الأصنام وهي الشرك الجلي دون الحفظ عن الركون والتوجه إلى غير الله تعالى اللهم إلا أن يدعى أن المراد بالصنم كل ما يتوجه إليه غير الله سبحانه، وكذا المراد بالعبادة مطلق التوجه والالتفات وهو دعوى لا دليل عليها.

ب. سؤال وإشكال: ثم استشكلوا في قوله عليه السلام ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من

حيث اشتماله على طلب المغفرة للمشركين، ولا تتعلق المغفرة بالشرك بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية، والجواب:

• قد قيل في الجواب عن الإشكال: أن الشرك كان جائز المغفرة في الشرائع السابقة وإنما رفع ذلك في هذه الشريعة بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية فإبراهيم عليه السلام جرى في دعائه على ما كان عليه الأمر في شريعته.

• وقيل: إن المراد: ومن عصاني فإنك غفور رحيم له بعد توبته ففي الكلام قيد محذوف، وقيل: المراد ومن عصاني وأقام على الشرك فإنك غفور رحيم بأن تنقله من الشرك إلى التوحيد فتغفر له وترحمه.

• وقيل: المراد بالمغفرة والرحمة الستر على الشرك في الدنيا والرحمة بعدم معاجلة العقاب فالمعنى ومن عصاني بالإقامة على الشرك فاستر عليه ذلك وارحمه بتأخير العقاب عنه، وقيل: إن الكلام على ظاهره وكان ذلك منه عليه السلام قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك، ولا نقص بجهل ذلك لأن مغفرة الشرك جائزة عقلا وإنما منع منها الدليل السمعي وليس من الواجب أن يعلم بجميع الأدلة السمعية في يوم واحد، وقيل: المراد بالمعصية ما دون الشرك.

• وهذه أجوبة فاسدة:

● أما الأول فلأن دعوى كون الشرك جائز المغفرة في الشرائع السابقة دعوى لا دليل عليها بل الدليل على خلافها فقد خاطب الله آدم عليه السلام بمثل قوله:، وهو أول الشرائع السابقة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وحكى عن المسيح عليه السلام وشريعته آخر الشرائع السابقة قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، والتدبر في آيات القيامة والجنة والنار وفي آيات الشفاعة وفي دعوات الأنبياء المحكية في القرآن لا يدع شكا في أن الشرك لا نجاة لصاحبه بشفاعة أو غيره إلا بالتوبة قبل الموت.

● وأما الثاني فلأن تقييد المغفرة والرحمة بالتوبة تقييد من غير مقيد على أن تقييد المعصية بالتوبة يفسد المعادلة في قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي﴾ إلخ، فإن العاصي التائب يعود ممن تبعه ويلحق به عليه السلام فلا يبقى للمعادلة أزيد من طرف واحد.

● وأما الثالث والرابع فلما فيهما من ارتكاب خلاف الظاهر فإن ظاهر طلب المغفرة للعاصي أن

يغفر الله له حينما هو عاص لا أن يغفر الله له بعد خروجه بالتوبة عن المعصية إلى الطاعة وكذا ظاهر مغفرة العصيان رفع تبعات معصيته مطلقا أو في الآخرة، وأما رفع التبعة الدنيوية فقط فأمر بعيد عن الفهم.

● وأما الخامس فهو أبعد الوجوه، وكيف يجوز الاجتراء على مثل الخليل عليه السلام وهو في أواخر عمره، كما تقدم، أن يجهل ما هو من واضحات المعارف الدينية ثم يجري على جهله فيشفع عند ربه للمشركين ويسأل لهم المغفرة من غير أن يستأذن الله في ذلك ولو استأذنه لأنبأه أن ذلك مما لا يكون ثم يورد الله سبحانه في كلامه ما ارتكبه من لغو الكلام جهلا ولا يرده ببيان ما هو الحق في ذلك، وقد اعتذر سبحانه عن استغفاره لأبيه المشرك ورفع عن ساحته كل غميضة فيما قال: ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]

● وأما السادس فتقييد المعصية بما دون الشرك تقييد من غير مقيد، اللهم إلا أن يقرر بما يرجع إلى ما قدمناه.

٧. فهذه جملة ما ذكره المفسرون في ذيل الآيتين أوردناها ملخصه وقد وقعوا فيما وقعوا لإهمالهم تحقيق القول في معنى حفظه تعالى عن الشرك، ومعنى تفرع قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ على ما تقدمه.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عقيل بن أبي طالب: أن النبي ﷺ لما أتاه الستة النفر من الأنصار، جلس إليهم عند جمرة العقبة، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والمؤازرة على دينه، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحي إليه، فقرأ من سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ إلى آخر السورة فرق القوم، وأخبتوا حين سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه.

ب. وفي تفسير العياشي، عن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أحبنا فهو منا أهل البيت، فقلت: جعلت فداك منكم؟ قال: منا والله أما سمعت قول الله وهو قول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾

ج. وفيه، عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من اتقى الله منكم وأصلح فهو منا أهل البيت، قال: منكم أهل البيت؟ قال: منا أهل البيت، قال فيها إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ قال عمر بن يزيد: قلت له: من آل محمد؟ قال: إي والله من آل محمد إي والله من أنفسهم، أما تسمع قول الله

تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ، لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وقول إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾

• أقول: وقد ورد في بعض الروايات أن بني إسماعيل لم يعبدوا صنما قط إثر دعاء إبراهيم: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، وأنهم إنما قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله والظاهر أن الرواية موضوعة، وقد تقدمت الإشارة إليه في البيان السابق.

• وكذا ما ورد في بعض الروايات من طرق العامة والخاصة أن أرض الطائف كانت في الأردن من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه السلام لبنيه بقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أمر الله بها فسارت بترابها إلى مكة فطافت على البيت سبعة أشواط ثم استقرت حيث الطائف الآن.

• وهذا وإن كان ممكن الوقوع في نفسه من طريق الإعجاز لكن لا يكفي لثبوته أمثال هذه الروايات الضعيفة والمرسلة على أن هذه الآيات في مقام الامتنان ولو قارن هذا الدعاء واستجابته تعالى له مثل هذه الآية العظيمة العجيبة والمعجزة الباهرة لأشير إليها مزيدا للامتنان، والله أعلم.

٢٣. إبراهيم يسكن ذريته بواد غير ذي زرع عند البيت الحرام:

المقطع [٢٣] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٧٦»:

١. ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى آخر الآية ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

أ. في تأويل مفعول ﴿أَسْكَنْتُ﴾ أو ساد مسده و﴿مِنْ﴾ فيه للتبعيض) ومراده عليه السلام ببعض ذريته ابنه إسماعيل ومن سيولد له من الأولاد دون إسماعيل وحده بدليل قوله: بعد ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

ب. والمراد بغير ذي زرع غير المزروع وهو آكد وأبلغ لأنه يدل، كما قيل، على عدم صلاحيته لأن يزرع لكونه أرضا حجرية رملية خالية عن المواد الصالحة للزرع وهذا كقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾

ج. ونسبة البيت إلى الله سبحانه لأنه مبني لغرض لا يصلح إلا له تعالى وهو عبادته، وكونه محرما هو ما جعل الله له من الحرمة تشريعا والظرف أعني قوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَسْكَنْتُ﴾

د. وهذه الجملة من دعائه عليه السلام أعني قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ من

الشاهد على ما قدمناه من أنه عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء في أواخر عمره بعد ما بنى الكعبة وبنى الناس بلدة مكة وعمروها كما أن من الشاهد عليه أيضا قوله: ﴿الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾

هـ. وبذلك يندفع ما ربما يستشكل فيقال: كيف سماه بيتا وقال أسكنت من ذريتي عنده ولم يبنه بعد؟ كأن السائل يقدر أنه إنما دعا به يوم أتى بإسماعيل وأمه إلى أرض مكة وكانت أرضا قفراء لا أنيس بها ولا نبت.

و. ولا حاجة إلى دفعه بأنه كان يعلم بما علمه الله أنه سيبني هناك بيتا لله أو بأن البيت كان قبل ذلك وإنما خربه بعض الطوائف أو رفعه الله إلى السماء في الطوفان وليت شعري إذا اندفع بهما هذا الإشكال فكيف يندفع بهما ما يتوجه من الإشكال على هذا التقدير إلى ظاهر قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ وظاهر قوله: ﴿وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾

٢. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ بيان لغرضه من إسكانهم هناك، وهو بانضمام ما تقدم من قوله: ﴿بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وما يعقبه من قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ﴾ يفيد أنه عليه السلام إنما اختار واديا غير ذي زرع أعزل من أمتعة الحياة من ماء عذب ونبات ذي خضرة وشجر ذي بهجة وهواء معتدل خاليا من السكنة ليتمحضوا في عبادة الله من غير أن يشغلهم شواغل الدنيا.

٣. ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ من الهوي بمعنى السقوط أي تحن وتميل إليهم بالمساكنة معهم أو بالحج إلى البيت فيأنسوا بهم، وارزقهم من الثمرات، بالنقل إليهم تجارة لعلهم يشكرون.

٢٤. إبراهيم يحمد الله على هبة إسماعيل وإسحاق ويستغفر للمؤمنين:

المقطع [٢٤] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهَّ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٨ـ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٧٧»:

١. ﴿رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ﴾ إلى آخر الآية معناه ظاهر، وقوله: ﴿وَما يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ من تمام كلام إبراهيم عليه السلام أو من كلامه تعالى، وعلى الأول

ففي قوله: ﴿عَلَى اللهِ﴾ التفات وجهه الإشارة إلى علة الحكم كأنه قيل: إنك تعلم ما نخفي وما نعلن لأنك الله الذي ما يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يبعد أن يستفاد من هذا التعليل أن المراد بالسماء ما هو خفي علينا غائب عن حسنا والأرض بخلافه فافهم ذلك.

٢. ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾ كالجملة المعترضة بين فقرات دعائه دعاه إلى إيراده تذكره في ضمن ما أورده من الأدعية عظيم نعمة الله عليه إذ وهب له ولدين صالحين مثلهما بعد ما انقطع عنه الأسباب العادية المؤدية إلى ظهور النسل، وأنه إنما وهبهما له باستجابة دعائه للولد فحمد الله على ما وهبهما وأثنى عليه على استجابة دعائه في ذلك.

٣. ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾:

أ. الكلام في استناد إقامته الصلاة إلى الله سبحانه نظير الكلام في استناد إجنابه أن يعبد الأصنام فإن لإقامة الصلاة نسبة إليه تعالى بالإذن والمشية كما أن لها نسبة إلى العبد بالتصدي والعمل وقد مر الكلام فيه.

ب. وهذه الفقرة ثاني دعاء يشترك فيه هو عليه السلام وذريته ويعقب في الحقيقة قوله أولا: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ كما يلحق به دعاؤه الثالث المشترك فيه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

ج. وقد أفرد نفسه في جميع الفقرات الثلاث عن غيره إذ قال: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ و﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ ﴿اغْفِرْ لِي﴾ لأن مطلوبه لحوق ذريته به كما قال في موضع آخر: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وفي موضع آخر كما حكاه الله بقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]

د. وأما قوله في الفقرة الأولى ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وهاهنا ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فقد تقدم أن المراد ببنيه بعضهم لا جميعهم فتتطابق الفقرتان.

هـ. ومن تطابق الفقرتين أنه أكد دعاءه في هذه الفقرة بقوله: ﴿رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾ فإن سؤال تقبل الدعاء إلحاح وإصرار وتأكيد كما أن التعليل في الفقرة الأولى، بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ تأكيد في الحقيقة لما فيها من الدعاء، بقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾

٤. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾ ختم عليه السلام دعاءه، وهو آخر ما ذكر من دعائه في القرآن الكريم كما تقدم، بطلب المغفرة للمؤمنين يوم القيامة ويشبه آخر ما دعا به نوح عليه السلام مما ذكر في القرآن: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ [نوح: ٢٨]

٥. وفي الآية دليل على أنه عليه السلام لم يكن ولد آزر المشرك لصلبه فإنه عليه السلام، كما ترى، يستغفر لوالديه وهو على الكبر وفي آخر عهده، وقد تبرأ من آزر في أوائل عهده بعد ما استغفر له عن موعدة وعده إياه قال تعالى: ﴿قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧]، وقال: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، وقال: ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وقد تقدم تفصيل القول في قصصه عليه السلام في سورة الأنعام في الجزء السابع من الكتاب.

٦. ومن لطيف ما في دعائه عليه السلام اختلاف النداء المكرر الذي فيه بلفظ (رب) و(ربنا) والعناية فيما أضيف إلى نفسه بما يختص بنفسه من السبقة والإمامة، وفيما أضيف إلى نفسه وغيره إلى المشتركات.

٧. في مرسلة العياشي، عن حريز عمن ذكره عن أحدهما عليهماالسلام: أنه كان يقرأ (رب اغفر لي ولولدي) يعني: إسماعيل وإسحاق، وفي مرسلته الأخرى عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: مثله وظاهر هذه الرواية أن القراءة مبنية على كفر والد إبراهيم والروايتان ضعيفتان لا يعبأ بهما.

٢٥. تأخير الظالمين ليوم تشخص فيه الأبصار:

المقطع [٢٥] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٨١»:

١. ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. يقال: شخص بصره أي سكن بحيث لا يطرف جفنة، ويقال: بعير مهطع إذا صوب عنقه أي رفعه وهطع وأهطع بمعنى، ويقال: أقنع رأسه إذا رفعه، وقوله: لا يرتد إليهم طرفهم أي لا يقدرون على

أن يطرفوا من هول ما يشاهدونه، وقوله: وأفئدتهم هواء أي قلوبهم خالية عن التعقل والتدبير لشدة الموقف أو أنها زائلة.

ب. والمعنى: ولا تحسبن الله ولا تظننه غافلا عما يعمل هؤلاء الظالمون بها تشاهد من تمتعهم وإترافهم في العيش وإفسادهم في الأرض إنما يمهلهم الله ويؤخر عقابهم إلى يوم يسكن فيه أبصارهم فلا تطرف والحال أنهم مادون لأعناقهم رافعون لرءوسهم لا يقدرون على رد طرفهم وقلوبهم مدهوشة خالية عن كل تحيل وتدبير من شدة هول يوم القيامة وفي الآية إنذار للظالمين وتعزية لغيرهم.

٢٦. الإنذار وطلب التأخير والأمثال:

المقطع [٢٦] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٨٢»:

١. ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إلى آخر الآية، في الآية إنذار بعد إنذار وبين الإنذارين فرق من جهتين:

أ. إحداهما: أن الإنذار في الآيتين السابقتين إنذار بما أعد الله من أهوال يوم القيامة وأليم العذاب فيه، وأما الذي في هذه الآية وما يتلوها فهو إنذار بعذاب الاستئصال في الدنيا ومن الدليل عليه قوله: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، وبذلك يظهر أن لا وجه لما ذكره بعضهم أن المراد بهذا اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب هو يوم القيامة، وكذا ما ذكره آخرون أن المراد به يوم الموت.

ب. والثانية: أن الإنذار الأول إنذار بعذاب قطعي لا صارف له عن أمة ظالمة ولا فرد ظالم من أمة وأما الإنذار الثاني فهو إنذار بعذاب غير مصروف عن أمة ظالمة وأما الفرد فربما صرف عنه، ولذلك ترى أنه تعالى يقول أولا: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ ثم يقول: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إلخ ولم يقل: فيقولون أي الناس لأن عذاب الاستئصال لا يصيب المؤمنين قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] وإنما يصيب الأمة الظالمة بحلول أجلهم وهم طائفة من ظالمي الأمة لا جميع أفرادها.

٢. وبالجملة فقوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ﴾ إنذار للناس بعذاب الاستئصال الذي يقطع دابر الظالمين منهم، وقد تقدم في تفسير سورة يونس وغيره أن ذلك مكتوب على الأمم قضاء بينهم وبين رسولهم حتى هذه الأمة المحمدية وقد تكرر هذا الوعيد منه تعالى في عدة مواضع من كلامه، وهذا هو اليوم الذي يطهر الله الأرض فيه من قذارة الشرك والظلم ولا يعبد عليها يومئذ إلا الله سبحانه فإن الدعوة عامة والأمة هم أهل الأرض فإذا محا الله عنهم الشرك لم يبق منهم إلا المؤمنون ويكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

٣. ومما تقدم يظهر الجواب عما أورد على كون المراد بالعذاب في الآية عذاب الاستئصال أن القصر في الآية السابقة ينافيه فإن قوله: ﴿إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ﴾ يقصر أخذهم وعقابهم في يوم القيامة، وذلك لما عرفت أن العذاب المنذر به في الآيتين السابقتين هو العذاب الذي لا يصرفه عنهم صارف ولا يتخلف عنه أحد من الظالمين وهو مقصور في عذاب يوم القيامة، ولا ينافي انحصاره في يوم القيامة وجود نوع آخر من العذاب في الدنيا، على أن القصر لو تم على ما يريده المعترض لدفع ما يدل عليه الآيات الكثيرة الدالة على نزول العذاب بهذه الأمة كما أشرنا إليه، على أن حمل العذاب في الآية على عذاب يوم القيامة يوجب صرف الآيات عن ظهورها ورفع اليد عما يعطيه السياق فيها ولا مساغ له.

٤. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ المراد به الظالمون من الناس وهم الذين يأخذهم العذاب المستأصل ولا يتخطاهم، ومرادهم بقولهم: ﴿أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الاستمهال بمدة قصيرة تضاف إلى عمرهم في الدنيا حتى يتداركوا فيه ما فوتوه بظلمهم والدليل عليه قولهم: ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾

٥. والتعبير بالرسل بلفظ الجمع في قولهم: ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ مع أن الآية تصف حال ظالمي هذه الأمة ظاهرا وكان مقتضى ذلك أن يقال: ونتبع الرسول إنما هو للدلالة على أن الملاك في نزول هذا العذاب القضاء بين الرسالة وبين منكريها من غير اختصاص ذلك برسول دون رسول كما يفيده قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]

٦. ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ﴾:

أ. الإقسام تعليق الحكم في الكلام بأمر شريف من جهة شرافته ليدل به على صدقه إذ لو كذب

المتكلم وقد أقسم في كلامه لأذهب بذلك شرف المقسم به كقولنا: والله إن كذا لكذا ولعمري إن الأمر على كذا، ويعد القسم أقوى أسباب التأكيد، ولا يبعد أن يكون الإقسام في الآية كناية عن إيراد الكلام في صورة جازمة غير قابلة للترديد.

ب. والكلام على تقدير القول والمعنى يقال لهم توبيخا وتبكيتا: ألم تكونوا أقسمتم من قبل نزول العذاب ما لكم من زوال وأنكم بما عندكم من القوة والسطوة ووسائل الدفاع أمة خالدة مسيطرة على الحوادث فما لكم تستمهلون إلى أجل قريب.

٧. ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إلى آخر الآية معطوف على محل قوله: ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ في الآية السابقة، والمعنى: أولم تكونوا سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الأمم السابقة، وظهر لكم أن هذه الدعوة حقة ويتعقبها لو ردت عذاب مستأصل، من جهتين: جهة المشاهدة حيث تبين لكم كيف فعلنا بأولئك الظالمين الذين سكنتم في مساكنهم؟ وجهة البيان حيث ضربنا لكم الأمثال وأنذرناكم عذابا مستأصلا يتعقبه إنكار الحق ورد الدعوة النبوية ويقطع دابر الظالمين.

٢٧. المكر والجبال والوعد والانتقام:

المقطع [٢٧] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٦-٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٨٤»:

١. ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾ حال من الضمير في ﴿فَعَلْنا﴾ في الآية السابقة أو من الضمير في ﴿بِهِمْ﴾ فيها أو من الضميرين جميعا على ما قيل، وضمائر الجمع راجعة إلى ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، والمراد بكون مكرهم عند الله إحاطته تعالى به بعلمه وقدرته، ومن المعلوم أن المكر إنما يكون مكرا إذا لم يحط به الممكور به وجهله، وأما إذا كان الممكور به عالما بما هيأه الماكر من المكر وقادرا على دفعه لغا المكر أو عاد مكرا على نفس الماكر كما قال تعالى: ﴿وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]

٢. ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾ إن وصلية، على ما قيل، واللام في ﴿لِتَزُولَ﴾ متعلق بمقدر يدل عليه لفظ المكر كقولنا يقتضي أو يوجب وما أشبه ذلك، والتقدير: الله محيط بمكرهم عالم به

قادر على دفعه إن كان مكرهم دون هذه الشدة وإن كان على هذه الشدة، والمعنى تبين لكم كيف فعلنا بهم والحال أنهم مكروا ما في وسعهم من المكر والله محيط بمكرهم وإن كان مكرهم عظيما موجبا لزوال الجبال:

أ. وربما قيل: إن ﴿إِنْ﴾ نافية واللام هي الداخلة على المنفي والمراد بالجبال الآيات والمعجزات كناية والمعنى وما كان مكرهم لتبطل به آيات الله ومعجزاته التي هي كالجبال الراسيات التي لا تزول عن مكانها، وأيد هذا المعنى بقراءة ابن مسعود (وما كان مكرهم) وهو معنى بعيد.

ب. وقرئ أيضا: ﴿لَتَزُولَ﴾ بفتح اللام الأولى وضم اللام الثانية، وعلى هذا تكون ﴿إِنْ﴾ مخففة من المشددة والمعنى والتحقيق أن مكرهم كان من العظمة بحيث تزول منه الجبال.

٣. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾:

أ. تفريع على ما تقدم أن ترك مؤاخذة الظالمين بعملهم إنما هو لتأخيرهم إلى يوم القيامة أي إذا كان الأمر كذلك فلا تحسبن الله مخلفا لما وعد رسله من نصرهم ومؤاخذة المتخلفين عن دعوتهم، وكيف يخلف وعده وهو عزيز ذو انتقام شديد ولازم عزته المطلقة أن لا يخلف وعده فإن إخلاف الوعد إما لكون الواعد غير قادر على إنجاز ما وعده أو لتغير من الرأي بعروض حال ثانية تقهره على خلاف ما بعثته إليه الحال الأولى التي أوجبت عليه الوعد والله سبحانه عزيز على الإطلاق لا يتصف بعجز ولا تقهره حال ولا شيء آخر وهو الواحد القهار.

ب. ولازم اتصافه بالانتقام أن ينتقم للحق ممن استكبر عنه واستعلى عليه وينتصف للمظلوم من الظالم.

ج. وذو انتقام من أسمائه تعالى الحسنى التي سمى الله تعالى بها نفسه في مواضع من كلامه وقارنه في جميعها باسمه العزيز، قال تعالى: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]، [المائدة: ٩٥] وقال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧] وقال في الآية المبحوث عنها: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ومن ذلك يظهر أن (ذا انتقام) من فروع اسم (العزيز)

٤. وضع هنا مبحثا حول [معنى الانتقام ونسبته إلى الله تعالى]، خلاصته:

أ. الانتقام هو عقوبة خاصة، وهي أن تذيق غيرك من الشر ما يعادل ما أذاقك منه أو تزيد عليه، وهو أصل حيوي معمول به عند الإنسان، وربما يشاهد من بعض الحيوان أيضاً.

ب. الانتقام ينقسم إلى نوعين: انتقام فردي يبتني على الإحساس وغايته التشفي، وانتقام اجتماعي يبتني على العقل وغايته حفظ النظام، وهو من حقوق المجتمع والقانون.

ج. ما ينسب إلى الله في الكتاب والسنة من الانتقام هو الانتقام الاجتماعي الحق، وهو من حقوق المجتمع الإسلامي أو حقوق الشريعة الإلهية، وأما الانتقام الفردي المبني على الإحساس لغاية التشفي فمنزه عنه تعالى.

د. الرحمة المنسوبة إلى الله هي الرحمة العقلية (تتميم نقص المستعد)، لا الرحمة النفسانية (التأثر والانفعال)، والخلود في العذاب يثبت فيما إذا بطل استعداد الرحمة وإمكان الإفاضة.

هـ. على مسلك المجازاة والثواب والعقاب، يتحقق الانتقام بإذاقة العذاب، وعلى مسلك نتائج الأعمال، ترجع حقيقته إلى لحوق الصور السيئة المؤلمة بالنفس عن الملكات الرديئة التي اكتسبتها في الدنيا.

٢٨. تبديل الأرض والسماوات والبروز:

المقطع [٢٨] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٨٨»:

١. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾:

أ. الظرف متعلق بقوله: ﴿ذُو انْتِقامٍ﴾ وتخصيص انتقامه تعالى بيوم القيامة مع عمومه لجميع الأوقات والظروف إنما هو لكون اليوم أعلى مظاهر الانتقام الإلهي كما أن تخصيص بروزهم لله بذلك اليوم كذلك، وعلى هذا النسق جل الأوصاف المذكورة في كلامه تعالى ليوم القيامة كقوله: ﴿الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وقوله: ﴿ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣] إلى غير ذلك وقد تقدمت الإشارة إليه كرارا.

ب. والظاهر أن اللام في الأرض للعهد في الموضعين معا وكذا في السماوات والسماوات معطوفة على الأرض الأولى والمعنى تبدل هذه الأرض غير هذه الأرض وتبدل هذه السماوات غير هذه السماوات.

٢. وللمفسرين في معنى تبدل الأرض والسماوات أقوال مختلفة:

أ. فقيل: تبدل الأرض فضة والسماوات ذهبا وربما قيل إن الأرض تبدل من أرض نقية كالفضة والسماوات كذلك.

ب. وقيل: تبدل الأرض نارا والسماوات جنانا.

ج. وقيل: تبدل الأرض خبزة نقية يأكل الناس منها طول يوم القيامة.

د. وقيل: تبدل الأرض لكل فريق مما يقتضيه حاله فتبدل لبعض المؤمنين خبزة يأكل منها ما دام في العرصات ولبعض آخر فضة وتبدل للكافر نارا.

هـ. وقيل: التبديل هو أنه يزاد في الأرض وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد مد الأديم وتصير مستوية لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وتتغير السماوات بذهاب الشمس والقمر والنجوم وبالجملة يتغير كل من الأرض والسماوات عما هو عليه في الدنيا من الصفات والأشكال.

٣. ومنشأ اختلافهم في تفسير التبديل اختلاف الروايات الواردة في تفسير الآية مع أن الروايات لو صحت واتصلت كان اختلافها أقوى شاهد على أن ظاهرها غير مراد وأن بياناتها واقعة موقع التمثيل للتقريب.

٤. والتدبر الكافي في الآيات التي تحوم حول تبديل الأرض والسماء يفيد:

أ. أن أمر التبديل أعظم مما تتصوره من بسط الجبل على السهل أو تبديل التراب فضة أو خبزا نقيا مثلا كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ [النبأ: ٢٠] وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] إن كانت الآية ناظرة إلى يوم القيامة إلى غير ذلك من الآيات.

ب. فالآيات تنبئ عن نظام غير هذا النظام الذي نعهده وشئون دون ما نتصوره فإشراق الأرض يومئذ بنور ربها غير إشراق بسيطها بنور الشمس أو الكواكب أو غيرها، وسير الجبال ينتهي عادة إلى زوالها عن مكانها وتلاشيها مثلا لا إلى كونها سرابا، وهكذا نرجو أن يوفقنا الله سبحانه لبسط الكلام في هذا المعنى فيما سيأتي إن شاء الله تعالى.

٥. ﴿وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾:

أ. معنى بروزهم وظهورهم لله يومئذ، مع كون الأشياء بارزة غير خفية عليه دائما، سقوط جميع العلل والأسباب التي كانت تحجبهم عنه تعالى ما داموا في الدنيا فلا يبقى يومئذ، على ما يشاهدون، شيء من الأسباب يملكهم ويتولى أمرهم ويستقل بالتأثير فيهم إلا الله سبحانه كما يدل عليه آيات كثيرة فهم لا

يلتفتون إلى جانب ولا يتوجهون إلى جهة في ظاهرهم وباطنهم وحاضرهم والماضي الغائب من أحوالهم وأعمالهم إلا وجدوه سبحانه شاهدا مهيمنا عليه محيطا به.

ب. والدليل على هذا الذي ذكرناه توصيفه تعالى بالواحد القهار المشعر بنوع من الغلبة فبروزهم لله يومئذ إنما هو ناشئ عن كونه تعالى هو الواحد الذي يقوم به وجود كل شيء ويقهر كل من دونه من مؤثر فلا يحول بينهم وبينه حائل فهم بارزون له بروزا مطلقا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن ثوبان: أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد فرفعه ثوبان برجله وقال: قل: يا رسول الله، فقال: لا أدعوه إلا بأسماء أهله قال: أرأيت قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماوَاتُ﴾ أين الناس يومئذ قال: في الظلمة دون المحشر، قال: فما أول ما يأكل أهل الجنة إذا دخلوها؟ قال كبد الحوت قال: فما شرابهم على إثر ذلك، قال: السلسبيل، قال صدقت يا محمد.

• أقول: وروي الحديث في الدر المنثور، عن مسلم وابن جرير والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ثوبان: مثله إلى قوله: في الظلمة وروي أيضا عن عدة عن عائشة: أنها سألت النبي ﷺ عن ذلك فقال: على الصراط.

ب. وفي تفسير العياشي، عن ثوير بن أبي فاختة عن الحسين بن علي عليه السلام قال: ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ يعني بأرض لم يكتسب عليها الذنوب بارزة، ليست عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرة.

• أقول: ورواه القمي أيضا في تفسيره، وفيه دلالة على حدوث الجبال وكذا النبات بعد تمام خلقة الأرض.

ج. أخرج البزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، قال: أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام، ولم تعمل فيها خطيئة.

• أقول: ورواه أيضا عن ابن مردويه عن علي عنه ﷺ: مثله.

د. أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب

في الآية قال: تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب.

• أقول: وحمل بعضهم الكلام على التشبيه كما وقع في حديث ابن مسعود السابق.

هـ. وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سأله أبرش الكلبي عن قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة نقية يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب، فقال الأبرش: فقلت: إن الناس يومئذ لفي شغل من الأكل، فقال أبو جعفر عليه السلام، فهم في النار لا يشتغلون عن أكل الضريع وشرب الحميم، وهم في عذاب فكيف يشتغلون عنه في الحساب؟

• أقول: وقوله: (تبدل خبزة نقية) يحتمل التشبيه كما ربما يستفاد من الخبر الآتي.

و. وفي إرشاد المفيد، واحتجاج الطبرسي، عن عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال: حج هشام بن عبد الملك فدخل المسجد الحرام، متكئا على ولد سالم مولاه، ومحمد بن علي بن الحسين عليه السلام جالس في المسجد، فقال له سالم مولاه، يا أمير المؤمنين هذا محمد بن علي قال هشام: المفتونون به أهل العراق؟ قال: نعم، فقال: اذهب إليه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين: ما الذي يأكل الناس ويشربون، إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة قال أبو جعفر عليه السلام: يحشر الناس على مثل قرص نقي فيها أنهار متفجرة، يأكلون ويشربون حتى يفرغ من الحساب ـ، قال: فرأى هشام أنه قد ظفر به فقال: الله أكبر اذهب إليه فقل: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ، فقال أبو جعفر عليه السلام: هم في النار أشغل ولم يشتغلوا عن ذلك، قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فسكت هشام لا يرجع كلاما أخرج ابن مردويه عن أفلح مولى أبي أيوب: أن رجلا من يهود سأل النبي ﷺ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ ما الذي تبدل به؟ فقال: خبزة، فقال اليهودي: درمكة بأبي أنت، قال: فضحك ثم قال: قاتل الله اليهود هل تدرون ما الدرمكة؟ لباب الخبز.

ز. أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أيوب الأنصاري قال: أتى النبي ﷺ حبر من اليهود وقال: أرأيت إذ يقول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ فأين الخلق عند ذلك؟ قال: أضياف الله لن يعجزهم ما لديه.

• أقول: واختلاف الروايات في تفسير التبديل لا يخلو عن دلالة على أنها أمثال مضروبة للتقريب والمسلم من معنى التبدل أن حقيقة الأرض والسماء وما فيهما يومئذ هي هي غير أن النظام الجاري فيهما

يومئذ هو غير النظام الجاري فيهما في الدنيا.

ح. وفي المعاني، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لقد خلق الله عز وجل في الأرض، منذ خلقها سبعة عالمين ليس فيهم من ولد آدم، خلقهم من أديم الأرض، فأسكنهم فيها واحدا بعد واحد مع عالمه ـ ثم خلق الله عز وجل آدم أبا البشر، وخلق ذريته منه، لا والله ما خلت الجنة من أرواح المؤمنين منذ خلقها، ولا خلت النار من أرواح الكفار والعصاة، منذ خلقها عز وجل لعلكم ترون إذا كان يوم القيامة، وصير أبدان أهل الجنة مع أرواحهم في الجنة، وصير أبدان أهل النار مع أرواحهم في النار، إن الله تعالى لا يعبد في بلاده، ولا يخلق خلقا يعبدونه ويوحدونه؟ بلى والله ليخلقن الله خلقا من غير فحولة، ولا إناث يعبدونه ويوحدونه ويعظمونه، ويخلق لهم أرضا تحملهم وسماء تظلهم، أليس الله عز وجل يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماوات﴾؟ وقد قال عز وجل: ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

• أقول: ورواه العياشي، في تفسيره عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام: مثله، وهو غير المعاني التي أوردناها سابقا.

ط. وفي تفسير القمي، قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال تبدل خبزة بيضاء في الموقف يأكل منها المؤمنون.

٢٩. المجرمون والأصفاد والنار والحساب:

المقطع [٢٩] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٩ـ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٨٩»:

١. ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ المقرنين من التقرين وهو جمع الشيء إلى نظيره والأصفاد جمع الصفد وهو الغل الذي يجمع اليد إلى العنق أو هو مطلق السلسلة يقرن بين المقيدين، والسرابيل جمع السربال وهو القميص والقطران شيء أسود منتن يطلى به الإبل فإنهم يطلون به فيصير كالقميص عليهم والغشاوة بالفتح الستر والتغطية يقال: غشي يغشى غشاوة أي ستره وغطاه، ومعنى الآيتين واضح.

٢. ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾:

أ. معنى الآية واضح، وهي بظاهرها تدل على أن الذي تجزى به كل نفس هو عين ما كسبته من حسنة أو سيئة وإن تبدلت صورته، فهي من الآيات الدالة على أن الذي يلحق بهم يوم القيامة هو نتيجة أعمالهم.

ب. فالآية تفسر أولا معنى الجزاء في يوم الجزاء، وثانيا معنى انتقامه تعالى يومئذ وأنه ليس من قبيل عقوبة المجرم العاصي تشفيا منه بل إلحاق ما يستدعيه عمل المجرم به وإن شئت فقل إيصال ما اكتسبه المجرم بعينه إليه.

ج. وفي تعليل هذا الجزاء وهو في يوم القيامة بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ إيماء إلى أن الجزاء واقع من غير فصل ومهل إلا أن ظرف ظهوره هو ذلك اليوم لا غير، أو أن الحكم بالجزاء وكتابته واقع عند العمل وتحققه يوم القيامة ومآل الوجهين واحد في الحقيقة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. وفي تفسير القمي، قوله: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ قال: قال: مقرنين بعضهم إلى بعض ﴿سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ﴾ قال: قال: السرابيل القميص.

ب. قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ﴾ هو الصفر الحار المذاب) حره، يقول الله عز وجل: ﴿وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ سربلوا ذلك الصفر وتغشى وجوههم النار.

• أقول: يعني أن المراد بالجملتين: ﴿سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ جميعا بيان أنهم مستورون مغشيون أما أبدانهم فبالقطران وأما وجوههم فبالنار.

٣٠. البلاغ والإنذار والتوحيد:

المقطع [٣٠] من سورة إبراهيم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٩٠»:

١. ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ البلاغ بمعنى التبليغ على ما ذكره الراغب أو بمعنى الكفاية على ما ذكره غيره، والآية خاتمة السورة فالأنسب أن تكون

الإشارة بهذا إلى ما أورد في السورة من البيان لا إلى مجموع القرآن كما ذكره بعضهم ولا إلى ما ذكر من قوله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إلى آخر السورة كما ذكره آخرون.

٢. ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾، اللام فيه للغاية وهو معطوف على محذوف إنما حذف لفخامة أمره وعظم شأنه لا يحيط به أفهام الناس لاشتماله من الأسرار الإلهية على ما لا يطيقونه، وإنما تسع عقولهم ما ذكر من غاياته وهو الإنذار والعلم بوحدانيته تعالى والتذكر، فهم ينذرون بما ذكر فيها من مؤاخذته تعالى الظالمين عاجلا وآجلا، وتتم عليهم الحجة بما ذكر فيها من آيات التوحيد، ويتذكر المؤمنون منهم خاصة بما فيها من المعارف الإلهية.

٣. وبهذا يتطابق مختتم السورة ومفتتحها أعني قوله في أول السورة: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ فقد تقدم أن مدلول الآية أمر النبي ﷺ بالدعوة والتبليغ إلى صراط الله بما أنه تعالى ربهم العزيز الحميد ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه فإنهم إن استجابوا الدعوة وآمنوا خرجوا بذلك من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بالفعل وإن لم يستجيبوا أنذروا ووقفوا على التوحيد الحق وخرجوا من الجهل إلى العلم وهو نوع خروج من الظلمة إلى النور وإن كان وبالا عليهم وخسارا ففي الدعوة، على أي حال، إنذار للناس وإعلامهم أنما هو إله واحد وتذكر لأولي الألباب منهم خاصة وهم المؤمنون.

سورة الحجر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تشتمل السورة على الكلام حول استهزاء الكفار بالنبي ﷺ ورميه بالجنون، ورمي القرآن الكريم بأنه من إهذار المجانين، ففيها تعزية للنبي ﷺ وأمره بالصبر والثبات والصفح عنهم، وتطييب لنفسه الشريفة، وإنذار وتبشير.

ب. وهي مكية على ما تشهد به آياتها، ونقل في المجمع عن الحسن استثناء قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي﴾ الآية، وقوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ وسيأتي ما فيه.

ج. وتشتمل السورة على قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ، والآية تقبل الانطباق على ما ضبطه التاريخ أن النبي ﷺ اكتتم في أول البعثة ثلاث سنين أو أربعاً أو خمساً لا يعلن دعوته لاشتداد الأمر عليه، فكان لا يدعو إلا آحاداً ممن يرجو منهم الإيمان يدعوهم خفية ويسر إليهم الدعوة حتى أذن له ربه في ذلك وأمره أن يعلن دعوته.

د. وتؤيده الروايات المأثورة من طرق الشيعة وأهل السنة أنه ﷺ كان يكتتم في أول بعثته سنين لا يظهر فيها دعوته لعامة الناس حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، فخرج إلى الناس وأظهر الدعوة، وعليه فالسورة مكية نازلة في أول الدعوة العلنية.

هـ. ومن غرر الآيات القرآنية المشتملة على حقائق جمة في السورة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن هذه آيات الكتاب والقرآن المبين، وتأسف على كفر المشركين، وتذكر أن الله هو المنزل للذكر وهو له حافظ.

٢. الآيات [١٠ ـ ١٥] لما ذكر استهزاءهم بكتابه ونبيه وما اقترحوا عليه من الإتيان بالملائكة آية للرسالة، عقبه بثلاث طوائف من الآيات وهي المصدرة بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلخ، وقوله:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ﴾:

أ. فبين في أوليها أن هذا الاستهزاء دأب وسنة جارية للمجرمين، وليسوا بمؤمنين ولو جاءتهم آية آية.

ب. وفي الثانية أن هناك آيات سماوية وأرضية كافية لمن وفق للإيمان.

ج. وفي الثالثة أن الاختلاف بالإيمان والكفر في نوع الإنسان وضلال أهل الضلال مما تعين لهم يوم أبدع الله خلق الإنسان، فخلق آدم وجرى هنالك ما جرى من أمر الملائكة بالسجود وإباء إبليس عن ذلك.

٣. الآيات [١٦ ـ ٢٥]:

أ. لما ذكر سبحانه إعراضهم عن آية القرآن المعجزة واقتراحهم آية أخرى وهي الإتيان بالملائكة، وأجاب عنه أنه ممتنع وملازم لفنائهم، عدل إلى عد عدة من آيات السماء والأرض الدالة على التوحيد ليعتبروا بها إن كانوا يعقلون، وتتم الحجة بها على المجرمين.

ب. وقد ضمن سبحانه فيها طرفاً عالياً من المعارف الحقيقية والأسرار الإلهية.

٤. الآيات [٢٦ ـ ٤٨]:

أ. هذه هي الطائفة الثالثة من الآيات الموردة إثر ما ذكر في مفتتح السورة من استهزاء الكفار بالكتاب وبالنبي ﷺ واقتراحهم عليه آية أخرى غير القرآن.

ب. وقد ذكر الله سبحانه في هذه الطائفة بدء خلقة الإنسان والجان، وأمره الملائكة وإبليس أن يسجدوا له، وسجودهم وإباء إبليس وهو من الجن، ورجمه وإغواءه بني آدم، وما قضى الله سبحانه عند ذلك من سعادة المتقين وشقاء الغاوين.

٥. الآيات [٤٩ ـ ٨٤]:

أ. بعد ما تكلم سبحانه حول استهزائهم بالنبي ﷺ وما أنزل إليه من الكتاب واقتراحهم عليه أن يأتيهم بالملائكة، وهم ليسوا بمؤمنين وإن سمح لهم بأوضح الآيات، أتى سبحانه في هذه الآيات ببيان جامع في التبشير والإنذار، وهو ما في قوله: ﴿نَبِّئْ عِبادِي﴾ إلى آخر الآيتين.

ب. ثم أوضحه وأيده بقصة جامعة للجهتين متضمنة للأمرين معاً، وهي قصة ضيف إبراهيم،

وفيها بشرى إبراهيم بما لا مطمع فيه عادة، وعذاب قوم لوط بأشد أنواع العذاب.

ج. ثم أيده تعالى بإشارة إجمالية إلى تعذيب أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب، وأصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح عليه السلام.

٦. الآيات [٨٥ ـ ٩٩]:

أ. في الآيات تخلص إلى غرض البيان السابق، وهو أمر النبي ﷺ أن يصدع بما يؤمر، ويأخذ بالصفح والإعراض عن المشركين، ولا يحزن عليهم ولا يضيق صدره بما يقولون.

ب. فإن من القضاء الحق أن يجازي الناس بأعمالهم في الدنيا والآخرة، وخاصة يوم القيامة الذي لا ريب فيه، وهو اليوم الذي لا يغادر أحداً ولا يدع مثقال ذرة من الخير والشر إلا ألحقه بعامله، فلا ينبغي أن يؤسف لكفر كافر، فإن الله عليم به سيجازيه، ولا يحزن عليه، فإن الاشتغال بالله سبحانه أهم وأوجب.

ج. ولقد كرر سبحانه أمره بالصفح والإعراض عن أولئك المستهزئين به ـ وهم الذين مر ذكرهم في مفتتح السورة ـ والاشتغال بتسبيحه وتحميده وعبادته، وأخبره أنه كفاه شرهم، فليشتغل بما أمره الله به، وبذلك تختتم السورة.

١. الكتاب والكافرون وتمني الإسلام:

المقطع [١] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٩٦»:

١. ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾:

أ. الإشارة إلى الآيات الكريمة القرآنية فالمراد بالكتاب القرآن، وتنكير القرآن للدلالة على عظم شأنه وفخامة أمره كما أن التعبير بتلك وهي للإشارة إلى البعيد لذلك.

ب. والمعنى هذه الآيات العالية منزلة الرفيعة درجة التي نزلها إليك آيات الكتاب الإلهي وآيات قرآن عظيم الشأن فاصل بين الحق، والباطل على خلاف ما يرميها به الكفار بما يرمونك بالجنة مستهزءين بكلام الله.

ج. ومن الممكن أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ فإن القرآن منه وفيه قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ

فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] فيكون قوله: ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ كالملخص من قوله: ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]

٢. ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾:

أ. توطئة لما سيتعرض له من قولهم للنبي: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ يشير به إلى أنهم سيندمون على ما هم عليه من الكفر ويتمنون الإسلام لله والإيمان بكتابه يوم لا سبيل لهم إلى تحصيل ذلك.

ب. فقوله: ﴿رُبَما يَوَدُّ﴾ المراد به ودادة التمني لا مطلق الودادة والحب، والدليل على ذلك قوله في بيان هذه المودة: ﴿لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فإن لفظي ﴿لَوْ﴾ و﴿كانُوا﴾ تدلان على أن ودادتهم ودادة تمن وأنهم يتمنون الإسلام بالنسبة إلى ماضي حالهم مما فاتهم ولن يعود إليهم فليس إلا الإسلام ما داموا في الدنيا.

ج. فالآية تدل على أن الذين كفروا سيندمون على كفرهم ويتمنون أن لو كانوا مسلمين بعد انطواء بساط الحياة الدنيا.

٣. ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾:

أ. الإلهاء الصرف والإشغال يقال الهاه كذا عن كذا أي شغله عنه وأنساه ذكره.

ب. ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أمر برفع اليد عنهم وتركهم وما هم فيه من الباطل، وهو كناية عن النهي عن الجدال معهم والاحتجاج عليهم لإثبات هذه الحقيقة وهي أنهم سوف يودون الإسلام ويتمنونه ولا سبيل لهم إلى تحصيله وتدارك ما فات منه، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ في موضع التعليل للأمر أي ذرهم ولا تجادلهم ولا تحاجهم فلا حاجة إلى ذلك لأنهم سوف يعلمون ذلك فإن الحق ظاهر لا محالة.

ج. وفي الآية تعريض لهم أنهم لا غاية لهم في حياتهم إلا الأكل والتمتع بلذات المادة والتلهي بالآمال والأماني فلا منطق لهم إلا منطق الأنعام والحيوان العجم فمن الحري أن يتركوا وما هم فيه، ولا يلقى إليهم الحجج الحقة المبنية على أساس العقل السليم والمنطق الإنساني.

٢. لكل أمة أجل:

المقطع [٢] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٩٨»:

١. ﴿وما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ﴾ إلى آخر الآيتين تثبيت وتوكيد لقوله في الآية السابقة: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ على ما يعطيه السياق والمعنى دعهم فإنهم لا يسلمون في هذه الحياة الدنيا وإنما يودون الإسلام بعد حلول أجلهم ونزول الهلاك بهم، والناس ليسوا بذوي خيرة في ذلك بل لكل أمة كتاب معلوم عند الله مكتوب فيه أجلهم لا يقدرون أن يستقدموه ولا يستأخروه ساعة.

٢. وفي الآيتين دلالة على أن الأمة من الإنسان لها كتاب كما أن للفرد منه كتابا، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾ [الإسراء: ١٣]

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن رفاعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد من عند الله: لا يدخل الجنة إلا مسلم، فيومئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ثم قال: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) أي شغلهم (فسوف يعلمون)

• أقول: وروى العياشي، عن عبد الله بن عطاء المكي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: في تفسير الآية مثله.

ب. أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: إن ناسا من أمتي يعذبون بذنوبهم، فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله تعالى من النار، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي بطرق أخرى عن أبي موسى الأشعري وأبي سعيد الخدري وأنس بن مالك عنه ﷺ.

ج. أخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين في السنة عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم، كلها الذين ماتوا على كبائرهم، غير نادمين ولا تائبين من دخل منهم جهنم لا تزرق أعينهم، ولا تسود وجوههم، ولا يقرنون بالشياطين ولا يغلون بالسلاسل، ولا يجرعون

الحميم، ولا يلبسون القطران، حرم الله أجسادهم على الخلود من أجل التوحيد، وصورهم على النار من أجل السجود ـ، فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه، ومنهم من تأخذه النار إلى عقبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى فخذيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها، قالت اليهود والنصارى ومن في النار، من أهل الأديان والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم في النار سواء، فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين بين الجنة والصراط، فينبتون فيها نبات الطراثيث في حميل السيل، ثم يدخلون الجنة مكتوب في جباههم: هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن، فيمكثون في الجنة ما شاء الله أن يمكثوا ـ، ثم يسألون الله تعالى أن يمحو ذلك الاسم عنهم، فيبعث الله ملكا فيمحوه، ثم يبعث الله ملائكة معهم مسامير من نار، فيطبقونها على من بقي فيها يسمرونها بتلك المسامير، فينساهم الله على عرشه، ويشتغل عنهم أهل الجنة بنعيمهم ولذاتهم، وذلك قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

• أقول: الطرثوث نبت وحميل السيل غثاؤه، وقد روي من طرق الشيعة ما يقرب من الحديث مضمونا.

د. أخرج أحمد وابن مردويه عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ غرس عودا بين يديه وآخر إلى جنبه وآخر بعده، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن هذا الإنسان وهذا أجله وهذا أمله، فيتعاطى الأمل فيختلجه الأجل دون ذلك.

• أقول: وروي ما يقرب من معناه بطرق عن أنس عنه ﷺ.

هـ. وفي المجمع: (عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة.

٣. الكفار يستعجلون إتيان الملائكة:

المقطع [٣] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾

[الحجر: ٦ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٩٨»:

١. ﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ كلام خارج مخرج الاستهزاء ولذلك خاطبوه ﷺ لا باسمه بل بوصف نزول الذكر عليه كما كان يدعيه، وجاءوا بالفعل المجهول للدلالة على أن منزله غير معلوم عندهم ولا اعتماد ولا وثوق لهم بما يدعيه هو أن الله تعالى هو الذي أنزله، وتوصيفه بالذي نزل عليه الذكر وكذا تسمية النازل عليه ذكرا كل ذلك من الاستهزاء كما أن قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ رمي وتكذيب.

٢. ﴿لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لو ما مثل هلا للتحضيض أي هلا تأتينا بالملائكة إن كنت صادقا في دعوى النبوة ليشهدوا على صدق دعواك وينذر معك، فهو قريب المعنى من قولهم على ما حكاه الله: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ٧]

٣. ووجه اقتراحهم على الأنبياء أن يأتوا بالملائكة ويظهروهم لهم اعتقادهم أن البشرية كينونة مادية مغمورة في قذارة الشهوة والغضب لا نسبة بينها وبين العالم السماوي الذي هو محض النورانية والطهارة فمن ادعى نوعا من الاتصال بذاك العالم الروحاني فعليه أن يأتي ببعض أهله من الملائكة الكرام ليصدقوه في دعواه ويعينوه في دعوته، على أن الملائكة عند الوثنيين آلهة دون الله سبحانه فدعوتهم إلى التوحيد معناها أن هؤلاء الآلهة في معزل من الشفاعة والعبادة بأمر من الله سبحانه وهو إله الآلهة ولا دليل على ذلك كاعترافهم به فلينزلوا وليعترفوا ويصدقوا النبوة.

٤. ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾:

أ. جواب عما اقترحوا على النبي ﷺ أن يأتيهم بالملائكة حتى يصدقوه، ومحصل الجواب أن السنة الإلهية جارية على ستر ملائكته عنهم تحت أستار الغيب فلو أنزلهم وأظهرهم لهم عن اقتراحهم ذلك كان ذلك آية سماوية خارقة للعادة نازلة عن اقتراحهم، ومن شأن الآية المعجزة النازلة عن اقتراح الناس أن يعقبها عذاب الاستئصال والهلاك القطعي إن لم يؤمنوا بها، وهؤلاء الكفار المعاندون ليسوا بمؤمنين فهو الهلاك.

ب. وبالجملة لو أنزل الله الملائكة والحال هذا الحال، هم يقترحون آية فاصلة تظهر الحق وتميط الباطل لأنزلهم بالحق الفاصل المميز وما كانوا إذا منظرين بل يهلكون ويقطع دابرهم، هذا محصل ما ذكره

بعضهم.

ج. وقيل: المراد بالحق في الآية الموت والمعنى ما نزل الملائكة على الناس إلا مصاحبا للحق الذي هو الموت وما كانوا إذا منظرين، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الآية.

د. وقيل: المراد بالحق الرسالة أي ما نزل الملائكة إلا بالوحي والرسالة وكأنه مأخوذ من نحو قوله: ﴿قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ١٧٠] (وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥]

هـ. فهذه وجوه مذكورة في تفسير الآية ودونها وجوه مذكورة في مختلف التفاسير وهي جميعا لا تخلو من شيء وهو أن شيئا منها لا ينطبق على الحصر الموجود في قوله: ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ﴾ فنزول الملائكة لا يختص بعذاب الاستئصال فقط ولا بالموت فقط، ولا بالوحي والرسالة فقط، وتوجيه الآية بها يختص بأحد المعاني الثلاث المذكورة للحق يحتاج إلى تقييدها بقيود كثيرة يدفعها إطلاق الآية كما هو ظاهر لمن راجع الوجوه المقررة آنفا.

٥. ويمكن أن يقرر معنى الآية باستمداد من التدبر في آيات أخر أن ظرف الحياة المادية أعني هذه النشأة الدنيوية ظرف يختلط فيه الحق والباطل من غير أن يتمحض الحق في الظهور بجميع خواصه وآثاره كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ﴾ [الرعد: ١٧]، وقد تقدم تفصيل القول في ذلك فما يظهر فيه شيء من الحق إلا وهو يحتمل شيئا من اللبس والشك كما يصدقه استقراء الموارد التي صادفناها مدى أعمارنا، ومن الشاهد عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] والظرف ظرف الامتحان والاختيار ولا اختيار إلا مع إمكان التباس الحق بالباطل واختلاط الخير والشر بنحو حتى يقف الإنسان على ملتقى الطريقين ومنشعب النجدين فيستدل على الخير والشر بآثارهما وأماراتها ثم يختار ما يستحقه من السعادة والشقاوة.

٦. وأما عالم الملائكة وظرف وجودهم:

أ. فإنما هو عالم الحق غير مشوب بشيء من الباطل كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقوله: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]

ب. فمقتضى الآيات وما في معناها أنهم في أنفسهم مخلوقات شريفة ووجودات طاهرة نورانية منزهة عن النقص والشين لا تحتمل الشر والشقاء وليس عندها إمكان الفساد والمعصية والتقصير فلا يحكم فيها هذا النظام المادي المبني على أساس الإمكان والاختيار وجواز الصلاح والفساد والطاعة والمعصية والسعادة والشقاء جميعا، وسيوافيك البحث المستوفى فيه فيما يناسبه من المورد إن شاء الله.

ج. وسيأتي أيضا أن الإنسان لا طريق له إلى هذا الظرف الحق ما دام متوغلا في هذا العالم المادي متورطا في ورطات الشهوات والأهواء كأهل الكفر والفسوق إلا ببطلان عالمهم وخروجهم إلى العالم الحق وظهوره عليهم وانكشاف الغطاء عنهم كما يشير إليه قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، [ق: ٢٢] وهذا هو العالم الذي يسمى بالنسبة إلى الإنسان آخرة.

د. فتبين أن ظهور عالم الملائكة للناس المتوغلين في عالم المادة متوقف على تبدل الظرف والانتقال من الدنيا إلى الآخرة وهو الموت اللهم إلا في المصطفين من عباد الله وأوليائه المطهرين من أقذار الذنوب الملازمين لساحة قربه لهم أهلية مشاهدة الغيب وهم في عالم الشهادة كالأنبياء عليهمالسلام.

هـ. ولعل ما قدمناه هو المراد بقوله: ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾، فإنهم إنما اقترحوا نزول الملائكة ليشاهدوهم في صورهم الأصلية حتى يصدقوا وهذا الحال لا تتمهد لهم إلا بالموت كما قال تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لو لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]

٧. وقد اجتمع المعنيان في قوله تعالى: ﴿وَقالُوا لو لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] يقول تعالى: لو أنزلنا عليه الملائكة آية خارقة للعادة مصدقة للنبوة كان لازمه القضاء عليهم وهلاكهم ولو قلدنا الملك النبوة والرسالة كان لازمه أن نصوره في صورة رجل من الإنسان، وأن نوقفه موقفا يحتمل اللبس فإن الرسالة إحدى وسائل الامتحان والابتلاء الإلهي ولا امتحان إلا بما يحتمل السعادة والشقاء والفوز والخيبة ويجوز معه النجاة والهلاك ولو توصل إلى الرسالة بما يضطر العقول إلى الإيمان ويلجئ النفوس إلى القبول واليقين لبطل ذلك كله.

٤. الله نزّل الذكر وهو له حافظ:

المقطع [٤] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٠١»:

١. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾:

أ. صدر الآية مسوق سوق الحصر، وظاهر السياق أن الحصر ناظر إلى ما ذكر من ردهم القرآن بأنه من أهذار الجنون وأنه ﷺ مجنون لا عبرة بما صنع ولا حجر ومن اقتراحهم أن يأتيهم بالملائكة ليصدقوه في دعوته وأن القرآن كتاب سماوي حق.

ب. والمعنى، على هذا والله أعلم، أن هذا الذكر لم تأت به أنت من عندك حتى يعجزوك ويبطلوه بعنادهم وشدة بطشهم وتتكلف لحفظه ثم لا تقدر، وليس نازلا من عند الملائكة حتى يفتقر إلى نزولهم وتصديقهم إياه بل نحن أنزلنا هذا الذكر إنزالا تدريجيا وإنا له لحافظون بما له من صفة الذكر بما لنا من العناية الكاملة به، فهو ذكر حي خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل به كونه ذكرا مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير في صورته وسياقه بحيث يتغير به صفة كونه ذكرا لله مبينا لحقائق معارفه.

ج. فالآية تدل على كون كتاب الله محفوظا من التحريف بجميع أقسامه من جهة كونه ذكرا لله سبحانه فهو ذكر حي خالد.

د. ونظير الآية في الدلالة على كون الكتاب العزيز محفوظا بحفظ الله مصونا من التحريف والتصرف بأي وجه كان من جهة كونه ذكرا له سبحانه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]

هـ. وقد ظهر بما تقدم أن اللام في الذكر للعهد الذكري وأن المراد بالوصف لحافظون هو الاستقبال كما هو الظاهر من اسم الفاعل فيندفع به ما ربما يورد على الآية أنها لو دلت على نفي التحريف من القرآن لأنه ذكر لدلت على نفيه من التوراة والإنجيل أيضا لأن كلا منهما ذكر مع أن كلامه تعالى صريح في وقوع التحريف فيهما، وذلك أن الآية بقرينة السياق إنما تدل على حفظ الذكر الذي هو القرآن بعد إنزاله إلى الأبد، ولا دلالة فيها على علية الذكر للحفظ الإلهي ودوران الحكم مداره.

٢. وضع هنا مبحثا حول [القرآن مصون عن التحريف]، خلاصته:

أ. من ضروريات التاريخ أن النبي محمداً ﷺ جاء بكتاب يسميه القرآن، وأن القرآن الموجود اليوم هو نفس القرآن الذي جاء به، ولم يضع من أصله أو يفقد كله ثم يوضع كتاب آخر.

ب. القرآن الذي بأيدينا واجد لجميع الأوصاف التي تحدى بها، كالبلاغة والفصاحة، ورفع الاختلاف، والهداية والنورية، والإخبار بالغيوب، والذكر لله، مما يثبت أنه محفوظ بحفظ الله عن كل زيادة ونقيصة وتغيير.

ج. قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤١ـ٤٢]، دالان على عصمة القرآن من التحريف.

د. الأخبار الكثيرة الآمرة بالرجوع إلى القرآن عند الفتن، وحديث الثقلين المتواتر (إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي) تدل على أن الكتاب الذي بأيدينا هو الكتاب المحفوظ الذي لا تحريف فيه.

هـ. روايات التحريف (السقوط والتغيير) التي رواها الفريقان، مهما كثرت، فهي آحاد غير متواترة، ومخالفة للكتاب، ومشتملة على دس ووضع، وتذكر آيات وسوراً لا يشبه نظمها النظم القرآني، ولا تصلح حجة في مقابلة الأدلة القطعية على العصمة.

و. الجمع الأول للقرآن في عهد أبي بكر، والجمع الثاني في عهد عثمان، كانا جمعاً لما هو ثابت بالتواتر، ولم يكن فيهما تحريف أو تغيير في المتن، وإنما وقع الخلاف في ترتيب السور والآيات، وهو أمر اجتهادي لا يمس صحة القرآن.

ز. روايات الإنساء (نسخ التلاوة) التي استند إليها بعضهم لتبرير روايات التحريف هي أيضاً مخالفة لصريح القرآن، لأن القرآن ذكر محفوظ، والآيات الدالة على النسيان في حق النبي ﷺ محمولة على الترك والتأخير، لا على النسيان الحقيقي.

٥. الرسل وتكذيب الأمم وسنة الله في الماضين:

المقطع [٥] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ

قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٠ـ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٣٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الشيع جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على سنة أو مذهب يتبعونه قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]

ب. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا﴾ أي رسلا وقد حذف للاستغناء عنه فإن العناية بأصل تحقق الإرسال من قبل من غير نظر إلى من أرسل بل بيان أن البشر الأولين كالآخرين جرت عادتهم على أن لا يحترموا الرسالة الإلهية ويستهزءوا بمن أتى بها ويمضوا على إجرامهم لتكون في ذلك تعزية للنبي ﷺ فلا يضيق صدره بما قابلوه به من الإنكار والاستهزاء كما سيعود إليه في آخر السورة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ﴾ الخ: [الآية: ٩٧] من السورة.

ج. والمعنى: طب نفسا فنحن نزلنا الذكر عليك ونحن نحفظه ولا يضيقن صدرك بما يقولون فهو دأب المجرمين من الأمم الإنسانية أقسم لقد أرسلنا من قبلك في فرق الأولين وشيعهم وحالهم هذه الحال ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون.

٢. ﴿كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. السلوك، النفاذ والإنفاذ يقال: سلك الطريق أي نفذ فيه وسلك الخيط في الإبرة أي أنفذه فيها وأدخله وذكروا أن سلك وأسلك بمعنى.

ب. والضميران في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ و﴿بِهِ﴾ للذكر المتقدم ذكره وهو القرآن الكريم والمعنى أن حال رسالتك ودعوتك بالذكر المنزل إليك تشبه حال الرسالة من قبلك فكما أرسلنا من قبلك فقابلوها بالرد والاستهزاء كذلك ندخل هذا الذكر وننفذه في قلوب هؤلاء المجرمين، ونبأ به: أنهم لا يؤمنون بالذكر وقد مضت طريقة الأولين وسنتهم في أنهم يستهزءون بالحق ولا يتبعونه فالآيتان قريبتا المعنى من قوله: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾

ج. وربما قيل: إن الضميرين للشرك أو الاستهزاء المفهوم من الآيات السابقة والباء في ﴿بِهِ﴾ للسببية، والمعنى كذلك ننفذ الشرك أو الاستهزاء في قلوب المجرمين لا يؤمنون بسبب الشرك أو الاستهزاء، وهو معنى بعيد، والمتبادر إلى الذهن من لفظة ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أن الباء للتعدية دون السببية.

د. وربما قيل: إن الضمير الأول للاستهزاء المفهوم من سابق الكلام والثاني للذكر المذكور سابقا، والمعنى مثل ما سلكنا الاستهزاء في قلوب شيع الأولين نسلك الاستهزاء وننفذه في قلوب هؤلاء المجرمين لا يؤمنون بالذكر، ولا بأس به وإن كان يستلزم التفرقة بين الضميرين المتواليين لكن إباء قوله: ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أن يرجع ضميره إلى الاستهزاء يكفي قرينة لذلك.

هـ. وكذا لا يرد على الوجهين ما أورد أن رجوع ضمير ﴿نَسْلُكُهُ﴾ إلى الاستهزاء يوجب كون المشركين ملجئين إلى الشرك مجبرين عليه، وجه عدم الورود: أنه تعالى علق السلوك على المجرمين فيكون مفاده أنهم كانوا متلبسين بالأجرام قبل فعل السلوك بهم ثم فعل بهم ذلك فينطبق على الإضلال الإلهي مجازاة ولا مانع منه، وإنما الممنوع هو الإضلال الابتدائي ولا دليل عليه في الآية بل الدليل على خلافه، والآية من قبيل قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقد تقدم تفصيل القول فيه.

و. وقد ظهر مما تقدم أن المراد بسنة الأولين السنة التي سنها الأولون لا السنة التي سنها الله في الأولين فالسنة سنتهم دون سنة الله فيهم، كما ذكره بعض المفسرين، فهو الأنسب لمقام ذمهم وتعزيته ﷺ بذكر ردهم واستهزائهم لرسلهم.

٣. ﴿وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا﴾:

أ. العروج في السماء الصعود إليها والتسكير الغشاوة.

ب. والمراد بفتح باب من السماء عليهم إيجاد طريق يتيسر لهم به الدخول في العالم العلوي الذي هو مأوى الملائكة وليس كما يظن سقفا جرمانيا له باب ذو مصراعين يفتح ويغلق، وقد قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١]

ج. وقد اختار سبحانه من بين الخوارق التي يظن أنها ترفع عنهم الشبهة وتزيل عن نفوسهم الريب فتح باب من السماء وعروجهم فيه لأنه كان يعظم في أعينهم أكثر من غيره، ولذلك لما اقترحوا عليه أمورا من الخوارق العظيمة ذكروا الرقي في السماء في آخر تلك الخوارق المذكورة على سبيل الترقي كما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ إلى أن قال: ﴿أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] فالرقي في السماء والتصرف في أمورها

كتنزيل كتاب مقرو منها أي نفوذ البشر في العالم العلوي وتمكنه فيه ومنه أعجب الخوارق عندهم.

د. على أن السماء مأوى الملائكة الكرام ومحل صدور الأحكام والأوامر الإلهية وفيها ألواح التقادير ومنها مجاري الأمور ومنبع الوحي وإليها صعود كتب الأعمال، فعروج الإنسان فيها يوجب اطلاعه على مجاري الأمور وأسباب الخوارق وحقائق الوحي والنبوة والدعوة والسعادة والشقاوة وبالجملة يوجب إشرافه على كل حقيقة، وخاصة إذا كان عروجا مستمرا لا مرة ودفعة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ حيث عبر بقوله: ﴿فَظَلُّوا﴾ ولم يقل: فعرجوا فيه.

هـ. فالفتح والعروج بهذا النعت يطلعهم على أصول هذه الدعوة الحقة وأعراقها لكنهم لما في قلوبهم من الفساد وفي نفوسهم من قذارة الريبة والشبهة المستحكمة يخطئون أبصارهم فيما يشاهدون بل يتهمون النبي ﷺ أنه سحرهم فهم مسحورون من قبله.

و. فالمعنى: ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ويسرنا لهم الدخول في عالمها فداموا يعرجون فيه عروجا بعد عروج حتى يتكرر لهم مشاهدة ما فيه من أسرار الغيب وملكوت الأشياء لقالوا إنما غشيت أبصارنا فشاهدت أمورا لا حقيقة لها بل نحن قوم مسحورون.

٦. السماء ذات البروج محفوظة من الشياطين بالشهب:

المقطع [٦] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٣٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث:

أ. البروج جمع برج وهو القصر سميت بها منازل الشمس والقمر من السماء بحسب الحس تشبيها لها بالقصور التي ينزلها الملوك.

ب. والضمير في قوله: ﴿وَزَيَّنَّاها﴾ للسماء كما في قوله: ﴿وَحَفِظْناها﴾ وتزيينها للناظرين هو ما نشاهده في جوها من البهجة والجمال الذي يوله الألباب بنجومها الزاهرة وكواكبها اللامعة على اختلاف أقدارها وتنوع لمعاتها وقد كرر سبحانه ذكر هذا التزيين الكاشف عن مزيد عنايته به كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً﴾ [فصلت: ١٢] وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ

شَيْطانٍ مارِدٍ، لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]

ج. واستراق السمع أخذ الخبر المسموع في خفية كمن يصغي خفية إلى حديث قوم يسرونه فيما بينهم، واستراق السمع من الشياطين هو محاولتهم أن يطلعوا على بعض ما يحدث به الملائكة فيما بينهم كما يدل عليه ما تقدم آنفا من آيات سورة الصافات.

د. والشهاب هو الشعلة الخارجة من النار ويطلق على ما يشاهد في الجو من أجرام مضيئة كان الواحد منها كوكب ينقض دفعه من جانب إلى آخر فيسير سيرا سريعا ثم لا يلبث دون أن ينطفئ.

٢. فظاهر معنى الآيات ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ﴾، وهي جهة العلو، بروجا وقصورا هي منازل الشمس والقمر ﴿وَزَيَّنَّاها﴾ أي السماء للناظرين بزينة النجوم والكواكب ﴿وَحَفِظْناها﴾ أي السماء من كل شيطان رجيم أن ينفذ فيها فيطلع على ما تحتويه من الملكوت إلا من استرق السمع من الشياطين بالاقتراب منه ليسمع ما يحدث به الملائكة من أحاديث الغيب المتعلقة بمستقبل الحوادث وغيرها فإنه يتبعه شهاب مبين.

٣. وسنتكلم إن شاء الله في الشهب ومعنى رمي الشياطين فيما سيأتي من تفسير سورة الصافات.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً﴾ قال: قال: منازل الشمس والقمر.

ب. وفيه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ﴾ قال: قال: لم يزل الشياطين تصعد إلى السماء، وتجس حتى ولد النبي ﷺ.

ج. وفي المعاني، عن البرقي عن أبيه عن جده عن البزنطي عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان إبليس يخترق السماوات السبع، فلما ولد عيسى عليه السلام حجب عن ثلاث سماوات، وكان يخترق أربع سماوات، فلما ولد رسول الله ﷺ حجب عن السبع كلها، ورميت الشياطين بالنجوم، الحديث.

د. أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال جرير بن عبد الله: حدثني يا رسول الله عن السماء الدنيا والأرض السفلى، قال رسول الله ﷺ: أما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان، ثم رفعها وجعل فيها

سراجا وقمرا منيرا، وزينها بمصابيح النجوم وجعلها رجوما للشياطين، وحفظها من كل شيطان رجيم.

• أقول: وسيأتي إن شاء الله ما يتبين به معنى هذه الأحاديث.

٧. الأرض والرواسي والمعايش:

المقطع [٧] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ١٩ـ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٣٨»:

١. ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾:

أ. مد الأرض بسطها طولا وعرضا وبذلك صلحت للزرع والسكنى ولو أغشيت حبالا شاهقة مضرسة لفقدت كمال حياة الحيوان عليها.

ب. والرواسي صفة محذوفة الموصوف والتقدير وألقينا فيها جبالا رواسي وهو جمع راسية بمعنى الثابتة إشارة إلى ما وقع في غير هذا الموضع أنها تمنع الأرض من الميدان كما قال: ﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]

ج. والموزون من الوزن وهو تقدير الأجسام من جهة ثقلها ثم عمم لكل تقدير لكل ما يمكن أن يتقدر بوجه كتقدير الطول بالشبر والذراع ونحو ذلك وتقدير الحجم وتقدير الحرارة والنور والقدرة وغيرها، وفي كلامه تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وهو توزين الأعمال ولا يتصف بثقل وخفة من نوع ما للأجسام الأرضية منهما.

د. وربما يكنى به عن كون الشيء بحيث لا يزيد ولا ينقص عما يقتضيه الطبع أو الحكمة كما يقال: كلامه موزون وقامته موزونة وأفعاله موزونة أي مستحسنة متناسبة الأجزاء لا تزيد ولا تنقص مما يقتضيه الطبع أو الحكمة.

هـ. وبالنظر إلى اختلاف اعتباراته المذكورة ذكر بعضهم أن المراد به إخراج كل ما يوزن من المعدنيات كالذهب والفضة وسائر الفلزات، وقال بعضهم: (إنه إنبات النباتات على ما لكل نوع منها من النظام البديع الموزون، وقيل: إنه خلق كل أمر مقدر معلوم.

و. والذي يجب التنبه له التعبير بقوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ دون أن يقال: من كل نبات موزون

فهو يشمل غير النبات مما يظهر وينمو في الأرض كما أنه يشمل النبات لمكان قوله: ﴿وَأَنْبَتْنا﴾ دون أن يقال: أخرجنا أو خلقنا وقد جيء بمن وظاهرها التبعيض فالمراد، والله أعلم، إنبات كل أمر موزون ذي ثقل مادي يمكن أن يزيد وينقص من الأجسام النباتية والأرضية، ولا مانع على هذا من أخذ الموزون بكل من معنييه الحقيقي والكنائي.

ز. والمعنى: والأرض بسطناها وطرحنا فيها جبالا ثابتة لتسكنها من الميد وأنبتنا فيها من كل شيء موزون، ثقيل واقع تحت الجاذبة أو متناسب، مقدارا تقتضيه الحكمة.

٢. ﴿وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ﴾ المعايش جمع معيشة وهي ما به يعيش الحيوان ويديم حياته من المأكول والمشروب وغيرهما ويأتي مصدرا كالعيش والمعاش.

٣. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ﴾:

أ. معطوف على الضمير المجرور في ﴿لَكُمْ﴾ على ما ذهب إليه من النحاة الكوفيون ويونس والأخفش من جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، وأما على قول غيرهم فربما يعطف على معايش والتقدير وجعلنا لكم من لستم له برازقين كالعبيد والحيوان الأهلي، وربما جعل ﴿مَنْ﴾ مبتدأ محذوف الخبر والتقدير: ومن لستم له برازقين جعلنا له فيها معايش وهذا كله تكلف ظاهر.

ب. وكيف كان، المراد بمن العبيد والدواب، على ما قيل، أتي بلفظة من وهي لأولي العقل تغليبا هذا، وليس من البعيد أن يكون المراد به كل ما عدا الإنسان من الحيوان والنبات وغيرهما فإنها تسأل الرزق كما يسأله العقلاء ومن دأبه سبحانه في كلامه أن يطلق الألفاظ المختصة بالعقلاء على غيرهم إذا أضيف إليها شيء من الآثار المختصة بهم كقوله تعالى في الأصنام: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ [الشعراء: ٧٧] إلى غير ذلك من الآيات المتعرضة لحال الأصنام التي كانوا يعبدونها ولا يستقيم للمعبود إلا أن يكون عاقلا، وكذا قوله: ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وغير ذلك.

ج. والمعنى: وجعلنا لكم معشر البشر في الأرض أشياء تعيشون بها مما تدام به الحياة ولغيركم من أرباب الحياة مثل ذلك.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله: ﴿وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ﴾ قال: لكل ضرب من الحيوان قدرنا شيئا مقدرا.

ب. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ فإن الله أنبت في الجبال الذهب والفضة، والجوهر والصفر والنحاس والحديد، والرصاص والكحل والزرنيخ، وأشباه ذلك لا تباع إلا وزنا.

- أقول: ينبغي أن يحمل على بيان بعض المصاديق على ما في متنه وسنده من الوهن.

٨. خزائن كل شيء عند الله وما ينزل إلا بقدر معلوم:

المقطع [٨] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٤٠»:

١. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾:

أ. الخزائن جمع خزانة وهي مكان خزن المال وحفظه وادخاره، والقدر بفتحتين أو فتح فسكون مبلغ الشيء وكميته المتعينة.

ب. ولما كانت الآية واقعة في سياق الكلام في الرزق الذي يعيش به الإنسان والحيوان كان المراد بالشيء الموصوف في الآية النبات وما يتبعه من الحبوب والثمرات فالمراد بخزانته التي عند الله وهو ينزل بقدر معلوم المطر النازل من السماء الذي ينبت به النبات فيأتي بالحبوب والأثمار ويعيش بذلك الإنسان والحيوان هذا ملخص ما ذكره جمع من المفسرين.

ج. ولا يخفى عليك ما فيه من التكلف فتخصيص ما في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من العموم وحصره في النبات من تخصيص الأكثر من غير شك والمورد لا يخصص وأردى منه تسمية المطر خزائن النبات وليس إلا سببا من أسبابه وجزء من أجزاء كثيرة يتكون النبات بتركبها الخاص، على أن المطر إنما تتكون حينما ينزل فكيف يسمى خزانة وليس بموجود ولا أن الذي هو خزانته موجود فيه.

٢. وذكر بعض المفسرين أن المراد بكون خزائن كل شيء عند الله سبحانه شمول قدرته المطلقة له، فله تعالى من كل نوع من أنواع الأشياء كالإنسان والفرس والنخلة وغير ذلك من الأعيان وصفاتها وآثارها وأفعالها مقدورات في التقدير غير متناهية عددا لا يخرج منها دائما من التقدير والفرض إلى التحقق

والفعلية إلا قدر معلوم وعدد معين محدود:

أ. وعلى هذا فالمراد من كل شيء نوعه لا شخصه كالإنسان مثلا لا كزيد وعمرو، والمراد من القدر المعلوم الكمية المعينة من الأفراد والمراد من وجود خزائنه ووجوده في خزائنه وجوده بحسب التقدير لا بحسب التحقق فيرجع إلى نوع من التشبيه والمجاز.

ب. وأنت خبير بأن فيه تخصيصا للشيء من غير مخصص، وفيه قصر للقدر في العدد من غير دليل، والقدر في اللغة قريب المعنى من الحد وهو المفهوم من سياق قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: ٣] وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢] إلى غير ذلك.

ج. وفيه إرجاع الكلام إلى معنى مجازي استعاري من غير موجب مع ما فيه من ورود الخزائن بصيغة الجمع من غير نكتة ظاهرة.

٣. وذكر بعض معاصري المفسرين وجها آخر:

أ. وهو أن المراد بالخزائن العناصر المختلفة التي تتألف منها الأرزاق وغيرها وقد أعد الله منها في عالمنا المشهود كمية عظيمة لا تنفد بعروض التركيب والأسباب الكلية التي تعمل في تركب المركبات كالضوء والحرارة والرياح الدائمة المنظمة وغيرها التي تتكون منها الأشياء مما يحتاج إليه الإنسان في إدامة حياته وغيره.

ب. فكل من هذه الأشياء مدخرة بأجزائها والقوى الفعالة فيها في تلك الخزائن غير القابلة للنفاد من جهة عظمة مقداره ومن جهة ما يعود إليه من الأجزاء الجديدة بانحلال تركيب المركبات بموت أو فساد ورجوعها إلى عناصرها الأولية كالنبات يفسد والحيوان يموت فيعود عناصرها بانحلال التركيب إلى مقارها ويتسع بذلك المكان لكينونة نبات وحيوان آخر يخلفان سلفهما.

ج. فالضوء وخاصة ضوء الشمس الذي يعمل الليل والنهار والفصول الأربعة ويربي النبات والحيوان وسائر المركبات ويسوقها إلى غاياتها ومقاصدها من خزائن الله تعالى والرياح التي تلقح النبات وتسوق السحب وتنقل الأهوية من مكان إلى مكان وتدفع فاسد الهواء وتجري السفن خزانة أخرى، والماء النازل من السماء الذي تحتاج إليه المركبات ذوات الحياة في كينونتها وبقائها خزانة أخرى، وكذلك العناصر

البسيطة التي تتركب منها المركبات كل منها خزانة تنزل من مجموعها أو من عدة منها الأشياء المركبة، ولا ينزل قط إلا عدد معلوم من كل نوع من غير أن تنفد به الخزائن.

د. وعلى هذا فمراد الآية بالشيء هو نوعه لا شخصه كما تقدم في الوجه الأول والمراد بخزائنه مجموع ما في الكون من أصوله وعناصره وأسبابه العامة المادية ومجموع الشيء موجود في مجموع خزائنه لا في كل واحد منها والمراد بنزوله بقدر معلوم كينونة عدد محدود منه في كل حين من غير أن يستوفي عدد جميع ما في خزائنه.

هـ. وهذا وجه حسن في نفسه تؤيده الأبحاث العلمية عن كينونة هذه الحوادث وتصدقه آيات كثيرة متفرقة في الكتاب العزيز كقوله في الآية التالية: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] وقوله: ﴿وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى غير ذلك من الآيات.

و. لكن الآية وهي من آيات القدر كما يعطيه سياقها تأبى الحمل عليه كما تأبى عنه أخواتها وكيف يحمل عليه قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾؟ [الفرقان: ٢] وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى: ٣] وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧] وقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٩] وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ إلى آخر السورة إلى غير ذلك من الآيات.

ز. على أنه يرد عليه بعض ما أورد على الوجهين السابقين كتخصيص عموم ﴿شَيْءٍ﴾ من غير مخصص وغير ذلك.

٤. والذي يعطيه التدبر في الآية وما يناظرها من الآيات الكريمة:

أ. أنها من غرر كلامه تعالى تبين ما هو أدق مسلكا وأبعد غورا مما فسروها به وهو ظهور الأشياء بالقدر والأصل الذي لها قبل إحاطته بها واشتماله عليها.

ب. وذلك أن ظاهر قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ على ما به من العموم بسبب وقوعه في سياق النفي مع تأكيده بمن، كل ما يصدق عليه أنه شيء من دون أن يخرج منه إلا ما يخرجه نفس السياق وهو ما تدل

عليه لفظة (نا) و(عند) و(خزائن) وما عدا ذلك مما يرى ولا يرى مشمول للعام.

ج. فشخص زيد مثلا وهو فرد إنساني من الشيء ونوع من الإنسان أيضا الموجود في الخارج بأفراده من الشيء والآية تثبت لذلك خزائن عند الله سبحانه فلننظر ما معنى كون زيد مثلا له خزائن عند الله؟

د. والذي يسهل الأمر فيه أنه تعالى يعد هذا الشيء المذكور نازلا من عنده والنزول يستدعي علوا وسفلا ورفعة وخفضة وسماء وأرضا مثلا ولم ينزل زيد المخلوق مثلا من مكان عال إلى آخر سافل بشهادة العيان فليس المراد بإنزاله إلا خلقه لكنه ذو صفة يصدق عليه النزول بسببها، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]

هـ. ثم قوله: ﴿وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يقرن النزول وهو الخلقة بالقدر قرنا لازما غير جائز الانفكاك لمكان الحصر، والباء إما للسببية أو الآلة أو المصاحبة والمآل واحد فكينونة زيد وظهوره بالوجود إنما هو بماله من القدر المعلوم فوجوده محدود لا محالة، كيف؟ وهو تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤] ولو لم يكن محدودا لم يكن محاطا له تعالى فمن المحال أن يحاط بما لا حد له ولا نهاية.

و. وهذا القدر هو الذي بسببه يتعين الشيء ويتميز من غيره ففي زيد مثلا شيء به يتميز من عمرو وغيره من أفراد الإنسان ويتميز من الفرس والبقر والأرض والسماء ويجوز لنا به أن نقول ليس هو بعمرو ولا بالفرس والبقر والأرض والسماء ولو لا هذا الحد لكان هو هي وارتفع التميز.

ز. وكذلك ما عنده من القوى والآثار والأعمال محدودة مقدرة فليس إبصاره مثلا إبصارا مطلقا في كل حال وفي كل زمان وفي كل مكان ولكل شيء وبكل عضو مثلا بل إبصار في حال وزمان ومكان خاص ولشيء خاص وبعضو خاص وعلى شرائط خاصة، ولو كان إبصارا مطلقا لأحاط بكل إبصار خاص وكان الجميع له ونظيره الكلام في سائر ما يعود إليه من خصائص وجوده وتوابعه فافهم ذلك.

ح. ومن هنا يظهر أن القدر خصوصية وجود الشيء وكيفية خلقته كما يستفاد أيضا من قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى: ٣] وقوله: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٢٥] فإن الآية الأولى رتبت الهداية وهي الدلالة على مقاصد الوجود على خلق الشيء وتسويته وتقديره، والآية الثانية رتبتها على إعطائه ما يختص به من الخلق، ولازم ذلك، على ما يعطيه سياق الآيتين، كون قدر الشيء خصوصية خلقه غير الخارجة عنه.

ط. ثم إنه تعالى وصف قدر كل شيء بأنه معلوم إذ قال: ﴿وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ويفيد بحسب سياق الكلام أن هذا القدر معلوم له حينما يتنزل الشيء ولما يتم نزوله ويظهر وجوده فهو معلوم القدر معينة قبل إيجاده، وإليه يئول معنى قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ [الرعد: ٨] فإن ظاهر الآية أن كل شيء بما له من المقدار حاضر عنده معلوم له فقوله هناك: ﴿عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ في معنا قوله هاهنا ﴿بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ونظير ذلك قوله في موضع آخر: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: ٣] أي قدرا لا يتجاوزه معينا غير مبهم معلوما غير مجهول وبالجملة للقدر تقدم على الشيء بحسب العلم والمشية وإن كان مقارنا له غير منفك عنه في وجوده.

ي. ثم إنه تعالى أثبت بقوله: ﴿عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ﴾، للشيء عنده قبل نزوله إلى هذه النشأة واستقراره فيها خزائن، وجعل القدر متأخرا عنها ملازما لنزوله فالشيء وهو في هذه الخزائن غير مقدر بقدر ولا محدود بحد وهو مع ذلك هو، وقد جمع في تعريف هذه الخزائن بين كونها فوق القدر الذي يلحق الشيء وبين كونها خزائن فوق الواحدة والاثنتين، ومن المعلوم أن العدد لا يلحق إلا الشيء المحدود وأن هذه الخزائن لو لم تكن محدودة متميزة بعضها من بعض كانت واحدة البتة.

ك. ومن هنا يتبين أن هذه الخزائن بعضها فوق بعض وكل ما هو عال منها غير محدود بحد ما هو دان غير مقدر بقدره ومجموعها غير محدود بالحد الذي يلحق الشيء وهو في هذه النشأة، ولا يبعد أن يكون التعبير بالتنزيل الدال على نوع من التدريج في قوله: ﴿وَما نُنَزِّلُهُ﴾ إشارة إلى كونه يطوي في نزوله مرحلة بعد مرحلة وكلما ورد مرحلة طرأه من القدر أمر جديد لم يكن قبل حتى إذا وقع في الأخيرة أحاط به القدر من كل جانب قال تعالى: ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [الدهر: ١] فقد كان الإنسان ولكنه لم يكن شيئا مذكورا.

ل. وهذه الخزائن جميعا فوق عالمنا المشهود لأنه تعالى وصفها بأنها عنده وقد أخبرنا بقوله: ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾ أن ما عنده ثابت لا يزول ولا يتغير عما هو عليه فهذه الخزائن كائنة ما كانت أمور ثابتة غير زائلة ولا متغيرة، والأشياء في هذه النشأة المادية المحسوسة متغيرة فانية لا ثابتة ولا باقية فهذه الخزائن الإلهية فوق عالمنا المشهود.

م. هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة وهو وإن كان لا يخلو من دقة وغموض يعضل على بادئ

الفهم لكنك لو أمعنت في التدبر وبذلت في ذلك بعض جهدك استنار لك ووجدته من واضحات كلامه إن شاء الله تعالى وعلى من لم يتيسر له قبوله أن يعتمد الوجه الثالث المتقدم فهو أحسن الوجوه الثلاثة المتقدمة والله ولي الهداية وسنرجع إلى بحث القدر في كلام مستقل يختص به إن شاء الله في موضع يناسبه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في روضة الواعظين، لابن الفارسي روي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليه السلام أنه قال: في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر، قال: وهذا تأويل قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ الحديث.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن مقاتل بن سليمان قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: لما صعد موسى عليه السلام الطور فنادى ربه عز وجل قال: رب أرني خزائنك، قال: يا موسى، إنما خزائني إذا أردت شيئا أن أقول له: كن فيكون.

ج. أخرج البزار وابن مردويه في العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئا قال له: كن فكان.

• أقول: والروايات الثلاث الأخيرة تؤيد ما قدمناه في تقرير معنى الآية، والمراد بقول كن كلمة الإيجاد الذي هو وجود الأشياء، وهو مما يؤيد عموم الشيء في الآية، وكذا كان يفهمه الصحابة وأهل عصر النزول كما يؤيده ما رواه في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم عن معاوية أنه قال: ألستم تعلمون أن كتاب الله حق؟ قالوا: بلى، قال: فاقرءوا هذه الآية ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ألستم تؤمنون بهذا وتعلمون أنه حق؟ قالوا: بلى، قال: فكيف تلومونني بعد هذا؟ فقام الأحنف وقال: يا معاوية، والله ما نلومك على ما في خزائن الله، ولكن إنما نلومك على ما أنزله الله من خزائنه، فجعلته أنت في خزائنك، وأغلقت عليه بابك فسكت معاوية.

٩. الرياح لواقح والمطر والسقيا من عند الله:

المقطع [٩] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٤٥»:

١. ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ﴾ اللواقح جمع

لاقحة من اللقح بالفتح فالسكون يقال لقح النخل لقحا أي وضع اللقاح، بفتح اللام، وهو طلع الذكور من النخل على الإناث لتحمل بالتمر، وقد ثبت بالأبحاث الحديثة في علم النبات أن حكم الزوجية جار في عامة النبات وأن فيه ذكورية وأنوثية وأن الرياح في مهبها تحمل الذرات من نطفة الذكور فتلقح بها الإناث، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾

٢. ﴿فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ﴾ إشارة إلى المطر النازل من السحاب وقد تسلم الأبحاث العلمية الحديثة أن الماء الموجود في الكرة الأرضية من الأمطار النازلة عليها من السماء على خلاف ما كانت تعتقده القدماء أنه كرة ناقصة محيطة بكرة الأرض إحاطة ناقصة وهو عنصر من العناصر الأربعة.

٣. وهذه الآية التي تثبت بشطرها الأول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ مسألة الزوجية واللقاح في النبات، وبشطرها الثاني: ﴿فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ﴾ أن المياه الموجودة المدخرة في الأرض تنتهي إلى الأمطار، وقوله تعالى السابق: ﴿وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الظاهر في أن للوزن دخلا خاصا في الإنبات والإنماء من نقود العلم التي سبق إليها القرآن الكريم الأبحاث العلمية وهي تتلو المعجزة أو هي هي.

١٠. الله يحيي ويميت وهو الوارث والعالم بالمستقدمين والمستأخرين:

المقطع [١٠] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٣-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٤٦»:

١. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ﴾ الكلام مسوق للحصر يريد بيان رجوع كل التدبير إليه، وقد كان ما عده من النعم كالسماء ببروجها والأرض برواسيها، وإنبات كل شيء موزون وجعل المعايش وإرسال اللواقح وإنزال الماء من السماء إنما يتم نظاما مبنيا على الحكمة والعلم إذا انضم إليه الحياة والموت والحشر، وكان مما ربما يظن أن بعض الحياة والموت ليس إليه تعالى ولذا أكد الكلام وأتى بالحصر دفعا لذلك.

٢. ثم جاء بقوله: ﴿وَنَحْنُ الْوارِثُونَ﴾ أي الباقون بعد إماتتكم المتصرفون فيما خولناكموه من أمتعة الحياة كأنه تعالى يقول إلينا تدبير أمركم ونحن محيطون بكم نحييكم بعد ما لم تكونوا فنحن قبلكم،

ونميتكم ونرثكم فنحن بعدكم.

٣. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ لما كانت الآيات السابقة التي تعد النعم الإلهية وتصف التدبير مسوقة لبيان وحدانيته تعالى في ربوبيته، وكان لا ينفع الخلق والنظم من غير انضمام علمه تعالى وخاصة بمن يحييه ويميته عقبها بهذه الآية الدالة على علمه بمن استقدم منهم بالوجود ومن استأخر أي المتقدمين من الناس والمتأخرين على ما يفيده السياق، وقيل: المراد بالمستقدمين المستقدمون في الخير، وقيل: المستقدمون في صفوف الحرب، وقيل: المستقدمون إلى الصف الأول في صلاة الجماعة والمستأخرون خلافهم، وهي أقوال ردية.

٤. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الكلام مسوق للحصر أي هو يحشرهم لا غير فهو الرب، وأورد عليه أنه في مثل ذلك من الحصر يكون الفعل مسلم الثبوت والنزاع إنما هو في الفاعل، وهاهنا ليس كذلك فإن الخصم لا يسلم الحشر من أصله هذا، وقد ذهب على هذا المعترض أن الآية حولت الخطاب السابق للناس عنهم إلى النبي ﷺ التفاتا فقيل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ولم يقل إن ربكم هو يحشركم، والنبي ﷺ مسلم للحشر، وبذلك يظهر نكتة الالتفات في الآية في مورده تعالى من التكلم مع الغير إلى الغيبة، وفي مورد النبي ﷺ من الغيبة إلى الخطاب وفي مورد الناس بالعكس.

٥. وقد ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ لأن الحشر يتوقف على الحكمة المقتضية لحساب الأعمال ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وعلى العلم حتى لا يغادر منهم أحد.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه والحاكم عن مروان بن الحكم قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ الآية.

ب. وروي فيه، أيضا عن عدة عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ، حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾

• والآية لا تنطبق على ما في هاتين الروايتين لا من جهة اللفظ ولا من جهة السياق الذي وقعت

هي فيه، وهو ظاهر.

ج. أخرج ابن أبي حاتم من طريق معتمر بن سليمان عن شعيب بن عبد الملك عن مقاتل بن سليمان: في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ الآية، قال: بلغنا أنه في القتال، قال معتمر فحدثت أبي فقال: لقد نزلت هذه الآية قبل أن يفرض القتال.

• أقول: يعني أنها مكية.

د. وفي تفسير العياشي، عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ قال: هم المؤمنون من هذه الأمة.

هـ. وفي تفسير البرهان، عن الشيباني في نهج البيان، عن الصادق جعفر بن محمد: أن المستقدمين أصحاب الحسنات، والمستأخرين أصحاب السيئات.

١١. خلق الإنسان من صلصال والجان من نار السموم:

المقطع [١١] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٥١»:

١. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (أصل الصلصال تردد الصوت من الشيء اليابس ومنه قيل: صل المسمار وسمي الطين الجاف صلصالا، قال تعالى: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ والصلصلة بقية ماء سميت بذلك لحكاية صوت تحركه في المزادة وقيل: الصلصال المنتن من الطين من قولهم: صل اللحم)، وقال: والحمأة والحمأ طين أسود منتن، وقال: وقوله: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ قيل: متغير وقوله: لم يتسنه معناه لم يتغير والهاء للاستراحة)

ب. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ المراد به بدء خلقة الإنسان بدليل قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: ٨] فهو إخبار عن خلقة النوع وظهوره في الأرض فإن خلق أول من خلق منهم ومنه خلق الباقي خلق الجميع.

ج. قال في مجمع البيان: (وأصل آدم كان من تراب وذلك قوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾ ثم جعل

التراب طينا وذلك قوله: ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ثم ترك ذلك الطين حتى تغير واسترخى وذلك قوله: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ثم ترك حتى جف وذلك قوله: ﴿مِنْ صَلْصالٍ﴾ فهذه الأقوال لا تناقض فيها إذ هي إخبار عن حالاته المختلفة)

٢. ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾:

أ. قال الراغب: (السموم الريح الحارة تؤثر تأثير السم)، وأصل الجن الستر وهو معنى سار في جميع ما اشتق منه كالجن والمجنة والجنة والجنين والجنان بالفتح وجن عليه الليل وغير ذلك.

ب. والجن طائفة من الموجودات مستورة بالطبع عن حواسنا ذات شعور وإرادة تكرر في القرآن الكريم ذكرهم ونسب إليهم أعمال عجيبة وحركات سريعة كما في قصص سليمان عليه السلام وهم مكلفون ويعيشون ويموتون ويحشرون تدل على ذلك كله آيات كثيرة متفرقة في كلامه تعالى.

ج. وأما الجان فهل هو الجن بعينه أو هو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر كما عن ابن عباس أو هو إبليس نفسه كما عن الحسن أو الجان نسل إبليس من الجن أو هو نوع من الجن كما ذكره الراغب؟ أقوال مختلفة لا دليل على أكثرها.

٣. والذي يهدي إليه التدبر في كلامه تعالى:

أ. أنه قابل في هاتين الآيتين الإنسان بالجان فجعلهما نوعين اثنين لا يخلوان عن نوع من الارتباط في خلقتهما، ونظير ذلك قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]

ب. ولا يخلو سياق ما نحن فيه من الآيات من دلالة على أن إبليس كان جانا وإلا لغا قوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه في إبليس: ﴿كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] فأفاد أن هذا الجان المذكور هو الجن نفسه أو هو نوع من أنواع الجن ثم ترك سبحانه في سائر كلامه ذكر الجان من أصله ولم يذكر إلا الجن حتى في موارد يعم الكلام فيها إبليس وقبيله كقوله تعالى: ﴿شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت: ٢٥] وقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ إلى أن قال: ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]

ج. وظاهر هذه الآيات من جهة المقابلة الواقعة فيها بين الإنسان والجان تارة وبين الإنس والجن أخرى أن الجن والجان واحد وإن اختلف التعبير.

د. وظاهر المقابلة بين قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾، وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أن خلق الجان من نار السموم المراد به الخلق الابتدائي وبدء ظهور النوع كخلق الإنسان من صلصال، وهل كان استمرار الخلقة في أفراد الجان المستتبع لبقاء النوع على سنة الخلق الأول من نار السموم بخلاف الإنسان حيث بدئ خلقه من تراب ثم استمر بالنطفة كلامه سبحانه خال عن بيانه ظاهرا غير ما في بعض كلامه من نسبة الذرية إلى إبليس كما قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] ونسبة الموت إليهم كما في قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت: ٢٥] والمألوف من نوع فيه ذرية وموت هو التناسل والكلام بعد في هذا التناسل هل هو بسفاد كسفاد نوع من الحيوان أو بغير ذلك؟

هـ. ﴿خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ﴾ مقطوع الإضافة أي من قبل خلق الإنسان والقرينة هي المقابلة بين الخلقين.

و. وعد مبدإ خلق الجان في الآية هو نار السموم لا ينافي ما في سورة الرحمن من عده مارجا من نار أي لهيبا مختلطا بدخان فإن الآيتين تلخصان أن مبدأ خلقه ريح سموم اشتعلت فكانت مارج نار.

٤. فمعنى الآيتين: أقسم لقد بدأنا خلق النوع الإنسان من طين قد جف بعد أن كان سائلا متغيرا منتنا ونوع الجان بدأنا خلقه من ريح حارة حادة اشتعلت فصارت نارا.

١٢. خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود وامتناع إبليس:

المقطع [١٢] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٥٣»:

١. ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً﴾:

أ. قال في المفردات: (البشرة ظاهر الجلد والأدمة باطنه كذا قال عامة الأدباء، إلى أن قال، وعبر عن

الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع وثنى فقال تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ﴾ وخص في القرآن في كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر نحو: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً﴾)

ب. ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً﴾ بإضمار فعل والتقدير: واذكر إذ قال ربك، وفي الكلام التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وكان العناية فيه مثل العناية التي مرت في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فإن هذه الآيات أيضا تكشف عن نبإ ينتهي إلى الحشر والسعادة والشقاوة الخالدتين.

ج. على أن التكلم مع الغير في السابق ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا﴾ ﴿خَلَقْناهُ﴾ من قبيل تكلم العظماء عنهم وعن خدمهم وأعوانهم تعظيما أي بأخذه تعالى ملائكته الكرام معه في الأمر وهذه العناية مما لا يستقيم في مثل المقام الذي يخاطب فيه الملائكة في إخبارهم بإرادته خلق آدم عليه السلام وأمرهم بالسجود له إذا سواه ونفخ فيه من روحه فافهم ذلك ومعنى الآية ظاهر.

٢. ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾:

أ. التسوية جعل الشيء مستويا قيما على أمره بحيث يكون كل جزء منه على ما ينبغي أن يكون عليه فتسوية الإنسان أن يكون كل عضو من أعضائه في موضع الذي ينبغي أن يكون فيه وعلى الحال التي ينبغي أن يكون عليها.

ب. ولا يبعد أن يستفاد من قوله: ﴿إِنِّي خالِقٌ﴾ ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ﴾ أن خلق بدن الإنسان الأول كان على سبيل التدريج الزماني فكان أولا الخلق وهو جمع الأجزاء ثم التسوية وهو تنظيم الأجزاء ووضع كل جزء في موضعه الذي يليق به وعلى الحال التي تليق به ثم النفخ ولا ينافيه ما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فإن قوله: ﴿ثُمَّ قالَ لَهُ﴾ ناظر إلى كينونة الروح وهو النفس الإنسانية دون البدن كما عبر عنه في موضع آخر بعد بيان خلق البدن بالتدريج بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]

ج. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ النفخ إدخال الهواء في داخل الأجسام بفم أو غيره ويكنى به عن إلقاء أثر أو أمر غير محسوس في شيء، ويعني به في الآية إيجاده تعالى الروح الإنساني بما له من الرابطة والتعلق بالبدن، وليس بداخل فيه دخول الهواء في الجسم المنفوخ فيه كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ

جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]

د. فالآية الأولى، كما ترى، تبين أن الروح الإنساني هو البدن منشأ خلقا آخر والبدن على حاله من غير أن يزاد فيه شيء، والآية الثانية تبين أن الروح عند الموت مأخوذ من البدن والبدن على حاله من غير أن ينقص منه شيء، فالروح أمر موجود في نفسه له نوع اتحاد بالبدن بتعلقه به وله استقلال عن البدن إذا انقطع تعلقه به وفارقه وقد تقدم بعض ما يتعلق من الكلام بهذا المقام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] في الجزء الأول من الكتاب، ونرجو أن نستوفي هذا البحث في ذيل قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الآية: ٨٥] من سورة إسراء إن شاء الله.

هـ. وإضافة الروح إليه تعالى في قوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ للتكرمة والتشريف من الإضافة اللامية المفيدة للملك، وقوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ أي اسجدوا، ولا يبعد أن يفهم منه أن خروا على الأرض ساجدين له فيفيد التأكيد في الخضوع من الملائكة لهذا المخلوق الجديد كما قيل.

و. ومعنى الآية فإذا عدلت تركيبه وأتممت صنع بدنه وأوجدت الروح الكريم المنسوب إلي الذي أربط بينه وبين بدنه فقعوا وخروا على الأرض ساجدين له.

٣. ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ لفظة أجمعون تأكيد بعد تأكيد لتشديده، والمراد أن الملائكة سجدوا له بحيث لم يبق منهم أحد وقد استثنى من ذلك إبليس ولم يكن منهم لقوله تعالى: ﴿كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] وأما قول من قال: إن طائفة من الملائكة كانوا يسمون الجن وكان إبليس منهم أو إن الجن بمعنى الستر فيعم الملائكة وغيرهم فمما لا يصغي إليه، وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام في معنى شمول الأمر بالسجود لإبليس مع عدم كونه من الملائكة ومعنى الآيتين ظاهر.

٤. ﴿قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾:

أ. ﴿ما لَكَ﴾ مبتدأ وخبر أي ما الذي هو كائن لك؟ وقوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ من قبيل نزع الخافض والتقدير في أن لا تكون مع الساجدين وهم الملائكة، ومحصل المعنى: ما بالك لم تسجد؟

ب. ﴿قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ في التعبير بقوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ دون أن يقول: لا أسجد أو لست أسجد دلالة على أن الإباء عن السجدة مقتضى ذاته وكان هو المترقب منه لو اطلع على جوهره فتفيد الآية بالكناية ما يفيده قوله في موضع آخر: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] بالتصريح.

ج. وقد تقدم كلام في معنى السجود لآدم وأمر الملائكة وإبليس بذلك وائتمارهم وتمرده عنه، نافع في هذا الباب في تفسير سورتي البقرة والأعراف من هذا الكتاب.

٥. ﴿فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾:

أ. الرجيم فعيل بمعنى المفعول من الرجم وهو الطرد وشاع استعماله في الطرد بالحجارة والحصاة، واللعن هو الطرد والإبعاد من الرحمة.

ب. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ بمنزلة البيان لقوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ فإن الرجم كان سببا لخروجه من بين الملائكة من السماء أو من المنزلة الإلهية وبالجملة من مقام القرب وهو مستوى الرحمة الخاصة الإلهية فينطبق على الإبعاد من الرحمة وهو اللعن.

ج. وقد نسب سبحانه هذه اللعنة المجعولة على إبليس في موضع آخر إلى نفسه فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٥٨] وقيدها في الآيتين جميعا بقوله: ﴿إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾

د. أما جعل مطلق اللعنة عليه في قوله: ﴿عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ فلأن اللعن يلحق المعصية وما من معصية إلا ولإبليس فيه صنع بالإغواء والوسوسة فهو الأصل الذي يرجع إليه كل معصية وما يلحقها من لعن حتى في عين ما يعود إلى أشخاص العصاة من اللعن والوبال، وتذكر في ذلك ما تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] في الجزء التاسع من الكتاب.

هـ. على أنه لعنه الله أول فاتح فتح باب معصية الله وعصاه في أمره فإليه يعود وبال هذا الطريق بسالكيه ما سلكوا فيه.

و. وأما جعل لعنته خاصة عليه في قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ فلأن الإبعاد من الرحمة بالحقيقة إنما يؤثر أثره إذا كان منه تعالى إذ لا يملك أحد من رحمته إعطاء ومنعا إلا بإذنه فإليه يعود حقيقة الإعطاء

والمنع.

ز. على أن اللعن من غيره تعالى بالحقيقة دعاء عليه بالإبعاد من الرحمة وأما نفس الإبعاد الذي هو نتيجة الدعاء فهو من صنعه القائم به تعالى وحقيقته المبالغة في منع الرحمة.

ح. وقال في المجمع: (وقال بعض المحققين: إنما قال سبحانه هنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ بالألف واللام، وقال في سورة ص: ﴿لَعْنَتِي﴾ بالإضافة لأن هناك يقول: ﴿لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَ﴾ مضافا، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ على المطابقة، وقال هنا: ﴿ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وساق الآية على اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ وقوله: ﴿وَالْجَانَ﴾ فأتى باللام أيضا في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾) انتهى وقال أيضا في الآية بيان أنه لا يؤمن قط.

ط. وأما تقييد اللعنة بقوله: ﴿إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ فلأن اللعنة هي عنوان الإثم والوبال العائد إلى النفس من المعصية والمعصية محدودة بيوم القيامة فاليوم عمل ولا جزاء وغدا جزاء ولا عمل، وإن شئت فقل: هذه الدار دار كتابة الأعمال وحفظها ويوم القيامة دار الحساب والجزاء.

ي. وأما قول القائل: إن تحديد اللعن بيوم الدين دليل على كونه مغيا به مرفوعا فيه وفيما بعده فمما يدفعه ظاهر الآيات المبينة للعذاب يوم القيامة.

ك. ويؤيد ذلك التعبير في الآية عن يوم القيامة بيوم الدين المشعر بأنه ملعون قبل يوم القيامة ومجزي به فيه، ولو انقطع العذاب بقيام الساعة لكان اليوم يوم انقطاع الدين لا يوم الدين.

ل. وربما قيل في دفع إشكال الغاية إن ذلك أبعد غاية يضربها الخلائق فهو كقوله: ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ﴾ الآية، وهو كما ترى وقد عرفت معنى الآية المقيس عليها في تفسير سورة هود.

م. وربما قيل: إن المراد باللعنة في الآية لعن الخلائق وذلك منقطع بمجيء يوم الدين دون لعنه تعالى وإبعاده له من رحمته فإنه متصل إلى الأبد، وكأن هذا القائل ذهب عليه قوله تعالى في سورة ص: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الآية: ٧٨]

٦. الأقضية التي صدرت عن مصدر العزة في بدء خلقة الإنسان على ما وقع في كلامه سبحانه عشرة:

أ. الأول والثاني قوله لإبليس: ﴿فَاخْرُجْ مِنها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] ويمكن إرجاعهما إلى واحد.

ب. الثالث قوله سبحانه له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الحجر: الرابع والخامس والسادس قوله له: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]

ج. السابع والثامن قوله سبحانه لآدم ومن معه: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]

د. التاسع والعاشر قوله لهم: ﴿اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

هـ. وهناك أقضية فرعية مترتبة على هذه الأقضية الأصلية يعثر عليها المتدبر الباحث.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ الآية، قال: روح خلقها الله فنفخ في آدم منها.

ب. وفيه، عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ قال: خلق خلقا وخلق روحا ثم أمر الملك فنفخ فيه، وليست بالتي نقصت من الله شيئا، هي من قدرته تبارك وتعالى.

ج. وفيه، وفي رواية سماعة عنه عليه السلام: خلق آدم ونفخ فيه، وسألته عن الروح قال: هي قدرته من الملكوت.

• أقول: أي هي قدرته الفعلية منبعثة عن قدرته الذاتية صادرة منها كما يدل عليه الخبر السابق.

د. وفي المعاني، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ قال: روح اختاره واصطفاه وخلقه وأضافه إلى نفسه، وفضله على جميع الأرواح فأمر فنفخ منه في آدم.

هـ. وفي الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون، أن الله

خلق آدم على صورته، فقال: هي على صورة مخلوقة محدثة اصطفاها الله، واختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه، كما أضاف الكعبة إلى نفسه فقال: ﴿بَيْتِيَ﴾ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾

• أقول: وهذه الروايات من غرر الروايات في معنى الروح تتضمن معارف جمة وسنوضح معناها عند الكلام في حقيقة الروح إن شاء الله.

١٣. إبليس يطلب الإنظار ويقسم على إغواء بني آدم إلا المخلصين:

المقطع [١٣] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٦-٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٦٠»:

١. ﴿قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

أ. الإنظار هو الإمهال وقد صدر كلامه بقوله: ﴿رَبِ﴾ وهو يخاصمه وقد عصاه واستكبر عليه تعالى لأنه في مقام الدعاء لا مفر له من دعوته تعالى بما يثير به الرحمة الإلهية المطلقة وهو الالتجاء إليه بربوبيته له ليستجيب له وهو مغضوب عليه.

ب. وقد صدر مسألته بفاء التفريع في قوله: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ وذكر فيه بعثة عامة البشر من غير أن يخص بالذكر آدم أباهم الذي ابتلي بالرجم واللعن من أجل الإباء عن السجود له وذلك كله مبني على ما تقدم في تفسير آيات القصة في سورة الأعراف أن المأمور به كان هو السجود لعامة البشر وكان آدم عليه السلام كالقنبلة المنصوبة للسجود يمثل به النوع الإنساني.

ج. وتوضيحه أنه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الأعراف: ١١] أنهم إنما أمروا بالسجدة لنوع الإنسان لا لشخص آدم عليه السلام ولم يكن هذه السجدة تشريفا اجتماعيا من غير غاية حقيقية بل كانت خضوعا بحسب الخلقة فهم بحسب ما أريد من خلقتهم خاضعون للإنسان بحسب ما أريد من كمال خلقته، أي إنهم مسخرون لأجله عاملون في سبيل سعادة حياته أي إن للإنسان منزلة من القرب ومرحلة من كمال السعادة تفوق ما للملائكة من ذلك.

د. فسجودهم جميعا له دليل أنهم جميعا مسخرون في سبيل كماله من السعادة عاملون لأجل فوزه

وفلاحه كملائكة الحياة وملائكة الموت وملائكة الأرزاق وملائكة الوحي والمعقبات والحفظة والكتبة وغيرهم ممن تذكرهم متفرقات الآيات القرآنية فالملائكة أسباب إلهية وأعوان للإنسان في سبيل سعادته وكماله.

هـ. ومن هنا يظهر للمتدبر الفطن أن إباء إبليس عن السجدة استنكاف منه عن الخضوع لنوع الإنسان والعمل في سبيل سعادته وإعانته على كمال المطلوب على خلاف ما ظهر من الملائكة فهو بإبائه عن السجدة خرج من جمع الملائكة كما يفيده قوله تعالى: ﴿ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وأظهر الخصومة لنوع الإنسان والبراءة منهم ما حيوا وعاشوا أو خالدا مؤبدا.

و. ويؤيده جعله تعالى اللعنة المطلقة عليه من يوم أبى إلى يوم الدين وهو مدة مكث النوع الإنساني في هذه الدنيا فجعلها عليه كذلك ولما يدع إبليس أنه سيغويهم ولم يقل بعد: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مشعر بأن إباءه عن السجدة نوع خصومة وعداوة منه لهذا النوع آخذا من آدم إلى آخر من سيولد ويعيش من ذريته.

ز. فكأنه عليه اللعنة فهم من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أن له شأنا مع النوع الإنساني إلى يوم القيامة وأن لشقائهم وفساد أعمالهم ارتباطا به من حيث امتنع عن السجود ولذلك سأل النظرة إلى يوم يبعثون مفرعا ذلك على اللعنة المجعولة عليه فقال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ولم يقل: رب أنظرني إلى يوم يبعثون ولم يقل: أنظرني إلى يوم يموت آدم أو أنظرني ما دام حيا يعيش بل ذكر آدم وبنيه جميعا وطلب النظرة إلى يوم يبعثون مفرعا ذلك على اللعنة إلى يوم الدين فلما أجيب إلى ما سأل أبدى ما في كمون ذاته وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

٢. ﴿قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾:

أ. جواب منه سبحانه لإبليس وفيه إجابة ورد أما الإجابة فبالنسبة إلى أصل الإنظار الذي سأله وأما الرد فبالنسبة إلى القيد وهو أن يكون الإنظار إلى يوم يبعثون فإن من الواضح اللائح بالنظر إلى سياق الآيتين أن يوم وقت المعلوم غير يوم يبعثون فلم يسمح له بإنظاره إلى يوم يبعثون بل إلى يوم هو غيره ولا محالة هو قبل يوم البعث.

ب. وبذلك يظهر فساد قول من قال إنه لعنه الله أجيب إلى ما سأل واليومان في الآيتين واحد ومن

الدليل عليه قوله في سورة الأعراف في القصة: ﴿قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الآية: ١٥] من غير أن يقيد بشيء.

• أما فساد دعواه اتحاد اليومين في الآيتين فقد ظهر مما تقدم وأما فساد الاستدلال بإطلاق آية الأعراف فلأنها تتقيد بما في هذه السورة وسورة ص من التقييد بقوله: ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهذا كثير شائع في كلامه تعالى والقرآن يشهد بعضه على بعض وينطق بعضه ببعض.

• وظاهر يوم الوقت المعلوم أنه وقت تعين في العلم الإلهي نظير قوله: ﴿وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وقوله: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ٤١] فهو معلوم عند الله قطعا وأما أنه معلوم لإبليس أو مجهول عنده فغير معلوم من اللفظ، وقول بعضهم: (إنه سبحانه أبهم اليوم ولم يبين فهو معلوم لله غير معلوم لإبليس لأن في بيانه إغراء بالمعصية كلام خال عن الدليل فإبهام اللفظ بالنسبة إلينا غير إبهام ما ألقي إلى إبليس من القول بالنسبة إليه على أن إغراء إبليس بالمعصية وهو الأصل لكل معصية مفروضة لا يخلو عن إشكال فافهمه.

• على أن قول إبليس ثانيا: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ شاهد على أنه سيبقى إلى آخر ما يعيش الإنسان في الدنيا ممن يمكنه إغواؤه فقد كان فهم من قوله تعالى: ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أنه آخر عمر البشر العائشين في الأرض الجائز له إغواؤهم.

ج. ونسب إلى ابن عباس ومال إليه الجمهور: أن اليوم هو آخر أيام التكليف، وهو النفخة الأولى يوم يموت الخلائق وكأنه مبني على أن إبليس باق ما بقي التكليف وأمكنت المخالفة والمعصية، وهو مدة عمر الإنسان في الدنيا، وينتهي ذلك إلى النفخة الأولى التي بها يموت الخلائق فهو يوم الوقت المعلوم الذي أنظره الله إليه، وبينه وبين النفخة الثانية التي فيها يبعثون أربعمائة سنة أو أربعون سنة على اختلاف الروايات، وهي ما به التفاوت بين ما سأله إبليس وبين ما أجاب إليه الله سبحانه.

• وهذا وجه حسن لولا ما فيه من قولهم: إن إبليس باق ما بقي التكليف وأمكنت المخالفة والمعصية فإنها مقدمة لا بينة ولا مبينة وذلك أن تعويل القوم في ذلك على أن المستفاد من الآيات والأخبار كون كل كفر وفسوق موجود في النوع الإنساني مستندا إلى إغواء إبليس ووسوسته كما يدل عليه أمثال قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] وقوله:

﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، ومقتضاها أن يدوم وجود إبليس ما دام التكليف باقيا، والتكليف باق ما بقي الإنسان وهو المطلوب.

• وفيه أن كون المعصية الإنسانية مستندة بالجملة إلى إغواء إبليس مستفادة من الآيات والروايات لا غبار عليه لكنه إنما يقتضي بقاء إبليس ما دامت المعصية والغواية باقية لا بقاءه ما دام التكليف باقيا، ولا دليل على الملازمة بين المعصية والتكليف وجودا.

• بل الحجة قائمة من العقل والنقل على أن غاية الإنسان النوعية وهي السعادة ستعم النوع ويتخلص المجتمع الإنساني إلى الخير والصلاح ولا يعبد على الأرض يومئذ إلا الله سبحانه، وينطوي وقتئذ بساط الكفر والفسوق، ويصفو العيش ويرتفع أمراض القلوب ووساوس الصدور، وقد تقدم تفصيل ذلك في مباحث النبوة في الجزء الثاني وفي قصص نوح في الجزء العاشر من الكتاب، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]

• ومن ذلك يظهر أن الذي استندوا إليه من الحجة إنما يدل على كون يوم الوقت المعلوم الذي جعله الله غاية إنظار إبليس هو يوم يصلح الله سبحانه المجتمع الإنساني فينقطع دابر الفساد ولا يعبد يومئذ إلا الله لا يوم يموت الخلائق بالنفخة الأولى.

٣. ﴿قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾:

أ. الباء في قوله: ﴿بِما أَغْوَيْتَنِي﴾ للسببية و﴿بِما﴾ مصدرية أي أتسبب بإغوائك إياي إلى التزيين لهم وألقي إليهم ما استقر في من الغواية كما قالوا يوم القيامة على ما حكى الله: ﴿أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا﴾ [القصص: ٦٣]

ب. وقول بعضهم: (إن الباء للقسم أي أقسم بإغوائك لأزينن من أردإ القول فلم يعهد في كتاب ولا سنة أن يقسم بمثل الإغواء والإضلال وليس فيه شيء مفهوم من التعظيم اللازم في القسم.

ج. وقد نسب لعنه الله في قوله: ﴿بِما أَغْوَيْتَنِي﴾ إلى الله سبحانه أنه أغواه ولم يرده الله سبحانه إليه ولا أجاب عنه وليس مراده به غوايته إذ عصى أمر السجدة ولم يسجد لآدم عليه السلام والدليل على ذلك أن لا رابطة بين معصيته في نفسه وبين معصية الإنسان لربه حتى يكون معصيته سبب معصيتهم ويتسبب

هو بها إلى إغوائهم.

د. وإنما يريد به ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ من استقرار اللعنة المطلقة فيه وهي الإبعاد من الرحمة والإضلال عن طريق السعادة وهي إغواء له أثر الغواية التي أبداها من نفسه وأتى بها من عنده فيكون من إضلاله تعالى مجازاة لا إضلالا ابتدائيا وهو جائز غير ممتنع عليه تعالى، ولذلك لم يرده كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقد بينا ذلك في ذيل الآية ومواضع أخرى من هذا الكتاب.

هـ. وعند هذا يستقيم معنى السببية أعني إغواءه الناس بسبب الإغواء الذي مسه واستقر فيه فإن البعد من الرحمة والبون من السعادة لما كان لازما لنفسه بلزوم اللعنة الإلهية له كان كلما اقترب من قلب إنسان بالوسوسة والتسويل أو استولى على نفس من النفوس وهو بعيد من الرحمة والسعادة أوجب ذلك بعد من اقترب منه أو تسلط عليه، وهو إغواؤه بإلقاء أثر الغواية التي عنده إليه وهو ظاهر.

٤. هذا ما يعطيه التدبر في الآية ومحصله أن المراد بالإغواء ليس هو الإضلال الابتدائي بل الإضلال على سبيل المجازاة الذي يدل عليه قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ الآية، وأما القوم فكالمسلم عندهم أن قوله: ﴿بِما أَغْوَيْتَنِي﴾ لو كان بمعناه الظاهر وهو الإضلال لكان هو الإضلال الابتدائي وكان ناظرا إلى إبائه وامتناعه عن السجدة ولذا استشكلوا الآية واختلفوا في تفسير الإغواء على اختلاف مذاهبهم في استناد الشر إليه تعالى وصدوره منه جوازا وامتناعا:

أ. فقال بعضهم وهم أهل الجبر: إن إسناد الإغواء إليه تعالى بلا إنكار منه لذلك يدل على أن الشر كالخير من الله تعالى، والمعنى رب بما أضللتني بالامتناع عن السجدة، فهو منك، أقسم لأضلنهم أجمعين.

ب. وقال آخرون وهم غيرهم: أنه لا يجوز استناد الشر والمعصية وكل قبيح إليه تعالى ووجهوا الآية بوجوه.

- أحدها: أن الإغواء في الآية بمعنى التخييب والمعنى رب بما خيبتني من رحمتك لأخيبنهم بالدعوة إلى معصيتك.
- الثاني: أن المراد بالإغواء الإضلال عن طريق الجنة والمعنى بما أضللتني عن طريق جنتك لما صدر مني من معصيتك لأضلنهم بالدعوة.

• الثالث: أن المراد بقوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ بما كلفتني أمرا ضللت عنده بالمعصية وهو السجود فسمى ذلك إضلالا منه له توسعا وأنت بالتأمل فيما قدمناه تعرف أن الآية في غنى عن هذا البحث وما أبدئ فيه من الوجوه.

٥. ونظير هذا البحث بحثهم عن الإنظار الواقع في قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ من جهة أنه مفض إلى الإغواء القبيح وترجيح للمرجوح على الراجح:

أ. فقال المجوزون: إن الآية تدل على أن الحسن والقبح اللذين يعلل بهما العقل أفعالنا لا تأثير لهما في أفعاله تعالى فله أن يثيب من يشاء ويعذب من يشاء من غير جهة مرجحة حتى مع رجحان الخلاف، قالوا: ومن زعم أن حكيما يحصر قوما في دار ويرسل فيها النار العظيمة والأفاعي القاتلة الكثيرة ولم يرد أذى أحد من أولئك القوم بالإحراق واللسع فقد خرج عن الفطرة الإنسانية فإذن من حكم الفطرة أن الله تعالى أراد بإنظار إبليس إضلال بعض الناس.

ب. والمانعون يوجهون الإنظار بأنه تعالى كان يعلم من إبليس وأتباعه أنهم يموتون على الكفر والفسوق ويصيرون إلى النار أنظر إبليس أو لم ينظر على أنه تعالى تدارك تأييده ذلك بمزيد ثواب المؤمنين المتقين، على أنه يقول: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ ولو كان الإغواء من الله لأنكره عليه إلى غير ذلك مما أوردوه من الوجوه.

ج. وليت شعري ما الذي أغفلهم عن آيات الامتحان والابتلاء على كثرتها كقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وغيرهما من الآيات الدالة على أن نظام السعادة والشقاء والثواب والعقاب مبني على أساس الامتحان والابتلاء، والإنسان واقع بين الخير والشر والسعادة والشقاء له ما يختاره من العمل بنتائجه.

د. فلو لا أن يكون هناك داع إلى الخير وهم الملائكة الكرام وإن شئت فقل: هو الله، وداع إلى الشر وهم إبليس وقبيله لم يكن للامتحان معنى قال تعالى: ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة: ٢٦٨]

هـ. ولئن أيد الله إبليس على الإنسان بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم فقد أيده عليه بالملائكة الباقين

ببقاء الدنيا ولم يقل سبحانه له: إنك منظر بل قال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ فأثبت منظرين غيره وجعله بعضهم.

و. ولئن أيده بالتمكين بتزيين الباطل من الكفر والفسوق للإنسان أيد الإنسان بأن هداه إلى الحق وزين الإيمان في قلبه وفطرة على التوحيد، وعرفه الفجور والتقوى، وجعل له نورا يمشي به في الناس إن آمن بربه إلى غير ذلك من الأيادي، قال: ﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] وقال: ﴿وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ [الروم: ٣٠] وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨] وقال: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر: ٥١] والتكلم بالغير مشعر بوساطة الملائكة.

ز. فالإنسان خلق هو في نفسه أعزل ليس معه شيء من السعادة والشقاء بحسب بدء خلقته واقف في ملتقى سبيلين: سبيل الخير والطاعة وهو سبيل الملائكة ليس لهم إلا الطاعة، وسبيل الشر والمعصية وهو سبيل إبليس وجنوده وليس معهم إلا المخالفة والمعصية، فإلى أي السبيلين مال في مسير حياته وقع فيه ورافقه أصحابه وزينوا له ما عندهم وهدوه إلى ما ينتهي إليه سبيلهم وهو الجنة أو النار والسعادة أو الشقاء.

ح. فقد بان مما تقدم أن إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم ليس من تقديم المرجوح على الراجح ولا إبطالا لقانون العلية بل ليتيسر به وبما يقابله من بقاء الملائكة ما هو الواجب من أمر الامتحان والابتلاء فلا محل للاستشكال.

٦. ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. أي لأزينن لهم الباطل أو لأزينن لهم المعاصي على ما قيل والمعنى الأول أجمع والمفعول محذوف على أي حال، والظاهر أن المفعول معرض عنه والفعل مستعمل استعمال اللازم، والغرض بيان أصل التزيين كناية عن الغرور يقال: زين له كذا وكذا أي حمله عليه غرورا، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ لآدم وذريته على ما يدل عليه السياق، والمراد بالتزيين لهم في الأرض غرورهم في هذه الحياة الأرضية وهي الحياة الدنيا وهو السبب القريب للإغواء فيكون عطف قوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عليه من عطف المسبب على السبب

المترتب عليه.

ب. والآية تشعر بل تدل على ما قدمناه في تفسير آيات جنة آدم في الجزء الأول من الكتاب أن معصية آدم بالأكل من الشجرة المنهية عن وسوسة إبليس لم تكن معصية لأمر مولوي بل مخالفة لأمر إرشادي لا يوجب نقضا في عصمته فإنه يعرف الأرض في الآية ظرفا لتزيينه وإغوائه فما كان غروره لآدم وزوجته في الجنة إلا ليخرجهما منها وينزلهما إلى الأرض فيتناسلا فيها فيغويهما وبنيهما عن الحق ويضلهم عن الصراط قال تعالى: ﴿يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما﴾ [الأعراف: ٢٧]

٧. ﴿إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾:

أ. استثنى من عموم الإغواء طائفة خاصة من البشر وهم المخلصون، بفتح اللام على القراءة المشهورة، والسياق يشهد أنهم الذين أخلصوا لله وما أخلصهم إلا الله سبحانه، وقد قدمنا في الكلام على الإخلاص في تفسير سورة يوسف أن المخلصين هم الذين أخلصهم الله لنفسه بعد ما أخلصوا أنفسهم لله فليس لغيره سبحانه فيهم شركة ولا في قلوبهم محل فلا يشتغلون بغيره تعالى فما ألقاه إليهم الشيطان من حبائله وتزييناته عاد ذكرا لله مقربا إليه.

ب. ومن هنا يترجح أن الاستثناء إنما هو من الإغواء فقط لا منه ومن التزيين بمعنى أنه لعنه الله يزين للكل لكن لا يغوي إلا غير المخلصين.

ج. ويستفاد من استثناء العباد أولا ثم تفسيره بالمخلصين أن حق العبودية إنما هو بأن يخلص الله العبد لنفسه أي أن لا يملكه إلا هو ويرجع إلى أن لا يرى الإنسان لنفسه ملكا وأنه لا يملك نفسه ولا شيئا من صفات نفسه وآثارها وأعمالها وأن الملك، بكسر الميم وضمها، لله وحده.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ يوم ينفخ في الصور نفخة واحدة، فيموت إبليس ما بين النفخة الأولى والثانية.

ب. وفي تفسير العياشي، عن وهب بن جميع وفي تفسير البرهان، عن شرف الدين النجفي بحذف

الإسناد عن وهب، واللفظ للثاني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن إبليس وقوله: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي يوم هو؟ قال: يا وهب أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس، ولكن الله عز وجل أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا، فيأخذ بناصيته ويضرب عنقه فذلك اليوم هو الوقت المعلوم.

ج. وفي تفسير القمي، بإسناده عن محمد بن يونس عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ إلى قوله: ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال: يوم الوقت المعلوم يذبحه رسول الله ﷺ، على الصخرة التي في بيت المقدس.

• أقول: وهو من أخبار الرجعة وفي معناه ومعنى الرواية السابقة عليه أخبار أخرى من طرق أهل البيت عليه السلام.

• ومن الممكن أن تكون الرواية الأولى من هذه الثلاث الأخيرة صادرة على وجه التقية، ويمكن أن توجه الروايات الثلاث من غير تناف بينها بما تقدم في الكلام على الرجعة في الجزء الأول من الكتاب وغيره أن الروايات الواردة من طرق أهل البيت عليه السلام في تفسير غالب آيات القيامة تفسرها بظهور المهدي عليه السلام تارة وبالرجعة تارة وبالقيامة أخرى لكون هذه الأيام الثلاثة مشتركة في ظهور الحقائق وإن كانت مختلفة من حيث الشدة والضعف فحكم أحدها جار في الآخرين فافهم ذلك.

١٤. الصراط المستقيم والغاوون:

المقطع [١٤] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤١-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٦٥»:

١. ﴿قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾:

أ. ظاهر الكلام على ما يعطيه السياق أنه كناية على أن الأمر إليه تعالى لا غنى فيه عنه بوجه كما أن كون طريق السفينة على البحر يقضي على راكبيها بأن لا مفر لهم مما يستدعيه العبور على الماء من العدة والوسيلة وكذا كون طريق القافلة على الجبل يحوجهم إلى ما يتهيأ به لعبور قلله الشاهقة ومسالكه الصعبة فكونه صراطا عليه تعالى بالاستقامة هو أنه أمر متوقف من كل جهة إلى حكمه وقضائه تعالى فإنه الله الذي

منه يبدأ كل شيء وإليه ينتهي فلا يتحقق أمر إلا وهو ربه القيوم عليه.

ب. وظاهر السياق أيضا أن الإشارة بقوله: ﴿هذا صِراطٌ﴾ إلى قول إبليس: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ لما أظهر بقوله هذا أنه سينتقم منهم ويبسط سلطته بالتزيين والإغواء عليهم جميعا فلا يخلص منهم إلا القليل كأنه يشير إلى أنه سيستقل بما عزم عليه ويعلو بإرادته على الله سبحانه فيما أراد من خلقهم واستخلافهم واستعبادهم كما حكاه الله تعالى من قوله في موضع آخر من قوله: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]

ج. فمعنى الآية أن ما ذكرت من أنك ستغويهم أجمعين واستثنيت منهم من استثنيت وأظهرت نسبته إلى قوتك ومشيئتك زاعما فيه أنك مستقل به، أمر لا يملكه إلا أنا ولا يحكم فيه غيري ولا يصدر إلا عن قضائي فإن أغويت فبإذني أغويت وإن منعت فبمشيئتي منعت فليس إليك من الأمر شيء ولا من الملك إلا ما ملكتك ولا من القدرة إلا ما أقدرتك، والذي أقضيه لك من السلطان أن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك إلخ.

٢. ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾:

أ. هذا هو القضاء الذي أشار سبحانه إليه في الآية السابقة في أمر الإغواء وذكر أنه له وحده ليس لغيره فيه صنع ولا نصيب.

ب. ومحصله أن آدم وبنيه كلهم عباده لا كما قاله إبليس حيث قصر عباده على المخلصين منهم إذ قال: ﴿إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ولم يجعل سبحانه له عليهم، أي على العباد، سلطانا حتى يستقل بأمرهم فيغويهم وإنما جعل له السلطان على طائفة منهم وهم الذين اتبعوه من الغاوين وولوه أمرهم وألقوا إليه زمام تدبيرهم فهؤلاء هم الذين له عليهم سلطان.

٣. فإذا أمعنت في الآية وجدتها ترد على إبليس قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ من ثلاث جهات أصلية:

أ. إحداها: أنه حصر عباده في المخلصين منهم ونفى عنهم سلطان نفسه وعمم سلطانه على الباقين والله سبحانه عمم عباده على الجميع وقصر سلطان إبليس على طائفة منهم وهم الذين اتبعوه من الغاوين ونفى سلطانه على الباقين.

ب. والثانية: أنه لعنه الله ادعى لنفسه الاستقلال في إغوائهم كما يظهر من قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ في سياق المخاصمة والتقريع بالانتقام والله سبحانه يرد عليه بأنه منه مزعمة باطلة وإنما هو عن قضاء من الله وسلطان بتسليطه وإنما ملكه إغواء من اتبعه وكان غاويا في نفسه وبسوء اختياره، فلم يأت إبليس بشيء من نفسه ولم يفسد أمرا على ربه لا في إغوائه أهل الغواية فإنه بقضاء من الله سبحانه أن يستقر لأهل الغواية غيهم بسببه، وقد اعترف لعنه الله بذلك بعض الاعتراف بقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، ولا في استثنائه المخلصين فإنه أيضا بقضاء من الله نافذ فلا حكم إلا لله.

• وهذا الذي تفيده الآية الكريمة أعني تسليط إبليس على إغواء الغاوين الذين هم في أنفسهم غاوون وتخليص المخلصين وهم مخلصون في أنفسهم من كيده كل ذلك بقضاء من الله، مبني على أصل عظيم يفيده التوحيد القرآني المفاد بأمثال قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٧] وقوله: ﴿وَهُوَ اللهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ [القصص: ٧٠] وقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠] وقوله: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على أن كل حكم إيجابي أو سلبي فهو مملوك لله نافذ بقضائه.

• ومن هنا يظهر ما في تفسيرهم قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ من المسامحة فإنهم قالوا: إنه إذا قبل من إبليس واتبعه صار له سلطان عليه بعدوله عن الهدى إلى ما يدعوه إليه من الغي وظاهره أنه سلطان قهري يحصل لإبليس عن سوء اختيارهم ليس من عند نفسه ولا بجعل من الله سبحانه.

• وجه الفساد: أن فيه أخذ الاستقلال والحول الذاتي من إبليس وإعطاؤه ذوات الأشياء ولو كان إبليس لا يملك شيئا من عند نفسه وبغير إذن ربه فالأشياء والأمور أيضا لا تملك لنفسها شيئا ولا حكما حتى الضروريات ولوازم الذوات إلا بإذن من الله وتمليك فافهمه.

ج. والثالثة: أن سلطانه على إغواء من يغويه وإن كان بجعل وتسليط من الله سبحانه إلا أنه ليس بتسليط على الإغواء والإضلال الابتدائي غير الجائز إسناده إلى ساحته سبحانه بل تسليط على الإغواء بنحو المجازاة المسبوق بغواياتهم من عندهم وفي أنفسهم.

• والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ فإبليس إنما يغوي من اتبعه بغوايته أي إن الإنسان يتبعه بغوايته أولا فيغويه هو ثانيا فهناك غواية بعدها إغواء والغواية إجرام من الإنسان

والإغواء بسبب إبليس مجازاة من الله سبحانه.

• ولو كان هذا الإغواء إغواء ابتدائيا من إبليس لمن لا يستحق ذلك لكان هو الأليق باللوم دون الإنسان كما يذكره يوم القيامة على ما يحكيه سبحانه بقوله: ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فاللوم على الإنسان المجرم وهو مسئول عن معصيته دون إبليس.

• نعم إبليس ملوم على ما يتلبس به من الفعل بسوء اختياره وهو الإغواء الذي سلطه الله عليه مجازاة لما امتنع من السجود لآدم لما أمر به فالإغواء هو الذي استقرت ولايته عليه كما يشير سبحانه إليه في موضع آخر من كلامه إذ يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى وهو أوضح ما يؤيد جميع ما قدمناه: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]

٤. وقد تحصل مما تقدم:

أ. أن المراد بقوله: ﴿عِبادِي﴾ عامة الإنسان، وأن الاستثناء في قوله: ﴿مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ متصل لا منقطع، وأن ﴿مَنِ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الْغاوِينَ﴾ بيانية، وأن الكلام مبني على رد قول إبليس، وأن الآية مشتملة على قضاءين من الله سبحانه في عقدي المستثنى والمستثنى منه وغير ذلك.

ب. ومن ذلك يظهر عدم استقامة قول بعضهم: (إن المراد بعبادي هم الذين استثناهم إبليس وعبر عنهم بقوله: ﴿عِبادَكَ مِنْهُمُ﴾ فيكون الاستثناء منقطعا والكلام مسوقا لتقرير قول إبليس إن له سلطانا على من يغويه وإن المخلصين لا سبيل له إليهم والمعنى أن المخلصين لا سلطان لك عليهم لكنك مسلط على من اتبعك من الغاوين.

ج. وأنت تعلم بالتأمل فيما تقدم أن هذا هدم لأساس السياق وما يعطيه مقام المخاصمة وتحق نسبته إلى ساحة العزة والكبرياء وتنزيل خطابه تعالى منزلة لا يفيد معها أكثر من تغيير صورة كلام إبليس مع حفظ معناه تقريرا أو اعترافا فهو يقول: سأغويهم إلا المخلصين، والله سبحانه يقول: لا تغوي المخلصين لكن تغوي غيرهم:

٥. وربما فسر بعضهم قوله: ﴿عِبادِي﴾ بجميع البشر وأخذ مع ذلك الاستثناء منقطعا ولعل ذلك

بالبناء على عدم جواز استثناء أكثر الأفراد فلا يقال: له على مائة إلا تسعة وتسعون مثلا ومن المعلوم أن الغاوين من الناس أكثر من المخلصين بما لا يقاس.

• وفيه أن ذلك إنما هو فيما كان النظر في الاستثناء إلى صريح العدد وأما إذا كان المنظور إليه هو النوع أو الصنف بعنوانه فلا بأس بزيادة عدد الأفراد، وللإنسان عدة أصناف: المخلصون ومن دونهم من المؤمنين والمستضعفون والذين اتبعوا إبليس من الغاوين، وقد استثنى الصنف الأخير في الآية بعنوانه وبقي الباقون وهم أصناف.

٦. ومنهم من جعل الاستثناء منقطعا حذرا من ثبوت سلطان إبليس حتى على الغاوين زعما منه أنه ينافي إطلاق السلطنة الإلهية أو عدله تعالى ومعنى الآية على هذا، أن عبادي ليس لك عليهم سلطان لكن من اتبعك من الغاوين ألقى إليك زمام نفسه وجعل لك على نفسه سلطانا وليس ذلك من نفسك حتى تعجز الله في خلقه ولا من الله حتى ينافي عدله تعالى.

• وفيه: أن له سلطانا على الغاوين لا من نفسه بل بجعل من الله ولا ينافي ذلك عدله في خلقه فإنه تسليط مجازاة لا تسليط ابتدائي، ولا منافاة بين كون السلطان بقضاء منه تعالى وكونه باتباع الغاوين له باختيارهم فكل ذلك مما قد تبين فيما قدمناه.

• على أن قوله تعالى فيه: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج: ٤] وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] يدلان صريحا على ثبوت سلطانه وأنه بجعل من الله سبحانه وقضاء.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: أرأيت قول الله: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾؟ ما تفسير هذا؟ قال: قال الله: إنك لا تملك أن تدخلهم جنة ولا نارا.

١٥. لجهنم أبواب ولكل منهم جزء مقسوم:

المقطع [١٥] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٦٩»:

١. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الظاهر أن ﴿موعد﴾ اسم مكان والمراد بكون جهنم موعدهم

كونه محل إنجاز ما وعدهم الله من العذاب، وهذا منه سبحانه تأكيد لثبوت قدرته ورجوع الأمر كله إليه كأنه تعالى يقول له: ما ذكرته من السلطان على الغاوين ليس لك من نفسك ولم تعجزنا بل نحن سلطناك عليهم لاتباعهم لك على أنا سنجازيهم بعذاب جهنم، ولكون الكلام مسوقا لبيان حالهم اقتصر على ذكر جزائهم ولم يذكر معهم إبليس ولا جزاءه بخلاف قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقوله: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً﴾ [الإسراء: ٦٣] لأن المقام غير المقام.

٢. ﴿لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾:

أ. لم يبين سبحانه في شيء من صريح كلامه ما هو المراد بهذه الأبواب أهي كأبواب الحيطان مداخل تهدي الجميع إلى عرصة واحدة أم هي طبقات ودركات تختلف في نوع العذاب وشدته؟

ب. وكثيرا ما يسمى في الأمور المختلفة الأنواع كل نوع بابا كما يقال: أبواب الخير وأبواب الشر وأبواب الرحمة، قال تعالى: ﴿فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] وربما سمي أسباب الشيء وطرق الوصول إليه أبوابا كأبواب الرزق لأنواع المكاسب والمعاملات.

ج. وليس من البعيد أن يستفاد المعنى الثاني من متفرقات آيات النار كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها﴾، إلى أن قال: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها﴾ [الزمر: ٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] إلى غير ذلك من الآيات.

د. ويؤيده قوله: ﴿لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ فإن ظاهره أن نفس الجزء مقسوم موزع على الباب، وهذا إنما يلائم الباب بمعنى الطبقة دون الباب بمعنى المدخل وأما تفسير بعضهم الجزء المقسوم بالفريق المعين المفروز من غيره فوهنه ظاهر.

هـ. وعلى هذا فكون جهنم لها سبعة أبواب هو كون العذاب المعد فيها متنوعا إلى سبعة أنواع ثم انقسام كل نوع أقساما حسب انقسام الجزء الداخل الماكث فيه، وذلك يستدعي انقسام المعاصي الموجبة للدخول فيها سبعة أقسام، وكذا انقسام الطرق المؤدية والأسباب الداعية إلى تلك المعاصي ذاك الانقسام، وبذلك يتأيد ما ورد من الروايات في هذه المعاني كما سيوافيك إن شاء الله.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوابٍ﴾ الآية، قال: قال: يدخل في كل باب أهل مذهب، وللجنة ثمانية أبواب.

ب. أخرج أحمد في الزهد عن خطاب بن عبد الله قال: قال علي: أتدرون كيف أبواب جهنم قلنا كنحو هذه الأبواب، قال: لا، ولكنها هكذا ووضع يده فوق يده وبسط يده على يده.

ج. أخرج ابن المبارك وهناد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث من طرق عن علي قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملأ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى يملأ كلها.

د. أخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ قال: جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله.

- أقول: هو تعداد أجزاء الأبواب دون نفسها، والظاهر أن الكلام غير مسوق للحصر.

هـ. أخرج ابن مردويه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: لجهنم باب لا يدخل منه إلا من أخفرني في أهل بيتي، وأراق دماءهم من بعدي.

- أقول: يقال: خفره أي غدر به ونقض عهده.

و. أخرج أحمد وابن حبان والطبري وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عتبة بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: للجنة ثمانية أبواب وللنار سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض.

- أقول: والروايات، كما ترى، تؤيد من قدمناه.

١٦. المتقون في جنات وعيون آمنين:

المقطع [١٦] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٧١»:

١. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾:

أ. أي إنهم مستقرون في جنات وعيون يقال لهم: ادخلوها بسلام لا يوصف ولا يكتنه نعته في حال كونكم آمنين من كل شر وضر.

ب. لما ذكر سبحانه قضاءه فيمن اتبع إبليس من الغاوين ذكر ما قضى به في حق المتقين من الجنة، وقد ورد تفسير التقوى في كلامه ﷺ بالورع عن محارم الله، وقد تكرر في كلامه تعالى بشراهم بالجنة فيكون المتقون أعم من المخلصين.

ج. وما قيل: إنه لا شبهة في أن السياق يدل على أن المتقين هم المخلصون السابق ذكرهم، وأن المطلق يحمل على الفرد الكامل.

د. فيه أن ذلك مبني على كون المراد بالعباد في قوله: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ هم المخلصين حتى يختص السياق بالكلام فيهم، وقد تقدم أن المراد بالعباد عامة أفراد الإنسان خرج منه الغاوون بالاستثناء وبقي الباقون، وقد ذكر سبحانه قضاءه في الغاوين بالنار وهو ذا يذكر قضاءه في غيرهم ممن أوجب له الجنة والأمر في المستضعفين مرجأ وفي العصاة من أهل الكبائر الذين يموتون بغير توبة منوط بالشفاعة فيبقى أهل التقوى من المؤمنين وهم أعم من المخلصين فقضي فيهم بالجنة.

هـ. وأما حديث حمل المطلق على الفرد الكامل فهو خطأ وإنما يحمل على الفرد المتعارف وتفصيل المسألة في فن الأصول.

و. وذكر الإمام الرازي في تفسيره أن المراد بالمتقين في الآية الذين اتقوا الشرك ونقله عن جمهور الصحابة والتابعين وأسنده إلى الخبر، قال: وهذا هو الحق الصحيح والذي يدل عليه أن المتقي هو الآتي بالتقوى مرة واحدة كما أن الضارب هو الآتي بالضرب مرة فليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى، والذي يقرر ذلك أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى فإن الفرد مشتمل على الماهية بالضرورة وكل آت بالتقوى يجب أن يكون متقيا فالآتي بفرد يجب كونه متقيا، ولهذا قالوا: ظاهر الأمر لا يفيد التكرار، فظاهر الآية يقتضي حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن ذنب واحد، إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم، وأيضا هذه الآية وردت عقيب قول إبليس: ﴿إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ عقيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ فلذا اعتبر الإيمان في هذا الحكم فوجب أن لا يزاد فيه قيد آخر لأن تخصيص العام لما كان خلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق بمقتضى الأصل والظاهر، فثبت أن الحكم المذكور يتناول جميع القائلين: لا إله إلا الله محمد رسول الله ولو كانوا من أهل المعصية، وهذا تقرير بين وكلام ظاهر)

• ومقتضى كلامه شمول الآية لمن اتقى الشرك ولو اقترف جميع الكبائر الموبقة التي نص الكتاب العزيز باستحقاق النار بإتيانها وترك جميع الواجبات التي نص على تركها بمثله، والمستأنس بكلامه تعالى المتدبر في آياته لا يرتاب في أن القرآن لا يسمي مثل هذا متقيا ولا يعده من المتقين، وقد أكثر القرآن ذكر المتقين وبشرهم بالجنة بشارة صريحة فيما يقرب من عشرين موضعا وصفهم في كثير منها باجتناب المحارم وبذلك فسر التقوى في الحديث كما تقدم.

• ثم إن مجرد صحة إطلاق الوصف أمر والتسمية أمر آخر فلا يسمى بالمؤمنين والمحسنين والقانتين والمخلصين والصابرين وخاصة في الأوصاف التي تحتمل البقاء والاستمرار إلا من استقر فيه الوصف، ولو صح ما ذكره في المتقين لجرى مثل ذلك في الظالمين والفاسقين والمفسدين والمجرمين والغاوين والضالين وقد أوعدهم الله النار، وأدى ذلك إلى تدافع عجيب واختلال في كلامه تعالى، ولو قيل: إن هناك ما يصرف هذه الآيات أن تشمل المرة والمرتين كآيات التوبة والشفاعة ونظائرها فهناك ما يصرف هذه الآية أن تشمل المتقي بالمرة والمرتين وهي نفس آيات الوعيد على الكبائر الموبقة كآيات الزنا والقتل ظلما والربا وأكل مال اليتيم وأشباهها.

• ثم الذي ذكره في تقريب الدلالة وجوه واهية كقوله: إن هذه الآية وقعت عقيب قول إبليس إلخ، فإنك قد عرفت فيما تقدم أن ذلك لا ينفعه شيئا، وكقوله: إن زيادة قيد آخر بعد الإيمان خلاف الأصل، فإن الأصل إنما يركن إليه عند عدم الدليل اللفظي وقد عرفت أن هناك آيات جمة صالحة للتقييد، وكقوله: إن ذلك خلاف الظاهر، وكأنه يريد به ظهور المطلق في الإطلاق، وقد ذهب عليه أن ظهور المطلق إنما هو حجة فيما إذا لم يكن هناك ما يصلح للتقييد.

٢. فالحق أن الآية إنما تشمل الذين استرقت فيهم ملكة التقوى وهو الورع عن محارم الله فأولئك هم المقضي عليهم بالسعادة والجنة قضاء لازما، نعم المستفاد من الكتاب والسنة أن أهل التوحيد وهم من حضر الموقف بشهادة أن لا إله إلا الله لا يخلدون في النار ويدخلون الجنة لا محالة، وهذا غير دلالة آية المتقين على ذلك.

٣. ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الغل الحقد.

وقيل: هو ما في الصدر من حقد وحسد مما يبعث الإنسان إلى إضرار الغير، والسرر جمع سرير والنصب هو التعب والعي الوارد من خارج.

ب. يصف تعالى في الآيتين حال المتقين في سعادتهم بدخول الجنة، اختص بالذكر هذه الأمور من بين نعم الجنة على كثرتها فإن العناية باقتضاء من المقام متعلقة ببيان أنهم في سلام وأمن مما ابتلي به الغاوون من بطلان السعادة وذهاب السيادة والكرامة فذكر أنهم في أمن من قبل أنفسهم لأن الله نزع ما في صدورهم من غل فلا يهم الواحد منهم بصاحبه سوء بل هم إخوان على سرر متقابلين ولتقابلهم معنى سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى وأنهم في أمن من ناحية الأسباب والعوامل الخارجة فلا يمسهم نصب أصلا وأنهم في أمن وسلام من ناحية ربهم فما هم من الجنة بمخرجين أبدا فلهم السعادة والكرامة من كل جهة، ولا يغشاهم ولا يمسهم شقاء ووهن من جهة أصلا لا من ناحية أنفسهم ولا من ناحية سائر ما خلق الله ولا من ناحية ربهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ﴾ الآية، قال: قال العداوة.

ب. وفي تفسير البرهان، عن الحافظ أبي نعيم عن رجاله عن أبي هريرة قال: قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله أيما أنا أحب إليك أم فاطمة، قال: فاطمة أحب إلي منك وأنت أعز علي منها، وكأني بك وأنت على حوضي تذود عنه الناس، وإن عليه أباريق عدد نجوم السماء، وأنت والحسن والحسين وحمزة وجعفر في الجنة، إخوانا على سرر متقابلين وأنت معي وشيعتك، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ لا ينظر أحدكم في قفاء صاحبه.

ج. وفيه، عن ابن المغازلي في المناقب يرفعه إلى زيد بن أرقم قال: دخلت على رسول الله ﷺ قال: إني مواخ بينكم كما آخى الله بين الملائكة، ثم قال لعلي: أنت أخي ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ الأخلاء في الله ينظر بعضهم إلى بعض:

• أقول: ورواه أيضا عن أحمد في مسنده مرفوعا إلى زيد بن أوفى عن النبي ﷺ والرواية مبسوطة.

• وفي الروايتين تفسير قوله تعالى: ﴿عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ بقوله: لا ينظر أحدهم في قفاء صاحبه، وقوله: الأخلاء في الله ينظر بعضهم إلى بعض وفيه إشارة إلى أن التقابل في الآية كناية عن عدم تتبع أحدهم

عورات إخوانه وزلاتهم كما يفعل ذلك من في صدره غل وهو معنى لطيف.

• وما قرأه النبي ﷺ من الآية إنما هو من باب الجري والانطباق لا أن الآية نازلة في أهل البيت عليه السلام فسياق الآيات لا يلائمه البتة.

• ونظيرها ما روي عن علي عليه السلام: أن الآية نزلت فينا أهل بدر، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: أنها نزلت في أبي بكر وعمر، وفي رواية أخرى عن علي بن الحسين عليه السلام: أنها نزلت في أبي بكر وعمر وعلي، وفي رواية أخرى: أنها نزلت في علي والزبير وطلحة، وفي رواية أخرى: أنها نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: أنها نزلت في عشرة: أبي بكر وعمر وعثمان، وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود.

• والروايات، على ما بها من الاختلاف، تطبيقات من الرواة، والآية تأبى بسياقها عن أن تكون نازلة في بعض المذكورين كيف؟ وهي في جملة آيات تقص ما قضاه الله وحكم به يوم خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له فأبى إبليس فرجمه ثم قضى ما قضى، ولا تعلق لذلك بأشخاص بخصوصيتهم هذا.

١٧ . الله غفور رحيم وعذابه هو العذاب الأليم:

المقطع [١٧] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٧٩»:

١ . ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾:

أ. المراد بقوله: ﴿عِبادِي﴾ على ما يفيده سياق الآيات مطلق العباد ولا يعبأ بما ذكره بعضهم: (أن المراد بهم المتقون السابق ذكرهم أو المخلصون)

ب. وتأكيد الجملتين بالاسمية وإن وضمير الفصل واللام في الخبر يدل على أن الصفات المذكورة فيها أعني المغفرة والرحمة وألم العذاب بالغة في معناها النهاية بحيث لا تقدر بقدر ولا يقاس بها غيرها، فما من مغفرة أو رحمة إلا ويمكن أن يفرض لها مانع يمنع من إرسالها أو مقدر يقدرها ويحدها، لكنه سبحانه يحكم لا معقب لحكمه ولا مانع يقاومه فلا يمنع عن إنجاز مغفرته ورحمته شيء ولا يحدهما أمر إلا أن يشاء ذلك هو جل وعز، فليس لأحد أن ييأس من مغفرته أو يقنط من روحه ورحمته استنادا إلى مانع يمنع أو رادع يردع إلا أن يخافه تعالى نفسه كما قال: ﴿لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]

ج. وليس لأحد أن يحقر عذابه أو يؤمل عجزه أو يأمن مكره والله غالب على أمره ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال: مر النبي ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون قال: اذكروا الجنة واذكروا النار فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

• أقول: وفي معناه روايات أخر لكن في انطباق معنى الآية على ما ذكر فيها من السبب خفاء.

١٨. قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم له بغلام عليم:

المقطع [١٨] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥١ـ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٨٠»:

١. ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ﴾ الضيف معروف ويطلق على المفرد والجمع وربما يجمع على أضياف وضيوف وضيفان لكن الأفصح، كما قيل، أن لا يثنى ولا يجمع لكونه مصدرا في الأصل، والمراد بالضيف الملائكة المكرمون الذين أرسلوا لبشارة إبراهيم بالولد ولهلاك قوم لوط سماهم ضيفا لأنهم دخلوا عليه في صورة الضيف.

٢. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾:

أ. ضمير الجمع في ﴿دَخَلُوا﴾ و﴿فَقالُوا﴾ في الموضعين للملائكة فقولهم: ﴿سَلاماً﴾ تحية وتقديره نسلم عليك سلاما وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفون والوجل: الخوف.

ب. وإنما قال لهم إبراهيم ذلك بعد ما استقر بهم المجلس وقدم إليهم عجلا حنيذا فلم يأكلوا منه فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة كما في سورة هود فالقصة مذكورة على نحو التلخيص.

ج. وقولهم: ﴿لا تَوْجَلْ﴾ تسكين لوجله وتأمين له وتطييب لنفسه بأنهم رسل ربه وقد دخلوا عليه ليبشروه بغلام عليم أي بولد يكون غلاما وعليما، ولعل المراد كونه عليما بتعليم الله ووحيه فيقرب من قوله

في موضع آخر: ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢]

٣. ﴿قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾:

أ. تلقى إبراهيم عليه السلام البشرى وهو شيخ كبير هرم لا عقب له من زوجه وقد أيئسته العادة الجارية عن الولد وإن كان يجل أن يقنط من رحمة الله ونفوذ قدرته، ولذا تعجب من قولهم واستفهمهم كيف يبشرونه بالولد وحاله هذه الحال؟ وزوجه عجوز عقيم كما وقع في موضع آخر من كلامه تعالى.

ب. فقوله: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ الكبر كناية عن الشيخوخة ومسه هو نيله منه ما نال بإفناء شبابه وإذهاب قواه، والمعنى إني لأتعجب من بشارتكم إياي والحال أني شيخ هرم فني شبابي وفقدت قوى بدني، والعادة تستدعي أن لا يولد لمن هذا شأنه ولد.

ج. ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ تفريع على قوله: ﴿مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ وهو استفهام عما بشروه به كأنه يشك في كون بشارتهم بشرى بالولد مع تصريحهم بذلك لا استبعاد ذلك فيسأل ما هو الذي تبشرون به؟ فإن الذي يدل عليه ظاهر كلامكم أمر عجيب، وهذا شائع في الكلام يقول الرجل إذا أخبر بما يستبعده أو لا يصدقه: ما تقول؟ وما تريد؟ وما ذا تصنع؟

٤. ﴿قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الباء في ﴿بِالْحَقِّ﴾ للمصاحبة أي إن بشارتنا ملازمة للحق غير منفكة منه فلا تدفعها بالاستبعاد فتكون من القانطين من رحمة الله وهذا، جواب للملائكة وقد قابلهم إبراهيم عليه السلام على نحو التكنية فقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ والاستفهام إنكاري أي إن القنوط من رحمة الله مما يختص بالضالين ولست أنا بضال فليس سؤالي سؤال قانط مستبعد.

٥. ﴿قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ الخطب الأمر الجليل والشأن العظيم، وفي خطابهم بالمرسلين دلالة على أنهم ذكروا له ذلك قبلا، ومعنى الآية ظاهر.

٦. ﴿قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ قال في المفردات: (الغابر الماكث بعد مضي من هو معه قال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ﴾ يعني فيمن طال أعمارهم، وقيل: فيمن بقي ولم يسر مع لوط، وقيل: فيمن بقي بعد في العذاب، وفي آخر: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ وفي آخر: ﴿قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ إلى أن قال، والغبار ما يبقى من التراب المثار وجعل على بناء الدخان والعثار

ونحوهما من البقايا) انتهى ولعله من هنا ما ربما يسمى الماضي والمستقبل معا غابرا أما الماضي فبعناية أنه بقي فيما مضى ولم يتعد إلى الزمان الحاضر وأما المستقبل فبعناية أنه باق لم يفن بعد كالماضي.

٧. والآيات جواب الملائكة لسؤال إبراهيم: ﴿قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا﴾ من عند الله سبحانه ﴿إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ نكروهم ولم يسموهم صونا للسان عن التصريح باسمهم تنفرا منه ومستقبل الكلام يعينهم ثم استثنوا وقالوا: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وهم لوط وخاصته وظهر به أن القوم قومه ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ أي مخلصوهم من العذاب ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وظاهر السياق كون الاستثناء منقطعا.

٨. ثم استثنوا امرأة لوط من آله للدلالة على أن النجاة لا تشملها وأن العذاب سيأخذها ويهلكها فقالوا ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ أي الباقين من القوم بعد خروج آل لوط من قريتهم.

٩. وقد تقدم تفصيل قول في ضيف إبراهيم عليه السلام في سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب وعقدنا هناك بحثا مستقلا فيه.

١٩. الملائكة تخبر إبراهيم بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط:

المقطع [١٩] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٥٧ـ٦٠]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يسأل إبراهيم عليه السلام الملائكة الذين أتوه بالبشارة عن سبب مجيئهم، فيخبرونه أنهم أُرسلوا إلى قوم لوط المجرمين المهلكين، ليُهلِكوهم بالعذاب، لكنهم يُنجون لوطًا وآله جميعًا من المؤمنين، باستثناء امرأته التي قدّروا أنها ستهلك مع الباقين لكونها على كفرهم وموافقتهم، فتكون من الهالكين.

٢. وهي تشير إلى:

أ. أن عذاب الله لا ينزل إلا على المجرمين المستحقين، وأن سنته في الأمم إرسال الرسل وإنذارهم قبل الإهلاك.

ب. فضيلة لوط عليه السلام وإكرامه بالنجاة رغم إحاطة الفساد بقومه، فهو نبي مخلص.

ج. أن الزوجة إذا خالفت دين زوجها فلا تنفعها صحبته ولا قرابته، وأن النجاة تكون بالإيمان لا بالانتساب.

د. أن القدر الإلهي قد سبق بأن امرأة لوط ستهلك مع الهالكين، لعلمه بأنها ستبقى على كفرها وتخون أهلها.

هـ. أن رحمة الله تغلب غضبه، فالملائكة جاءت بالعذاب للقوم المجرمين، وبالنجاة للمؤمنين.

٢٠. لوط يستضيف الملائكة:

المقطع [٢٠] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آَلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦١-٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٨٢»:

١. ﴿فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ إنما قال لهم لوط عليه السلام ذلك لكونهم ظاهرين بصور غلمان مرد حسان وكان يشقه ما يراه منهم وشأن قومه شأنهم من الفحشاء كما تقدم في سورة هود والمعنى ظاهر.

٢. ﴿قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ الامتراء من المرية وهو الشك، والمراد بما كانوا فيه يمترون العذاب الذي كان ينذرهم به لوط وهم يشكون فيه، والمراد بإتيانهم بالحق إتيانهم بقضاء حق في أمر القوم لا معدل عنه كما وقع في موضع آخر من قولهم: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦] وقيل: المراد (وأتيناك بالعذاب الذي لا شك فيه) وما ذكرناه هو الوجه.

٣. وفي آيات القصة تقديم وتأخير:

أ. لا بمعنى اختلال ترتيبها بحسب النزول عند التأليف بوضع ما هو مؤخر في موضع المقدم وبالعكس بل بمعنى ذكره تعالى بعض أجزاء القصة في غير محله الذي يقتضيه الترتيب الطبعي وتعينه له سنة الاقتصاص لنكتة توجب ذلك.

ب. وترتيب القصة بحسب أجزائها على ما ذكرها الله سبحانه في سورة هود وغيرها والاعتبار يساعد ذلك مقتضاه أن يكون قوله: ﴿فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ﴾ إلى تمام آيتين قبل سائر الآيات، ثم قوله: ﴿وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ إلى تمام ست آيات، ثم قوله: ﴿قالُوا بَلْ جِئْناكَ﴾ إلى تمام أربع آيات، ثم قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ إلى آخر الآيات.

ج. وحقيقة هذا التقديم والتأخير أن للقصة فصولا أربعة وقد أخذ الفصل الثالث منها فوضع بين الأول والثاني أعني أن قوله: ﴿وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ إلى آخره أخر في الذكر ليتصل آخره وهو قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ بأول الفصل الأخير: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ وذلك ليتمثل به الغرض في الاستشهاد بالقصة وينجلي أوضح الانجلاء وهو نزول عذاب هائل كعذابهم في حال سكرة منهم وأمن منه لا يخطر ببالهم شيء من ذلك وذلك أبلغ في الدهشة وأوقع في الحسرة يزيد في العذاب ألما على ألم.

د. ونظير هذا في التلويح بهذه النكتة ما في آخر قصة أصحاب الحجر الآتية من اتصال قوله: ﴿وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ كل ذلك ليجلي معنى قوله تعالى في صدر المقال: ﴿وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾ فافهم ذلك.

٤. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾:

أ. إلى آخر الآية، الإسراء هو السير بالليل، فقوله: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ يؤكده وقطع الليل شطر مقطوع منه، والمراد باتباعه أدبارهم هو أن يسير وراءهم فلا يترك أحدا يتخلف عن السير ويحملهم على السير الحثيث كما يشعر به قوله: ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾

ب. والمعنى: وإذ جئناك بعذاب غير مردود وأمر من الله ماض يجب عليك أن تسير بأهلك ليلا وتأخذ أنت وراءهم لئلا يتخلفوا عن السير ولا يساهلوا فيه ولا يلتفت أحد منكم إلى ورائه وامضوا حيث تؤمرون، وفيه دلالة على أنه كانت أمامهم هداية إلهية تهديهم وقائد يقودهم.

٥. ﴿وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾:

أ. القضاء مضمن معنى الوحي ولذا عدي بإلى، كما قيل، والمراد بالأمر أمر العذاب كما يفسره قوله: ﴿أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ والإشارة إليه بلفظة ﴿ذلِكَ﴾ للدلالة على عظم خطره وهول أمره.

ب. والمعنى: وقضينا أمرنا العظيم في عذابهم موحيا ذلك إلى لوط وهو أن دابر هؤلاء وأثرهم الذي من شأنه أن يبقى بعدهم من نسل وبناء وعمل مقطوع حال كونهم مصبحين أو التقدير أوحينا إليه قاضيا، إلخ.

٢١. لوط يدعو قومه إلى تقوى الله:

المقطع [٢١] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٦٧-٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٨٥»:

١. ﴿وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾:

أ. يدل نسبة المجيء إلى أهل المدينة على كونهم جماعة عظيمة يصح عدهم أهل المدينة لكثرتهم.

ب. فالمعنى ﴿وَجاءَ﴾ إلى لوط ﴿أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ جمع كثير منهم يريدون أضيافه وهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لولعهم بالفحشاء وخاصة بالداخلين في بلادهم من خارج فاستقبلهم لوط مدافعا عن أضيافه ﴿قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ﴾ بالعمل الشنيع بهم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ قالُوا﴾ المهاجمون من أهل المدينة: ألم نقطع عذرك في إيوائهم ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ أن تؤويهم وتشفع فيهم وتدافع عنهم فلما يئس لوط عليه السلام منهم عرض عليهم بناته أن ينصرفوا عن أضيافه بنكاحهن، كما تقدم بيانه في سورة هود ﴿قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾

٢. ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾:

أ. قال في المفردات: (العمارة ضد الخراب، قال: والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة فهو دون البقاء فإذا قيل: طال عمره فمعناه عمارة بدنه بروحه، وإذا قيل: بقاؤه فليس يقتضي ذلك فإن البقاء ضد الفناء، ولفضل البقاء على العمر وصف الله به وقلما وصف بالعمر قال: والعمر، بالضم، والعمر، بالفتح، واحد لكن خص القسم بالعمر، بالفتح، دون العمر، بالضم، نحو ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾)

ب. والخطاب في ﴿لَعَمْرُكَ﴾ للنبي ﷺ فهو قسم ببقائه وقول بعضهم: (إنه خطاب من الملائكة للوط عليه السلام وقسم بعمره لا دليل عليه من سياق الآيات.

ج. والعمه هو التردد على حيرة والسجيل حجارة العذاب وقد تقدم تفصيل القول في معناه في تفسير سورة هود.

د. والمعنى أقسم بحياتك وبقائك يا محمد إنهم لفي سكرتهم وهي غفلتهم بانغمارهم في الفحشاء والمنكر يترددون متحيرين.

٢٢. قوم لوط والصيحة والحجارة من سجيل:

المقطع [٢٢] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٨٥»:

١. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وهي الصوت الهائل ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي حال كونهم داخلين في إشراق الصبح فجعلنا عالي بلادهم سافلها وفوقها تحتها وأمطرنا وأنزلنا من السماء عليهم حجارة من سجيل.

٢. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية:

أ. العلامة والمراد بالآيات أولا العلامات الدالة على وقوع الحادثة من بقايا الآثار وبالآية ثانيا العلامة الدالة للمؤمنين على حقية الإنذار والدعوة الإلهية والتوسم التفرس والانتقال من سيماء الأشياء على حقيقة حالها.

ب. والمعنى: أن في ذلك أي فيما جرى من الأمر على قوم لوط وفي بلادهم لعلامات من بقايا الآثار للمتفرسين وإن تلك العلامات لبسبيل للعابرين مقيم لم تعف ولم تنمح بالكلية بعد، إن في ذلك لآية للمؤمنين تدل على حقية الإنذار والدعوة وقد تبين بذلك وجه إيراد الآيات جمعا ومفردا في الموضعين.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد في قوله: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين} قال: هم المتفرسون.

ب. أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معا في الطب وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال المتفرسين.

ج. وفي اختصاص المفيد، بإسناده عن أبي بكر بن محمد الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: ما من مخلوق إلا وبين عينيه مكتوب مؤمن أو كافر، وذلك محجوب عنكم وليس بمحجوب عن الأئمة من آل محمد، ثم ليس يدخل عليهم أحد إلا عرفوه مؤمنا أو كافرا، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ فهم المتوسمون.

• أقول: والروايات في هذا المعنى متظافرة متكاثرة، وليس معناها نزول الآية فيهم عليه السلام.

٢٣. أصحاب الأيكة والظلم والانتقام الإلهي:

المقطع [٢٣] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٨٥»:

١. ﴿وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ﴾ إلى ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾:

أ. الأيكة واحدة الأيك وهو الشجر الملتف بعضه ببعض فقد كانوا، كما قيل، في غيضة أي بقعة كثيفة الأشجار.

ب. وهؤلاء، كما ذكروا، هم قوم شعيب عليه السلام أو طائفة من قومه كانوا يسكنون الغيضة، ويؤيده قوله تعالى ذيلا: ﴿وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾ أي مكانا قوم لوط وأصحاب الأيكة لفي طريق واضح فإن الذي على طريق المدينة إلى الشام هي بلاد قوم لوط وقوم شعيب الخربة أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم لدعوة شعيب عليه السلام وقد تقدمت قصتهم في سورة هود وقوله: ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ﴾ الضمير لأصحاب الأيكة وقيل: لهم ولقوم لوط، ومعنى الآيتين ظاهر.

٢. أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا.

• أقول: وقد أوردنا ما يجب إيراده من الروايات في قصة بشرى إبراهيم وقصص لوط وشعيب وصالح عليه السلام في تفسير سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب واكتفينا بذلك عن إيرادها هاهنا فليرجع إلى هناك.

٢٤. أصحاب الحجر وتكذيب المرسلين:

المقطع [٢٤] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٨٥»:

١. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح والحجر اسم بلدة كانوا يسكنونها وعدهم مكذبين لجميع المرسلين وهم إنما كذبوا صالحا

المرسل إليهم إنما هو لكون دعوة الرسل دعوة واحدة والمكذب لواحد منهم مكذب للجميع.

٢. ﴿وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ إن كان المراد بالآيات المعجزات والخوارق، كما هو الظاهر، فالمراد بها الناقة وشربها وما ظهر لهم بعد عقرها إلى أن أهلكوا، وقد تقدمت القصة في سورة هود، وإن كان المراد بها المعارف الإلهية التي بلغها صالح عليه السلام ونشرها فيهم أو المجموع من المعارف الحقة والآية المعجزة فالأمر واضح.

٣. ﴿وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ أي كانوا يسكنون الغيران والكهوف المنحوتة من الحجارة آمنين من الحوادث الأرضية والسماوية بزعمهم.

٤. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي صيحة العذاب التي كان فيها هلاكهم، وقد تقدمت الإشارة إلى مناسبة اجتماع الأمن مع الصيحة في الآيتين لقوله في صدر الآيات: ﴿وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾

٥. ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي من الأعمال لتأمين سعادتهم في الحياة.

٢٥. الخلق والحق والساعة والصفح:

المقطع [٢٥] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٨٨»:

١. ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ الباء في قوله: ﴿بِالْحَقِ﴾ للمصاحبة أي إن خلقها جميعا لا ينفك عن الحق ويلازمه فللخلق غاية سيرجع إليها قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ [العلق: ٨] ولولا ذلك لكان لعبا باطلا قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] وقال: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ [ص: ٢٧] ومن الدليل على كون المراد بالحق ما يقابل اللعب الباطل تذييل الكلام بقوله: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ وهو ظاهر، وبذلك:

أ. يظهر فساد ما ذكره بعضهم أن المراد بالحق العدل والإنصاف والباء للسببية والمعنى ما خلقنا ذلك إلا بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء بالأعمال، وذلك أن كون الحق في الآية بمعنى العدل

والإنصاف لا شاهد عليه من اللفظ على أن الذي ذكره من المعنى إنما يلائم كون الباء بمعنى لام الغرض أو للمصاحبة دون السببية.

ب. وكذا ما ذكره بعضهم أن الحق بمعنى الحكمة وأن الجملة الأولى ﴿وَما خَلَقْنَا﴾، ناظرة إلى العذاب الدنيوي والثانية ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ إلى العذاب الأخروي والمعنى وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا متلبسا بالحق والحكمة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور، وقد اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وإرشادا لمن بقي إلى الصلاح، وإن الساعة لآتية فينتقم أيضا فيها من أمثال هؤلاء.

٢. وفي الآية مشاجرة بين أصحاب الجبر والتفويض كل من الفريقين يجر نارها إلى قرصته:

أ. فاستدل بها أصحاب الجبر على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن أعمالهم من جملة ما بينهما فهي مخلوقة له.

ب. واستدل بها أصحاب التفويض على أن أفعال العباد ليست مخلوقة له بل لأنفسهم فإن المعاصي وقبائح الأعمال من الباطل فلو كانت مخلوقة له لكانت مخلوقة بالحق والباطل لا يكون مخلوقا بالحق.

ج. والحق أن الحجتين جميعا من الباطل:

• فإن جهات القبح والمعصية في الأفعال حيثيات عدمية إذ الطاعة والمعصية كالنكاح والزنا وأكل المال من حله وبالباطل وأمثال ذلك مشتركة في أصل الفعل وإنما تختلف طاعة ومعصية بموافقة الأمر ومخالفته والمخالفة جهة عدمية، وإذا كان كذلك فاستناد الفعل إلى الخلقة من جهة الوجود لا يستلزم استناد القبيح أو المعصية إليها فإن ذلك من جهاته العدمية فليس الفعل بجهته العدمية مما بين السماوات والأرض حتى تشمله الآية، ولا بجهته الوجودية من الباطل حتى يكون خلقه خلقا للباطل بالحق.

• على أن الضرورة قائمة على حكومة نظام العلل والمعلولات في الوجود وأن قيام وجود شيء بشيء بحيث لا يستقل دونه هو ملاك الاتصاف فالمتصف بالطاعة والمعصية وحسن الفعل وقبيحه هو الإنسان دون الذي خلقه ويسر له أن يفعل كذا وكذا كما أن المتصف بالسواد والبياض الجسم الذي يقوم به هذان اللونان دون الذي أوجده.

٣. وقد استوفينا الكلام في هذا البحث في تفسير قوله: ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

الجزء الأول من الكتاب.

٤. ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. قال في المفردات: (صفح الشيء عرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر والصفح ترك التثريب وهو أبلغ من العفو ولذلك قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقد يعفوا الإنسان ولا يصفح قال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾ ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً﴾

ب. وصفحت عنه أوليته صفحة جميلة معرضا عن ذنبه أو لقيت صفحته متجافيا عنه أو تجاوزت الصفحة التي أثبت فيها ذنبه من الكتاب إلى غيرها من قولك تصفحت الكتاب، وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأمر له عليه السلام أن يخفف كفر من كفر كما قال: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ والمصافحة الإفضاء بصفحة اليد)

ج. وسيأتي ما في الرواية من تفسير علي عليه السلام الصفح بالعفو من غير عتاب.

٥. ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ تفريع على سابقه أي إذا كانت الخلقة بالحق وهناك يوم فيه يحاسبون ويجازون لا ريب فيه فلا تشغل نفسك بما ترى منهم من التكذيب والاستهزاء واعف عنهم من غير أن تقع فيهم بعتاب أو مناقشة وجدال فإن ربك الذي خلقك وخلقهم هو عليم بحالك وحالهم ووراءهم يوم لا يفوتونه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه وابن النجار عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ قال: الرضا بغير عتاب.

ب. وفي المجمع: (حكي عن علي بن أبي طالب عليه السلام: أن الصفح الجميل هو العفو من غير عتاب.

ج. وفي العيون، بإسناده عن علي بن الحسن بن فضال عن أبيه عن الرضا عليه السلام: في الآية قال: العفو من غير عتاب.

٢٦. الله الخلاق العليم، والسبع المثاني والقرآن العظيم:

المقطع [٢٦] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٦-٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٩٠»:

١. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾

٢. وهذه الآيات الحافة لقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ تسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه ليأخذ قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ موقعه فقد عرفت في أول السورة أن الغرض الأصيل منها هو الأمر بإعلان الدعوة وعرفت أيضا بالتدبر في الآيات السابقة أنها مسرودة ليتخلص بها إلى تسليته ﷺ عما لقي من قومه من الإيذاء والإهانة والاستهزاء ويتخلص من ذلك إلى الأمر المطلوب.

٣. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾:

أ. السبع المثاني هي سورة الحمد على ما فسر في عدة من الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام فلا يصغي إلى ما ذكره بعضهم: (أنها السبع الطوال، وما ذكره بعض آخر أنها الحواميم السبع، وما قيل: إنها سبع صحف من الصحف النازلة على الأنبياء، فلا دليل على شيء منها من لفظ الكتاب ولا من جهة السنة.

ب. وقد كثر اختلافهم في قوله: ﴿مِنَ الْمَثَانِي﴾ من جهة كون ﴿مِنَ﴾ للتبعيض أو للتبيين وفي كيفية اشتقاق لفظة المثاني ووجه تسميتها بالمثاني.

ج. والذي ينبغي أن يقال، والله أعلم، أن ﴿مِنَ﴾ للتبعيض فإنه سبحانه سمى جميع آيات كتابه مثاني إذ قال: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] وآيات سورة الحمد من جملتها فهي بعض المثاني لا كلها.

د. والظاهر أن المثاني جمع مثنية اسم مفعول من الثني بمعنى اللوي والعطف والإعادة قال تعالى ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ [هود: ٥] وسميت الآيات القرآنية مثاني لأن بعضها يوضح حال البعض ويلوي وينعطف عليه كما يشعر به قوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾ حيث جمع بين كون الكتاب متشابها يشبه بعض آياته بعضا وبين كون آياته مثاني، وفي كلام النبي ﷺ: في صفة القرآن: ﴿يصدق بعضه بعضا﴾ وعن علي عليه السلام: فيه: ﴿ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض﴾ أو هي جمع مثنى بمعنى التكرير

والإعادة كناية عن بيان بعض الآيات ببعض.

هـ. ولعل في ذلك كفاية وغنى عما ذكروه من مختلف المعاني كما في الكشاف وحواشيه والمجمع وروح المعاني وغيرها كقولهم: إنها من التثنية أو الثني بمعنى التكرير والإعادة سميت آيات القرآن مثاني لتكرر المعاني فيها، وكقولهم: سميت الفاتحة مثاني لوجوب قراءتها في كل صلاة مرتين أو لأنها تثنى في كل ركعة بما يقرأ بعدها من القرآن، أو لأن كثيرا من كلماتها مكررة كالرحمن والرحيم وإياك والصراط وعليهم، أو لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة أو لما فيها من الثناء على الله، أو لأن الله استثناها وادخرها لهذه الأمة ولم ينزلها على الأمم الماضين كما في الرواية، إلى غير ذلك من الوجوه المذكورة في التفاسير.

٤. وفي قوله: ﴿سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ من تعظيم أمر الفاتحة والقرآن ما لا يخفى أما القرآن فلتوصيفه من ساحة العظمة والكبرياء بالعظيم، وأما الفاتحة فلمكان التعبير عنه بالنكرة غير الموصوفة ﴿سَبْعاً﴾ وفيه من الدلالة على عظمة قدرها وجلالة شأنها ما لا يخفى وقد قوبل بها القرآن العظيم وهي بعضه.

٥. والآية، كما تبين، في مقام الامتنان وهي مع ذلك لوقوعها في سياق الدعوة إلى الصفح والإعراض تفيد أن في هذه الموهبة العظمى المتضمنة لحقائق المعارف الإلهية الهادية إلى كل كمال وسعادة بإذن الله عدة أن تحملك على الصفح الجميل والاشتغال بربك والتوغل في طاعته.

٦. أحاديث وآثار:

في التهذيب، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السبع المثاني، والقرآن العظيم هي فاتحة الكتاب؟ قال: نعم، قلت: بسم الله الرحمن الرحيم من السبع؟ قال: نعم هي أفضلهن.

• أقول: وهو مروي من طرق الشيعة عن أمير المؤمنين عليه السلام وغير واحد من أئمة أهل البيت عليه السلام، ومن طرق أهل السنة عن علي وعدة من الصحابة كعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وأبي هريرة وغيرهم.

٢٧. الزهد وخفض الجناح للمؤمنين:

المقطع [٢٧] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ

﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٨-٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٩٢»:

١. ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبِينُ﴾:

أ. الآيتان في مقام بيان الصفح الجميل الذي تقدم الأمر به، ولذلك جيء بالكلام في صورة الاستئناف.

ب. والمذكور فيهما أربعة دساتير: منفيان ومثبتان فقوله: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾ مد العينين إلى ما متعوا به من زهرة الحياة الدنيا كناية عن التعدي عن قصر النظر على ما آتاه الله من نعمة، والمراد بالأزواج الأزواج من الرجال والنساء أو الأصناف من الناس كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس، والمعنى لا تتجاوز عن النظر عما أنعمناك به من النعم الظاهرة والباطنة إلى ما متعنا به أزواجا قليلة أو أصنافا من الكفار.

ج. وربما أخذ بعضهم قوله: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ كناية عن إطالة النظر وإدامته، وأنت تعلم أن الغرض على أي حال النهي عن الرغبة والميل والتعلق القلبي بما في أيديهم من أمتعة الحياة كالمال والشوكة والصيت والذي يكنى به عن ذلك هو النهي عن أصل النظر إليه لا عن إطالته وإدامته ويشهد به ما سننقله من آية الكهف.

٢. ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من جهة تماديهم في التكذيب والاستهزاء وإصرارهم على أن لا يؤمنوا بك.

٣. ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالوا: هو كناية عن التواضع ولين الجانب، والأصل فيه أن الطائر إذا أراد أن يضم إليه أفراخه بسط جناحه عليها ثم خفضه لها هذا، والذي ذكروه وإن أمكن أن يتأيد بآيات أخر كقوله: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله في صفة النبي ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] لكن الذي وقع في نظير الآية مما يمكن أن يفسر به خفض الجناح هو صبر النفس مع المؤمنين وهو يناسب أن يكون كناية عن ضم المؤمنين إليه وقصر الهم على معاشرتهم وتربيتهم وتأديبهم بأدب الله أو كناية عن ملازمتهم والاحتباس فيهم من غير مفارقة، كما أن الطائر إذا خفض الجناح لم يطر ولم يفارق، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا

تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ الآية [الكهف: ٢٨]

٤. ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي لا دعوى لي إلا أني نذير أنذركم بعذاب الله سبحانه مبين أبين لكم ما تحتاجون إلى بيانه، وليس لي وراء ذلك من الأمر شيء.

٥. فهذه الأمور الأربعة أعني ترك الرغبة بما في أيديهم من متاع الحياة الدنيا وترك الحزن عليهم إذا كفروا واستهزءوا، وخفض الجناح للمؤمنين وإظهار أنه نذير مبين هو الصفح الجميل الذي يليق بالنبي ﷺ، ولو أسقط منها واحد لاختل الأمر.

٦. ومن ذلك يظهر أن قول بعضهم: (إن قوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ منسوخ بآية السيف) غير وجيه فإن هذا الصفح الذي تأمر به الآية ويفسره قوله: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ باق على إحكامه واعتباره حتى بعد نزول آية السيف فلا وجه لنسبة النسخ إليه.

٢٨. المقتسمون جعلوا القرآن عضين:

المقطع [٢٨] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٠-٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٩٣»:

١. ﴿كَمَا أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾:

أ. قال في المجمع: (عضين جمع عضة وأصله عضوة فنقصت الواو ولذلك جمعت عضين بالنون كما قيل: عزوة وعزون والأصل عزوة، والتعضية: التفريق مأخوذة من الأعضاء يقال: عضيت الشيء أي فرقته وبعضته قال رؤبة: وليس دين الله بالمعضي)

ب. ﴿كَمَا أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ لا يخلو السياق من دلالة على أنه متعلق بمقدر يلوح إليه قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي بعذاب منزل ينزل عليكم كما أنزلنا على المقتسمين، والمراد بالمقتسمين هم الذين يصفهم قوله بعد: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ وهم على ما وردت به الرواية قوم من كفار قريش جزءوا القرآن أجزاء فقالوا: سحر، وقالوا: أساطير الأولين، وقالوا: مفترى، وتفرقوا في مداخل طرق مكة أيام الموسم يصدون الناس الواردين عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله.

ج. وقيل قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنا﴾ متعلق بما تقدم من قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي﴾ أي أنزلنا

عليك القرآن كما أنزلنا على المقتسمين، والمراد بالمقتسمين اليهود والنصارى الذين فرقوا القرآن أجزاء وأبعاضا وقالوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وفيه أن السورة مكية نازلة في أوائل البعثة ولم يبتل الإسلام يومئذ باليهود والنصارى ذاك الابتلاء وقولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [آل عمران: ٧٢] مما قالته اليهود بعد الهجرة وكذا ما أشبه ذلك والدليل على ما ذكرنا سياق الآيات.

د. وربما قيل: سموا مقتسمين لأنهم اقتسموا أنبياء الله وكتبه المنزلة إليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ويدفعه أن الآية التالية تفسر المقتسمين بالذين جعلوا القرآن عضين لا بالذين فرقوا بين أنبياء الله أو بين كتبه.

هـ. فالظاهر أن الآيتين تذكران قوما نهضوا في أوائل البعثة على إطفاء نور القرآن وبعضوه أبعاضا ليصدوا عن سبيل الله فأنزل الله عليهم العذاب وأهلكهم، وهم الذين ذكروا في الآيتين ثم يذكر الله مآل أمرهم بقوله: ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: سأل رجل رسول الله ﷺ، قال: أرأيت قول الله: ﴿كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾؟ قال: اليهود والنصارى، قال: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

• أقول: وقد عرفت فيما مر أن مضمون الرواية لا يلائم كون السورة مكية.

ب. وفي تفسير العياشي، عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: عن قوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قالا: هم قريش.

٢٩. الصدع بالرسالة والإعراض عن المشركين:

المقطع [٢٩] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٩٤»:

١. ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾:

أ. قال في المجمع: (الصدع والفرق والفصل نظائر، وصدع بالحق إذا تكلم به جهارا)

ب. والآية تفريع على ما تقدم، ومن حقها أن تتفرع لأنها الغرض في الحقيقة من السورة أي إذا كان الأمر على ما ذكر وأمرت بالصفح الجميل وكنت نذيرا بعذابنا كما أنزلنا على المقتسمين فأظهر كلمة الحق وأعلن الدعوة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن عبد الله بن علي الحلبي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: مكث رسول الله ﷺ بمكة بعد ما جاء الوحي، عن الله تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة، مستخفيا منها ثلاث سنين خائفا لا يظهر، حتى أمر الله عز وجل أن يصدع بما أمر، فأظهر حينئذ الدعوة.

ب. أخرج ابن جرير عن أبي عبيدة أن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبي ﷺ مستخفيا حتى نزل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه.

ج. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن علي الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اكتتم رسول الله ﷺ بمكة سنين، ليس يظهر وعلي معه وخديجة، ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر فظهر رسول الله ﷺ، فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب فإذا أتاهم قالوا: كذاب امض عنا.

٣٠. الله كافٍ نبيه المستهزئين:

المقطع [٣٠] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥-٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٩٥»:

١. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿فَاصْدَعْ﴾ كما يشعر الكلام أو يدل على أن هؤلاء المستهزءين هم المقتسمون المذكورون قبل، ومعنى الآية إذا كان الأمر كما ذكرناه وكنت نذيرا بعذابنا كما أنزلناه على المقتسمين ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ وأعلن الدعوة وأظهر الحق ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا﴾ أي لأننا ﴿كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بإنزال العذاب عليهم وهم ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

٢. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن أبان بن عثمان الأحمر رفعه قال: كان المستهزءون خمسة من قريش: الوليد بن المغيرة المخزومي والعاص بن وائل السهمي، والحارث بن حنظلة والأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري، والأسود بن المطلب بن أسد فلما قال الله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ علم رسول

الله ﷺ أنه قد أخزاهم، فأماتهم الله بشر ميتات.

• أقول: ورواه الصدوق في المعاني، بإسناده عن أبان وروى فيه، أيضا والطبرسي في الإحتجاج، عن موسى بن جعفر عن آبائه عن علي عليه السلام: ما في هذا المعنى وهو حديث طويل، فيه تفصيل هلاك كل من هؤلاء الخمسة لعنهم الله، وروي كون المستهزءين خمسة من قريش، عن علي وعن ابن عباس مع سبب هلاكهم.

• والروايات مع ذلك مختلفة من طرق أهل السنة من جهة عددهم وأسمائهم وأسباب هلاكهم، والذي اتفق فيه حديث الفريقين هو ما قدمناه.

٣١. ضيق الصدر والتسبيح والسجود:

المقطع [٣١] من سورة الحجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ١٩٥»:

١. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ رجع ثانيا إلى حزنه ﷺ وضيق صدره من استهزائهم لمزيد العناية بتسليته وتطييب نفسه وتقوية روحه، وقد أكثر سبحانه في كلامه وخاصة في السور المكية من ذلك لشدة الأمر عليه ﷺ.

٢. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾:

أ. وصاه سبحانه بالتسبيح والتحميد والسجدة والعبادة أو إدامة العبودية مفرعا ذلك على ضيق صدره بما يقولون ففي ذلك استعانة على الغم والمصيبة، وقد أمره في الآيات السابقة بالصفح والصبر، ويستفاد الأمر بالصبر أيضا من قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فإن ظاهره الأمر بالصبر على العبودية حتى حين، وبذلك يصير الكلام قريب المضمون من قوله تعالى لدفع الشدائد والمقاومة على مر الحوادث: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]

ب. وبذلك يتأيد أن المراد بالساجدين المصلون وأنه أمر بالصلاة وقد سميت سجودا تسمية لها باسم أفضل أجزائها ويكون المراد بالتسبيح والتحميد اللفظي منهما كقول سبحان الله والحمد لله أو ما في معناهما نعم لو كان المراد بالصلاة في آية البقرة التوجه إلى الله سبحانه أمكن أن يكون المراد بالتسبيح

والتحميد، أو بهما وبالسجود، المعنى اللغوي وهو تنزيه تعالى عما يقولون والثناء عليه بما أنعم به عليه من النعم والتذلل له تذلل العبودية.

٣. وأما قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾:

أ. فإن كان المراد به الأمر بالعبادة كان كالمفسر للآية السابقة وإن كان المراد الأخذ بالعبودية، كما هو ظاهر السياق، وخاصة سياق الآيات السابقة الآمرة بالصفح والإعراض ولازمها الصبر كان بقرينة تقييده بقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أمرا بانتهاج منهج التسليم والطاعة والقيام بلوازم العبودية.

ب. وعلى هذا فالمراد بإتيان اليقين حلول الأجل ونزول الموت الذي يتبدل به الغيب من الشهادة ويعود به الخبر عيانا، ويؤيد ذلك تفريع ما تقدم من قوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ على قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فإنه بالحقيقة أمر بالعفو والصبر على ما يقولون لأن لهم يوما ينتقم الله منهم ويجازيهم بأعمالهم فيكون معنى الآية دم على العبودية واصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى مر ما يقولون حتى يدركك الموت وينزل عليك عالم اليقين فتشاهد ما يفعل الله بهم ربك.

ج. وفي التعبير بمثل قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ إشعار أيضا بذلك فإن العناية فيه بأن اليقين طالب له وسيدركه فليعبد ربه حتى يدركه ويصل إليه وهذا هو عالم الآخرة الذي هو عالم اليقين العام بما وراء الحجاب دون الاعتقاد اليقيني الذي ربما يحصل بالنظر أو بالعبادة.

د. وبذلك يظهر فساد ما ربما قيل: إن الآية تدل على ارتفاع التكليف بحصول اليقين، وذلك لأن المخاطب به النبي ﷺ وقد دلت آيات كثيرة من كتاب الله أنه من الموقنين وأنه على بصيرة وأنه على بينة من ربه وأنه معصوم وأنه مهدي بهداية الله سبحانه إلى غير ذلك، مضافا إلى ما قدمناه من دلالة الآية على كون المراد باليقين هو الموت.

٤. وسنفرد لدوام التكليف بحثا عقليا.

٥. وضع هنا مبحثا حول [كيفية وجود التكليف ودوامه]، خلاصته:

أ. كل نوع من الموجودات له غاية كمالية يسعى إليها بحركة وجودية، والإنسان نوع وجودي له غاية لا ينالها إلا بالاجتماع المدني، والاجتماع يحتاج إلى أحكام وقوانين تنتظم به أمورهم وترفع اختلافاتهم.

ب. الدين فطري، أي أنه مجموع أحكام وقوانين يرشد إليها وجود الإنسان بحسب التكوين، وهي سنن يستدعيها الكون العام، فلو أقيمت أصلحت المجتمع، ولو تركت أفسدت العالم الإنساني.

ج. الأحكام والقوانين (معاملية وعبادية) يجب أن يتلقاها الإنسان من طريق النبوة الإلهية والوحي السماوي، لأن العقل وحده لا يكفي لاستنباطها.

د. التكليف الإلهي يلازم الإنسان ما عاش في هذه النشأة الدنيوية، سواء كان ناقصاً لم يكمل أو كاملاً علماً وعملاً، فالناقص يحتاج إلى التكليف للتكميل، والكامل يحتاج إليه لأن كماله يستلزم صدور الأعمال الملائمة للمجتمع والعبادات المناسبة للمعرفة.

هـ. تجويز ارتفاع التكليف عن الإنسان الكامل يوجب فساد المجتمع (في المعاملات) وتخلف الملكات عن آثارها (في العبادات)، وكلاهما إبطال للعناية الإلهية، نعم، الفرق بين الكامل وغيره أن الكامل مصون عن المخالفة لمكان الملكة الراسخة، بخلاف غير الكامل.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أوحي إلي أن أكون تاجرا، ولا أجمع المال متكاثرا ولكن أوحي إلي: أن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

• أقول: وروي ما في معناه أيضا عن ابن مردويه عن ابن مسعود عنه ﷺ.

ب. أخرج البخاري وابن جرير عن أم العلاء: أن رسول الله ﷺ دخل على عثمان بن مظعون وقد مات فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال: وما يدريك أن الله أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين إني لأرجو له الخير.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن حفص بن غياث قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن من صبر صبر قليلا ومن جزع جزع قليلا، ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله عز وجل بعث محمدا، وأمره بالصبر والرفق فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً، وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فصبر رسول الله ﷺ حتى نالوه بالعظائم ورموه بها، وضاق صدره

وقال الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾

سورة النحل

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٧٧] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. الغالب على الظن ـ إذا تدبرنا السورة ـ أن صدر السورة مما نزلت في أواخر عهد النبي ﷺ بمكة قبيل الهجرة، وهي أربعون آية، يذكر الله سبحانه في شطر منها أنواع نعمه السماوية والأرضية مما تقوم به حياة الإنسان وينتفع به في معاشه نظاماً متقناً وتدبيراً متصلاً، يدل على وحدانيته تعالى في ربوبيته.

ب. ويحتج في شطر آخر على بطلان مزاعم المشركين وخيبة مساعيهم، وأنه سيجازيهم كما جازى أمثالهم من الأمم الماضية، وسيفصل القضاء بينهم يوم القيامة.

ج. وقد افتتح سبحانه هذه الآيات بقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مفرعاً آيات الاحتجاج على ما فيه من التنزيه والتسبيح، ومن ذلك يعلم أن عمدة الغرض في صدر السورة الإنباء بإشراف الأمر الإلهي ودُنُوِّه منهم وقرب نزوله عليهم، وفيه إبعاد للمشركين، فقد كانوا يستعجلون النبي ﷺ ـ استهزاءً به ـ لما كانوا يسمعون كلام الله سبحانه يذكر كثيراً نزول أمره تعالى وينذرهم به، وفيه مثل قوله للمؤمنين: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ وليس إلا أمره تعالى بظهور الحق على الباطل والتوحيد على الشرك والإيمان على الكفر، هذا ما يعطيه التدبر في صدر السورة.

د. وأما ذيلها وهي ثمان وثمانون آية من قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ إلى آخر السورة على ما بينها من الاتصال والارتباط، فسياق الآيات فيه يشبه أن تكون مما نزلت في أوائل عهد النبي ﷺ بالمدينة بعيد الهجرة ـ فصدر السورة وذيلها متقاربا النزول ـ وذلك لما فيها من آيات لا تنطبق مضامينها إلا على بعض الحوادث الواقعة بعيد الهجرة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ الآية النازلة على قول في سلمان الفارسي وقد آمن بالمدينة، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ الآية النازلة في عمار ـ كما سيأتي ـ وكذا الآيات النازلة في اليهود والآيات النازلة في الأحكام، كل ذلك يفيد الظن بكون الآيات مدنية.

هـ. ومع ذلك فاختلاف النزول لائح من بعضها كقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الخ [الآية: ٤١]

وقوله: ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾ [الآية: ١٠١] إلى تمام آيتين أو خمس آيات، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ﴾ [الآية: ١٠٦] وعدة آيات تتلوها.

و. والإنصاف ـ بعد ذلك كله ـ أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا﴾ [الآية: ٤١] إلى تمام آيتين، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ﴾ [الآية: ١٠٦] وبضع آيات بعدها، وقوله: ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا﴾ [الآية: ١٢٦] وآيتان بعدها مدنية لشهادة سياقها بذلك، والباقي أشبه بالمكية منها بالمدنية، وهذا وإن لم يوافق شيئاً من المأثور لكن السياق يشهد به وهو أولى بالاتباع، وقد مر في تفسير [آية: ١١٨] من سورة الأنعام احتمال أن تكون نازلة بعد سورة النحل وهي مكية.

ز. والغرض الذي هو كالجامع لآيات ذيل السورة أن فيها أمراً بالصبر ووعداً حسناً على الصبر في ذات الله.

ح. وغرض السورة الإخبار بإشراف أمر الله وهو ظهور الدين الحق عليهم، ويوضح تعالى ذلك ببيان أن الله هو الإله المعبود لا غير لقيام تدبير العالم به، كما أن الخلقة قائمة به، ولانتهاء جميع النعم إليه، وانتفاء ذلك عن غيره، فالواجب أن يعبد الله ولا يعبد غيره، وبيان أن الدين الحق لله فيجب أن يؤخذ به ولا يشرع دونه دين، ورد ما أبداه المشركون من الشبهة على النبوة والتشريع، وبيان أمور من الدين الإلهي.

ط. هذا هو الذي يرومه معظم آيات السورة وتنعطف إلى بيانه مرة بعد مرة، وفي ضمنها آيات تتعرض لأمر الهجرة وما يناسب ذلك مما يحوم حولها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٢١] الخطاب للمشركين لأن الآيات التالية مسوقة احتجاجاً عليهم، إلى قوله في الآية الثانية والعشرين: ﴿إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ ووجه الكلام فيها إلى المشركين، وهي جميعاً كالمتفرعة على قوله في ذيل هذه الآية: ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ﴾ ومقتضاه أن يكون الأمر الذي أخبر بإتيانه أمراً يطهر ساحة الربوبية من شركهم بحسم مادته.

٢. الآيات [٢٢ ـ ٤٠]:

أ. هذا هو الشطر الثاني من آيات صدر السورة، وقد كان الشطر الأول يتضمن توحيد الربوبية وإقامة الحجة على المشركين في ذلك بعد ما أنذرهم بإتيان الأمر ونزه الله سبحانه عن شركهم.

ب. وهذا الشطر الثاني يتضمن ما يناسب المقام ذكره من مساوي صفات المشركين المتفرعة على إنكارهم التوحيد، وأباطيل أقوالهم كاستكبارهم على الله واستهزائهم بآياته وإنكارهم الحشر، وبيان بطلانها وإظهار فسادها، وتهديدهم بإتيان الأمر وحلول العذاب الدنيوي، والإيعاد بعذاب يوم الموت ويوم القيامة، وحقائق أخر ستنكشف بالبحث.

٣. الآيات [٤١ ـ ٦٤]:

أ. الآيتان الأوليان تذكران الهجرة وتعدان المهاجرين في الله وعداً حسناً في الدنيا والآخرة.

ب. وباقي الآيات تعقب حديث شركهم بالله وتشريعهم بغير إذن الله، وهي بحسب المعنى تفصيل القول في الجواب عن عد المشركين الدعوة النبوية إلى ترك عبادة الآلهة وتحريم ما لم يحرمه الله أمراً محالاً، كما أشير إليه في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلخ.

٤. الآيات [٦٥ ـ ٧٧]:

رجوع بعد رجوع إلى عد النعم والآلاء الإلهية واستنتاج التوحيد والبعث منها، والإشارة إلى مسألة التشريع وهي النبوة.

٥. الآيات [٧٨ ـ ٨٩]:

الآيات تذكر عدة أخرى من النعم الإلهية، ثم تعطف الكلام إلى ما تكشف عنه من حق القول في وحدانيته تعالى في الربوبية وفي البعث وفي النبوة والتشريع، نظيره القبيل السابق الذي أوردناه من الآيات.

٦. الآيات [٩٠ ـ ١٠٥]:

أ. تذكر الآيات عدة من الأحكام مما يلائم حال الإسلام قبل الهجرة مما يصلح به حال المجتمع العام، كالأمر بالعدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وما يلحق بذلك كالأمر بإيتاء ذي القربى والنهي عن نقض العهد واليمين.

ب. وتذكر أموراً أخرى تناسب ذلك وتثبتها.

٧. الآيات [١٠٦ ـ ١١١] في الآيات وعيد على الكفر بعد الإيمان وهو الارتداد، ووعد جميل للمهاجرين من بعد ما فتنوا، والمجاهدين الصابرين في الله، وفيها تعرض لحكم التقية.

٨. الآيات [١١٢ ـ ١٢٨]:

أ. تتمة آيات الأحكام السابقة، تذكر فيها محرمات الأكل ومحللاته، ونهي عن التحليل والتحريم ابتداعاً بغير إذن الله، وذكر بعض ما شرع لليهود من الأحكام التي نسخت بعد.

ب. وفي ذلك عطف على ما تقدم من حديث النسخ في قوله: ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾، وإشارة إلى أن ما أنزل على النبي ﷺ إنما هو دين إبراهيم عليه السلام المبني على الاعتدال والتوحيد، مرفوعاً عنه ما في دين اليهود من التشديد عليهم قبال ظلمهم.

ج. وفي آخرها أمر بالعدل في المعاقبة وندب إلى الصبر والاحتساب، ووعد جميل بالنصرة والكفاية إن اتقوا وأحسنوا.

١. الأمر والملائكة والروح والإنذار:

المقطع [١] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٠٤»:

١. ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين لأن الآيات التالية مسوقة احتجاجا عليهم، إلى قوله في الآية الثانية والعشرين: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ﴾ ووجه الكلام فيها إلى المشركين، وهي جميعا كالمتفرعة على قوله في ذيل هذه الآية: ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ومقتضاه أن يكون الأمر الذي أخبر بإتيانه أمرا يطهر ساحة الربوبية من شركهم بحسم مادته، ولم تقع في كلامه حكاية استعجال من المؤمنين في أمر، بل المذكور استعجال المشركين بما كان يذكر في كلامه تعالى من أمر الساعة وأمر، الفتح وأمر نزول العذاب، كما يشير إليه قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣] إلى غير ذلك من الآيات.

ب. وعلى هذا فالمراد بالأمر ما وعد الله النبي ﷺ والذين آمنوا وأوعد المشركين مرة بعد مرة في كلامه أنه سينصر المؤمنين ويخزي الكافرين ويعذبهم ويظهر دينه بأمر من عنده كما قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وإليه يعود أيضا ضمير ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ على ما يفيده السياق أو يكون المراد بإتيان الأمر إشرافه على التحقق وقربه من الظهور، وهذا شائع في الكلام يقال لمن ينتظر ورود

الأمير: هذا الأمير جاء وقد دنا مجيئه ولم يجيء بعد.

ج. وعلى هذا أيضا يكون قوله: ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من قبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إشارة إلى أنهم ينبغي أن يعرض عن مخاطبتهم ومشافهتهم لانحطاط أفهامهم لشركهم ولم يستعجلوا نزول الأمر إلا لشركهم استهزاء وسخرية.

د. وبما مر يندفع ما ذكره بعضهم أن الخطاب في الآية للمؤمنين أو للمؤمنين والمشركين جميعا فإن السياق لا يلائمه.

هـ. على أنه تعالى يخص في كلامه الاستعجال بغير المؤمنين وينفيه عنهم قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]

و. وكذا ما ذكروه أن المراد بالأمر هو يوم القيامة وذلك أن المشركين وإن كانوا يستعجلونه أيضا كما يدل عليه قولهم على ما حكاه الله تعالى: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [يس: ٤٨] لكن سياق الآيات لا يساعد عليه كما عرفت.

ز. ومن العجيب ما استدل به جمع منهم على أن المراد بالأمر يوم القيامة أنه تعالى لما قال في آخر سورة الحجر: ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكان فيه تنبيه على حشر هؤلاء وسؤالهم قال في مفتتح هذه السورة: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ فأخبر بقرب يوم القيامة وكذا قوله في آخر الحجر: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وهو مفسر بالموت شديد المناسبة بأن يكون المراد بالأمر في هذه السورة يوم القيامة ومما يؤكد المناسبة قوله هناك: ﴿يَأْتِيَكَ﴾ وهاهنا: ﴿أَتى﴾، وأمثال هذه الأقاويل الملفقة مما ينبغي أن يلتفت إليه.

ح. ونظيره قول بعضهم: (إن المراد بالأمر واحدة الأوامر ومعناه الحكم كأنه يشير به إلى ما في السورة من أحكام العهد واليمين ومحرمات الأكل وغيرها والخطاب على هذا للمؤمنين خاصة وهو كما ترى.

٢. ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الناس على اختلافهم الشديد قديما وحديثا في حقيقة الروح لا يختلفون في أنهم يفهمون منه معنى واحدا وهو ما به الحياة التي هي ملاك الشعور والإرادة فهذا المعنى هو المراد في الآية الكريمة.

ب. وأما حقيقته إجمالا فالذي يفيده مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:

٣٨] وقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] وغيرهما أنه موجود مستقل ذو حياة وعلم وقدرة وليس من قبيل الصفات والأحوال القائمة بالأشياء كما ربما يتوهم، وقد أفاد بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أنه من سنخ أمره، وعرف أيضا أمره بمثل قوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣] فدل على أنه كلمة الإيجاد التي يوجد سبحانه بها الأشياء أي الوجود الذي يفيضه عليها لكن لا من كل جهة بل من جهة استناده إليه تعالى بلا مادة ولا زمان ولا مكان كما يفيده قوله: ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] فإن هذا التعبير إنما يورد فيما لا تدريج فيه أي لا مادة ولا حركة له، وليكن هذا الإجمال عندك حتى يرد عليك تفصيله فيما سيأتي إن شاء الله في تفسير سورة الإسراء.

ج. فتحصل أن الروح كلمة الحياة التي يلقيها الله سبحانه إلى الأشياء فيحييها بمشيئته، ولذلك سماه وحيا وعد إلقاءه وإنزاله على نبيه إيحاء في قوله: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ [الشورى: ٥٢] فإن الوحي هو الكلام الخفي والتفهيم بطريق الإشارة والإيماء فيكون إلقاء كلمته تعالى، كلمة الحياة، إلى قلب النبي عليه السلام وحيا للروح إليه، فافهم ذلك.

د. فقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الباء للمصاحبة أو للسببية ولا كثير تفاوت بينهما في المآل كما هو ظاهر عند المتأمل فإن تنزيل الملائكة بمصاحبة الروح إنما هو لإلقائه في روح النبي عليه السلام ليفيض عليه المعارف الإلهية وكذا تنزيلهم بسبب الروح لأن كلمته تعالى أعني كلمة الحياة تحكم في الملائكة وتحييهم كما تحكم في الإنسان وتحييه، وضمير ﴿يُنَزِّلُ﴾ له تعالى والجملة استئناف تفيد تعليل قوله في الآية السابقة: ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

هـ. والمعنى: أن الله منزه ومتعال عن شركهم أو عن الشريك الذي يدعونه له ولتنزهه وتعاليه عن الشريك ينزل سبحانه الملائكة بمصاحبة الروح الذي هو من سنخ أمره وكلمته في الإيجاد، أو بسببه، على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون.

و. وذكر بعضهم أن المراد بالروح الوحي أو القرآن وسمي روحا لأن به حياة القلوب، كما أن الروح الحقيقي به حياة الأبدان، قال: وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي بأمره، ونظيره قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي بأمر الله لأن أحدا لا يحفظه عن أمره)

ز. أما قوله: إن ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بمعنى الباء استنادا إلى قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي بأمر الله.، فقد مر في تفسير سورة الرعد أن ﴿مِنْ﴾ على ظاهر معناه وأن بعض أمره تعالى يحفظ الأشياء من بعض أمره فلا وجه لأخذ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بمعنى ﴿بأمره﴾ بل قوله: ﴿بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ معناه بالروح الكائن من أمره، على أن الظرف مستقر لا لغو، كما في قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ومعناه ما تقدم.

ح. وأما قوله: إن الروح بمعنى الوحي أو القرآن وكذا قول بعضهم: (إنه بمعنى النبوة فلا يخلو عن وجه بحسب النتيجة بمعنى أن نتيجة نزول الملائكة بالروح من أمره هو الوحي أو النبوة، وأما في نفسه وهو أن يسمى الوحي أو النبوة روحا باشتراك لفظي أو مجازا من حيث إنه يحيي القلوب ويعمرها، كما أن الروح به حياة الأبدان وعمارتها فهو فاسد لما بيناه مرارا أن الطريق إلى تشخيص مصاديق الكلمات في كلامه تعالى هو الرجوع إلى سائر ما يصلح من كلامه لتفسيره دون الرجوع إلى العرف وما يراه في مصاديق الألفاظ.

ط. والمتحصل من كلامه سبحانه أن الروح خلق من خلق الله وهو حقيقة واحدة ذات مراتب ودرجات مختلفة منها ما في الحيوان وغير المؤمنين من الإنسان ومنها ما في المؤمنين من الإنسان، قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ومنها ما يتأيد به الأنبياء والرسل كما قال ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] وقال: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ [الشورى: ٥٢] على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ي. هذا ما تفيده الآيات الكريمة وأما أن إطلاق اللفظ على هذا المعنى هل هي حقيقة أو مجاز وما أمعنوا في البحث أنه من الاستعارة المصرحة أو استعارة بالكناية أو أن قوله: ﴿بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ من قبيل التشبيه لذكر المشبه صريحا بناء على كون ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بيانية كما صرحوا في قوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [بقره: ١٨٧] أنه من التشبيه للتصريح بالمشبه في متن الكلام فكل ذلك من الأبحاث الأدبية الفنية التي ليس لها كثير تأثير في الحصول على الحقائق.

ك. وذكر بعضهم أن ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بيان للروح، و﴿مِنْ﴾ للتبيين، والمراد بالروح الوحي، كما تقدم، وفيه أنه مدفوع بقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فإن من الواضح أن الآيتين تسلكان مسلكا واحدا، وظاهر آية الإسراء أن ﴿مِنْ﴾ فيها للابتداء أو للنشوء، والمراد بيان أن الروح من سنخ الأمر وشأن من

شئونه ويقرب منها قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]

ل. وذكر بعضهم أن المراد بالروح هو جبريل وأيده بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] فإن من المسلم أن المراد به في الآية، هو جبريل والباء للمصاحبة والمراد بالملائكة ملائكة الوحي وهم أعوان جبريل، والمراد بالأمر واحد الأوامر، والمعنى ينزل تعالى ملائكة الوحي بمصاحبة جبريل بأمره وإرادته، وفيه أن هذه الآية نظيرة قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ [غافر: ١٥] وظاهره لا يلائم كون المراد بالروح هو جبريل.

م. وأردأ الوجوه ما ذكره بعضهم أن المراد بالروح أرواح الناس لا ينزل ملك إلا ومعه واحد من الأرواح، وهو منقول عن مجاهد، وفساده ظاهر.

٣. ﴿عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾:

أ. أي إن بعث الرسل وتنزيل الملائكة بالروح من أمره عليهم متوقف على مجرد المشية الإلهية من غير أن يقهره تعالى في ذلك قاهر غيره فيجبره على الفعل أو يمنعه من الفعل كما في سائر أفعاله تعالى فإنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ب. فلا ينافي ذلك كون فعله ملازما لحكم ومصالح ومختلفا باختلاف الاستعدادات لا يقع إلا عن استعداد في المحل وصلاحية للقبول فإن استعداد المستعد ليس إلا كسؤال السائل، فكما أن سؤال السائل إنما يقربه من جود المسئول وعطائه من غير أن يجبره على الإعطاء ويقهره كذلك الاستعداد في تقريبه المستعد لإفاضته تعالى وحرمان غير المستعد من ذلك فهو تعالى يفعل ما يشاء من غير أن يوجبه عليه شيء أو يمنعه عنه شيء لكنه لا يفعل شيئا ولا يفيض رحمة إلا عن استعداد فيما يفيض عليه وصلاحية منه.

ج. وقد أفاد ذلك في خصوص الرسالة حيث قال: ﴿وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فإن الآية ظاهرة في أن الموارد مختلفة في قبول كرامة الرسالة وأن الله سبحانه أعلم بالمورد الذي يصلح لها ويستأهل لتلك الكرامة وهو غير هؤلاء المجرمين الماكرين وأما هم فليس لهم عند الله إلا الصغار والعذاب لإجرامهم ومكرهم، هذا.

د. ومن هنا يظهر فساد استدلال بعضهم بالآية على نفي المرجح في مورد الرسالة ومحصل ما ذكره

أن الآية تعلق الرسالة على مجرد المشية الإلهية من غير أن تقيدها بشيء، فالرسول إنما ينال الرسالة بمشية من الله لا لاختصاصه بصفات تؤهله لذلك ويرجحه على غيره ووجه الفساد ظاهر مما تقدم.

هـ. ونظيره في الفساد الاستدلال بالآية على كون الرسالة عطائية غير كسبية، وذلك أنه تعالى غير محكوم عليه في ما ينسب إليه من الفعل لا يفعل إلا ما يشاء، والأمور العطائية والكسبية في ذلك سواء، ولا شيء يقع في الوجود إلا بإذنه.

٤. ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾:

أ. بيان لقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ لكونه في معنى الوحي أو بيان للروح بناء على كونه بمعنى الوحي، والإنذار هو إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير هو إخبار فيه سرور على ما ذكره الراغب أو إعلام بالمحذور كما ذكره غيره، والتقدير على الأول أخبروهم مخوفين بوحدانيتي في الألوهية ووجوب تقواي، وعلى الثاني أعلموهم ذلك، على أن يكون ﴿أَنَّهُ﴾ مفعولا ثانيا لا منصوبا بنزع الخافض.

ب. وقد علم بذلك أن قوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ متفرع على قوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنَا﴾ والجملتان جميعا مفعول ثان أو في موضعه لقوله: ﴿أَنْذِرُوا﴾ ويوضح ذلك أن لا إله وهو الذي يبتدئ منه وينتهي إليه كل شيء أو المعبود بالحق من لوازم صفة ألوهيته أن يتقيه الإنسان لتوقف كل خير وسعادة إليه، فلو فرض أنه واحد لا شريك له في ألوهيته كان لازمه أن يتقى وحده لأن التقوى وهو إصلاح مقام العمل فرع لما في مقام الاعتقاد والنظر، فعبادة الآلهة الكثيرين والخضوع لهم لا يجامع الاعتقاد بإله واحد لا شريك له الذي هو القيوم على كل شيء وبيده زمام كل أمر ولذا لم يؤمر نبي أن يدعو إلى توحيد من غير عمل أو إلى عمل من غير توحيد، قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

ج. فالذي أمر الرسل بالإنذار به في الآية هو مجموع قوله: ﴿أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ وهو تمام الدين لاندراج الاعتقادات الحقة في التوحيد والأحكام العملية جميعا في التقوى، ولا يعبأ بما ذكره بعضهم أن قوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ للمستعجلين من الكفار المذكورين في الآية الأولى أو لخصوص كفار قريش من غير أن يكون داخلا فيما أمر به الرسل من الإنذار.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن هشام بن سالم عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال: إذا أخبر الله النبي ﷺ بشيء إلى وقت فهو قوله: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ حتى يأتي ذلك الوقت وقال: إن الله إذا أخبر أن شيئا كائن فكأنه قد كان.

• أقول: كأنه إشارة إلى أن التعبير في الآية بلفظ الماضي لتحقق الوقوع.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزل ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا.

ج. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن أمر الله قد أتى، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل، فنزلت: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ﴾ الآية فقالوا: إن هذا يزعم مثلها أيضا فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء فنزل: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ الآية.

• أقول: والرواية تدل على أن المسلمين كان بينهم قبل الهجرة منافقون كما يشهد به بعض آخر من الروايات.

د. أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء، من قبل المغرب مثل الترس فلا تزال ترتفع في السماء، حتى تملأ السماء ثم ينادي مناد: يا أيها الناس! فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم ومنهم من يشك ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس فيقول الناس: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم ثم ينادي: أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه، قال رسول الله ﷺ: فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب، فما يطويانه وإن الرجل ليملأ حوضه فما يسقي فيه شيئا، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه ويشغل الناس.

• أقول: وقد رام بعضهم أن يستفيد من هذه الروايات الثلاث، وفي معناها بعض روايات أخر، أن المراد بالأمر هو يوم القيامة ولا دلالة فيها على ذلك.

• أما الرواية الأولى فلا يدل ذعرهم أنهم فهموا منها ذلك فإن أمر الله أيا ما كان مما يهيب عباده على

أنه لا حجة في فهمهم وليس الشبهة مفهومية حتى يرجع إليهم بما هم أهل اللسان.

• على أن الرواية لا تخلو عن شيء فإن الله سبحانه يعد الاستعجال بالقيامة من صفات الكفار ويذمهم عليه ويبرئ المؤمنين منه قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها﴾ [الشورى: ١٨] وقد مرت الإشارة إليه في البيان المتقدم هذا إذا كان الخطاب في قوله: ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ للمؤمنين، وأما إذا كان المخاطب به المشركين وهم كانوا يستعجلونه، فمعنى النهي عن استعجالهم هو حلول الأجل وقرب الوقوع لا الإمهال والإنظار، ولا معنى حينئذ لسكونهم لما سمعوا قوله: ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾

• وأما الرواية الثانية فظاهرها أنهم فهموا منها العذاب الدنيوي دون الساعة فهي تؤيد ما قدمناه في البيان لا ما ذكروه.

• وأما الرواية الثالثة فأقصى ما تدل عليه أن قيام الساعة من مصاديق إتيان أمر الله ولا ريب في ذلك وهو غير كون المراد بالأمر في الآية هو الساعة.

هـ. وفي كتاب الغيبة، للنعماني بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله عز وجل: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال: هو أمرنا أمر الله عز وجل، فلا يستعجل به يؤيده بثلاثة أجناد: الملائكة والمؤمنون والركب، وخروجه كخروج رسول الله ﷺ، وذلك قوله: ﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ﴾

• أقول: ورواه المفيد في كتاب الغيبة، عن عبد الرحمن عنه عليه السلام، ومراده ظهور المهدي عليه السلام كما صرح به في روايات أخر وهو من جري القرآن أو بطنه.

و. وفي الكافي، بإسناده عن سعد الإسكاف قال: أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح، أليس هو جبرئيل؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: جبرئيل من الملائكة والروح غير جبرئيل، فكبر ذلك على الرجل فقال له: لقد قلت عظيما من القول، ما أحد يزعم أن الروح غير جبرئيل، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنك ضال تروي عن أهل الضلال، يقول الله لنبيه: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ والروح غير الملائكة.

• أقول: وهو يؤيد ما قدمناه، وفي روايات أخر: أنه خلق أعظم من جبرئيل.

٢. خلق السماوات والأرض بالحق والإنسان والخصومة:

المقطع [٢] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١٠»:

١. ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

أ. تقدم معنى خلق السماوات والأرض بالحق، ولازم خلقها بالحق أن لا يكون للباطل فيها أثر، ولذلك عقبه بتنزيهه عن الشركاء الذين يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله ويهدوهم إلى الخير ويقوهم الشر فإنهم من الباطل الذي لا أثر له.

ب. وفي الآية والآيات التالية لها احتجاج على وحدانيته تعالى في الألوهية والربوبية من جهتي الخلق والتدبير جميعا فإن الخلق والإيجاد آية الألوهية وكون الخلق بعضها نعمة بالنسبة إلى بعض آية الربوبية لأن الشيء لا يكون نعمة بالنسبة إلى آخر إلا عن ارتباط بينهما واتصال من أحدهما بالآخر يؤدي إلى نظام جامع بينهما وتدبير واحد يجمعهما، ووحدة التدبير آية وحدة المدبر فكون ما في السماوات والأرض من مخلوق نعما للإنسان يدل على أن الله سبحانه وحده ربه ورب كل شيء.

٢. ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾:

أ. المراد به الخلق الجاري في النوع الإنساني وهو جعل نسله من النطفة فلا يشمل آدم وعيسى عليه السلام.

ب. والخصيم صفة مشبهة من الخصومة وهي الجدال، والآية وإن أمكن أن تحمل على الامتنان حيث إن من عظيم المن أن يبدل الله سبحانه بقدرته التامة قطرة من ماء مهين إنسانا كامل الخلقة منطيقا متكلما ينبئ عن كل ما جل ودق ببيانه البليغ لكن كثرة الآيات التي توبخ الإنسان وتقرعه على وقاحته في خصامه في ربه كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ترجح أن يكون المراد بذيل الآية بيان وقاحة الإنسان، ويؤيد ذلك أيضا بعض التأييد ما في ذيل الآية السابقة من تنزيهه تعالى من شركهم.

٣. الأنعام فيها دفء ومنافع وجمال وحمل الأثقال:

المقطع [٣] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٥-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١١»:

١. ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾:

أ. الأنعام جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم سميت بذلك لنعمة مسها بخلاف الحافر الذي يصلب كذا في المجمع: (وفي المفردات: (الدفء خلاف البرد)، وكأن المراد بالدفء ما يحصل من جلودها وأصوافها وأوبارها من الحرارة للاتقاء من البرد، أو المراد بالدفء ما يدفأ به.

ب. والمراد بالمنافع سائر ما يستفاد منها لغير الدفء من أصوافها وأوبارها وجلودها وألبانها وشحومها وغير ذلك، وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ يمكن أن يكون متعلقا بقوله: ﴿خَلَقَهَا﴾ ويكون قوله: ﴿فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ حالا من ضمير ﴿خَلَقَهَا﴾ ويمكن أن يكون ﴿لَكُمْ﴾ ظرفا مستقرا متعلقا بالجملة الثانية أي في الأنعام دفء كائنا لكم.

٢. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الجمال الزينة وحسن المنظر، قال في المجمع: (الإراحة رد الماشية بالعشي من مراعيها إلى منازلها والمكان الذي تراح فيه مراح، والسروح خروج الماشية إلى المرعى بالغداة، يقال: سرحت الماشية سرحا وسروحا وسرحها أهلها) يقول تعالى: ولكم في الأنعام منظر حسن حين تردونها بالعشي إلى منازلها وحين تخرجونها بالغداة إلى مراعيها.

٣. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. الأثقال جمع ثقل وهو المتاع الذي يثقل حمله والمراد بقوله: ﴿بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ مشقة تتحملها الأنفس في قطع المسافات البعيدة والمسالك الصعبة.

ب. والمراد أن الأنعام كالإبل وبعض البقر تحمل أمتعتكم الثقيلة إلى بلد ليس يتيسر لكم بلوغها إلا بمشقة تتحملها أنفسكم فرفع عنكم المشاق بخلقها وتسخيرها لكم إن ربكم رءوف رحيم.

٤. الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة:

المقطع [٤] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١٢»:

١. ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ معطوف على الأنعام فيما مر أي والخيل والبغال والحمير خلقها لكم لتركبوها، وزينة أي إن في خلقها ارتباطا بمنافعكم وذلك أنكم تركبونها وتتخذونها زينة وجمالا، وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ أي يخلق ما لا علم لكم به من الحيوان وغيره، وسخرها لكم لتنتفعوا بها، والدليل على ما قدرناه هو السياق.

٢. ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

أ. القصد، على ما ذكره الراغب وغيره، استقامة الطريق وهو كونه قيما على سالكيه أوصلهم إلى الغاية، والظاهر أن المصدر بمعنى الفاعل والإضافة من إضافة الصفة إلى موصوفها والمراد السبيل القاصد بدليل مقابلته بقوله: (ومنها جائر) أي ومن السبيل ما هو جائر أي مائل عن الغاية يورد سالكيه غيرها ويضلهم عنها.

ب. والمراد بكون قصد السبيل على الله وجوب جعل سبيل قاصد عليه تعالى يسلكه عباده فيوردهم مورد السعادة والفلاح وإذ لا حاكم غيره يحكم عليه فهو الذي أوجب على نفسه أن يجعل لهم طريقا هذا نعته ثم يهديهم إليه أما الجعل فهو ما جهز الله كل موجود ومنها الإنسان من القوى والأدوات بما لو استعملها كما نظمت أدته إلى سعادته وكماله المطلوب قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠] وقال في الإنسان خاصة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم: ٣٠]

ج. وأما الهداية فهي التي فعلها من ناحية الفطرة وتناهي بها من طريق بعث الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨] وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الدهر: ٣]

د. وإنما أدرج سبحانه هذه الآية بين هذه الآيات التي سياقها عد النعم العلوية والسفلية من السماء والأرض والأنعام والخيل والبغال والحمير والماء النازل من السماء والزرع ونظائرها لما أن الكلام انجر في آيتي الأنعام والخيل إلى معنى قطع الطرق وركوب المراكب فناسب أن يذكر ما أنعم به من الطريق المعنوي الموصل للإنسان إلى غايته الحقيقية يبتغيها في مسير الحياة كما أنعم بمثله في عالم المادة ونشأة الصورة.

هـ. فذكر سبحانه أن من نعمه التي من بها على عباده أن أوجب على نفسه لهم سبيلا قاصدا

يوصلهم إلى سعادة حياتهم فجعله لهم وهداهم إليه.

و. وقد نسب سبحانه قصد السبيل إلى نفسه دون السبيل الجائر لأن سبيل الضلال ليس سبيلا مجعولا له وفي عرض سبيل الهدى وإنما هو الخروج عن السبيل وعدم التلبس بسلوكه فليس بسبيل حقيقة وإنما هو عدم السبيل.

ز. وكيف كان فالآية ظاهرة في نسبة قصد السبيل إليه تعالى وترك نسبة السبيل الجائر المؤدي بسبب المقابلة إلى نفي نسبته إليه تعالى.

ح. وإذ كان من الممكن أن يتوهم أن لازم جعله قصد السبيل أن يكون مكفورا في نعمته مغلوبا في تدبيره وربوبيته حيث جعل السبيل ولم يسلكه الأكثرون وهدى إليه ولم يهتد به المدعوون دفعه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إن عدم اهتداء الجميع ليس لعجز منه سبحانه عن ذلك أو غلبة من هؤلاء المتخلفين وظهورهم عليه بل لأنه تعالى لم يشأ ذلك ولو شاء لم يسعهم إلا أن يهتدوا جميعا فهو القاهر الغالب على كل حال.

ط. وبعبارة أخرى السبيل القاصد الذي جعله الله تعالى هو السبيل المبني على اختيار الإنسان يقطعه بإتيان الأعمال الصالحة واجتناب المعاصي عن اختيار منه، وما هذا شأنه لم يكن مما يجبر عليه ولا عاما للجميع فإن الطبائع متنوعة والتراكيب مختلفة ولا محالة تتنوع آثارها، ويختلف الأفراد بالإيمان والكفر والتقوى والفجور والطاعة والمعصية.

٣. والآية مما تشاجرت فيها الأشاعرة والمعتزلة من فرق المسلمين:

أ. فاستدلت المعتزلة بأن تغيير الأسلوب بجعل قصد السبيل على الله دون السبيل الجائر للدلالة على ما يجوز إضافته إليه تعالى وما لا يجوز كما ذكره في الكشاف.

ب. وتكلفت الأشاعرة في الجواب عنه فمن مجيب بأن السبيلين جميعا منه تعالى وإنما لم ينسب السبيل الجائر إليه تأدبا، ومن مجيب بأن المراد بقوله: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أن عليه تعالى بيان السبيل الحق فضلا وكرما منه دون بيان السبيل الجائر وأما أصل الجعل فهما جميعا مجعولان له تعالى، ومن منكر أن يكون تغيير الأسلوب في الآية لأمر مطلوب.

ج. والحق أن دلالة الآية على كون قصد السبيل مضافا إليه تعالى دون السبيل الجائر مما لا ريب

فيه:

• لكن ذلك لا يستلزم كون السبيل الجائر مخلوقا لغيره تعالى لما تقدم أن سبيل الضلال ليس بسبيل حقيقة بل حقيقته عدم سلوك سبيل الهدى كما أن الضلال عدم الهدى فليس بأمر موجود حتى ينسب خلقه وإيجاده إليه تعالى وإنما ينسب الضلال إليه تعالى فيما ينسب بمعنى عدم هدايته للضال أي عدم إيجاده الهدى في نفسه.

• ومع ذلك فالذي ينسب إليه من الضلال كما في قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [فاطر: ٨] وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦] هو الضلال بطريق المجازاة دون الضلال الابتدائي، كما يفسره قوله: ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] فإذا فسق الإنسان وخرج بسوء اختياره عن زي العبودية بأن عصى ولم يرجع وهو ضلاله الابتدائي من قبل نفسه جازاه الله بالضلال بأن أثبته على حاله ولم يقض عليه الهدى.

• وأما الضلال الابتدائي من الإنسان فإنما هو انكفاف وقصور عن الطاعة وقد هداه الله من طريق الفطرة ودعوة النبوة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن زرارة عن أحدهما عليهماالسلام قال: سألته عن أبوال الخيل والبغال والحمير قال: نكرهها، قلت: أليس لحمها حلالا؟ قال: فقال: أليس قد بين الله لكم: ﴿وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ وقال في الخيل والبغال والحمير: ﴿لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾ فجعل الأكل من الأنعام التي قص الله في الكتاب، وجعل للركوب الخيل والبغال والحمير، وليس لحومها بحرام ولكن الناس عافوها.

• أقول: والروايات في الخيل والبغال والحمير مختلفة ومذهب أهل البيت عليه السلام حلية أكل لحومها على كراهية.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ قال: قال عليه السلام: العجائب التي خلقها الله في البر والبحر.

ج. وفي الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ﴾ أخرج عبد بن حميد وابن

المنذر وابن الأنباري في المصاحف، عن علي أنه كان يقرأ هذه الآية: ﴿فمنكم جائر﴾

٥. الماء والزرع والزيتون والنخيل والأعناب آيات للمتفكرين:

المقطع [٥] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١٤»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾:

أ. شروع في نوع آخر من النعم وهي النعم النباتية التي يقتات بها الإنسان وغيره وما سخر له لتدبير أمرها كالليل والنهار والشمس والقمر وما يحذو حذوها، ولذلك غير السياق فقال: ﴿هُوَ الَّذِي﴾، ولم يقل: وأنزل من السماء.

ب. ﴿تُسِيمُونَ﴾ من الإسامة وهي رعي المواشي ومنه السائمة للماشية الراعية و﴿مِنَ﴾ الأولى تبعيضية والثانية نشوئية والشجر من النبات ما له ساق وورق وربما توسع فأطلق على ذي الساق وغيره جميعا، ومنه الشجر المذكور في الآية لمكان قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ والباقي واضح.

٢. ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾، الزيتون شجر معروف ويطلق على ثمره أيضا يقال: إنه اسم جنس جمعي واحده زيتونة، وكذا النخيل، ويطلق على الواحد والجمع، والأعناب جمع عنبة وهي ثمرة شجرة الكرم ويطلق على نفس الشجرة كما في الآية، والسياق يفيد أن قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ تقديره ومن كل الثمرات أنبت أشجارها، ولعل التصريح بأسماء هذه الثمرات الثلاث بخصوصها وعطف الباقي عليها لكونها مما يقتات بها غالبا.

٣. ولما كان في هذا التدبير العام الوسيع الذي يجمع شمل الإنسان والحيوان في الارتزاق به حجة على وحدانيته تعالى في الربوبية ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

٦. تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آيات للعقلاء:

المقطع [٦] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١٥»:

١. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ إلى آخر الآية قد تكرر الكلام في معنى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، ولكون كل من المذكورات وكذا مجموع الليل والنهار ومجموع الشمس والقمر والنجوم ذا خواص وآثار في نفسه من شأنه أن يستقل بإثبات وحدانيته في ربوبيته تعالى ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فجمع الآيات في هذه الآية بخلاف الآيتين السابقة واللاحقة.

٢. ﴿وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾:

أ. الذرء الخلق، واختلاف ألوان ما ذرأه في الأرض غير ما مر كما يختلف ألوان المعادن وسائر المركبات العنصرية التي ينتفع بها الإنسان في معاشه ولا يبعد أن يكون اختلاف الألوان كناية عن الاختلاف النوعي بينها فتقرب الآية مضمونا من قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] وقد تقدم تقريب الاستدلال به.

ب. واختلاف الألوان فيما ذرأ في الأرض كإنبات الشجر والثمر أمر واحد يستدل به على وحدانيته في الربوبية ولذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ ولم يقل: لآيات.

٣. وهذه حجج ثلاث نسب الأولى إلى الذين يتفكرون، والثانية إلى الذين يعقلون، والثالثة إلى الذين يتذكرون، وذلك أن الحجة الأولى مؤلفة من مقدمات ساذجة يكفي في إنتاجها مطلق التفكر، والثانية مؤلفة من مقدمات علمية لا يتيسر فهمها إلا لمن غار في أوضاع الأجرام العلوية والسفلية وعقل آثار حركاتها وانتقالاتها، والثالثة مؤلفة من مقدمات كلية فلسفية إنما ينالها الإنسان بتذكر ما للوجود من الأحكام العامة الكلية كاحتياج هذه النشأة المتغيرة إلى المادة وكون المادة العامة واحدة متشابهة الأمر، ووجوب انتهاء هذه الاختلافات الحقيقية إلى أمر آخر وراء المادة الواحدة المتشابهة.

٧. تسخير البحر للأكل منه واستخراج الحلية ورؤية الفلك:

المقطع [٧] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١٦»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾:

أ. وهذا فصل آخر من النعم الإلهية وهو نعم البحر والجبال والأنهار والسبل والعلامات وكان ما تقدمه من الفصل مشتملا على نعم البر والسهل من الأشجار والأثمار ونحوها، ولذلك قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ ولم يقل: وسخر..

ب. والطري فعيل من الطراوة وهو الغض الجديد من الشيء على ما ذكره في المفردات، والمخر شق الماء عن يمين وشمال، يقال: مخرت السفينة تمخر مخرا فهي ماخرة ومخر الأرض أيضا شقها للزراعة، على ما في المجمع والمراد بأكل اللحم الطري من البحر هو أكل لحوم الحيتان المصطادة منه، وباستخراج حلية تلبسونها ما يستخرج منه بالغوص من أمثال اللؤلؤ والمرجان التي تتحلى وتتزين بها النساء.

٢. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي تشاهد السفائن تشق ماءه عن اليمين والشمال، ولعل قوله: ﴿وَتَرَى﴾ من الخطابات العامة التي لا يقصد بها مخاطب خاص وكثيرا ما يستعمل كذلك ومعناه يراه كل راء ويشاهده كل من له أن يشاهد فليس من قبيل الالتفات من خطاب الجمع السابق إلى خطاب الواحد.

٣. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتطلبوا بعض رزقه في ركوب البحر وإرسال السفائن فيه والجملة معطوفة على محذوف والتقدير وترى الفلك مواخر فيه لتنالوا بذلك كذا وكذا ولتبتغوا من فضله، وهو كثير النظير في كلامه تعالى.

٤. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ومن الغايات في تسخير البحر وإجراء الفلك فيه شكركم له المرجو منكم إذ هو من زيادته تعالى في النعمة فقد أغناكم بما أنعم عليكم في البر عن أن تتصرفوا في البحر بالغوص وإجراء السفن وغير ذلك لكنه تعالى زادكم بتسخير البحر لكم نعمة لعلكم تشكرونه على هذا الزائد فإن الإنسان قليلا ما يتنبه في الضروريات أنها نعمة موهوبة من لدنه سبحانه ولو شاء لقطعها وأما الزوائد النافعة فهي أقرب من هذا التنبه والانتقال.

٨. الرواسي والأنهار والسبل والنجم وسائل الهداية:

المقطع [٨] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١٧»:

١. ﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قال في المجمع: (الميد الميل يمينا وشمالا وهو الاضطراب ماد يميد ميدا)

٢. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي كراهة أن تميد بكم أو أن لا تميد بكم والمراد أنه طرح على الأرض جبالا ثوابت لئلا تضطرب وتميل يمينا وشمالا فيختل بذلك نظام معاشكم.

٣. ﴿وَأَنْهاراً﴾ أي وجعل فيها أنهارا تجري بمائها وتسوقه إلى مزارعكم وبساتينكم وتسقيكم وما عندكم من الحيوان الأهلي.

٤. ﴿وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿وَأَنْهاراً﴾ أي وجعل سبلا لغاية الاهتداء المرجو منكم، والسبل منها ما هي طبيعية وهي المسافات الواقعة بين بقعتين من الأرض الواصلة إحداهما بالأخرى من غير أن يقطع ما بينهما بحاجب أو مانع كالسهل بين الجبلين، ومنها ما هي صناعية وهي التي تتكون بعبور المارة وآثار الأقدام أو يعملها الإنسان.

ب. والظاهر من السياق عموم السبل لكلا القسمين، ولا ضير في نسبة ما جعله الإنسان إلى جعله تعالى كما نسب الأنهار والعلامات إلى جعله تعالى وأكثرها من صنع الإنسان وكما نسب ما عمله الإنسان من الأصنام وغيرها إلى خلقه تعالى في قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]

ج. وذلك أنها كائنة ما كانت من آثار مجعولاته تعالى وجعل الشيء ذي الأثر جعل لأثره بوجه وإن لم يكن جعلا مستقيما من غير واسطة.

٥. ﴿وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾:

أ. العلامات جمع علامة وهي ما يعلم به الشيء، وهو معطوف على قوله: ﴿أَنْهاراً﴾ أي وجعل علامات تستدلون بها على الأشياء الغائبة عن الحس وهي كل آية وأمارة طبيعية أو وضعية تدل على مدلولها ومنها الشواخص والنصب واللغات والإشارات والخطوط وغيرها.

ب. ثم ذكر سبحانه الاهتداء بالنجوم فقال: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ولعل الالتفات فيه من الخطاب إلى الغيبة للتحرز عن تكرار ﴿تَهْتَدُونَ﴾ بصيغة الخطاب في آخر الآيتين.

٦. والآية السابقة: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ المتضمنة لمسألة

الهداية المعنوية التي هي كالمعترضة بين الآيات العادة للنعم الصورية وإن كان الأنسب ظاهرا أن يوضع بعد هذه الآية أعني قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ المتعرضة هي وما قبلها للهداية الصورية غير أن ذلك لم يكن خاليا من اللبس وإيهام التناقض بخلاف موقعها الذي هي واقعة فيه وإن كانت كالمعترضة كما هو ظاهر.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن إسماعيل بن أبي زياد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: هو الجدي لأنه نجم لا يدور عليه بناء القبلة، وبه يهتدي أهل البر والبحر.

• أقول: وهو مروي عن الصادق عليه السلام أيضا.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن داود الجصاص قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: النجم رسول الله ﷺ والعلامات الأئمة عليهمالسلام:

• أقول: ورواه أيضا بطريقين آخرين عنه وعن الرضا عليه السلام ورواه العياشي والقمي في تفسيريهما، والشيخ في أماليه، عن الصادق عليه السلام.

• وليس بتفسير وإنما هو من البطن ومن الدليل عليه ما رواه الطبرسي في المجمع: (قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: نحن العلامات والنجم رسول الله ﷺ ولقد قال: إن الله جعل النجوم أمانا لأهل السماء، وجعل أهل بيتي أمانا لأهل الأرض.

٩. عدم استواء الخالق وغير الخالق:

المقطع [٩] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١٨»:

١. ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ﴾:

أ. الآيات تقرير إجمالي للحجة المذكورة تفصيلا في ضمن الآيات الست عشرة الماضية واستنتاج للتوحيد وهي حجة واحدة أقيمت لتوحيد الربوبية، وملخصها أن الله سبحانه خالق كل شيء فهو الذي أنعم بهذه النعم التي لا يحيط بها الإحصاء التي ينتظم بها نظام الكون، وهو تعالى عالم بسرها وعلنها فهو

الذي يملك الكل ويدبر الأمر فهو ربها، وليس شيء مما يدعونه على شيء من هذه الصفات فليست أربابا فالإله واحد لا غير وهو الله عز اسمه.

ب. ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم أن الآيات تثبت التوحيد من طريقين طريق الخلقة وطريق النعمة، بيان الفساد أن طريق الخلقة وحدها إنما تثبت الصانع ووحدانيته في الخلق والإيجاد، والوثنيون، وإليهم وجه الكلام في الآيات، لا ينكرون وجود الصانع ولا أن الله سبحانه خالق الكل حتى أوثانهم وأن أوثانهم ليسوا بخالقين لشيء وإنما يدعون لأوثانهم تدبير أمر العالم بتفويض من الله لذلك إليهم والشفاعة عند الله فلا يفيد إثبات الصانع تجاه هؤلاء شيئا.

ج. وإنما سيقت آيات الخلقة لتثبيت أمر النعمة إذ من البين أنه إذا كان الله سبحانه خالقا لكل شيء موجودا له كانت آثار وجودات الأشياء وهي النعم التي يتنعم بها له سبحانه كما أن وجوداتها له ملكا طلقا لا يقبل بطلانا ولا نقلا ولا تبديلا فهو سبحانه المنعم بها حقيقة لا غيره من شيء حتى الذي نفس النعمة من آثار وجوده فإنه وما له من أثر هو لله وحده.

د. ولذلك ضم إلى حديث الخلق والإنعام قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ لأن مجرد استناد الخلق والإنعام إلى شيء لا يستلزم ربوبيته ولا يستوجب عبادته لولا انضمام العلم إليهما ليتم بذلك أنه مدبر يهدي كل شيء إلى كماله المطلوب له وسعادته المكتوبة في صحيفة عمله، ومن المعلوم أن العبادة إنما تستقيم عبادة إذا كان المعبود موسوما بسمة العلم عالما بعبادة من يعبده شاهدا لخضوعه.

هـ. فمجموع ما تتضمنه الآيات من حديث الخلق والنعمة والعلم مقدمات لحجة واحدة أقيمت على توحيد الربوبية الذي ينكره الوثنية كما عرفت.

٢. فقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ قياس ما له سبحانه من النعت إلى ما لغيره منه ونفي للمساواة، والاستفهام للإنكار، والمراد بمن لا يخلق آلهتهم الذين يدعونهم من دون الله، وبيانه، كما ظهر مما تقدم، أن الله سبحانه يخلق الأشياء ويستمر في خلقها فلا يستوي هو ومن لا يخلق شيئا فإنه تعالى لخلقه الأشياء يملك وجوداتها وآثار وجوداتها التي هي الأنظمة الخاصة بها والنظام العام الجاري عليها.

١٠. نعم الله لا تُحصى:

المقطع [١٠] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢١٩»:

١. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾، إشارة إلى كثرة النعم الإلهية كثرة خارجة عن حيطة الإحصاء، وبالحقيقة ما من شيء إلا وهو نعمة إذا قيس إلى النظام الكلي وإن كان ربما وجد بينها ما ليس بنعمة إذا قيس إلى بعض آخر.

٢. وقد علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهو من ألطف التعليل وأدقه فأفاد سبحانه أن خروج النعمة عن حد الإحصاء إنما هو من بركات اتصافه تعالى بصفتي المغفرة والرحمة فإنه بمغفرته، والمغفرة هي الستر، يستر ما في الأشياء من وبال النقص وشوهة القصور، وبرحمته والرحمة إتمام النقص ورفع الحاجة، يظهر فيها الخير والكمال ويحليها بالجمال فببسط المغفرة والرحمة على الأشياء يكون كل شيء نافعا في غيره خيرا مطلوبا عنده فيصير نعمة بالنسبة إليه فالأشياء بعضها نعمة لبعض فللنعمة الإلهية من السعة والعرض ما لمغفرته ورحمته من ذلك: فإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، فافهم ذلك.

٣. والآية من الموارد التي استعملت فيها المغفرة في غير الذنب والمعصية للأمر المولوي هو المعروف عند المتشرعة.

١١. الله يعلم السر والعلن، والذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئاً:

المقطع [١١] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ١٩ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٢٠»:

١. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾:

أ. إشارة إلى الركن الثالث من أركان الربوبية وهو العلم فإن الإله لو كان غير متصف بالعلم استوت العبادة واللاعبادة بالنسبة إليه فكانت عبادته لغوا لا أثر لها، فمن الواجب في الرب المعبود أن يكون له علم ولا كل علم، كيفما كان بل العلم بظاهر من يعبده وباطنه فإن العبادة متقومة بالنية فهي إنما تقع عبادة حقيقة إذا أتي بها عن نية صالحة وهو مما يرجع إلى الضمير فلا يتم العلم بكون صورة العبادة واجدة لحقيقة معناها إلا بعد إحاطة المعبود بظاهر من يعبده وباطنه لكن الله سبحانه عليم بما يسره الإنسان

وما يعلنه كما أنه خالق منعم ويستحق بذلك أن يعبد.

ب. ومن هنا يظهر وجه اختيار ما في الآية من التعبير لبيان علمه فلم يعبر بمثل قوله: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ وقوله: ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بل قال: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ فذكر العلم بالإسرار والإعلان، وأضافه إلى الإنسان لأن الكلام في عبادة الإنسان لربه، والواجب في العلم بالعبادة المرتبطة بعمل الجوارح والقلب جميعا أن يكون عالما بما يسره الإنسان وما يعلنه من النية القلبية والأحوال والحركات البدنية.

٢. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إشارة إلى فقدان الركن الأول من أركان الربوبية في آلهتهم الذين يدعون من دون الله ويتفرع عليه الركن الثاني وهو إيتاء النعمة، فليس الذين يدعونهم آلهة وأربابا والله الرب.

٣. ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾:

أ. إشارة إلى فقدان الركن الثالث من أركان الربوبية في أصنامهم وهو العلم بما يسرون وما يعلنون وقد بالغ في نفي ذلك فنفى أصل الحياة المستلزم لنفي مطلق العلم فضلا عن نوعه الكامل الذي هو العلم بما يسرون وما يعلنون فقال: ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ فأثبت الموت أولا وهو لا يجامع الشعور ثم أكده بنفي الحياة ثانيا.

ب. وخص من وجوه جهلهم عدم شعورهم متى يبعث عبادهم من الناس فقال: ﴿وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي ما يدري الأصنام أيان يبعث عبادهم فإن العبادة هي التي يجزى بها الإنسان يوم البعث فمن الواجب في الإله المعبود أن يعلم متى يوم البعث حتى يجزي عباده فيه عن عبادتهم، وهؤلاء لا يدرون شيئا من ذلك.

ج. ومن هنا يظهر أن أول ضميري الجمع ﴿يَشْعُرُونَ﴾ للأصنام والثاني ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للمشركين، وأما إرجاعهما كليهما إلى الأصنام فغير مرضي لأن العلم بالبعث مختص به سبحانه محجوب عن غيره ولا يختص الجهل به بالأصنام، وأردأ منه قول بعضهم: (إن ضميري الجمع معا في الآية عائدان إلى المشركين، هذا.

٤. والآيات وإن كانت مسوقة بظاهرها لنفي ربوبية الأصنام لكن البيان بعينه بأدنى دقة جار في

أرباب الأصنام كالملائكة المقربين والجن والكملين من البشر والكواكب من كل ما يعبده الوثنيون فإن صفات الخلق والإنعام والعلم لا تقوم بالأصالة والاستقلال إلا بالله سبحانه، ولا ربوبية حقيقة إلا بالأصالة والاستقلال، فافهم.

٥. وفي الآيتين أعني قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿يُبْعَثُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، ولعل النكتة فيه ذكر يوم البعث فيهما والمشركون لا يقولون به فحول الخطاب منهم إلى النبي ﷺ للتوسل بذلك إليه من غير اعتراض.

١٢. الله إله واحد، والمستكبرون منكرون للآخرة:

المقطع [١٢] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٢٧»:

١. ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ واحِدٌ﴾ بيان لنتيجة الحجة التي أقيمت في الآيات السابقة أي إذا كان الله سبحانه هو الواجد لما تتوقف عليه الألوهية وهي المعبودية بالحق، وغيره تعالى ممن يدعون من دونه غير واجد لشيء مما تتوقف عليه وهو الخلق والإنعام والعلم فإلهكم الذي يحق له أن يعبد واحد ولازم معناه أنه الله عز اسمه.

٢. ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ قد تقدم الكلام في قوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ واحِدٌ﴾ وأنه نتيجة الحجة التي أقيمت في الآيات السابقة.

٣. ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾:

أ. تفريع عليه، وافتتاح لفصل جديد من الكلام حول أعمال الكفار من أقوالهم وأعمالهم الناشئة عن عدم إيمانهم بالله سبحانه وإنما ذكر عدم إيمانهم بالآخرة ولم يذكر عدم إيمانهم بالله وحده لأن الذي أقيمت عليه الحجة هو التوحيد الكامل وهو وجوب الاعتقاد بإله عليم قدير خلق كل شيء وأتم النعمة لا لغوا باطلا بل بالحق ليرجعوا إليه فيحاسبهم على ما عملوا ويجازيهم بما اكتسبوا مما عهده إليهم من الأمر والنهي بواسطة الرسل.

ب. فالتوحيد المندوب إليه في الآيات الماضية هو القول بوحدانيته تعالى والإيمان بما أتى به رسل

الله والإيمان بيوم الحساب والجزاء، ولذلك وصف الكفار بعدم الإيمان بالآخرة لأن الإيمان بها يستلزم الإيمان بالوحدانية والرسالة.

ج. ولك أن تراجع في استيضاح ما ذكرناه قوله في أول الآيات: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإنه كلام جامع للأصول الثلاثة.

٤. ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ أي للحق وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن الحق، والاستكبار، على ما ذكروه، طلب الترفع بترك الإذعان للحق، والمعنى: إلهكم واحد على ما تدل عليه الآيات الواضحة في دلالتها، وإذا كان الأمر على هذا الوضوح والجلاء لا يستتر بستر ولا يرتاب فيه فهم فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة للحق جاحدة له عنادا وهم مستكبرون عن الانقياد للحق من غير حجة ولا برهان.

٥. ﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾:

أ. ﴿لا جَرَمَ﴾ كلمة مركبة باقية على حالة واحدة يفيد معنى التحقيق على ما ذكره الخليل وسيبويه وإليه يرجع ما ذكره غيرهما وإن اختلفوا في أصل تركبه قال الخليل: وهو كلمة تحقيق ولا يكون إلا جوابا يقال فعلوا كذا فيقول السامع: لا جرم يندمون.

ب. والمعنى من المحقق، أو حق ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ﴾، وهو كناية وتهديد بالجزاء السيئ أي إنه يعلم ما يخفونه من أعمالهم وما يظهرونه فسيجزيهم بما عملوا ويؤاخذهم على ما أنكروا واستكبروا إنه لا يحب المستكبرين.

٦. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (السطر والسطر، بفتح فسكون أو بفتحتين، السطر من الكتابة ومن الشجر المغروس ومن القوم الوقوف، إلى أن قال، وجمع السطر أسطر وسطور وأسطار)، قال: (وأما قوله: ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فقد قال المبرد: هي جمع أسطورة نحو أرجوحة وأراجيح وأثفية وأثافي وأحدوثة وأحاديث، وقوله تعالى: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي شيء كتبوه كذبا ومينا فيما زعموا نحو قوله تعالى: ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾) وقال غيره: أساطير جمع أسطار وأسطار جمع سطر فهو جمع الجمع.

ب. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يمكن أن يكون القائل بعض المؤمنين وإنما قاله اختبارا لحالهم واستفهاما لما يرونه في الدعوة النبوية، ويمكن أن يكون من المشركين وإنما قاله لهم ليقلدهم فيما يرونه، وعبر عن القرآن بمثل قوله: ﴿ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ لنوع من التهكم والاستهزاء، ويمكن أن يكون شاكا متحيرا باحثا، والآية التالية وكذا قوله فيما سيأتي: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يؤيد أحد الوجهين الأخيرين.

ج. ﴿قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي الذي يسأل عنه أكاذيب خرافية كتبها الأولون وأثبتوها وتركوها لمن خلفهم، ولازم هذا القول دعوى أنه ليس نازلا من عند الله سبحانه.

٧. ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في المفردات: (الوزر، بفتحتين، الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل، قال تعالى: ﴿كَلَّا لا وَزَرَ إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ والوزر بالكسر فالسكون، الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً﴾ الآية كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾.، وحمل وزر الغير بالحقيقة هو على نحو ما أشار إليه ﷺ بقوله: (من سن سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شيء، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها) أي مثل وزر من عمل بها، وقوله: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي لا تحمل وزره من حيث يتعرى المحمول عنه)

ب. والذي ذكره من الحديث النبوي مروي من طرق الخاصة والعامة جميعا ويصدقه من الكتاب العزيز مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ج. وأما قوله في تفسير قوله ﷺ: (كان له وزرها ووزر من عمل بها): أي مثل وزر من عمل بها فكلام ظاهري لا بأس بأن يوجه به الآية والرواية لرفع التناقض بينهما وبين مثل قوله تعالى: ﴿لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ﴾ [هود: ١١١] إذ لو حمل الآمر وزر السيئة وعذب بعذابها دون الفاعل ناقض ذلك الآية الأولى، ولو قسم بينهما وحمل كل منهما بعض الوزر وعذب

ببعض العذاب ناقض الآية الثانية، وأما لو حمل السان والآمر مثل ما للعامل الفاعل لم يناقض شيئا.

د. وأما بحسب الحقيقة فكما أن العمل عمل واحد حسنة أو سيئة كذلك وزره وعذابه مثلا واحد لا تعدد فيه، غير أن نفس العمل لما كان قائما بأكثر من واحد، قيامه بالآمر والفاعل قياما طوليا لا عرضيا يوجب المحذور، كانت تبعته من الوزر والعذاب قائمة بأكثر من واحد، فهناك وزر واحد يزرها اثنان، وعذاب واحد يعذب به الآمر والفاعل جميعا.

هـ. ويسهل تصور ذلك بالتأمل في مضمون الآيات المبنية على تجسم الأعمال فإن العمل كالسيئة مثلا على تقدير التجسم واحد شخصي يتمثل لاثنين ويعذب بتمثله إنسانين الآمر والفاعل أو السان والمستن فهو بوجه بعيد كالشخص الواحد يتصوره اثنان فيلتذان أو يتألمان معا به وليس إلا واحدا.

و. وقد تقدم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الآية في الجزء التاسع من الكتاب، وسيأتي إن شاء الله تفصيل القول فيه فيما يناسبه من المورد.

ز. وكيف كان فقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اللام للغاية وهي متعلقة بقوله: ﴿قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وفي قوله: ﴿يُضِلُّونَهُمْ﴾ دلالة على أن حملهم لأوزار غيرهم إنما هو من جهة إضلالهم فيعود الإضلال غاية والحمل غاية الغاية، والتقدير قالوا أساطير الأولين ليضلوهم وهم أنفسهم ضالون فيحملوا أوزار أنفسهم كاملة ومن أوزار أولئك الذين يضلونهم بغير علم.

ح. وفي تقييد قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ﴾ بقوله: ﴿كامِلَةً﴾ دفع لتوهم التقسيم والتبعيض بأن يحملوا بعضا من أوزار أنفسهم وبعضا من أوزار الذين يضلونهم فيعود الجميع أوزارا كاملة بل يحملون أوزار أنفسهم كاملة ثم من أوزار الذين يضلونهم.

٨. ﴿وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾:

أ. من تبعيضية لأنهم لا يحملون جميع أوزارهم بل أوزارهم التي ترتبت على إضلالهم خاصة بشهادة السياق فالتبعيض إنما هو لتمييز الأوزار المترتبة على الإضلال من غيرها لا للدلالة على تبعيض كل وزر من أوزار الإضلال وحمل بعضه على هذا وبعضه على ذاك ولا تقسيم مجموع أوزار الإضلال وحمل قسم منه على هذا وقسم منه على ذاك مع تعريته عن القسم الآخر فإن أمثال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ

ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزال: ٨] تنافي ذلك فافهم.

ب. ومما تقدم يظهر وهن ما استفاده بعضهم من قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ أن مقتضاه أنه لم ينقص منها شيء ولم تكفر بنحو بلية تصيبهم في الدنيا أو طاعة مقبولة فيها كما تكفر بذلك أوزار المؤمنين.

ج. وكذا ما استفاده بعض آخر أن في الآية دلالة على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين إذ لو كان هذا المعنى حاصلا للكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار به فائدة.

د. وجه الوهن أن ما ذكراه من خزي الكافرين وإكرام المؤمنين وإن كان حقا في نفسه كما تدل عليه الآيات الدالة على خزي الكفار بما يصيبهم في الدنيا وحبط أعمالهم وشمول المغفرة والشفاعة لطائفة من المؤمنين، لكن هذه الآية ليست ناظرة إلى شيء من ذلك بل العناية فيها إنما هي بالفرق بين أوزار أنفسهم وأوزار غيرهم الذين أضلوهم وأن الطائفة الثانية يلحقهم بعضها وهي التي ترتبت من الأوزار على الإضلال بخلاف الطائفة الأولى فهي لهم أنفسهم.

هـ. وأوهن منهما ما ذكره بعضهم أن ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ﴾ زائدة أو بيانية، وهو كما ترى.

و. وتقييده سبحانه قوله: ﴿يُضِلُّونَهُمْ﴾ بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للدلالة على أن الذين أضلهم هؤلاء المشركون الذين قالوا: أساطير الأولين إنما ضلوا باتباعهم لهم تقليدا وبغير علم فالقائلون أئمة الضلال وهؤلاء الضلال أتباعهم ومقلدوهم ثم ختم سبحانه الآية بذمهم وتقبيح أمرهم جميعا فقال: ﴿أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ﴾

١٣. الأساطير والأوزار والإضلال:

المقطع [١٣] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٤ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣٢»:

ظظ:

١٤. المكر والبنيان والعذاب:

المقطع [١٤] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣٢»:

١. ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾:

أ. إتيانه تعالى بنيانهم من القواعد هو حضور أمره تعالى عنده بعد ما لم يكن حاضرا، وهذا شائع في الكلام وخرور السقف سقوطه على الأرض وانهدامه.

ب. والظاهر، كما يشعر به السياق، أن قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ كناية عن إبطال كيدهم وإفساد مكرهم من حيث لا يتوقعون كمن يتقي أمامه ويراقبه فيأتيه العدو من خلفه فالله سبحانه يأتي بنيان مكرهم من ناحية قواعده وهم مراقبون سقفه مما يأتيه من فوق فينهدم عليهم السقف لا بهادم يهدمه من فوقه بل بانهدام القواعد.

ج. وعلى هذا فقوله: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ عطف تفسيري يفسر قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ﴾ والمراد بالعذاب العذاب الدنيوي.

٢. وفي الآية تهديد للمشركين الذين كانوا يمكرون بالله ورسوله بتذكيرهم ما فعل الله بالماكرين من قبلهم من مستكبري الأمم الماضية حيث رد مكرهم إلى أنفسهم فكانوا هم الممكورين.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: بيت مكرهم أي ماتوا وأبقاهم الله في النار، وهو مثل لأعداء آل محمد.

• أقول: وظاهره أن قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ﴾ كناية عن بطلان مكرهم.

ب. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ قال: كان بيت غدر يجتمعون فيه إذا أرادوا الشر.

١٥. القيامة والخزي والشركاء:

المقطع [١٥] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ

شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣٢»:

١. ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾:

أ. الإخزاء من الخزي وهو على ما ذكره الراغب الذل الذي يستحيي منه، والمشاقة من الشق وهو قطع بعض الشيء وفصله منه فهي المخاصمة والمعاداة والاختلاف ممن من شأنه أن يأتلف ويتفق فمشاقة المشركين في شركائهم هو اختلافهم مع أهل التوحيد وهم أمة واحدة فطرهم الله جميعا على التوحيد ودين الحق ومخاصمتهم لهم وانفصالهم عنهم.

ب. والمعنى: أن الله سبحانه سيخزيهم يوم القيامة ويضرب عليهم الذلة والهوان بقوله: أين شركائي الذين كنتم تشاقون أهل الحق فيهم وتخاصمونهم وتوجدون الاختلاف في دين الله.

٢. ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾:

أ. الخزي ذلة الموقف والسوء العذاب على ما يفيده السياق.

ب. وهؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم أوتوا العلم وأخبر أنهم يتكلمون بكذا هم الذين رزقوا العلم بالله وانكشفت لهم حقيقة التوحيد فإن ذلك هو الذي يعطيه السياق من جهة المقابلة بينهم مع وصفهم بالعلم وبين المشركين الذين ينكشف لهم يومئذ أنهم ما كانوا يعبدون إلا أسماء سموها وسرابا توهموه.

ج. على أن الله سبحانه يخبر عنهم أنهم يتكلمون يومئذ ويقولون كذا وقد قال في وصف اليوم: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ [النبأ: ٣٨] والقول لا يكون صوابا بحق المعنى إلا مع كون قائله مصونا من خطأه ولغوه وباطله، ولا يكون مصونا في قوله إلا إذا كان مصونا في فعله وفي علمه فهؤلاء قوم لا يرون إلا الحق ولا يفعلون إلا الحق ولا ينطقون إلا بالحق.

٣. سؤال وإشكال: فإن قلت: فالذين أوتوا العلم بناء على ما فسر، هم أهل العصمة لكن تدفعه كثرة ورود هذه اللفظة في كلامه تعالى وإرادة غيرهم كقوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠] وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج: ٥٤] إلى غير ذلك من الموارد الظاهر فيها عدم إرادة العصمة من إيتاء العلم، والجواب:

أ. ما ذكرناه إنما هو استفادة بمئونة المقام لا أنه مدلول اللفظ كلما أطلق في كلامه تعالى.

ب. وأما قولهم: إن المراد بالذين أوتوا العلم هم الأنبياء فقط أو الأنبياء والمؤمنون الذين علموا في الدنيا بدلائل التوحيد أو المؤمنون فحسب أو الملائكة فلا دليل في كلامه تعالى على واحد منها بخصوصه.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الآية، قال: قال عليه السلام: الذين أوتوا العلم الأئمة يقولون لأعدائهم: أين شركاؤكم ومن أطعتموهم في الدنيا؟ ثم قال: قال: فهم أيضا الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ سلموا لما أصابهم من البلاء ثم يقولون: ﴿ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فرد الله عليهم فقال: ﴿بَلَى﴾

١٦. الملائكة والظالمون وأبواب جهنم:

المقطع [١٦] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣٤»:

١. ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ إلى آخر الآية الظاهر أنه تفسير للكافرين الواقع في آخر الآية السابقة كما أن قوله الآتي: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ إلخ، تفسير للمتقين الواقع في آخر الآية التي قبله، ولا يستلزم كونه بيانا للكافرين كونه من تمام قول الذين أوتوا العلم حتى يختل نظم الكلام بقولهم: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾، ثم بيانهم بقولهم: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ دون أن يقولوا: الذين توفاهم الملائكة كما لا يخفى.

٢. ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي الاستسلام وهو الخضوع والانقياد، وضمير الجمع للكافرين والمعنى الكافرون هم الذين تتوفاهم الملائكة ويقبضون أرواحهم والحال أنهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم بالله فألقوا السلم وقدموا الخضوع والانقياد مظهرين بذلك أنهم ما كانوا يعملون من سوء، فيرد عليهم قولهم ويكذبون ويقال لهم: بلى قد فعلتم وعملتم إن الله عليم بما كنتم تعملون قبل ورودكم هذا المورد وهو الموت.

٣. ﴿فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾:

أ. الخطاب للمجموع كما كان قوله: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ وكذا قوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾، ناظرا إلى جماعة الكافرين دون كل واحد منهم.

ب. وعلى هذا يعود معناه إلى مثل قولنا ليدخل كل واحد منكم بابا من جهنم يناسب عمله وموقفه من الكفر لا أن يدخل كل واحد منهم جميع الأبواب أو أكثر من واحد منها، وقد تقدم الكلام في معنى أبواب جهنم في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]

ج. والمتكبرون هم المستكبرون بحسب المصداق وإن كانت العناية اللفظية مختلفة فيهما كالمسلم والمستسلم فالمستكبر هو الذي يطلب الكبر لنفسه بإخراجه من القوة إلى الفعل وإظهاره لغيره والمتكبر هو الذي يقبله لنفسه ويأخذه صفة.

١٧. المتقون والإنزال والجنات:

المقطع [١٧] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠-٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣٤»:

١. ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً﴾ إلى آخر الآية:

أ. أخذ المسئول عنهم هم الذين اتقوا أي الذين شأنهم في الدنيا أنهم تلبسوا بالتقوى وهم المتصفون به المستمرون بدليل إعادة ذكرهم بعد بلفظ المتقين مرتين فيكون المسئول عنهم من هذه الطائفة خيارهم الكاملين في الإيمان كما كان المسئول عنهم في الطائفة الأخرى شرارهم الكاملين في الكفر وهم المستكبرون.

ب. فقول بعضهم: (إن المراد بالذين اتقوا مطلق المؤمنين الذين اتقوا الشرك أو الشرك والمعاصي في الجملة، ليس في محله.

ج. ﴿قالُوا خَيْراً﴾ أي أنزل خيرا لأنه أنزل قرآنا يتضمن معارف وشرائع في أخذها والعمل بها خير الدنيا والآخرة وفي قولهم: ﴿خَيْراً﴾ اعتراف بكون القرآن نازلا من عنده تعالى مضافا إلى وصفهم له بالخيرية وفي ذلك إظهار منهم المخالفة للمستكبرين حيث أجابوا بقولهم: ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هو أساطير ولو قال المتقون: خير بالرفع لم يكن فيه اعتراف بالنزول كما أنه لو قال المستكبرون: أساطير الأولين بالنصب كان فيه اعتراف بالنزول، كذا قيل.

٢. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه بيان لقولهم: ﴿خَيْراً﴾ وهل هو تتمة قولهم أو بيان منه تعالى؟ ظاهر قوله: ﴿وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إلى آخر الآية أنه كلام منه تعالى يبين به وجه الخيرية فيما أنزله إليهم فإنه أشبه بكلام الرب تعالى منه بكلام المربوب وخاصة المتقين الذين لا يجترءون على أمثال هذه الاقتراحات.

ب. والمراد بالحسنة المثوبة الحسنة وذلك لأنهم بالإحسان الذي هو العمل بما يتضمنه الكتاب يرزقون مجتمعا صالحا يحكم فيه العدل والإحسان وعيشة طيبة مبنية على الرشد والسعادة ينالون ذلك جزاء دنيويا لإحسانهم لقوله: ﴿لهم في الدنيا﴾ ولدار الحياة الآخرة خير جزاء لأن فيها بقاء بلا فناء ونعمة من غير نقمة وسعادة ليس معها شقاء.

ج. ومعنى الآية: وقيل للمتقين من المؤمنين ما ذا أنزل ربكم من الكتاب وما شأنه؟ قالوا أنزل خيرا، وكونه خيرا هو أن للذين أحسنوا، أي عملوا بما فيه فوضع الإحسان موضع الأخذ والعمل بما في الكتاب إيماء إلى أن الذي يأمر به الكتاب أعمال حسنة، في هذه الدنيا مثوبة حسنة ولدار الآخرة خير لهم جزاء.

٣. ثم مدح دارهم ليكون تأكيدا للقول فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ثم بين دار المتقين بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾ والمعنى ظاهر.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في أمالي الشيخ، بإسناده عن أبي إسحاق الهمداني عن أمير المؤمنين عليه السلام: فيما كتبه إلى أهل مصر قال: يا عباد الله، إن أقرب ما يكون العبد من المغفرة والرحمة، حين يعمل بطاعته وينصح في توبته، عليكم بتقوى الله فإنها يجمع الخير، ولا خير غيرها ويدرك بها من خير الدنيا وخير الآخرة، قال عز وجل: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ، قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ، وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ﴾

ب. وفي تفسير العياشي، عن ابن مسكان عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ﴾ قال الدنيا.

ج. أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: اجتمعت قريش فقالوا: إن محمدا رجل حلو اللسان، إذا كلمه الرجل ذهب بعقله، فانظروا أناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم، فابعثوهم في كل طريق

من طرق مكة على رأس كل ليلة، أو ليلتين فمن جاء يريده فردوه عنه ـ، فخرج ناس منهم في كل طريق، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد؟ فينزل بهم قالوا له: أنا فلان بن فلان فيعرفه بنسبه ويقول: أنا أخبرك بمحمد فلا يريد أن يعني إليه، هو رجل كذاب لم يتبعه على أمره، إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له، فيرجع أحدهم فذلك قوله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فإذا كان الوافد ممن عزم الله له على الرشاد، فقالوا له مثل ذلك في محمد قال: بئس الوافد أنا لقومي إن كنت جئت، حتى بلغت إلا مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل، وأنظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم: ما ذا يقول محمد؟ فيقولون: خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، يقول مال ولدار الآخرة خير وهي الجنة.

• أقول: والاعتبار يساعد على القصة وما في آخرها من تفسير الحسنة بالمال غير مرضي.

١٨. الملائكة تتوفى الطيبين وتسلم عليهم وتدخلهم الجنة:

المقطع [١٨] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣٦»:

١. ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. بيان للمتقين كما كان قوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بيانا للمستكبرين.

ب. والطيب تعري الشيء مما يختلط به فيكدره ويذهب بخلوصه ومحوضته يقال: طاب لي العيش أي خلص وتعرى مما يكدره وينقصه والقول الطيب ما كان عاريا من اللغو والشتم والخشونة وسائر ما يوجب فيه غضاضة والفرق بين الطيب والطهارة أن الطهارة كون الشيء على طبعه الأصلي بحيث يخلو عما يوجب التنفر عنه والطيب كونه على أصله من غير أن يختلط به ما يكدره ويفسد أمره سواء تنفر عنه أم لا ولذلك قوبل الطيب بالخبيث المشتمل على الخبث الزائد، قال تعالى: ﴿الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ﴾ [النور: ٢٦] وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾ [الأعراف: ٥٨]

ج. وعلى هذا فالمراد بكون المتقين طيبين في حال توفيهم خلوصهم من خبث الظلم في مقابل

المستكبرين الذين وصفهم بالظلم حال التوفي في قوله السابق: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ويكون معنى الآية أن المتقين هم الذين تتوفاهم الملائكة متعرين عن خبث الظلم، الشرك والمعاصي، يقولون لهم سلام عليكم، وهو تأمين قولي لهم ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهو هداية لهم إليها.

د. فالآية، كما ترى، تصف المتقين بالتخلص عن التلبس بالظلم وتعدهم الأمن والاهتداء إلى الجنة فيعود مضمونها إلى معنى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]

هـ. وذكر بعض المفسرين أن المراد بالطيب في الآية الطهارة عن دنس الشرك وفسره بعضهم بكون أقوالهم وأفعالهم زاكية، والأكثر على تفسيره بالطهارة عن قذارة الذنوب وأنت بالتأمل فيما تقدم تعرف أن شيئا مما ذكروه لا يخلو عن تسامح.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ قال: قال عليه السلام، هم المؤمنون الذين طابت مواليدهم في الدنيا.

• أقول: وهو بالنظر إلى ما يقابله من قوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية لا يخلو عن خفاء والرواية ضعيفة.

١٩. الكفار ينتظرون الملائكة أو أمر الله:

المقطع [١٩] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ [النحل: ٣٣-٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣٦»:

١. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾:

أ. رجوع إلى حديث المستكبرين من المشركين وذكر بعض أحوالهم وأقوالهم وقياسهم ممن سبقهم من طغاة الأمم الماضين وما آل إليه أمرهم.

ب. سياق الآية وخاصة ما في الآية التالية من حديث العذاب ظاهر في أنها مسوقة للتهديد فالمراد بإتيان الملائكة نزولهم لعذاب الاستئصال وينطبق على مثل قوله: ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] والمراد بإتيان أمر الرب تعالى قيام الساعة وفصل القضاء والانتقام الإلهي منهم.

ج. وأما كون المراد بإتيان الأمر ما تقدم في أول السورة من قوله: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ وقد قربنا هناك أن المراد به مجيء النصر وظهور الإسلام على الشرك فلا يلائم اللحن الشديد الذي في الآية تلك الملاءمة، وأيضا سيأتي في ذيل الآيات ذكر إنكارهم للبعث وإصرارهم على نفيه والرد عليهم، وهو يؤيد كون المراد بإتيان الأمر قيام الساعة.

د. وقد أضاف الرب إلى النبي ﷺ فقال: ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: أمر الله أو أمر ربهم ليدل به على أن فيه انتصارا له ﷺ وقضاء له عليهم.

٢. ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تأكيد للتهديد وتأييد بالنظير أي فعل الذين من قبلهم مثل فعلهم من الجحود والاستهزاء مما فيه بحسب الطبع انتظار عذاب الله ﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا﴾

٣. ﴿وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ معترضة يبين بها أن الذي نزل بهم من العذاب لم يستوجبه إلا الظلم، غير أن هذا الظلم كان هو ظلمهم أنفسهم لا ظلما منه تعالى وتقدس، ولم يعذبهم الله سبحانه عن ظلم وقع منهم مرة أو مرتين بل أمهلهم إذ ظلموا حتى استمروا في ظلمهم وأصروا عليه، كما يدل عليه قوله: ﴿كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فعند ذلك أنزل عليهم العذاب، ففي قوله: ﴿وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾، إثبات الاستمرار على الظلم عليهم ونفي أصل الظلم عن الله سبحانه.

٤. ﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ ﴿حاقَ بِهِمْ﴾ أي حل بهم، وقيل: معناه نزل بهم وأصابهم، والذي كانوا به يستهزءون هو العذاب الذي كانت رسلهم ينذرونهم به ومعنى الآية ظاهر.

٢٠. المشركون يحتجون بالمشيئة، والرسل عليهم البلاغ المبين:

المقطع [٢٠] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٣٨»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. الذي تورده الآية شبهة على النبوة من الوثنيين المنكرين لها، ولذلك عرفهم بنعتهم الصريح

حيث قال: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ولم يكتف بالضمير ولم يقل: وقالوا كما في الآيات السابقة ليعلم أن الشبهة لهم بعينهم.

ب. ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا﴾ جملة شرطية حذف فيها مفعول ﴿شاءَ﴾ لدلالة الجزاء عليه، والتقدير لو شاء الله أن لا نعبد من دونه شيئا ما عبدنا.

ج. وقول بعضهم: (إن الإرادة والمشية لا تتعلق بالعدم وإنما تتعلق بالوجود، فلا معنى لمشية عدم العبادة فالأولى أن يقدر متعلق المشية أمرا وجوديا ملازما لعدم العبادة كالتوحيد مثلا ويكون التقديم لو شاء الله أن نوحده أو أن نعبده وحده ما عبدنا من دونه من شيء، واستدل بقوله ﷺ: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) حيث علق عدم الكون على عدم المشية لا على مشية العدم:

• وفيه أن ما ذكره حق بالنظر إلى حقيقة الأمر، إلا أن العنايات اللفظية والتوسعات الكلامية لا تدور دائما مدار الحقائق الكونية والأنظار الفلسفية وأن الأفهام البسيطة، ولم تكن أفهام أولئك الوثنيين بأرقى منها، كما تجيز ترتب الفعل الوجودي على المشية تجيز تعلق عدمه بها، وفي كلامه ﷺ جريا على هذه العناية الظاهرية: (اللهم إن شئت أن لا تعبد لم تعبد)

• على أنهم يشيرون بقولهم: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا﴾، إلى قول الرسل لهم: لا تشركوا بالله ولا تعبدوا غير الله ولا تحرموا ما أحل الله وهي نواه ومدلول النهي طلب الترك.

• على أن الوثنيين لا ينكرون توحيده تعالى في الألوهية بمعنى الصنع والإيجاد، وإنما يشركون في العبادة بمعنى أنهم يخصونه تعالى بالصنع والإيجاد ويخصون آلهتهم بالعبادة فلهم آلهة كثيرون أحدهم إله موجد غير معبود وهو الله سبحانه، والباقون شفعاء معبودون غير موجدين فهم لا يعبدون الله أصلا لا أنهم يعبدونه تعالى وآلهتهم جميعا، وحينئذ لو كان التقدير (لو شاء الله أن نوحده في العبادة أو أن نعبده وحده) لكان الأهم أن يقع في الجزاء توحيدهم له في العبادة أو عبادتهم له وحده لا نفي عبادتهم لغيره أو كان نفي عبادة الغير كناية عن توحيد عبادته أو عبادته وحده، فافهم ذلك.

• وإن كان ولا بد من تقدير متعلق المشية أمرا وجوديا فليكن التقدير: لو شاء الله أن نكف عن عبادة غيره ما عبدنا.، حتى يتحد الشرط والجزاء بحسب الحقيقة في عين أنهما يختلفان في النفي والإثبات.

٢. ﴿ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظة من الأولى بيانية والثانية زائدة لتأكيد الاستغراق في النفي،

والمعنى ما عبدنا شيئا دونه، ونظير ذلك قوله: ﴿وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

٣. ﴿نَحْنُ وَلا آباؤُنا﴾ بيان لضمير التكلم في ﴿عَبَدْنا﴾ للدلالة على أنهم يتكلمون عنهم وعن آبائهم جميعا لأنهم كانوا يقتدون في عبادة الأصنام بآبائهم، وقد تكرر في القرآن حكاية مثل قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]

٤. ﴿وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ عطف على قوله: ﴿عَبَدْنا﴾ أي ولو شاء الله أن لا نحرم من دونه من شيء أو نحل ما حرمناه ما حرمنا.،، والمراد البحيرة والسائبة وغيرهما مما حرموه.

٥. ثم إن قولهم: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. ظاهر من جهة تعليق نفي العبادة على نفس مشيته تعالى في أنهم أرادوا بالمشية إرادته التكوينية التي لا تتخلف عن المراد البتة ولو أرادوا غيرها لقالوا: لو شاء الله كذا لأطعناه واستجبنا دعوته أو ما يفيد هذا المعنى.

ب. فكأنهم يقولون: لو كانت الرسالة حقة وكان ما جاء به الرسل من النهي عن عبادة الأصنام والأوثان والنهي عن تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة وغيرها نواهي لله سبحانه كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئا غيره وأن لا نحرم من دونه شيئا، ولو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غيره ولا نحرم شيئا لم نعبد ولم نحرم لاستحالة تخلف مراده عن إرادته لكنا نعبد غيره ونحرم أشياء فليس يشاء شيئا من ذلك فلا نهي ولا أمر منه تعالى ولا شريعة ولا رسالة من قبله.

٦. هذا تقرير حجتهم على ما يعطيه السياق:

أ. ومغزى مرادهم أن عبادتهم لغير الله وتحريمهم لما حرموه وبالجملة عامة أعمالهم لم تتعلق بها مشية من الله بنهي ولو تعلقت لم يعملوها ضرورة.

ب. وليسوا يعنون بها أن مشية الله تعلقت بعبادتهم وتحريمهم فصارت ضرورية الوجود وهم ملجئون في فعلها مجبرون في الإتيان بها فلا معنى لنهي الرسل عنها بعد الإلجاء وذلك أن ﴿لَوْ﴾ تفيد امتناع الجزاء لامتناع الشرط فيكون مفهوم الشرطية ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أنه لم يشأ ذلك فعبدنا غيره، وإن شئت قلت: لكنا عبدنا غيره فانكشف أنه لم يشأ ذلك، وأما مثل قولنا: لكنه شاء أن نعبد غيره فعبدنا غيره أو قولنا: لكنه شاء أن لا نوحده فعبدنا غيره فهو أجنبي عن مفهوم الشرطية ومنطوقها

جميعا.

ج. على أنهم لو عنوا ذلك وكان غرضهم رد النبوة بإثبات الإلجاء في أفعالهم بما أقاموه من الحجة كانوا بذلك معترفين على الضلال مسلمين له غير أنهم معتذرون عن اتباع الهدى الذي أتاهم به الرسل بالإلجاء والإجبار وأن الله شاء منهم ما هم عليه من الضلال والشقاء بعبادة غير الله وتحريم ما أحل الله وأجبرهم على ذلك فليسوا يقدرون على تركه ولا يستطيعون التخلف عنه.

د. لكنهم مدعون للاهتداء مصرون على هذه المزعمة مصرحون بها كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم بعد ذكر عبادتهم للملائكة إذ قال: ﴿وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] وقد تكرر في كلامه حكاية تعليلهم عبادة الأصنام بأنها سنة قومية قدسها سلفهم قبل خلفهم فمن الواجب أن يقدسها ويجري عليها خلفهم بعد سلفهم وأين هذا من الاعتراف بالضلال والشقاء؟

هـ. وكذا ليسوا يعنون بهذه الحجة أن أعمالهم مخلوقة لأنفسهم غير مرتبطة بالمشية الإلهية ولا أنه خالقها إذ الأعمال والأفعال على هذا التقدير بمعزل من أن تتعلق بها الإرادة الإلهية، وإنما يتسبب تعالى لعدم فعل من الأفعال بإيجاد المانع عنه فكان الأنسب حينئذ أن يقولوا: لو شاء الله لصرفنا عن عبادة غيره وتحريم ما حرمناه وهو مدفوع بظاهر الكلام أو يقولوا: لو شاء الله شيئا من أعمالنا لبطل وخرج عن كونه عملا لنا ونحن مستقلون به.

و. على أنه لو كان معنى قولهم: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا﴾ هو أنه لو شاء لصرفنا كان حقا فلم يكن معنى لقوله تعالى في آية الزخرف السابقة: ﴿وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]

ز. فالحق أنهم أرادوا بقولهم: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أن يستدلوا بعبادتهم لها على أن المشية الإلهية لم تتعلق بتركها من غير تعرض لتعلق المشية بفعل العبادة أو لكون المشية مستحيلة التعلق بعبادتهم إلا بالصرف.

٧. ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾:

أ. خطاب للنبي ﷺ بأمره أن يبلغ رسالته بلاغا مبينا ولا يعتني بما لفقوه من الحجة فإنها داحضة

والحجة تامة عليهم بالبلاغ وفيه إشارة إجمالية إلى دحض حجتهم.

ب. فقوله: ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي على هذا الطريق الذي سلكه هؤلاء سلك الذين من قبلهم فعبدوا غير الله وحرموا ما لم يحرمه الله ثم إذا جاءتهم رسلهم ينهونهم عن ذلك قالوا: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فالجملة كقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٢]

٨. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾:

أ. أي بلغهم الرسالة بلاغا مبينا تتم به الحجة عليهم فإنما وظيفة الرسل البلاغ المبين وليس من وظيفتهم أن يلجئوا الناس إلى ما يدعونهم إليه وينهونهم عنه ولا أن يحملوا معهم إرادة الله الموجبة التي لا تتخلف عن المراد ولا أمره الذي إذا أراد شيئا قال له كن فيكون حتى يحولوا بذلك الكفر إلى الإيمان ويضطروا العاصي على الإطاعة.

ب. فإنما الرسول بشر مثلهم والرسالة التي بعث بها إنذار وتبشير وهي مجموعة قوانين اجتماعية أوحاها إليه الله فيها صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم صورتها صورة الأوامر والنواهي المولوية وحقيقتها الإنذار والتبشير، قال تعالى: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] فهذا ما أمر به نبيه ﷺ أن يبلغهم وقد أمر به نوحا ومن بعده من الرسل عليه السلام أن يبلغوه أممهم كما في سورة هود وغيرها.

ج. وقال أيضا مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠]

د. فهذا هو الذي يشير إليه على سبيل الإجمال بقوله: ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ فإن ظاهره كما أشرنا إليه سابقا أن هذه حجة دائرة بينهم قديما وحديثا، وعلى هذا ليس من شأن الرسول إجبار الناس وإلجائهم على الإيمان والطاعة بل البلاغ المبين بالإنذار والتبشير وحجتهم لا تدفع ذلك فبلغ ما أرسلت به بلاغا مبينا ولا تطمع في هداية من ضل منهم، وستفصل الآيتان التاليتان ما أجملته هذه الآية وتوضحانها.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق، قال: فقال: الإرادة من الخلق الضمير، وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق، فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له، كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة، ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له.

ب. أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: يقول الله: يا ابن آدم كلكم مذنب، إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقراء إلا من أغنيت فسلوني أعطكم، وكلكم ضال إلا من هديت فسلوني الهدى أهدكم، ومن استغفرني وهو يعلم أني ذو قدرة، على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي ـ، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا على قلب أشقى واحد منكم، ما نقص ذلك من سلطاني مثل جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم، وميتكم ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا على قلب أتقى واحد منكم، ما زادوا في سلطاني مثل جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم، سألوني حتى تنتهي مسألة كل واحد منهم، فأعطيتهم ما سألوني ما نقص ذلك مما عندي، كغرز إبرة لو غمسها أحدكم في البحر ـ، وذلك أني جواد ماجد واحد عطائي كلام وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون.

٢١. بعثة رسول في كل أمة يدعو لعبادة الله واجتناب الطاغوت:

المقطع [٢١] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٤٢»:

١. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾:

أ. الطاغوت في الأصل مصدر كالطغيان وهو تجاوز الحد بغير حق، واسم المصدر منه الطغوى، قال الراغب: (الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع، قال

تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾)

ب. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ إشارة إلى أن بعث الرسول أمر لا يختص به أمة دون أمة بل هو سنة إلهية جارية في جميع الناس بما أنهم في حاجة إليه وهو يدركهم أينما كانوا كما أشار إلى عمومه في الآية السابقة إجمالا بقوله: ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

٢. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ بيان لبعث الرسول على ما يعطيه السياق أي ما كانت حقيقة بعث الرسول إلا أن يدعوهم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت لأن الأمر وكذا النهي من البشر وخاصة إذا كان رسولا ليس إلا دعوة عادية لا إلجاء واضطرارا تكوينيا، ولا أن للرسول أن يدعي ذلك حتى يرد عليه أنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء وإذ لم يشأ فلا معنى للرسالة، ومن هنا يظهر أن قول بعضهم إن التقدير ليقول لهم: اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، ليس في محله.

٣. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾:

أ. أي كانت كل من هذه الأمم مثل هذه الأمة منقسمة إلى طائفتين فبعضهم هو من هداه الله إلى ما دعاهم إليه الرسول من عبادة الله واجتناب الطاغوت.

ب. وذلك أن الهداية من الله سبحانه لا يشاركه فيها غيره ولا تنسب إلى أحد دونه إلا بالتبع كما قال: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وسنشير إليه في الآية التالية: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ والآيات في حصر الهداية فيه تعالى كثيرة، ولا يستلزم ذلك كونها أمرا اضطراريا لا صنع فيه للعبد أصلا فإنها اختيارية بالمقدمة كما يشير إليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] يفيد أن للهداية الإلهية طريقا ميسرا للإنسان وهو الإحسان في العمل وإن الله لمع المحسنين لا يدعهم يضلون.

ج. وبعض هذه الأمم، الطائفة الثانية منهم، هو من حقت عليه الضلالة أي ثبتت ولزمت، وهذه الضلالة هي التي من قبل العبد بسوء اختياره وليس بالتي تتبعها مجازاة من الله فإن الله يصفها بقوله: ﴿حَقَّتْ﴾ ثم يضيفها في الآية التالية إلى نفسه إذ يقول: ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ فقد كانت هناك ضلالة ثم حقت وثبتت بإثبات الله مجازاة فصارت هي التي من قبل الله سبحانه مجازاة، فتبصر.

د. ولم ينسب الله سبحانه في كلامه إلى نفسه إضلالا إلا ما كان مسبوقا بظلم من العبد أو فسق أو

كفر وتكذيب أو نظائرها كقوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] وعدم الهداية هو الإضلال، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقوله: ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨] وقوله: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] إلى غير ذلك من الآيات.

هـ. ولم يقل سبحانه: فمنهم من هدى الله ومنهم من أضله مع كون ضلالهم ضلال مجازاة لا مانع من إضافته إليه تعالى دفعا لإيهام نسبة أصل الضلال إليه بل ذكر أولا من هداه ثم قابله بمن كان من حقه أن يضل، وهو الذي اختار الضلالة على الهدى أي اختار أن لا يهتدي، فلم يهده الله وحق له ذلك.

و. وتوضيحه ببيان آخر: أن خلاصة الفرق بين الضلال الابتدائي ونسبته إلى العبد والضلال مجازاة ونسبته إليه تعالى ونسبة الهداية ابتداء ومجازاة إلى الله سبحانه هي أن الله أودع في الإنسان إمكان الرشد واستعداد الاهتداء فإن جرى على سلامة الفطرة ولم يبطل الاستعداد باتباع الهوى والمعصية أو أصلحه بالندامة والتوبة بعد المعصية هداه الله، وهذه هداية مجازاة من الله سبحانه بعد الهداية الأولى الفطرية.

ز. وإن اتبع هواه وعصى ربه بطل استعداده للاهتداء فلم يفض عليه الهدى وهو ضلاله بسوء اختياره فإن لم يندم ولم يراجع أثبته الله على حاله وحقت عليه الضلالة وهو الضلال مجازاة.

ح. وربما توهم متوهم أن الإمكان والاستعداد لا يكون إلا ذا طرفين فالذي يمكنه الهدى يمكنه الضلال والإنسان لا يزال مترددا بين آثار وجودية وأفعال مثبتة والجميع منه تعالى حتى الاستعداد والإمكان الأول.

ط. وهو من أوهن التوهم فإن عد إمكان الضلال وما يترتب عليه الضلال أمرا وجوديا وعطاء ربانيا يفسد معنى الضلال ويبطله فإن الضلال إنما هو ضلال لكونه عدم الهداية فلو عاد أمرا ثبوتيا لم يكن ضلالا بل صار الهدى والضلال كلاهما أمرين وجوديين وعطاءين إلهيين نظير ما يترتب على الجهاد مثلا من الآثار الوجودية الخارجة عن الهدى والضلال.

ي. وبعبارة أخرى: الضلال إنما يكون ضلالا إذا كان مقيسا إلى الهدى ومن الواجب حينئذ أن يكون عدم الهدى وإذا أخذ أمرا وجوديا لم يكن ضلالا فلم ينقسم الموضوع إلى مهتد وضال ولا حاله إلى

هدى وضلال فلا مفر من أخذ الضلال أمرا عدميا، ونسبة الضلال الأول إلى نفس العبد، فأحسن التأمل فيه فلا تزل قدم بعد ثبوتها.

٤. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن الخطاب للذين أشركوا القائلين: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ والالتفات إلى خطابهم لكونه أشد تأثيرا في تثبيت القول وإتمام الحجة.

ب. والكلام متفرع على ما بين جوابا لحجتهم إجمالا وتفصيلا ومحصل المعنى أن الرسالة والدعوة النبوية ليست من الإرادة التكوينية الملجئة إلى ترك عبادة الأصنام وتحريم ما لم يحرمه الله حتى يستدلوا بعدم وجود الإلجاء على عدم وجود الرسالة وكذب مدعيها بل هي دعوة عادية بعث الله سبحانه بها رسلا يدعونكم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت وحقيقته الإنذار والتبشير، ومن الدليل على ذلك آثار الأمم الماضية الظالمة التي تحكي عن نزول العذاب عليهم فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين حتى يتبين لكم أن الدعوة النبوية التي هي إنذار حق وأن الرسالة ليست كما تزعمون.

٢٢. حرص النبي على هدايتهم:

المقطع [٢٢] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٤٥»:

١. ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾:

أ. لما بين أن الأمم الماضين انقسموا طائفتين وكانت إحدى الطائفتين هم الذين حقت عليهم الضلالة وكانت هؤلاء الذين أشركوا وقالوا ما قالوا كالذين من قبلهم منهم بين في هذه الآية أن ثبوت الضلالة في حقهم إنما هو ثبوت لا زوال معه وتحتم لا يقبل التغيير فإنه لا هادي بالحقيقة إلا الله فإن جاز هداهم كان الله هو هاديهم لكنه لا يهديهم فإنه يضلهم ولا يجتمع الهدى والضلال معا، وليس هناك ناصر ينصرهم على الله فيقهره على هداهم فليؤيس منهم.

ب. ففي الآية تعزية للنبي ﷺ وإرشاد له أن لا يحرص في هداهم وإعلام له أن القضاء قد مضى في حقهم وما يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد.

ج. فقوله: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُداهُمْ﴾، في تقدير إن تحرص على هداهم لم ينفعهم حرصك شيئا

فليسوا ممن يمكن له الاهتداء فإن الله هو الذي يهدي من اهتدى، وهو لا يهديهم فإنه يضلهم ولا يناقض تعالى فعل نفسه، وليس لهم ناصرون ينصرونهم عليه.

٢. وفي هذه الآيات الثلاث مشاجرات طويلة بين المجبرة والمفوضة وكل يفسرها بما يقتضيه مذهبه:

أ. حتى قال الإمام الرازي: إن المشركين أرادوا بقولهم: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أنه لما كان الكل من التوحيد والشرك والهدى والضلال من الله كانت بعثة الأنبياء عبثا فنقول: هذا اعتراض على الله وجار مجرى طلب العلة في أحكامه وأفعاله تعالى وذلك باطل فلا يقال له: لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذلك؟ قال: فثبت أن الله تعالى إنما ذم هؤلاء القائلين لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع عن جواز بعثة الرسل لا لأنهم كذبوا في قولهم ذلك)

ب. وقال الزمخشري إن المشركين فعلوا ما فعلوا من القبيح ثم نسبوه إلى ربهم وقالوا لو شاء الله إلى آخره وهذا مذهب المجبرة بعينه كذلك فعل أسلافهم فهل على الرسل إلا أن يبلغوا الحق وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه، وبراءة الله من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، وأن الله باعثهم على جميلها وموفقهم له وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه).، وقد أطالوا البحث عن ذلك من الجانبين.

ج. وقد عرفت أن الآيات تروم غرضا وراء ذلك، وأن مرادهم بقولهم: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، إبطال الرسالة بأن ما أتى به الرسل من النهي عن عبادة غير الله وتحريم ما لم يحرمه الله لو كان حقا لكان الله مريدا لتركهم عبادة غيره وتحريم ما لم يحرمه ولو كان مريدا ذلك لم يتحقق منهم وليس كذلك، وأما أن الإرادة الإلهية تعلقت بفعلهم فوجب أو أنها لم تتعلق ومن المحال أن تتعلق وليست أفعالهم إلا مخلوقة لأنفسهم من غير أن يكون لله سبحانه فيها صنع فإنما ذلك أمر خارج عن مدلول كلامهم أجنبي عن الحجة التي أقاموها على ما يستفاد من السياق كما تقدم.

٣. وفي قوله: ﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾:

أ. دلالة على أن لغيرهم ناصرين كثيرين وذلك أن السياق يدل على أنه ليس لهم ناصر أصلا لا واحد ولا كثير فنفي الناصرين بصيغة الجمع يكشف عن عناية زائدة بذلك أي أن هناك ناصرين لكنهم

ليسوا لهم بل لغيرهم وليس إلا من يهتدي بهدى الله، ونظير الآية ما حكاه الله سبحانه عن المجرمين يوم القيامة: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠]

ب. وهؤلاء الناصرون هم الملائكة الكرام وسائر أسباب التوفيق والهداية والله سبحانه من ورائهم محيط، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]

٢٣. الكفار يقسمون أن لا بعث، والله يبعثهم ليبين لهم الحق:

المقطع [٢٣] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٣٨ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٤٧»:

١. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في المفردات: (الجهد، بفتح الجيم وضمها، الطاقة، والمشقة أبلغ من الجهد بالفتح، قال: وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم)

ب. وقال في المجمع في معنى قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي بلغوا في القسم كل مبلغ) انتهى

ج. وقولهم: ﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ إنكار للحشر، والجملة كناية عن أن الموت فناء فلا يتعلق به بعده خلق جديد، وهذا لا ينافي قول كلهم أو جلهم بالتناسخ فإنه قول بتعلق النفس بعد مفارقتها البدن ببدن آخر إنساني أو غير إنساني وعيشها في الدنيا، وهو قولهم بالتولد بعد التولد.

٢. ﴿بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي ليس الأمر كما يقولون بل يبعث الله من يموت وعده وعدا ثابتا عليه حقا أي إن الله سبحانه أوجبه على نفسه بالوعد الذي وعد عباده، وأثبته إثباتا فلا يتخلف ولا يتغير.

٣. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أنه من الوعد الذي لا يخلف والقضاء الذي لا يتغير لإعراضهم عن الآيات الدالة عليه الكاشفة عن وعده وهي خلق السماوات والأرض واختلاف الناس بالظلم والطغيان والعدل والإحسان والتكليف النازل في الشرائع الإلهية.

٤. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ﴾:

أ. اللام للغاية والغرض أي يبعث الله من يموت ليبين لهم.، والغايتان في الحقيقة غاية واحدة فإن الثانية من متفرعات الأولى ولوازمها فإن الكافرين إنما يعلمون أنهم كانوا كاذبين في نفي المعاد من جهة تبين الاختلاف الذي ظهر بينهم وبين الرسل بسبب إثبات المعاد ونفيه وظهور المعاد لهم عيانا.

ب. وتبين ما اختلف فيه الناس من شئون يوم القيامة، وقد تكرر في كلامه هذا التعبير وما في معناه تكرارا صح معه جعل تبيين الاختلاف معرفا لهذا اليوم الذي ثقل في السماوات والأرض وعلى ذلك يتفرع ما قصه الله سبحانه في كلامه من تفاصيل ما يجري فيه من المرور على الصراط وتطاير الكتب ووزن الأعمال والسؤال والحساب وفصل القضاء.

ج. ومن المعلوم، وخاصة من سياق آيات القيامة، أن المراد بالاختلاف ليس ما يوجد بينهم بحسب الخلقة بنحو ذكورة وأنوثة وطول وقصر وبياض وسواد بل ما يوجد في دين الحق من الاختلاف في اعتقاد أو عمل، وقد بين الله ذلك لهم في هذه النشأة الدنيوية في كتبه المنزلة وبلسان أنبيائه بكل طريق ممكن كما يقول بعد عدة آيات: ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [الآية: ٦٤] من السورة.

د. ومن هنا يظهر للمتدبر أن البيان الذي يخبر تعالى عنه ويخصه بيوم القيامة نوع آخر من الظهور والوضوح غير ما يتمشى من الكتاب والنبوة في هذه الدنيا من البيان بالحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن، وليس إلا العيان الذي لا يتطرق إليه شك وارتياب ولا يهجس معه خطور نفساني بالخلاف كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، فيومئذ يشاهدون حقائق ما اختلفوا فيه من المعارف الدينية الحقة والأعمال الصالحة وما أخلدوا إليه من الباطل ويفصل بينهم بظهور الحق وانجلائه.

٥. ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾:

أ. هو نظير قوله في موضع آخر: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ومنه يعلم أنه تعالى يسمي أمره قولا كما يسمي أمره وقوله من حيث قوته وإحكامه وخروجه عن الإبهام وكونه

مرادا حكما وقضاء، قال تعالى: ﴿وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ [يوسف: ٦٧] وقال: ﴿وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] وقال: ﴿وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] وكما يسمي قوله الخاص كلمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ثم قال في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]

ب. فتحصل من ذلك كله أن إيجاده تعالى أعني ما يفيضه على الأشياء من الوجود من عنده، وهو بوجه نفس وجود الشيء الكائن، هو أمره وقوله حسب ما يسميه القرآن وكلمته لكن الظاهر أن الكلمة هي القول باعتبار خصوصيته وتعينه.

ج. ويتبين بذلك أن إرادته وقضاءه واحد، وأنه بحسب الاعتبار متقدم على القول والأمر فهو سبحانه يريد شيئا ويقضيه ثم يأمره ويقول له كن فيكون، وقد علل عدم تخلف الأشياء عن أمره بألطف التعليل إذ قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] فأفاد أن قوله هو الحق الثابت بحقيقة معنى الثبوت أي نفس العين الخارجية التي هي فعله فلا معنى لفرض التخلف فيه وعروض الكذب أو البطلان عليه فمن الضروري أن الواقع لا يتغير عما هو عليه فلا يخطئ ولا يغلط في فعله، ولا يرد أمره، ولا يكذب قوله ولا يخلف في وعده.

٦. وقد تبين أيضا من هذه الآية ومن قوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أن لله سبحانه إرادتين إرادة تكوين لا يتخلف عنها المراد، وإرادة تشريع يمكن أن تعصى وتطاع، وسنستوفي هذا البحث بعض الاستيفاء إن شاء الله.

٢٤. المهاجرون في سبيل الله بعد الظلم:

المقطع [٢٤] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٥٤»:

١. ﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا

يَعْلَمُونَ﴾ وعد جميل للمهاجرين وقد كانت من المؤمنين هجرتان عن مكة:

أ. إحداهما إلى حبشة هاجرتها عدة من المؤمنين بالنبي ﷺ بإذن من الله ورسوله إليها ولبثوا فيها حينا في أمن وراحة من أذى مشركي مكة وعذابهم وفتنتهم.

ب. والثانية هجرتهم من مكة إلى المدينة بعد مهاجرة النبي ﷺ، والظاهر أن المراد بالهجرة في الآية هي الهجرة الثانية فسياق الآيتين أكثر ملاءمة لها من الأولى وهو ظاهر.

٢. ﴿فِي اللهِ﴾ متعلق بهاجروا، والمراد بكون المهاجرة في الله أن يكون طلب مرضاته محيطا بهم في مهاجرتهم لا يخرجون منه إلى غرض آخر كما يقال: سافر في طلب العلم وخرج في طلب المعيشة أي لا غاية له إلا طلب العلم ولا بغية له إلا طلب المعيشة، والسياق يعطي أن قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا﴾ أيضا مقيد بذلك معنى، والتقدير: والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا فيه، وإنما حذف اختصارا وإنما اكتفى به قيدا للمهاجرة لأنها محل الابتلاء فتخصيصه بإيضاح الحال أولى.

٣. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً﴾:

أ. قيل: أي بلدة حسنة بدلا مما تركوه من وطنهم كمكة وحواليها بدليل قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ فإنه من بوأت له مكانا أي سويت وأقررته فيه.

ب. وقيل: أي حالة حسنة من الفتح والظفر ونحو ذلك فيكون قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾، من الاستعارة بالكناية.

ج. والوجهان متحدان مآلا فإنهم إنما كانوا يهاجرون ليعقدوا مجتمعا إسلاميا طيبا لا يعبد فيه إلا الله، ولا يحكم فيه إلا العدل والإحسان أو ليدخلوا في مجتمع هذا شأنه فلو رجعوا في مهاجرهم غاية حسنة أو وعدوا بغاية حسنة كان ذلك هذا المجتمع الصالح، ولو حمدوا البلدة التي يهاجرون إليها لكان حمدهم للمجتمع الإسلامي المستقر فيها لا لمائها أو هوائها فالغاية الحسنة التي يعدهم الله في الدنيا هي هذا المجتمع سواء أريد بالحسنة البلدة أو الغاية.

٤. ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ تتميم للوعد وإشارة إلى أن أجر الآخرة أفضل من هذا الأجر الدنيوي لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم فيها من النعم فإن فيها سعادة من غير شقاء وخلودا من غير فناء ولذة غير مشوبة بألم وجوار رب العالمين.

٥. ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾:

أ. لا يبعد أن يستفاد من سياق الآيتين أن جملة العناية فيهما إلى وعد المهاجرين في الله وعدا حسنا في الدنيا والآخرة من غير نظر إلى الإخبار بتحقق المهاجرة قبل حال الخطاب فيكون الكلام في معنى الاشتراط: من يهاجر في الله فله كذا وكذا، وتكون العناية في قوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ بتوصيف المهاجرين بالصبر والتوكل من غير نظر إلى ما تحقق منهم من ذلك أيام توقفهم في أوطانهم بين المشركين قبال أذاهم وفتنتهم.

ب. والعناية بالتوصيف إنما هي لكون كلتا الصفتين دخيلتين في الغاية الحسنة التي وعدوا بها إذ لو لم يصبروا على مر الجهاد وأظهروا الجزع عند هجوم العظائم ولم يتأيدوا بالتوكل على الله واعتمدوا على أنفسهم الضعيفة أحيط بهم ولم يتهيأ لهم المستقر وفرقهم العدو المصر على عداوته بددا وتلاشى المجتمع الصالح الذي أقاموه في مهاجرهم هذا في الدنيا، وأما أمر الآخرة ففساده بفساد المجتمع أو تلاشيه أوضح.

ج. ولو كان المراد وعد المهاجرين الذين تحقق منهم الهجرة قبل نزول الآية تطييبا لنفوسهم وتسلية لهم عما أخرجوا من ديارهم وأموالهم وقاسوا الفتن والمحن كان قوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ مدحا لهم بما ظهر منهم أيام إقامتهم بمكة وغيرها من الصبر في الله على أذى المشركين والتوكل على الله فيما عزموا عليه من الإسلام لله.

٢٥. إرسال الرسل بالوحي وسؤال أهل الذكر:

المقطع [٢٥] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٥٦»:

١. ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. رجوع ثان إلى بيان كيفية إرسال الرسل وإنزال الكتب حتى يتضح للمشركين أنه لم تكن الدعوة الدينية إلا دعوة عادية من رجال يوحى إليهم من البشر يندبون إلى ما فيه صلاح الناس في دنياهم وعقباهم.

ب. وأنه لم يدع أحد من الرسل ولا ادعي في كتاب من كتب الشرائع أن الدعوة الدينية ظهور

للقدرة الغيبية القاهرة لكل شيء والإرادة التكوينية لهدم النظام الجاري ونقض سنة الاختيار وإبطالها حتى يقول القائل منهم: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

ج. وعلى هذا فقوله سبحانه: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ مسوق لحصر الرسالة على البشر العادي من رجال يوحى إليهم قبال ما ادعاه المشركون أنها لو كانت لكانت نقضا لنظام الطبيعة وإبطالا للاختيار والاستطاعة.

د. وبه يظهر عدم استقامة ما ذكره غير واحد منهم أن الآية مسوقة لرد المشركين من قريش حيث كانوا يزعمون أن البشر لا يصلح للرسالة وأنها لو كانت فهي من شأن الملائكة فالآية تخبر أن السنة الإلهية جرت حسب ما اقتضته الحكمة على أن لا يبعث للدعوة الدينية إلا رجالا من البشر يوحي إليهم المعارف والأوامر والنواهي.

هـ. وذلك أن سياق الآيات لا يساعد على ذلك، ولم يتقدم في الكلام ذكر لقولهم ذلك أو لاقتراحهم بعثة الملائكة للرسالة حتى يوجه الكلام إلى ذلك.

و. وإنما الذي تقدم هو قول المشركين: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلخ وكان مسوقا لإثبات استحالة النبوة لا لكونها من شأن الملائكة.

٢. واستدل بعضهم بالآية على أن الله سبحانه لم يرسل صبيا ولا امرأة، واستشكل بنبوة عيسى عليه السلام في المهد وأجيب بأن النبوة أعم من الرسالة والذي أثبته عيسى لنفسه بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] هي النبوة دون الرسالة:

أ. وفيه أن الاستدلال المذكور بالآية إنما هو بقوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا﴾ وهذا الفعل كما يتعلق في القرآن بالرسول كذلك يتعلق بالنبي غير الرسول قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍ﴾ الآية فلو تم الاستدلال المذكور لدل على حرمان الأطفال والنساء عن الرسالة والنبوة جميعا، وقد حكى الله عن عيسى عليه السلام قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] وقال في يحيى عليه السلام: ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]

ب. والحق أن الآية: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً﴾ إنما هي في مقام بيان أن الرسل كانوا رجالا من البشر العادي من غير عناية بكونهم أول ما بعثوا للرسالة أفرادا بالغين مبلغ الرجال فالغرض

أن نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى عليه السلام، وهم رسل، كانوا رجالا يوحى إليهم ولم يكونوا أشخاصا مجهزين بقدرة قاهرة غيبية وإرادة إلهية تكوينية.

ج. ويقرب من الآية قوله تعالى: في موضع آخر: ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨]

٣. ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. الظاهر أنه خطاب للنبي ﷺ ولقومه، وقد كان الخطاب في سابق الكلام للنبي ﷺ خاصة والمعنى موجه إلى الجميع فهو تعميم الخطاب للجميع ليتخذ كل من المخاطبين سبيله فمن كان لا يعلم ذلك كبعض المشركين راجع أهل الذكر وسألهم ومن كان يعلم ذلك كالنبي ﷺ والمؤمنين به كان في غنى عن الرجوع والسؤال.

ب. وقيل: إن الخطاب في الآية للمشركين فإنهم هم المنكرون فليرجعوا وليسألوا وفيه أن لازم ذلك كون الجملة التفاتا من خطاب الفرد إلى خطاب الجميع ولا نكتة ظاهرة تصحح ذلك والله أعلم.

ج. والذكر حفظ معنى الشيء أو استحضاره، ويقال لما به يحفظ أو يستحضر قال الراغب في المفردات: (الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه والذكر يقال اعتبارا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء في القلب أو القول ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ)

د. والظاهر أن الأصل فيه ما هو للقلب وإنما يسمى اللفظ ذكرا اعتبارا بإفادته المعنى وإلقائه إياه في الذهن، وعلى هذا المعنى جرى استعماله في القرآن غير أن مورده فيه ذكر الله تعالى فالذكر إذا أطلق فيه ولم يتقيد بشيء هو ذكره.

هـ. وبهذه العناية أيضا سمي القرآن وحي النبوة والكتب المنزلة على الأنبياء ذكرا، والآيات في ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها في هذا الموضع، وقد سمى الله سبحانه في الآية التالية القرآن ذكرا.

و. فالقرآن الكريم ذكر كما أن كتاب نوح وصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليه السلام، وهي الكتب السماوية المذكورة في القرآن، كلها ذكر، وأهلها المتعاطون لها المؤمنين بها

أهل الذكر.

ز. ولما كان أهل الشيء وخاصته أعرف بحاله وأبصر بأخباره كان على من يريد التبصر في أمره أن يرجع إلى أهله، وأهل الكتب السماوية القائمون على دراستها وتعلمها والعمل بشرائعها هم أهل الخبرة بها والعالمون بأخبار الأنبياء الجائين بها فعلى من أراد الاطلاع على شيء من أمرهم أن يراجعهم ويسألهم.

ح. لكن المشركين المخاطبين بمثل قوله: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ لما كانوا لا يسلمون للنبي ﷺ النبوة ولا يصدقونه في دعواه ويستهزءون بالقرآن ذي الذكر كما يذكره تعالى في قوله: ﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] لم ينطبق قوله: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ بحسب المورد إلا على أهل التوراة، وخاصة من حيث كونهم أعداء للنبي ﷺ رادين لنبوته وكانت نفوس المشركين طيبة بهم لذلك، وقد قالوا في المشركين: ﴿هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١]

ط. وقال بعضهم: (المراد بأهل الذكر أهل العلم بأخبار من مضى من الأمم سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا؟ وسمي العلم ذكرا لأن العلم بالمدلول يحصل غالبا من تذكر الدليل فهو من قبيل تسمية المسبب باسم السبب، وفيه أنه من المجاز من غير قرينة موجبة للحمل عليه على أن المعهود من الموارد التي ورد فيها الذكر في القرآن الكريم غير هذا المعنى.

ي. وقال بعضهم: (المراد بأهل الذكر أهل القرآن لأن الله سماه ذكرا وأهله النبي ﷺ وأصحابه وخاصة المؤمنين، وفيه أن كون القرآن ذكرا وأهله أهله لا ريب فيه لكن إرادة ذلك من الآية خاصة لا تلائم تمام الحجة فإن أولئك لم يكونوا مسلمين لنبوة النبي ﷺ فكيف يقبلون من أتباعه من المؤمنين؟

ك. وكيف كان فالآية إرشاد إلى أصل عام عقلائي وهو وجوب رجوع الجاهل إلى أهل الخبرة، وليس ما تتضمنه من الحكم حكما تعبديا، ولا أمر الجاهل بالسؤال عن العالم ولا بالسؤال عن خصوص أهل الذكر أمرا مولويا تشريعيا وهو ظاهر.

٤. ﴿بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ﴾:

أ. متعلق بمقدر يدل عليه ما في الآية السابقة من قوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا﴾ أي أرسلناهم بالبينات والزبر وهي الآيات الواضحة الدالة على رسالتهم والكتب المنزلة عليهم.

ب. وذلك أن العناية في الآية السابقة إنما هي ببيان كون الرسل بشرا على العادة فحسب فكأنه لما

ذكر ذلك اختلج في ذهن السامع أنهم بما ذا أرسلوا؟ فأجيب عنه فقيل: بالبينات والزبر أما البينات فلإثبات رسالتهم وأما الزبر فلحفظ تعليماتهم.

ج. وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا﴾ أي وما أرسلنا بالبينات والزبر إلا رجالا نوحي إليهم، وفيه أنه لا بأس به في نفسه لكنه مفوت لما تقدم من النكتة.

٥. ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

أ. لا شك أن تنزيل الكتاب على الناس وإنزال الذكر على النبي ﷺ واحد بمعنى أن تنزيله على الناس هو إنزاله إليه ليأخذوا به ويوردوه مورد العمل كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [النساء: ١٧٤] وقال: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]

ب. فيكون محصل المعنى أن القصد بنزول هذا الذكر إلى عامة البشر وأنك والناس في ذلك سواء، وإنما اخترناك لتوجيه الخطاب وإلقاء القول لا لنحملك قدرة غيبية وإرادة تكوينية إلهية فنجعلك مسيطرا عليهم وعلى كل شيء بل لأمرين:

• أحدهما: أن تبين للناس ما نزل تدريجا إليهم لأن المعارف الإلهية لا ينالها الناس بلا واسطة فلا بد من بعث واحد منهم للتبيين والتعليم، وهذا هو غرض الرسالة ينزل إليه الوحي فيحمله ثم يؤمر بتبليغه وتعليمه تبيينه.

• والثاني: رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصروا أن ما جئت به حق من عند الله فإن الأوضاع المحيطة بك والحوادث والأحوال الواردة عليك في مدى حياتك من اليتم وخمود الذكر والحرمان من التعلم والكتابة وفقدان مرب صالح والفقر والاحتباس بين قوم جهلة أخساء صفر الأيدي من مزايا المدنية وفضائل الإنسانية كانت جميعا أسبابا قاطعة أن لا تذوق من عين الكمال قطرة، ولا تقبض من عرى السعادة على مسكة، لكن الله سبحانه أنزل إليك ذكرا تتحدى به على الجن والإنس مهيمنا على سائر الكتب السماوية تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبرهانا ونورا مبينا، فالتفكر فيك نعم الدليل الهادي إلى أن ليس لك فيما جئت به صنع ولا لك من الأمر شيء وإن الله أنزله بعلمه وأيدك لذلك بقدرته من غير أن يداخله من الأسباب العادية شيء.

٦. هذا ما تفيده الآية الكريمة نظرا إلى سياقها وسياق ما قبلها ومحصله أن قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، غاية للإنزال لا لنفسه بل من حيث تعلقه بشخص النبي ﷺ، وأن متعلق ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ المحذوف هو نحو قولنا: فيك لا قولنا: في الذكر.

٧. لكن القوم ذكروا أن قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ غاية للإنزال وأن المراد بالتفكر التفكر في الذكر ليعلم بذلك أنه حق ومعنى الآية على هذا: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن لتبين للناس كافة ما نزل إليهم في ذلك الذكر من أصول المعارف والأحكام والشرائع وأحوال الأمم الماضية وما جرى فيهم من سنة الله تعالى، ولرجاء أن يتفكروا في الذكر فيهتدوا إلى أنه حق من عند الله أو يتفكروا فيما تبينه لهم، وأنت خبير بأن لازم ذلك:

أ. أولا: شبه تحصيل الحاصل في إنزاله إليه ليبين لهم ما نزل إليهم، والإنزال واحد، ولا مدفع له إلا أن يغير النظم إلى مثل قولنا: وأنزلنا إليك الذكر لتبينه لهم.

ب. وثانيا: كون قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ مستدركا مستغنى عنه وخاصة بالنظر إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وذلك أن الإنزال غايته التبيين ولا أثر في ذلك لكونه ﷺ هو المنزل إليه دون غيره، وكذلك التفكر في الذكر غاية مرجوة للعلم بأنه حق من عند الله من غير نظر إلى من أنزل إليه، ولازم ذلك كون قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ زائدا في الكلام لا حاجة إليه.

ج. وثالثا: انقطاع الآية بسياقها عن سياق الآية السابقة عليها: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ والآيات المتقدمة عليها.

د. وهاهنا وجه آخر يمكن أن يندفع به بعض الإشكالات السابقة وهو كون المراد بالذكر المنزل لفظ القرآن الكريم وبما نزل إليهم معاني الأحكام والشرائع وغيرها، ويكون قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ غاية للإنزال، وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ معطوفا على مقدر وغاية للتبيين لا للإنزال، وهو خلاف ظاهر الآية، وعليك بإجادة التدبر فيها.

٨. ومن لطيف التعبير في الآية قوله: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ و﴿ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ بتفريق الفعلين بالأفعال الدال على اعتبار الجملة والدفعة والتفعيل الدال على اعتبار التدريج، ولعل الوجه في ذلك أن العناية في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ بتعلق الإنزال بالنبي ﷺ فقط من غير نظر إلى خصوصية نفس الإنزال، ولذلك أخذ

الذكر جملة واحدة فعبر عن نزوله من عنده تعالى بالإنزال، وأما الناس فإن الذي لهم من ذلك هو الأخذ والتعلم والعمل، وقد كان تدريجيا ولذلك عني به وعبر عن نزوله إليهم بالتنزيل.

٩. وفي الآية دلالة على حجية قول النبي ﷺ في بيان الآيات القرآنية:

أ. وأما ما ذكره بعضهم أن ذلك في غير النص والظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع إلى أسرار كلام الله وما فيه من التأويل فمما لا ينبغي أن يصغي إليه.

ب. هذا في نفس بيانه ﷺ ويلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر وغيره وأما سائر الأمة من الصحابة أو التابعين أو العلماء فلا حجية لبيانهم لعدم شمول الآية وعدم نص معتمد عليه يعطي حجية بيانهم على الإطلاق.

ج. وأما قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فقد تقدم أنه إرشاد إلى حكم العقلاء بوجوب رجوع الجاهل إلى العالم من غير اختصاص الحكم بطائفة دون طائفة.

د. هذا كله في نفس بيانهم المتلقى بالمشافهة، وأما الخبر الحاكي له فما كان منه بيانا متواترا أو محفوفا بقرينة قطعية وما يلحق به فهو حجة لكونه بيانهم، وأما ما كان مخالفا للكتاب أو غير مخالف لكنه ليس بمتواتر ولا محفوفا بالقرينة فلا حجية فيه لعدم كونه بيانا في الأول وعدم إحراز البيانية في الثاني وللتفصيل محل آخر.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ قال: الذكر محمد ونحن أهله المسئولون الحديث.

• أقول: يشير عليه السلام إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً﴾ [الطلاق: ١١] وفي معناه روايات كثيرة.

ب. وفي تفسير البرهان، عن البرقي بإسناده عن عبد الكريم بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام: قال جل ذكره: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ قال: الكتاب الذكر وأهله آل محمد عليه السلام، أمر الله عز وجل بسؤالهم ولم يأمر بسؤال الجهال، وسمى الله عز وجل القرآن ذكرا فقال تبارك وتعالى ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾

• أقول: وهذا احتجاج على كونهم أهل الذكر بأن الذكر هو القرآن وأنهم أهله لكونهم قوم رسول الله ﷺ والآيتان في آخر الكلام للاستشهاد على ذلك كما صرح بذلك في غيره من الروايات، وفي معنى الحديث أحاديث أخر.

ج. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له إن من عندنا يزعمون أن قول الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أنهم اليهود والنصارى فقال: إذا يدعونكم إلى دينهم قال، ثم قال: بيده إلى صدره: نحن أهل الذكر ونحن المسئولون، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: الذكر القرآن.

• أقول: وروي نظير هذا البيان عن الرضا عليه السلام في مجلس المأمون.

• وقد مر أن الخطاب في الآية على ما يفيده السياق للمشركين من الوثنيين المحيلين للرسالة أمروا أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتب السماوية: هل بعث الله للرسالة رجالا من البشر يوحي إليهم؟ ومن المعلوم أن المشركين لما كانوا لا يقبلون من النبي ﷺ لم يكن معنى لإرجاعهم إلى غيره من أهل القرآن لأنهم لم يكونوا يقرون للقرآن أنه ذكر من الله فتعين أن يكون المسئول عنه بالنظر إلى مورد الآية هم أهل الكتاب وخاصة اليهود.

• وأما إذا أخذ قوله: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ في نفسه مع قطع النظر عن المورد ومن شأن القرآن ذلك، ومن المعلوم أن المورد لا يخصص بنفسه، كان القول عاما من حيث السائل والمسئول والمسئول عنه ظاهرا فالسائل كل من يمكن أن يجهل شيئا من المعارف حقيقية والمسائل من المكلفين، والمسئول عنه جميع المعارف والمسائل التي يمكن أن يجهله جاهل، وأما المسئول فإنه وإن كان بحسب المفهوم عاما فهو بحسب المصداق خاص وهم أهل بيت النبي عليه السلام.

• وذلك أن المراد بالذكر إن كان هو النبي ﷺ كما في آية الطلاق فهم أهل الذكر، وإن كان هو القرآن كما في آية الزخرف فهو ذكر للنبي ﷺ ولقومه، وهم قومه أو المتيقن من قومه، فهم أهله وخاصته وهم المسئولون وقد قارنهم ﷺ بالقرآن وأمر الناس بالتمسك بهما في حديث الثقلين المتواتر قائلا: إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض الحديث.

• ومن الدليل على أن كلامهم عليه السلام من الجهة التي ذكرناها عدم تعرضهم لشيء من خصوصيات مورد الآية.

• ومما قدمناه يظهر فساد ما أورده بعضهم على الأحاديث أن المشركين الذين أمروا بالسؤال ما كانوا يقبلون من النبي ﷺ فكيف يقبلون من أهل بيته؟

د. أخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: لا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه، ولا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله وقد قال الله: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فينبغي للمؤمن أن يعرف عمله على هدى أم على خلافه.

٢٦. المكر والخسف والعذاب:

المقطع [٢٦] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٦٢»:

١. ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. هذه الآية والآيتان بعدها إنذار وتهديد للمشركين وهم الذين يعبدون غير الله سبحانه ويشرعون لأنفسهم سننا يستنون بها في الحياة فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم معرضين عن شرائع الله النازلة من طريق النبوة استنادا إلى حجج داحضة اختلقوها لأنفسهم كلها سيئات وما يتقلبون فيها مدى حياتهم من حركة أو سكون وأخذ أو رد وفعل أو ترك وهم على ما هم عليه من استكبار وغرور، كلها ذنوب يقترفونها مكرا بالله ربهم وبرسله الداعين إلى الأخذ بدين الله ولزوم سبيله.

ب. فقوله: ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ مفعول ﴿مَكَرُوا﴾ بتضمينه بمعنى عملوا أي عملوا السيئات ماكرين، وما احتمله بعضهم من كون السيئات وصفا سادا مسد المفعول المطلق والتقدير: يمكرون المكرات السيئات بعيد من السياق.

ج. وبالجملة الكلام لتهديد المشركين وإنذارهم بالعذاب الإلهي ويدخل فيهم مشركو مكة،

والكلام متفرع على ما تقدم كما يدل عليه قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ بفاء التفريع.

د. والمعنى، والله أعلم، فإذا دلت الآيات البينات على أن الله هو ربهم لا شريك له في ربوبيته وأن الرسالة ليست بأمر محال بل هي دعوة إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم وخير دنياهم وأخراهم من رجال هم أمثالهم يبعثهم الله ويوحي إليهم بما تشتمل عليه الدعوة، فهؤلاء الذين يعرضون عن ذلك ويمكرون بالله ورسله بالتشبث بهذه الحجج الواهية لتسوية الطريق إلى ترك دين الله وتشريع ما يوافق أهواءهم ويعملون السيئات هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب وهم لا يشعرون، أي يفاجئهم من غير أن يتنبهوا بتوجهه إليهم قبل نزوله.

٢. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾:

أ. الفاعل هو الله سبحانه وقد كثرت في القرآن نسبة الأخذ إليه، وقيل: الضمير للعذاب، والتقلب هو التحول من حال إلى حال والمراد به تحول المشركين في مقاصدهم وأعمالهم السيئة وانتقالهم من نعمة إلى نعمة أخرى من نعم الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧]

ب. فالمراد بأخذهم في تقلبهم أن يأخذهم في عين ما يتقلبون فيه من السيئات مكرا بالله ورسله بالعذاب أو المعنى يعذبهم بنفس ما يتقلبون فيه فيعود النعمة نقمة، وهذا أنسب بالنظر إلى قوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

ج. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ في مقام التعليل لأخذهم في تقلبهم ومكرهم السيئات أي لأنهم ليسوا بمعجزين لله فيما أراد بالتغلب عليه أو بالفرار من حكمه، والمعنى ظاهر.

٣. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. التخوف تمكن الخوف من النفس واستقراره فيها فالأخذ على تخوف هو العذاب مبنيا على المخافة بأن يشعروا بالعذاب فيتقوه ويحذروه بما استطاعوا من توبة وندامة ونحوهما فيكون الأخذ على تخوف مقابلا لإتيان العذاب من حيث لا يشعرون.

ب. وربما قيل: إن الأخذ على تخوف هو العذاب بما يخاف منه من غير هلاك كالزلزلة والطوفان وغيرهما.

ج. وربما قيل: إن معنى التخوف التنقص بأن يأخذهم الله بنقص النعم واحدة بعد واحدة تدريجيا كأخذ الأمن ثم الأمطار ثم الرخص ثم الصحة وهكذا.

٤. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ في مقام التعليل أي يأخذهم على تخوف ويتنزل في عذابهم إلى هذا النوع من العذاب الذي هو أهون الأنواع المعدودة لأنه رءوف رحيم، وفي التعبير بقوله: ﴿رَبَّكُمْ﴾ إشارة إلى ذلك، وكونه في مقام التعليل بالنسبة إلى الوجهين الأولين ظاهر، وأما بالنسبة إلى الثالث فلأن الأخذ بالنقص لا يخلو من مهلة وفرصة يتنبه فيها من تنبه فيأخذ بالحذر بتوبة أو غيرها.

٥. والكلام في تعداد أنواع العذاب المذكورة ليس مسوقا للحصر كما نبه به بعضهم بل إحصاء لأنواع منه.

٢٧. السجود والظلال والملائكة:

المقطع [٢٧] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٦٤»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ﴾:

أ. المراد بالرؤية الرؤية البصرية والنظر الحسي إلى الأشياء الجسمانية لأن المطلوب إلفات النظر إلى الأجسام ذوات الأظلال.

ب. والتفيؤ من الفيء وهو الظل راجعا، ولذا قيل: إن الظل هو ما في أول النهار إلى زوال الشمس والفيء هو ما يكون بعد زوال الشمس إلى آخر النهار، والظاهر أن الظل أعم من الفيء كما تقدم وتؤيده الآية، فالتفيؤ رجوع الظل بعد زواله.

ج. والشمائل جمع شمأل وهو خلاف اليمين، وجمعه باعتبار أخذ كل سمت مفروض خلف الشيء وعن يساره جهة شمال على حدة فهي شمائل تقابل اليمين كما أن عد كل شيء ذا أظلال بهذه العناية أخذا للظل بالنسبة إلى كل جهة من اليمين والشمائل ظلا غيره بالنسبة إلى جهة أخرى لا لأن الشيء المذكور جمع

بحسب المعنى وإن كان مفردا بحسب اللفظ، والدخور هو الخضوع والصغار.

د. وكون المراد بالرؤية الرؤية البصرية قرينة على أن المراد بما خلق الله من شيء، ومن شيء بيان لما خلق الله، هو الأشياء المرئية، وما تعقبه من حديث تفيؤ الظلال يحصرها في الأجسام الكثيفة التي لها ظلال كالجبال والأشجار والأبنية والأجسام القائمة على الأرض فلا يرد أن ما خلق الله وخاصة بعد بيانه بالشيء لا يلازمه الظل كالأجرام العلوية المضيئة والأجسام الشفافة وأعراض الأجسام.

هـ. ولدفع هذا الإشكال جعل بعضهم قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ﴾، وصفا لشيء حتى يخص البيان بالأشياء المخلوقة التي لها أفياء وأظلال ولا يخلو من وجه.

٢. والآية:

أ. تهدي المشركين وهم منكرون للتوحيد والنبوة إلى النظر في حال الأجسام التي لها أظلال تدور عن يمينها وعن شمائلها فإنها تمثل سجودها لله وخضوعها له وصغارها قبال عظمته وكبريائه، وكذا سجود ما في السماوات والأرض من دابة والملائكة، فهي جميعا ساجدة لله وحده لانقيادها الذاتي لأمره ممثلة للخضوع والصغار بهذا النسك الوجودي والعبادة التكوينية.

ب. وهذا من أوضح الدليل على أن في العالم إلها معبودا واحدا هو الله سبحانه وأن من حقه أن يسجد له ويخضع لأمره، وهذا هو التوحيد والنبوة اللذان ينكرونها فهل التوحيد إلا الإذعان بكونه سبحانه هو الإله الذي يجب الخضوع له والتوجه بالذلة والصغار إليه؟ وهل الدين الذي تتضمنه دعوة الأنبياء والرسل إلا الخضوع لله سبحانه والانقياد لأمره فيما أراد؟ فما بالهم ينكرون ذلك؟ وهم يرون ويعلمون أن ما على الأرض من أظلال الأجسام الكثيفة يسجد له، وما في السماوات والأرض من الملائكة والذوات ساجدة له منقادة لأمره حتى أرباب أصنامهم الذين يتخذونهم آلهة دون الله فإنهم إما من الملائكة وإما من الجن وإما من كملي البشر، وهم جميعا داخرون له منقادون لأمره.

ج. فمعنى الآية، والله أعلم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء المشركون المنكرون لتوحيد الربوبية ولدعوة النبوة أولم ينظروا ﴿إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ من هذه الأجسام القائمة على بسيط الأرض من جبل أو بناء أو شجر أو أي جسم منتصب ﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ ويرجع ويدور ﴿ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ﴾ واقعة على الأرض تذللا وتعبدا له سبحانه ﴿وَهُمْ داخِرُونَ﴾ خاضعون صاغرون.

٣. وقد تقدم الكلام في معنى سجدة الظلال ذيل قوله تعالى: ﴿وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ [الرعد: ١٥] في الجزء الحادي عشر من الكتاب.

٤. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. ذكرت الآية السابقة سجود الظلال وهو معنى مشهود فيها يمثل معنى السجود لله، وتذكر هذه الآية سجود ما في السماوات والأرض من دابة، والدابة ما يدب ويتحرك بالانتقال من مكان إلى مكان، بحقيقة السجود التي هي نهاية التذلل والتواضع قبال العظمة والكبرياء فإن صورة السجدة التي هي خرور الإنسان ووقوعه على وجهه على الأرض إنما تعد عبادة إذا أريد بها تمثيل هذا المعنى فحقيقة السجدة هي التذلل المذكور.

ب. ويدخل في عموم الدابة الإنسان وكذا الجن لأنه سبحانه يصفهم في كلامه بما يفيد أن لهم دبيبا كما لسائر الدواب من الإنسان والحيوان، ولم يدخل سبحانه الملائكة في عموم الدابة وأفردهم بالذكر، وفي ذلك من التلويح إلى أن ما نسب إليهم في كلامه تعالى من النزول والصعود والذهاب والمجيء مما ظاهره النقلة والحركة المكانية ليس من نوع ما للدواب من الدبيب والانتقال المكاني ما لا يخفى.

ج. فقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ﴾ أي له يخضع وينقاد خضوعا وانقيادا ذاتيا هي حقيقة السجود فمن حقه تعالى أن يعبد ويسجد له.

د. وفي الآية دلالة على أن في غير الأرض من السماوات شيئا من الدواب يسكنها ويعيش فيها.

٥. ﴿وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

أ. الاستكبار والتكبر من الإنسان أن يعد نفسه كبيرا ويضعه موضع الكبر وليس به ولذلك يعد في الرذائل لكن التكبر ربما يطلق على ما لله سبحانه من الكبرياء بالحق وهو الكبير المتعال فهو تعالى كبير متكبر وليس يقال: مستكبر ولعل ذلك كذلك اعتبارا باللفظ فإن الاستكبار بحسب أصل هيئته طلب الكبر ولازمه أن لا يكون ذلك حاصلا للطالب من نفسه وإنما يطلب الكبر والعلو على غيره دعوى فكان مذموما، وأما التكبر فهو الظهور بالكبرياء سواء كانت له في نفسه كما لله سبحانه وهو التكبر الحق أو لم يكن له إلا دعوى وغرورا كما في غيره.

ب. فتبين بذلك أن الاستكبار مذموم دائما أما استكبار المخلوق على مخلوق آخر فلأن الفقر

والحاجة قد استوعبهما جميعا وشيء منهما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا لغيره فاستكبار أحدهما على الآخر خروج منه عن حده وتجاوز عن طوره وظلم وطغيان.

ج. وأما استكبار المخلوق على الخالق فلا يتم إلا مع دعوى المخلوق الاستقلال والغنى لنفسه وذهوله عن مقام ربه فإن النسبة بين العبد وربه نسبة الذلة والعزة والفقر والغنى فما لم يغفل العبد عن هذه النسبة ولم يذهل عن مشاهدة مقام ربه لم يعقل استكباره على ربه فإن الصغير الوضيع القائم أمام الكبير المتعالي وهو يشاهد صغار نفسه وذلته وكبرياء من هو أمامه وعزته لا يتيسر له أن يرى لنفسه كبرياء وعزة إلا أن يأخذه غفلة وذهول.

د. وإذ كان الكبرياء والعلو لله جميعا فدعواه الكبرياء والعلو تغلب منه على ربه وغصب منه لمقامه واستكبار واستعلاء عليه دعوى، وهذا هو الاستكبار بحسب الذات ويتبعه الاستكبار بحسب الفعل وهو أن لا يأتمر بأمره ولا ينتهي عن نهيه فإنه ما لم ير لنفسه إرادة مستقلة قبال الإرادة الإلهية مغايرة لها لم ير لنفسه أن يخالفه في أمره ونهيه.

هـ. وعلى هذا فقوله: ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في تعريف الملائكة والكلام في سياق العبودية دليل على أنهم لا يستكبرون على ربهم فلا يغفلون عنه تعالى ولا يذهلون عن الشعور بمقامه ومشاهدته.

و. وقد أطلق نفي الاستكبار من غير أن يقيده بما بحسب الذات أو بحسب الفعل فأفاد أنهم لا يستكبرون عليه في ذات ولا فعل أي لا يغفلون عنه سبحانه ولا يستنكفون عن عبادته ولا يخالفون عن أمره، ولبيان هذا الإطلاق والشمول عقبه بيانا له بقوله: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ وأشار بذلك إلى نفي الاستكبار عنهم ذاتا وفعلا.

ز. توضيح ذلك أن قوله: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يثبت لهم الخوف من ربهم والله سبحانه ليس عنده إلا الخير ولا شر عنده ولا سبب شر يخاف منه إلا أن يكون الشر وسببه عند العبد وقد أخذ متعلق الخوف هو ربهم لا عذابه تعالى أو عصيان أمره كما في قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]

ح. فهذه المخافة هي المخافة منه تعالى وهو وإن لم يكن عنده إلا الخير، والخوف إنما يكون من شر مترقب إلا أن حقيقته التأثر والانكسار والصغار وتأثر الضعيف قبال القوي الظاهر بقوته، وانكسار

الصغير الوضيع أمام الكبير المتعال القاهر بكبريائه وتعاليه ضروري فمخافتهم هي تأثرهم الذاتي عما يشاهدونه من مقام ربهم ولا يغفلون عنه قط.

ط. ويؤيد ما ذكرناه تقييد قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ بقوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فإن فيه إشارة إلى أن كونه تعالى فوقهم قاهرا لهم متعاليا بالنسبة إليهم هو السبب في مخافتهم، وليس هذا إلا الخوف من مقامه تعالى لا من عذابه فهو خوف ذاتي ويرجع إلى نفي الاستكبار عن ذواتهم.

ي. وأما قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ فإشارة إلى عدم استكبارهم في مقام الفعل وقد تقدم أنه إذا لم يستكبر عليه تعالى في ذات لم يستكبر عليه في فعل فهم لا يعصون الله سبحانه في أمر بل يفعلون ما يؤمرون، وفي إتيان قوله: ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ مبنيا للمجهول من التعظيم والتفخيم لمقامه سبحانه ما لا يخفى.

ك. فتبين أن الملائكة نوع من خلق الله تعالى لا تأخذهم غفلة عن مقام ربهم ولا يطرأ عليهم ذهول ولا سهو ولا نسيان عن ذلك ولا يشغلهم عنه شاغل، وهم لا يريدون إلا ما يريده الله سبحانه.

٦. وإنما خص سبحانه الملائكة من بين الساجدين المذكورين في الآية بذكر شأنهم وتعريف أوصافهم وتفصيل عبوديتهم لأن أكثر آلهة الوثنيين من الملائكة كإله السماء وإله الأرض وإله الرزق وإله الجمال وغيرهم، وللدلالة على أنهم، بالرغم من زعم الوثنيين، أمعن خلق الله تعالى في عبوديته وعبادته.

٧. ومن عجيب الاستدلال ما استدل به بعضهم بالآية على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء كمثلنا أما دلالتها على التكليف فلمكان الأمر، وأما إدارتهم بين الخوف والرجاء فلأن الآية ذكرت خوفهم والخوف يستلزم الرجاء، وهو ظاهر الفساد:

أ. أما الأمر فقد ورد في كلامه تعالى في موارد لا تكليف فيها قطعا كالسماء والأرض وغيرهما قال تعالى: ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

ب. وأما استلزام الخوف للرجاء فإنما الملازمة ما بين الخوف من نزول العذاب وأصابة المكروه وبين الرجاء، وقد تقدم أن الذي في الآية إنما هو خوف مهابة وإجلال بمعنى تأثر الضعيف من القوي وانكسار الصغير الحقير قبال العظيم الكبير الظاهر عليه بعظمته وكبريائه ولا مقابلة بين الخوف بهذا المعنى وبين الرجاء.

٨. وقد استدل بالآية أيضا على أن الملائكة أفضل من البشر، وفيه أن من الممكن استظهار أفضليتهم من عصاة البشر وكفارهم ممن يفقد الصفات المذكورة لكونها مسوقة في مقام المدح وأما غيرهم فلا تعرض للآية لهم إثباتا ونفيا وسيأتي تفصيل القول في الملائكة في موضع يليق به إن شاء الله.

٢٨. الله واحد والرهبة والدين:

المقطع [٢٨] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥١-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٦٩»:

١. ﴿وَقالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾:

أ. الرهبة الخوف وتقابل الرغبة كما أن الخوف يقابل به الرجاء.

ب. والكلام معطوف على قوله: ﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ﴾ وقيل: معطوف على قوله: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ وقيل: على قوله: ﴿ما خَلَقَ اللهُ﴾ على طريقة قوله: (علفتها تبنا وماء باردا) أي وسقيتها ماء باردا، والتقدير في الآية أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء وأ لم يسمعوا إلى ما قال الله ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾ إلخ؟ والأول هو الوجه.

٢. ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾:

أ. أريد به، والله أعلم، النهي عن التعدي عن الإله الواحد باتخاذ غيره معه فيشمل الاثنين وما فوقه من العدد ويؤيده تأكيده بقوله: ﴿إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ﴾ و﴿اثْنَيْنِ﴾ صفة ﴿إِلهَيْنِ﴾ كما أن ﴿واحِدٌ﴾ صفة ﴿إِلهٌ﴾ جيء بهما للإيضاح والتبيين.

ب. وبعبارة أخرى العناية متعلقة بالنهي عن اتخاذ غيره معه سواء كان واحدا أو أكثر من واحد لكن لما كان كل عدد اختاروه في الإله فوق الاثنين يجب أن يسلكوا إليه من الاثنين إذ لا يتحقق عدد هو فوق الاثنين إلا بعد تحقق الاثنين نهى عن اتخاذ الاثنين واكتفى به عن النهي عن كل عدد فوق الواحد.

ج. ويمكن أن يكون اعتبار الاثنين نظرا إلى ما عليه دأبهم وسنتهم فإنهم يعتقدون من الإله بإله الصنع والإيجاد وهو الذي له الخلق فحسب وهو إله الآلهة وموجد الكل، وبإله العبادة وهو الذي له الربوبية والتدبير، وهذا المعنى أنسب بما يتلوه من الجمل.

د. وعلى هذا فالمعنى ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: إله الخلق وإله التدبير الذي له العبادة إنما هو أي الإله إله واحد له الخلق والتدبير جميعا لأن كل تدبير ينتهي إلى الإيجاد، وإذ كنت أنا الخالق الموجد فأنا المدبر الذي تجب عبادته فإياي فارهبون وإياي فاعبدون.

٣. ومن هنا يظهر وجه تفرع قوله: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ على ما تقدمه وأنه من لطيف الاستدلال، والجملة تفيد الحصر بتقديم المفعول على سبيل الاشتغال، والقصر قصر قلب لا قصر إفراد كما يفيده كلامهم فإن الوثنيين لا يعبدون الله وآلهتهم غير الله، وإنما يعبدون آلهتهم فحسب معتذرين بأن الله سبحانه لا يحيط به علم ولا يناله فهم فلا يمكن التوجه إليه بالعبادة فمن الواجب أن يعبد الكرام أو الأقوياء من خلقه كالملائكة والكاملين من البشر والجن فهم المدبرون لأمر العالم ينال بالعبادة خيرهم ويتقى بها شرهم وهذا معنى التقرب إلى الله بشفاعتهم.

٤. والظاهر أن الأمر بالرهبة كناية عن الأمر بالعبادة وإنما اختصت الرهبة بالذكر ليوافق ما تقدم في حديث سجدة الكل التي هي الأصل في تشريع العبادة من خوف الملائكة، وعلى هذا فالظاهر أن المراد بالرهبة ما هي رهبة إجلال ومهابة لا ما هي رهبة مؤاخذة وعذاب، فافهم ذلك.

٥. ﴿وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾:

أ. قال في المفردات: (الوصب السقم اللازم وقد وصب فلان فهو وصب وأوصبه كذا فهو يتوصب نحو يتوجع، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ ﴿وَلَهُ الدِّينُ واصِباً﴾ فتوعد لمن اتخذ إلهين وتنبيه أن جزاء من فعل ذلك عذاب لازم شديد، ويكون الدين هاهنا الطاعة، ومعنى الواصب الدائم أي حق الإنسان أن يطيعه دائما في جميع أحواله كما وصف به الملائكة حيث قال: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ ويقال: وصب وصوبا دام، ووصب الدين وجب، ومفازة واصبة بعيدة لا غاية لها)

ب. والآية وما بعدها تحتج على وحدانيته تعالى في الألوهية بمعنى المعبودية بالحق وأن الدين له وحده ليس لأحد أن يشرع من ذلك شيئا ولا أن يطاع فيما شرع فالآية وما بعدها في مقام التعليل لقوله: ﴿وَقالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ إلى آخر الآية، واحتجاج على مضمونها وعود بعد عود إلى ما تقدم بيانه من التوحيد والنبوة اللذين ينكرهما المشركون.

ج. فقوله: ﴿وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ احتجاج على توحده تعالى في الربوبية فإن ما في

السماوات والأرض من شيء فهو مملوك له بحقيقة معنى الملك إذ ما في العالم المشهود من شيء فهو بما له من الصفات والأفعال، قائم به تعالى موجود بإيجاده وظاهر بإظهاره لا يسعه أن ينقطع منه ولا لحظة فالأشياء قائمة به قيام الملك بمالكه مملوكة له ملكا حقيقيا لا يقبل تغييرا ولا انتقالا كما هو خاصة الملك الحقيقي كملك الإنسان لسمعه وبصره مثلا.

د. وإذا كان كذلك كان هو تعالى المدبر لأمر العالم إذ لا معنى لكون العالم مملوكا له بهذا الملك ثم يستقل غيره بتدبير أمره والتصرف فيه وينعزل هو تعالى عما خلقه وملكه، وإذا كان هو المدبر لأمره كان هو الرب له إذ الرب هو المالك المدبر، وإذا كان هو الرب كان هو الذي يجب أن يتقى ويخضع له بالعبادة.

٦. ﴿وَلَهُ الدِّينُ واصِباً﴾:

أ. أي دائما لازما، وذلك أنه لما كان تعالى هو الرب الذي يملك الأشياء ويدبر أمرها ومن واجب التدبير أن يستن العالم الإنساني بسنة يبلغ به الجري عليها غايته ويهديه إلى سعادته، وهذه السنة والطريقة هي التي يسميها القرآن دينا، كان من الواجب أن يكون تعالى هو القائم على وضع هذه السنة وتشريع هذه الطريقة فهو تعالى المالك للدين كما قال: ﴿وَلَهُ الدِّينُ واصِباً﴾ وعليه أن يشرع ما يصلح به التدبير كما قال فيما مر: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الآية.

ب. وقيل: المراد بالدين الطاعة، وقيل: الملك، وقيل: الجزاء، ولكل منها وجه غير خفي على المتأمل، والأوجه هو ما قدمناه لأنه أوفق وأنسب بسياق ما يحفها من الآيات السابقة واللاحقة الباحثة عن توحيد الربوبية وتشريع الدين من طريق الوحي والرسالة.

٧. ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ استفهام إنكاري، متفرع على الجملتين جميعا، على الظاهر، والمعنى: وإذا كان كذلك فهل غيره تعالى تتقون وتعبدون؟ وليس يملك شيئا ولا يدبر أمرا حتى يعبد، وليس من حقه أن يشرع دينا فيطاع فيما وضعه وشرعه.

٢٩. النعمة والضر والشرك:

المقطع [٢٩] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٣-٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٧١»:

١. ﴿وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ﴾:

أ. بيان آخر لوحدانيته تعالى في الربوبية يفرع سبحانه عليه ذمهم وتوبيخهم على شركهم بالله وعلى تشريعهم أمورا من عند أنفسهم من غير إذن منه ورضى ويجري الكلام في هذا المجرى إلى تمام بضع آيات.

ب. والمراد بالضر سوء الحال من جهة فقدان النعمة التي تصلح بها الحال، والجؤار بضم الجيم صوت الوحوش أستعير لرفع الصوت بالدعاء والتضرع والاستغاثة تشبيها له به.

٢. ﴿وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾:

أ. الكلام مسوق للعموم وليس مجرد دعوى غير مستدل فقد بين ذلك في الآيات السابقة، على أن السامعين يسلمون ذلك ويقولون به ويدل عليه جؤارهم واستغاثتهم إليه عند مسيس الضر بفقدان نعمة من النعم.

ب. فالمعنى: أن جميع النعم التي عندكم من إنعامه تعالى عليكم وأنتم تعلمون ذلك ثم إذا حل بكم شيء من الضر وسوء حال يسير رفعتم أصواتكم بالتضرع وجأرتم إليه لا إلى غيره ولو كان لغيره صنيعة عندكم لتوجهتم إليه فهو سبحانه منعم النعمة وكاشف الضر فما بالكم لا تخصونه بالعبادة ولا تطيعونه.

ج. والاستغاثة به تعالى والتضرع إليه عند حلول المصائب وهجوم الشدائد التي ينقطع عندها الرجاء عن الأسباب الظاهرية ضرورية لا يرتاب فيها فإن الإنسان ولو لم ينتحل إلى دين ولم يؤمن بالله سبحانه فإنه لا ينقطع رجاؤه عند الشدائد إذا رجع إلى ما يجده من نفسه، ولا رجاء إلا وهناك مرجو منه فمن الضروري أن تحقق ما لا يخلو من معنى التعلق كالحب والبغض والإرادة والكراهة والجذب ونظائرها في الخارج لا يمكن إلا مع تحقق طرف تعلقها في الخارج فلو لم يكن في الخارج مراد لم تتحقق إرادة من مريد، ولو لم يكن هناك مطلوب لم يكن طلب ولو لم يكن جاذب يجذب لم يتصور مجذوب ينجذب، وهذا حال جميع المعاني الموجودة التي لا تخلو كينونتها عن نسبة.

د. فتعلق الرجاء من الإنسان بالتخلص من البلية عند انقطاع الأسباب دليل على أنه يرى أن هناك سببا فوق هذه الأسباب المنقطع عنها لا تعجزه عظائم الحوادث وداهمات الرزايا ولا ينقطع عنه الإنسان، ولا يزول ولا يفنى ولا يسهو ولا ينسى قط.

هـ. هذا شيء يجده الإنسان من نفسه وتقضي به فطرته وإن ألهاه عنه الاشتغال بالأسباب الظاهرة وجذبته إلى نفسها أمتعة الحياة وزخارف المادة المحسوسة لكنه إذا أحاطت به البلية وأعيته الحيلة وسدت عليه طرق النجاة وانهزمت الأسباب الظاهرة عن آخرها وطارت الموانع عن نظره ولم يبق هناك مله يلهيه ولا شاغل يشغله ظهر له ما أخفته الأسباب وعاين ما كان على غفلة منه فتعلقت نفسه به، وهو السبب الذي فوق كل سبب وهو الله عز اسمه.

٣. ﴿ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ شروع في ذمهم وتوبيخهم وينتهي إلى إيعادهم وحق لهم ذلك لأن الذي يستدعيه كشف الضر عن استغاثتهم ورجوعهم الفطري إلى ربهم أن يوحدوه بالربوبية بعد ما انكشفت لهم الحقيقة باندفاع البلية ونزول الرحمة لكن فريقا منهم تفاجئهم الشقوة فيعودون إلى التعلق بالأسباب فينتبه عندئذ الراقد من رذائل ملكاتهم فيثير لهم الأهواء ويشركون بربهم غيره، ومنه الأسباب التي يتعلقون بها، ومعنى الآية ظاهر.

٤. ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. اللام للغاية أي إنهم إنما يشركون بربهم ليكفروا بما أعطيناهم من النعمة بكشف الضر عنهم ولا يشكروه.

ب. وجعل الكفر بالنعمة غاية للشرك إنما هو بدعوى أنهم لا غاية لهم في مسير حياتهم إلا الكفر بنعمة الله وعدم شكره على ما أولى فإن اشتغالهم بالحس والمادة أورثهم في قلوبهم ملكة التعلق بالأسباب الظاهرة وإسناد النعم الإلهية إليها وضربهم إياها حجابا ثخينا على عرفان الفطرة فأنساهم ذلك توحيد ربهم في ربوبيته فصاروا يذكرون عند كل نعمة أسبابها الظاهرة دون الله، ويتعلقون بها ويخشون انقطاعها ويخضعون لها دون الله فكأنهم بل إنهم لا غاية لهم إلا كفر نعمة الله وعدم شكرها.

ج. فالكفر بالله سبحانه هو غايتهم العامة في كل شأن أبدوه وكل عمل أتوا به فإذا أشركوا بربهم بعد كشف الضر بالخضوع لسائر الأسباب فإنما أشركوا ليكفروا بما آتاهم من النعمة.

د. ولما كان كفرانهم هذا، وهو كفر دائم يصرون عليه واستكبار على الله، وقد قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] أثار ذكر ذلك الغضب الإلهي فعدل عن خطاب النبي ﷺ وهم على نعت الغيبة إلى خطابهم وإيعادهم من غير توسيط فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ﴾

هـ. ولم يذكر ما يتمتعون به ليفيد بالإطلاق أن كل ما تمتعوا به سيؤاخذون عليه ولا ينفعهم شيء منه، ولم يذكر ما يعلمونه، وهو لا محالة أمر يسوؤهم، ليكونوا على جهل منه حتى يحل بهم مفاجأة ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وفيه تشديد للإيعاد.

و. وذكر بعضهم: (أن اللام في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ﴾ لام الأمر والمراد به الإيعاد على نحو التعجيز وهو تكلف.

٣٠. الرزق والبنات والافتراء:

المقطع [٣٠] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٥٦-٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٧٤»:

١. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾:

أ. ذكروا أنه معطوف على سائر جناياتهم التي دلت عليها الآيات السابقة والتقدير أنهم يفعلون ما قصصناه من جناياتهم ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا والظاهر أن ﴿لِما﴾ في ﴿لِما لا يَعْلَمُونَ﴾ موصولة والمراد به آلهتهم وضمير الجمع يعود إلى المشركين ومفعول ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ محذوف والمعنى ويجعل المشركون لآلهتهم التي لا يعلمون من حالها أنها تضر وتنفع نصيبا مما رزقناهم.

ب. والمراد من هذا الجعل ما ذكره سبحانه في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَما كانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] هذا ما ذكروه ولا يخلو عن تكلف.

ج. ويمكن أن يكون معطوفا على ما مر من قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ والتقدير إذا فريق منكم بربهم يشركون ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم، والمراد بها لا يعلمون الأسباب الظاهرة التي ينسبون إليها الآثار على سبيل الاستقلال وهم جاهلون بحقيقة حالها ولا علم لهم جازما أنها تضر وتنفع مع ما

يرون من تخلفها عن التأثير أحيانا.

د. وإنما نسب إليهم أنهم يجعلون لها نصيبا من رزقهم مع أنهم يسندون الرزق إليها بالاستقلال من غير أن يذكروا الله معها ومقتضاه نفي التأثير عنه تعالى رأسا لا إشراكه معها لأن لهم علما فطريا بأن الله سبحانه له تأثير في الأمر وقد ذكر عنهم آنفا أنهم يجأرون إليه عند مس الضر وإذا اعتبر اعترافهم هذا مع إسنادهم التأثير إلى الأسباب أنتج ذلك أن الأسباب عندهم شركاء الله في الرزق ولها نصيب فيه ثم أوعدهم بقوله: ﴿تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾

٢. ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ﴾:

أ. عتاب آخر لهم في حكم حكموا به جهلا من غير علم فاحترموا لأنفسهم وأساءوا الأدب مجترئين على الله سبحانه حيث اختاروا لأنفسهم البنين وكرهوا البنات لكنهم نسبوها إلى الله سبحانه.

ب. فقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ﴾ هو أخذهم الآلهة دون الله أو بعض الآلهة إناثا، وقولهم: إنهن بنات الله، وقد قيل: إن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله.

ج. وكانت الوثنية البرهمية والبوذية والصابئة يثبتون آلهة كثيرة من الملائكة والجن إناثا وهن بنات الله، وفي القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً﴾ [الزخرف: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ [الصافات: ١٥٨]

د. وقال الإمام في تفسيره في وجه ذلك: (أظن أنهم سموها بنات لاستتارها عن العيون كالنساء كما أنهم أخذوا الشمس مؤنثا لاستتار قرصها بنورها الباهر وضوئها عن العيون كالمخدرات من النساء ولا يلزم الاطراد في التسمية حتى يلزم مثل ذلك في الجن لاستتارهم عن العيون مع عدم التأنيث)

هـ. وذكر بعضهم: (أن الوجه في التأنيث كونها مستترة عن العيون مع كونها في محل لا يصل إليه الأغيار فهي كالبنات التي يغار عليهن الرجل فيسكنهن في محل أمين ومكان مكين، والجن وإن كانوا مستترين عن العيون لكنه على غير هذه الصورة)

و. وهذان الوجهان لا يتعديان طور الاستحسان وأنت لو راجعت آراء الوثنية على اختلافهم، وقد تقدم شطر منها في الجزء العاشر من هذا الكتاب، عرفت أن العرب لم تكن مبتكرة في هذه العقيدة بل لها أصل قديم في آراء قدماء الوثنية في الهند ومصر وبابل واليونان والروم.

ز. والإمعان في أصول آرائهم يعطي أنهم كانوا يتخذون الملائكة الذين ينتهي إليهم وجوه الخير في العالم والجن الذين يرجع إليهم الشرور آلهة يعبدونهم رغبا ورهبا، وهذه المبادئ العالية والقوى الكلية التي هم يحملونها، وبعبارة أخرى هم مظاهر لها تنقسم إلى فاعلة ومنفعلة وهم يعتبرون اجتماع الفاعل والمنفعل منها نكاحا وازدواجا والفاعل منها أبا والمنفعل منها أما، والمتحصل من اجتماعهما ولدا وينقسم الأولاد إلى بنين وبنات فمن الآلهة ما هن أمهات وبنات ومنها ما هم آباء وبنون.

ح. فلئن كان بعض وثنية العرب قالت: إن الملائكة جميعا بنات الله فقول أرادوا أن يقلدوا فيه من قبلهم جهلا ومن غير تثبت.

٣. ﴿وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه معطوف على ﴿لِلَّهِ الْبَناتِ﴾ والتقدير ويجعلون لهم ما يشتهون، أي يثبتون لله سبحانه البنات باعتقاد أن الملائكة بناته ويثبتون لأنفسهم ما يشتهون وهم البنون بقتل البنات ووأدها والمحصل أنهم يرضون لله بما لا يرضون به لأنفسهم.

ب. وقيل: إن ﴿ما يَشْتَهُونَ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم والجملة معطوفة على ﴿يَجْعَلُونَ﴾ وعلى هذا فالجملة مسوقة للتقريع أو الاستهزاء.

ج. وقد وجهوا ذلك بأن (عطف الجملة على ﴿لِلَّهِ الْبَناتِ﴾ غير جائز لمخالفته القاعدة وهي أن الفعل المتعدي إلى المفعول بنفسه أو بحرف جر إذا كان فاعله ضميرا متصلا مرفوعا فإنه لا يتعدى إلى نفس هذا الضمير بنفسه أو بحرف جر إلا بفاصل مثلا إذا ضرب زيد نفسه لم يقل: زيد ضربه وأنت ضربتك وإذا غضب على نفسه لم يقل: زيد غضب عليه، وإنما يقال: زيد ضرب نفسه أو ما ضرب إلا إياه، وزيد غضب على نفسه أو ما غضب إلا عليه إلا في باب ظن وما ألحق به من فقد وعدم فيجوز أن يقال: زيد ظنه قويا أي نفسه، وعلى هذا فلو كان قوله: ﴿وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ﴾ معطوفا على قوله: ﴿لِلَّهِ الْبَناتِ﴾ كان من الواجب أن يقال: (ولأنفسهم ما يشتهون)

د. والحق أن التزام هذه القاعدة إنما هو لدفع اللبس وأن تخلل حرف الجر بين الضميرين من الفصل، وفي القرآن الكريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ﴾ [القصص: ٣٢] ومنهم من رد القاعدة من رأس لانتقاضها بالآيتين، وأجابوا أيضا بوجوه أخر لا حاجة

بنا إلى ذكرها من أرادها فليراجع التفاسير.

٤. ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ اسوداد الوجه كناية عن الغضب، والكظيم هو الذي يتجرع الغيظ، والجملة حالية أي ينسبون إلى ربهم البنات والحال أنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى فقيل: ولدت لك بنت اسود وجهه من الغيظ وهو يتجرع غيظه.

٥. ﴿يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. التواري الاستخفاء والتخفي وهو مأخوذ من الوراء، والهون الذلة والخزي، والدس الإخفاء.

ب. والمعنى: يستخفي هذا المبشر بالبنت من القوم من سوء ما بشر به على عقيدته ويتفكر في أمره: أيمسك ما بشر به وهي البنت على ذلة من إمساكه وحفظه أم يخفيه في التراب كما كان ذلك عادتهم في المواليد من البنات كما قيل: إن أحدهم كان يحفر حفيرة صغيرة فإذا كان المولود أنثى جعلها في الحفيرة وحثا عليها التراب حتى تموت تحته وكانوا يفعلون ذلك مخافة الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن.

ج. وأول ما بدا لهم ذلك أن بني تميم غزوا كسرى فهزمهم وسبى نساءهم وذراريهم فأدخلهن دار الملك واتخذ البنات جواري وسرايا ثم اصطلحوا بعد برهة واستردوا السبايا فخيرن في الرجوع إلى أهلهن فامتنعت عدة من البنات فأغضب ذلك رجال بني تميم فعزموا لا تولد لهم أنثى إلا وأدوها ودفنوها حية ثم تبعهم في ذلك بعض من دونهم فشاع بينهم وأد البنات.

٦. ﴿أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ هو حكمهم أن له البنات ولهم البنون لا لهوان البنات وكرامة البنين في نفس الأمر بل معنى هذا الحكم عندهم أن يكون لله ما يكرهون ولهم ما يحبون، وقيل: المراد بالحكم حكمهم بوجوب وأد البنات وكون إمساكهن هونا، وأول الوجهين أوفق وأنسب للآية التالية.

٧. ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. المثل هو الصفة ومنه سمي المثل السائر مثلا لأنه صفة تسير في الألسن وتجري في كل موضع تناسبه وتشابهه.

ب. والسوء، بالفتح والسكون، مصدر ساء يسوء كما أن السوء بالضم اسمه وإضافة المثل إلى السوء تفيد التنويع فإن الأشياء إنما توصف إما من جهة حسنها وإما من جهة سوئها وقبحها فالمثل مثلان: مثل الحسن ومثل السوء.

ج. والحسن والقبح ربما كانا من جهة الخلقة لا صنع للإنسان ولا مدخل لاختياره فيهما كحسن الوجه ودمامة الخلقة، وربما لحقا من جهة الأعمال الاختيارية كحسن العدل وقبح الظلم، وإنما يحمد ويذم العقل ما كان من القسم الثاني دون القسم الأول فيدور الحمد والذم بحسب الحقيقة مدار العمل بما تستحسنه وتأمر به الفطرة الإنسانية من الأعمال التي توصله إلى ما فيه سعادة حياته وترك العمل بها وهو الذي يتضمنه الدين الحق من أحكام الفطرة.

د. ومن المعلوم أن الطبع الإنساني لا رادع له عن اقتراف العمل السيئ إلا أليم المؤاخذة وشديد العقاب وإذعانه بإيقاعه وإنجازه، وأما الذم فإنه يتبدل مدحا إذا شاع الفعل وخرج بذلك عن كونه منكرا غير معروف.

هـ. ومن هنا يظهر أن الإيمان بالآخرة والإذعان بالحساب والجزاء هو الأصل الوحيد الذي يضمن حفظ الإنسان عن اقتراف الأعمال السيئة ويجيره من لحوق أي ذم وخزي وهو المنشأ الذي يقوم أعمال الإنسان تقويما يحمله على ملازمة طريق السعادة، ولا يؤثر أثره أي شيء آخر من المعارف الأصلية حتى التوحيد الذي إليه ينتهي كل أصل، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ [ص: ٢٦]

و. فعدم الإيمان بالآخرة واستخفاف أمر الحساب والجزاء هو مصدر كل عمل سيئ ومورده، وبالمقابلة الإيمان بالآخرة هو منشأ كل حسنة ومنبع كل خير وبركة.

ز. فكل مثل سوء وصفة قبح يلزم الإنسان ويلحقه فإنما يأتيه من قبل نسيان الآخرة كما أن كل مثل حسن وصفة حمد بالعكس من ذلك.

ح. وبما تقدم يظهر النكتة في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ فقد كان يصفهم في الآيات السابقة بالشرك فلما أراد بيان أن لهم مثل السوء بدل ذلك من وصفهم بعدم إيمانهم بالآخرة.

ط. فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الأصل في عروض كل مثل سوء وصفة قبح فإن ملاكه وهو إنكار الآخرة نعتهم اللازم لهم، ولو لحق بعض المؤمنين بالآخرة شيء من مثل السوء فإنما يلحقه لنسيان ما ليوم الحساب والمنكرون هم الأصل في ذلك.

ي. هذا في صفات السوء التي يستقبحها العقل ويذمها وهناك صفات سوء لا يستقبحها العقل

وإنما يكرهها الطبع كالأنوثة عند قوم وإيلاد البنات عند آخرين والفقر المالي والمرض وكالموت والفناء والعجز والجهل تشترك بين المؤمن والكافر وصفات أخرى تحليلية كالفقر والحاجة والنقص والعدم والإمكان لا تختص بالإنسان بل هي مشتركة بين جميع الممكنات سارية في عامة الخلق، والكافر يتصف بها كما يتصف بها غيره فالكافر في معرض الاتصاف بكل مثل سوء منها ما يختص به ومنها ما يشترك بينه وبين غيره كما بين تفصيلا.

ك. والله سبحانه منزه من أن يتصف بشيء من هذه الصفات التي هي أمثال السوء أما أمثال السوء التي تتحصل من ناحية سيئات الأعمال مما يستقبحه العقل ويذمه ويجمعها الظلم فلأنه لا يظلم شيئا قال تعالى: ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩] وقال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] فما قضاه من حكم أو فعله من شيء فهو المتعين في الحكمة لا يصلح بالنظر إلى النظام الجاري في الوجود إلا ذاك.

ل. وأما أمثال السوء مما يستكرهه الطبع أو يحلله العقل فلا سبيل لها إليه تعالى فإنه عزيز مطلق يمتنع جانبه من أن تسرب إليه ذلة فإن له كل القدرة لا يعرضه عجز، وله العلم كله فلا يطرأ عليه جهل، وله محض الحياة لا يهدده موت ولا فناء منزه عن كل نقص وعدم فلا يتصف بصفات الأجسام مما فيه نقص أو فقد أو قصور أو فتور، والآيات في هذه المعاني كثيرة ظاهرة لا حاجة إلى إيرادها.

م. فهو سبحانه ذو علو ونزاهة من أن يتصف بشيء من أمثال السوء التي يتصف بها غيره، ولا هذا المقدار من التنزه والتقدس فحسب بل منزه من أن يتصف بشيء من الأمثال الحسنة والصفات الجميلة الكريمة بمعانيها التي يتصف بها غيره كالحياة والعلم والقدرة والعزة والعظمة والكبرياء وغيرها، فإن الذي يوجد من هذه الصفات الحسنة الكمالية في الممكنات محدودة متناه مشوب بالفقر والحاجة مخلوط بالفقدان والنقيصة لكن الذي له سبحانه من الصفات محض الكمال وحقيقته غير محدودة ولا متناه ولا مشوب بنقص وعدم، فله حياة لا يهددها موت، وقدرة لا يعتريها عي وعجز، وعلم لا يقارنه جهل، وعزة ليس معها ذلة.

ن. فله المثل الأعلى والصفة الحسنى، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] وقال: ﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ [طه: ٨] فالأمثال منها دانية ومنها عالية والعالية منها أعلى ومنها غيره، والأعلى مثله تعالى والأسماء سيئة وحسنة والحسنة منها أحسن وغيره ولله منها ما هو أحسن

فافهم ذلك.

س. فقد تبين بما تقدم معنى كون مثله أعلى، وأن قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ مسوق للحصر أي لله المثل الذي هو أعلى دون المثل الذي هو سيئ دان ودون المثل الذي هو حسن عال من صفات الكمال الذي تتصف به الممكنات وليس بأعلى.

ع. وتبين أيضا أن المثل الأعلى الذي يظهر له تعالى من البيان السابق هو انتفاء جميع الصفات السيئة عنه كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ومن الصفات الثبوتية كل صفة حسنة منفيا عنه الحدود والنواقص.

٨. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. مسوق لإفادة الحصر وتعليل ما تقدمه أي وهو الذي له كل العزة فلا تعتريه ذلة أصلا لأن كل ذلة فهو فقد عزة ما وليس يفقد عزة ما، وله كل الحكمة فلا يعرضه جهالة لأنها فقد حكمة ما وليس يفقد شيئا من الحكمة.

ب. وإذ لا سبيل لذلة ولا جهالة إليه فلا يتصف بشيء من صفات النقص، ولا ينعت بشيء من نعوت الذم وأمثال السوء، لكن الكافر ذليل في ذاته جهول في نفسه فتلحقه وتلازمه صفات النقص ويتصف بصفات الذم وأمثال السوء فللذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء.

ج. والمؤمن وإن كان ذليلا في ذاته جهولا في نفسه كالكافر إلا أنه لدخوله في ولاية الله أعزه ربه بعزته وأظهره على الجهالة بتأييده بروح منه قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

٣١. الظلم والأجل والتأخير:

المقطع [٣١] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٨٠»:

١. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ إلى آخر الآية:

أ. ضمير ﴿عَلَيْها﴾ عائد إلى الأرض لدلالة ﴿النَّاسَ﴾ عليها.

ب. ولا يبعد أن يدعى أن السياق يدل على كون المراد بالدابة الإنسان فقط من جهة كونه يدب ويتحرك، والمعنى ولو أخذ الله الناس بظلمهم مستمرا على المؤاخذة ما ترك على الأرض من إنسان يدب ويتحرك، أما جل الناس فإنهم يهلكون بظلمهم وأما الأشذ الأندر وهم الأنبياء والأئمة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون لهلاك آبائهم وأمهاتهم من قبل.

ج. والقوم أخذوا الدابة في الآية بإطلاق معناها وهو كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان فعاد معنى الآية إلى أنه لو يؤاخذهم بظلمهم لأهلك البشر وكل حيوان على الأرض فتوجه إليه: أن هذا هو الإنسان يهلك بظلمه فما بال سائر الحيوان يهلك ولا ظلم له أو يهلك بظلم من الإنسان؟

د. وأوجه ما أجيب به عنه قول بعضهم بإصلاح منا: إن الله تعالى لو أخذهم بظلمهم بكفر أو معصية لهلك عامة الناس بظلمهم إلا المعصومين منهم وأما المعصومون على شذوذهم وقلة عددهم فإنهم لا يوجدون لهلاك آبائهم وأمهاتهم من قبل، وإذا هلك الناس وبطل النسل هلكت الدواب من سائر الحيوان لأنها مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم كما يشعر به قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ٢٩]

هـ. ولهم وجوه أخر في الذب عن الآية على تقدير عموم الدابة فيها لا جدوى في نقلها من أرادها فليراجع مطولات التفاسير.

٢. واحتج بعضهم بالآية على عدم عصمة الأنبياء عليهمالسلام:

أ. وفيه أن الآية لا تدل على أزيد من أنه تعالى لو أخذ بالظلم لهلك جميع الناس وانقرض النوع، وأما أن كل من يهلك فإنما هلك عن ظلمه فلا دلالة لها عليه فمن الجائز أن يهلك الأكثرون بظلمهم ويفنى الأقلون بفناء آبائهم وأمهاتهم كما تقدم فلا دلالة في الآية على استغراق الظلم الأفراد حتى الأنبياء والمعصومين وإنما تدل على استغراق الفناء.

ب. وربما قيل في الجواب إن المراد بالناس الظالمون منهم بقرينة قوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ فلا يشمل المعصومين من رأس.

ج. وربما أجيب: أن المراد بالظلم أعم من المعصية التي هي مخالفة الأمر المولوي وترك الأولى الذي

هو مخالفة الأمر الإرشادي وربما صدر عن الأنبياء عليهم السلام كما حكى عن آدم وزوجه: ﴿قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا﴾ [الأعراف: ٢٣] وغيره من الأنبياء فحسنات الأبرار سيئات المقربين وحينئذ فلا يدل عموم الظلم في الآية للأنبياء على عدم عصمة الأنبياء عن المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولوي.

د. وربما أجيب بأن إهلاك جميع الناس إنما هو بأن الله يمسك عن إنزال المطر على الأرض لظلم الظالمين من الناس فيهلك به الظالمون والأولياء والدواب فإن العذاب إذا نزل لم يفرق بين الشقي والسعيد فيكون على العدو نقمة ونكالا وعلى غيره محنة ومزيد أجر.

هـ. والأجوبة الثلاثة غير تامة جميعا:

• أما الأول: فإن اختصاص الناس بالظالمين يوجب اختصاص الهلاك بهم كما ادعي فلا يعم الهلاك المعصومين، ولا موجب حينئذ لهلاك سائر الدواب المخلوقة للإنسان فلا يستقيم قوله: ﴿ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ﴾ كما لا يخفى.

• وأما الثاني: فلأن الآيات بما لها من السياق تبحث عن الظلم بمعنى الشرك وسائر المعاصي المولوية فتعميم الظلم في الآية لترك الأولى وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية ﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الظاهر في الإيعاد لا يلائم السياق.

• وأما الثالث: فلعدم دليل من جهة اللفظ على ما ذكر فيه.

٣. ﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ استدراك عن مقدر يدل عليه الجملة الشرطية في صدر الآية والتقدير: فلا يعاجل في مؤاخذتهم ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى والأجل المسمى بالنسبة إلى الفرد من الإنسان موته المحتوم، وبالنسبة إلى الأمة يوم انقراضها وبالنسبة إلى عامة البشر نفخ الصور وقيام الساعة، ولكل منها ذكر في كلامه تعالى قال: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى﴾ [غافر: ٦٧] وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقال: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لو أن الله يؤاخذني وعيسى بن مريم بذنوبنا، وفي لفظ: بما جنت هاتان الإبهام والتي تليها، لعذبنا ما يظلمنا شيئا.

• أقول: والحديث مخالف لما يثبته الكتاب والسنة من عصمة الأنبياء عليهم السلام ولا وجه لحملة على إرادة ترك الأولى من الذنوب إذ لا عذاب عليه.

٣٢. الكراهة والكذب والنار:

المقطع [٣٢] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٨٢»:

١. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى﴾ إلى آخر الآية:

أ. عود إلى نسبة المشركين إليه تعالى البنات واختيارهم لأنفسهم البنين وهم يكرهون البنات ويحبون البنين ويستحسنونهم.

ب. فقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ﴾ يعني البنات وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي تخبر ألسنتهم الخبر الكاذب وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى﴾ أي العاقبة الحسنى من الحياة وهي أن يخلفهم البنون، وقيل المراد بالحسنى الجنة على تقدير صحة البعث وصدق الأنبياء فيما يخبرون به كما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ [فصلت: ٥٠] وهذا الوجه لا بأس به لولا ذيل الآية بما سيجيء من معناه.

٢. ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾:

أ. أي المقدمون إلى عذاب النار يقال فرط وأفرط أي تقدم والإفراط الإسراف في التقدم كما أن التفريط التقصير فيه، والفرط بفتحتين هو الذي يسبق السيارة لتهيئة المسكن والماء، ويقال: أفرطه أي قدمه.

ب. ولما كان قولهم كذبا وافتراء إن لله ما يكرهون ولهم الحسنى في معنى دعوى أنهم سبقوا ربهم إلى الحسنى وتركوا له ما يكرهون أوعدهم بحقيقة هذا الزعم جزاء لكذبهم وهو أن لهم النار وأنهم مقدمون إليها حقا وذلك قوله: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾

٣٣. الشيطان يزين أعمال الكفار وهو وليهم:

المقطع [٣٣] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ

فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٣-٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٨٣»:

١. ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. ظاهر السياق أن المراد باليوم يوم نزول الآية والمراد بكون الشيطان وليا لهم يومئذ اتفاقهم على الضلال في زمان الوحي والمراد بالعذاب الموعود عذاب يوم القيامة كما هو ظاهر غالب الآيات التي توعد بالعذاب.

ب. والمعنى: تالله لقد أرسلنا رسلنا إلى أمم من قبلك كاليهود والنصارى والمجوس ممن لم ينقرضوا كعاد وثمود فزين لهم الشيطان أعمالهم فاتبعوه وأعرضوا عن رسلنا فهو وليهم اليوم وهم متفقون على الضلال ولهم يوم القيامة عذاب أليم.

ج. وجوز الزمخشري على هذا الوجه أن يكون ضمير ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ لقريش والمعنى أن الشيطان زين للأمم الماضين أعمالهم وهو اليوم ولي قريش ويبعده لزوم اختلاف الضمائر.

د. ويمكن أن يكون المراد بالأمم الأمم الماضين والهالكين فولاية الشيطان لهم اليوم كونهم من أولياء الشيطان في البرزخ ولهم هناك عذاب أليم.

هـ. وقيل: المراد باليوم مدة الدنيا فهي يوم الولاية والعذاب يوم القيامة.

و. وقيل: المراد به يوم القيامة فهناك ولاية الشيطان لهم ولهم هناك عذاب أليم.

ز. وقيل: المراد يوم تزيين الشيطان أعمالهم وهو من قبيل حكاية الحال الماضية.

ح. وأقرب الوجوه أولها ثم التالي فالتالي والله أعلم.

٢. ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾:

أ. ضمير لهم للمشركين والمراد بالذي اختلفوا فيه هو الحق من اعتقاد وعمل فيكون المراد بالتبين الإيضاح والكشف لإتمام الحجة، والدليل على هذا الذي ذكرنا تفريق أمر المؤمنين منهم وإفرادهم بالذكر في قوله: ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ب. والمعنى: هذا حال الناس في الاختلاف في المعارف الحقة والأحكام الإلهية وما أنزلنا عليك

الكتاب إلا لتكشف لهؤلاء المختلفين الحق الذي اختلف فيه فيتم لهم الحجة، وليكون هدى ورحمة لقوم يؤمنون يهديهم الله به إلى الحق ويرحمهم بالإيمان به والعمل.

٣٤. المطر يحيي الأرض بعد موتها:

المقطع [٣٤] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٨٨»:

١. ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾، يريد إنبات الأرض بعد ما انقطعت عنه بحلول الشتاء بماء السماء الذي هو المطر فتأخذ أصول النباتات وبذورها في النمو بعد سكونها، وهي حياة من سنخ الحياة الحيوانية وإن كانت أضعف منها، وقد اتضح بالأبحاث الحديثة أن للنبات من جراثيم الحياة ما للحيوان وإن اختلفتا صورة وأثرا.

٢. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ المراد بالسمع قبول ما من شأنه أن يقبل من القول فإن العاقل الطالب للحق إذا سمع ما يتوقع فيه الحق أصغى واستمع إليه ليعيه ويحفظه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ [الزمر: ١٨]، فإذا ذكر من فيه قريحة قبول الحق حديث إنزال الله المطر وإحيائه الأرض بعد موتها كان له في ذلك آية للبعث وأن الذي أحياها لمحيي الموتى.

٣٥. الأنعام واللبن والعبرة:

المقطع [٣٥] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٨٨»:

١. ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً﴾ أي لكم في الإبل والبقر والغنم لأمرا أمكنكم أن تعتبروا به وتتعظوا ثم بين ذلك الأمر بقوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، أي بطون ما ذكر من الأنعام أخذ الكثير شيئا واحدا.

٢. ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ الفرث في الكرش وألبان الأنعام مكانها مؤخر البطن بين الرجلين، والدم

مجراه الشرايين والأوردة وهي محيطة بهما جميعا فأخذ اللبن شيئا هو بين الفرث والدم كأنه باعتبار مجاورته لكل منهما واجتماع الجميع في داخل الحيوان وهذا كما يقال، اخترت زيدا من بين القوم ودعوته وأخرجته من بينهم إذا اجتمع معهم في مكان واحد وجاورهم فيه وإن كان جالسا في حاشية القوم لا وسطهم، والمراد بذلك أني ميزته من بينهم وقد كان غير متميز.

٣. والمعنى: نسقيكم مما في بطونه لبنا خارجا من بين فرث ودم خالصا غير مختلط ولا مشوب بهما ولا مستصحب لشيء من طعمهما ورائحتهما سائغا للشاربين فذلك عبرة لمن اعتبر وذريعة إلى العلم بكمال القدرة ونفوذ الإرادة، وأن الذي خلص اللبن من بين فرث ودم لقادر على أن يبعث الإنسان ويحييه بعد ما صار عظاما رميما وضلت في الأرض أجزاؤه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ قال: قال عليه السلام: الفرث ما في الكرش

ب. وفي الكافي، عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ليس أحد يغص بشرب اللبن لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾

٣٦. النخيل والأعناب والسكر والرزق الحسن:

المقطع [٣٦] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٨٩»:

١. ﴿وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾

أ. قال في المفردات: (السكر، بضم السين، حالة تعرض بين المرء وعقله، إلى أن قال، والسكر، بفتحتين، ما يكون منه السكر، قال تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾)

ب. وقال في المجمع: (السكر في اللغة على أربعة أوجه: الأول ما أسكر من الشراب، والثاني ما طعم من الطعام، قال الشاعر: (جعلت عيب الأكرمين سكرا) أي جعلت ذمهم طعما لك، والثالث السكون ومنه ليلة ساكرة أي ساكنة، قال الشاعر: (وليست بطلق ولا ساكرة) ويقال: سكرت الريح

سكنت، قال: (وجعلت عين الحرور تسكر)، والرابع المصدر من قولك: سكر سكرا ومنه التسكير التحيير في قوله: (سكرت أبصارنا)، والظاهر أن الأصل في معناه هو زوال العقل باستعمال ما يوجب ذلك، وسائر ما ذكره من المعاني مأخوذة منه بنوع من الاستعارة والتوسع.

ج. ﴿وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ﴾ إما جملة اسمية معطوفة على قوله: ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ كقوله في الآية السابقة: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً﴾، والتقدير: ومن ثمرات النخيل والأعناب ما، أو شيء ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾، قالوا: والعرب ربما يضمر ما الموصولة كثيرا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ [الدهر: ٢٠]، والتقدير رأيت ما ثم، أو التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتخذون منه، بناء على عدم جواز حذف الموصول وإبقاء الصلة على ما ذهب إليه البصريون من النحاة.

د. وإما جملة فعلية معطوفة على قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ﴾، كما في الآية التالية: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ﴾ والتقدير خلق لكم أو آتاكم من ثمرات النخيل والأعناب، وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ إلخ، بدل منه أو استئناف كأن قائلا يقول: ما ذا نستفيد منه فقيل: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾، وإفراد ضمير ﴿مِنْهُ﴾ بتأويل المذكور كقوله: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ في الآية السابقة.

٢. ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾:

أ. أي تتخذون مما ذكر من ثمرات النخيل والأعناب ما هو مسكر كالخمر بأنواعها ﴿وَرِزْقاً حَسَناً﴾ كالتمر والزبيب والدبس وغير ذلك مما يقتات به.

ب. ولا دلالة في الآية على إباحة استعمال السكر ولا على تحسين استعماله إن لم تدل على نوع من تقبيحه من جهة مقابلته بالرزق الحسن وإنما الآية تعد ما ينتفعون به من ثمرات النخيل والأعناب وهي مكية تخاطب المشركين وتدعوهم إلى التوحيد.

ج. وعلى هذا فالآية لا تتضمن حكما تكليفيا حتى تكون منسوخة أو غير منسوخة وبه يظهر فساد القول بكونها منسوخة بآية المائدة كما نسب إلى قتادة.

٣. وقد أغرب صاحب روح المعاني إذ قال: (وتفسير السكر بالخمر هو المروي عن ابن مسعود وابن عمر، وأبي رزين والحسن ومجاهد والشعبي والنخعي وابن أبي ليلى وأبي ثور والكلبي وابن جبير مع

خلق آخرين، والآية نزلت في مكة والخمر إذ ذاك كانت حلالا يشربها البر والفاجر، وتحريمها إنما كان بالمدينة اتفاقا، واختلفوا في أنه قبل أحد أو بعدها والآية المحرمة لها: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾، على ما ذهب إليه جمع فما هنا منسوخ بها وروى ذلك غير واحد ممن تقدم كالنخعي وأبي ثور وابن جبير، وقيل: نزلت قبل ولا نسخ بناء على ما روي عن ابن عباس أن السكر هو الخل بلغة الحبشة أو على ما نقل عن أبي عبيدة أن السكر المطعوم المتفكه به كالنقل وأنشد: (جعلت أعراض الكرام سكرا)، إلى أن قال، وإلى عدم النسخ ذهب الحنفيون وقالوا: المراد بالسكر ما لا يسكر من الأنبذة واستدلوا عليه بأن الله تعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك، ولا يقع الامتنان إلا بمحلل فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ فإذا انتهى إلى السكر لم يجز):

أ. أما ما ذكره في الخمر فقد فصلنا القول في ذلك في ذيل آيات التحريم من سورة المائدة، وأقمنا الشواهد هناك على أن الخمر كانت محرمة قبل الهجرة وكان الإسلام معروفا بتحريمها وتحريم الزنا عند المشركين عامتهم، وأن تحريمها نزل في سورة الأعراف وقد نزلت قبل سورة النحل قطعا، وفي سورتي البقرة والنساء وقد نزلتا قبل سورة المائدة.

ب. وأن التي نزلت في المائدة إنما نزلت لتشديد الحرمة وزجر بعض المسلمين حيث كانوا يتخلفون عن حكم التحريم كما وقع في الروايات وهو الذي يشير إليه بقوله: يشربها البر والفاجر وفي لفظ الآيات دلالة على ذلك إذ يقول: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾

ج. وأما ما نقله عن ابن عباس أن السكر في لغة الحبشة بمعنى الخل فلا معول عليه، واستعمال اللفظ غير العربي وإن كان غير عزيز في القرآن كما قيل في إستبرق وجهنم وزقوم وغيرها لكنه إنما يجوز فيما لم يكن هناك مانع من لبس أو إبهام، وأما في مثل السكر وهو في اللغة العربية الخمر وفي الحبشية الخل فلا وكيف يجوز أن ينسب إلى أبلغ الكلام أنه ترك الخل وهو عربي جيد واستعمل مكانه لفظة حبشية تفيد في العربية ضد معناها؟

د. وأما ما نسبه إلى أبي عبيدة فقد تقدم ما عليه في أول الكلام فراجع.

هـ. وأما ما نسبه إلى الحنفية من أن المراد بالسكر النبيذ وأن الآية تدل على جواز شرب القليل منه ما لم يصل إلى حد الإسكار لمكان الامتنان ففيه أن الآية لا تدل على أكثر من أنهم يتخذون منه سكرا، وأما

الامتنان عليهم بذلك فبمعزل من دلالة الآية وإنما عد من النعم ثمرات النخيل والأعناب لا كل ما عملوا منها من حلال وحرام ولو كان في ذلك امتنان لم يقابله بالرزق الحسن الدال بمقابلته على نوع من العتاب على اتخاذهم منه سكرا كما اعترف به البيضاوي وغيره.

و. على أن ما في الآية من لفظ السكر غير مقيد بكونه نبيذا أو خمرا ولا قليلا لا يبلغ حد الإسكار ولا غيره فلو كان اتخاذ السكر متعلقا للامتنان الدال على الجواز لكانت الآية صريحة في حلية الجميع ثم لم يقبل النسخ أصلا فإن لسان الامتنان لا يقبل أمدا يرتفع بعده، كيف يجوز أن يعد الله شيئا من نعمه ويمتن على الناس به ثم يعده بعد برهة رجسا ومن عمل الشيطان كما في آية المائدة إلا بالبداء بمعناه المستحيل عليه تعالى.

٤. ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حثا على التعقل والإمعان في أمر النبات وثمراته.

٣٧. الوحي إلى النحل باتخاذ البيوت والأكل من الثمرات:

المقطع [٣٧] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٩٢»:

١. ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً﴾:

أ. الوحي، كما قال الراغب، الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بصوت مجرد عن التركيب أو بإشارة ونحوها، والمحصل من موارد استعماله أنه إلقاء المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه فالإلهام بإلقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة من الوحي وكذا ورود المعنى في النفس من طريق الرؤيا أو من طريق الوسوسة أو بالإشارة كل ذلك من الوحي، وقد استعمل في كلامه تعالى في كل من هذه المعاني كقوله: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله: ﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، ومن الوحي التكليم الإلهي لأنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿وَما كانَ

لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً﴾ [الشورى: ٥١]، وقد قرر الأدب الديني في الإسلام أن لا يطلق الوحي على غير ما عند الأنبياء والرسل من التكليم الإلهي.

ب. قال في المجمع: (والذلل جمع الذلول، يقال: دابة ذلول بين الذل ورجل ذلول بين الذل والذلة)

٢. ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي ألهمه من طريق غريزته التي أودعها في بنيته، وأمر النحل وهو زنبور العسل في حياته الاجتماعية وسيرته وصنعته لعجيب، ولعل بداعة أمره هو الموجب لصرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ إذ قال: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ﴾

٣. ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ هذا من مضمون الوحي الذي أوحي إليه، والظاهر أن المراد بما يعرشون هو ما يبنون لبيوت العسل.

٤. ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ الأمر بأن تأكل من كل الثمرات مع أنها تنزل غالبا على الأزهار إنما هو لأنها إنما تأكل من مواد الثمرات أول ما تتكون في بطون الأزهار ولما تكبر وتنضج.

٥. ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ تفريعه على الأمر بالأكل يؤيد أن المراد به رجوعها إلى بيوتها لتودع فيها ما هيأته من العسل المأخوذ من الثمرات وإضافة السبل إلى الرب للدلالة على أن الجميع بإلهام إلهي.

٦. ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ﴾، استئناف بعد ذكر جملة ما أمرت به يبين فيه ما يترتب على مجاهدتها في امتثال أمر الله سبحانه ذللا وهو أنه يخرج من بطونها أي بطون النحل ﴿شَرابٌ﴾ وهو العسل ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ﴾ بالبياض والصفرة والحمرة الناصعة وما يميل إلى السواد ﴿فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ﴾ من غالب الأمراض.

٧. وتفصيل القول في حياة النحلة هذه الحشرة الفطنة التي بنت حياتها على مدنية عجيبة فاضلة لا تكاد تحصى غرائبها ولا يحاط بدقائقها ثم الذي تهيئه ببالغ مجاهدتها وما يشتمل عليه من الخواص خارج عن وسع هذا الكتاب فليراجع في ذلك مظان تحقيقه.

٨. ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد اختلف التعبير بذلك في هذه الآيات فخص الآية في إحياء الأرض بعد موتها بقوم يسمعون، وفي ثمرات النخيل والأعناب بقوم يعقلون، وفي أمر النحل بقوم يتفكرون، ولعل الوجه في ذلك أن النظر في أمر الموت والحياة بحسب طبعه من العبرة والموعظة، وهي بالسمع أنسب، والنظر في الثمرات من حيث ما ينفع الإنسان في وجوده من

السير البرهاني من مسلك اتصال التدبير وارتباط الأنظمة الجزئية ورجوعها إلى نظام عام واحد لا يقوم إلا بمدبر واحد وهو للعقل أنسب، وأمر النحل في حياتها يتضمن دقائق عجيبة لا تنكشف للإنسان إلا بالإمعان في التفكر فهو آية للمتفكرين.

٩. وقد أشرنا سابقا إلى ما في آيات السورة من مختلف الالتفاتات، وعمدتها في هذه الآيات ترجع إلى خطاب المشركين رحمة لهم وإشفاقا بحالهم وهم لا يعلمون، والإعراض عن مخاطبتهم لكفرهم وجحودهم إلى خطاب النبي ﷺ وهذا ظاهر مشهود في آيات السورة فلا يزال الخطاب فيها يتقلب بين النبي ﷺ وبين المشركين فيتحول منه إليهم ومنهم إليه.

١٠. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، بإسناده عن رجل عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ قال: نحن النحل الذي أوحى الله إليه، أن اتخذي من الجبال بيوتا أمرنا أن نتخذ من العرب شيعة ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ يقول: من العجم ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ من الموالي، والذي خرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، العلم الذي يخرج منا إليكم.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر، وهي من باب الجري ويشهد به ما في بعض هذه الروايات من تطبيق النحل على النبي ﷺ والجبال على قريش، والشجر على العرب، ومما يعرشون على الموالي، وما يخرج من بطونها على العلم.

٣٨. الخلق والوفاة وأرذل العمر:

المقطع [٣٨] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٩٤»:

١. ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾:

أ. الأرذل اسم تفضيل من الرذالة وهي الرداءة والرذل الدون والرديء، والمراد بأرذل العمر بقرينة قوله: ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ﴾، سن الشيخوخة والهرم التي فيها انحطاط قوى الشعور والإدراك، وهي تختلف باختلاف الأمزجة وتبتدئ على الأغلب من الخمس والسبعين.

ب. والمعنى: والله خلقكم معشر الناس ثم يتوفاكم في عمر متوسط ومنكم من يرد إلى سن الهرم

فينتهي إلى أن لا يعلم بعد علم شيئا لضعف القوى، وهذا آية أن حياتكم وموتكم وكذا شعوركم وعلمكم ليست بأيديكم وإلا اخترتم البقاء على الوفاة والعلم على عدمه بل ذلك على ما له من عجيب النظام منته إلى علمه وقدرته تعالى، ولهذا علله بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن علي بن المغيرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا بلغ العبد مائة سنة فذلك أرذل العمر.

ب. وفي المجمع: (روي عن علي عليه السلام: أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة، وروي عن النبي مثل ذلك.

• أقول: روى ذلك في الدر المنثور، عن الطبري عن علي عليه السلام، وروى عن ابن مردويه عن أنس عن النبي ﷺ: حديثا مفصلا يدل على أن أرذل العمر مائة سنة.

٣٩. التفضيل والجحود والنعمة:

المقطع [٣٩] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٩٤»:

١. ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ إلى آخر الآية، فضل بعض الناس على بعض في الرزق وهو ما تبقى به الحياة ربما كان من جهة الكمية كالغني المفضل بالمال الكثير على الفقير، وربما كان من جهة الكيفية كأن يستقل بالتصرف فيه بعضهم ويتولى أمر الآخرين مثل ما يستقل المولى الحر بملك ما في يده والتصرف فيه بخلاف عبده الذي ليس له أن يتصرف في شيء إلا بإذنه وكذا الأولاد الصغار بالنسبة إلى وليهم والأنعام والمواشي بالنسبة إلى مالكها.

٢. ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾:

أ. قرينة على أن المراد هو القسم الثاني من التفضيل وهو أن بعضهم فضل بالحرية والاستقلال بملك ما رزق وليس يختار أن يرد ما رزق باستقلاله وحريته إلى من يملكه ويملك رزقه، ولا أن يبذل له ما أوتيه من نعمة حتى يتساويا ويتشاركا فيبطل ملكه ويذهب سودده.

ب. فهذه نعمة ليسوا بمغمضين عنها ولا برادين لها على غيرهم، وليست إلا من الله سبحانه فإن أمر المولوية والرقية وإن كان من الشئون الاجتماعية التي ظهرت عن آراء الناس والسنن الاجتماعية الجارية في مجتمعاتهم لكن له أصول طبيعية تكوينية هي التي بعثت آراءهم على اعتباره كسائر الأمور الاجتماعية العامة.

ج. ومن الشاهد على ذلك أن الأمم الراقية منذ عهد طويل أعلنوا بإلغاء سنة الاسترقاق ثم اتبعتهم سائر الأمم من الشرقيين وغيرهم وهم لا يزالون يحترمون معناها إلى هذه الغاية وإن ألغوا صورتها، ويجرون مسماها وإن هجروا اسمها ولن يزالوا كذلك فليس في وسع الإنسان أن يسد باب المغالبة، وقد قدمنا كلاما في هذا المعنى في آخر الجزء السادس من هذا الكتاب فليراجعه من شاء.

د. وكون هذا المعنى نعمة من الله إنما هو لأن من صلاح المجتمع الإنساني أن يتسلط بعضهم على بعض فيصلح القوي الضعيف بصالح التدبير ويكمله.

هـ. وعلى هذا فقوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ﴾ متفرع على المنفي في قوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾ دون النفي، والمعنى: ليسوا برادي رزقهم على عبيدهم فيكونوا متساوين فيه متشاركين وفي ذلك ذهاب مولويتهم، ويحتمل أن يكون جملة استفهامية حذفت منها أداة الاستفهام وفيها إنكار أن يكون المفضلون والمفضل عليهم في ذلك متساويين، ولو كانوا سواء لم يمتنع المفضل من أن يرد رزقه على من فضل عليه فإن في ذلك دلالة على أنها نعمة خصه الله بها.

و. ولذلك عقبه ثانيا بقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهو استفهام توبيخي كالمتفرع لما تقدمه من الاستفهام الإنكاري، والمراد بنعمة الله هذا التفضيل المذكور بعينه.

ز. والمعنى، والله أعلم، والله فرق بينكم بأن فضل بعضكم على بعض في الرزق فبعضكم حر مستقل في التصرف فيه، وبعضكم عبد تبع له لا يتصرف إلا عن إذن فليس الذين فضلوا برادي رزقهم الذي رزقوه على سبيل الحرية والاستقلال على ما ملكت أيمانهم حتى يكون هؤلاء المفضلون والمفضل عليهم في الرزق سواء فليسوا سواء بل هي نعمة تختص بالمفضلين أفبنعمة الله يجحدون؟

٣. هذا ما يفيده ظاهر الآية بما احتفت به من القرائن، والسياق سياق تعداد النعم، وربما قرر معنى الآية على وجه آخر:

أ. فقيل: المعنى أنهم لا يشركون عبيدهم في أموالهم وأزواجهم حتى يكونوا في ذلك سواء ويرون ذلك نقصا لأنفسهم فكيف يشركون عبيدي في ملكي وسلطاني ويعبدونهم ويتقربون إليهم كما يعبدونني ويتقربون إلي، كما فعلوا في عيسى بن مريم عليه السلام؟ قالوا: والآية على شاكلة قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ﴾ [الروم: ٢٨] قالوا: والآية نزلت في نصارى نجران.

• وفيه أن سياق الآية هو سياق تعداد النعم لاستنتاج التوحيد لا المناقضة والتوبيخ فلا أثر فيها منه.

• على أن الآية مما نزلت بمكة وأين ذاك من وفود نصارى نجران على المدينة سنة ست من الهجرة أو بعدها؟ وقياس هذه الآية من آية سورة الروم مع الفارق لاختلاف السياقين، فسياق هذه الآية سياق الاحتجاج بذكر النعمة وسياق آية الروم هو سياق التوبيخ على الشرك.

ب. وقيل: إن المعنى فهؤلاء الذين فضلهم الله في الرزق من الأحرار لا يرزقون مماليكهم وعبيدهم بل الله تعالى هو رازق الملاك والمماليك فإن الذي ينفقه المولى على مملوكه إنما ينفقه مما رزقهم الله فالله رازقهم جميعا فهم فيه سواء، ومحصله أن قوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ﴾ حال محل إضراب مقدر والتقدير أن الموالي ليسوا برادي رزق أنفسهم على عبيدهم فيما ينفقون عليهم بل الله يرزق العبيد بأيدي مواليهم وهم سواء في الرزق من الله.

• وفيه أن ما قرر من المعنى مقتضاه أن يبطل التسوية أخيرا حكم التفضيل أولا، ولا يستقيم عليه مدلول قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾

ج. وقيل: المراد أن الموالي ليسوا برادي ما بأيديهم من الرزق على مواليهم حتى يستووا في التمتع منه.

• وفيه أنه يعود حينئذ إلى أن الإنسان يمنع غيره من أن يتسلط على ما ملكه من الرزق، وحينئذ يكون تخصيص ذلك بالعبيد مستدركا زائدا، ولو وجه بأنه إنما لا يرده عليه لمكان تسلطه على عبيده رجع إلى ما قدمناه من المعنى، ولكانت النعمة المعدودة هي الفضل من جهة مالكية المولى لعبده ولما عنده من الرزق.

٤٠. الأزواج والبنون والحفدة والطيبات نعم من الله:

المقطع [٤٠] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٩٧»:

١. ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾:

أ. قال في المفردات: (قال الله تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع حافد وهو المتحرك المسرع بالخدمة أقارب كانوا أو أجانب، قال المفسرون: هم الأسباط ونحوهم وذلك أن خدمتهم أصدق، إلى أن قال، قال الأصمعي: أصل الحفد مداركة الخطو)

ب. وفي المجمع: (وأصل الحفد الإسراع في العمل، إلى أن قال، ومنه قيل للأعوان حفدة لإسراعهم في الطاعة)، والمراد بالحفدة في الآية الأعوان الخدم من البنين لمكان قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾ ولذا فسر بعضهم قوله: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ بصغار الأولاد وكبارهم، وبعضهم بالبنين والأسباط وهم بنو البنين.

ج. والمعنى: والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا تألفونها وتأنسون بها، وجعل لكم من أزواجكم بالإيلاد بنين وحفدة وأعوانا تستعينون بخدمتهم على حوائجكم وتدفعون بهم عن أنفسكم المكاره ورزقكم من الطيبات وهي ما تستطيبونه من أمتعة الحياة وتنالونه بلا علاج وعمل كالماء والثمرات أو بعلاج وعمل كالأطعمة والملابس ونحوها، و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ للتبعيض وهو ظاهر.

٢. ثم وبخهم بقوله: ﴿أَفَبِالْباطِلِ﴾ وهي الأصنام والأوثان ومن ذلك القول بالبنات لله، والأحكام التي يشرعها لهم أئمتهم أئمة الضلال ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ والنعمة هي جعل الأزواج من أنفسهم وجعل البنين والحفدة من أزواجهم فإن ذلك من أعظم النعم وأجلاها لكونه أساسا تكوينيا يبتني عليه المجتمع البشري، ويظهر به فيهم حكم التعاون والتعاضد بين الأفراد، وينتظم به لهم أمر تشريك الأعمال والمساعي فيتيسر لهم الظفر بسعادتهم في الدنيا والآخرة، ولو أن الإنسان قطع هذا الرابط التكويني الذي أنعم الله به عليه وهجر هذا السبب الجميل، وإن توسل بأي وسيلة غيره لتلاشى جمعه وتشتت شمله وفي ذلك هلاك الإنسانية.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن عبد الرحمن الأشل عن الصادق عليه السلام: في قول الله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قال: الحفدة بنو البنت، ونحن حفدة رسول الله ﷺ.

ب. وفيه، عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام: في الحفدة قال: وهم العون منهم يعني البنين.

ج. وفي المجمع في معنى الحفدة: هي أختان الرجل على بناته قال: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: ولا تنافي بين الروايات كما تقدم في البيان.

٤١. العبادة والرزق والأمثال:

المقطع [٤١] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣ـ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٩٨»:

١. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾:

أ. عطف على موضع الجملة السابقة والمعنى يكفرون بنعمة الله ويعبدون من دون الله ما لا يملك إلخ.

ب. وقد ذكروا أن ﴿رِزْقاً﴾ مصدر و﴿شَيْئاً﴾ مفعوله والمعنى لا يملك لهم أن يرزق شيئا وقيل: الرزق بمعنى المرزوق و﴿شَيْئاً﴾ بدل منه، وقيل: إن ﴿شَيْئاً﴾ مفعول مطلق والتقدير: لا يملك شيئا من الملك، وخير الوجوه أوسطها.

ج. ويمكن أن يقال: ﴿مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً﴾ بدل من ﴿رِزْقاً﴾ وهو من بدل الكل من البعض يفيد معنى الإضراب والترقي، والمعنى ويعبدون ما لا يملك لهم رزقا بل لا يملك لهم في السماوات والأرض شيئا.

د. ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ولا يستطيعون أن يملكوا رزقا وشيئا ويمكن أن يكون منسي المتعلق جاريا مجرى اللازم أي ولا استطاعة لهم أصلا.

٢. وقد اجتمع في الآية رعاية الاعتبارين في الأصنام فإنها:

أ. من جهة أنها معمولة من حجر أو خشب أو ذهب أو فضة غير عاقلة وبهذا الاعتبار قيل: ﴿ما لا يَمْلِكُ﴾

ب. ومن جهة أنهم يعدونها آلهة دون الله ويعبدونها والعبادة لا تكون إلا لعاقل منسلكة، على زعمهم، في سلك العقلاء، وبهذا الاعتبار قيل: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾

٣. وفي الآية رجوع إلى التخلص لبيان الغرض من تعداد النعم وهو التوحيد وإثبات النبوة بمعنى التشريع والمعاد يجري ذلك إلى تمام أربع آيات ينهى في أولاها عن ضربهم الأمثال لله سبحانه، ويضرب في الثانية مثلا تبين به وحدانيته تعالى في ربوبيته، وفي الثالثة مثلا يتبين به أمر النبوة والتشريع، ويتعرض في الرابعة لأمر المعاد.

٤. ﴿فَلا تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. الظاهر السابق إلى الذهن أن المراد بضرب الأمثال التوصيف المصطلح عليه بالاستعارة التمثيلية وهي إجراء الأوصاف عليه تعالى بضرب من التشبيه كقولهم: إن له بنات كالإنسان، وإن الملائكة بناته، وإن بينه وبين الجنة نسبا وصهرا، وإنه كيف يحيي العظام وهي رميم إلى غير ذلك، وهذا هو المعنى المعهود من هذه الكلمة في كلامه تعالى، وقد تقدم في خلال الآيات السابقة قوله: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى﴾

ب. فالمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكر فلا تصفوه سبحانه بما تشبهونه بغيره وتقيسونه إلى خلقه لأن الله يعلم وأنتم لا تعلمون حقائق الأمور وكنهه تعالى.

ج. وقيل: المراد بالضرب الجعل، وبالأمثال ما هو جمع المثل بمعنى الند، فقوله: ﴿فَلا تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثالَ﴾ في معنى قوله في موضع آخر: ﴿فَلا تَجْعَلُوا للهِ أَنْداداً﴾ [البقرة: ٢٢]، وهو معنى بعيد.

٤٢. مثل العبد المملوك:

المقطع [٤٢] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٢٩٩»:

١. ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾:

أ. ما في الآية من المثل المضروب يفرض عبدا مملوكا لا يقدر على شيء، وآخر رزق من الله رزقا حسنا ينفق منه سرا وجهرا ثم يسأل هل يستويان) واعتبار التقابل بين المفروضين يعطي أن كلا من الطرفين مقيد بخلاف ما في الآخر من الوصف مع تبيين الأوصاف بعضها لبعض.

ب. فالعبد المفروض مملوك غير مالك لا لنفسه ولا لشيء من متاع الحياة وهو غير قادر على التصرف في شيء من المال، والذي فرض قباله حر يملك نفسه وقد رزقه الله رزقا حسنا وهو ينفق منه سرا وجهرا على قدرة منه على التصرف بجميع أقسامه.

٢. ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾:

أ. سؤال عن تساويهما، ومن البديهي أن الجواب هو نفي التساوي ويثبت به أن الله سبحانه وهو المالك لكل شيء المنعم بجميع النعم لا يساوي شيئا من خلقه وهم لا يملكون لا أنفسهم ولا غيرهم ولا يقدرون على شيء من التصرف فمن الباطل قولهم: إن مع الله آلهة غيره وهم من خلقه.

ب. والتعبير بقوله: ﴿يَسْتَوُونَ﴾ دون أن يقال: يستويان للدلالة على أن المراد من ذلك الجنس من غير أن يختص بمولى وعبد معينين كما قيل.

٣. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

أ. أي له عز اسمه جنس الحمد وحقيقته وهو الثناء على الجميل الاختياري لأن جميل النعمة من عنده ولا يحمد إلا الجميل فله تعالى كل الحمد كما أن له جنسه فافهم ذلك.

ب. والجملة من تمام الحجة ومحصلها أنه لا يستوي المملوك الذي لا يقدر أن يتصرف في شيء وينعم بشيء، والمالك الذي يملك الرزق ويقدر على التصرف فيه فيتصرف وينعم كيف شاء، والله سبحانه هو المحمود بكل حمد إذ ما من نعمة إلا وهي من خلقه فله كل صفة يحمد عليها كالخلق والرزق والرحمة والمغفرة والإحسان والإنعام وغيرها، فله كل ثناء جميل، وما يعبدون من دونه مملوك لا يقدر على شيء فهو سبحانه الرب وحده دون غيره.

ج. وقد قيل: إن الحمد في الآية شكر على نعمه تعالى، وقيل: حمد على تمام الحجة وقوتها، وقيل: تلقين للعباد ومعناه قالوا: الحمد لله الذي دلنا على توحيده وهدانا إلى شكر نعمه، وهي وجوه لا يعبأ بها.

٤. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر المشركين لا يعلمون أن النعمة كلها لله لا يملك غيره شيئا ولا يقدر على شيء بل يثبتون لأوليائهم شيئا من الملك والقدرة على سبيل التفويض فيعبدونهم طمعا وخوفا، هذا حال أكثرهم وأما أقلهم من الخواص فإنهم على علم من الحق لكنهم يحيدون عنه بغيا وعنادا.

٥. وقد تبين مما تقدم:

أ. أن الآية مثل مضروب في الله سبحانه وفيمن يزعمونه شريكا له في الربوبية، وقيل: إنها مثل تمثل به حال الكافر المخذول والمؤمن الموفق فإن الكافر لإحباط عمله وعدم الاعتداد بأعماله كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء فلا يعد له إحسان وإن أنفق وبالغ بخلاف المؤمن الذي يوفقه الله لمرضاته ويشكر مساعيه فهو ينفق مما عنده من الخير سرا وجهرا.

ب. وفيه أنه لا يلائم سياق الاحتجاج الذي للآيات، وقد تقدم أن الآية إحدى الآيات الثلاث المتوالية التي تتعرض لغرض تعداد النعم الإلهية، وهي تذكر بالتوحيد بمثل يقيس حال من ينعم بجميع النعم من حال من لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء فيستنتج أن الرب هو المنعم لا غير.

٦. في التهذيب، بإسناده عن شعيب العقرقوفي عن أبي عبد الله عليه السلام: في طلاق العبد ونكاحه قال: ليس له طلاق ولا نكاح، أما تسمع الله تعالى يقول: ﴿عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾ قال: لا يقدر على طلاق ولا على نكاح إلا بإذن مولاه.

• أقول: وفي هذا المعنى عدة روايات من طرق الشيعة.

٤٣. مثل الأبكم العاجز:

المقطع [٤٣] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٠١»:

١. ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ﴾:

أ. قال في المجمع الأبكم الذي يولد أخرس لا يفهم ولا يفهم، وقيل: الأبكم الذي لا يقدر أن يتكلم والكل الثقل يقال: كل عن الأمر يكل كلا إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه، وكلت السكين كلولا إذا غلظت شفرتها، وكل لسانه إذا لم ينبعث في القول لغلظه وذهاب حده فالأصل فيه الغلظ المانع من النفوذ،

والتوجيه: الإرسال في وجه من الطريق، يقال: وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه)

ب. فقوله: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ مقايسة أخرى بين رجلين مفروضين متقابلين في أوصافهما المذكورة.

٢. ﴿أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾:

أ. أي محروم من أن يفهم الكلام ويفهم غيره بالكلام لكونه أبكم لا يسمع ولا ينطق فهو فاقد لجميع الفعليات والمزايا التي يكتسبها الإنسان من طريق السمع الذي هو أوسع الحواس نطاقا، به يتمكن الإنسان من العلم بأخبار من مضى وما غاب عن البصر من الحوادث وما في ضمائر الناس ويعلم العلوم والصناعات، وبه يتمكن من إلقاء ما يدركه من المعاني الجليلة والدقيقة إلى غيره، ولا يقوى الأبكم على درك شيء منها إلا النزر اليسير مما يساعد عليه البصر بإعانة من الإشارة.

ب. فقوله: ﴿لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾ مخصص عمومه بالأبكم أي لا يقدر على شيء مما يقدر عليه غير الأبكم وهو جملة ما يحرمه الأبكم من تلقي المعلومات وإلقائها.

٣. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ﴾ أي ثقل وعيال على من يلي ويدبر أمره فهو لا يستطيع أن يدبر أمر نفسه، وقوله: ﴿أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي إلى أي جهة أرسله مولاه لحاجة من حوائج نفسه أو حوائج مولاه لم يقدر على رفعها فهو لا يستطيع أن ينفع غيره كما لا ينفع نفسه، فهذا أعني قوله: ﴿أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾، مثل أحد الرجلين، ولم يذكر سبحانه مثل الآخر لحصول العلم به من قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، وفيه إيجاز لطيف.

٤. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

أ. فيه إشارة إلى وصف الرجل المفروض وسؤال عن استوائهما إذا قويس بينهما وعدمه.

ب. أما الوصف فقد ذكر له منه آخر ما يمكن أن يتلبس به غير الأبكم من الخير والكمال الذي يحلي نفسه ويعدو إلى غيره وهو العدل الذي هو التزام الحد الوسط في الأعمال واجتناب الإفراط والتفريط فإن الأمر بالعدل إذا جرى على حقيقته كان لازمه أن يتمكن الصلاح من نفس الإنسان ثم ينبسط على أعماله فيلتزم الاعتدال في الأمور ثم يحب انبساطه على أعمال غيره من الناس فيأمرهم بالعدل وهو، كما عرفت، مطلق التجنب عن الإفراط والتفريط أي العمل الصالح أعم من العدل في الرعية.

ج. ثم وصفه بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو السبيل الواضح الذي يهدي سالكيه إلى غايتهم من غير عوج، والإنسان الذي هو في مسير حياته على صراط مستقيم يجري في أعماله على الفطرة الإنسانية من غير أن يناقض بعض أعماله بعضا أو يتخلف عن شيء مما يراه حقا وبالجملة لا تخلف ولا اختلاف في أعماله.

د. وتوصيف هذا الرجل المفروض الذي يأمر بالعدل بكونه على صراط مستقيم يفيد:

• أولا: أن أمره بالعدل ليس من أمر الناس بالبر ونسيان نفسه بل هو مستقيم في أحواله وأعماله يأتي بالعدل كما يأمر به.

• وثانيا: أن أمره بالعدل ليس ببدع منه من غير أصل فيه يبتني عليه بل هو في نفسه على مستقيم الصراط ولازمه أن يحب لغيره ذلك فيأمرهم أن يلتزموا وسط الطريق ويجتنبوا حاشيتي الإفراط والتفريط.

٥. وأما السؤال أعني ما في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، فهو سؤال لا جواب له إلا النفي لا شك فيه وبه يثبت أن ما يعبدونه من دون الله من الأصنام والأوثان وهو مسلوب القدرة لا يستطيع أن يهتدي من نفسه ولا أن يهدي غيره لا يساوي الله تعالى وهو على صراط مستقيم في نفسه هاد لغيره بإرسال الرسل وتشريع الشرائع.

٦. ومنه يظهر أن هذا المثل المضروب في الآية في معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] فالله سبحانه على صراط مستقيم في صفاته وأفعاله، ومن استقامة صراطه أن يجعل لما خلقه من الأشياء غايات تتوجه إليها فلا يكون الخلق باطلا، كما قال: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ وأن يهدي كلا إلى غايته التي تخصه كما خلقها وجعل لها غاية كما قال: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠] فيهدي الإنسان إلى سبيل قاصد كما قال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ﴾ [الدهر: ٣]، وهذا أصل الحجة على النبوة والتشريع، وقد مر تمامه في أبحاث النبوة في الجزء الثاني وفي قصص نوح في الجزء العاشر من الكتاب.

٧. فقد تحصل أن الغرض من المثل المضروب في الآية:

أ. إقامة حجة على التوحيد مع إشارة إلى النبوة والتشريع.

ب. وقيل: إنه مثل مضروب فيمن يؤمل منه الخير ومن لا يؤمل منه، وأصل الخير كله من الله تعالى فكيف يستوي بينه وبين شيء سواه في العبادة؟

• وفيه أن المورد أخص من ذلك فهو مثل مضروب فيمن هو على خير في نفسه وهو يأمر بالعدل وهو شأنه تعالى دون غيره على أنهم لا يساوون بينه وبين غيره في العبادة بل يتركونه ويعبدون غيره.

ج. وقيل: إنه مثل مضروب في المؤمن والكافر فالأبكم هو الكافر، والذي يأمر بالعدل هو المؤمن، وفيه أن صحة انطباق الآية على المؤمن والكافر بل على كل من يأمر بالعدل ومن يسكت عنه وجريها فيهما أمر، ومدلولها من جهة وقوعها في سياق تعداد النعم والاحتجاج على التوحيد وما يلحق به من الأصول أمر آخر، والذي تفيده بالنظر إلى هذه الجهة أن مورد المثل هو الله سبحانه وما يعبدون من دونه لا غير.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾: قال: قال عليه السلام: كيف يستوي هذا؟ ومن يأمر بالعدل أمير المؤمنين والأئمة عليه السلام وفي تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن حمزة بن عطاء عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية قال: هو علي بن أبي طالب عليه السلام وهو على صراط مستقيم.

• أقول: والروايتان من الجري وليستا من أسباب النزول في شيء لما تقدم في البيان السابق.

ب. وكذا ما روي من طرق أهل السنة: أن قوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً﴾، الآية نزل في هشام بن عمرو وهو الذي ينفق ماله سرا وجهرا، في عبده أبي الجوزاء الذي كان ينهاه، وكذا ما روي أن الآية نزلت في عثمان بن عفان وعبد له.

ج. وكذا ما روي: في قوله: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ الآية، أن الأبكم أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون، وكذا ما روي: أن الأبكم هاشم بن عمر بن الحارث القرشي، وكان قليل الخير يعادي رسول الله ﷺ، وما روي: أن الأبكم أبو جهل والآمر بالعدل عمار، وما روي: أن الآمر بالعدل عثمان بن عفان، والأبكم مولى له كافر وهو أسيد بن أبي العيص، إلى غير ذلك.

٤٤. الغيب والساعة والقرب:

المقطع [٤٤] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٠٣»:

١. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. الغيب يقابل الشهادة في إطلاقات القرآن الكريم وقد تكرر فيه: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ وقد تقدم مرارا أنهما أمران إضافيان فالأمر الواحد غيب وغائب بالنسبة إلى شيء وشهادة ومشهود بالنسبة إلى آخر.

ب. وإذ كان من الأشياء ما هو ذو وجوه يظهر ببعض منها لغيره ويخفى ببعض أعني أنه متضمن غيبا وشهادة كانت إضافة الغيب والشهادة إلى الشيء تارة بمعنى اللام فيكون مثلا غيب السماوات والأرض ما هو غائب عنهما خارج من حدودهما.

ج. ويلحق بهذا الباب الإضافة لنوع من الاختصاص، كما في قوله: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن: ٢٦]، وتارة بمعنى ﴿من﴾ أو ما يقرب منه فيكون المراد بغيب السماوات والأرض الغيب الذي يشتملان عليه نوعا من الاشتمال قبال ما يشتملان عليه من الشهادة وبعبارة أخرى ما يغيب عن الأفهام من أمرهما قبال ما يظهر منهما.

د. والساعة هي من غيب السماوات والأرض بهذا المعنى الثاني:

• أما أولا: فلأنه سبحانه يعدها في كلامه من الغيب، وليست بخارج من أمر السماوات والأرض فهو من الغيب بهذا المعنى.

• وأما ثانيا: فلأن ما يصفها به من الأوصاف إنما يلائم هذا المعنى الثاني ككونها يوما ينبئهم الله بما كانوا فيه يختلفون ويوم تبلى السرائر ويوما يخاطب فيه الإنسان بمثل قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، ويوما يخاطبون ربهم بقولهم: ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا﴾ وبالجملة هي يوم يظهر فيه ما استتر من الحقائق في هذه النشأة ظهور عيان، ومن المعلوم أن هذه الحقائق غير خارجة من السماوات والأرض بل هي معهما ثابتة، كيف؟ وهو تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ

السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيثبته ملكا لنفسه وليس ملكه من الملك الاعتباري يتعلق بكل أمر موهوم أو جزافي بل ملك حقيقي يتعلق بأمر ثابت فلها نوع من الثبوت وإن فرض جهلنا بحقيقة ثبوتها.

٢. والشواهد القرآنية على هذا الذي ذكرناه كثيرة، وقد عد سبحانه حياة هذه النشأة متاع الغرور ولعبا ولهوا، وكرر أن أكثر الناس لا يعلمون ما هو يوم القيامة، وذكر أن الدار الآخرة هي الحيوان، وأنهم سيعلمون أن الله هو الحق المبين وسيبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، إلى غير ذلك مما يشتمل عليه الآيات على اختلاف ألسنتها.

٣. وبالجملة الساعة من غيب السماوات والأرض، والآية أعني قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرر ملكه تعالى لنفس هذا الغيب لا لعلمه فلم يقل: ولله علم غيب السماوات والأرض، وسياق الآية يعطي أن الجملة أعني قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾، توطئة وتمهيد لقوله: ﴿ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾، فالجملة مسوقة للاحتجاج.

٤. وعلى هذا يعود معنى الآية إلى أن الله سبحانه يملك غيب السماوات والأرض ملكا له أن يتصرف فيه كيف يشاء كما يملك شهادتها وكيف لا؟ وغيب الشيء لا يفارق شهادته وهو موجود ثابت معه وله الخلق والأمر، والساعة الموعودة ليست بأمر محال حتى لا يتعلق بها قدرة بل هي من غيب السماوات والأرض وحقيقتها المستورة عن الأفهام اليوم فهي مما استقر عليه ملكه تعالى، وله أن يتصرف فيه بالإخفاء يوما وبالإظهار آخر، وليست بصعبة عليه تعالى فإنما أمرها كلمح البصر أو أقرب من ذلك لأن الله على كل شيء قدير.

٥. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مسوق لا لإثبات أصل الساعة أو إمكانها بل لنفي صعوبتها والمشقة في إقامتها وهوان أمرها عنده سبحانه:

أ. فقوله: ﴿وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي بالنسبة إليه وإلا فقد استعظم سبحانه أمرها بما يهون عنده كل أمر خطير ووصفها بأوصاف لا يعادلها فيها غيرها، قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]

ب. وتشبيه أمرها بلمح البصر إنما هو من جهة أن اللمحة وهي مد البصر وإرساله للرؤية أخف

الأعمال عند الإنسان وأقصرها زمانا فهو تشبيه بحسب فهم السامع ولذلك عقبه بقوله: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ فإن مثل هذا السياق يفهم منه الإضراب فكأنه تعالى يقول: (إن أمرها في خفة المؤنة والهوان والسهولة بالنسبة إلينا يشبه لمح أحدكم ببصره، وإنما أشبهه به رعاية لحالكم وتقريبا إلى فهمكم وإلا فالأمر أقرب من ذلك، كما قال فيها: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، فأمر الساعة بالنسبة إلى قدرته ومشيته تعالى كأمر أيسر الخلق وأهونه.

٦. وعلل تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته على كل شيء توجب أن تكون الأشياء بالنسبة إليه سواء.

٧. وإياك أن تتوهم أن عموم القدرة لا يستوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء من حيث النسبة:

أ. فقلة الأسباب المتوسطة بين الفاعل وفعله والشرائط والموانع وكثرتها لهما تأثير في ذلك لا محالة، فالإنسان مثلا قادر على التنفس وحمل ما يطيقه من الأثقال وليسا سواء بالنسبة إليه وعلى هذا القياس، فإن في ذلك غفلة عن معنى عموم القدرة، وتوضيحه أن القدرة التي فينا قدرة مقيدة، فإن قدرة الإنسان مثلا على أكل الغذاء وهي أن له نسبة الفاعلية إليه وهي في تأثيرها مشروطة بتحقق غذاء في الخارج وكونه بين يديه وممكن التناول وعدم ما يمنع من ذلك من إنسان أو غيره، وكون أدوات الفعل كاليد والفم وغيرهما غير مصابة بآفة إلى غير ذلك، والذي يملكه الإنسان هو الإرادة والزائد على ذلك وسائط وشرائط وموانع خارجة عن قدرته بالحقيقة وقيد يقيدها، وإذا أراد الإنسان أن يعمل قدرته فيأكل كان عليه أن يهيئ تلك الأمور التي تتقيد بها قدرته في التأثير كتحصيل الغذاء ووضعه قريبا منه ورفع الموانع وإعمال الأدوات البدنية مثلا.

ب. ومن المعلوم أن قلة هذه الأمور وكثرتها وقربها وبعدها وما أشبه ذلك من صفاتها توجب اختلاف الفعل في السهولة وعدمها وضعف القدرة وقوتها فتقييد القدرة هو الموجب للاختلاف.

ج. وأما قدرته تعالى فإنها عين ذاته التي يجب وجودها ويمتنع عدمها، وإذا كان كذلك فلو تقيدت بقيد من وجود سبب أو شرط أو عدم مانع لانعدمت بانعدام قيدها وهو محال فقدرته تعالى مطلقة غير محدودة بحد ولا مقيدة بقيد، عامة تتعلق بكل شيء على حد سواء من غير أن يكون شيء بالنسبة إليه

أصعب من شيء أو أسهل، وأقرب إليه من شيء أو أبعد، وإنما الاختلاف بين الأشياء أنفسها بقياس بعضها إلى بعض.

د. وبتقريب آخر ما من شيء إلا وهو يفتقر إليه سبحانه في وجوده، فإذا فرضنا كل أمر موجود بحيث لا يشذ عنها شاذ في جانب ونسبناها إليه تعالى كان الجميع متعلقا لقدرته، وليس هناك أمر ثالث يكون قيدا لقدرته من سبب أو شرط أو عدم مانع وإلا لكان شريكا في التأثير تعالى عن ذلك.

هـ. وأما الذي بين الأشياء أنفسها من الأسباب المتوسطة والشرائط والموانع فإنها توجب تقيد بعضها ببعض لا تقيد القدرة العامة الإلهية التي تتعلق بها ثم تتعلق القدرة بالمقيد منها دون المطلق بمعنى أن متعلق القدرة هو زيد الذي أبوه فلان وأمه فلانة وهو في زمان كذا ومكان كذا وهكذا فوجود زيد بجميع روابطه وجود جميع العالم والقدرة المتعلقة به متعلقة بالجميع بعينه، وليست هناك إلا قدرة واحدة متعلقة بالجميع يوجد بها كل شيء في موطنه الخاص به، وهي مطلقة غير مقيدة لا اختلاف للأشياء بالنسبة إليها وإنما الاختلاف بينها أنفسها.

٨. فقد تبين مما تقدم أن عموم القدرة يوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء بالنسبة إليها بالسهولة والصعوبة وغير ذلك والآية الكريمة من غرر الآيات القرآنية يتبين بها:

أ. أولا: أن حقيقة المعاد ظهور حقيقة الأشياء بعد خفائها.

ب. وثانيا: أن القدرة الإلهية تتعلق بجميع الأشياء على نعت سواء من غير اختلاف بالسهولة والصعوبة والقرب والبعد وغير ذلك.

ج. وثالثا: أن الأشياء بحسب الحقيقة مرتبطة وجودا بحيث إن إيجاد الواحد منها إيجاد الجميع والجميع متعلق قدرة واحدة لا مؤثر فيها غيرها.

٩. نعم هناك نظر آخر أبسط من ذلك وهو النظر فيها من جهة نظام الأسباب والمسببات، وقد صدقه الله في كلامه كما تقدم بيانه في البحث عن الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب، وبهذه النظرة ينفصل الأشياء بعضها عن بعض ويتوقف وجود بعضها على وجود بعض أو عدمه فتتقدم وتتأخر وتسهل وتصعب، وتكون الأسباب وسائط بينها وبينه تعالى ويكون تعالى فاعلا بوساطة الأسباب، وهو نظر بسيط.

١٠. وقد ذكر كثير من المفسرين في قوله: ﴿وَللهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. أنه بحذف مضاف والتقدير ولله علم غيب.، وفيه أنه يستلزم ارتفاع الاتصال بين هذه الجملة وبين ما يليها إذ لا رابطة بين علم الغيب وبين هوان أمر الساعة، فتعود الجملة مستدركة مستغنى عنها في الكلام.

ب. وقول بعضهم في رفع الاستدراك إن صدر الآية وذيلها يثبتان العلم والقدرة وبهما معا يتم خلق الساعة غير مفيد فإنهم إنما استشكلوا في الساعة من جهة القدرة لعدهم إياها ممتنعة فلا حاجة إلى التشبث لإثباتها بمسألة العلم، ويشهد لذلك ما في سائر الآيات المثبتة لإمكان المعاد بعموم القدرة.

ج. وذكر بعضهم: (أن المراد به علم غيبها لا بتقدير العلم في الكلام حتى يقال: إن الأصل عدمه بل لأن إضافة الغيب وهو ما يغيب عن الحس والعقل إلى السماوات والأرض تفيد أن المراد الأمور المجهولة التي فيهما مما يقع فيهما حالا أو بعد حين وملكه تعالى له ملكه للعلم به، وفيه أن المقدمة الأخيرة ممنوعة وقد تقدم بيانه على أن إشكال ارتفاع الاتصال بين الجملتين في محله بعد.

د. وأيضا ذكر بعضهم في توجيه التعليل المستفاد من قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أن من جملة الأشياء إقامة الساعة في أسرع ما يكون فهو قادر على ذلك، وفيه أنه لا يفي بتعليل ما يستفاد من الحصر بالنفي والإثبات وإنما يفي بتعليل ما لو قيل: إن الله سيجعل أمر الساعة كلمح البصر مع إمكان كونه لا كذلك فافهم ذلك.

٤٥. السمع والأبصار والأفئدة والشكر:

المقطع [٤٥] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣١١»:

١. ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾:

أ. الأمهات جمع أم والهاء زائدة نظير أهراق وأصله أراق وقد تأتي أمات، وقيل: الأمهات في الإنسان والأمات في غيره من الحيوان، والأفئدة جمع قلة للفؤاد وهو القلب واللب، ولم يبن له جمع كثرة.

ب. ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ﴾ إشارة إلى التولد و﴿لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ حال من ضمير

الخطاب أي أخرجكم من أرحامهن بالتولد والحال أن نفوسكم خالية من هذه المعلومات التي أحرزتموها من طريق الحس والخيال والعقل بعد ذلك.

ج. والآية تؤيد ما ذهب إليه علماء النفس أن لوح النفس خالية عن المعلومات أول تكونها ثم تنتقش فيها شيئا فشيئا، كما قيل، وهذا في غير علم النفس بذاتها فلا يطلق عليه عرفا (يعلم شيئا) والدليل عليه قوله تعالى في خلال الآيات السابقة فيمن يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا) فإن من الضروري أنه في تلك الحال عالم بنفسه.

د. واحتج بعضهم بعموم الآية على أن العلم الحضوري يعني به علم الإنسان بنفسه كسائر العلوم الحصولية مفقود في بادئ الحال حادث بعد ذلك ثم ناقش في أدلة كون علم النفس بذاتها حضوريا مناقشات عجيبة، وفيه أن العموم منصرف إلى العلم الحصولي ويشهد بذلك الآية المتقدمة.

٢. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إشارة إلى مبادئ العلم الذي أنعم بها على الإنسان فمبدأ التصور هو الحس، والعمدة فيه السمع والبصر وإن كان هناك غيرهما من اللمس والذوق والشم، ومبدأ الفكر هو الفؤاد.

٤٦. الطير والسماء والقدرة:

المقطع [٤٦] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣١٢»:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾:

أ. قال في المجمع: (الجو الهواء البعيد من الأرض)، يقول: ألم ينظروا إلى الطير حال كونها مسخرات لله سبحانه في جو السماء والهواء البعيد من الأرض، ثم استأنف فقال مشيرا إلى ما هو نتيجة هذا النظر: ﴿ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾

ب. وإثبات الإمساك لله سبحانه ونفيه عن غيره مع وجود أسباب طبيعية هناك مؤثرة في ذلك وكلامه تعالى يصدق ناموس العلية والمعلولية إنما هو من جهة أن توقف الطير في الجو من دون أن تسقط كيفما كان وإلى أي سبب استند هو وسببه والرابطة التي بينهما جميعا مستندة إلى صنعه تعالى فهو الذي يفيض

الوجود عليه وعلى سببه وعلى الرابطة التي بينهما فهو السبب المفيض لوجوده حقيقة وإن كان سببه الطبيعي القريب معه يتوقف هو عليه.

ج. ومعنى توقفه في وجوده على سببه ليس أن سببه يفيد وجوده بعد ما استفاد وجود نفسه منه تعالى بل أن هذا المسبب يتوقف في أخذه الوجود منه تعالى إلى أخذ سببه الوجود منه تعالى قبل ذلك، وقد تقدم بعض الكلام في توضيح ذلك من قريب.

د. وهذا معنى توحيد القرآن، والدليل عليه من جهة لفظه أمثال قوله: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧]

هـ. والدليل على ما قدمناه في معنى النفي والإثبات في الآية قوله تعالى: ﴿مُسَخَّراتٍ﴾ فإن التسخير إنما يتحقق بقهر أحد السببين الآخر في فعله على ما يريده السبب القاهر ففي لفظه دلالة على أن للمقهور نوعا من السببية.

و. وليس طيران الطائر في جو السماء بالحقيقة بأعجب من سكون الإنسان في الأرض فالجميع ينتهي إلى صنعه تعالى على حد سواء لكن ألفة الإنسان لبعض الأمور وكثرة عهده به توجب خمود قريحة البحث عنه فإذا صادف ما يخالف ما ألفه وكثر عهده به كالمستثنى من الكلية انتبه لذلك وانتزعت القريحة للبحث عنه والإنسان يرى الأجسام الأرضية الثقيلة معتمدة على الأرض مجذوبة إليها فإذا وجد الطير مثلا تنقض كلية هذا الحكم بطيرانها تعجب منه وانبسط للبحث عنه والحصول على علته، وللحق نصيب من هذا البحث وهذا هو أحد الأسباب في أخذ هذا النوع من الأمور في القرآن مواد للاحتجاج.

٢. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي في كونها مسخرات في جو السماء فإن للطير وهو في الجو دفيفا وصفيفا وبسطا لأجنحتها وقبضا وسكونا وانتقالا وصعودا ونزولا وهي جميعا آيات لقوم يؤمنون كما ذكره الله.

٤٧. نعمة البيوت والسكن وجلود الأنعام:

المقطع [٤٧] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا

وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣١٣»:

١. ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾:

أ. في المفردات: (البيت مأوى الإنسان بالليل لأنه يقال: بات أقام بالليل كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال: للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه أبيات وبيوت لكن البيوت بالمسكن أخص والأبيات بالشعر، قال: ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر وصوف ووبر)

ب. والسكن ما يسكن إليه، والظعن الارتحال وهو خلاف الإقامة، والصوف للضأن والوبر للإبل كالشعر للإنسان ويسمى ما للمعز شعرا كالإنسان، والأثاث متاع البيت الكثير ولا يقال للواحد منه أثاث، قال في المجمع: (ولا واحد للأثاث كما أنه لا واحد للمتاع)، والمتاع أعم من الأثاث فإنه مطلق ما يتمتع به ولا يختص بما في البيت.

ج. ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ أي جعل لكم بعض بيوتكم سكنا تسكنون إليه، ومن البيوت ما لا يسكن إليه كالمتخذ لادخار الأموال واختزان الأمتعة وغير ذلك وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً﴾ إلخ، أي من جلودها بعد الدبغ وهي الأنطاع والأدم ﴿بُيُوتاً﴾ وهي القباب والخيام ﴿تَسْتَخِفُّونَها﴾ أي تعدونها خفيفة من جهة الحمل ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وارتحالكم ﴿وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ﴾ من غير سفر وظعن.

٢. ﴿وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها﴾، معطوف على موضع ﴿مِنْ جُلُودِ﴾ أي وجعل لكم ﴿مِنْ أَصْوافِها﴾ وهي للضأن و﴿أَوْبارِها﴾ وهي للإبل ﴿وَأَشْعارِها﴾ وهي للمعز ﴿أَثاثاً﴾ تستعملونه في بيوتكم ﴿وَمَتاعاً﴾ تتمتعون به ﴿إِلى حِينٍ﴾ محدود، قيل: وفيه إشارة إلى أنها فانية داثرة فلا ينبغي للعاقل أن يختارها على نعيم الآخرة.

٤٨. نعمة الظلال والأكنان والسرابيل:

المقطع [٤٨] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣١٤»:

١. ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ الظرفان أعني قوله: ﴿لَكُمْ﴾ و﴿مِمَّا خَلَقَ﴾ متعلقان بجعل

وتعليق الظلال بما خلق لكونها أمرا عدميا محققا بتبع غيره وهي مع ذلك من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان وسائر الحيوان والنبات فما الانتفاع بالظل للإنسان وغيره بأقل من الانتفاع بالنور ولولا الظل وهو ظل الليل وظل الأبنية والأشجار والكهوف وغيرها لما عاش على وجه الأرض عائش.

٢. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ الكن ما يستتر به الشيء حتى أن القميص كن للابسه، وأكنان الجبال هي الكهوف والثقب الموجودة فيها.

٣. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾:

أ. أي قميصا يحفظكم من الحر، قال في المجمع ولم يقل: وتقيكم البرد لأن ما وقى الحر وقى البرد، وإنما خص الحر بذلك مع أن وقايتها للبرد أكثر لأن الذين خوطبوا بذلك أهل حر في بلادهم فحاجتهم إلى ما يقي الحر أكثر، عن عطاء، قال: على أن العرب يكتفي بذكر أحد الشيئين عن الآخر للعلم به قال الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضا...أريد الخير أيهما يليني

فكنى عن الشر ولم يذكره لأنه مدلول عليه، ذكره الفراء)

ب. ولعل بعض الوجه في ذكره الحر والاكتفاء به أن البشر الأولى كانوا يسكنون المناطق الحارة من الأرض فكان شدة الحر أمس بهم من شدة البرد وتنبههم لاتخاذ السراويل إنما هو للاتقاء مما كان الابتلاء به أقرب إليهم وهو الحر والله أعلم.

٤. ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ الظاهر أن المراد به درع الحديد ونحوه.

٥. ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ امتنان عليهم بإتمام النعم التي ذكرها، وكانت الغاية المرجوة من ذلك إسلامهم لله عن معرفتها فإن المترقب المتوقع ممن يعرف النعم وإتمامها عليه أن يسلم لإرادة منعمه ولا يقابله بالاستكبار لأن منعما هذا شأنه لا يريد به سوء.

٤٩. البلاغ والإنكار والنعمة:

المقطع [٤٩] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٢-٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣١٥»:

١. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾:

أ. قال في المجمع: (البلاغ الاسم والتبليغ المصدر مثل الكلام والتكليم)

ب. لما فرغ عن ذكر ما أريد ذكره من النعم والاحتجاج بها ختمها بما مدلولها العتاب واللوم والوعيد على الكفر ويتضمن ذكر وحدانيته تعالى في الربوبية والمعاد والنبوة وبدأ ذلك ببيان وظيفة النبي ﷺ في رسالته وهو البلاغ فقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي يتفرع على هذا البيان الذي ليس فيه إلا دعوتهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم من غير أن يتبعه إجبار أو إكراه أنهم إن تولوا وأعرضوا عن الإصغاء إليه والاهتداء به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ والتبليغ الواضح الذي لا إبهام فيه ولا ستر عليه لأنك رسول وما على الرسول إلا ذلك.

ج. وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وبيان وظيفة له.

٢. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المعرفة والإنكار متقابلان كالعلم والجهل وهذا هو الدليل على أن المراد بالإنكار وهو عدم المعرفة لازم معناه وهو الإنكار في مقام العمل وهو عدم الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر أو الجحود لسانا مع معرفتها قلبا، لكن قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يخص الجحود بأكثرهم كما سيجيء فيبقى للإنكار المعنى الأول.

٣. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾:

أ. دخول اللام على ﴿الْكَافِرُونَ﴾ يدل على الكمال أي إنهم كافرون بالنعم الإلهية أو بما تدل عليه من التوحيد وغيره جميعا لكن أكثرهم كاملون في كفرهم وذلك بالجحود عنادا والإصرار عليه والصد عن سبيل الله.

ب. والمعنى: يعرفون نعمة الله بعنوان أنها نعمة منه ومقتضاه أن يؤمنوا به وبرسوله واليوم الآخر ويسلموا في العمل ثم إذا وردوا مورد العمل عملوا بما هو من آثار الإنكار دون المعرفة، وأكثرهم لا يكتفون بمجرد الإنكار العملي بل يزيدون عليه بكمال الكفر والعناد مع الحق والجحود والإصرار عليه.

٤. وفيما قدمناه كفاية لك عما أطال فيه المفسرون في معنى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ مع أنهم جميعا كافرون بإنكارهم:

أ. من قول بعضهم، إنما قال: ﴿أَكْثَرُهُمُ﴾ لأن منهم من لم تقم عليه الحجة كمن لم يبلغ حد التكليف

أو كان مئوفا في عقله أو لم تصل إليه الدعوة فلا يقع عليه اسم الكفر.

• وفيه أن هؤلاء خارجون عن إطلاق الآية رأسا فإنها تذكر توبيخا وإيعادا أنهم ينكرون نعمة الله بعد ما عرفوها، وهؤلاء إن كانوا ينكرونها كانوا بذلك كافرين وإن لم ينكروها لم يدخلوا في إطلاق الآية قطعا، وكيف يصح أن يقال: إنهم لم تقم عليهم الحجة وليست الحجة إلا النعمة التي يعدها الله سبحانه وهم يعرفونها؟

ب. وقول بعضهم: (إنما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنه كان يعلم أن فيهم من سيؤمن، وفيه أنه قول لا دليل عليه.

ج. وقول بعضهم: (إن المراد بالأكثر الجميع وإنما عدل عن البعض احتقارا له أن يذكره، ونسب إلى الحسن البصري، وهو قول عجيب.

٥. قيل: (وفي الآية دليل على فساد قول المجبرة إنه ليس لله على الكافر نعمة وإن جميع ما فعله بهم إنما هو خذلان ونقمة لأنه سبحانه نص في هذه الآية على خلاف قولهم) والحق أن للنعمة اعتبارين:

أ. أحدهما كونها نعمة أي ناعمة ملائمة لحال المنعم عليه من حيث كونه في صراط التكوين أي من حيث سعادته الجسمية.

ب. والآخر من حيث وقوع المنعم عليه في صراط التشريع أي من حيث سعادته الروحية الإنسانية بأن تكون النعمة بحيث توجب معرفتها إيمانه بالله ورسوله واليوم الآخر واستعمالها في طريق مرضاة الله.

ج. والمؤمن منعم بالنعمتين كلتيهما والكافر منعم في الدنيا بالطائفة الأولى محروم من الثانية، وفي كلامه سبحانه شواهد كثيرة تشهد على ذلك.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب عن الباقر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾ الآية، قال: عرفهم ولاية علي وأمرهم بولايته، ثم أنكروا بعد وفاته.

• أقول: والرواية من الجري.

ب. وفي تفسير العياشي، عن جعفر بن أحمد عن التركي النيشابوري عن علي بن جعفر بن محمد عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام: أنه سئل عن هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾ الآية، قال: عرفوه

ثم أنكروه.

٥٠. الشهيد والكفر والعذاب:

المقطع [٥٠] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣١٧»:

١. ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (قال الزجاج: والعتب الموجدة يقال: عتب عليه يعتب إذا وجد عليه فإذا فاوضه ما عتب عليه قالوا: عاتبه، وإذا رجع إلى مسرته قيل: أعتب، والاسم العتبي وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب، واستعتبه طلب منه أن يعتب)

ب. يفيد السياق أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة، وبهؤلاء الشهداء الذين يبعث كل واحد منهم من أمة، شهداء الأعمال الذين تحملوا حقائق أعمال أمتهم في الدنيا وهم يستشهد بهم ويشهدون عليهم يوم القيامة وقد تقدم بعض الكلام في معنى هذه الشهادة في تفسير قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] في الجزء الأول من الكتاب.

ج. ولا دلالة في لفظ الآية على أن المراد بشهيد الأمة نبيها، ولا أن المراد بالأمة أمة الرسول فمن الجائز أن يكون غير النبي من أمته كالإمام شهيدا كما يدل عليه آية البقرة السابقة وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وعلى هذا فالمراد بكل أمة أمة الشهيد المبعوث وأهل زمانه.

٢. ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾:

أ. ذكر بعث شهداء الأمم دليل على أنهم يشهدون على أممهم بما عملوا في الدنيا، وقرينة على أن المراد من نفي الإذن للكافرين أنهم لا يؤذن لهم في الكلام وهو الاعتذار لا محالة ونفي الإذن في الكلام إنما هو تمهيد لأداء الشهود شهادتهم كما تلوح إليه آيات أخر كقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]

ب. على أن سياق قوله: ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ﴾، يفيد أن المراد بهذا الذي ذكر نفي ما يتقى به الشر يومئذ من الحيل وبيان أنه لا سبيل إلى تدارك ما فات منهم وإصلاح ما فسد من أعمالهم في الدنيا يومئذ وهو أحد أمرين: الاعتذار أو استئناف العمل، أما الثاني فيتكفله قوله: ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يبقى للأول وهو

الاعتذار بالكلام إلا قوله: ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾

ج. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم أن يعتبوا الله ويرضوه بيان لعدم إمكان تدارك ما فات منهم بتجديد العمل والرجوع إلى السمع والطاعة فإن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل ولا سبيل إلى رجوعهم القهقرى إلى الدنيا حتى يعملوا صالحا فيجزوا به.

د. وقد بين سبحانه ذلك في مواضع أخرى من كلامه بلسان آخر كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ، خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: قال الصادق عليه السلام: لكل زمان وأمة شهيد تبعث كل أمة مع إمامها.

• أقول: وذيل كلامه عليه السلام: مضمون قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾

ب. أخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال الله: ﴿وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه.

• أقول: والروايات في باب الشهادة يوم القيامة كثيرة جدا وقد أوردنا بعضها في ذيل قوله: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] وبعضها في ذيل قوله: ﴿وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء: ١٥٩]

٥١. العذاب والشركاء والمضاعفة:

المقطع [٥١] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٥-٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣١٨»:

١. ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾:

أ. كانت الآية السابقة بالحقيقة مسوقة لبيان الفرق بين يوم الجزاء الذي هو يوم القيامة وبين سائر ظروف الجزاء في الدنيا بأن جزاء يوم القيامة لا يرتفع ولا يتغير باعتذار ولا باستعتاب، وهذه الآية بيان فرق عذاب اليوم مع العذابات الدنيوية التي تتعلق بالظالمين في الدنيا فإنها تقبل بوجه التخفيف أو الإنظار بتأخير ما وعذاب يوم القيامة لا يقبل تخفيفا ولا إنظارا.

ب. فقوله: ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ﴾ ذكر الظلم في الصلة دون الكفر ونحوه للدلالة على سبب الحكم وملاكه، والمراد برؤية العذاب إشرافه عليهم وإشرافهم عليه بعد فصل القضاء كما يفيده السياق، والمراد بالعذاب عذاب يوم القيامة وهو عذاب النار.

ج. والمعنى، والله أعلم، وإذا قضي الأمر بعذابهم وأشرفوا على العذاب بمشاهدة النار فلا مخلص لهم عنه بتخفيف أو بإنظار وإمهال.

د. ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ﴾ إلى آخر الآية، مضي في حديث يوم البعث، وقوله: ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم في عرف القرآن عبدة الأصنام والأوثان قرينة على أن المراد بقوله: ﴿شُرَكاءَهُمْ﴾ الذين أشركوهم بالله زعما منهم أنهم شركاء لله وافتراء ويدل أيضا عليه ذيل الآية والآية التالية.

هـ. فتسميتهم شركاءهم وهم يسمونهم شركاء الله للدلالة بها على أن ليس لهم من الشركة إلا الشركة بجعلهم بحسب وهمهم فليس لإشراكهم شركاءهم من الحقيقة إلا أنها لا حقيقة لها.

و. وبذلك يظهر أن تفسير شركائهم بالأصنام أو بالمعبودات الباطلة وأنهم إنما عدوا شركائهم لأنهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم وأنعامهم، أو الشياطين لأنهم شاركوهم في الأموال والأولاد أو شركاؤهم في الكفر وهم الذين كفروا مثل كفرهم أو شاركوهم في وبال كفرهم، كل ذلك في غير محله ولا نطيل بالمناقشة في كل واحد منها.

٢. ﴿قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ معناه ظاهر وهو تعريف منهم إياهم لربهم، ولا حاجة إلى البحث عن غرض المشركين في تعريفهم فإن اليوم يوم أحاط بهم الشقاء والعذاب من كل جانب، والإنسان في مثل ذلك يلوي إلى كل ما يخطر بباله من طرق السعي في خلاص نفسه وتنفيس كربه.

٣. ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (تقول: ألقيت الشيء إذا طرحته، واللقى الشيء الملقى، وألقيت إليه مقالة إذا قلتها له، وتلقاها إذا قبلها)

ب. والمعنى: أن شركائهم ردوا إليهم وكذبوهم، وقد عبر سبحانه في موضع آخر عن هذا التكذيب بالكفر كقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقوله حكاية عن مخاطبة الشيطان لهم يوم القيامة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

٤. ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾:

أ. السلم الإسلام والاستسلام، وكان في التعبير بإلقاء السلم إشارة إلى انضمام شيء من الخضوع والمقهورية بالقهر الإلهي إلى سلمهم.

ب. وضمير ﴿أَلْقَوْا﴾ عائد إلى الذين أشركوا بقرينة قوله بعد ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فالمراد أن المشركين يسلمون يوم القيامة لله وقد كانوا يدعون إلى الإسلام في الدنيا وهم يستكبرون.

ج. وليس المراد بإلقاء السلم هذا يوم القيامة هو انكشاف الحقيقة وظهور الوحدانية وهو مدلول قوله في صفة يوم القيامة: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، لأن العلم بثبوت شيء أمر، والتسليم والإيمان بثبوته أمر آخر كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]

د. ومجرد العلم بأن الله هو الحق لا يكفي في سعادة الإنسان بل تحتاج في تمامها إلى تسليمه والإيمان به بترتيب آثاره عليه ثم من التسليم والإيمان ما كان عن طوع واختيار ومنه ما كان عن كره واضطرار، والذي ينفع في السعادة هو التسليم والإيمان عن اختيار وموطن الاختيار الدنيا التي هي دار العمل دون الآخرة التي هي دار الجزاء.

هـ. وهم لم يسلموا للحق ما داموا في الدنيا وإن أيقنوا به حتى إذا وردوا الدار الآخرة وأوقفوا موقف الحساب عاينوا أن الله هو الحق المبين، وأن عذاب الشقاء أحاط بهم من كل جانب أسلموا للحق وهم مضطرون وليس ينفعهم، وإلى هذا العلم والتسليم الاضطراري يشير قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، فصدر الآية يخبر عن إسلامهم لأنه الدين

الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وذيل الآية عن انكشاف الحق لهم وظهور الحقيقة عليهم.

و. والآية المبحوث عنها أعني قوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ صدرها يشير إلى إسلامهم وذيلها إلى كون ذاك الإسلام اضطراريا لا ينفعهم لأنهم كانوا يرون لله ألوهية ولشركائهم ألوهية فاختاروا تسليم شركائهم وعبادتهم على التسليم لله ثم لما ظهر لهم الحق يوم القيامة وكذبهم شركائهم بطل ما زعموه وضل عنهم ما افتروه فلم يبق للتسليم إلا الله سبحانه فسلموا له مضطرين وانقادوا له كارهين.

٥. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ﴾:

أ. استئناف متعرض لحال أئمة الكفر بالخصوص بعد ما أشار إلى حال عامة الظالمين والمشركين في الآيات السابقة.

ب. والسامع إذا سمع ما شرحه الله من حالهم يوم القيامة في هذه الآيات وأنهم معذبون جميعا من غير أن يخفف عنهم أو ينظروا فيه، وقد سمع منه أن منهم طائفة هم أشد كفرا وأشقى من غيرهم إذ يقول: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ﴾ خطر بباله طبعا أنهم هل يساوون غيرهم في العذاب الموعود وهم يزيدون عليهم في السبب وهو الكفر.

ج. فاستؤنف الكلام جوابا عن ذلك فقيل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ بالعناد واللجاج فاكتملوا في الكفر واقتدى بهم غيرهم ﴿زِدْناهُمْ عَذاباً﴾ وهو الذي للصد وهم يختصون به ﴿فَوْقَ الْعَذابِ﴾ وهو الذي بإزاء مطلق الظلم والكفر ويشاركون فيه عامة إخوانهم، وكان اللام في العذاب للعهد الذكري يشار بها إلى ما ذكر في قوله: ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ﴾، ﴿بِما كانُوا يُفْسِدُونَ﴾ تعليل لزيادة العذاب.

د. ومن هنا يظهر أن المراد بالإفساد الواقع في التعليل هو الصد لأنه الوصف الذي يزيدون به على غيرهم وهو إفساد الغير بصرفه عن سبيل الله، وبتقرير آخر: إفساد في الأرض بالمنع عن انعقاد مجتمع صالح كان من المترقب حصوله بإقبال أولئك المصروفين على دين الله وسلوك سبيله.

٥٢. الشهادة والكتاب والهدى والبشرى:

المقطع [٥٢] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٢١»:

أ. ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ إلخ، صدر الآية تكرار ما تقدم قبل بضع آيات من قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ غير أنه كان هناك توطئة وتمهيدا لحديث عدم الإذن لهم في الكلام يومئذ، وهو هاهنا توطئة وتمهيد لذكر شهادته ﷺ لهؤلاء يومئذ وهو في الموضعين مقصود لغيره لا لنفسه.

ب. وكيف كان فقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يدل على بعث واحد في كل أمة للشهادة على أعمال غيره وهو غير البعث بمعنى الإحياء للحساب بل بعث بعد البعث، وإنما جعل من أنفسهم ليكون أتم للحجة وأقطع للمعذرة كما يفيده السياق وذكره المفسرون حتى أنهم ذكروا شهادة لوط على قومه ولم يكن منهم نسبا ووجهوه بأنه كان تأهل فيهم وسكن معهم فهو معدود منهم.

١. ﴿وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾:

أ. يفيد أنه ﷺ شهيد على هؤلاء، واستظهروا أن المراد بهؤلاء هم أمته، وأيضا أنهم قاطبة من بعث إليه من لدن عصره إلى يوم القيامة ممن حضره ومن غاب ومن عاصره ومن جاء بعده من الناس.

ب. وآيات الشهادة من معضلات آيات القيامة على ما في جميع آيات القيامة من الإعضال وصعوبة المنال:

ج. وقد تقدم في ذيل قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] نبذة من الكلام في معنى هذه الشهادة.

د. ومن الواجب قبل الورود في بحث الشهادة وسائر الأمور التي تصفها الآيات ليوم القيامة كالجمع والوقوف والسؤال والميزان والحساب أن يعلم أنه تعالى يعد في كلامه هذه الأمور في عداد الحجج التي تقام يوم القيامة على الإنسان لتثبيت ما عمله من خير أو شر والقضاء عليه بما ثبت بالحجة القاطعة للعذر والمنيرة للحق ثم المجازاة بما يستوجبه القضاء من سعادة أو شقاء وجنة أو نار، وهذا من أوضح ما يستفاد من آيات القيامة الشارحة لشئون هذا اليوم وما يواجه الناس منها.

هـ. وهذا أصل مقتضاه أن يكون بين هذه الحجج وأجزائها ونتائجها روابط حقيقية بينة يضطر العقل إلى الإذعان بها، ولا يسع للإنسان بما عنده من الشعور الفطري ردها ولا الشك والارتياب فيها.

و. وعلى هذا فمن الواجب أن تكون الشهادة القائمة هناك بإقامة منه تعالى مشتملة من الحقيقة على ما لا سبيل للمناقشة فيها، والله سبحانه لو أمر أشقى الناس على أن يشهد على الأولين والآخرين بما عملوه باختيار من الشاهد أو يخلق الشهادة في لسانه بلا إرادة منه، أو أن يشهد بما عملوه من غير أن يكون قد تحملها في الدنيا وشهدها شهود عيان بل معتمدا على إعلام من الله أو ملائكته أو على حجة ثم أمضى تعالى ذلك وأنفذه وجازى به محتجا في جميع ذلك بشهادته ثانيا عليها لم يكن ذلك مما لا تطيقه سعة قدرته ولا يسعه نفوذ إرادته ولا استطاع أحد أن ينازعه في ملكه أو يعقب حكمه أو يغلبه على أمره.

ز. لكنها حجة تحكمية غير تامة لا تقطع بالحقيقة عذرا ولا تدفع ريبا نظير التحكمات التي نجدها من جبابرة الإنسان والطواغيت العابثين بالحق والحقيقة وكيف يتصور لمثل هذه الحجج المختلقة عين أو أثر يوم لا عين فيه إلا للحق ولا أثر فيه إلا للحقيقة؟

ح. وعلى هذا فمن الواجب أن يكون هذا الشهيد ذا عصمة إلهية يمتنع عليه الكذب والجزاف، وأن يكون عالما بحقائق الأعمال التي يشهد عليها لا بظاهر صورها وهيئاتها المحسوسة بل بحقيقة ما انعقدت عليه في القلوب، وأن يستوي عنده الحاضر والغائب من الناس كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير آية سورة البقرة.

ط. ومن الواجب أن تكون شهادته شهادة عن معاينة كما هو ظاهر لفظ الشهيد وظاهر تقييده بقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ في قوله: ﴿شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ غير مستندة إلى حجة عقلية أو دليل سمعي، ويشهد به قوله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]

ي. وبهذا تتلاءم الآيتان مضمونا أعني قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ وقوله: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]

ك. فإن ظاهر آية البقرة أن بين النبي ﷺ وبين الناس الذين هم عامة من بعث إليهم من زمانه إلى

يوم القيامة شهداء يشهدون على أعمالهم، وأن الرسول إنما هو شهيد على هؤلاء الشهداء دون سائر الناس إلا بواسطتهم، ولا ينبغي أن يتوهم أن الأمة هم المؤمنون وغيرهم الناس وهم خارجون من الأمة فإن ظاهر الآية السابقة في السورة: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية أن الكفار من الأمة المشهود عليهم.

ل. ولازم ذلك أن يكون المراد بالأمة في الآية المبحوث عنها: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ جماعة الناس من أهل عصر واحد يشهد أعمالهم شهيد واحد، ويكون حينئذ الأمة التي بعث إليها النبي ﷺ منقسمة إلى أمم كثيرة.

م. ويكون المراد بالشهيد الإنسان المبعوث بالعصمة والمشاهدة كما تقدم ويؤيده قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ إذ لولا المشاهدة لم يكن لكونه من أنفسهم وقع، ولا لتعدد الشهداء بتعدد الأمم وجه فلكل قوم شهيد من أنفسهم سواء كان نبيا لهم أو غير نبيهم فلا ملازمة كما يؤيده قوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]

ن. ويكون المراد بهؤلاء في قوله: ﴿وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلَى هؤُلاءِ﴾ الشهداء دون عامة الناس فالشهداء شهداء على الناس والنبي ﷺ شهيد على الشهداء وظاهر الشهادة على الشاهد تعديله دون الشهادة على عمله فهو ﷺ شهيد على مقامهم لا على أعمالهم ولذلك لم يكن من الواجب أن يعاصرهم ويتحد بهم زمانا فافهم ذلك.

س. والإنصاف أنه لولا هذا التقريب لم يرتفع ما يتراءى ما في آيات الشهادة من الاختلاف كدلالة آية البقرة، وقوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، على كون الأمة هم المؤمنين، ودلالة غيرهما على الأعم، ودلالتهما على أن النبي إنما هو شهيد على الشهداء، وأن بينه وبين الناس شهداء ودلالة غيرهما على خلافه وأن على الناس شهيدا واحدا هو نبيهم لأن المفروض حينئذ أن شهيد كل أمة هو نبيهم، وكون أخذ الشهيد من أنفسهم لغوا لا أثر له مع عدم لزوم الحضور والمعاصرة وأن الشهادة إنما تكون من حي كما في الكلام المحكي عن المسيح عليه السلام وإشكالات أخرى تتوجه على نجاح الحجة ومضيها، تقدمت الإشارة إليها والله الهادي.

٢. ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾:

أ. ذكروا أنه استئناف يصف القرآن بكرائم صفاته فصفته العامة أنه تبيان لكل شيء والتبيان والبيان واحد، كما قيل، وإذ كان كتاب هداية لعامة الناس وذلك شأنه كان الظاهر أن المراد بكل شيء كل ما يرجع إلى أمر الهداية مما يحتاج إليه الناس في اهتدائهم من المعارف الحقيقية المتعلقة بالمبدإ والمعاد والأخلاق الفاضلة والشرائع الإلهية والقصص والمواعظ فهو تبيان لذلك كله.

ب. ومن صفته الخاصة أي المتعلقة بالمسلمين الذين يسلمون للحق أنه هدى يهتدون به إلى مستقيم الصراط ورحمة لهم من الله سبحانه يحوزون بالعمل بما فيه خير الدنيا والآخرة وينالون به ثواب الله ورضوانه، وبشرى لهم يبشرهم بمغفرة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم.

ج. هذا ما ذكروه وهو مبني على ما هو ظاهر التبيان من البيان المعهود من الكلام وهو إظهار المقاصد من طريق الدلالة اللفظية فإنا لا نهتدي من دلالة لفظ القرآن الكريم إلا على كليات ما تقدم، لكن في الروايات ما يدل على أن القرآن فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، ولو صحت الروايات لكان من اللازم أن يكون المراد بالتبيان الأعم مما يكون من طريق الدلالة اللفظية فلعل هناك إشارات من غير طريق الدلالة اللفظية تكشف عن أسرار وخبايا لا سبيل للفهم المتعارف إليها.

٣. والظاهر على ما يستفاد من سياق هذه الآيات المسوقة للاحتجاج على الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد:

أ. والكلام فيها ينعطف مرة بعد أخرى عليها أن قوله: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ﴾، ليس باستئناف بل حال عن ضمير الخطاب في ﴿جِئْنا بِكَ﴾ بتقدير ﴿قد﴾ أو بدون تقديرها، على الخلاف بين النحاة في الجملة الحالية المصدرة بالفعل الماضي.

ب. والمعنى: وجئنا بك شهيدا على هؤلاء والحال أنا نزلنا عليك من قبل في الدنيا الكتاب وهو بيان لكل شيء من أمر الهداية يعلم به الحق من الباطل فيتحمل شهادة أعمالهم فيشهد يوم القيامة على الظالمين بما ظلموا وعلى المسلمين بما أسلموا لأن الكتاب كان هدى ورحمة وبشرى لهم وكنت أنت بذلك هاديا ورحمة ومبشرا لهم.

ج. وعلى هذا فصدر الآية كالتوطئة لذيلها كأنه قيل: سيبعث شهداء يشهدون على الناس بأعمالهم وأنت منهم ولذلك نزلنا عليك كتابا يبين الحق والباطل ويميز بينهما حتى تشهد به يوم القيامة على الظالمين

بظلمهم وقد تبين الكتاب وعلى المسلمين بإسلامهم وقد كان الكتاب هدى ورحمة وبشرى لهم وكنت هاديا ورحمة ومبشرا به.

د. ومن لطيف ما يؤيد هذا المعنى مقارنة الكتاب بالشهادة في بعض آيات الشهادة كقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وسيجيء إن شاء الله أن المراد به اللوح المحفوظ، وقد تكرر في كلامه تعالى أن القرآن من اللوح المحفوظ كقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨]، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، وشهادة اللوح المحفوظ وإن كانت غير شهادة النبي ﷺ لكنهما جميعا متوقفتان على قضاء الكتاب النازل.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قد ولدني رسول الله ﷺ، وأنا أعلم كتاب الله وفيه بدء الخلق، وما هو كائن إلى يوم القيامة، وفيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر الجنة وخبر النار وخبر ما كان وخبر ما هو كائن، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي، إن الله عز وجل يقول: فيه تبيان كل شيء.

• أقول: والآية منقولة في الرواية بالمعنى.

ب. وفي تفسير العياشي، عن منصور عن حماد اللحام قال: قال: أبو عبد الله عليه السلام: نحن نعلم ما في السماوات ونعلم ما في الأرض، وما في الجنة وما في النار وما بين ذلك، قال: فبهت أنظر إليه فقال: يا حماد إن ذلك في كتاب الله تعالى، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ إنه من كتاب فيه تبيان كل شيء وفي الكافي، عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن سنان عن يونس بن يعقوب عن الحارث بن المغيرة وعدة من أصحابنا منهم عبد الأعلى وأبو عبيدة وعبد الله بن بشير الخثعمي سمعوا أبا عبد الله عليه السلام يقول: إني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض وأعلم ما في الجنة وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون، ثم مكث هنيئة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه منه، فقال: علمت ذلك من كتاب الله عز وجل، إن الله يقول: فيه تبيان كل شيء.

ج. وفي تفسير العياشي، عن عبد الله بن الوليد قال قال أبو عبد الله عليه السلام: قال الله لموسى:

﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فعلمنا أنه لم يكتب لموسى الشيء كله، وقال الله لعيسى: ﴿لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وقال الله لمحمد ﷺ ﴿وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

- أقول: ورواه العياشي بالإسناد عنه عليه السلام.

٥٣. الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي:

المقطع [٥٣] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٢٩»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى﴾:

أ. ابتدأ سبحانه بهذه الأحكام الثلاثة التي هي بالترتيب أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنساني لما أن صلاح المجتمع العام أهم ما يبتغيه الإسلام في تعاليمه المصلحة فإن أهم الأشياء عند الإنسان في نظر الطبيعة وإن كان هو نفسه الفردية، لكن سعادة الشخص مبنية على صلاح الظرف الاجتماعي الذي يعيش هو فيه، وما أصعب أن يفلح فرد في مجتمع فاسد أحاط به الشقاء من كل جانب.

ب. ولذلك اهتم في إصلاح المجتمع اهتماما لا يعادله فيه غيره وبذل الجهد البالغ في جعل الدساتير والتعاليم الدينية حتى العبادات من الصلاة والحج والصوم اجتماعية ما أمكن فيها ذلك، كل ذلك ليستصلح الإنسان في نفسه ومن جهة ظرف حياته.

٢. فقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾:

أ. أمر بالعدل ويقابله الظلم قال في المفردات: (العدالة والمعادلة لفظ يقتضي معنى المساواة، ويستعمل باعتبار المضايفة، والعدل، بفتح، العين والعدل، بكسرها يتقاربان لكن العدل، بفتح العين، يستعمل فيما يدرك بالبصيرة كالأحكام، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً﴾ والعدل، بكسر العين، والعديل فيما يدرك بالحاسة كالموزونات والمعدودات والمكيلات، فالعدل هو التقسيط على سواء)

ب. قال: والعدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخا ولا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان إلى من أحسن إليك وكف الأذى عمن كف أذاه عنك، وعدل

يعرف كونه عدلا بالشرع ويمكن أن يكون منسوخا في بعض الأزمنة كالقصاص وأروش الجنايات وأصل مال المرتد، ولذلك قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾، وقال: ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ فسمي اعتداء وسيئة، وهذا النحو هو المعني بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ فإن العدل هو المساواة في المكافاة إن خيرا فخير وإن شرا فشر، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه)

ج. وما ذكره على ما فيه من التفصيل يرجع إلى قولهم إن العدل هو لزوم الوسط والاجتناب عن جانبي الإفراط والتفريط في الأمور وهو من قبيل التفسير بلازم المعنى فإن حقيقة العدل هي إقامة المساواة والموازنة بين الأمور بأن يعطى كل من السهم ما ينبغي أن يعطاه فيتساوى في أن كلا منها واقع موضعه الذي يستحقه، فالعدل في الاعتقاد أن يؤمن بما هو الحق، والعدل في فعل الإنسان في نفسه أن يفعل ما فيه سعادته ويتحرز مما فيه شقاؤه باتباع هوى النفس، والعدل في الناس وبينهم أن يوضع كل موضعه الذي يستحقه في العقل أو في الشرع أو في العرف فيثاب المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، وينتصف للمظلوم من الظالم ولا يبعض في إقامة القانون ولا يستثني.

د. ومن هنا يظهر أن العدل يساوق الحسن ويلازمه إذ لا نعني بالحسن إلا ما من طبعه أن تميل إليه النفس وتنجذب نحوه وإقرار الشيء في موضعه الذي ينبغي أن يقر عليه من حيث هو كذلك مما يميل إليه الإنسان ويعترف بحسنه ويقدم العذر لو خالفه إلى من يقرعه باللوم لا يختلف في ذلك اثنان، وإن اختلف الناس في مصاديقه كثيرا باختلاف مسالكهم في الحياة.

هـ. ويظهر أيضا أن ما عد الراغب في كلامه من الاعتداء والسيئة عدلا لا يخلو عن مسامحة، فإن الاعتداء والسيئة الذين يجازى بهما المعتدي والمسيء إنما هما اعتداء وسيئة بالنسبة إليهما وأما بالنسبة إلى من يجازيهما بهما فهما من لزوم وسط الاعتدال وخصلة الحسن لكونهما من وضع الشيء موضعه الذي ينبغي أن يوضع فيه.

و. وكيف كان فالعدل وإن كان منقسما إلى عدل الإنسان في نفسه وإلى عدله بالنسبة إلى غيره، وهما العدل الفردي والعدل الاجتماعي، واللفظ مطلق لكن ظاهر السياق أن المراد به في الآية العدل الاجتماعي وهو أن يعامل كل من أفراد المجتمع بما يستحقه ويوضع في موضعه الذي ينبغي أن يوضع فيه، وهذا أمر بخصلة اجتماعية متوجه إلى أفراد المكلفين بمعنى أن الله سبحانه يأمر كل واحد من أفراد المجتمع أن يأتي

بالعدل، ولازمه أن يتعلق الأمر بالمجموع أيضا فيكلف المجتمع إقامة هذا الحكم وتتقلده الحكومة بما أنها تتولى أمر المجتمع وتدبره.

٣. ﴿وَالْإِحْسانِ﴾:

أ. الكلام فيه من حيث اقتضاء السياق كسابقه فالمراد به الإحسان إلى الغير دون الإحسان بمعنى إتيان الفعل حسنا، وهو إيصال خير أو نفع إلى غير لا على سبيل المجازاة والمقابلة كأن يقابل الخير بأكثر منه ويقابل الشر بأقل منه، كما تقدم، ويوصل الخير إلى غير متبرعا به ابتداء.

ب. والإحسان على ما فيه من إصلاح حال من أذلته المسكنة والفاقة أو اضطرته النوازل، وما فيه من نشر الرحمة وإيجاد المحبة يعود محمود أثره إلى نفس المحسن بدوران الثروة في المجتمع وجلب الأمن والسلامة بالتحبيب.

٤. ﴿وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى﴾:

أ. أي إعطاء المال لذوي القرابة وهو من أفراد الإحسان خص بالذكر ليدل على مزيد العناية بإصلاح هذا المجتمع الصغير الذي هو السبب بالحقيقة لانعقاد المجتمع المدني الكبير كما أن مجتمع الازدواج الذي هو أصغر بالنسبة إلى مجتمع القرابة سبب مقدم مكون له فالمجتمعات المدنية العظيمة إنما ابتدأت من مجتمع بيتي عقده الازدواج ثم بسطه التوالد والتناسل ووسعه حتى صار قبيلة وعشيرة ولم يزل يتزايد ويتكاثر حتى عادت أمة عظيمة فالمراد بذي القربى الجنس دون الفرد وهو عام لكل قرابة كما ذكروه.

ب. وفي التفسير المأثور عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن المراد بذي القربى الإمام من قرابة رسول الله ﷺ، والمراد بالإيتاء إعطاء الخمس الذي فرضه الله سبحانه في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ﴾، الآية [الأنفال: ٤١] وقد تقدم تفسيرها.

ج. ولعل التعبير بالإفراد حيث قيل: ﴿ذِي الْقُرْبى﴾ ولم يقل: ذوي القربى أو أولي القربى كما في قوله: ﴿وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ﴾ [النساء: ٨]، وقوله: ﴿وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] يؤيد ذلك.

د. واحتمال إرادة الجنس من ذي القربى يبعده ما وقع في سياق آية الخمس من ذكر اليتامى والمساكين معه بصيغة الجمع مع عدم ظهور نكتة يختص بها ذوي القربى أو اليتامى والمساكين تقضي

بالفرق.

هـ. على أن الآية لا قرينة واضحة فيها على كون المراد بالإيتاء هو الإحسان ثم بالإحسان مطلق الإحسان، والله أعلم.

٥. ﴿وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

أ. قال في المفردات: (الفحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال) ولعل الأصل في معناه الخروج عن الحد فيما لا ينبغي يقال: غبن فاحش أي خارج عن حد التحمل والصبر والسكوت.

ب. والمنكر ما لا يعرفه الناس في مجتمعهم من الأعمال التي تكون متروكة عندهم لقبحها أو إثمها كالمواقعة أو كشف العورة في مشهد من الناس في المجتمعات الإسلامية.

ج. والبغي الأصل في معناه الطلب وكثر استعماله في طلب حق الغير بالتعدي عليه فيفيد معنى الاستعلاء والاستكبار على الغير ظلما وعتوا، وربما كان بمعنى الزنا والمراد به في الآية هو التعدي على الغير ظلما.

د. وهذه الثلاثة أعني الفحشاء والمنكر والبغي وإن كانت متحدة المصاديق غالبا فكل فحشاء منكر، وغالب البغي فحشاء ومنكر لكن النهي إنما تعلق بها بما لها من العناوين لما أن وقوع الأعمال بهذه العناوين في مجتمع من المجتمعات يوجب ظهور الفصل الفاحش بين الأعمال المجتمعة فيه الصادرة من أهله فينقطع بعضها من بعض ويبطل الالتيام بينها ويفسد بذلك النظم وينحل المجتمع في الحقيقة وإن كان على ساقه صورة وفي ذلك هلاك سعادة الأفراد.

هـ. فالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي أمر بحسب المعنى باتحاد مجتمع تتعارف أجزاؤه وتتلاءم أعماله لا يستعلي بعضهم على بعض بغيا، ولا يشاهد بعضهم من بعض إلا الجميل الذي يعرفونه لا فحشاء ولا منكرا وعند ذلك تستقر عليهم الرحمة والمحبة والألفة وترتكز فيهم القوة والشدة، وتهجرهم السخطة والعداوة والنفرة وكل خصلة سيئة تؤدي إلى التفرق والتهلكة.

٦. ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعلمون أن الذي يدعوكم إليه فيه حياتكم وسعادتكم.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاصي قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص بصره فقال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ إلى قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾

• أقول: ورواه أيضا عن ابن عباس عن عثمان بن مظعون.

ب. وفي المجمع: (وجاءت الرواية أن عثمان بن مظعون قال: كنت أسلمت استحياء من رسول الله ﷺ، لكثرة ما كان يعرض علي الإسلام ولم يقر الإسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئا، فلما سري عنه سألته عن حاله فقال: نعم بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء، فأتاني بهذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ فقرأها علي إلى آخرها فقر الإسلام في قلبي، وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش اتبعوا محمدا ترشدوا فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق، وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعم ما قال، وإن قاله ربه فنعم ما قال، قال: فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى﴾ الحديث.

ج. وفيه، عن عكرمة قال: إن النبي ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة، فقال: يا ابن أخي أعد فأعاد فقال: إن له لحلاوة وإن له لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذق وما هو قول البشر.

د. وفي تفسير القمي، بإسناده عن إسماعيل بن مسلم عن الصادق عليه السلام: في الآية: ليس لله في عباده أمر إلا العدل والإحسان.

هـ. وفي تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن عمرو بن عثمان قال: خرج علي عليه السلام على أصحابه وهم يتذاكرون المروءة فقال: أين أنتم من كتاب الله؟ قالوا يا أمير المؤمنين في أي موضع؟ فقال: في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ فالعدل الإنصاف والإحسان التفضل.

• أقول: ورواه العياشي عن عمرو بن عثمان العاصي عنه عليه السلام، ورواه في الدر المنثور، عن ابن النجار في تاريخه من طريق العكلي عن أبيه عنه عليه السلام ولفظه: مر علي بن أبي طالب بقوم يتحدثون فقال: فيم أنتم؟ فقالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أوما كفاكم الله عز وجل ذاك في كتابه إذ يقول الله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ فالعدل الإنصاف والإحسان التفضل.

• أقول: وقد ورد في عدة روايات تفسير العدل بالتوحيد أو بالشهادتين وتفسير الإحسان بالولاية: وفي أخرى إرجاع تحريم نقض العهد بوجوب الثبات على الولاية.

٥٤. العهد والكفيل والوفاء:

المقطع [٥٤] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٣٤»:

١. ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾:

أ. قال في المفردات: (العهد حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهدا، قال: وعهد فلان إلى فلان يعهد أي ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه)

ب. وظاهر إضافة العهد إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ﴾ أن المراد به هو العهد الذي يعاهد فيه الله على كذا دون مطلق العهد ويأتي نظير الكلام في نقض اليمين.

٢. ﴿وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾:

أ. نقض اليمين نكثه ومخالفة مقتضاه والمراد باليمين هو اليمين بالحلف بالله سبحانه كأن ما عدا ذلك ليس بيمين والدليل عليه قوله بعد: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾، والمراد بتوكيدها إحكامها بالقصد والعزم وكونها لأمر راجح بخلاف قولهم: لا والله وبلى والله وغيره من لغو الأيمان، فالتوكيد في هذه الآية يفيد ما يفيده التعقيد في قوله تعالى: ﴿لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ﴾ [المائدة: ٨٩]

ب. ونقض اليمين بحسب الاعتبار أشنع من نقض العهد وإن كان منهيا عنهما جميعا، على أن العناية بالحلف في الشرع الإسلامي أكثر كما في باب القضاء.

ج. وتوضيح شناعة نقضه: أن حقيقة معنى اليمين إيجاد ربط خاص بين النسبة الكلامية من خبر أو إنشاء وبين أمر ذي بال شريف بحيث يستوجب بطلان النسبة من جهة ظهور كذبه إن كان خبرا ومخالفة مقتضاه إن كان عزما أو أمرا أو نهيا كقولنا: والله لأفعلن كذا وبالله عليك افعل أو لا تفعل كذا أن يذهب بذلك ما يعتقده المقسم من الكرامة والعزة للمقسم به فيئول الأمر إلى أن المقسم به بما له من الكرامة والعزة

هو المسئول عن صحة النسبة الكلامية والمقسم هو المسئول عند المقسم به بما علق صحة النسبة على كرامته وعزته كمن يعقد عقدا أو يتعهد عملا ثم يعطي لمن عاقده أو تعهد له موثقا يثق به من مال أو ولد أو غير ذلك أو يضمن له ذلك شريف بشرافته.

٣. وبهذا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ فإن الحالف إذا قال: والله لأفعلن كذا أو لأتركن كذا فقد علق ما حلف عليه نوعا من التعليق على الله سبحانه وجعله كفيلا عنه في الوفاء بما عقد عليه اليمين فإن نكث ولم يف كان لكفيله أن يؤديه إلى الجزاء والعقوبة، ففي نكث اليمين إهانة وإزراء بساحة العزة والكرامة مضافا إلى ما في نقض اليمين والعهد معا من الانقطاع والانفصال عنه سبحانه بعد توكيد الاتصال، فقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ﴾، حال من ضمير الجمع في قوله: ﴿وَلا تَنْقُضُوا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ في معنى تأكيد النهي بأن العمل مبغوض وهو به عليم.

٥٥. النقض والأنكاث والأيمان:

المقطع [٥٥] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٣٥»:

١. ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً﴾:

أ. النقض ويقابله الإبرام إفساد ما أحكم من حبل أو غزل بالفتل فنقض الشيء المبرم كحل الشيء المعقود، والنكث النقض، قال في المجمع: (وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبلا كان أو غزلا، والدخل بفتحتين في الأصل كل ما دخل الشيء وليس منه، ويكنى به عن الدغل والخدعة والخيانة، كما قيل: وأربى أفعل من الربا وهو الزيادة)

ب. ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً﴾ في معنى التفسير لقوله في الآية السابقة: ﴿وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾ وهو تمثيل بمرأة تغزل الغزل بقوة ثم تعود فتنقض ما أتعبت نفسها فيه وغزلته من بعد قوة وتجعله أنكاثا لا فتل فيه ولا إبرام.

ج. ونقل عن الكلبي أنها امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن ولا يزال ذلك دأبها واسمها ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن

مرة، وكانت تسمى خرقاء مكة.

٢. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾:

أ. أي تتخذون أيمانكم وسيلة للغدر والخدعة والخيانة تطيبون بها نفوس الناس ثم تخونون وتخدعونهم بنقضها، وإنما يفعلون ذلك لتكون أمة، وهم الحالفون، أربى وأزيد سهما من زخارف الدنيا من أمة، وهم المحلوف لهم..

ب. فالمراد بالدخل وسيلته من تسمية السبب باسم المسبب و﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ مفعول له بتقدير اللام، والكلام نوع بيان لنقض اليمين أو لكونهم كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ومحصل المعنى أنكم كمثلها إذ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم فتؤكدونها وتعقدونها ثم تخونون وتخدعون بنقضها ونكثها والله ينهاكم عنه.

ج. وذكر بعضهم أن قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ﴾، جملة استفهامية محذوفة الأداة والاستفهام للإنكار.

٣. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾، أي إن ذلك امتحان إلهي يمتحنكم به وأقسم ليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فتعلمون عند ذلك ما حقيقة ما أنتم عليه اليوم من التكالب على الدنيا وسلوك سبيل الباطل لإماطة الحق ودحضه ويتبين لكم يومئذ من هو الضال ومن هو المهتدي.

٥٦. الأمة الواحدة والضلال والهداية:

المقطع [٥٦] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٣٦»:

١. ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾:

أ. لما انجر الكلام إلى ذكر اختلافهم عقب ذلك ببيان أن اختلافهم ليس بناقض للغرض الإلهي في خلقهم ولا أنهم معجزون له سبحانه ولو شاء لجعلهم أمة واحدة لا اختلاف بينهم ولكن الله سبحانه جعلهم مختلفين بالهداية والإضلال فهدى قوما وأضل آخرين.

ب. وذلك أنه تعالى وضع سعادة الإنسان وشقاءه على أساس الاختيار وعرفهم الطاعة المفضية

إلى غاية السعادة والمعصية المؤدية إلى غاية الشقاء فمن سلك مسلك المعصية واجتاز للضلال جازاه الله ذلك، ومن ركب سبيل الطاعة واختار الهدى جازاه الله ذلك وسيسألهم جميعا عما عملوا واختاروا.

٢. وبما تقدم يظهر:

أ. أن المراد بجعلهم أمة واحدة رفع الاختلاف من بينهم وحملهم على الهدى والسعادة، وبالإضلال والهداية ما هو على سبيل المجازاة لا الضلال والهدى الابتدائيان فإن الجميع على هدى فطري فالذي يشاء الله ضلاله فيضله هو من اختار المعصية على الطاعة من غير رجوع ولا ندم، والذي شاء الله هداه فهداه هو من بقي على هداه الفطري وجرى على الطاعة أو تاب ورجع عن المعصية صراطا مستقيما وسنة إلهية ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا.

ب. وأن قوله: ﴿وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لدفع ما يسبق إلى الوهم أن استناد الضلال والهدى إليه سبحانه يبطل تأثير اختيارهم في ذلك وتبطل بذلك الرسالة وتلغو الدعوة فأجيب بأن السؤال باق على حاله لما أن اختياركم لا يبطل بذلك بل الله سبحانه يمد لكم من الضلال والهدى ما أنتم تختارونه بالركون إلى معصيته أو بالإقبال إلى طاعته.

٥٧. الأيمان والزلل والعذاب:

المقطع [٥٧] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٣٨»:

١. ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها﴾:

أ. قال في المفردات: (الصدود والصد قد يكون انصرافا عن الشيء وامتناعا نحو ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ وقد يكون صرفا ومنعا نحو ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾)

ب. والآية نهي عن اتخاذ الأيمان دخلا بعد النهي عن أصل نقض الأيمان لأن لخصوص اتخاذها دخلا مفسدة مستقلة هي ملاك النهي غير المفسدة التي لأصل نقض الأيمان وقد أشار إلى مفسدة أصل النقض بقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾، ويشير في هذه الآية إلى مفسدة اتخاذها دخلا بقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾

ج. والملاكان، كما هو ظاهر، متغايران نعم أحدهما كالمقدمة للآخر كما أن نقض الأيمان كالمقدمة لاتخاذها دخلا فإن الإنسان إذا نقض اليمين لسبب من الأسباب لأول مرة هان عليه أمر النقض ومهد ذلك السبيل إلى النقض ثانيا وثالثا وجعل الحلف ثم النقض وسيلة خدعة وخيانة فلا يلبث دون أن تكون حليف دغل وخدعة وخيانة وغرور ومكر وكيد وكذب وزور لا يبالي ما قال وما فعل ويعود جرثومة فساد يفسد المجتمع الإنساني أينما توجه، ويقع في سبيل غير سبيل الله الذي خطته الفطرة السليمة.

د. وكيف كان فظاهر قوله: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ نهي استقلالي عن الخدعة باليمين بعد النهي الضمني عنه في الآية السابقة، وقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها﴾ تفريع على المنهي عنه دون النهي أي يتفرع على اتخاذها دخلا أن تزل قدم بعد ثبوتها، وزلة القدم بعد ثبوتها مثل لنقض اليمين بعد العقد والتوكيد والزوال عن الموقف الذي ارتكز فيه فإن ثبات الإنسان واستقامته على ما عزم عليه واهتم به من كرائم الإنسانية وأصول فضائلها وعليه بناء الدين الإلهي، وحفظ اليمين على توكيده قدم من الأقدام التي يتم بها هذا الأصل الوسيع، وكأنه لذلك جيء بالقدم نكرة في قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾

٢. ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾، وبيان نتيجته كما أنه بيان نتيجة وعاقبة لقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً﴾ وبذلك يظهر أن قوله: ﴿بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ بمنزلة التفسير لقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها﴾

ب. والمراد بالصدود عن سبيل الله الإعراض والامتناع عن السنة الفطرية التي فطر الله الناس عليها ودعت الدعوة النبوية إليها من التزام الصدق والاستقامة ورعاية العهود والمواثيق والأيمان والتجنب عن الدغل والخدعة والخيانة والكذب والزور والغرور.

ج. والمراد بذوق السوء العذاب، وقوله: ﴿وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ حال عن فاعل ﴿تَذُوقُوا﴾ ويمكن أن يكون المراد بذوق السوء ما ينالهم من آثار الضلال السيئة في الدنيا، وقوله: ﴿وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ إخبارا عما يحل بهم في الآخرة هذا ما يستفاد من ظاهر الآية الكريمة.

د. فالمعنى: ولا تتخذوا أيمانكم وسيلة دخل بينكم حتى يؤديكم ذلك إلى الزوال عما ثبتم عليه ونقض ما أبرمتموه، وفيه إعراض عن سبيل الله الذي هو التزام الفطرة والتحرز عن الغدر والخدعة

والخيانة والدغل وبالجملة الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، ويؤديكم ذلك إلى أن تذوقوا السوء والشقاء في حياتكم الدنيا ولكم عذاب عظيم في الأخرى.

٣. وذكر بعضهم: (أن الآية مختصة بالنهي عن نقض بيعة النبي ﷺ على ما استقرت عليه السنة في صدر الإسلام، وأن الآية نزلت في الذين بايعوا النبي ﷺ على نصرة الإسلام وأهله فنهاهم الله عن نقض تلك البيعة، وعلى هذا فالمراد بالصد عن سبيل الله صرف الناس ومنعهم عن اتباع دين الله كما أن المراد بزلة قدم بعد ثبوتها الردة بعد الإسلام والضلال بعد الرشد)، وفيه أن السياق لا يساعد على ذلك، وعلى تقدير التسليم خصوص المورد لا ينافي عموم الآية.

٥٨. العهد والصبر والأجر:

المقطع [٥٨] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٥ ـ ٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٣٩»:

١. ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ الله هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. قال في المفردات كل ما يحصل عوضا عن شيء فهو ثمنه)

ب. والظاهر أن الآية نهي عن نقض العهد بعد ما تقدم الأمر بالوفاء به اعتناء بشأنه كما جرى مثل ذلك في نقض الأيمان، والآية مطلقة، والمراد بعهد الله العهد الذي عوهد به الله مطلقا، والمراد بالاشتراء به ثمنا قليلا بقرينة ذيل الآية أن يبدل العهد من شيء من حطام الدنيا فينقض لنيله فسمى المبدل منه ثمنا لأنه عوض كما تقدم، والباقي ظاهر.

٢. ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ الله باقٍ﴾:

أ. في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: ﴿إِنَّما عِنْدَ الله هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وقد وجهه بأن الذي عندكم أي في الحياة الدنيا التي هي حياة مادية قائمة على أساس التبدل والتحول منعوتة بنعت الحركة والتغير زائل نافد، وما عند الله سبحانه مما يعد المتقين منكم باق لا يزول ولا يفنى والباقي خير من النافد بصريح حكم العقل.

ب. واعلم أن قوله: ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ الله باقٍ﴾ على ما في لفظه من الإطلاق قاعدة كلية

غير منقوضة باستثناء، تحتها جزئيات كثيرة من المعارف الحقيقية.

٣. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. لما كان الوفاء بالعهد مستلزما للصبر على مر مخالفة هوى النفس في نقضه والاسترسال فيما تشتهيه، صرف الكلام عن ذكر أجر خصوص الموفين بالعهد إلى ذكر أجر مطلق الصابرين في جنب الله.

ب. فقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ وعد مؤكد على مطلق الصبر سواء كان صبرا على الطاعة أو عن المعصية أو عند المصيبة غير أنه يجب أن يكون صبرا في جنب الله ولوجه الله فإن السياق لا يساعد على غيره.

٤. ﴿بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. الباء للمقابلة كما في قولنا: بعت هذا بهذا، وليس المراد بأحسن ما كانوا يعملون الأحسن من أعمالهم في مقابل الحسن منها بأن يميز الله سبحانه بين أعمالهم الحسنة فيقسمها إلى حسن وأحسن ثم يجزيهم بأحسنها ويلغي الحسن كما ذكره بعضهم فإن المقام لا يؤيده، وآيات الجزاء تنفيه والرحمة الواسعة الإلهية تأباه.

ب. وليس المراد به الواجبات والمستحبات من أعمالهم قبال المباحات التي أتوا بها فإنها لا تخلو من حسن كما ذكره آخرون.

ج. فإن الكلام ظاهر في أن المراد بيان الأجر على الأعمال المأتي بها في ظرف الصبر مما يرتبط به ارتباطا، وواضح أن المباحات التي يأتي بها الصابر في الله لا ارتباط لها بصبره فلا وجه لاعتبارها بين الأعمال ثم اختيار الأحسن من بينها.

د. على أنه لا مطمع لعبد في أن يثيبه الله على ما أتى به من المباحات حتى يبين له أن الثواب في مقابل ما أتى به من الواجبات والمستحبات التي هي أحسن مما أتى به من المباحات فيكون ذكر الحسن مستدركا زائدا.

هـ. ومن هنا يظهر أن ليس المراد به النوافل بناء على عدم الإلزام فيها فتكون أحسن ما عمل فإن كون الواجب مشتملا من المصلحة الموجبة للحسن على أزيد من النفل معلوم من الخطابات التشريعية بحيث لا يرتاب فيه.

و. بل المراد بذلك أن العمل الذي يأتون به وله في نوعه ما هو حسن وما هو أحسن فالله سبحانه يجزيه من الأجر على ما أتى به ما هو أجر الفرد الأحسن من نوعه فالصلاة التي يصليها الصابر في الله يجزيه الله سبحانه لها أجر الفرد الأحسن من الصلاة وإن كانت ما صلاها غير أحسن وبالحقيقة يستدعي الصبر أن لا يناقش في العمل ولا يحاسب ما هو عليه من الخصوصيات المقتضية لخسته ورداءته كما يفيده قوله تعالى: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾

٥. ويستفاد من الآية أن الصبر في الله يوجب كمال العمل وفي قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير كما قيل، والذي أظنه أنه رجوع إلى السياق السابق في الآيات وكان سياق التكلم مع الغير، وإنما الالتفات في قوله تعالى قبل بضع آيات: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ والوجه فيه أن هذه الآية وما بعدها من الآيات المسرودة إلى هذه الغاية مشتملة على عدة من الأوامر والنواهي الإلهية، والأنسب بالأمر والنهي أن يستندا إلى أعظم مقامات مصدرهما وأقواها ليتأيدا بذلك، وهذه صناعة معمولة في المحاورات فيقال: إن الملك يأمر بكذا وإن مولاك يقول لك كذا، ولا يقال: فلان بن فلان يأمر أو يقول.

٦. فكان من الأنسب:

أ. أن يسند هذه التكاليف إلى مقام الجلالة، ويقال بالالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾، ولذلك استمر السياق على هذا النسق في التكاليف التالية أيضا فقيل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ﴾، ﴿إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ﴾، ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ﴾، ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ﴾، ﴿وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾

ب. ثم رجع إلى السياق السابق وهو التكلم مع الغير فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ وجرى على ذلك حتى إذا بلغ قوله: ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ وهو حكم التفت ثانيا فقال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ وأحسن ما يجلي المعنى الذي ذكرناه قوله تعالى بعده: ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ﴾ حيث جمع بين الأمرين فأسند تبديل آية مكان آية إلى ضمير التكلم والأعلمية إلى الله عز اسمه.

٥٩. جزاء الإحسان في الدنيا والآخرة:

المقطع [٥٩] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وفيه المسائل

التالية «الميزان: ١٢/ ٣٤١»:

١. ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾:

أ. وعد جميل للمؤمنين إن عملوا عملا صالحا وبشرى للإناث أن الله لا يفرق بينهن وبين الذكور في قبول إيمانهن ولا أثر عملهن الصالح الذي هو الإحياء بحياة طيبة والأجر بأحسن العمل على الرغم مما بنى عليه أكثر الوثنية وأهل الكتاب من اليهود والنصارى من حرمان المرأة من كل مزية دينية أو جلها وحط مرتبتها من مرتبة الرجل ووضعها وضعا لا يقبل الرفع البتة.

ب. فقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حكم كلي من قبيل ضرب القاعدة لمن عمل صالحا أي من كان وقد قيده بكونه مؤمنا وهو في معنى الاشتراط فإن العمل ممن ليس مؤمنا حابط لا يترتب عليه أثر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]، وقال: ﴿وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]

٢. ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾:

أ. الإحياء إلقاء الحياة في الشيء وإفاضتها عليه فالجملة بلفظها دالة على أن الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحا بحياة جديدة غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة، وليس المراد به تغيير صفة الحياة فيه وتبديل الخبيثة من الطيبة مع بقاء أصل الحياة على ما كانت عليه، ولو كان كذلك لقيل: فلنطيبن حياته.

ب. فالآية نظيرة قوله: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وتفيد ما يفيده من تكوين حياة ابتدائية جديدة.

ج. وليس من التسمية المجازية لأن الآيات المتعرضة لهذا الشأن ترتب عليه آثار الحياة الحقيقية كقوله تعالى: ﴿أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وكقوله في آية الأنعام المنقولة آنفا: ﴿وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فإن المراد بهذا النور العلم الذي يهتدي به الإنسان إلى الحق في الاعتقاد والعمل قطعا.

د. وكما أن له من العلم والإدراك ما ليس لغيره كذلك له من موهبة القدرة على إحياء الحق وإماطة الباطل ما ليس لغيره، وقد قال سبحانه: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿مَنْ آمَنَ

بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]

هـ. وهذا العلم والقدرة الحديثان يمهدان له أن يرى الأشياء على ما هي عليها فيقسمها قسمين حق باق وباطل فان، فيعرض بقلبه عن الباطل الفاني الذي هو الحياة الدنيا بزخارفها الغارة الفتانة ويعتز بعزة الله فلا يستذله الشيطان بوساوسه ولا النفس بأهوائها وهوساتها ولا الدنيا بزهرتها لما يشاهد من بطلان أمتعتها وفناء نعمتها.

و. ويتعلق قلبه بربه الحق الذي هو يحق كل حق بكلماته فلا يريد إلا وجهه ولا يحب إلا قربه ولا يخاف إلا سخطه وبعده، يرى لنفسه حياة طاهرة دائمة مخلدة لا يدبر أمرها إلا ربه الغفور الودود، ولا يواجهها في طول مسيرها إلا الحسن الجميل فقد أحسن كل شيء خلقه، ولا قبيح إلا ما قبحه الله من معصيته.

ز. فهذا الإنسان يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوة والعزة واللذة والسرور ما لا يقدر بقدر، وكيف لا؟ وهو مستغرق في حياة دائمة لا زوال لها ونعمة باقية لا نفاد لها ولا ألم فيها ولا كدورة تكدرها، وخير وسعادة لا شقاء معها، هذا ما يؤيده الاعتبار وينطق به آيات كثيرة من القرآن لا حاجة إلى إيرادها على كثرتها.

ح. فهذه آثار حيوية لا تترتب إلا على حياة حقيقية غير مجازية، وقد رتبها الله سبحانه على هذه الحياة التي يذكرها ويخصها بالذين آمنوا وعملوا الصالحات فهي حياة حقيقية جديدة يفيضها الله سبحانه عليهم.

ط. وليست هذه الحياة الجديدة المختصة بمنفصلة عن الحياة القديمة المشتركة وإن كانت غيرها فإنما الاختلاف بالمراتب لا بالعدد فلا يتعدد بها الإنسان، كما أن الروح القدسية التي يذكرها الله سبحانه للأنبياء لا توجب لهم إلا ارتفاع الدرجة دون تعدد الشخصية.

ي. هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة وهو حقيقة قرآنية وبه يظهر وجه توصيفها بالطيب في قوله: ﴿حَياةً طَيِّبَةً﴾ كأنها، كما اتضح، حياة خالصة لا خبث فيها يفسدها في نفسها أو في أثرها.

٣. وللمفسرين في الآية وجوه من التفسير:

أ. منها: أن الحياة الطيبة هي الحياة التي تكون في الجنة فلا موت فيها ولا فقر ولا سقم ولا أي

شقاء آخر.

ب. ومنها: أنها الحياة التي تكون في البرزخ ولعل التخصيص من حمل ذيل الآية على جنة الآخرة.

ج. ومنها: أنها الحياة الدنيوية المقارنة للقناعة والرضا بما قسم الله سبحانه فإنها أطيب الحياة.

د. ومنها: أنها الرزق الحلال إذ لا عقاب عليه.

هـ. ومنها: أنها رزق يوم بيوم.

و. ووجوه المناقشة فيها لا تكاد تخفى على الباحث المتدبر فلا نطيل بإيرادها.

٤. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقدم الكلام فيه في الآية السابقة، وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [غافر: ٤٠]

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى، وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ الآية، قال: قال عليه السلام: القنوع.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل له: إن أبا الخطاب يذكر عنك أنك قلت: إذا عرفت الحق فاعمل بما شئت، فقال: لعن الله أبا الخطاب والله ما قلت هكذا، ولكني قلت له: إذا عرفت الحق، فاعمل ما شئت من خير يقبل منك، إن الله عز وجل يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى، وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى، وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾

• أقول: وهو ما قدمناه في معنى الآية.

٦٠. تحصين النفس بالاستعاذة والتوكل:

المقطع [٦٠] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٤٣»:

١. ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ﴾:

أ. الاستعاذة طلب المعاذ، والمعنى: إذا قرأت القرآن فاطلب منه تعالى ما دمت تقرؤه أن يعيذك من الشيطان الرجيم أن يغويك، فالاستعاذة المأمور بها حال نفس القارئ ما دام يقرأ وقد أمر أن يوجدها لنفسه ما دام يقرأ، وأما قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أو ما يشابهه من اللفظ فهو سبب لإيجاد معنى الاستعاذة في النفس وليس بنفسها إلا بنوع من المجاز، وقد قال سبحانه: استعذ بالله، ولم يقل: قل أعوذ بالله.

ب. وبذلك يظهر أن قول بعضهم: (إن المراد بالقراءة إرادتها فهي مجاز مرسل من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب لا يخلو عن تساهل.

٢. ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في مقام التعليل للأمر الوارد في الآية السابقة أي استعذ بالله حين القراءة ليعيذك منه لأنه ليس له سلطان على من آمن بالله وتوكل عليه.

٣. ويظهر من الآية:

أ. أولا: أن الاستعاذة بالله توكل عليه فإنه سبحانه بدل الاستعاذة في التعليل من التوكل ونفى سلطانه عن المتوكلين.

ب. وثانيا: أن الإيمان والتوكل ملاك صدق العبودية كقوله تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، فنفى سلطانه عن عباده وقد بدل العباد في هذه الآية من الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، والاعتبار يساعد عليه فإن التوكل وهو إلقاء زمام التصرف في أمور نفسه إلى غيره والتسليم لما يؤثره له منها أخص آثار العبودية.

٤. ﴿إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ضمائر الإفراد الثلاثة للشيطان أي ينحصر سلطان الشيطان في الذين يتخذونه وليا لهم يدبر أمورهم كما يريد، وهم يطيعونه، وفي الذين يشركون به إذ يتخذونه وليا من دون الله وربما مطاعا غيره فإن الطاعة عبادة كما يشير إليه قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: ٦١]

٥. وبذلك يظهر:

أ. أولا: أن ذيل الآية يفسر صدرها، وأن تولي من لم يأذن الله في توليه شرك بالله وعبادة لغيره.

ب. وثانيا: أن لا واسطة بين التوكل على الله، وتولي الشيطان وعبادته، فمن لم يتوكل على الله فهو

من أولياء الشيطان.

ج. وربما قيل: إن ضمير الإفراد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ راجع إليه تعالى، وتفيد الآية حينئذ أن سلطانه على طائفتين: المشركين والذين يتولونه من الموحدين هذا: ولزوم اختلاف الضمائر يدفعه.

٦. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ فقال: يا محمد يسلط والله من المؤمن على بدنه، ولا يسلط على دينه قد سلط على أيوب فشوه خلقه، ولم يسلط على دينه، وقد يسلط من المؤمنين على أبدانهم، ولا يسلط على دينهم، قلت له: قوله عز وجل: ﴿إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ قال: الذين هم بالله مشركون، يسلط على أبدانهم وعلى أديانهم.

• أقول: ورواه العياشي عن أبي بصير عنه عليه السلام وإرجاع ضمير ﴿بِهِ﴾ إلى الله أحد المعنيين في الآية.

٦١. تنزيل القرآن بالحق تثبيتاً وبشرى:

المقطع [٦١] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٤٥»:

١. ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى النسخ وحكمته، وجواب عما اتهموه ﷺ به من الافتراء على الله، والظاهر من سياق الآيات أن القائلين هم المشركون وإن كانت اليهود هم المتصلبين في نفي النسخ ومن المحتمل أن تكون الكلمة مما تلقفه المشركون من اليهود فكثيرا ما كانوا يراجعونهم في أمر النبي ﷺ.

٢. ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾:

أ. قال في المفردات الإبدال والتبديل والتبدل والاستبدال جعل شيء مكان آخر، وهو أعم من العوض فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل قد يقال للتغيير مطلقا وإن لم يأت ببدله قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ إلى أن قال، وقال، تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ

ما سَمِعَهُ﴾ ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾ و﴿بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾)

ب. فالتبديل بمعنى التغيير يخالف التبديل بمعناه المعروف في أن مفعوله الأول هو المأخوذ والمطلوب بخلافه بالمعنى المعروف فمعنى قوله: ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾ معناه وضعنا الآية الثانية مكان الأولى بالتغيير فكانت الثانية المبدلة هي الباقية المطلوبة.

٣. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ﴾ كناية عن أن الحق لم يتعد مورده وأن الذين أنزله هو الحقيق بأن ينزل فإن الله أعلم به منهم، والجملة حالية.

٤. ﴿قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾:

أ. القول للمشركين يخاطبون النبي ﷺ ويتهمونه بأنه يفتري على الله الكذب فإن تبديل قول مكان قول، والثبات على رأي ثم العدول عنه مما يتنزه عنه ساحة رب العزة.

ب. وقد بالغوا في قولهم إذ لم يقولوا: افتريت في هذه التبديل والنسخ بل قالوا: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ فقصروه ﷺ في الافتراء، وأتوا بالجملة الاسمية وسموه مفتريا، وقد بنوا ذلك على أن ما جاء به النبي ﷺ من سنخ واحد وهو يسند الجميع إلى ربه ويقول: إنما أنا نذير فإذا كان مفتريا في واحد كان مفتريا في الجميع فليس إلا مفتريا.

٥. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر هؤلاء المشركين الذين يتهمونك بقولهم: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ لا يعلمون حقيقة هذا التبديل والحكمة المؤدية إليه على ما سينكشف في الجواب أن الأحكام الإلهية تابعة لمصالح العباد ومن المصالح ما يتغير بتغير الأوضاع والأحوال والأزمنة فمن الواجب أن يتغير الحكم بتغير مصلحته فينسخ الحكم الذي ارتفعت مصلحته الموجبة له بحكم آخر حدثت مصلحته، فأكثر هؤلاء غافلون عن هذا الأمر وأما الأقل منهم فهم واقفون على حقيقة الأمر ولو إجمالا غير أنهم مستكبرون على الحق معاندون له وإنما يلقون القول إلقاء من غير رعاية جانب الحق.

٦. ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾:

أ. قد تقدمت في أول السورة إشارة إلى معنى الروح، والقدس الطهارة والنزاهة والظاهر أن الإضافة للاختصاص أي روح طاهرة عن قذارات المادة نزيهة عن الخطإ والغلط والضلال، وهو المسمى في موضع آخر من كلامه تعالى بالروح الأمين، وفي موضع آخر بجبريل من الملائكة قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ

الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، وقال: ﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]

ب. فقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ أمر بالجواب والأسبق إلى الذهن أن يكون الضمير راجعا إلى القرآن من جهة كونه ناسخا أي الآية الناسخة، ويمكن أن يكون راجعا إلى مطلق القرآن، وفي التعبير بالتنزيل دون الإنزال إشارة إلى التدريج.

ج. وكان من طبع الكلام أن يقال: من ربي لكن عدل عنه إلى قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ للدلالة على كمال العناية والرحمة في حقه ﷺ كأنه لا يرضى بانقطاع خطابه فيغتنم الفرصة لتكليمه أينما أمكن، وليدل على أن المراد بالقول المأمور به إخبارهم بذلك لا مجرد التلفظ بهذه الألفاظ فافهم.

٧. ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

أ. التثبيت تحكيم الثبات وتأكيده بإلقاء الثبات بعد الثبات عليهم كأنهم بأصل إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر ثبتوا على الحق وبتجدد الحكم حسب تجدد المصلحة يؤتون ثباتا على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول بالمضي على أعمال لا تطابق مصلحة الوقت فإن من الواضح أن من أمر بسلوك سبيل لمصلحة غاية فأخذ بسلوكه عن إيمان بالأمر الهادي فقطع قطعة منه على حسب ما يأمره به رعاية لمصلحة الغاية بسرعة أو بطء أو في ليل أو نهار ثم تغير نحو المصلحة فلو لم يغير الأمر الهادي نحو السلوك واستمر على أمره السابق لضعف إيمان السالك وانسلب أركانه لكن لو أمر بنحو جديد من السلوك يوافق المصلحة ويضمن السعادة زاد إيمانه ثباتا على ثبات.

ب. ففي تنزيل القرآن بالنسخ وتجديد الحكم حسب تجدد المصلحة تثبيت للذين آمنوا وإعطاء لهم ثباتا على ثبات.

٨. ﴿وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وهم الذين يسلمون الحكم لله من غير اعتراض فالآية الناسخة بالنسبة إليهم إراءة طريق وبشارة بالسعادة والجنة.

٩. وتفريق الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين والهدى والبشرى بالمسلمين إنما هو لما بين الإيمان والإسلام من الفرق فالإيمان للقلب ونصيبه التثبت في العلم والإذعان والإسلام في ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصيبها الاهتداء إلى واجب العمل، والبشرى بأن الغاية هي الجنة والسعادة.

١٠. وقد مر بعض الكلام في النسخ في تفسير قوله تعالى: ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها﴾ [البقرة: ١٠٦] في الجزء الأول من الكتاب.

٦٢. وحي الله بلسان عربي مبين:

المقطع [٦٢] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٤٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ افتراء آخر منهم على النبي ﷺ وهو قولهم: ﴿إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وهو كما يلوح إليه سياق اعتراضهم وما ورد في الجواب عنه أنه كان هناك رجل أعجمي غير فصيح في منطقه عنده شيء من معارف الأديان وأحاديث النبوة ربما لاقاه النبي ﷺ فاتهموه بأنه يأخذ ما يدعيه وحيا منه والرجل هو الذي يعلمه وهو الذي حكاه الله تعالى من قولهم: ﴿إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وفي القول إيجاز، وتقديره: إنما يعلمه بشر وينسب ما تعلمه منه إلى الله افتراء عليه، وهو ظاهر.

٢. ومن المعلوم أن الجواب عنه بمجرد أن لسان الرجل أعجمي والقرآن عربي مبين لا يحسم مادة الشبهة من أصلها لجواز أن يلقي إليه المطالب بلسانه الأعجمي ثم يسبكها هو ﷺ ببلاغة منطقه في قالب العربية الفصيحة بل هذا هو الأسبق إلى الذهن من قولهم: ﴿إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ حيث عبروا عن ذلك بالتعليم دون التلقين والإملاء، والتعليم أقرب إلى المعاني منه إلى الألفاظ.

٣. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿مُبِينٌ﴾ ليس وحده جوابا عن شبهتهم بل ما يتلوه من الكلام إلى تمام آيتين من تمام الجواب.

٤. وملخص الجواب مأخوذ من جميع الآيات الثلاث:

أ. أن ما اتهمتموه به أن بشرا يعلمه ثم هو ينسبه إلى الله افتراء إن أردتم أنه يعلمه القرآن بلفظه بالتلقين عليه وأن القرآن كلامه لا كلام الله فجوابه أن هذا الرجل لسانه أعجمي وهذا القرآن عربي مبين.

ب. وإن أردتم أن الرجل يعلمه معاني القرآن، واللفظ لا محالة للنبي ﷺ، وهو ينسبه إلى الله افتراء عليه فالجواب عنه أن الذي يتضمنه القرآن معارف حقة لا يرتاب ذو لب فيها وتضطر العقول إلى قبولها قد هدى الله النبي إليها فهو مؤمن بآيات الله إذ لو لم يكن مؤمنا لم يهده الله والله لا يهدي من لا يؤمن بآياته

وإذ كان مؤمنا بآيات الله فهو لا يفتري على الله الكذب فإنه لا يفتري عليه إلا من لا يؤمن بآياته، فليس هذا القرآن بمفترى، ولا مأخوذا من بشر ومنسوبا إلى الله سبحانه كذبا.

ج. فقوله: ﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ جواب عن أول شقي الشبهة وهو أن يكون القرآن بلفظه مأخوذا من بشر على نحو التلقين، والمعنى: أن لسان الرجل الذي يلحدون أي يميلون إليه وينوونه بقولهم: ﴿إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أعجمي أي غير فصيح بين وهذا القرآن المتلو عليكم لسان عربي مبين وكيف يتصور صدور بيان عربي بليغ من رجل أعجمي اللسان.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس: في قوله: ﴿إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ قال: قالوا: إنما يعلم محمدا عبدة بن الحضرمي وهو صاحب الكتب، فقال الله: ﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾

ب. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن عزامة الصيرفي عمن أخبره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عز وجل خلق روح القدس، فلم يخلق خلقا أقرب إلى الله منها وليست بأكرم خلقه عليه، فإذا أراد أمرا ألقاه إليها فألقاه إلى النجوم، فجرت به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ، إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ وهو لسان أبي فكيهة مولى بني الحضرمي، كان ﴿أعجمي﴾ اللسان، وكان قد اتبع نبي الله وآمن به، وكان من أهل الكتاب فقالت قريش: هذا والله يعلم محمدا علمه بلسانه، يقول الله: ﴿وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾

• أقول: والروايات في هذا الرجل مختلفة ففي هذه الرواية أنه أبو فكيهة مولى بني الحضرمي، وفي الرواية السابقة أنه عبدة بن الحضرمي، وعن قتادة أنه عبدة بن الحضرمي وكان يسمى مقيص، وعن السدي أنه كان عبدا لبني الحضرمي نصرانيا، كان قد قرأ التوراة والإنجيل يقال له أبو بشر، وعن مجاهد أنه ابن الحضرمي كان أعجميا يتكلم بالرومية، وعن ابن عباس أيضا في رواية أنه كان قينا بمكة اسمه بلعام وكان عجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا: إنما يعلمه بلعام.

• والمتيقن من مضامينها أنه كان رجلا روميا مولى لبني الحضرمي يسكن مكة نصرانيا له خبرة بكتب أهل الكتاب رموه بأنه يعلم النبي ﷺ.

ج. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال: كانوا يقولون: إنما يعلمه سلمان الفارسي، فأنزل الله: ﴿لِسانُ الَّذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾

• أقول: وهو لا يلائم كون الآية مكية.

٦٣. عاقبة الكفر والافتراء على الله:

المقطع [٦٣] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَا يَهْدِيهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٤ـ١٠٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٤٨»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخر الآيتين جواب عن ثاني شقي الشبهة وهو أن يتعلم منه المعاني ثم ينسبها إلى الله افتراء، والمعنى: إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ويكفرون بها لا يهديهم الله إليه وإلى معارفه الحقة الظاهرة ولهم عذاب أليم، والنبي ﷺ مؤمن بآيات الله لأنه مهدي بهداية الله، وإنما يفتري الكذب وينسبه إلى الله الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون المستمرون على الكذب، وأما مثل النبي المؤمن بآيات الله فإنه لا يفتري الكذب ولا يكذب فالآيتان كنايتان عن أن النبي ﷺ مهدي بهداية الله مؤمن بآياته ومثله لا يفتري ولا يكذب.

٢. والمفسرون:

أ. قطعوا الآيتين عن الآية الأولى وجعلوا الآية الأولى هي الجواب الكامل عن الشبهة وقد عرفت أنها لا تفي بتمام الجواب.

ب. ثم حملوا قوله: ﴿وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ على التحدي بإعجاز القرآن في بلاغته، وأنت تعلم أن لا خبر في لفظ الآية عن أن القرآن معجز في بلاغته ولا أثر عن التحدي، ونهاية ما فيه أنه عربي مبين لا وجه لأن يفصح عنه ويلفظه أعجمي.

ج. ثم حملوا الآيتين التاليتين على تهديد أولئك الكفرة بآيات الله الرامين لرسوله ﷺ بالافتراء، ووعيدهم بالعذاب الأليم، وقلب الافتراء والكذب إليهم بأنهم أولى بالافتراء والكذب بما أنهم لا يؤمنون بآيات الله فإن الله لم يهدهم.

د. ثم تكلموا بالبناء عليه في مفردات الآيتين بما يزيد في الابتعاد عن حق المعنى.

• وقد عرفت أن ذلك يؤدي إلى عدم كفاية الجواب في حسم الإشكال من أصله.

٦٤. ترخيص التقية وحرمة ارتداد القلب:

المقطع [٦٤] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٥٣»:

١. ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾:

أ. الاطمئنان السكون والاستقرار، والشرح البسط، قال في المفردات: (أصل الشرح بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم وشرحته، ومنه شرح الصدر أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه، قال تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ﴾ وشرح المشكل من الكلام بسطه وإظهار ما يخفى من معانيه)

ب. ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ﴾ شرط جوابه قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ﴾ وعطف عليه قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ وضمير الجمع في الجزاء عائد إلى اسم الشرط ﴿مَنْ﴾ لكونه بحسب المعنى كليا ذا أفراد.

٢. ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾ استثناء من عموم الشرط والمراد بالإكراه الإجبار على كلمة الكفر والتظاهر به فإن القلب لا يقبل الإكراه والمراد أستثني من أكره على الكفر بعد الإيمان فكفر في الظاهر وقلبه مطمئن بالإيمان.

٣. ﴿وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾:

أ. أي بسط صدره للكفر فقبله قبول رضى ووعاه، والجملة استدراك من الاستثناء فيعود إلى معنى المستثنى منه فإن المعنى ما أريد بقولي: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ﴾ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن أريد به من شرح بالكفر صدرا، وفي مجموع الاستثناء والاستدراك بيان كامل للشرط، وهذه هي النكتة لاعتراض الاستثناء بين الشرط والجزاء وعدم تأخيره إلى أن تتم الشرطية.

ب. وقيل: قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللهِ﴾ في الآية السابقة، وقوله: ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ جملة معترضة، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ استثناء من ذلك وقوله: ﴿وَلكِنْ مَنْ

شَرَحَ﴾ مبتدأ خبره أو القائم مقام خبره قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ﴾

ج. والمعنى، على هذا، إنما يفتري الكذب الذين كفروا من بعد إيمانهم إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان وعند ذلك تم الكلام ثم بدأ فقال: ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله، والذوق السليم يكفي مئونة هذا الوجه على ما به من السخافة.

٦٥. استحباب الدنيا سبب الخسران والطبع على القلوب:

المقطع [٦٥] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٥٤»:

١. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾:

أ. بيان لسبب حلول غضب الله بهم وثبوت العذاب العظيم عليهم وهو أنهم اختاروا الحياة الدنيا وهي الحياة المادية التي لا غاية لها إلا التمتع الحيواني والاشتغال بمشتهيات النفس على الآخرة التي هي حياة دائمة مؤبدة في جوار رب العالمين وهي غاية الحياة الإنسانية.

ب. وبعبارة أخرى هؤلاء لم يريدوا إلا الدنيا وانقطعوا عن الآخرة وكفروا بها والله لا يهدي القوم الكافرين وإذ لم يهدهم الله ضلوا عن طريق السعادة والجنة والرضوان فوقعوا في غضب من الله وعذاب عظيم.

٢. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾:

أ. إشارة إلى أن اختيار الحياة الدنيا على الآخرة والحرمان من هداية الله سبحانه هو الوصف الذي يوصف به الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم والذين يسمون غافلين.

ب. فإنهم باختيارهم الحياة الدنيا غاية لأنفسهم وحرمانهم من الاهتداء إلى الأخرى انقطعوا عن الآخرة وتعلقوا بالدنيا وجعلوها غاية لأنفسهم فوقف حسهم وعقلهم فيها دون أن تعدياها إلى ما وراءها وهو الآخرة فليسوا يبصرون ما يعتبرون به ولا يسمعون عظة يتعظون بها ولا يعقلون حجة يهتدون بها إلى الآخرة.

ج. فهم مطبوع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلا تنال قلوبهم ولا سمعهم وأبصارهم ما يدلهم على الآخرة، وهم غافلون عنها لا يتنبهون لشيء من أمرها.

٣. فظهر أن ما في الآية السابقة من الوصف بمنزلة المعرف لما في هذه الآية من الطبع ومن الغفلة فعدم هداية الله إياهم إثر ما تعلقوا بالدنيا هو معنى الطبع والغفلة، والطبع صنع إلهي منسوب إليه تعالى فعله بهم مجازاة والغفلة صفة منسوبة إليهم أنفسهم.

٤. ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ لأنهم ضيعوا رأس مالهم في الدنيا فبقوا لا زاد لهم يعيشون به في أخراهم، وقد وقع في نظير المقام من سورة هود: ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]، ولعل وجه التشديد هناك أنه تعالى أضاف إلى صفاتهم هناك أنهم صدوا عن سبيل الله فراجع.

٦٦. مغفرة الله للمهاجرين المجاهدين الصابرين:

المقطع [٦٦] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٥٥»:

١. ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. الفتنة في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل في مطلق البلاء والتعذيب، وقد كانت قريش ومشركو مكة يفتنون المؤمنين ليردوهم عن دينهم ويعذبونهم بأنواع العذاب حتى ربما كانوا يموتون تحت العذاب كما فتنوا عمارا وأباه وأمه فقتل أبواه وارتد عمار ظاهرا فتفصى منهم بالتقية وفي ذلك نزلت الآيات السابقة كما سيأتي إن شاء الله في البحث الروائي.

ب. ومن هنا يظهر أن للآية اتصالا بما قبلها من قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾ وهي في معنى قولنا: وبعد ذلك كله إن الله غفور رحيم للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا، فقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا﴾ وعد جميل للمهاجرين من بعد ما فتنوا بالمغفرة والرحمة يوم القيامة قبال ما أوعد غيرهم بالخسران التام يومئذ وقد قيد ذلك بالجهاد والصبر بعد المهاجرة.

٢. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بمنزلة تلخيص صدر الكلام، لطوله، ليلحق به ذيله،

ويفيد فائدة التأكيد كقولنا: زيد في الدار زيد في الدار كذا وكذا، ويفيد أن لما ذكر من قيود الكلام دخلا في الحكم فالله سبحانه لا يرضى عنهم إلا أن يهاجروا ولا عن هجرتهم إلا أن يجاهدوا بعدها ويصبروا.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض، فالحقوا بي، فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمار، وجارية من قريش كانت أسلمت فأصبحوا بمكة، فأخذهم المشركون وأبو جهل فعرضوا على بلال، أن يكفر فأبى فجعلوا يضعون درعا من حديد في الشمس، ثم يلبسونها إياه فإذا ألبسوها إياه قال، أحد أحد، وأما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد، ثم مدها فأدخل الحربة في قلبها حتى قتلها، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله ﷺ، فأخبروه بالذي [كان] من أمرهم، واشتد على عمار الذي كان تكلم به فقال له رسول الله ﷺ: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشرحا بالذي قلت أم لا؟ قال: لا قال، وأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

• أقول: والجارية المذكورة في الرواية هي سمية أم عمار، وكان معهم ياسر أبو عمار، وقيل: وكان أبو عمار أول شهيدين في الإسلام، وقد استفاضت الروايات على قتلها بالفتنة وإظهار عمار الكفر تقية ونزول الآية فيه.

ب. أخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه ـ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال: ما وراءك شيء؟ قال: شر، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال: إن عادوا فعد، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

ج. وفي المجمع: (عن ابن عباس وقتادة: أن الآية نزلت في جماعة أكرهوا، وهم عمار وياسر أبوه وأمه سمية وصهيب وبلال وخباب عذبوا، وقتل أبو عمار وأمه وأعطاهم عمار بلسانه، ما أرادوا منه ثم

أخبر سبحانه رسول الله ﷺ فقال قوم: كفر عمار فقال ﷺ كلا إن عمارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، وجاء عمار إلى رسول الله ﷺ: وهو يبكي، فقال ﷺ ما وراءك؟ فقال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: إن عادوا لك فعد لهم بما قلت فنزلت الآية.

د. أخرج ابن سعد عن عمر بن الحكم قال: كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يدري ما يقول، وكان صهيب يعذب حتى لا يدري ما يقول، وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول، وبلال وعامر وابن فهيرة وقوم من المسلمين، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا﴾

• أقول: وسمي منهم في بعض الروايات عباس بن أبي ربيعة وفي بعضها الآخر هو والوليد بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد بن المغيرة وأبو جندل بن سهيل بن عمرو وأجمع رواية في ذلك ما عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فيمن كان يفتن من أصحاب النبي ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا﴾

هـ. وفي الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: فأما ما فرض على القلب من الإيمان، الإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم، بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلها واحدا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله من نبي أو كتاب: فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة، وهو عمله وهو قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ، وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾

و. وفيه، بإسناده عن مسعدة بن صدقة قال: قيل لأبي عبد الله عليه السلام: إن الناس يروون، أن عليا عليه السلام قال على منبر الكوفة: يا أيها الناس إنكم ستدعون إلى سبي فسبوني، ثم تدعون إلى البراءة مني فلا تبرءوا مني، قال: ما أكثر ما يكذبون الناس على علي عليه السلام، ثم قال: إنما قال: إنكم ستدعون إلى سبي فسبوني، ثم تدعون إلى البراءة وإني لعلى دين محمد، ولم يقل: ولا تبرءوا مني، فقال له السائل: أرأيت إن اختار القتل دون البراءة؟ قال: والله ما ذاك عليه وما له، إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر حيث أكرهه أهل مكة، وقلبه مطمئن بالإيمان فقال له النبي ﷺ عندها: يا عمار إن عادوا فعد فقد أنزل الله عذرك ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾ وأمرك أن تعود إن عادوا:

• أقول: وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره، عن معمر بن يحيى بن سالم عن أبي جعفر عليه

السلام، وقوله عليه السلام: (وأمرك أن تعود إن عادوا) يستفاد ذلك من الآية حيث لم يرد الاستثناء فيها من الشخص بل وردت على العنوان وهو إكراه من اطمأن قلبه بالإيمان، وأما كونه أمرا منه تعالى كما أمر به النبي ﷺ فلعل الوجه أن صريح الاستثناء هو الجواز ومع جواز ذلك لا مساغ للإباء الذي هو عرض النفس للقتل وإلقاؤها في التهلكة فيجامع هذا الجواز الوجوب دون الإباحة.

ز. وفي تفسير العياشي، عن عمرو بن مروان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: رفع عن أمتي أربعة خصال: ما أخطئوا وما نسوا وما أكرهوا عليه، وما لم يطيقوا، وذلك في كتاب الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾

٦٧. يوم القيامة ومجادلة كل نفس عن نفسها:

المقطع [٦٧] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٥٦»:

١. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾:

أ. إتيان النفس يوم القيامة كناية عن حضورها عند الملك الديان، كما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] والضمير في قوله: ﴿عَنْ نَفْسِها﴾ للنفس ولا ضير في إضافة النفس إلى ضمير النفس فإن النفس ربما يراد بها الشخص الإنساني كقوله: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المائدة: ٢٢]، وربما يراد بها التأكيد ويتحد معناها بما تقدمها من المؤكد سواء كان إنسانا أو غيره، كما يقال: الإنسان نفسه والفرس نفسه والحجر نفسه والسواد نفسه، ويقال: نفس الإنسان ونفس الفرس ونفس الحجر ونفس السواد، وقوله: ﴿عَنْ نَفْسِها﴾ المراد فيه بالمضاف المعنى الثاني وبالمضاف إليه المعنى الأول، وقد دفع التعبير بالضمير بشاعة تكرار اللفظ بالإضافة، وفي هذا المقدار كفاية عن الأبحاث الطويلة التي أوردها المفسرون.

ب. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها﴾ الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة: ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومجادلة النفس عن نفسها دفاعها عن نفسها وقد نسيت كل شيء وراء نفسها على خلاف ما كانت عليه في الدنيا من التعلق بكل شيء دون نفسها بنسيانها وليس ذلك إلا لظهور حقيقة الأمر عليها وهي أن الإنسان لا سبيل له إلى ما وراء نفسه، وليس له في الحقيقة إلا أن يشتغل بنفسه، فاليوم تأتي النفس وتحضر للحساب وهي تجادل وتصر على الدفاع عن نفسها بما تقدر عليه من الأعذار.

٢. ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ التوفية إعطاء الحق تاما من غير تنقيص، وقد علق التوفية على نفس العمل إذ قيل: ﴿ما عَمِلَتْ﴾ فأفيد أن الذي أعطيته نفس العمل من غير أن يتصرف فيه بتغيير أو تعويض، وفيه كمال العدل حيث لم يضف إلى ما استحقته شيء ولا نقص منه ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾

٣. ففي الآية إشارة:

أ. أولا: إلى أن نفسا لا تدافع يوم القيامة ولا تجادل عن غيرها بل إنما تشتغل بنفسها لا فراغ لها لغيرها كما قال: ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً﴾ [الدخان: ٤١]، وقال: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨]، وقال: ﴿يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]

ب. وثانيا: إلى أن الجدال لا ينفعها في صرف ما استحقتها من الجزاء شيئا فإن الذي تجزاه هو عين ما عملت ولا سبيل إلى تغيير هذه النسبة وليس من الظلم في شيء.

٦٨. عقاب كفر النعمة بالجوع والخوف:

المقطع [٦٨] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٦١»:

١. ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً﴾:

أ. الرغد من العيش هو الواسع الطيب.

ب. هذا مثل ضربه الله تعالى فوصف فيه قرية آتاها ما تحتاج إليه من نعم الحياة، وأتم ذلك كله بنبي بعثه إليهم يدعوهم إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم فكفروا بأنعمه وكذبوا رسوله فبدل الله نعمته نقمة وعذبهم بها ظلموا بتكذيب رسوله، وفي المثل تحذير عن كفران نعمة الله بعد إذ بذلت والكفر بآياته بعد إذ أنزل.

ج. وفيه توطئة وتمهيد لما سيذكره من محللات الأكل ومحرماته وينهى عن تشريع الحلال والحرام بغير إذن الله كل ذلك بالاستفادة من سياق الآيات فإن كل سابقة منها تسوق النظر إلى اللاحقة.

د. وقيل: إن هذه القرية هي مكة عذبهم الله بالجوع سبع سنين لما كفروا بأنعم الله وقد وسعها عليهم وكذبوا رسوله وقد أرسله إليهم فابتلوا بالقحط وكان يغار عليهم قوافلهم بسخط من الله سبحانه لما دعا عليهم النبي ﷺ، ذكره في المجمع: (ونسبه إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة.

• وفيه أن لا إشكال في أنه في نفسه يقبل الانطباق على ما ذكر لكن سياق الآيات إنما يلائم كونه مثلا عاما مذكورا توطئة وتمهيدا لما بيناه.

• فقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً﴾ وصف القرية بثلاثة أوصاف متعاقبة غير أن الأوسط منها وهي الاطمئنان كالرابط بين الطرفين فإن القرية إذا أمنت المخاطرات كمهاجمة الأشرار وشن الغارات وقتل النفوس وسبي الذراري ونهب الأموال وكذا أمنت الحوادث الطبيعية كالزلازل وغيرها اطمأنت وسكنت فلم يضطر أهلها إلى الجلاء والتفرق.

• ومن كمال اطمئنانها أن يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ولا يلجأ أهلها إلى الاغتراب وقطع الفيافي وركوب البحار وتحمل المشاق البالغة في طلب الرزق وجلبه إليها.

• فاتصاف القرية بصفاتها الثلاث المذكورة: الأمن والاطمئنان وإتيان رزقها إليها من كل مكان يتم ويكمل لها جميع النعم المادية الصورية، وسيضيف سبحانه إليها النعم المعنوية في الآية التالية: ﴿وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ فهي قرية أتم الله نعمه عليها وأكملها.

٢. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾:

أ. التعبير بأنعم الله وهو جمع قلة للإشارة بها إلى الأصناف المذكورة وهي ثلاثة: الأمن والاطمئنان وإتيان الرزق، والإذاقة استعارة للإيصال اليسير فإذاقة الجوع والخوف مشعر بأن الذي يوصلهما قادر على تضعيف ذلك وتكثيره بما لا يقدر بقدر كيف لا؟ وهو الله الذي له القدرة كلها.

ب. ثم إضافة اللباس إلى الجوع والخوف وفيها دلالة على الشمول والإحاطة كما يشمل اللباس البدن، ويحيط به، تشعر بأن هذا المقدار اليسير من الجوع والخوف الذي أذاقهم شملهم كما يشمل اللباس بدن الإنسان وهو سبحانه قادر على أن يزيد على ذلك فهو المتناهي في قهره وغلبته وهم المتناهون في ذلتهم وهوانهم.

٣. ثم ختم الآية بقوله: ﴿بِما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾ للدلالة على أن سنة المجازاة في الشكر والكفر قائمة

على ساق.

٤. والمعنى: ضرب الله مثلا مثل قرية كان أهلها آمنين من كل شر وسوء يهددهم في نفوسهم وأعراضهم وأموالهم ساكنين غير مضطرين يأتيهم رزقهم طيبا واسعا من كل مكان من غير أن يضطروا إلى السفر والاغتراب فكفر أهلها بهذه النعم الإلهية ولم يشكروه سبحانه فأنالهم الله شيئا يسيرا من نقمته، بسلب هذه النعم، وهو الجوع والخوف اللذان عماهم وشملاهم قبال ما استمروا عليه بكفران الأنعام جزاء لكفرانهم.

٥. ﴿وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ وهذا هو النعمة المعنوية التي أضافها إلى نعمة المادية المذكورة، وكان فيها صلاح معاشهم ومعادهم وتحذير لهم من الكفران بأنعم الله وشرح ما فيه من الشؤم والشقاء لكنهم كذبوا رسولهم الذي هو منهم يعرفونه ويدرون أنه إنما يدعوهم لأمر إلهي ويهديهم إلى سبيل الرشاد وسعادة الجد فظلموا ذلك فأخذهم العذاب بظلمهم، وبهذا التقرير يظهر ما في القيود المأخوذة في الآية من النكات.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ الآية، قال: قال عليه السلام نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له الثرثار، وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير، وكانوا يستنجون بالعجين ويقولون: هو ألين لنا، فكفروا بأنعم الله واستخفوا فحبس الله عنهم الثرثار، فجدبوا حتى أحوجهم الله إلى أكل ما يستنجون به، حتى كانوا يتقاسمون عليه.

• أقول: ورواه في الكافي، عنه بإسناده عن عمرو بن شمر عن أبي عبد الله عليه السلام مفصلا، والعياشي عن حفص وزيد الشحام عنه.

٦٩. أكل الحلال الطيب وشكر النعمة:

المقطع [٦٩] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٤-١١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٦٣»:

١. ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ إلى آخر الآية تفريع على ما تحصل من المثل نتيجة، والتقدير

إذا كان الحال هذا الحال وكان في كفران هذا الرزق الرغد عذاب وفي تكذيب الدعوة عذاب فكلوا مما رزقكم الله حال كونه حلالا طيبا أي لستم بممنوعين منه وأنتم تستطيبونه فكلوا منه واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون.

٢. وقد ظهر بذلك:

أ. أولا: أن الآية مسوقة لتحليل طيبات الرزق مطلقا فلا سبيل إلى ما ذكره بعضهم أن المراد فكلوا مما رزقكم الله من الغنائم رزقا حلالا طيبا بناء على أن الآية نزلت بعد وقعة بدر والمثل السابق مثل مضروب لأهل مكة، والمراد بالرسول الذي كذبوه هو النبي ﷺ، وبالعذاب الذي أخذهم هو القتل الذريع لصناديدهم يوم بدر، وهذا كله مما لا دليل عليه من طريق لفظ الآيات، على أنه قد تأيد سابقا أنها مكية.

ب. وثانيا: أن المراد بالحل والطيب كون الرزق بحيث لم يحرم منه الإنسان طبعا وطبعه يستطيبه أي الحل والطيب بحسب الطبع وذلك ملاك الحلية الشرعية التي تتبع الحلية بحسب الفطرة فإن الدين فطري لأن الله سبحانه فطر الإنسان مجهزا بجهاز التغذية وجعل أشياء أرضية من الحيوان والنبات ملائمة لقوامه يميل إليها طبعه من غير نفرة فله أن يأكل منها وهو الحل.

ج. وثالثا: أن قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ أمر مقدمي بالنسبة إلى قوله: ﴿وَاشْكُرُوا﴾ نعمة الله) وذكر النعمة تلويح إلى سبب الحكم فإن كون الشيء نعمة هو السبب في وجوب الشكر عليه.

د. ورابعا: أن قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ خطاب للمؤمنين فإنهم هم الذين يعبدون الله ولا يعبدون غيره، والقصر في الجملة الذي يدل عليه تقديم المفعول على الفعل قصر القلب، وغيرهم وهم المشركون إنما يعبدون الأصنام والآلهة من دون الله:

- وجعل الخطاب للمشركين ودعوى أن المراد بالعبادة في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ الإطاعة أو أن المعنى إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادتكم لآلهتكم عبادته تعالى، لا يرجع إلى طائل فإن جعل العبادة بمعنى الإطاعة يحتاج إلى قرينة ولا قرينة والمشركون لا يعبدون الله سبحانه ولو بإشراكه في العبادة ولا يقصدون بعبادة آلهتهم عبادته تعالى بل ينزهونه تعالى عن عبادتهم لكونه أجل من أن يناله إدراك أو ينتهي إليه توجه.

- وكون الخطاب في الآية للمؤمنين يوجب كون المثل مضروبا لأجلهم ورجوع سائر الخطابات

التشريعية فيما قبل الآية وما بعدها متوجهة إليهم، وربما قيل: إن الخطاب لعامة الناس أعم من المؤمن والكافر وتطبيقه على الآيات لا يخلو من تكلف وإن كان دون تخصيص الخطاب بالمشركين إشكالا.

٣. ﴿إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. تقدم الكلام في معنى الآية في تفسير سورة البقرة [الآية: ١٧٣] وسورة المائدة [الآية: ٣] وسورة الأنعام [الآية: ١٤٥]

ب. والآية بمعناها على اختلاف ما في لفظها واقعة في أربعة مواضع من القرآن: في سورتي الأنعام والنحل وهما مكيتان من أوائل ما نزلت بمكة وأواخرها، وفي سورتي البقرة والمائدة وهما من أوائل ما نزلت بالمدينة وأواخرها، وهي تدل على حصر محرمات الأكل في الأربع المذكورة: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به كما نبه عليه بعضهم.

ج. لكن بالرجوع إلى السنة يظهر أن هذه هي المحرمات الأصلية التي عني بها في الكتاب وما سوى هذه الأربع من المحرمات مما حرمه النبي ﷺ بأمر من ربه وقد قال تعالى: ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقد تقدم بعض الروايات الدالة على هذا المعنى.

٧٠. تحريم افتراء القول على الله في الحلال والحرام:

المقطع [٧٠] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٦٥»:

١. ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾:

أ. ﴿لِما﴾ في قوله: ﴿لِما تَصِفُ﴾ مصدرية والكذب مفعول ﴿تَصِفُ﴾ أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بسبب وصف ألسنتكم لغاية افتراء الكذب على الله.

ب. وكون الخطاب في الآيات للمؤمنين، على ما يؤيده سياقها كما مر، أو لعامة الناس يؤيد أن يكون المراد بقوله: ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ﴾ النهي عن الابتداع بإدخال حلال أو حرام في الأحكام الجارية في المجتمع المعمولة بينهم من دون أن ينزل به الوحي فإن ذلك

من إدخال ما ليس من الدين في الدين وافتراء على الله وإن لم ينسبه واضعه إليه تعالى.

ج. وذلك أن الدين في عرف القرآن هو سنة الحياة وقد تكرر منه سبحانه قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ أو ما يقرب منه، فالدين لله ومن زاد فيه شيئا فقد نسبه إليه تعالى افتراء عليه وإن سكت عن الإسناد أو نفى ذلك بلسانه.

د. وذكر الجمهور أن المراد بالآية النهي عما كان المشركون يحلونه كالميتة والدم وما أهل لغير الله به أو يحرمونه كالبحيرة والسائبة وغيرهما والسياق، كما مر، لا يؤيده.

٢. ثم قال سبحانه في مقام تعليل النهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ ثم بين حرمانهم من الفلاح بقوله: ﴿مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾

٧١. المحرمات على اليهود نتيجة ظلمهم:

المقطع [٧١] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٦٦»:

١. ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. المراد بقوله: ﴿ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ كما قيل، ما قصه تعالى على نبيه ﷺ في سورة الأنعام، وقد نزلت قبل سورة النحل بلا إشكال، بقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ إلى آخر الآية [الأنعام: ١٤٦]

ب. والآية في مقام دفع الدخل وفيها عطف على مسألة النسخ المذكورة سابقا كأن قائلا يقول: فإذا كانت محرمات الأكل منحصرة في الأربع المذكورة: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وكان ما وراءها حلالا فما هذه الأشياء المحرمة على بني إسرائيل من قبل؟ هل هذا إلا ظلم بهم.

ج. فأجاب عنه بأنا حرمنا عليهم ذلك وما ظلمناهم في تحريمه ولكنهم كانوا يظلمون أنفسهم فنحرم عليهم بعض الأشياء أي إنه كان محللا لهم مأذونا فيه لكنهم ظلموا أنفسهم وعصوا ربهم فجزيناهم بتحريمه عقوبة كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية، ولو أنهم بعد ذلك كله رجعوا إلى ربهم وتابوا عن معاصيهم تاب الله عليهم ورفع الحظر عنهم

وأذن لهم فيما منعهم عنه إنه لغفور رحيم.

د. فقد ظهر أن الآية متصلة بما قبلها من حديث التحليل والتحريم، وأنها كالجواب عن سؤال مقدر، وأن ما بعدها من قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ الآية، متصل بها متمم لمضمونها.

٧٢. باب التوبة مفتوح للذين يعملون السوء بجهالة:

المقطع [٧٢] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٦٦»:

١. ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. الجهالة والجهل واحد وهو في الأصل ما يقابل العلم لكن الجهالة كثيرا ما تستعمل بمعنى عدم الانكشاف التام للواقع وإن لم يخل المحل عن علم ما مصحح للتكليف كحال من يقترف المحرمات وهو يعلم بحرمتها لكن الأهواء النفسانية تغلبه وتحمله على المعصية ولا تدعه يتفكر في حقيقة هذه المخالفة والمعصية فله علم بما ارتكب ولذلك يؤاخذ ويعاقب على ما فعل وهو مع ذلك جاهل بحقيقة الأمر ولو تبصر تمام التبصر لم يرتكب.

ب. والمراد بالجهالة في الآية هذا المعنى إذ لو كان المراد هو الأول وكان ما ذكر من عمل السوء مجهولا من حيث حكمه أو من حيث موضوعه لم يكن العمل معصية حتى يحتاج إلى التوبة فالمغفرة والرحمة.

٢. والآية، كما تقدمت الإشارة إليه، متصلة بما قبلها متممة لمضمونها، ومعنى الآيتين أنا لم نظلم بني إسرائيل في تحريم الطيبات التي حرمناها، لهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم حيث ارتكبوا المعاصي وأصروا عليها فأدى ذلك إلى تحريم الطيبات عليهم، وبعد ذلك كله باب المغفرة والرحمة مفتوح وإن ربك للذين عملوا السوء أي عملوا عملا سوءا وهو السيئة بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا حتى يتبين التوبة وتستقر إن ربك من بعدها أي من بعد التوبة لغفور رحيم.

٣. وفي تقييد التوبة أولا بالإصلاح ثم إرجاع الضمير أخيرا إليها وحدها في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ

بَعْدِها لَغَفُورٌ﴾ دلالة على أن شمول المغفرة والرحمة من تبعات التوبة، وأما الإصلاح فإنما هو لتبيين التوبة وظهور كونها توبة حقيقية ورجوعا جديا لا مجرد صورة خالية عن المعنى.

٤. وقوله في ذيل الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها﴾ تلخيص لتفصيل قوله في صدرها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ﴾ إلخ، وفائدته حفظ فهم السامع عن التشوش والضلال وإبراز العناية ببعدية المغفرة والرحمة بالنسبة إلى التوبة نظير ما مر من قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٧٣. إبراهيم نموذج الأمة القانتة الحنيفية:

المقطع [٧٣] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٦٧»:

١. ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

أ. الآية، وما يتلوها على اتصالها بما تقدم من حصر محرمات الأكل في الأربع وتحليل ما وراءها، وهذه الآية إلى تمام أربع آيات بمنزلة التفصيل لما تقدمها كأنه قيل: هذا حال ملة موسى التي حرمنا فيها على بني إسرائيل بعض ما أحل لهم من الطيبات، وأما هذه الملة التي أنزلناها إليك فإنما هي الملة التي تحقق بها إبراهيم فاجتباه الله وهداه إلى صراط مستقيم وأصلح بها دنياه وآخرته، وهي ملة معتدلة جارية على الفطرة تحلل الطيبات وتحرم الخبائث يجلب العمل بها من الخير ما جلبه لإبراهيم عليه السلام منه.

ب. فقوله: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً﴾ قال في المفردات: (وقوله: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ﴾ أي قائما مقام جماعة في عبادة الله نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة)، وهو قريب مما نقل عن ابن عباس، وقيل: معناه الإمام المقتدى به، وقيل: إنه كان أمة منحصرة في واحد مدة من الزمان لم يكن على الأرض موحد يوحد الله غيره.

٢. ﴿قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ القنوت: الإطاعة والعبادة أو دوامها، والحنف: الميل من الطرفين إلى حاق الوسط وهو الاعتدال.

٣. ﴿شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الاجتباء من الجباية وهو الجمع واجتباء الله الإنسان هو إخلاصه لنفسه وجمعه من التفرق في المذاهب المختلفة، وفي تعقيب قوله: ﴿شاكِراً لِأَنْعُمِهِ﴾ بقوله: ﴿اجْتَباهُ﴾، مفصولا إشعار بالعلية وذلك يؤيد ما تقدم في سورة الأعراف في تفسير قوله: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، أن حقيقة الشكر هو الإخلاص في العبودية.

٤. ﴿وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الحسنة هي المعيشة الحسنة فقد كان عليه السلام ذا مال كثير ومروة عظيمة.

٥. وقد بسطنا الكلام في معنى الاجتباء في تفسير سورة يوسف عند [الآية: ٦]، وفي معنى الهداية والصراط المستقيم في تفسير الفاتحة عند قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الآية: ٦]، وفي معنى قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فراجع.

٦. وفي توصيفه تعالى إبراهيم عليه السلام بما وصفه من الصفات إشارة إلى أنها من مواهب هذا الدين الحنيف، فإن انتحل به الإنسان ساقه إلى ما ساق إليه إبراهيم عليه السلام.

٧. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تكرار اتصافه بالحنف ونفي الشرك لمزيد العناية به.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ما من عبد يشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم، والأمة الرجل فما فوقه إن الله يقول: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

• أقول: وقد تقدم في تفسير آيات الشهادة ما له تعلق بالحديث.

ب. وفي تفسير العياشي، عن سماعة بن مهران قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لقد كانت الدنيا وما كان فيها إلا واحد، يعبد الله ولو كان معه غيره لأضافه إليه، حيث يقول: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فصبر بذلك ما شاء الله، ثم إن الله تبارك وتعالى آنسه بإسماعيل وإسحاق، فصاروا ثلاثة.

• أقول: ورواه في الكافي بإسناده عن سماعة عن عبد صالح.

٧٤. السبت فتنة والله يحكم يوم القيامة:

المقطع [٧٤] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٦٨»:

١. ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾:

أ. قال في المفردات: (أصل السبت القطع ومنه سبت السير قطعه وسبت شعره حلقه، وأنفه اصطلمه، وقيل: سمي يوم السبت لأن الله تعالى ابتدأ بخلق السماوات والأرض يوم الأحد فخلقها في ستة أيام كما ذكره فقطع عمله يوم السبت فسمي بذلك، وسبت فلان صار في السبت، وقوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ قيل: يوم قطعهم للعمل ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ﴾ قيل: معناه لا يقطعون العمل وقيل: يوم لا يكونون في السبت وكلاهما إشارة إلى حالة واحدة، وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي ترك العمل فيه ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً﴾ أي قطعا للعمل وذلك إشارة إلى ما قال في صفة الليل: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾)

ب. فالمراد بالسبت على ما ذكره نفس اليوم لكن معنى جعله جعل ترك العمل فيه وتشريعه، ويمكن أن يكون المراد به المعنى المصدري دون اليوم المجعول فيه ذلك كما هو ظاهر قوله: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]

ج. وكيف كان فقد كان من طبع الكلام أن يقال: إنما جعل السبت للذين حتى، يفيد نوعا من الاختصاص والملك وأن الله شرع لهم في كل أسبوع أن يقطعوا العمل يوما يفرغون فيه لعبادة ربهم وهو يوم السبت كما جعل للمسلمين في كل أسبوع يوما يجتمعون فيه للعبادة والصلاة وهو يوم الجمعة.

د. فقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ بتعدية جعل بعلى دون اللام من قبيل قولهم: لي عليك دين وهذا عليك لا لك فتفيد معنى التكليف والتشديد والابتلاء أي إنما جعل للتشديد عليهم وابتلائهم وامتحانهم فقد كان هذا الجعل عليهم لا لهم كما انجر أمرهم فيه إلى لعن طائفة منهم ومسخ آخرين وقد أشير إلى ذلك في سورة البقرة [الآية: ٦٥] وسورة النساء [الآية: ٤٧]

هـ. والأنسب على هذا أن يكون المراد بقوله: ﴿اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي في السبت اختلافهم فيه بعد التشريع فإنهم تفرقوا فيه فرقا ممن قبله وممن رده وممن احتال للعمل فيه على ما أشير إلى قصصهم في سور

البقرة والنساء والأعراف لا اختلافهم فيه قبل التشريع بأن يعرض عليهم أن يسبتوا في كل أسبوع يوما للعبادة ثم يجعل ذلك اليوم هو الجمعة فيختلفوا فيه فيجعل عليهم يوم السبت كما وقع في بعض الروايات.

و. والمعنى إنما جعل يوم السبت أو قطع العمل للعبادة يوما في كل أسبوع تشديدا وابتلاء وفتنة وكلفة على اليهود الذين اختلفوا فيه بعد تشريعه بين من قبله ومن رده ومن احتال فيه للعمل مع التظاهر بقبوله وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

٢. وبالبناء على هذا يكون وزان الآية وزان قوله السابق: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا﴾، في أنها في معنى الجواب عن سؤال مقدر عطفا على ما مر من حديث النسخ، والتقدير وأما جعل السبت لليهود فإنما جعل لا لهم بل عليهم ليبتليهم الله ويفتنهم به ويشدد عليهم كما قد تكرر نظائره فيهم لكونهم عاتين معتدين مستكبرين وبالجملة الآية ناظرة إلى الاعتراض بتشريع بعض الأحكام غير الفطرية على اليهود ونسخه في هذه الشريعة.

٣. وإنما لم يضم إلى قوله سابقا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا﴾، لكون مسألة السبت مغايرة لسنخ مسألة تحليل الطيبات واستثناء محرمات الأكل، وقد عرفت أن الكلام على اتصاله من قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سبع آيات تامة ثم اتصلت بها هذه الآية وهي ثامنتها الملحقة بها.

٤. ومن هنا يظهر الجواب عما اعترض به أن توسيط جعل السبت بين حكاية أمر النبي ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وبين أمره ﷺ بالدعوة إليها وبعبارة أخرى وقوع قوله: ﴿إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ﴾، بين قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، كالفصل بين الشجر ولحائه، ومحصل الجواب أن قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ﴾ الآية من تمام السياق السابق، وقوله: ﴿إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ﴾ الآية، متصل بما تقدمه كما عرفت، وأما قوله: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ الآية، فهو استئناف وأمر بالدعوة إلى سبيل الله بفنون الخطاب لا إلى ملة إبراهيم حتى يتصل بالآية السابقة نوع اتصال وإن كان سبيل الله هو ملة إبراهيم بعينها لكن للفظ حكم وللمعنى بحسب المآل حكم آخر، فافهم.

٥. وللقوم في تفسير الاختلاف اختلاف عميق:

أ. فمنهم من قال: إن المراد إنما جعل السبت على الذين اختلفوا على نبيهم فيه حيث أمرهم بتعظيم

الجمعة فعدلوا عنه وأخذوا السبت فجعله الله عليهم تشديدا فالاختلاف اختلاف سابق على الجعل لا لاحق به وربما جعل (في) للتعليل فإن الاختلاف على هذا لم يقع في السبت بل من أجل السبت.

ب. وربما قيل: الاختلاف بمعنى المخالفة فإنهم خالفوا نبيهم في السبت ولم يختلفوا فيه.

ج. وربما قيل: إنهم أمروا باتخاذ الجمعة من غير تعيين ووكل ذلك إلى اجتهادهم فاختلفت أحبارهم في تعيينه ولم يهدهم الله إليه ووقعوا في السبت.

د. وربما قيل: إن المراد أنهم اختلفوا فيما بينهم في شأن السبت فطائفة منهم فضلته على الجمعة وطائفة منهم عكست الأمر وفضلت الجمعة عليه، إلى غير ذلك مما قيل، والأصل في ذلك ما ورد في بعض الروايات من القصة.

• وأنت خبير بأن شيئا من الأقوال لا ينطبق على لفظ الآية ذاك الانطباق فالمصير إلى ما قدمناه.

٧٥. الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة:

المقطع [٧٥] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٧١»:

١. ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. لا شك في أنه يستفاد من الآية أن هذه الثلاثة الحكمة والموعظة والمجادلة من طرق التكليم والمفاوضة فقد أمر بالدعوة بأحد هذه الأمور فهي من أنحاء الدعوة وطرقها وإن كان الجدال لا يعد دعوة بمعناها الأخص.

ب. وقد فسرت الحكمة، كما في المفردات، بإصابة الحق بالعلم والعقل، والموعظة كما عن الخليل، بأنه التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والجدال، كما في المفردات، بالمفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة.

ج. والتأمل في هذه المعاني يعطي أن المراد بالحكمة، والله أعلم، الحجة التي تنتج الحق الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا إبهام والموعظة هو البيان الذي تلين به النفس ويرق له القلب، لما فيه من صلاح حال السامع من الغبر والعبر وجميل الثناء ومحمود الأثر ونحو ذلك.

د. والجدال هو الحجة التي تستعمل لفتل الخصم عما يصر عليه وينازع فيه من غير أن يريد به

ظهور الحق بالمؤاخذة عليه من طريق ما يتسلمه هو والناس أو يتسلمه هو وحده في قوله أو حجته.

هـ. فينطبق ما ذكره تعالى من الحكمة والموعظة والجدال بالترتيب على ما اصطلحوا عليه في فن الميزان بالبرهان والخطابة والجدل.

و. غير أنه سبحانه قيد الموعظة بالحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ففيه دلالة على أن من الموعظة ما ليست بحسنة ومن الجدال ما هو أحسن وما ليس بأحسن ولا حسن والله تعالى يأمر من الموعظة بالموعظة الحسنة ومن الجدال بأحسنه.

ز. ولعل ما في ذيل الآية من التعليل بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يوضح وجه التقييد، فمعناه أنه سبحانه أعلم بحال أهل الضلال في دينه الحق، وهو أعلم بحال المهتدين فيه فهو يعلم أن الذي ينفع في هذا السبيل هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال الأحسن لا غير.

ح. والاعتبار الصحيح يؤيد ذلك فإن سبيله تعالى هو الاعتقاد الحق والعمل الحق ومن المعلوم أن الدعوة إليه بالموعظة مثلا ممن لا يتعظ بها يعظ به دعوة عملا إلى خلاف ما يدعو إليه القول، والدعوة إليه بالمجادلة مثلا بالمسلمات الكاذبة التي يتسلمها الخصم لإظهار الحق إحياء لحق بإحياء باطل وإن شئت فقل إحياء حق بإماتة حق إلا أن يكون الجدال على سبيل المناقضة.

٢. ومن هنا يظهر:

أ. أن حسن الموعظة إنما هو من حيث حسن أثره في الحق الذي يراد به بأن يكون الواعظ نفسه متعظا بما يعظ ويستعمل فيها من الخلق الحسن ما يزيد في وقوعها من قلب السامع موقع القبول فيرق له القلب ويقشعر به الجلد ويعيه السمع ويخشع له البصر.

ب. ويتحرز المجادل مما يزيد في تهييج الخصم على الرد والعناد وسوقه إلى المكابرة واللجاج، واستعمال المقدمات الكاذبة وإن تسلمها الخصم إلا في المناقضة ويحترز سوء التعبير والإزراء بالخصم وبما يقدسه من الاعتقاد والسب والشتم وأي جهالة أخرى فإن في ذلك إحياء للحق بإحياء الباطل أي إماتة الحق كما عرفت.

ج. والجدال أحوج إلى كمال الحسن من الموعظة ولذلك أجاز سبحانه من الموعظة حسنتها ولم يجز من المجادلة إلا التي هي أحسن.

٣. ثم إن في قوله: ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أخذا بالترتيب من حيث الأفراد:

أ. فالحكمة مأذون فيها بجميع أفرادها، والموعظة منقسمة إلى حسنة وغير حسنة والمأذون فيها منهما هي الموعظة الحسنة، والمجادلة منقسمة إلى حسنة وغير حسنة ثم الحسنة إلى التي هي أحسن وغيرها والمأذون فيها منها التي هي أحسن، والآية ساكتة عن توزيع هذه الطرق بحسب المدعوين بالدعوة فالملاك في استعمالها من حيث المورد حسن الأثر وحصول المطلوب وهو ظهور الحق.

ب. فمن الجائز أن يستعمل في مورد جميع الطرق الثلاث وفي آخر طريقان أو طريق واحد حسب ما تستدعيه الحال ويناسب المقام.

ج. ومنه يظهر أن قول بعضهم إن ظاهر الآية أن يجمع ﷺ في دعوته بين الطرق الثلاث ليس في محله إذ لا دليل على لزوم الجمع بينها بالنسبة إلى كل مدعو وأما بالنسبة إلى جميع المدعوين فهو حاصل.

د. وكذا ما ذكره بعضهم أن الطرق الثلاث المذكورة في الآية مترتبة حسب ترتب أفهام الناس في استعدادها لقبول الحق فمن الناس الخواص وهم أصحاب النفوس المشرقة القوية الاستعداد لإدراك الحقائق العقلية وشديدة الانجذاب إلى المبادئ العالية وكثيرة الألفة بالعلم واليقين فهؤلاء يدعون بالحكمة وهي البرهان، ومنهم عوام وهم أصحاب نفوس كدرة واستعداد ضعيف مع شدة ألفتهم بالمحسوسات وقوة تعلقهم بالرسوم والعادات قاصرة عن تلقي البراهين من غير أن يكونوا معاندين للحق وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، ومنهم أصحاب العناد واللجاج الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ويكابرون ليطفئوا نور الله بأفواههم رسخت في نفوسهم الآراء الباطلة، وغلب عليهم تقليد أسلافهم في مذاهبهم الخرافية لا ينفعهم المواعظ والعبر، ولا يهديهم سائق البراهين وهؤلاء هم الذين أمر بمجادلتهم بالتي هي أحسن.

- وفيه أنه لا يخلو من دقة لكن لا ينتج اختصاص كل طريق بما يناسبه من مرتبة الفهم فربما انتفع الخواص بالموعظة والمجادلة وربما انتفعت العوام وهم الفاء العادات والرسوم بالمجادلة بالتي هي أحسن، ولا دلالة في لفظ الآية على ما ذكر من التخصيص.

هـ. وكذا ما ذكره بعضهم أن المجادلة بالتي هي أحسن ليست من الدعوة في شيء بل الغرض منها

شيء آخر مغاير لها وهو الإلزام والإفحام، قال: ولذلك لم يعطف الجدال في الآية على ما تقدمه بل غير السياق وقيل: ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وفيه غفلة عن حقيقة القياس الجدلي فالإفحام وإن كان غاية للقياس الجدلي لكنه ليس غاية دائمية فكثيرا ما يتألف قياس من مقدمات مقبولة أو مسلمة وخاصة في الأمور العملية والعلوم غير اليقينية كالفقه والأصول والأخلاق والفنون الأدبية ولا يراد به الإلزام والإفحام، على أن في الإلزام والإفحام دعوة كما أن في الموعظة دعوة وإن اختلفت صورتها باختلاف الطرق نعم تغيير السياق لما في الجدال من معنى المنازعة والمغالبة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: قال عليه السلام: بالقرآن.

ب. وفي الكافي، عنه بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، قال بالقرآن.

• أقول: ظاهره أنه تفسير ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ومحصله الجدال على سنة القرآن الذي فيه أدب الله.

٧٦. العدل في العقاب وخيرية الصبر:

المقطع [٧٦] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٧٤»:

١. ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾:

أ. قال في المفردات: (العقوبة والعقاب والمعاقبة تختص بالعذاب)

ب. والأصل في معناه العقب وهو مؤخر الرجل وعقيب الشيء وعاقبة الأمر ما يليه من ورائه أو آخره، والتعقيب الإتيان بشيء عقيب شيء ومعاقبتك غيرك أن تأتي بما يسوءه عقيب إتيانه بما يسوءك فينطبق على المجازاة والمكافأة بالعذاب.

ج. فقوله: ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الخطاب فيه للمسلمين، على ما يفيده السياق، ولازمه أن يكون المراد بالمعاقبة مجازاة المشركين والكفار، وبقوله: ﴿عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ عقاب الكفار إياهم ومجازاتهم لهم بما آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم.

د. والمعنى: وإن أردتم مجازاة الكفار وعذابهم فجازوهم على ما فعلوا بكم بمثل ما عذبوكم به

مجازاة لكم على إيمانكم وجهادكم في الله.

٢. ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أي صبرتم على مر ما عوقبتم به ولم تعاقبوا ولم تكافئوا لهو خير لكم بما أنكم صابرون لما فيه من إيثار رضا الله وثوابه فيما أصابكم من المحنة والمصيبة على رضا أنفسكم بالتشفي بالانتقام فيكون العمل خالصا لوجهه الكريم، ولما في الصفح والعفو من إعمال الفتوة ولها آثارها الجميلة.

٧٧. الصبر بالله وعدم الحزن على الكافرين:

المقطع [٧٧] من سورة النحل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢/ ٣٧٤»:

١. ﴿وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ إلى آخر الآية أمر للنبي ﷺ بالصبر وبشرى له أن الله قواه على الصبر على مر ما يلقاه في سبيله فإنه تعالى يذكر أن صبره إنما هو بحول وقوة من ربه ثم يأمره بالصبر ولازم الأمر قدرة المأمور على المأمور به ففي قوله: ﴿وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ إشارة إلى أن الله قواك على ما أمرك به.

٢. ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكافرين، لكفرهم وقد تقدم تفسير هذا المعنى سابقا في السورة وغيرها.

٣. ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ الظاهر أن المراد النهي عن التحرج من مكرهم في الحال أو على سبيل الاستمرار دون مجرد الاستقبال.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي إن التقوى والإحسان كل منهما سبب مستقل في موهبة النصرة الإلهية وإبطال مكر أعداء الدين ودفع كيدهم فالآية تعليل لقوله: ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ووعد بالنصر.

٥. وهذه الآيات الثلاث أشبه مضمونا بالآيات المدنية منها بالمكية وقد وردت روايات من طرق الفريقين أنها نزلت في منصرف النبي ﷺ عن أحد وسيأتي في البحث الروائي وإن كان من الممكن توجيه اتصالها بما قبلها بوجه كما تصدى له بعضهم.

٦. ومما يجب أن يتنبه له أن الآية التي قبل الثلاثة أجمع لغرض السورة من هذه الثلاث، وأن لآيات

السورة مع الإغماض عن قوله: ﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا﴾ الآية، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ﴾ إلى تمام بضع آيات، وقوله: ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ﴾ إلى آخر السورة، سياقا واحدا متصلا.

سورة الإسراء

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٦٦] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تتعرض لأمر توحيده تعالى عن الشريك مطلقاً، ومع ذلك يغلب فيها جانب التسبيح على جانب التحميد، كما بدأت به فقيل: ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ﴾ الآية، وكرر ذلك فيها مرة بعد مرة كقوله: ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يَقُولُونَ﴾ وقوله: ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي﴾ [الآية: ٩٣]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا﴾ [الآية: ١٠٨]، حتى أن الآية الخاتمة للسورة: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ تحمد الله على تنزهه عن الشريك والولي واتخاذ الولد.

ب. والسورة مكية لشهادة مضامين آياتها بذلك، وعن بعضهم كما في روح المعاني استثناء آيتين منها وهما قوله: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية وقوله: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ الآية، وعن بعضهم إلا أربع آيات وهي الآيتان المذكورتان وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنّاسِ﴾ الآية وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية.

ج. وعن الحسن أنها مكية إلا خمس آيات منها وهي قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ الآية ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى﴾ الآية ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبى﴾ الآية.

د. وعن مقاتل مكية إلا خمس: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ الآية ﴿وَإِذْ قُلْنا لَكَ﴾ الآية ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ الآية.

هـ. وعن قتادة والمعدل عن ابن عباس مكية إلا ثماني آيات وهي قوله: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية.

و. ولا دلالة في مضامين الآيات على كونها مدنية، ولا الأحكام المذكورة فيها مما يختص نزولاً بالمدينة، وقد نزلت نظائرها في السور المكية كالأنعام والأعراف.

ز. وقد افتتحت السورة فيما ترومه من التسبيح بالإشارة إلى معراج النبي ﷺ، فذكر إسراءه ﷺ من

المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس والهيكل الذي بناه داود وسليمان عليه السلام وقدسه الله لبني إسرائيل.

ح. ثم سبق الكلام بالمناسبة إلى ما قدره الله لمجتمع بني إسرائيل من الرقي والانحطاط والعزة والذلة، فكلما أطاعوا رفعهم الله وكلما عصوا خفضهم الله، وقد أنزل عليهم الكتاب وأمرهم بالتوحيد ونفي الشريك.

ط. ثم عطف فيها الكلام على حال هذه الأمة وما أنزل عليهم من الكتاب بما يشاكل حال بني إسرائيل، وأنهم إن أطاعوا أثيبوا وإن عصوا عوقبوا، فإنما هي الأعمال يعامل الإنسان بما عمل منها، وعلى ذلك جرت السنة الإلهية في الأمم الماضين.

ي. ثم ذكرت فيها حقائق جمة من المعارف الراجعة إلى المبدإ والمعاد والشرائع العامة من الأوامر والنواهي وغير ذلك.

ك. ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ [الآية: ١١٠] من السورة، وقوله: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الآية: ٢٠] منها، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها﴾ [الآية: ٥٨] منها وغير ذلك.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١] افتتحت السورة فيما ترومه من التسبيح بالإشارة إلى معراج النبي ﷺ، فذكر إسراءه ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس والهيكل الذي بناه داود وسليمان عليه السلام وقدسه الله لبني إسرائيل.

٢. الآيات [٢ ـ ٨]:

أ. الظاهر من سياق آيات صدر السورة أنها مسوقة لبيان أن السنة الإلهية في الأمم الإنسانية جرت على هدايتهم إلى طريق العبودية وسبيل التوحيد، وأمكنهم من الوصول إلى ذلك باختيارهم، فآتاهم من نعم الدنيا والآخرة، وأمدهم بأسباب الطاعة والمعصية، فإن أطاعوا وأحسنوا أثابهم بسعادة الدنيا والآخرة، وإن أساءوا وعصوا جازاهم بنكال الدنيا وعذاب الآخرة.

ب. وعلى هذا فهذه الآيات السبع كالمثال يمثل به ما جرى من هذه السنة العامة في بني إسرائيل،

أنزل الله على نبيهم الكتاب وجعله لهم هدى يهتدون به، وقضى إليهم فيه أنهم سيعلون ويطغون ويفسقون فينتقم الله منهم باستيلاء عدوهم عليهم بالإذلال والقتل والأسر، ثم يعودون إلى الطاعة فيعود تعالى إلى النعمة والرحمة، ثم يستعلون ويطغون ثانياً فينتقم الله منهم ثانياً بأشد مما في المرة الأولى، ثم من المرجو أن يرحمهم ربهم وإن يعودوا يعد.

ج. ومن ذلك يستنتج أن الآيات السبع كالتوطئة لما سيذكر بعدها من جريان هذه السنة العامة في هذه الأمة، والآيات السبع كالمعترضة بين الآية الأولى والتاسعة.

٣. الآيات [٩ ـ ٢٢]:

أ. كان القبيل السابق من الآيات يذكر كيفية جريان السنة الإلهية في هداية الإنسان إلى سبيل الحق ودين التوحيد، ثم إسعاد من استجاب الدعوة الحقة في الدنيا والآخرة وعقاب من كفر بالحق وفسق عن الأمر في دنياه وعقباه، وكان ذكر نزول التوراة وما جرى بعد ذلك على بني إسرائيل كالمثال الذي يورد في الكلام لتطبيق الحكم الكلي على أفراده ومصاديقه.

ب. وهذا القبيل من الآيات يذكر جريان السنة المذكورة في هذه الأمة كما جرت في أمة موسى، وقد استنتج من الآيات لزوم التجنب عن الشرك ووجوب التزام طريق التوحيد حيث قيل: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾

٤. الآيات [٢٣ ـ ٣٩] عدة من كليات الدين يذكرها الله سبحانه، وهي تتبع قوله قبل آيات: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الآية.

٥. الآيات [٤٠ ـ ٥٥] في الآيات تعقيب مسألة التوحيد وتوبيخ المشركين على اتخاذهم الآلهة ونسبة الملائكة الكرام إلى الأنوثية، وأنهم لا يتذكرون بما يلقي إليهم القرآن من حجج الوحدانية، ولا يفقهون الآيات، بل يستهزئون بالرسول وبما يلقى إليهم من أمر البعث ويسيئون القول في أمر الله وغير ذلك.

٦. الآيات [٥٦ ـ ٦٥]:

أ. احتجاج من وجه آخر على التوحيد ونفي ربوبية الآلهة الذين يدعون من دون الله، وأنهم لا يستطيعون كشف الضر ولا تحويله عن عبادهم، بل هم أمثالهم في الحاجة إلى الله سبحانه، يبتغون إليه

الوسيلة يرجون رحمته ويخافون عذابه.

ب. وأن الضر والهلاك والعذاب بيد الله، وقد كتب في الكتاب على كل قرية أن يهلكها قبل يوم القيامة أو يعذبها عذاباً شديداً، وقد كانت الأولون يرسل إليهم الآيات الإلهية، لكن لما كفروا وكذبوا بها وتعقب ذلك عذاب الاستئصال، لم يرسلها الله إلى الآخرين، فإنه شاء أن لا يعاجلهم بالهلاك، غير أن أصل الفساد سينمو بينهم والشيطان سيضلهم فيحق عليهم القول فيأخذهم الله وكان أمراً مفعولاً.

٧. الآيات [٦٦ ـ ٧٢]:

أ. الآيات كالمكملة للآيات السابقة، تثبت لله سبحانه من استجابة الدعوة وكشف الضر ما نفاه القبيل السابق عن أصنامهم وأوثانهم، فإن الآيات السابقة تبتدئ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾، وهذه الآيات تفتتح بقوله: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ إلخ.

ب. وإنما قلنا: هي كالمكملة لبيان الآيات السابقة مع أن ما تحتويه كل من القبلين حجة تامة في مدلولها، تبطل إحداهما ألوهية آلهتهم وتثبت الأخرى ألوهية الله سبحانه، لافتتاح القبيل الأول بقوله: ﴿قُلِ﴾ دون الثاني، وظاهره كون مجموع القبيلين واحداً من الاحتجاج، أمر النبي ﷺ بإلقائه إلى المشركين لإلزامهم بالتوحيد.

ج. ويؤيده السياق السابق المبدوء بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾، وقد لحقه قوله ثانياً: ﴿وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً﴾ ـ إلى أن قال ـ ﴿قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً﴾

د. وقد ختم الآيات بقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ إلخ، فأشار به إلى أن هذا الذي يذكر من الهدى والضلالة في الدنيا يلازم الإنسان في الآخرة، فالنشأة الأخرى على طبق النشأة الأولى، فمن أبصر في الدنيا أبصر في الآخرة، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

٨. الآيات [٧٣ ـ ٨١]:

أ. تذكر الآيات بعض مكر المشركين بالقرآن وبالنبي ﷺ بعد ما ذمتهم على تماديهم في إنكار التوحيد والمعاد واحتجت عليهم في ذلك ـ حيث أرادوا أن يفتنوا النبي ﷺ عن بعض ما أوحي إليه ليداهنهم فيه

بعض المداهنة، وأرادوا أن يخرجوه من مكة.

ب. وقد أوعد الله النبي ﷺ أشد الوعيد إن مال إلى الركون إليهم بعض الميل، وأوعدهم إن أخرجوا النبي ﷺ بالهلاك.

ج. وفي الآيات إيصاء النبي ﷺ بالصلوات والالتجاء بربه في مدخله ومخرجه وإعلام ظهور الحق.

٩. الآيات [٨٢ ـ ١٠٠]:

أ. رجوع بعد رجوع إلى حديث القرآن وكونه آية للنبوة وما يصحبه من الرحمة والبركة، وقد افتتح الكلام فيه فيما تقدم: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، ثم رجع إليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ﴾ إلخ.

ب. فبين في هذه الآيات أن القرآن شفاء ورحمة، وبعبارة أخرى مصلح لمن صلحت نفسه، ومخسر للظالمين، وأنه آية معجزة للنبوة، ثم ذكر ما كانوا يقترحونه على النبي ﷺ من الآيات والجواب عنه، وما يلحق بذلك من الكلام.

ج. وفي الآيات ذكر سؤالهم عن الروح والجواب عنه.

١٠. الآيات [١٠١ ـ ١١١] في الآيات تنظير ما جاء به النبي ﷺ من معجزة النبوة وهو القرآن، وإعراض المشركين عنه واقتراحهم آيات أخرى جزافية، بما جاء به موسى عليه السلام من آيات النبوة وإعراض فرعون عنها ورميه إياه بأنه مسحور، ثم عود إلى وصف القرآن والسبب في نزوله مفرقة أجزاؤه، وما يلحق بها من المعارف.

١. الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى:

المقطع [١] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٧»:

١. ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾:

أ. سبحان اسم مصدر للتسبيح بمعنى التنزيه ويستعمل مضافا وهو مفعول مطلق قائم مقام فعله فتقدير (سبحان الله) سبحت الله تسبيحا أي نزهته عن كل ما لا يليق بساحة قدسه وكثيرا ما يستعمل

للتعجب لكن سياق الآيات إنما يلائم التنزيه لكونه الغرض من البيان وإن أصر بعضهم على كونه للتعجب.

ب. والإسراء والسري السير بالليل يقال سرى وأسرى أي سار ليلا وسرى وأسرى به أي سار به ليلا والسير يختص بالنهار أو يعمه والليل.

ج. ﴿لَيْلاً﴾ مفعول فيه ويفيد من الفائدة أن هذا الإسراء تم له بالليل فكان الرواح والمجيء في ليلة واحدة قبل أن يطلع فجرها.

٢. ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ هو بيت المقدس بقرينة قوله: ﴿الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ﴾، والقصا البعد وقد سمي المسجد الأقصى لكونه أبعد مسجد بالنسبة إلى مكان النبي ﷺ ومن معه من المخاطبين وهو مكة التي فيها المسجد الحرام.

٣. ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا﴾ بيان غاية الإسراء وهي إراءة بعض الآيات الإلهية، لمكان من، وفي السياق دلالة على عظمة هذه الآيات التي أراها الله سبحانه كما صرح به في موضع آخر من كلامه يذكر فيه حديث المعراج بقوله: ﴿لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾ [النجم: ١٨]

٤. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾:

أ. تعليل لإسرائه به لإراءة آياته أي أنه سميع لأقوال عباده بصير بأفعالهم وقد سمع من مقال عبده ورأى من حاله ما استدعى أن يكرمه هذا الإكرام فيسري به ليلا ويريه من آياته الكبرى.

ب. وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير في قوله: ﴿بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا﴾ ثم رجوع إلى الغيبة السابقة والوجه فيه الإشارة إلى أن الإسراء وما ترتب عليه من إراءة الآيات إنما صدر عن ساحة العظمة والكبرياء وموطن العزة والجبروت فعملت فيه السلطنة العظمى وتجلى الله له بآياته الكبرى ولو قيل ليريه من آياته أو غير ذلك لفاتت النكتة.

ج. والمعنى لينزه تنزيها من أسرى بعظمته وكبريائه وبالغ قدرته وسلطانه بعبده محمد في جوف ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس الذي بارك حوله ليريه بعظمته وكبريائه آياته الكبرى وإنما فعل به ذلك لأنه سميع بصير علم بما سمع من مقاله ورأى من حاله أنه خليق أن يكرم هذه التكرمة.

٥. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى الإسراء والمعراج وبيان حقيقته في ضوء القرآن والروايات]، خلاصته:

أ. بيان أن الإسراء وقع بمكة قبل الهجرة، وأن الآيات والروايات تدل على وقوعه مرتين: إسراء إلى بيت المقدس، وإسراء إلى السماوات.

ب. توضيح أن الإسراء كان بالروح والجسد معاً، بدليل قوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ وإخبار النبي ﷺ قريشاً بما رآه في الطريق.

ج. إثبات أن العروج إلى السماوات كان بروحه الشريفة لا بجسده المادي، وأن ما ورد في الروايات من تمثيلات هو من قبيل التمثل البرزخي والروحي.

د. بيان أن ما ورد من اختلاف في تفاصيل المعراج (كالبراق، وجناح جبريل، والمعراج المنصوب) يدل على أن البيانات تمثيلية لا حسية محضة.

هـ. الرد على من زعم أن الإسراء كان في المنام، وأن ذلك يبطل الإعجاز والكرامة، وبيان أن الرؤيا لا توجب إنكاراً من قريش.

و. توضيح أن الملائكة والعرش والكرسي وغيرها ليست أجساماً مادية محضة، بل حقائق برزخية تمثل في صور متناسبة.

ز. بيان أن حديث شق البطن والغسل تمثيل برزخي، لا يدل على نجاسة النبي ﷺ، بل على التطهير المعنوي.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى رسول الله ﷺ، فأخذ واحد باللجام وواحد بالركاب، وسوى الآخر عليه ثيابه، فتضعضعت البراق، فلطمها جبرئيل ثم قال لها: اسكني يا براق، فما ركبك نبي قبله، ولا يركبك بعده مثله، قال: فرفت به ورفعته ارتفاعاً ليس بالكثير، ومعه جبرئيل يريه الآيات من السماء والأرض، قال: فبينا أنا في مسيري إذ نادى مناد عن يميني: يا محمد، فلم أجبه ولم ألتفت إليه، ثم نادى مناد

عن يساري: يا محمد، فلم أجبه ولم ألتفت إليه، ثم استقبلتني امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا، فقالت: يا محمد، أنظرني حتى أكلمك، فلم ألتفت إليها، ثم سرت فسمعت صوتاً أفزعني، فجاوزت، فنزل بي جبرئيل فقال: صل، فصليت، فقال: تدري أين صليت؟ قلت: لا، قال: صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى تكليماً، ثم ركبت فمضينا ما شاء الله، ثم قال لي: انزل فصل، فنزلت وصليت، فقال لي: تدري أين صليت؟ فقلت: لا، قال: صليت في بيت لحم، وبيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم، ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فربطت البراق بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها، فدخلت المسجد ومعي جبرئيل إلى جنبي، فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام، فقد جمعوا إلي، وأقيمت الصلاة، ولا أشك إلا وجبرئيل سيتقدمنا، فلما استووا، أخذ جبرئيل بعضدي، فقدمني وأممتهم ولا فخر، ثم أتاني الخازن بثلاثة أواني: إناء فيه لبن، وإناء فيه ماء، وإناء فيه خمر، وسمعت قائلاً يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغويت أمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته، قال: فأخذت اللبن وشربت منه، فقال لي جبرئيل: هديت وهديت أمتك، ثم قال لي: ما ذا رأيت في مسيرك؟ فقلت: ناداني مناد عن يميني، فقال: أوأجبته؟ فقلت: لا ولم ألتفت إليه، فقال: داعي اليهود، لو أجبته لتهودت أمتك من بعدك، ثم قال: ما ذا رأيت؟ فقلت: ناداني مناد عن يساري، فقال لي: أوأجبته؟ فقلت: لا ولم ألتفت إليه، فقال: ذاك داعي النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك من بعدك، ثم قال: ما ذا استقبلك؟ فقلت: لقيت امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا، فقالت: يا محمد، أنظرني حتى أكلمك، فقال: أوكلمتها؟ فقلت: لم أكلمها ولم ألتفت إليها، فقال: تلك الدنيا، ولو كلمتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة، ثم سمعت صوتاً أفزعني، فقال لي جبرئيل: أتسمع يا محمد؟ قلت: نعم، قال: هذه صخرة قذفتها عن شفير جهنم منذ سبعين عاماً، فهذا حين استقرت، قالوا: فما ضحك رسول الله ﷺ حتى قبض، قال: فصعد جبرئيل وصعدت معه إلى السماء الدنيا، وعليها ملك يقال له إسماعيل، وهو صاحب الخطفة التي قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، وتحته سبعون ألف ملك، تحت كل ملك سبعون ألف ملك، فقال: يا جبرئيل، من هذا الذي معك؟ فقال: محمد رسول الله، قال: وقد بعث؟ قال: نعم، ففتح الباب، فسلمت عليه وسلم علي، واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، وتلقتني الملائكة

حتى دخلت السماء الدنيا، فما لقيني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً، حتى لقيني ملك من الملائكة لم أر أعظم خلقاً منه كريه المنظر ظاهر الغضب، فقال لي مثل ما قالوا من الدعاء إلا أنه لم يضحك، ولم أر فيه من الاستبشار ما رأيت من ضحك الملائكة، فقلت: من هذا يا جبرئيل، فإني قد فزعت منه؟ فقال: يجوز أن يفزع منه، فكلنا نفزع منه، إن هذا مالك خازن النار، لم يضحك قط، ولم يزل منذ أن ولاه الله جهنم يزداد كل يوم غضباً وغيظاً على أعداء الله وأهل معصيته، فينتقم الله به منهم، ولو ضحك إلى أحد قبلك، أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك، لضحك إليك، فسلمت عليه، فرد السلام علي، وبشرني بالجنة، فقلت لجبرئيل، وجبرئيل بالمكان الذي وصفه الله: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]: ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال له جبرئيل: يا مالك، أر محمداً النار، فكشف عنها غطاءها، وفتح باباً منها، فخرج منها لهب ساطع في السماء، وفارت وارتفعت حتى ظننت لتتناولني مما رأيت، فقلت: يا جبرئيل، قل له فليرد عليها غطاءها، فأمره، فقال لها: ارجعي، فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه، ثم مضيت فرأيت رجلاً آدمياً جسيماً، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أبوك آدم، فإذا هو يعرض عليه ذريته، فيقول: روح طيبة وريح طيبة من جسد طيب، ثم تلا رسول الله ﷺ سورة المطففين على رأس سبع عشرة آية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨-٢١] إلى آخرها، قال: فسلمت على أبي آدم، وسلم علي، واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح المبعوث في الزمن الصالح، قال: ثم مررت بملك من الملائكة جالس على مجلس، وإذا جميع الدنيا بين ركبتيه، وإذا بيده لوح من نور ينظر فيه مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، مقبلاً عليه كهيئة الحزين، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا ملك الموت، دائب في قبض الأرواح، فقلت: يا جبرئيل، أدنني منه حتى أكلمه، فأدناني منه، فسلمت عليه، وقال له جبرئيل: هذا محمد نبي الرحمة الذي أرسله الله إلى العباد، فرحب بي وحياني بالسلام وقال: أبشر يا محمد، فإني أرى الخير كله في أمتك، فقلت: الحمد لله المنان ذي النعم على عباده، ذلك من فضل ربي ورحمته علي، فقال جبرئيل: هو أشد الملائكة عملاً، فقلت: أكل من مات أو هو ميت فيما بعد هذا تقبض روحه؟ فقال: نعم، قلت: وتراهم حيث كانوا وتشهدهم بنفسك؟ فقال: نعم، فقال ملك الموت: ما الدنيا كلها عندي فيما سخره الله لي ومكنني عليها إلا كالدرهم في كف الرجل يقلبه كيف يشاء، وما من دار إلا وأنا أتصفحه كل يوم خمس مرات، وأقول إذا بكى أهل الميت على ميتهم: لا

تبكوا عليه، فإن لي فيكم عودة وعودة، حتى لا يبقى منكم أحد، فقال رسول الله ﷺ: كفى بالموت طامة يا جبرئيل، فقال جبرئيل: إن ما بعد الموت أطم وأطم من الموت، قال: ثم مضيت فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيب ولحم خبيث، يأكلون اللحم الخبيث ويدعون الطيب، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون الحرام ويدعون الحلال، وهم من أمتك يا محمد، فقال رسول الله ﷺ: ثم رأيت ملكاً من الملائكة جعل الله أمره عجيباً، نصف جسده النار والنصف الآخر ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج تطفئ النار، وهو ينادي بصوت رفيع ويقول: سبحان الذي كف حر هذه النار فلا تذيب الثلج، وكف برد هذا الثلج فلا يطفئ حر هذه النار، اللهم يا مؤلف بين الثلج والنار، ألف بين قلوب عبادك المؤمنين، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا ملك وكله الله بأكناف السماء وأطراف الأرضين، وهو أنصح ملائكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين، يدعو لهم بما تسمع منذ خلق، ورأيت ملكين يناديان في السماء: أحدهما يقول: اللهم أعط كل منفق خلفاً، والآخر يقول: اللهم أعط كل ممسك تلفاً، ثم مضيت فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل، يقرض اللحم من جنوبهم ويلقى في أفواههم، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الهمازون اللمازون، ثم مضيت فإذا أنا بأقوام ترضخ رءوسهم بالصخر، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العشاء، ثم مضيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار في أفواههم وتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً، ثم مضيت فإذا أنا بأقوام يريد أحدهم أن يقوم فلا يدر من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً، يقولون: ربنا متى تقوم الساعة؟ قال: ثم مضيت فإذا أنا بنسوان معلقات بثديهن، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء اللواتي يورثن أموال أزواجهن أولاد غيرهم، ثم قال رسول الله ﷺ: اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم في نسبهم من ليس منهم، فاطلع على عوراتهم وأكل خزائنهم، ثم قال: مررنا بملائكة من ملائكة الله عز وجل، خلقهم الله كيف شاء، ووضع وجوههم كيف شاء، ليس شيء من أطباق أجسادهم إلا وهو يسبح الله ويحمده من كل ناحية بأصوات مختلفة، أصواتهم مرتفعة بالتحميد والبكاء من خشية الله، فسألت جبرئيل عنهم، فقال: كما ترى خلقوا، إن الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلمهم كلمة قط، ولا رفعوا

رءوسهم إلى ما فوقها، ولا خفضوها إلى ما تحتها خوفاً من الله وخشوعاً، فسلمت عليهم، فردوا علي إيماء برءوسهم لا ينظرون إلي من الخشوع، فقال لهم جبرئيل: هذا محمد نبي الرحمة، أرسله الله إلى العباد رسولاً ونبياً، وهو خاتم النبيين وسيدهم، أفلا تكلمونه؟ قال: فلما سمعوا ذلك من جبرئيل، أقبلوا علي بالسلام، وأكرموني وبشروني بالخير لي ولأمتي، قال: ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فإذا فيها رجلان متشابهان، فقلت: من هذان يا جبرئيل؟ فقال لي: ابنا الخالة يحيى وعيسى عليه السلام، فسلمت عليهما وسلما علي، واستغفرت لهما واستغفرا لي، وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، وإذا فيها من الملائكة عليهم الخشوع، قد وضع الله وجوههم كيف شاء، ليس منهم ملك إلا يسبح الله بحمده بأصوات مختلفة، ثم صعدنا إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك يوسف، فسلمت عليه وسلم علي، واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح والمبعوث في الزمن الصالح، وإذا فيها ملائكة عليهم من الخشوع مثل ما وصفت في السماء الأولى والثانية، وقال لهم جبرئيل في أمري ما قال للآخرين، وصنعوا في مثل ما صنع الآخرون، ثم صعدنا إلى السماء الرابعة، وإذا فيها رجل، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا إدريس، رفعه الله مكاناً علياً، فسلمت عليه وسلم علي، واستغفرت له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات التي عبرناها، فبشروني بالخير لي ولأمتي، ثم رأيت ملكاً جالساً على سرير، تحت يديه سبعون ألف ملك، تحت كل ملك سبعون ألف ملك، فوقع في نفس رسول الله ﷺ أنه هو، فصاح به جبرئيل فقال: قم، فهو قائم إلى يوم القيامة، ثم صعدنا إلى السماء الخامسة، فإذا فيها رجل كهل عظيم العين، لم أر كهلاً أعظم منه، حوله ثلة من أمته، فأعجبني كثرتهم، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا المحبب في قومه هارون بن عمران، فسلمت عليه وسلم علي، واستغفرت له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات، ثم صعدنا إلى السماء السادسة، وإذا فيها رجل آدم طويل، كأنه من شنوة، ولو أن له قميصين لنفذ شعره فيهما، وسمعته يقول: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم ولد آدم على الله، وهذا رجل أكرم على الله مني، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران، فسلمت عليه وسلم علي، واستغفرت له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات، قال: ثم صعدنا إلى السماء السابعة، فما مررت بملك من الملائكة إلا قالوا: يا محمد، احتجم،

وأمر أمتك بالحجامة، وإذا فيها رجل أشمط الرأس واللحية جالس على كرسي، فقلت: يا جبرئيل، من هذا الذي في السماء السابعة على باب البيت المعمور في جوار الله؟ فقال: هذا يا محمد أبوك إبراهيم، وهذا محلك ومحل من اتقى من أمتك، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، فسلمت عليه وسلم علي، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح والمبعوث في الزمن الصالح، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات، فبشروني بالخير لي ولأمتي، قال رسول الله ﷺ: ورأيت في السماء السابعة بحاراً من نور تتلألأ تلألؤها يخطف بالأبصار، وفيها بحار من ظلمة وبحار من ثلج ترعد، فكلما فزعت ورأيت هولاً سألت جبرئيل، فقال: أبشر يا محمد، واشكر كرامة ربك، واشكر الله بما صنع إليك، قال: فثبتني الله بقوته وعونه، حتى كثر قولي لجبرئيل وتعجبي، فقال جبرئيل: يا محمد، تعظم ما ترى؟ إنما هذا خلق من خلق ربك، فكيف بالخالق الذي خلق ما ترى؟ وما لا ترى أعظم من هذا من خلق ربك، إن بين الله وبين خلقه سبعين ألف حجاب، وأقرب الخلق إلى الله أنا وإسرافيل، وبيننا وبينه أربعة حجب: حجاب من نور، وحجاب من الظلمة، وحجاب من الغمامة، وحجاب من الماء، قال: ورأيت من العجائب التي خلق الله وسخر على ما أراده ديكاً، رجلاه في تخوم الأرضين السابعة، ورأسه عند العرش، وهو ملك من ملائكة الله تعالى، خلقه الله كما أراد، رجلاه في تخوم الأرضين السابعة، ثم أقبل مصعداً حتى خرج في الهواء إلى السماء السابعة، وانتهى فيها مصعداً حتى انتهى قرنه إلى قرب العرش، وهو يقول: سبحان ربي حيثما كنت، لا تدري أين ربك من عظم شأنه، وله جناحان في منكبه، إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب، فإذا كان في السحر، نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح يقول: سبحان الله الملك القدوس، سبحان الله الكبير المتعال، لا إله إلا الله الحي القيوم، وإذا قال ذلك، سبحت ديوك الأرض كلها وخفقت بأجنحتها وأخذت بالصراخ، فإذا سكت ذلك الديك في السماء، سكت ديوك الأرض كلها، ولذلك الديك زغب أخضر وريش أبيض كأشد بياض ما رأيته قط، وله زغب أخضر أيضاً تحت ريشه الأبيض كأشد خضرة ما رأيتها قط، قال: ثم مضيت مع جبرئيل فدخلت البيت المعمور، فصليت فيه ركعتين، ومعي أناس من أصحابي عليهم ثياب جدد، وآخرين عليهم ثياب خلقان، فدخل أصحاب الجدد وجلس أصحاب الخلقان، ثم خرجت فانقاد لي نهران: نهر يسمى الكوثر، ونهر يسمى الرحمة، فشربت من الكوثر واغتسلت من الرحمة، ثم انقادا لي جميعاً

حتى دخلت الجنة، وإذا على حافتيها بيوتي وبيوت أهلي، وإذا ترابها كالمسك، وإذا جارية تنغمس في أنهار الجنة، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة، فبشرته بها حين أصبحت، وإذا طيرها كالبخت، وإذا رمانها مثل الدلي العظام، وإذا شجرة لو أرسل طائر في أصلها ما دارها سبعمائة سنة، وليس في الجنة منزل إلا وفيه غصن منها، فقلت: ما هذه يا جبرئيل؟ فقال: هذه شجرة طوبى، قال الله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، قال رسول الله ﷺ: فلما دخلت الجنة، رجعت إلى نفسي فسألت جبرئيل عن تلك البحار وهولها وأعاجيبها، فقال: هي سرادقات الحجب التي احتجب الله تبارك وتعالى بها، ولو لا تلك الحجب لهتك نور العرش كل شيء فيه، وانتهيت إلى سدرة المنتهى، فإذا الورقة منها تظل أمة من الأمم، فكنت منها كما قال الله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، فناداني: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فقلت أنا مجيباً عني وعن أمتي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فقال الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقلت: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال الله: لا أؤاخذك، فقلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال الله: لا أحملك، فقلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال الله تبارك وتعالى: قد أعطيتك ذلك لك ولأمتك، فقال الصادق عليه السلام: ما وفد إلى الله تعالى أحد أكرم من رسول الله ﷺ حين سأل لأمته هذه الخصال، فقال رسول الله ﷺ: يا رب، أعطيت أنبياءك فضائل، فأعطني، فقال الله: قد أعطيتك فيما أعطيتك كلمتين من تحت عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا منجا منك إلا إليك، قال: وعلمتني الملائكة قولاً أقوله إذا أصبحت وأمسيت: اللهم إن ظلمي أصبح مستجيراً بعفوك، وذنبي أصبح مستجيراً بمغفرتك، وذلي أصبح مستجيراً بعزتك، وفقري أصبح مستجيراً بغناك، ووجهي الفاني أصبح مستجيراً بوجهك الباقي الذي لا يفنى، وأقول ذلك إذا أمسيت، ثم سمعت الأذان، فإذا ملك يؤذن لم ير في السماء قبل تلك الليلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، فقال الله: صدق عبدي، أنا أكبر من كل شيء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، فقال الله: صدق عبدي، أنا الله لا إله إلا أنا ولا إله غيري، فقال: أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، فقال الله:

صدق عبدي، أن محمداً عبدي ورسولي، أنا بعثته وانتجبته، فقال: حي على الصلاة، حي على الصلاة، فقال: صدق عبدي، دعا إلى فريضتي، فمن مشى إليها راغباً فيها محتسباً، كانت له كفارة لما مضى من ذنوبه، فقال: حي على الفلاح، حي على الفلاح، فقال الله: هي الصلاح والنجاح والفلاح، ثم أممت الملائكة في السماء، كما أممت الأنبياء في بيت المقدس، قال: ثم غشيتني ضبابة، فخررت ساجداً، فناداني ربي: أني قد فرضت على كل نبي كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أمتك، فقم بها أنت في أمتك، قال رسول الله ﷺ: فانحدرت حتى مررت على إبراهيم، فلم يسألني عن شيء، حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: قال ربي: فرضت على كل نبي كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أمتك، فقال موسى: يا محمد، إن أمتك آخر الأمم وأضعفها، وإن ربك لا يزيده شيء، وإن أمتك لا تستطيع أن تقوم بها، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت إلى ربي حتى انتهيت إلى سدرة المنتهى، فخررت ساجداً، ثم قلت: فرضت علي وعلى أمتي خمسين صلاة، ولا أطيق ذلك ولا أمتي، فخفف عني، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع، لا تطيق، فرجعت إلى ربي فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع، وفي كل رجعة أرجع إليه أخر ساجداً، حتى رجع إلى عشر صلوات، فرجعت إلى موسى وأخبرته، فقال: لا تطيق، فرجعت إلى ربي فوضع عني خمساً، فرجعت إلى موسى وأخبرته، فقال: لا تطيق، فقلت: قد استحيت من ربي، ولكن أصبر عليها، فناداني مناد: كما صبرت عليها، فهذه الخمس بخمسين، كل صلاة بعشر، ومن هم من أمتك بحسنة يعملها فعملها، كتبت له عشراً، وإن لم يعمل كتبت له واحدة، ومن هم من أمتك بسيئة فعملها، كتبت عليه واحدة، وإن لم يعملها لم أكتب عليه، فقال الصادق عليه السلام: جزى الله موسى عن هذه الأمة خيراً، فهذا تفسير قول الله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]

• أقول: وقد ورد ما يقرب مما قصته هذه الرواية في روايات كثيرة جدا من طرق الشيعة وأهل السنة، وقوله في الرواية (رجلا آدما) يقال: رجل آدم أي أسمر اللون، والطامة هي الأمر الشديد الذي يغلب ما سواه، ولذلك سميت القيامة بالطامة، والأكتاف جمع كتف والمراد الأطراف والنواحي، وقوله: (فوقع في نفس رسول الله أنه هو) أي أنه الملك الذي يدبر أمر العالم وينتهي إليه كل أمر.

• وقوله: شنوة بالشين والنون والواو وربما يهمز قبيلة كانوا معروفين بطول القامة، وقوله: (أشمط الرأس واللحية) الشمط بياض الشعر يخالطه سواد، والزغب أول ما يبدو من الشعر والريش وصغارهما، والبخت الإبل الخراساني والدلي بضم الدال وكسر اللام وتشديد الياء جمع دلو على فعول، والصبابة بفتح الصاد المهملة والباء الموحدة الشوق والهوى الرقيق وبالمعجمة مضمومة الغيم الرقيق.

ب. وفي أمالي الصدوق عن أبيه عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: لما أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، حمله جبرئيل على البراق، فأتيا بيت المقدس، وعرض عليه محاريب الأنبياء وصلى بها ورده، فمر رسول الله ﷺ في رجوعه بعير قريش، وإذا لهم ماء في آنية، وقد أضلوا بعيراً لهم وكانوا يطلبونه، فشرب رسول الله ﷺ من ذلك الماء وأهرق باقيه، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال لقريش: إن الله جل جلاله قد أسرى بي إلى بيت المقدس، وأراني آثار الأنبياء ومنازلهم، وإني مررت بعير قريش في موضع كذا وكذا، وقد أضلوا بعيراً لهم، فشربت من مائهم، وأهرقت باقي ذلك، فقال أبو جهل: قد أمكنتكم الفرصة منه، فاسألوه كم الأساطين فيها والقناديل؟ فقالوا: يا محمد، إن هاهنا من قد دخل بيت المقدس، فصف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاريبه؟ فجاء جبرئيل فعلق صورة بيت المقدس تجاه وجهه، فجعل يخبرهم بما يسألونه عنه، فلما أخبرهم، قالوا: حتى يجيء العير ونسألهم عما قلت، فقال لهم رسول الله ﷺ: تصديق ذلك أن العير يطلع عليكم مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورق، فلما كان من الغد، أقبلوا ينظرون إلى العقبة ويقولون: هذه الشمس تطلع الساعة، فبينما هم كذلك، إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص، يقدمها جمل أورق، فسألوهم عما قال رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد كان هذا: ضل جمل لنا في موضع كذا وكذا، ووضعنا ماء فأصبحنا وقد أهريق الماء، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً.

• أقول: وفي معناها روايات أخرى من طرق الفريقين.

ج. وفيه بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: إن رسول الله ﷺ لما أسري به إلى السماء، انتهى به جبرئيل إلى نهر يقال له النور، وهو قوله عز وجل: ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، فلما انتهى به إلى ذلك، قال له جبرئيل: يا محمد، اعبر على بركة الله، فقد نور الله لك بصرك، ومر لك أمامك، فإن هذا نهر لم يعبره أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، غير أن لي في كل يوم اغتماسة فيه، ثم أخرج منه، فأنفض

أجنحتي، فليس من قطرة تقطر من أجنحتي إلا خلق الله تبارك وتعالى منها ملكاً مقرباً، له عشرون ألف وجه وأربعون ألف لسان، كل لسان يلفظ بلغة لا يفقهها اللسان الآخر، فعبر رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى الحجب، والحجب خمس مائة حجاب، من الحجاب إلى الحجاب مسيرة خمسمائة عام، ثم قال: تقدم يا محمد، فقال له: يا جبرئيل، ولم لا تكون معي؟ قال: ليس لي أن أجوز هذا المكان، فتقدم رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يتقدم، حتى سمع ما قال الرب تبارك وتعالى: (أنا المحمود، وأنت محمد، شققت اسمك من اسمي، فمن وصلك وصلته، ومن قطعك بتكته، انزل إلى عبادي، فأخبرهم بكرامتي إياك، وأني لم أبعث نبياً إلا جعلت له وزيراً، وأنك رسولي، وأن علياً وزيرك)

د. وفي المناقب، عن ابن عباس في خبر: وسمع يعني رسول الله ﷺ صوتا (آمنا برب العالميقال يعني جبرئيل: هؤلاء سحرة فرعون، وسمع لبيك اللهم لبيك، قال: هؤلاء الحجاج، وسمع التكبير، قال: هؤلاء الغزاة، وسمع التسبيح قال: هؤلاء الأنبياء، فلما بلغ إلى سدرة المنتهى انتهى إلى الحجب، قال جبرئيل: تقدم يا رسول الله، ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقت.

هـ. وفي الإحتجاج، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ فيما احتج على اليهود: حملت على جناح جبرئيل، حتى انتهيت إلى السماء السابعة، فجاوزت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، حتى تعلقت بساق العرش فنوديت من ساق العرش: إني أنا الله لا إله إلا أنا، السلام المؤمن المهيمن العزيز، الجبار المتكبر الرءوف الرحيم، فرأيته بقلبي وما رأيته بعيني، الخبر.

و. وفي تفسير القمي، بإسناده عن إسماعيل الجعفي قال: كنت في المسجد الحرام قاعدا، وأبو جعفر عليه السلام في ناحية، فرفع رأسه فنظر إلى السماء مرة وإلى الكعبة مرة ثم قال: ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وكرر ذلك ثلاث مرات ثم التفت إلي فقال: أي شيء يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟ قلت: يقولون، أسري به من المسجد الحرام إلى البيت المقدس، فقال: ليس هو كما يقولون، ولكنه أسري به من هذه إلى هذه، وأشار بيده إلى السماء وقال: ما بينهما حرم، قال: فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى، تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل أفي مثل هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغا، لم يبلغه خلق من خلق الله قبلك، فرأيت ربي وحال بيني وبينه السبحة قلت: وما السبحة جعلت فداك؟ فأومأ بوجهه إلى الأرض وأومأ بيده إلى السماء، وهو

يقول: جلال ربي جلال ربي، ثلاث مرات، قال: يا محمد قلت: لبيك يا رب، قال: فيم اختصم الملأ الأعلى؟ قلت سبحانك لا علم لي إلا ما علمتني، قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي، قال: فلم يسألني عما مضى ولا عما بقي إلا علمته، فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: في الدرجات والكفارات والحسنات، فقال: يا محمد إنه قد انقضت نبوتك، وانقطع أكلك فمن وصيك فقلت: يا رب إني قد بلوت خلقك، فلم أر فيهم من خلقك أحدا أطوع لي من علي فقال: ولي يا محمد فقلت: يا رب إني قد بلوت خلقك، فلم أر من خلقك أحدا أشد حبا لي من علي بن أبي طالب، قال: ولي يا محمد فبشره بأنه آية الهدى، وإمام أوليائي ونور لمن أطاعني، والكلمة الباقية التي ألزمتها المتقين، من أحبه أحبني ومن أبغضه أبغضني، مع ما أني أخصه بما لم أخص به أحدا، فقلت: يا رب أخي وصاحبي ووزيري ووارثي، فقال: إنه أمر قد سبق أنه مبتلى ومبتلى به، مع ما أني قد نحلته ونحلته ونحلته ونحلته أربعة أشياء، عقدها بيده ولا يفصح بها عقدها.

• أقول: قوله عليه السلام: (ولكنه أسري به من هذه إلى هذه) أي من الكعبة إلى البيت المعمور، وليس المراد به نفي الإسراء إلى بيت المقدس ولا تفسير المسجد الأقصى في الآية بالبيت المعمور بل المراد نفي أن ينتهي الإسراء إلى بيت المقدس ولا يتجاوزه فقد استفاضت الروايات بتفسير المسجد الأقصى ببيت المقدس.

• وقوله ﷺ: (فرأيت ربي) أي شاهدته بعين قلبي كما تقدم في بعض الروايات السابقة ويؤيده تفسير الرؤية بذلك في روايات أخر.

• وقوله: (وحالت بيني وبينه السبحة) أي بلغت من القرب والزلفى مبلغا لم يبق بيني وبينه إلا جلاله، وقوله: فوضع يده بين ثديي.، كناية عن الرحمة الإلهية، ومحصله نزول العلم من لدنه تعالى على قلبه بحيث يزيل كل ريب وشك.

ز. أخرج ابن أبي شيبة ومسلم وابن مردويه من طريق ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى

سماء الدنيا، فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه: قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك، قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها فيها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى إلي ما أوحى، وفرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف عن أمتي، فحط عني خمسا فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمسا فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي وموسى حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات لكل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله

التخفيف فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحيت منه.

• أقول: وقد روي الخبر عن أنس بطرق مختلفة منها ما عن البخاري ومسلم وابن جرير وابن مردويه من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس قال: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم فقال أحدهم خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى، فيما يرى قلبه وتنام عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا ينام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته، حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده، حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب محشوا إيمانا، وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعني عروق حلقه، ثم أطبقه ثم عرج به إلى سماء الدنيا، ثم ساق الحديث نحوا مما تقدم.

• والذي وقع فيه من شق بطن النبي ﷺ وغسله وإنقائه ثم حشوه إيمانا وحكمة حال مثالية شاهدها وليس بالأمر المادي كما ربما يزعم، ويشهد به حشوه إيمانا وحكمة وأخبار المعراج مملوءة من المشاهدات المثالية والتمثلات الروحية، وقد ورد هذا المعنى في عدة من أخبار المعراج المروية من طرق القوم ولا ضير فيه كما لا يخفى.

• وظاهر الرواية أن معراجه ﷺ كان قبل البعثة وأنه كان في المنام أما كونه قبل البعثة فيدفعه معظم الروايات الواردة في الإسراء وهي أكثر من أن تحصى وقد اتفق على ذلك علماء هذا الشأن.

• على أن الحديث نفسه يدفع كون الإسراء قبل البعثة وقد اشتمل على فرض الصلوات وكونها أولا خمسين ثم سؤال التخفيف بإشارة من موسى عليه السلام ولا معنى للفرض قبل النبوة فمن الحري أن يحمل صدر الحديث على أن الملائكة أتوه أولا قبل أن يوحى إليه ثم تركوه ثم جاءوه ليلة أخرى بعد بعثته وقد ورد في بعض رواياتنا أن الذين كانوا نائمين معه في المسجد ليلة أسري به هم حمزة بن عبد المطلب وجعفر وعلي ابنا أبي طالب.

• وأما ما وقع فيه من كون ذلك في المنام فيمكن، على بعد، أن يكون ناظرا إلى ما ذكر فيه من حديث الشق والغسل لكن الأظهر أن المراد به وقوع الإسراء بجملته في المنام كما يدل عليه ما يأتي من الروايات.

و. أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان: أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول

الله ﷺ، قال كانت رؤيا من الله صادقة.

• أقول: وظاهر الآية الكريمة ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا﴾ يرده، وكذا آيات صدر سورة النجم وفيها مثل قوله: ﴿ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾ على أن الآيات في سياق الامتنان وفيها ثناء على الله سبحانه بذكر بديع رحمته وعجيب قدرته، ومن الضروري أن ذلك لا يتم برؤيا يراها النبي ﷺ والرؤيا يراها الصالح والطالح وربما يرى الفاسق الفاجر ما هو أبدع مما يراه المؤمن المتقي والرؤيا لا تعد عند عامة الناس إلا نوعا من التخيل لا يستدل به على شيء من القدرة والسلطنة بل غاية ما فيها أن يتفاءل بها فيرجى خيرها أو يتطير بها فيخاف شرها.

ح. أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عائشة قالت: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه.

• أقول: ويرد عليه ما ورد على سابقه على أنه يكفي في سقوط الرواية اتفاق كلمة الرواة وأرباب السير على أن الإسراء كان قبل الهجرة بزمان وأنه ﷺ بنى بعائشة في المدينة بعد الهجرة بزمان لم يختلف في ذلك اثنان والآية أيضا صريحة في إسرائه ﷺ من المسجد الحرام.

ط. أخرج الترمذي وحسنه والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود: قال: قال رسول الله ﷺ: لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد اقرأ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ي. أخرج الطبراني عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: لما أسري بي إلى السماء أدخلت الجنة، فوقعت على شجرة من أشجار الجنة، لم أر في الجنة أحسن منها، ولا أبيض ورقا ولا أطيب ثمرة، فتناولت ثمرة من ثمرها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة، فإذا أنا اشتقت إلى ريح الجنة شممت ريح فاطمة.

ك. وفي تفسير القمي، عن أبيه عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن أبي عبيدة عن الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يكثر تقبيل فاطمة، فأنكرت ذلك عائشة فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة إني لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة، فأدناني جبرئيل من شجرة طوبى وناولني من ثمارها، فأكلته فحول الله ذلك ماء في ظهري، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة، فما قبلتها قط إلا وجدت

رائحة شجرة طوبى منها.

ل. أخرج الطبراني في الأوسط، عن ابن عمر: أن النبي ﷺ لما أسري به إلى السماء، أوحي إليه بالأذان فنزل به فعلمه جبريل.

م. أخرج ابن مردويه عن علي: أن النبي ﷺ علم الأذان ليلة أسري به وفرضت عليه الصلاة.

ن. وفي العلل، بإسناده عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، كيف صارت الصلاة ركعة وسجدتين؟ وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين؟ فقال: إذا سألت عن شيء ففرغ قلبك لتفهم، أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إنما صلاها في السماء، بين يدي الله تبارك وتعالى قدام عرشه جل جلاله، وذلك أنه لما أسري به وصار عند عرشه تبارك وتعالى قال: يا محمد ادن من صاد فاغسل مساجدك وطهرها وصل لربك، فدنا رسول الله ﷺ إلى حيث أمره الله تبارك وتعالى، فتوضأ فأسبغ وضوءه ثم استقبل الجبار تبارك وتعالى قائما، فأمره بافتتاح الصلاة ففعل، فقال: يا محمد اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين إلى آخرها، ففعل ذلك ثم أمره أن يقرأ نسبة ربه تبارك وتعالى، بسم الله الرحمن الرحيم، قل هو الله أحد الله الصمد، ثم أمسك عنه القول فقال رسول الله ﷺ: قل هو الله أحد الله الصمد فقال: قل: لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فأمسك عنه القول فقال رسول الله ﷺ: كذلك الله ربي كذلك الله ربي، فلما قال ذلك، قال: اركع يا محمد لربك فركع رسول الله ﷺ، فقال له وهو راكع: قل سبحان ربي العظيم وبحمده، ففعل ذلك ثلاثا، ثم قال: ارفع رأسك يا محمد، ففعل ذلك رسول الله ﷺ فقام منتصبا بين يدي الله، فقال: اسجد يا محمد لربك فخر رسول الله ﷺ ساجدا، فقال: قل: سبحان ربي الأعلى وبحمده، ففعل ذلك رسول الله ﷺ ثلاثا، فقال: استو جالسا يا محمد ففعل، فلما استوى جالسا ذكر جلال ربه جل جلاله، فخر رسول الله ﷺ ساجدا من تلقاء نفسه، لا لأمر أمره ربه عز وجل فسبح أيضا ثلاثا، فقال: انتصب قائما ففعل، فلم ير ما كان رأى من عظمة ربه جل جلاله، فقال له: اقرأ يا محمد، وافعل كما فعلت في الركعة الأولى، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، ثم سجد سجدة واحدة، فلما رفع رأسه ذكر جلال ربه تبارك وتعالى، فخر رسول الله ﷺ ساجدا من تلقاء نفسه، لا لأمر أمره ربه عز وجل فسبح أيضا ثم قال له، ارفع رأسك ثبتك الله واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت وباركت وترحمت على

إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد اللهم تقبل شفاعته في أمته، وارفع درجته ففعل، فقال: يا محمد واستقبل رسول الله ﷺ ربه، تبارك وتعالى وجهه مطرقا فقال: السلام عليك فأجابه الجبار جل جلاله، فقال: وعليك السلام يا محمد، بنعمتي قويتك على طاعتي وبعصمتي اتخذتك نبيا وحبيبا، ثم قال أبو الحسن: عليه السلام وإنما كانت الصلاة، التي أمر بها ركعتين وسجدتين، وهو ﷺ إنما سجد سجدتين في كل ركعة، كما أخبرتك من تذكره لعظمة ربه تبارك وتعالى، فجعله الله عز وجل فرضا، قلت: جعلت فداك وما صاد الذي أمر أن يغتسل منه؟ فقال: عين تنفجر من ركن من أركان العرش يقال له: ماء الحياة وهو ما قال الله عز وجل: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ إنما أمره أن يتوضأ ويقرأ ويصلي.

• أقول: وفي معناه روايات أخر.

س. وفي الكافي، بإسناده عن علي بن أبي حمزة قال: سأل أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر، فقال: جعلت فداك كم عرج برسول الله ﷺ؟ فقال: مرتين، فأوقفه جبرئيل موقفا فقال له: مكانك يا محمد، فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملك قط ولا نبي، إن ربك يصلي فقال: يا جبرئيل، وكيف يصلي؟ فقال: يقول: سبوح قدوس أنا رب الملائكة والروح، سبقت رحمتي غضبي فقال: اللهم عفوك عفوك، قال: وكان كما قال الله: قاب قوسين أو أدنى، فقال له أبو بصير: جعلت فداك وما قاب قوسين أو أدنى؟ قال: ما بين سيتها إلى رأسها فقال، بينهما حجاب يتلألأ ولا أعلمه إلا وقد قال: من زبرجد، فنظر في مثل سم الإبرة إلى ما شاء الله من نور العظمة الحديث.

• أقول: وآيات صدر سورة النجم تؤيد ما في الرواية من وقوع المعراج مرتين ثم الاعتبار يساعد على ما في الرواية من صلاته تعالى فإن الأصل في معنى الصلاة الميل والانعطاف، وهو من الله سبحانه الرحمة ومن العبد الدعاء كما قيل، واشتمال ما أخبر به جبرئيل من صلاته تعالى على قوله: (سبقت رحمتي غضبي) يؤيده ما ذكرناه ولذلك أيضا أوقفه جبرئيل في الموقف الذي أوقفه وذكر له أنه موطأ ما وطئه أحد قبله وذلك أن لازم ما وصفه بهذا الوصف أن يكون الموقف هو الحد الفاصل بين الخلق والخالق وآخر ما ينتهي إليه الإنسان من الكمال فهو الحد الذي يظهر فيه الرحمة الإلهية وتفاض على ما دونه ولهذا أوقف ﷺ لمشاهدته.

ع. وفي المجمع، وهو ملخص من الروايات، أن النبي ﷺ قال: أتاني جبرائيل وأنا بمكة فقال: قم

يا محمد فقمت معه وخرجت إلى الباب، فإذا جبرائيل ومعه ميكائيل وإسرافيل، فأتى جبرائيل بالبراق وكان فوق الحمار ودون البغل، خده كخد الإنسان وذنبه كذنب البقر وعرفه كعرف الفرس، وقوائمه كقوائم الإبل عليه رحل من الجنة، وله جناحان من فخذيه خطوه منتهى طرفه، فقال: اركب فركبت ومضيت حتى انتهيت إلى بيت المقدس، ثم ساق الحديث إلى أن قال: فلما انتهيت إلى بيت المقدس، إذا ملائكة نزلت من السماء بالبشارة والكرامة، من عند رب العزة وصليت في بيت المقدس، وفي بعضها، بشر لي إبراهيم، في رهط من الأنبياء، ثم وصف موسى وعيسى ثم أخذ جبرائيل بيدي إلى الصخرة، فأقعدني عليها فإذا معراج إلى السماء، لم أر مثلها حسنا وجمالا، فصعدت إلى السماء الدنيا، ورأيت عجائبها وملكوتها وملائكتها يسلمون علي، ثم صعد بي جبرائيل إلى السماء الثانية، فرأيت فيها عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فرأيت فيها يوسف، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فرأيت فيها إدريس، ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فرأيت فيها هارون، ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض وفيها الكروبيون، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فأبصرت فيها خلقا وملائكة، وفي حديث أبي هريرة رأيت في السماء السادسة موسى، ورأيت في السماء السابعة إبراهيم، قال: ثم جاوزناها متصاعدين إلى أعلى عليين، ووصف ذلك إلى أن قال، ثم كلمني ربي وكلمته ورأيت الجنة والنار، ورأيت العرش وسدرة المنتهى ثم رجعت إلى مكة، فلما أصبحت حدثت به الناس فكذبني أبو جهل والمشركون، وقال مطعم بن عدي: أتزعم أنك سرت مسيرة شهرين في ساعة؟ أشهد أنك كاذب، قالوا: ثم قالت قريش، أخبرنا عما رأيت فقال: مررت بعير بني فلان، وقد أضلوا بعيرا لهم وهم في طلبه وفي رحلهم قعب مملوء من ماء فشربت الماء ثم غطيته فاسألوهم، هل وجدوا الماء في القدح؟ قالوا: هذه آية واحدة، قال: ومررت بعير بني فلان فنفرت بكرة فلان، فانكسرت يدها فاسألوهم عن ذلك، فقالوا: هذه آية أخرى قالوا: فأخبرنا عن عيرنا، قال: مررت بها بالتنعيم وبين لهم أحمالها وهيئاتها وقال: يقدمها جمل أورق عليه فزارتان محيطتان، وتطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا: هذه آية أخرى، ثم خرجوا يشتدون نحو التيه وهم يقولون: لقد قضى محمد بيننا وبينه قضاء بينا، وجلسوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه؟ فقال قائل: والله إن الشمس قد طلعت، وقال آخر: والله هذه الإبل قد طلعت، يقدمها بعير أورق فبهتوا ولم يؤمنوا.

ف. وفي تفسير العياشي، عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ صلى العشاء الآخرة، وصلى الفجر في الليلة التي أسري به بمكة.

• أقول: وفي بعض الأخبار أنه ﷺ صلى المغرب بالمسجد الحرام ثم أسري به ولا منافاة بين الروايتين وكذا لا منافاة بين كونه صلى المغرب أو العشاء الآخرة والفجر بمكة وبين كون الصلوات الخمس فرضت عليه في السماء ليلة الإسراء فإن فرض أصل الصلاة كان قبل ذلك، وأما أنها كم ركعة كانت فغير معلوم غير أن الآثار تدل على أنه ﷺ كان يقيم الصلاة منذ بعثه الله نبيا وفي سورة العلق: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى﴾ وقد روي أنه ﷺ كان يصلي بعلي وخديجة عليه السلام بالمسجد الحرام قبل أن يعلن دعوته بمدة.

ص. وفي الكافي، عن العامري عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما عرج برسول الله ﷺ نزل بالصلاة عشر ركعات ركعتين ركعتين، فلما ولد الحسن والحسين عليه السلام، زاد رسول الله ﷺ سبع ركعات شكرا لله، فأجاز الله له ذلك وترك الفجر لم يزد فيها، لأنه يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، فلما أمره الله بالتقصير في السفر، وضع عن أمته ست ركعات وترك المغرب لم ينقص منه شيئا، وإنما يجب السهو فيما زاد رسول الله ﷺ، فمن شك في أصل الفرض في الركعتين الأولين استقبل صلاته.

ق. وروى الصدوق في الفقيه، بإسناده عن سعيد بن المسيب: أنه سأل علي بن الحسين عليه السلام، فقال: متى فرضت الصلاة على المسلمين على ما هي اليوم عليه؟ فقال: بالمدينة حين ظهرت الدعوة وقوي الإسلام، وكتب الله على المسلمين الجهاد، زاد رسول الله ﷺ في الصلاة سبع ركعات، في الظهر ركعتين وفي العصر ركعتين وفي المغرب ركعة، وفي العشاء الآخرة ركعتين، وأقر الفجر على ما فرضت بمكة، الحديث.

ر. أخرج أحمد والنسائي والبزاز والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، بسند صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة، فقلت: يا جبرئيل ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: ماشطة بيت فرعون وأولادها كانت تمشطها، فسقط المشط من يدها فقالت: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: بلى ربي وربك ورب أبيك، قالت: أولك رب غير أبي؟ قالت نعم، قالت: فأخبر بذلك أبي؟ قالت: نعم، فأخبرته فدعاها فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله الذي في السماء، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها، قالت: إن لي إليك حاجة قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنه جميعا، قال ذلك لك لما لك علينا من حق فألقوا واحدا واحدا،

حتى بلغ رضيعا فيهم قال: نعي يا أمه ولا تقاعسي، فإنك على الحق فألقيت هي وولدها، قال ابن عباس: وتكلم أربعة وهم صغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم.

• أقول: وروي من وجه آخر عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ.

ش. أخرج ابن مردويه عن أنس أن النبي ﷺ قال: ليلة أسري بي مررت بناس يقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت عادت كما كانت فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون.

• أقول: وهذا النوع من التمثلات البرزخية التي تصور الأعمال بنتائجها والعذابات المعدة لها كثيرة الورود في أخبار الإسراء وقد تقدم شطر منها في ضمن الروايات.

• واعلم أن ما أوردناه من أخبار الإسراء نبذة يسيرة منها وهي كثيرة بالغة حد التواتر رواها جم غفير من الصحابة كأنس بن مالك وشداد بن الأوس وعلي بن أبي طالب عليه السلام وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعبد الله بن مسعود وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأبي بن كعب وسمرة بن جندب وبريدة وصهيب بن سنان وحذيفة بن اليمان وسهل بن سعد وأبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وأبو الحمراء وأبو الدرداء وعروة وأم هاني وأم سلمة وعائشة وأسماء بنت أبي بكر كلهم عن رسول الله ﷺ وروتها جماعة كثيرة من رواة الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

٢. موسى وهدى الكتاب لبني إسرائيل:

المقطع [٢] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٢ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٥»:

١. ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾:

أ. الكتاب كثيرا ما يطلق في كلامه تعالى على مجموع الشرائع المكتوبة على الناس القاضية بينهم فيما اختلفوا فيه من الاعتقاد والعمل ففيه دلالة على اشتماله على الوظائف الاعتقادية والعملية التي عليهم أن يأخذوها ويتلبسوا بها، ولعله لذلك قيل: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ولم يقل التوراة ليدل به على اشتماله على شرائع مفترضة عليهم.

ب. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ بمنزلة التفسير لإيتائه الكتاب، وكونه هدى أي هاديا لهم هو بيانه لهم شرائع ربهم التي لو أخذوها وعملوا بها لاهتدوا إلى الحق ونالوا سعادة الدارين.

٢. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾:

أ. أن: فيه للتفسير ومدخولها محصل ما يشتمل عليه الكتاب الذي جعل هدى لهم فيئول المعنى إلى أن محصل ما كان الكتاب يبينه لهم ويهديهم إليه هو نهيه إياهم أن يشركوا بالله شيئا ويتخذوا من دونه وكيلا فقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ تفسيرا لقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ إن كان ضمير ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ عائدا إليهم كما هو الظاهر، وتفسير لجميع ما تقدمه إن احتمل رجوعه إلى موسى وبني إسرائيل جميعا.

ب. وفي الجملة التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده ووجهه بيان كون التكلم مع الغير لغرض التعظيم وجريان السياق على ما كان عليه من التكلم مع الغير كأن يقال: (أن لا تتخذوا من دوننا وكلاء) لا يناسب معنى التوحيد الذي سيقت له الجملة، ولذلك عدل فيها إلى سياق التكلم وحده ثم لما ارتفعت الحاجة رجع الكلام إلى سياقه السابق فقيل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾

ج. ورجوع اتخاذ الوكيل من دون الله إلى الشرك إنما هو من جهة أن الوكيل هو الذي يكفل إصلاح الشئون الضرورية لموكله ويقدم على رفع حوائجه وهو الله سبحانه فاتخاذ غيره ربا هو اتخاذ وكيل من دونه.

٣. ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً﴾:

أ. تطلق الذرية على الأولاد بعناية كونهم صغارا ملحقين بآبائهم، وهي، على ما يهدي إليه السياق، منصوبة على الاختصاص ويفيد الاختصاص عناية خاصة من المتكلم به في حكمه فهو بمنزلة التعليل كقوله تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] أي ليفعل بكم ذلك لأنكم أهل بيت النبوة.

ب. فقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ يفيد فائدة التعليل بالنسبة إلى ما تقدمه كما أن قوله: ﴿إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ يفيد فائدة التعليل بالنسبة إليه:

• أما الأول فلأن الظاهر أن تعلق العناية بهم إنما هو من جهة ما سبق من الله سبحانه لأهل سفينة

نوح من الوعد الجميل حين نجاهم من الطوفان وأمر نوحا بالهبوط بقوله: ﴿يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨] ففي إنزاله الكتاب لموسى وجعله هدى لبني إسرائيل إنجاز للوعد الحسن الذي سبق لآبائهم من أهل السفينة وجرى على السنة الإلهية الجارية في الأمم فكأنه قيل: أنزلنا على موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل لأنهم ذرية من حملنا مع نوح وقد وعدناهم السلام والبركات والتمتيع.

• وأما الثاني فلأن هذه السنة أعني سنة الهداية والإرشاد وطريقة الدعوة إلى التوحيد هي بعينها السنة التي كان نوح عليه السلام أول من قام بها في العالم البشري فشكر بذلك نعمة الله وأخلص له في العبودية، وقد تقدم مرارا أن الشكر بحقيقته يلازم الإخلاص في العبودية، فشكر الله له، وجعل سنته باقية ببقاء الدنيا، وسلم عليه في العالمين، وأثابه بكل كلمة طيبة وعمل صالح إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]

ج. فيتلخص معنى الآيتين في مثل قولنا: إنا جزينا نوحا بما كان عبدا شكورا لنا أنا أبقينا دعوته وأجرينا سنته وطريقته في ذرية من حملناهم معه في السفينة ومن ذلك أنا أنزلنا على موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل.

د. ويظهر من قوله في الآية: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن قوله: ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ أن الناس ذرية نوح عليه السلام من جهة الابن والبنت معا، ولو كانت الذرية منتهية إلى أبنائه فقط وكان المراد بقوله: ﴿مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ أبناءه فقط كان الأحسن بل المتعين أن يقال: ذرية نوح وهو ظاهر.

هـ. وللقوم في إعراب الآية وجوه أخرى كثيرة كقول من قال: إن ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ منصوب على النداء بحذف حرفه، والتقدير يا ذرية من حملنا، وقيل: مفعول أول لقوله: تتخذوا ومفعوله الثاني قوله: ﴿وَكِيلاً﴾ والتقدير أن لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلا من دوني، وقيل: بدل من موسى في الآية السابقة وهي وجوه ظاهرة السخافة.

و. ويتلوها في ذلك قول من قال: إن ضمير ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى موسى دون نوح والجملة تعليل لإيتائه الكتاب أو لجعله عليه السلام هدى لبني إسرائيل بناء على رجوع ضمير ﴿وَجَعَلْناهُ﴾ إلى موسى دون

الكتاب.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن نوحا إنما سمي عبدا شكورا، لأنه كان يقول إذا أمسى وأصبح: اللهم إني أشهدك أنه ما أمسى وأصبح بي من نعمة، أو عافية في دين أو دنيا فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها علي حتى ترضى وبعد الرضا.

• أقول: وروي هذا المعنى بتفاوت يسير بعدة طرق في الكافي وتفسيري القمي، والعياشي،.

ب. أخرج ابن مردويه عن أبي فاطمة أن النبي ﷺ قال: كان نوح عليه السلام لا يحمل شيئا صغيرا ولا كبيرا إلا قال: بسم الله والحمد لله فسماه الله عبدا شكورا.

• أقول: والروايات لا تنافي ما تقدم من تفسير الشكر بالإخلاص فمن المعلوم أن دعاءه لم يكن إلا عن تحققه بحقيقة ما دعا به ولا ينفك ذلك عن الإخلاص في العبودية.

٣. الإفساد في الأرض مرتين والعلو الكبير:

المقطع [٣] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٨»:

١. ﴿وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (القضاء فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا، وكل واحد منهما على وجهين: إلهي وبشري فمن القول الإلهي قوله: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي أمر بذلك، وقال: ﴿وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ﴾ فهذا قضاء بالإعلام والفصل في الحكم أي أعلمناهم وأوحينا إليهم وحيا جزما وعلى هذا ﴿وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ﴾ ومن الفعل الإلهي قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إشارة إلى إيجاده الإبداعي والفراغ منه نحو: ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾.، ومن القول البشري نحو قضى الحاكم بكذا فإن حكم الحاكم يكون بالقول، ومن الفعل البشري ﴿فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾)

ب. والعلو هو الارتفاع وهو في الآية كناية عن الطغيان بالظلم والتعدي ويشهد بذلك عطفه على الإفساد عطف التفسير، وفي هذا المعنى قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً﴾

ج. ومعنى الآية وأخبرنا وأعلمنا بني إسرائيل إخبارا قاطعا في الكتاب وهو التوراة: أقسم وأحق هذا القول أنكم شعب إسرائيل ستفسدون في الأرض وهي أرض فلسطين وما يتبعها مرتين مرة بعد مرة وتعلون علوا كبيرا وتطغون طغيانا عظيما.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير البرهان، عن ابن قولويه بإسناده عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: قتل أمير المؤمنين وطعن الحسن بن علي عليه السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ قال: قتل الحسين عليه السلام ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما﴾ قال: إذا جاء نصر الحسين ﴿بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ﴾ قوم يبعثهم الله قبل قيام القائم، لا يدعون لآل محمد وترا إلا أخذوه ﴿وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾

• أقول: وفي معناها روايات أخرى وهي مسوقة لتطبيق ما يجري في هذه الأمة من الحوادث على ما جرى منها في بني إسرائيل تصديقا لما تواتر عن النبي ﷺ هذه الأمة ستركب ما ركبته بنو إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخله هؤلاء، وليست الروايات واردة في تفسير الآيات، ومن شواهد ذلك اختلاف ما فيها من التطبيق.

• وأما أصل القصة التي تتضمنها الآيات الكريمة فقد اختلفت الروايات فيها اختلافا عجيبا يسلب عنها التعويل، ولذلك تركنا إيرادها هاهنا من أرادها فليراجع جوامع الحديث من العامة والخاصة.

• وقد نزل على بني إسرائيل منذ استقلوا بالملك والسؤدد نوازل هامة كثيرة فوق اثنتين، على ما يضبطه تاريخهم، يمكن أن ينطبق ما تضمنته هذه الآيات على اثنتين منها لكن الذي هو كالمسلم عندهم أن إحدى هاتين النكايتين اللتين تشير إليهما الآيات هي ما جرى عليهم بيد بخت نصر (نبوكد نصر) من ملوك بابل قبل الميلاد بستة قرون تقريبا، وكان ملكا ذا قوة وشوكة من جبابرة عهده، وكان يحمي بني إسرائيل فعصوه وتمردوا عليه فسار إليهم بجيوش لا قبل لهم بها وحاصر بلادهم ثم فتحها عنوة فخرب البلاد وهدم المسجد الأقصى وأحرق التوراة وكتب الأنبياء وأباد النفوس بالقتل العام ولم يبق منهم إلا شرذمة قليلة من النساء والذراري وضعفاء الرجال فأسرهم وسيرهم معه إلى بابل فلم يزالوا هناك لا

يحميهم حام ولا يدفع عنهم دافع طول زمن حياة بخت نصر وبعده زمانا طويلا حتى قصد الكسرى كورش أحد ملوك الفرس العظام بابل وفتحه تلطف على الأسرى من بني إسرائيل وأذن لهم في الرجوع إلى الأرض المقدسة، وأعانهم على تعمير الهيكل، المسجد الأقصى، وتجديد الأبنية وأجاز لعزراء أحد كهنتهم أن يكتب لهم التوراة وذلك في نيف وخمسين وأربعمائة سنة قبل الميلاد.

• والذي يظهر من تاريخ اليهود أن المبعوث أولا لتخريب بيت المقدس هو بخت نصر وبقي خرابا سبعين سنة، والمبعوث ثانيا هو قيصر الروم إسبيانوس سير إليهم وزيره طوطوز فخرب البيت وأذل القوم قبل الميلاد بقرن تقريبا.

• وليس من البعيد أن يكون الحادثتان هما المرادتان في الآيات فإن الحوادث الأخرى لم تفن جمعهم ولم تذهب بملكهم واستقلالهم بالمرة لكن نازلة بخت نصر ذهب بجميعهم وسؤددهم إلى زمن كورش ثم اجتمع شملهم بعده برهة ثم غلب عليهم الروم وأذهبت بقوتهم وشوكتهم فلم يزالوا على ذلك إلى زمن ظهور الإسلام.

• ولا يبعده إلا ما تقدمت الإشارة إليه في تفسير الآيات أن فيها إشعارا بأن المبعوث إلى بني إسرائيل في المرة الأولى والثانية قوم بأعيانهم وأن قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ مشعر بأن الكرة من بني إسرائيل على القوم المبعوثين عليهم أولا، وأن قوله: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ﴾ مشعر برجوع ضمير الجمع إلى ما تقدم من قوله: ﴿عِباداً لَنا﴾ لكنه إشعار من غير دلالة ظاهرة لجواز أن يكون المراد كرة من غير بني إسرائيل على أعدائهم وهم ينتفعون بها وأن يكون ضمير الجمع عائدا إلى ما يدل عليه الكلام بسياقه من غير إيجاب السياق أن يكون المبعوثون ثانيا هم المبعوثين أولا)

٣. وضع هنا مبحثا حول [القضاء في القرآن (دراسة في المعنى والفلسفة والروايات)]، خلاصته:«الميزان: ١٣/ ٧٢»:

أ. القضاء في اللغة والاصطلاح القرآني يعني فصل الأمر وتعيين أحد الجانبين بعد التردد والإبهام، وذلك إما في الأمور التكوينية (بتمام عللها الموجبة) أو في الأمور التشريعية (بالحكم الفصل بين المتنازعين)

ب. الحوادث الخارجية قبل تمام عللها تكون مترددة بين الوجود والعدم، فإذا تمت عللها الموجبة وارتفعت موانعها، تعين لها أحد الجانبين (الوجود أو العدم)، وهذا التعيين هو القضاء الإلهي.

ج. القضاء من صفات الله الفعلية، وهو منتزع من الفعل من جهة نسبته إلى علته التامة الموجبة له، وليس صفة ذاتية قائمة بذاته.

د. الآيات القرآنية تفرق بين القضاء التكويني (كقوله: ﴿وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾) والقضاء التشريعي (كقوله: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾)، وبين القضاء بمعنى الفصل في الخصومة (كقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾)

هـ. الروايات تفرق بين المشية والإرادة والتقدير والقضاء والإمضاء، فالمشية هي ابتداء الفعل، والإرادة هي الثبوت عليه، والتقدير هو تحديد الهندسة (الطول والعرض والبقاء)، والقضاء هو الإمضاء الذي لا مرد له، والإمضاء هو التنفيذ النهائي.

و. الفرق بين القدر والقضاء: أن القدر لا يحتم المقدر، فمن المرجو أن لا يقع ما قدر، أما إذا وقع القضاء فلا مدفع له، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أفر من قضاء الله إلى قدر الله)

٤. الوعد الأول وبعث أولي البأس الشديد:

المقطع [٤] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٩»:

١. ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا﴾:

أ. قال الراغب: (البؤس والبأس والبأساء الشدة والمكروه إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر والبأس والبأساء في النكاية نحو ﴿وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً﴾)

ب. وفي المجمع: (الجوس التخلل في الديار يقال: تركت فلان يجوس بني فلان ويجوسهم ويدوسهم أي يطؤهم، قال أبو عبيد: كل موضع خالطته ووطأته فقد حسته وجسته قال: وقيل: الجوس طلب الشيء باستقصاء)

ج. ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما﴾ تفريع على قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَ﴾، وضمير التثنية راجع إلى المرتين وهما الإفسادتان فالمراد بها الإفسادة الأولى، والمراد بوعد أولاهما ما وعدهم الله من النكال والنقمة على إفسادهم فالوعد بمعنى الموعود، ومجيء الوعد كناية عن وقت إنجازه، ويدل ذلك على أنه وعدهم على إفسادهم

مرتين وعدين ولم يذكرا إنجازا فكأنه قيل: لتفسدن في الأرض مرتين ونحن نعدكم الانتقام على كل منهما فإذا جاء وعد المرة الأولى.، كل ذلك معونة السياق.

٢. ﴿بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾:

أ. أي أنهضناهم وأرسلناهم إليكم ليذلوكم وينتقموا منكم، والدليل على كون البعث للانتقام والإذلال قوله: ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

ب. ولا ضير في عد مجيئهم إلى بني إسرائيل مع ما كان فيه من القتل الذريع والأسر والسبي والنهب والتخريب بعثا إلهيا لأنه كان على سبيل المجازاة على إفسادهم في الأرض وعلوهم وبغيهم بغير الحق، فما ظلمهم الله ببعث أعدائهم وتأييدهم عليهم ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم.

ج. وبذلك يظهر أن لا دليل من الكلام يدل على قول من قال: إن المراد بقوله: ﴿بَعَثْنا عَلَيْكُمْ إلخ) أمرنا قوما مؤمنين بقتالكم وجهادكم لاقتضاء ظاهر قوله: ﴿بَعَثْنا﴾ وقوله: ﴿عِباداً﴾ ذلك وذلك لما عرفت أن عد ذلك بعثا إلهيا لا مانع فيه بعد ما كان على سبيل المجازاة، وكذا لا مانع من عد الكفار عبادا لله مع ما تعقبه من قوله: ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

د. ونظيره قول من قال: يجوز أن يكون هؤلاء المبعوثون مؤمنين أمرهم الله بجهاد هؤلاء، ويجوز أن يكونوا كفارا فتألفهم نبي من الأنبياء لحرب هؤلاء، وسلطهم على أمثالهم من الكفار والفساق، ويرد عليه نظير ما يرد على سابقه.

٣. ﴿وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ تأكيد لكون القضاء حتما لازما والمعنى فإذا جاء وقت الوعد الذي وعدناه على المرة الأولى من إفسادكم مرتين بعثنا وأنهضنا عليكم من الناس عبادا لنا أولي بأس وشدة شديدة فدخلوا بالقهر والغلبة أرضكم وتوسطوا في دياركم فأذلوكم وأذهبوا استقلالكم وعلوكم وسؤددكم وكان وعدا مفعولا لا محيص عنه.

٥. رد الكرة وإمداد الأموال والبنين:

المقطع [٥] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٤٠»:

١. ﴿ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَموالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾:

أ. قال في المجمع: (الكرة معناه الرجعة والدولة، والنفير العدد من الرجال قال الزجاج: ويجوز أن يكون جمع نفر كما قيل: العبيد والضئين والمعيز والكليب، ونفر الإنسان ونفره ونفيره ونافرته رهطه الذين ينصرونه وينفرون معه)

ب. ومعنى الآية ظاهر، وظاهرها أن بني إسرائيل ستعود الدولة لهم على أعدائهم بعد وعد المرة الأولى فيغلبونهم ويقهرونهم ويتخلصون من استعبادهم واسترقاقهم وأن هذه الدولة سترجع إليهم تدريجا في برهة معتد بها من الزمان كما هو لازم إمدادهم بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيرا.

٢. وفي قوله في الآية التالية: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ إشعار بل دلالة بمعونة السياق أن هذه الواقعة وهي رد الكرة لبني إسرائيل على أعدائهم إنما كانت لرجوعهم إلى الإحسان بعد ما ذاقوا وبال إساءتهم قبل ذلك كما أن إنجاز وعد الآخرة إنما كان لرجوعهم ثانيا إلى الإساءة بعد رجوعهم هذا إلى الإحسان.

٦. الوعد الآخر والتدمير:

المقطع [٦] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٤٠»:

١. ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾:

أ. اللام في ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾ و﴿فَلَهَا﴾ للاختصاص أي إن كلا من إحسانكم وإساءتكم يختص بأنفسكم دون أن يلحق غيركم، وهي سنة الله الجارية أن العمل يعود أثره وتبعته إلى صاحبه إن خيرا وإن شرا فهو كقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٤١]

ب. فالمقام مقام بيان أن أثر العمل لصاحبه خيرا كان أو شرا، وليس مقام بيان أن الإحسان ينفع صاحبه والإساءة تضره حتى يقال: وإن أسأتم فعليها كما قيل: ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

ج. فلا حاجة إلى ما تكلفه بعضهم أن اللام في قوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ بمعنى على، وقول آخرين: إنها بمعنى إلى لأن الإساءة تتعدى بها يقال: أساء إلى فلان ويسيء إليه إساءة، وقول آخرين: إنها

للاستحقاق كقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾

د. وربما أورد على كون اللام للاختصاص بأن الواقع على خلافه فكثيرا ما يتعدى أثر الإحسان إلى غير محسنه وأثر الإساءة إلى غير فاعلها وهو ظاهر.

هـ. والجواب عنه أن فيه غفلة عما يراه القرآن الكريم في آثار الأعمال أما آثار الأعمال الأخروية فإنها لا تتعدى صاحبها البتة قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، وأما الآثار الدنيوية فإن الأعمال لا تؤثر أثرا في غير فاعلها إلا أن يشاء الله من ذلك شيئا على سبيل النعمة على الغير أو النقمة أو الابتلاء والامتحان فليس في مقدرة الفاعل أن يوصل أثر فعله إلى الغير دائما إلا أحيانا يريده الله لكن الفاعل يلحقه أثر فعله الحسن أو السيئ دائما من غير تخلف.

و. فللمحسن نصيب من إحسانه وللمسيء نصيب من إساءته، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزال: ٨] فأثر الفعل لا يفارق فاعله إلى غيره، وهذا معنى ما روي عن علي عليه السلام أنه قال: ما أحسنتم إلى أحد ولا أسأت إليه وتلا الآية.

٢. ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً﴾:

أ. التتبير الإهلاك من التبار بمعنى الهلاك والدمار.

ب. ﴿لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ﴾ من المساءة يقال: ساء زيد فلانا إذا أحزنه وهو على ما قيل متعلق بفعل مقدر محذوف للإيجاز، واللام للغاية والتقدير بعثناهم ليسوئوا وجوهكم بظهور الحزن والكآبة فيها وبدو آثار الذلة والمسكنة وصغار الاستعباد عليها بما يرتكبونه فيكم من القتل الذريع والسبي والنهب.

ج. ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ المراد بالمسجد هو المسجد الأقصى، بيت المقدس، ولا يعبأ بما ذكره بعضهم أن المراد به جميع الأرض المقدسة مجازا، وفي الكلام دلالة أولا أنهم في وعد المرة الأولى أيضا دخلوا المسجد عنوة وإنما لم يذكر قبلا للإيجاز، وثانيا أن دخولهم المسجد إنما كان للهتك والتخريب، وثالثا يشعر الكلام بأن هؤلاء المهاجمين المبعوثين لمجازاة بني إسرائيل والانتقام منهم هم الذين بعثوا عليهم أولا.

د. ﴿وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ أي ليهلكوا الذي غلبوا عليه إهلاكا فيقتلوا النفوس ويحرقوا

الأموال ويهدموا الأبنية ويخربوا البلاد، واحتمل أن يكون ما مصدرية بحذف مضاف وتقدير الكلام: وليتبروا مدة علوهم تتبيرا، والمعنى الأول أقرب إلى الفهم وأوفق بالسياق.

٣. والمقايسة بين الوعدين أعني قوله: ﴿بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا﴾ وقوله: ﴿لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ﴾ يعطي أن الثاني كان أشد على بني إسرائيل وأمر وقد كادوا أن يفنوا ويبيدوا فيه عن آخرهم وكفى في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ والمعنى فإذا جاء وعد المرة الآخرة وهي الثانية من الإفسادتين بعثناهم ليسوئوا وجوهكم بظهور الحزن والكآبة وبدو الذلة والمسكنة وليدخلوا المسجد الأقصى كما دخلوه أول مرة وليهلكوا الذي غلبوا عليه ويفنوا الذي مروا عليه إهلاكا وإفناء.

٧. الرحمة المشروطة:

المقطع [٧] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٤٢»:

١. ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً﴾:

أ. الحصير من الحصر وهو، على ما ذكروه، التضييق والحبس قال تعالى: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] أي ضيقوا عليهم.

ب. ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ أي بعد البعث الثاني على ما يفيده السياق وهو ترج للرحمة على تقدير أن يتوبوا ويرجعوا إلى الطاعة والإحسان بدليل قوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا﴾ أي وإن تعودوا إلى الإفساد والعلو، بعد ما رجعتم عنه ورحمكم ربكم نعد إلى العقوبة والنكال، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ومكانا حابسا لا يستطيعون منه خروجا.

٢. وفي قوله: ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وكأن الوجه فيه الإشارة إلى أن الأصل الذي يقتضيه ربوبيته تعالى أن يرحم عباده إن جروا على ما يقتضيه خلقتهم ويرشد إليه فطرتهم إلا أن ينحرفوا عن خط الخلقة ويخرجوا عن صراط الفطرة، والإيماء إلى هذه النكتة يوجب ذكر وصف الرب فاحتاج السياق أن يتغير عن التكلم مع الغير إلى الغيبة ثم لما استوفيت النكتة بقوله: ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ عاد الكلام إلى ما كان عليه.

٨. القرآن يهدي للتي هي أقوم:

المقطع [٨] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩ـ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٤٦»:

١. ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾:

أ. أي للملة التي هي أقوم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾ [الأنعام: ١٦١]

ب. والأقوم أفعل تفضيل والأصل في الباب القيام ضد القعود الذي هو أحد أحوال الإنسان وأوضاعه، وهو أعدل حالاته يتسلط به على ما يريده من العمل بخلاف القعود والاستلقاء والانبطاح ونحوها ثم كني به عن حسن تصديه للأمور إذا قوي عليها من غير عجز وعي وأحسن إدارتها للغاية يقال: قام بأمر كذا إذا تولاه وقام على أمر كذا أي راقبه وحفظه وراعى حاله بما يناسبه.

ج. وقد وصف الله سبحانه هذه الملة الحنيفية بالقيام كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]

د. وذلك لكون هذا الدين مهيمنا على ما فيه خير دنياهم وآخرتهم قيما على إصلاح حالهم في معاشهم، ومعادهم وليس إلا لكونه موافقا لما تقتضيه الفطرة الإنسانية والخلقة التي سواه الله سبحانه عليها وجهزه بحسبها بما يهديه إلى غايته التي أريدت له، وسعادته التي هيئت لأجله.

هـ. وعلى هذا فوصف هذه الملة في قوله: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ بأنها أقوم إن كان بقياسها إلى سائر الملل إنما هو من جهة أن كلا من تلك الملل سنة حيوية اتخذها ناس لينتفعوا بها في شيء من أمور حياتهم لكنها إن كان تنفعهم في بعضها فهي تضرهم في بعض آخر وإن كانت تحرز لهم شطرا مما فيه هواهم فهي تفوت عليهم شطرا عظيما مما فيه خيرهم، وإنما ذلك الإسلام يقوم على حياتهم وبجميع ما يهمهم في الدنيا والآخرة من غير أن يفوته فائت فالملة الحنيفية أقوم من غيرها على حياة الإنسان.

و. وإن كان بالقياس إلى سائر الشرائع الإلهية السابقة كشريعة نوح وموسى وعيسى عليه السلام كما هو ظاهر جعلها مما يهدي إليها القرآن قبال ما تقدم من ذكر التوراة وجعلها هدى لبني إسرائيل فإنما

هو من جهة أن هذه الملة الحنيفية أكمل من الملل السابقة التي تتضمنها كتب الأنبياء السابقين فهي تشتمل من المعارف الإلهية على آخر ما تتحمله البنية الإنسانية ومن الشرائع على ما لا يشذ منه شاذ من أعمال الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] فما يهدي إليه القرآن أقوم مما يهدي إليه غيره من الكتب.

٢. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾:

أ. الصالحات صفة محذوف موصوفها اختصارا والتقدير وعملوا الأعمال الصالحات.

ب. وفي الآية جعل حق للمؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات على الله سبحانه كما يؤيده تسمية ذلك أجرا، ويؤيده أيضا قوله في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] ولا محذور في أن يكون لهم على الله حق إذا كان الله سبحانه هو الجاعل له، ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]

ج. والعناية في الآية ببيان الوعد المنجز كما أن الآية التالية تعني ببيان الوعيد المنجز وهو العذاب لمن يكفر بالآخرة، وأما من آمن ولم يعمل الصالحات فليس ممن له على الله أجر منجز وحق ثابت بل أمره مراعى بتوبة أو شفاعة حتى يلحق بذلك على معشر الصالحين من المؤمنين قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] وقال: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]

د. نعم لهم ثبات على الحق بإيمانهم كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

٣. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾:

أ. الاعتاد الإعداد والتهيئة من العتاد بالفتح وهو على ما ذكره الراغب ادخار الشيء قبل الحاجة إليه كالإعداد.

ب. وظاهر السياق أنه عطف على قوله في الآية السابقة: ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ فيكون التقدير ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن الذين لا يؤمنون وكون ذلك بشارة للمؤمنين من حيث إنه انتقام إلهي من أعدائهم في الدين.

ج. وإنما خص بالذكر من أوصاف هؤلاء عدم إيمانهم بالآخرة مع جواز أن يكفروا بغيرها كالتوحيد والنبوة لأن الكلام مسوق لبيان الأثر الذي يعقبه الدين القيم، ولا موقع للدين ولا فائدة له مع إنكار المعاد وإن اعترف بوحدانية الرب تعالى وغيرها من المعارف، ولذلك عد سبحانه نسيان يوم الحساب أصلا لكل ضلال في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ [ص: ٢٦]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال: أي يدعو.

ب. وفي تفسير العياشي، عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال: يهدي إلى الولاية.

• أقول: وهي من الجري ويمكن أن يراد به ما عند الإمام من كمال معارف الدين ولعله المراد مما في بعض الروايات من قوله: يهدي إلى الإمام.

٩. عجلة الإنسان في دعائه بالشر:

المقطع [٩] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٤٩»:

١. ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً﴾:

أ. المراد بالدعاء على ما يستفاد من السياق مطلق الطلب سواء كان بلفظ الدعاء كقوله: اللهم ارزقني مالا وولدا وغير ذلك أو من غير دعاء لفظي بل بطلب وسعي فإن ذلك كله دعاء وسؤال من الله سواء اعتقد به الإنسان وتنبه له أم لا إذ لا معطي ولا مانع في الحقيقة إلا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] وقال: ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فالدعاء مطلق الطلب والباء في قوله: ﴿بِالشَّرِّ﴾ و﴿بِالْخَيْرِ﴾ للصلة والمراد أن الإنسان يدعو الشر ويسأله دعاء كدعائه الخير وسؤاله وطلبه.

ب. وعلى هذا فالمراد بكون الإنسان عجولا أنه لا يأخذ بالأناة إذا أراد شيئا حتى يتروى ويتفكر

في جهات صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسعى إليه بل يستعجل في طلبه بمجرد ما ذكره وتعلق به هواه فربما كان شرا فتضرر به وربما كان خيرا فانتفع به.

ج. والآية وما يتلوها من الآيات في سياق التوبيخ واللوم متفرعة على ما تقدم من حديث المن الإلهي بالهداية إلى التي هي أقوم كأنه قيل: إنا أنزلنا كتابا يهدي إلى ملة هي أقوم تسوق الآخذين بها إلى السعادة والجنة وتؤديهم إلى أجر كبير، وترشدهم إلى الخير كله لكن جنس الإنسان عجول لا يفرق لعجلته بين الخير والشر بل يطلب كل ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فتعلق به هواه من غير تمييز بين الخير والشر والحق والباطل فيرد الشر كما يرد الخير ويهجم على الباطل كما يهجم على الحق.

د. وليس ينبغي له أن يستعجل ويطلب كل ما يهواه ويشتهيه ولا يحق له أن يرتكب كل ما له استطاعة ارتكابه ويقترف كل ما أقدره الله عليه ومكنه منه مستندا إلى أنه من التيسير الإلهي ولو شاء لمنعه فهذان الليل والنهار وآيتان إلهيتان وليستا على نمط واحد بل آية الليل ممحوة تسكن فيها الحركات وتهدأ فيها العيون، وآية النهار مبصرة تنتبه فيها القوى ويبتغي فيها الناس من فضل ربهم ويعلمون بها عدد السنين والحساب.

هـ. كذلك أعمال الشر والخير جميعا كائنة في الوجود بإذن الله مقدورة للإنسان بإقداره سبحانه لكن ذلك لا يكون دليلا على جواز ارتكاب الإنسان الشر والخير جميعا وأن يستعجل فيطلب كل ما بدا له فيرد الشر كما يرد الخير ويقترف المعصية كما يقترف الطاعة بل يجب عليه أن يأخذ عمل الشر ممحوا فلا يقترفه وعمل الخير مبصرا فيأتي به ويبتغي بذلك فضل ربه من سعادة الآخرة والرزق الكريم فإن عمل الإنسان هو طائره الذي يدله على سعادته وشقائه، وهو لازم له غير مفارقة فما عمله من خير أو شر فهو لا يفارقه إلى غيره ولا يستدل به سواه.

٢. هذا ما يعطيه السياق من معنى الآية ويتبين به:

أ. أولا: أن الآية وما يتلوها من الآيات مسوقة لغرض التوبيخ واللوم، وهو وجه اتصالها وما بعدها بما تقدمها من قوله: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الآية كما أشرنا إليه آنفا فهو سبحانه يلوم الإنسان أنه لما به من قريحة الاستعجال لا يقدر نعمة الهداية الإلهية حق قدرها ولا يفرق بين الملة التي هي أقوم وبين غيرها فيدعو بالشر دعاءه بالخير ويقصد الشقاء كما يقصد السعادة.

ب. وثانيا: أن المراد بالإنسان هو الجنس دون أفراد معينة منه كالكفار والمشركين كما قيل، وبالدعاء مطلق الطلب لا الدعاء المصطلح كما قيل، وبالخير والشر ما فيه سعادة حياته أو شقاؤه بحسب الحقيقة دون مطلق ما يضر وينفع كدعاء الإنسان على من رضي عنه بالنجاح والفلاح وعلى من غضب عليه بالخيبة والخسران وغير ذلك، وبالعجلة حب الإنسان أن يسرع ما يهواه إلى التحقق دون اللج والتمادي على طلب العذاب والمكروه.

٣. وللمفسرين اختلاف عجيب في مفردات الآية، وكلمات مضطربة في بيان وجه اتصال الآية وكذا الآيات التالية بما قبلها تركنا إيرادها والغور فيها لعدم جدوى في التعرض لها من أرادها فليراجع كتبهم.

١٠. الليل والنهار آيتان للحساب والفضل:

المقطع [١٠] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٥٠»:

١. ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾:

أ. قال في المجمع: (مبصرة أي مضيئة منيرة نيرة قال أبو عمرو: أراد يبصر بها كما يقال: ليل نائم وسر كاتم، وقال الكسائي: العرب تقول: أبصر النهار إذا أضاء الليل والنهار هما النور والظلمة المتعاقبان على الأرض من جهة مواجهة الشمس بالطلوع وزوالها بالغروب وهما كسائر ما في الكون من أعيان الأشياء وأحوالها آيتان لله سبحانه تدلان بذاتهما على توحده بالربوبية)

ب. ومن هنا يظهر أن المراد بجعلهما آيتين هو خلقهما كذلك لا خلقهما وليستا آيتين ثم جعلهما آيتين وإلباسهما لباس الدلالة فالأشياء كلها آيات له تعالى من جهة أصل وجودها وكينونتها الدالة على مكونها لا لوصف طار يطرء عليها.

ج. ومن هنا يظهر أيضا أن المراد بآية الليل كآية النهار نفس الليل كنفس النهار، على أن تكون الإضافة بيانية لا لامية، والمراد بمحو الليل إظلامه وإخفاؤه عن الأبصار على خلاف النهار.

د. فما ذكره بعضهم أن المراد بآية الليل القمر ومحوها ما يرى في وجهه من الكلف كما أن المراد بآية

النهار الشمس وجعلها مبصرة خلو قرصها عن المحو والسواد، ليس بسديد فإن الكلام في الآيتين لا آيتي الآيتين، على أن ما فرع على ذلك من قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلخ متفرع على ضوء النهار وظلمة الليل لا على ما يرى من الكلف في وجه القمر وخلو قرص الشمس من ذلك.

هـ. ونظيره في السقوط قول بعضهم: (إن المراد بآية الليل ظلمته وبآية النهار ضوءه والمراد بمحو آية الليل إمحاء ظلمته بضوء النهار ونظيره إمحاء ضوء النهار بظلمة الليل وإنما اكتفى بذكر أحدهما لدلالته على الآخر.

و. ولا يخفى عليك وجه سقوطه بتذكر ما أشرنا إليه سابقا فإن الغرض بيان وجود الفرق بين الآيتين مع كونهما مشتركتين في الآئية والدلالة، وما ذكره من المعنى يبطل الفرق.

٢. ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

أ. متفرع على قوله: ﴿وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلناها مضيئة لتطلبوا فيه رزقا من ربكم فإن الرزق فضله وعطاؤه تعالى.

ب. وذكر بعضهم أن التقدير: لتسكنوا بالليل ولتبتغوا فضلا من ربكم بالنهار إلا أنه حذف لتسكنوا بالليل) لما ذكره في مواضع أخر وفيه أن التقدير ينافي كون الكلام مسوقا لبيان ترتب الآثار على إحدى الآيتين دون الأخرى مع كونهما معا آيتين.

٣. ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾:

أ. أي لتعلموا بمحو الليل وإبصار النهار عدد السنين بجعل عدد من الأيام واحدا يعقد عليه، وتعلموا بذلك حساب الأوقات والآجال، وظاهر السياق أن علم السنين والحساب متفرع على جعل النهار مبصرا نظير تفرع ما تقدمه من ابتغاء الرزق على ذلك وذلك أنا إنما نتنبه للأعدام والفقدانات من ناحية الوجودات لا بالعكس والظلمة فقدان النور ولولا النور لم ننتقل لا إلى نور ولا إلى ظلمة، ونحن وإن كنا نستمد في الحساب بالليل والنهار معا ونميز كلا منهما بالآخر ظاهرا لكن ما هو الوجودي منهما أعني النهار هو الذي يتعلق به إحساسنا أولا ثم نتنبه لما هو العدمي منهما أعني الليل بنوع من القياس، وكذلك الحال في كل وجودي وعدمي مقيس إليه.

ب. وذكر الرازي في تفسيره أن الأولى أن يكون المراد بمحو آية الليل على القول بأنها القمر هو ما

يعرض القمر من اختلاف النور من المحاق إلى المحاق بالزيادة والنقيصة ليلة فليلة لما فيه من الآثار العظيمة في البحار والصحاري وأمزجة الناس.

ج. ولازم ذلك، كما أشار إليه، أن يكون قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾ متفرعين على محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة جميعا، والمعنى أنا جعلنا ذلك كذلك لتبتغوا بإضاءة الشمس واختلاف نور القمر أرزاقكم، ولتعلموا بذلك أيضا السنين والحساب فإن الشمس هي التي تميز النهار من الليل والقمر باختلاف تشكلاته يرسم الشهور القمرية والشهور ترسم السنين فاللام في الجملتين أعني ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ و﴿لِتَعْلَمُوا﴾ متعلق بالفعلين ﴿فَمَحَوْنا﴾ و﴿وَجَعَلْنَا﴾ جميعا.

د. وفيه أن الآية في سياق لا يلائمه جعل ما ذكر فيها من الغرض غرضا مترتبا على الآيتين معا أعني الآية المحوة والآية المثبتة فقد عرفت أن الآيات في سياق التوبيخ واللوم، والآية أعني قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ﴾ كالجواب عما قدر أن الإنسان يحتج به في دعائه بالشر كدعائه بالخير.

هـ. وملخصه: أن الإنسان لمكان عجلته لا يعتني بما أنزله الله من كتاب وهداه إليه من الملة التي هي أقوم بل يقتحم الشر ويطلبه كما يطلب الخير من غير أن يتروى في عمله ويتأمل وجه الصلاح والفساد فيه بل يقتحمه بمجرد ما تعلق به هواه ويسرته قدرته، وهو يعتمد في ذلك على حريته الطبيعية في العمل كأنه يحتج فيه بأن الله أقدره على ذلك ولم يمنع عنه كما نقله الله من قول المشركين: ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا﴾ [النحل: ٣٥]

و. فأجيب عنه بعد ما أورد في سياق التوبيخ واللوم بأن مجرد تعلق القدرة وصحة الفعل لا يستلزم جواز العمل ولا أن إقداره على الخير والشر معا يدل على جواز اقتحام الشر كالخير فالليل والنهار آيتان من آيات الله يعيش فيهما الإنسان لكن الله سبحانه محى آية الليل وقدر فيها السكون والخمود، وجعل آية النهار مبصرة مدركة يطلب فيها الرزق ويعلم بها عدد السنين والحساب.

ز. فكما أن كون الليل والنهار مشتركين في الآئية لا يوجب اشتراكهما في الحركات والتقلبات بل هي للنهار خاصة كذلك اشتراك أعمال الخير والشر في أنها جميعا تتحقق بإذن الله سبحانه وهي مما أقدر الله الإنسان عليه سواء لا يستلزم جواز ارتكابه لهما وإتيانه بهما على حد سواء بل جواز الإتيان والارتكاب من خواص عمل الخير دون عمل الشر فليس للإنسان أن يسلك كل ما بدا له من سبيل ولا أن يأتي بكل ما

اشتهاه وتعلق به هواه معتمدا في ذلك على ما أعطي من الحرية الطبيعية والأقدار الإلهي.

ح. ومما تقدم يظهر فساد ما ذكره بعضهم أن الآية مسوقة للاحتجاج على التوحيد فإن الليل والنهار وما يعرضهما من الاختلاف وما يترتب على ذلك من البركات من أوضح آيات التوحيد، وفيه أن دلالتهما على التوحيد لا توجب أن يكون الغرض إفادته والاحتجاج بهما على ذلك في أي سياق وقعا، وقوله في ذيل الآية: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ إشارة إلى تمييز الأشياء وأن الخلقة لا تتضمن إبهامها ولا إجمالها.

١١. الكتاب والحساب:

المقطع [١١] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٥٣»:

١. ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾:

أ. قال في المجمع: (الطائر هنا عمل الإنسان شبه بالطائر الذي يسنح ويتبرك به والطائر الذي يبرح فيتشأم به، والسانح الذي يجعل ميامنه إلى مياسرك، والبارح الذي يجعل مياسره إلى ميامنك، والأصل في هذا أنه إذا كان سانحا أمكن الرامي وإذا كان بارحا لم يمكنه قال أبو زيد: كل ما يجري من طائر أو ظبي أو غيره فهو عندهم طائر)

ب. وفي الكشاف: (أنهم كانوا يتفألون بالطير ويسمونه زجرا فإذا سافروا ومر بهم طير زجروه فإن مر بهم سانحا بأن مر من جهة اليسار إلى اليمين تيمنوا وإن مر بارحا بأن مر من جهة اليمين إلى الشمال تشأموا ولذا سمي تطيرا)

ج. وقال في المفردات: (تطير فلان وأطير أصله التفاؤل بالطير ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم ﴿قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ﴾ ولذلك قيل: لا طير إلا طيرك وقال: ﴿إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا﴾ أي يتشاءموا به ﴿أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ أي شؤمهم ما قد أعد الله لهم بسوء أعمالهم وعلى ذلك قوله: ﴿قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ ﴿قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ ﴿قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي عمله الذي طار عنه من خير وشر ويقال: تطايروا إذا أسرعوا ويقال إذا تفرقوا)

د. وبالجملة سياق ما قبل الآية وما بعدها وخاصة قوله: ﴿مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ إلخ، يعطي أن المراد بالطائر ما يستدل به على الميمنة والمشأمة ويكشف عن حسن العاقبة وسوءها فلكل إنسان شيء يرتبط بعاقبة حاله يعلم به كيفيتها من خير أو شر.

هـ. وإلزام الطائر جعله لازما له لا يفارقه، وإنما جعل الإلزام في العنق لأنه العضو الذي لا يمكن أن يفارقه الإنسان أو يفارق هو الإنسان بخلاف الأطراف كاليد والرجل، وهو العضو الذي يوصل الرأس بالصدر فيشاهد ما يعلق عليه من قلادة أو طوق أو غل أول ما يواجه الإنسان.

و. فالمراد بقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أن الذي يستعقب لكل إنسان سعادته أو شقاءه هو معه لا يفارقه بقضاء من الله سبحانه فهو الذي ألزمه إياه، وهذا هو العمل الذي يعمله الإنسان لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى﴾ [النجم: ٤١]

ز. فالطائر الذي ألزمه الله الإنسان في عنقه هو عمله، ومعنى إلزامه إياه أن الله قضى أن يقوم كل عمل بعامله ويعود إليه خيره وشره ونفعه وضره من غير أن يفارقه إلى غيره، وقد استفيد من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ.،، إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآيات: [الحجر: ٤٥] أن من القضاء المحتوم أن حسن العاقبة للإيمان والتقوى وسوء العاقبة للكفر والمعصية.

ح. ولازم ذلك أن يكون مع كل إنسان من عمله ما يعين له حاله في عاقبة أمره معية لازمة لا يتركه وتعيينا قطعيا لا يخطئ ولا يغلط لما قضي به أن كل عمل فهو لصاحبه ليس له إلا هو وأن مصير الطاعة إلى الجنة ومصير المعصية إلى النار.

ط. وبما تقدم يظهر أن الآية إنما تثبت لزوم السعادة والشقاء للإنسان من جهة أعماله الحسنة والسيئة المكتسبة من طريق الاختيار من دون أن يبطل تأثير العمل في السعادة والشقاء بإثبات قضاء أزلي يحتم للإنسان سعادة أو شقاء سواء عمل أم لم يعمل وسواء أطاع أم عصى كما توهمه بعضهم.

٢. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾:

أ. يوضح حال هذا الكتاب قوله بعده: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ حيث يدل أولا على أن الكتاب الذي يخرج له هو كتابه نفسه لا يتعلق بغيره، وثانيا أن الكتاب متضمن لحقائق أعماله التي عملها في الدنيا من غير أن يفقد منها شيئا كما في قوله: ﴿يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ

صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها﴾ [الكهف: ٤٩]، وثالثا أن الأعمال التي أحصاها بادية فيها بحقائقها من سعادة أو شقاء ظاهرة بنتائجها من خير أو شر ظهورا لا يستتر بستر ولا يقطع بعذر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]

ب. ويظهر من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠] أن الكتاب يتضمن نفس الأعمال بحقائقها دون الرسوم المخطوطة على حد الكتب المعمولة فيما بيننا في الدنيا فهو نفس الأعمال يطلع الله الإنسان عليها عيانا، ولا حجة كالعيان.

ج. وبذلك يظهر أن المراد بالطائر والكتاب في الآية أمر واحد وهو العمل الذي يعمله الإنسان غير أنه سبحانه قال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً﴾ ففرق الكتاب عن الطائر ولم يقل: (ونخرجه) لئلا يوهم أن العمل إنما يصير كتابا يوم القيامة وهو قبل ذلك طائر وليس بكتاب أو يوهم أن الطائر خفي مستور غير خارج قبل يوم القيامة فلا يلائم كونه ملزما له في عنقه.

د. وبالجملة في قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ إشارة إلى أن كتاب الأعمال بحقائقها مستور عن إدراك الإنسان محجوب وراء حجاب الغفلة وإنما يخرجه الله سبحانه للإنسان يوم القيامة فيطلعه على تفاصيله، وهو المعنى بقوله: ﴿يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾

هـ. وفي ذلك دلالة على أن ذلك أمر مهيأ له غير مغفول عنه فيكون تأكيدا لقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ لأن المحصل أن الإنسان ستناله تبعة عمله لا محالة أما أولا فلأنه لازم له لا يفارقه، وأما ثانيا فلأنه مكتوب كتابا سيظهر له فيلقاه منشورا.

٣. ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾:

أ. أي يقال: له: اقرأ كتابك.

ب. ﴿كَفى بِنَفْسِكَ﴾ الباء فيه زائدة للتأكيد وأصله كفت نفسك وإنما لم يؤنث الفعل لأن الفاعل مؤنث مجازي يجوز معه التذكير والتأنيث، وربما قيل: إنه اسم فعل بمعنى اكتف والباء غير زائدة، وربما وجه بغير ذلك.

٤. وفي الآية دلالة على أن حجة للكتاب قاطعة بحيث لا يرتاب فيها قارئه ولو كان هو المجرم نفسه وكيف لا؟ وفيه معاينة نفس العمل وبه الجزاء، قال تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]

٥. وقد اتضح مما أوردناه في وجه اتصال قوله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ﴾ الآية بما قبله وجه اتصال هاتين الآيتين أعني قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ﴾ إلى قوله: ﴿حَسِيباً﴾:

أ. فمحصل معنى الآيات والسياق سياق التوبيخ واللوم أن الله سبحانه أنزل القرآن وجعله هاديا إلى ملة هي أقوم جريا على السنة الإلهية في هداية الناس إلى التوحيد والعبودية وإسعاد من اهتدى منهم وإشقاء من ضل لكن الإنسان لا يميز الخير من الشر ولا يفرق بين النافع والضار بل يستعجل كل ما يهواه فيطلب الشر كما يطلب الخير.

ب. والحال أن العمل سواء كان خيرا أو شرا لازم لصاحبه لا يفارقه وهو أيضا محفوظ عليه في كتاب سيخرج له يوم القيامة وينشر بين يديه ويحاسب عليه، وإذا كان كذلك كان من الواجب على الإنسان أن لا يبادر إلى اقتحام كل ما يهواه ويشتهيه ولا يستعجل ارتكابه بل يتوقف في الأمور ويتروى حتى يميز بينها ويفرق خيرها من شرها فيأخذ بالخير ويتحرز الشر.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ يقول: خيره وشره معه حيث كان لا يستطيع فراقه، حتى يعطى كتابه بما عمل.

ب. وفيه، عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: عن الآية قال: قدره الذي قدر عليه.

ج. وفيه، عن خالد بن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ قال يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه، حتى كأنه فعله تلك الساعة فلذلك قالوا: ﴿يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ، لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً، إِلَّا أَحْصاها﴾

د. وقد روي في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ﴾ الآية وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ﴾ الآية وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ﴾ الآية من طرق الفريقين عن النبي ﷺ وعلي عليه السلام وسلمان وغيره روايات تركنا إيرادها لعدم تأيدها بكتاب أو سنة أو حجة عقلية قاطعة مع ما فيها من ضعف الإسناد.

١٢. الهدى والضلال والوزر والرسل:

المقطع [١٢] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٥٧»:

١. ﴿مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾:

أ. قال في المفردات: (الوزر الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً﴾ الآية كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ قال: وقوله: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي لا تحمل وزره من حيث يتعرى المحمول عنه)

ب. والآية في موضع النتيجة لقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ﴾ إلخ والجملة الثالثة ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ تأكيد للجملة الثانية ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾

ج. والمعنى إذا كان العمل خيرا كان أو شرا يلزم صاحبه ولا يفارقه وهو محفوظ على صاحبه سيشاهده عند الحساب فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه وينتفع به نفسه من غير أن يتبع غيره، ومن ضل عن السبيل فإنما يضل على نفسه ويتضرر به نفسه من دون أن يفارقه فيلحق غيره، ولا تتحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى لا كما ربما يخيل لاتباع الضلال أنهم إن ضلوا فوبال ضلالهم على أئمتهم الذين أضلوهم وكما يتوهم المقلدون لآبائهم وأسلافهم أن آثامهم وأوزارهم لآبائهم وأسلافهم لا لهم.

د. نعم لأئمة الضلال مثل أوزار متبعيهم، ولمن سن سنة سيئة أوزار من عمل بها ولمن قال: اتبعونا لنحمل خطاياكم آثام خطاياهم لكن ذلك كله وزر الإمامة وجعل السنة وتحمل الخطايا لا عين ما للعامل من الوزر بحيث يفارق العمل عامله ويلحق المتبوع بل إن كان عينه فمعناه أن يعذب بعمل واحد اثنان.

٢. ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾:

أ. ظاهر السياق الجاري في الآية وما يتلوها من الآيات بل هي والآيات السابقة أن يكون المراد بالتعذيب التعذيب الدنيوي بعقوبة الاستئصال، ويؤيده خصوص سياق النفي ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ حيث لم يقل: ولسنا معذبين ولا نعذب ولن نعذب بل قال: ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ الدال على استمرار النفي في الماضي الظاهر في أنه كانت السنة الإلهية في الأمم الخالية الهالكة جارية على أن لا يعذبهم إلا بعد أن يبعث

إليهم رسولا ينذرهم بعذاب الله.

ب. ويؤيده أيضا أنه تعالى عبر عن هذا المبعوث بالرسول دون النبي فلم يقل حتى نبعث نبيا، وقد تقدم في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب في الفرق بين النبوة والرسالة أن الرسالة منصب خاص إلهي يستعقب الحكم الفصل في الأمة إما بعذاب الاستئصال وإما بالتمتع من الحياة إلى أجل مسمى، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] وقال: ﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠]، فالتعبير بالرسول لإفادة أن المراد نفي التعذيب الدنيوي دون التعذيب الأخروي أو مطلق التعذيب.

ج. فقوله: ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ كالدفع لما يمكن أن يتوهم من سابق الآيات المنبئة عن لحوق أثر الأعمال بصاحبها وبشارة الصالحين بالأجر الكبير والطالحين بالعذاب الأليم فيوهم أن تبعات السيئات أعم من العذاب الدنيوي والأخروي سيترتب عليها فيغشى صاحبها من غير قيد وشرط، فأجيب أن الله سبحانه برحمته الواسعة وعنايته الكاملة لا يعذب الناس بعذاب الاستئصال وهو عذاب الدنيا إلا بعد أن يبعث رسولا ينذرهم به وإن كان له أن يعذبهم به لكنه برحمته ورأفته يبالغ في الموعظة ويتم الحجة بعد الحجة ثم ينزل العقوبة فقوله: ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ نفي لوقوع العذاب لا لجوازه.

٣. فالآية، كما ترى ـ:

أ. ليست مسوقة لإمضاء حكم العقل بقبح العقاب بلا بيان بل هي تكشف عن اقتضاء العناية الإلهية أن لا يعذب قوما بعذاب الاستئصال إلا بعد أن يبعث إليهم رسولا فيؤكد لهم الحجة ويقرعهم بالبيان بعد البيان.

ب. وأما النبوة التي يبلغ بها التكاليف ونبين بها الشرائع فهي التي تستقر بها المؤاخذة الإلهية والمغفرة، ويثبت بها الثواب والعقاب الأخرويان فيما لا يتبين فيه الحق والباطل إلا من طريق النبوة كالتكاليف الفرعية، وأما الأصول التي يستقل العقل بإدراكها كالتوحيد والنبوة والمعاد فإنها تلحق آثار قبولها وتبعات ردها الإنسان بالثبوت العقلي من غير توقف على نبوة أو رسالة.

ج. وبالجملة أصول الدين وهي التي يستقل العقل ببيانها ويتفرع عليها قبول الفروع التي تتضمنها الدعوة النبوية، تستقر المؤاخذة الإلهية على ردها بمجرد قيام الحجة القاطعة العقلية من غير توقف على بيان النبي والرسول لأن صحة بيان النبي والرسول متوقفة عليها فلو توقف هي عليها لدارت.

د. وتستقر المؤاخذة الأخروية على الفروع بالبيان النبوي ولا تتم الحجة فيها بمجرد حكم العقل، وقد فصلنا القول فيه في مباحث النبوة في الجزء الثاني وفي قصص نوح في الجزء العاشر من الكتاب، وفي غيرهما، والمؤاخذة الدنيوية بعذاب الاستئصال يتوقف على بعث الرسول بعناية من الله سبحانه لا لحكم عقلي يحيل هذا النوع من المؤاخذة قبل بعث الرسول كما عرفت.

٤. وللمفسرين في الآية مشاجرات طويلة تركنا التعرض لها لخروج أكثرها عن غرض البحث التفسيري، ولعل الذي أوردناه من البحث لا يوافق ما أوردوه لكن الحق أحق بالاتباع.

١٣. سنة الله في إهلاك المترفين الفاسقين:

المقطع [١٣] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٥٩»:

١. ﴿وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً﴾:

أ. قال الراغب: (الترفه التوسع في النعمة يقال: أترف فلان فهو مترف، إلى أن قال في قوله: ﴿أَمَرْنا مُتْرَفِيها﴾ هم الموصوفون بقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾)

ب. وقال في المجمع: (الترفه النعمة، قال ابن عرفة: المترف المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع منه، وقال: التدمير الإهلاك والدمار الهلاك)

ج. ﴿إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي إذا دنا وقت هلاكهم من قبيل قولهم: إذا أراد العليل أن يموت كان كذا، وإذا أرادت السماء أن يمطر كان كذا، أي إذا دنا وقت موته وإذا دنا وقت إمطارها فإن من المعلوم أنه لا يريد الموت بحقيقة معنى الإرادة وأنها لا تريد الإمطار كذلك، وفي القرآن: ﴿فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ الآية.

د. ويمكن أن يراد به الإرادة الفعلية وحقيقتها توافق الأسباب المقتضية للشيء وتعاضدها على

وقوعه، وهو قريب من المعنى الأول وحقيقته تحقق ما لهلاكهم من الأسباب وهو كفران النعمة والطغيان بالمعصية كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾ [الفجر: ١٤]

٢. ﴿أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها﴾:

أ. من المعلوم من كلامه تعالى أنه لا يأمر بالمعصية أمرا تشريعيا فهو القائل: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] وأما الأمر التكويني فعدم تعلقه بالمعصية من حيث إنها معصية أوضح لجعله الفعل ضروريا يبطل معه تعلقه باختيار الإنسان ولا معصية مع عدم الاختيار قال تعالى: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]

ب. فمتعلق الأمر في قوله: ﴿أَمَرْنا﴾ إن كان هو الطاعة كان الأمر بحقيقة معناه وهو الأمر التشريعي وكان هو الأمر الذي توجه إليهم بلسان الرسول الذي يبلغهم أمر ربهم وينذرهم بعذابه لو خالفوا وهو الشأن الذي يختص بالرسول كما تقدمت الإشارة إليه فإذا خالفوا وفسقوا عن أمر ربهم حق عليهم القول وهو أنهم معذبون إن خالفوا فأهلكوا ودمروا تدميرا.

ج. وإن كان متعلق الأمر هو الفسق والمعصية كان الأمر مرادا به الإكثار من إفاضة النعم عليهم وتوفيرها على سبيل الإملاء والاستدراج وتقريبهم بذلك من الفسق حتى يفسقوا فيحق عليهم القول وينزل عليهم العذاب.

د. وهذان وجهان في معنى قوله: ﴿أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها﴾ يجوز توجيهه بكل منهما لكن يبعد أول الوجهين:

- أولا أن قولنا: أمرته ففعل وأمرته ففسق ظاهره تعلق الأمر بعين ما فرع عليه.
- وثانيا عدم ظهور وجه لتعلق الأمر بالمترفين مع كون الفسق لجميع أهل القرية وإلا لم يهلكوا.
- قال في الكشاف: (والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازا، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبا فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير

ويتمكنوا من الإحسان والبر كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم، فإن قلت: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا قلت لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه؟ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه وهو كلام مستفيض يقال: أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ولو ذهبت تقدر غيره لزمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم: أمرته فعصاني أو فلم يمتثل أمري لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأمورا به فكان محالا أن يقصد أصلا حتى يجعل دالا على المأمور به فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأمورا به كأنه يقول: كان مني أمر فلم يكن منه طاعة كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع ويأمر وينهى غير قاصد إلى مفعول، فإن قلت: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير دليلا على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟، قلت: لا يصح ذلك لأن قوله: ﴿فَفَسَقُوا﴾ يدافعه فكأنك أظهرت شيئا وأنت تدعي إضمار خلافه فكان صرف اللفظ إلى المجاز هو الوجه)

• وهو كلام حسن في تقريب ظهور قوله: ﴿أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها﴾ في كون المأمور به هو الفسق وأما كونه صريحا فيه بحيث لا يحتمل إلا ذلك كما يدعيه فلا، فلم لا يجوز أن تكون الآية من قبيل قولنا: أمرته فعصاني حيث تكون المعصية وهي منافية للأمر قرينة على كون المأمور به هو الطاعة والفسق والمعصية واحد فإن الفسق هو الخروج عن زي العبودية والطاعة فهو المعصية ويكون المعنى حينئذ أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا عن أمرنا وعصوه، أو يكون الأمر في الآية مستعملا استعمال اللازم، والمعنى توجه أمرنا إلى مترفيها ففسقوا فيها عنه.

• فالحق أن الوجهين لا بأس بكل منهما وإن كان الثاني لا يخلو من ظهور وقد أجيب عن اختصاص الأمر بالمترفين بأنهم الرؤساء السادة والأئمة المتبوعون وغيرهم أتباعهم وحكم التابع تابع لحكم المتبوع ولا يخلو من سقم.

٣. وذكر:

أ. بعضهم في توجيه الآية أن قوله: ﴿أَمَرْنا مُتْرَفِيها﴾ صفة لقرية وليس جوابا لإذا وجواب إذا

محذوف على حد قوله: ﴿حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها﴾ للاستغناء عنه بدلالة الكلام.

ب. وذكر آخرون أن في الآية تقديما وتأخيرا والتقدير وإذا أمرنا مترفي قرية ففسقوا فيها أردنا أن نهلكها، وذلك أنه لا معنى لإرادة الهلاك قبل تحقق سببه وهو الفسق، وهو وجه سخيف كسابقه.

٤. هذا كله على القراءة المعروفة ﴿أَمَرْنا﴾ بفتح الهمزة ثم الميم مخففة من الأمر بمعنى الطلب، وربما أخذ من الأمر بمعنى الإكثار أي أكثرنا مترفيها مالا وولدا ففسقوا فيها، وقرئ (آمرنا) بالمد ونسب إلى علي عليه السلام وإلى عاصم وابن كثير ونافع وغيرهم وهو من الإيمان بمعنى إكثار المال والنسل أو بمعنى تكليف إنشاء فعل، وقرئ أيضا (أمرنا) بتشديد الميم من التأمير بمعنى تولية الإمارة ونسب ذلك إلى علي والحسن والباقر عليه السلام وإلى ابن عباس وزيد بن علي وغيرهم.

٥. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾:

أ. قال في المفردات: (القرن القوم المقترنون في زمن واحد وجمعه قرون قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ﴾)

ب. ومعنى الآية ظاهر، وفيها تثبيت ما ذكر في الآية السابقة من سنة الله الجارية في إهلاك القرى بالإشارة إلى القرون الماضية الهالكة.

ج. والآية لا تخلو من إشعار بأن سنة الإهلاك إنما شرعت في القرون الإنسانية بعد نوح عليه السلام وهو كذلك، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] في الجزء الثاني من الكتاب أن المجتمع الإنساني قبل زمن نوح عليه السلام كانوا على سذاجة الفطرة ثم اختلفوا بعد ذلك.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿أَمَرْنا مُتْرَفِيها﴾ مشددة منصوبة تفسيرها: كثرنا، وقال: لا قرأتها مخففة.

- أقول: وفي حديث آخر عن حمران عنه: تفسيرها أمرنا أكابرها.

١٤. العاجلة والآخرة والسعي:

المقطع [١٤] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٦٣»:

١. ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾:

أ. العاجلة صفة محذوفة الموصوف ولعل موصوفها الحياة بقرينة مقابلتها للآخرة في الآية التالية وهي الحياة الآخرة، وقيل: المراد النعم العاجلة وقيل: الأعراض الدنيوية العاجلة.

ب. وفي المفردات: (أصل الصلى لإيقاد النار، قال: وقال الخليل: صلي الكافر النار قاسى حرها ﴿يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقيل: صلي النار دخل فيها، وأصلاها غيره قال: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً﴾)

ج. وفي المجمع: (الدحر الإبعاد والمدحور المبعد المطرود يقال: اللهم أدحر عنا الشيطان أي أبعده)

د. لما ذكر سبحانه سنته في التعذيب الدنيوي إثر دعوة الرسالة وأنه يهدي الأمم الإنسانية إلى الإيمان والعمل الصالح حتى إذا فسدوا وأفسدوا بعث إليهم رسولا فإذا طغوا وفسقوا عذبهم عذاب الاستئصال، عاد إلى بيان سنته في التعذيب الأخروي والإثابة فيها في هذه الآية والآيتين بعدها يذكر في آية ملاك عذاب الآخرة، وفي آية ملاك ثوابها، وفي آية محصل القول والأصل الكلي في ذلك.

هـ. فقوله: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ﴾ أي الذي يريد الحياة العاجلة وهي الحياة الدنيا، وإرادة الحياة الدنيا إنما هي طلب ما فيها من المتاع الذي تلتذ به النفس ويتعلق به القلب، والتعلق بالعاجلة وطلبها إنما يعد طلبا لها إذا كانت مقصودة بالاستقلال لا لأجل التوسل بها إلى سعادة الأخرى وإلا كانت إرادة للآخرة فإن الآخرة لا يسلك إليها إلا من طريق الدنيا فلا يكون الإنسان مريدا للدنيا إلا إذا أعرض عن الآخرة ونسيها فتمحضت إرادته في الدنيا، ويدل عليه أيضا خصوص التعبير في الآية ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ﴾ حيث يدل على استمرار الإرادة.

و. وهذا هو الذي لا يرى لنفسه إلا هذه الحياة المادية الدنيوية وينكر الحياة الآخرة، ويلغو بذلك القول بالنبوة والتوحيد إذ لا أثر للإيمان بالله ورسله والتدين بالدين لولا الاعتقاد بالمعاد، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [النجم: ٣٠]

٢. ﴿عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾:

أ. أي أسرعنا في إعطائه ما يريده في الدنيا لكن لا بإعطائه ما يريده بل بإعطائه ما نريده فالأمر إلينا لا إليه والأثر لإرادتنا لا لإرادته، ولا بإعطاء ما نعطيه لكل من يريد بل لمن نريد فليس يحكم فينا إرادة الأشخاص بل إرادتنا هي التي تحكم فيهم.

ب. وإرادته سبحانه الفعلية لشيء هو اجتماع الأسباب على كينونته وتحقق العلة التامة لظهوره فالآية تدل على أن الإنسان وهو يريد الدنيا يرزق منها على حسب ما يسمح له الأسباب والعوامل التي أجراها الله في الكون وقدر لها من الآثار فهو ينال شيئا مما يريده ويسأله بلسان تكوينه لكن ليس له إلا ما يهدي إليه الأسباب والله من ورائهم محيط.

ج. وقد ذكر الله سبحانه هذه الحقيقة بلسان آخر في قوله: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ [الزخرف: ٣٥] أي لولا أن الناس جميعا يعيشون على نسق واحد تحت قانون الأسباب والعلل، ولا فرق بين الكافر والمؤمن قبال العلل الكونية بل من صادفته أسباب الغنى والثروة أثرته وأغنته مؤمنا كان أم كافرا، ومن كان بالخلاف، فبالخلاف خصصنا الكفار بمزيد النعم الدنيوية إذ ليس لها عندنا قدر ولا في سوق الآخرة من قيمة.

د. وذكر بعضهم: (أن المراد بإرادة العاجلة إرادتها بعمله وهو أن يريد بعمله الدنيا دون الآخرة فهو محروم من الآخرة، وهو تقييد من غير مقيد، ولعله أخذه من قوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦] لكن الآيتين مختلفتان غرضا فالغرض فيما نحن فيه بيان أن مريد الدنيا لا ينال إلا منها، والغرض من آية سورة هود أن الإنسان لا ينال إلا عمله فإذا كان مريدا للدنيا وفي إليه عمله فيها وبين الغرضين فرق واضح فافهم ذلك.

٣. ﴿ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ أي وجعلنا جزاءه في الآخرة جهنم يقاسي حرها وهو مذموم مبعد من الرحمة والقيدان يفيدان أنه مخصوص بجهنم محروم من المغفرة والرحمة.

٤. والآية وإن كانت تبين حال من تعلق بالدنيا ونسي الآخرة وأنكرها غير أن الطلب والإنكار مختلفان بالمراتب فمن ذلك ما هو كذلك قولا وفعلا ومنه ما هو كذلك فعلا مع الاعتراف به قولا،

وتصديق ذلك قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ﴾ الآية.

٥. ﴿وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾:

أ. قال الراغب: (السعي المشي السريع وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر خيرا كان أو شرا)

ب. ﴿مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ﴾ أي الحياة الآخرة نظير ما تقدم من قوله: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ﴾ والكلام في قول من قال: يعني من أراد بعمله الآخرة نظير الكلام في مثله في الآية السابقة.

ج. ﴿وَسَعى لَها سَعْيَها﴾ اللام للاختصاص وكذا إضافة السعي إلى ضمير الآخرة، والمعنى وسعى وجد للآخرة السعي الذي يختص بها، ويستفاد منه أن سعيه لها يجب أن يكون سعيا يليق بها ويحق لها كأن يكون يبذل كمال الجهد في حسن العمل وأخذه من عقل قطعي أو حجة شرعية.

د. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مؤمن بالله ويستلزم ذلك توحيده والإذعان بالنبوة والمعاد فإن من لا يعترف بإحدى الخصال الثلاث لا يعده الله سبحانه في كلامه مؤمنا به وقد تكاثرت الآيات فيه.

هـ. على أن نفس التقييد بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يكفي في التقييد المذكور فإن من أراد الآخرة وسعى لها سعيها فهو مؤمن بالله وبنشأة وراء هذه النشأة الدنيوية قطعا فلو لا أن التقييد بالإيمان لإفادة وجوب كون الإيمان صحيحا ومن صحته أن يصاحب التوحيد والإذعان بالنبوة لم يكن للتقييد وجه فمجرد التقييد بالإيمان يكفي مئونة الاستعانة بآيات أخر.

و. ﴿فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ أي يشكره الله بحسن قبوله والثناء على ساعيه، وشكره تعالى على عمل العبد تفضل منه على تفضل فإن أصل إثابته العبد على عمله تفضل لأن من وظيفة العبد أن يعبد مولاه من غير وجوب الجزاء عليه فالإثابة تفضل، والثناء عليه بعد الإثابة تفضل على تفضل والله ذو الفضل العظيم.

٦. وفي الآيتين دلالة على أن الأسباب الأخروية وهي الأعمال لا تتخلف عن غاياتها بخلاف الأسباب الدنيوية فإنه سبحانه يقول فيمن عمل للآخرة: ﴿فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ ويقول فيمن عمل للدنيا: ﴿عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾

١٥. عطاء الله للجميع في الدنيا:

المقطع [١٥] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٦٦»:

١. ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾:

أ. قال في المفردات: (أصل المد الجر ومنه المدة للوقت الممتد ومدة الجرح ومد النهر ومده نهر آخر ومددت عيني إلى كذا قال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية ومددته في غيه.،، وأمددت الجيش بمدد والإنسان بطعام قال: وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه نحو ﴿وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا﴾ ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ﴾ ﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِ﴾)

ب. فإمداد الشيء ومده أن يضاف إليه من نوعه مثلا ما يمتد به بقاؤه ويدوم به وجوده ولولا ذلك لانقطع كالعين من الماء التي تستمد من المنبع ويضاف إليها منه الماء حينا بعد حين ويمتد بذلك جريانها.

ج. والله سبحانه يمد الإنسان في أعماله سواء كان ممن يريد العاجلة أو الآخرة فإن جميع ما يتوقف عليه العمل في تحققه من العلم والإرادة والأدوات البدنية والقوى العمالة والمواد الخارجية التي يقع عليها العمل ويتصرف فيها العامل والأسباب والشرائط المربوطة بها كل ذلك أمور تكوينية لا صنع للإنسان فيها ولو فقد كلها أو بعضها لم يكن العمل، والله سبحانه هو الذي يفيضها بفضله ويمد الإنسان بها بعطائه، ولو انقطع منه العطاء انقطع من العامل عمله.

د. فأهل الدنيا في دنياهم وأهل الآخرة في آخرتهم يستمدون من عطائه تعالى ولا يعود إليه سبحانه في عطائه إلا الحمد لأن الذي يعطيه نعمة على الإنسان أن يستعمله استعمالا حسنا في موضع يرتضيه ربه، وأما إذا فسق بعدم استعماله فيه وحرف الكلمة عن موضعها فلا يلومن إلا نفسه وعلى الله الثناء على جميل صنعه وله الحجة البالغة.

هـ. فقوله: ﴿كُلًّا نُمِدُّ﴾ أي كلا من الفريقين المعجل لهم والمشكور سعيهم نمد، وإنما قدم المفعول على فعله لتعلق العناية به في الكلام فإن المقصود بيان عموم الإمداد للفريقين جميعا.

٢. ﴿هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾ أي هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم بما أن لكل منهما نعته الخاص به، ويئول المعنى إلى أن كلا من الفريقين تحت التربية الإلهية يفيض عليهم من عطائه من غير فرق غير أن أحدهما يستعمل النعمة الإلهية لابتغاء الآخرة فيشكر الله سعيه، والآخر يستعملها لابتغاء العاجلة وينسى

الآخرة فلا يبقى له فيها إلا الشقاء والخيبة.

٣. ﴿مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ﴾:

أ. فإن جميع ما يستفيدون منه في أعمالهم كما تقدم لا صنع لهم ولا لغيرهم من المخلوقين فيه بل الله سبحانه هو الموجد لها ومالكها فهي من عطائه.

ب. ويستفاد من هذا القيد وجه ما ذكر لكل من الفريقين من الجزاء فإن أعمالهم لما كانت بإمداده تعالى من خالص عطائه فحقيق على من يستعمل نعمته في الكفر والفسوق أن يصلى النار مذموما مدحورا، وعلى من يستعملها في الإيمان به وطاعته أن يشكر سعيه.

ج. وفي قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وقد كرر ذلك مرتين والظاهر أن النكتة فيه الإشارة إلى أن إمدادهم من شئون صفة الربوبية والله سبحانه هو الرب لا رب غيره غير أن الوثنيين يتخذون من دونه أربابا ولذلك نسب ربوبيته إلى نبيه فقال: ﴿رَبِّكَ﴾

٤. ﴿وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾:

أ. أي ممنوعا والحظر المنع فأهل الدنيا وأهل الآخرة مستمدون من عطائه منعمون بنعمته ممنونون بمنته.

ب. وفي الآية دلالة على أن العطاء الإلهي مطلق غير محدود بحد لمكان إطلاق العطاء ونفي الحظر في الآية فما يوجد من التحديد والتقدير والمنع باختلاف الموارد فإنما هو من ناحية المستفيض وخصوص استعداده للاستفاضة أو فقدانه من رأس لا من ناحية المفيض.

ج. ومن عجيب ما قيل في الآية ما نسب إلى الحسن وقتادة أن المراد بالعطاء العطاء الدنيوي فهو المشترك بين المؤمن والكافر وأما العطاء الأخروي فللمؤمنين خاصة، والمعنى كما قيل: كل الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا الفريق الأول المريد للعاجلة فقط وما كان عطاؤه الدنيوي محظورا من أحد.

د. وفيه أنه تقييد من غير مقيد مع صلاحية المورد للإطلاق وأما ما ذكر من اختصاص العطاء الأخروي بالمؤمنين من غير مشاركة الكفار لهم فيه فخارج من مصب الكلام في الآية فإن الكلام في الإمداد الذي يمد به الأعمال المنتهية إلى الجزاء لا في الجزاء، وعطايا المؤمنين في الآخرة من الجزاء لا من قبيل الأعمال، ونفس ما يمد به أعمال الفريقين عطايا دنيوية وأخروية على أن العطايا الأخروية أيضا مشتركة

غير محظورة والحظر فيها من قبل الكافرين كما أن الأمر في العطايا الدنيوية أيضا كذلك فربما يمنع لكن لا من قبل محدودية العطاء بل من قبل عدم صلاحية القابل.

هـ. وقال في روح المعاني: (إن التقسيم الذي تضمنته الآية غير حاصر وذلك غير مضر، والتقسيم الحاصر أن كل فاعل إما أن يريد بفعله العاجلة فقط أو يريد الآخرة فقط أو يريدهما معا أو لم يرد شيئا والقسمان الأولان قد علم حكمهما من الآية، والقسم الثالث ينقسم إلى ثلاثة أقسام لأنه إما أن تكون إرادة الآخرة أرجح أو تكون مرجوحة أو تكون الإرادتان متعادلتين) ثم أطال البحث فيما تكون فيه إرادة الآخرة أرجح ونقل اختلاف العلماء في قبول هذا النوع من العمل، ونقل اتفاقهم على عدم قبول ما يترجح فيه باعث الدنيا أو كان الباعثان فيه متساويين، قال: (وأما القسم الرابع عند القائلين بأن صدور الفعل من القادر يتوقف على حصول الداعي فهو ممتنع الحصول والذين قالوا: إنه لا يتوقف، قالوا ذلك الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر) وقد سبقه إلى هذا التقسيم والبحث غيره.

و. وأنت خبير بأن الآيات الكريمة ليست في مقام بيان حكم الرد والقبول بالنسبة إلى كل عمل صدر عن عامل بل هي تأخذ غاية الإنسان وتعينها بحسب نشاة حياته مرة متعلقة بالحياة العاجلة ولازمه أن لا يريد بأعماله إلا مزايا الحياة الدنيوية المادية ويعرض عن الأخرى، ومرة متعلقة بالحياة الآخرة ولازمه أن يرى لنفسه حياة خالدة دائمة، بعضها وهي الحياة الدنيا مقدمة للبعض الآخر وهي الحياة بعد الموت وأعماله في الدنيا مقصودة بها سعادة الأخرى.

ز. ومعلوم أن هذا التقسيم لا ينتج إلا قسمين نعم أحد القسمين ينقسم إلى أقسام لم يستوف أحكامها في الآيات لعدم تعلق الغرض بها وذلك أن من أراد الآخرة ربما سعى لها سعيها وربما لم يسع لها سعيها كالفساق وأهل البدع، وعلى كلا الوجهين ربما كان مؤمنا وربما لم يكن مؤمنا، ولم يذكر في كلامه تعالى إلا حكم طائفة خاصة وهي من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن لأن الغرض تمييز ملاك السعادة من ملاك الشقاء لا بيان تفصيل الأحوال.

٥. وضع هنا مبحثا حول [الفيض الإلهي مطلق غير محدود]، خلاصته:«الميزان: ١٣/ ٧٥»:

أ. وجود الواجب تعالى مطلق غير محدود بحد ولا مقيد بقيد، لأنه واجب لذاته، ولو كان محدوداً لانعدم فيما وراء حده، ولو كان مقيداً لبطل على تقدير عدم قيده، وهو خلاف فرض الوجوب الذاتي.

ب. الأثر الصادر من الواجب (وهو الوجود المفيض على الممكنات) لا بد أن يكون مسانخاً لفاعله، فيكون واحداً ومطلقاً غير محدود، وإلا لتركبت ذاته من حد ومحدود، وسرت المناقضة إلى ذات الفاعل لمكان المسانخة.

ج. الاختلافات التي نراها في الممكنات (من نقص وكمال، ووجدان وفقدان) عائدة إلى أنفسها (ماهياتها واستعداداتها) لا إلى الجاعل، فإن الماهيات المختلفة تقبل الوجود بإمكانها الذاتي، والاستعدادات المختلفة تكثر الفيض الواحد باختلاف قابليتها.

د. مثال ذلك: الشمس تفيض نوراً واحداً متشابه الأجزاء، لكن الأجسام القابلة تتصرف فيه بحسب استعداداتها، فمنها ما يقبله تاماً، ومنها ما يقبله ناقصاً.

هـ. الإشكال: إذا كانت الاختلافات واقعية، وكانت الماهيات والاستعدادات أموراً واقعية، فكيف يعود الأمر إلى فيض واحد مطلق؟ والجواب: أن تحليل العقل للأشياء إلى ماهية ووجود، وإلى قوة وفعل، هو الذي أظهر السلوب في نفس الأمر، أما إذا رجع الجميع إلى الوجود الذي هو حقيقة واحدة مطلقة، لم يبق للبحث عن سبب الاختلاف محل، وعاد أثر الجاعل (الفيض) واحداً مطلقاً لا كثرة فيه ولا حد معه.

١٦. تفاضل الدنيا وتفوّق الآخرة:

المقطع [١٦] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٦٩»:

١. ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾:

أ. إشارة إلى تفاوت الدرجات بتفاوت المساعي حتى لا يتوهم أن قليل العمل وكثيره على حد سواء ويسير السعي والسعي البالغ لا فرق بينهما فإن تسوية القليل والكثير والجيد والردي في الشكر والقبول رد في الحقيقة لما يزيد به الأفضل على غيره.

ب. ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بعض الناس على بعض في الدنيا، والقرينة على هذا التقييد قوله بعد: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ والتفضيل في الدنيا هو ما يزيد به بعض أهلها على بعض من أعراضها وأمتعتها كالمال والجاه والولد والقوة والصيت والرئاسة والسؤدد والقبول عند الناس.

ج. ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ أي هي أكبر من الدنيا في الدرجات والتفضيل فلا يتوهمن متوهم أن أهل الآخرة في عيشة سواء ولا أن التفاوت بين معايشهم كتفاوت أهل الدنيا في دنياهم بل الدار أوسع من الدنيا بما لا يقاس وذلك أن سبب التفضيل في الدنيا هي اختلاف الأسباب الكونية وهي محدودة والدار دار التزاحم وسبب التفضيل واختلاف الدرجات في الآخرة هو اختلاف النفوس في الإيمان والإخلاص وهي من أحوال القلوب، واختلاف أحوالها أوسع من اختلاف أحوال الأجسام بما لا يقاس قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقال: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]

٢. ففي الآية أمره ﷺ أن ينظر إلى ما بين أهل الدنيا من التفاضل والاعتبار ليجعل ذلك ذريعة إلى فهم ما بين أهل الآخرة من تفاوت الدرجات والتفاضل في المقامات فإن اختلاف الأحوال في الدنيا يؤدي إلى اختلاف الإدراكات الباطنة والنيات والأعمال التي يتيسر للإنسان أن يأتي بها واختلاف ذلك يؤدي إلى اختلاف الدرجات في الآخرة.

١٧. النهي عن الشرك والذم والخذلان:

المقطع [١٧] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٧٠»:

١. ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾:

أ. قال في المفردات: (الخذلان ترك من يظن به أن ينصر نصرته)

ب. والآية بمنزلة النتيجة للآيات السابقة التي ذكرت سنة الله في عباده وختمت في أن من أراد منهم العاجلة انتهى به ذلك إلى أن يصلى جهنم مذموما مدحورا، ومن أراد منهم الآخرة شكر الله سعيه الجميل، والمعنى لا تشرك بالله سبحانه حتى يؤديك ذلك إلى أن تقعد وتحتبس عن السير إلى درجات القرب وأنت مذموم لا ينصرك الله ولا ناصر دونه وقيل: القعود كناية عن المذلة والعجز.

١٨. وصية الله بالإحسان إلى الوالدين:

المقطع [١٨] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٧٨»:

١. ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾:

أ. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، نفي واستثناء و(أن) مصدرية وجوز أن يكون نهيا واستثناء وأن مصدرية أو مفسرة، وعلى أي حال ينحل مجموع المستثنى والمستثنى منه إلى جملتين كقولنا: تعبدونه ولا تعبدون غيره وترجع الجملتان بوجه آخر إلى حكم واحد وهو الحكم بعبادته عن إخلاص.

ب. والقول سواء كان منحلا إلى جملتين أو عائدا إلى جملة واحدة متعلق القضاء وهو القضاء التشريعي المتعلق بالأحكام والقضايا التشريعية، ويفيد معنى الفصل والحكم القاطع المولوي، وهو كما يتعلق بالأمر يتعلق بالنهي وكما يبرم الأحكام المثبتة يبرم الأحكام المنفية، ولو كان بلفظ الأمر فقيل: وأمر ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، لم يصح إلا بنوع من التأويل والتجوز.

ج. والأمر بإخلاص العبادة لله سبحانه أعظم الأوامر الدينية والإخلاص بالعبادة أوجب الواجبات كما أن معصيته وهو الشرك بالله سبحانه أكبر الكبائر الموبقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ٤٨]

د. وإليه يعود جميع المعاصي بحسب التحليل إذ لولا طاعة غير الله من شياطين الجن والإنس وهوى النفس والجهل لم يقدم الإنسان على معصية ربه فيما أمره به أو نهاه عنه والطاعة عبادة قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ [يس: ٦٠]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، حتى أن الكافر المنكر للصانع مشرك بإلقائه زمام تدبير العالم إلى المادة أو الطبيعة أو الدهر أو غير ذلك وهو مقر بسذاجة فطرته بالصانع تعالى.

هـ. ولعظم أمر هذا الحكم قدمه على سائر ما عد من الأحكام الخطيرة شأنا كعقوق الوالدين ومنع الحقوق المالية والتبذير وقتل الأولاد والزنا وقتل النفس المحترمة وأكل مال اليتيم ونقض العهد والتطفيف في الوزن واتباع غير العلم والكبير ثم ختمها بالنهي ثانيا عن الشرك.

٢. ﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾:

أ. عطف على سابقه أي وقضى ربك بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا أو أن أحسنوا بالوالدين إحسانا

والإحسان في الفعل يقابل الإساءة.

ب. وهذا بعد التوحيد لله من أوجب الواجبات كما أن عقوقهما أكبر الكبائر بعد الشرك بالله، ولذلك ذكره بعد حكم التوحيد وقدمه على سائر الأحكام المذكورة المعدودة وكذلك فعل في عدة مواضع من كلامه.

ج. وقد تقدم في نظير الآية من سورة الأنعام، [الآية: ١٥١] من السورة، أن الرابطة العاطفية المتوسطة بين الأب والأم من جانب والولد من جانب آخر من أعظم ما يقوم به المجتمع الإنساني على ساقه، وهي الوسيلة الطبيعية التي تمسك الزوجين على حال الاجتماع فمن الواجب بالنظر إلى السنة الاجتماعية الفطرية أن يحترم الإنسان والديه بإكرامهما والإحسان إليهما، ولو لم يجر هذا الحكم وهجر المجتمع الإنساني بطلت العاطفة والرابطة للأولاد بالأبوين وانحل به عقد الاجتماع.

٣. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً﴾:

أ. ﴿إِمَّا﴾ مركب من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة وهي المصححة لدخول نون التأكيد على فعل الشرط، والكبر هو الكبر في السن وأف كلمة تفيد الضجر والانزجار، والنهر هو الزجر بالصياح ورفع الصوت والإغلاظ في القول.

ب. وتخصيص حالة الكبر بالذكر لكونها أشق الحالات التي تمر على الوالدين فيحسان فيها الحاجة إلى إعانة الأولاد لهما وقيامهم بواجبات حياتيهما التي يعجزان عن القيام بها، وذلك من آمال الوالدين التي يأملانها من الأولاد حين يقومان بحضانتهم وتربيتهم في حال الصغر وفي وقت لا قدرة لهم على شيء من لوازم الحياة وواجباتها.

ج. فالآية تدل على وجوب إكرامهما ورعاية الأدب التام في معاشرتهما ومحاورتهما في جميع الأوقات وخاصة في وقت يشتد حاجتهما إلى ذلك وهو وقت بلوغ الكبر من أحدهما أو كليهما عند الولد ومعنى الآية ظاهر.

٤. ﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾:

أ. خفض الجناح كناية عن المبالغة في التواضع والخضوع قولا وفعلا مأخوذ من خفض فرخ الطائر جناحه ليستعطف أمه لتغذيته، ولذا قيده بالذل فهو دأب أفراخ الطيور إذا أرادت الغذاء من أمهاتها،

فالمعنى واجههما في معاشرتك ومحاورتك مواجهة يلوح منها تواضعك وخضوعك لهما وتذللك قبالهما رحمة بهما.

ب. هذا إن كان الذل بمعنى المسكنة وإن كان بمعنى المطاوعة فهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته أفراخه رحمة بها وحفظا لها.

٥. ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾:

أ. أي اذكر تربيتهما لك صغيرا فادع الله سبحانه أن يرحمهما كما رحماك وربياك صغيرا.

ب. قال في المجمع: (وفي هذا دلالة على أن دعاء الولد لوالده الميت مسموع وإلا لم يكن للأمر به معنى)، والذي يدل عليه كون هذا الدعاء في مظنة الإجابة وهو أدب ديني ينتفع به الولد وإن فرض عدم انتفاع والديه به على أن وجه تخصيص استجابة الدعاء بالوالد الميت غير ظاهر والآية مطلقة.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الإحتجاج، عن بريد بن عمير بن معاوية الشامي عن الرضا عليه السلام: في حديث يذكر فيه الجبر والتفويض والأمر بين أمرين، قال: قلت له: وهل لله مشية وإرادة في ذلك يعني فعل العبد فقال: أما الطاعات فإرادة الله، ومشيته فيها الأمر بها والرضا لها والمعاونة لها، ومشيته في المعاصي النهي عنها والسخط بها والخذلان عليها الحديث.

ب. وفي تفسير العياشي، عن أبي ولاد الحناط قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ فقال: الإحسان أن تحسن صحبتهما، ولا تكلفهما أن يسألاك شيئا مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين، أليس الله يقول: ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾؟ ثم قال أبو عبد الله عليه السلام أما قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ﴾ قال: إن أضجراك فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما إن ضرباك، وقال ﴿وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً﴾ قال: تقول لهما: غفر الله لكما فذلك منك قول كريم، وقال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يديك فوق أيديهما، ولا تتقدم قدامهما:

• أقول: ورواه الكليني في الكافي، بإسناده عن أبي ولاد الحناط عنه عليه السلام.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن حديد بن حكيم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أدنى العقوق أف،

ولو علم الله عز وجل شيئا أهون منه لنهى عنه:

• أقول: ورواه عنه أيضا بسند آخر وروى هذا المعنى أيضا بإسناده عن أبي البلاد عنه عليه السلام ورواه العياشي في تفسيره، عن حريز عنه عليه السلام، والطبرسي في مجمع البيان، عن الرضا عن أبيه عنه عليه السلام، والروايات في وجوب بر الوالدين وحرمة عقوقهما في حياتهما وبعد مماتهما من طرق العامة والخاصة عن النبي ﷺ وأئمة أهل بيته عليه السلام أكثر من أن تحصى.

١٩. الله عليم بما في النفوس وغفور للأوابين:

المقطع [١٩] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٨١»:

١. ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾:

أ. السياق يعطي أن تكون الآية متعلقة بما تقدمها من إيجاب إحسان الوالدين وتحريم عقوقهما، وعلى هذا فهي متعرضة لما إذا بدرت من الولد بادرة في حق الوالدين من قول أو فعل يتأذيان به، وإنما لم يصرح به للإشارة إلى أن ذلك مما لا ينبغي أن يذكر كما لا ينبغي أن يقع.

ب. فقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي أعلم منكم به، وهو تمهيد لما يتلوه من قوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ﴾ فيفيد تحقيق معنى الصلاح أي إن تكونوا صالحين وعلم الله من نفوسكم ذلك فإنه كان إلخ، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ أي للراجعين إليه عند كل معصية وهو من وضع البيان العام موضع الخاص.

ج. والمعنى: إن تكونوا صالحين وعلم الله من نفوسكم ورجعتم وتبتم إليه في بادرة ظهرت منكم على والديكم غفر الله لكم ذلك إنه كان للأوابين غفورا.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام: الأواب التواب المتعبد الراجع عن ذنبه.

ب. وفي تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا با محمد عليكم بالورع والاجتهاد وأداء الأمانة، وصدق الحديث وحسن الصحبة لمن صحبكم وطول السجود، وكان ذلك من سنن التوابين الأوابين، قال أبو بصير: الأوابون التوابون.

• أقول: وروي أيضا عن أبي بصير عنه عليه السلام: في معنى الآية هم التوابون المتعبدون.

ج. أخرج ابن أبي شيبة وهناد عن علي بن أبي طالب قال: إذا مالت الأفياء وراحت الأرواح، فاطلبوا الحوائج إلى الله فإنها ساعة الأوابين وقرأ ﴿فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾

٢٠. إيتاء الحقوق والنهي عن التبذير:

المقطع [٢٠] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦ـ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٨١»:

١. ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ تقدم الكلام فيه في نظائره، وبالآية يظهر أن إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل مما شرع قبل الهجرة لأنها آية مكية من سورة مكية.

٢. ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾:

أ. قال في المجمع: (التبذير التفريق بالإسراف، وأصله أن يفرق كما يفرق البذر إلا أنه يختص بما يكون على سبيل الإفساد، وما كان على وجه الإصلاح لا يسمى تبذيرا وإن كثر)

ب. ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ﴾ تعليل للنهي عن التبذير، والمعنى لا تبذر إنك إن تبذر كنت من المبذرين والمبذرون إخوان الشياطين، وكأن وجه المواخاة بينهم أن الواحد منهم يصير ملازما لشيطانه وبالعكس كالأخوين الذين هما شقيقان متلازمان في أصلهما الواحد كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي قرناءهم: وقوله: ﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]

ج. ومن هنا يظهر أن تفسير من فسر الآية بأنهم قرناء الشياطين أحسن من قول من قال: المعنى أنهم اتباع الشياطين سالكون سبيلهم.

د. وأما قوله: ﴿وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ فالمراد بالشيطان فيه هو إبليس الذي هو أبو الشياطين وهم ذريته وقبيله واللام حينئذ للعهد الذهني ويمكن أن يكون اللام للجنس والمراد به جنس الشيطان وعلى أي حال كونه كفورا لربه من جهة كفرانه بنعم الله حيث إنه يصرف ما آتاه من قوة وقدرة واستطاعة في سبيل إغواء الناس وحملهم على المعصية ودعوتهم إلى الخطيئة وكفران النعمة.

هـ. وقد ظهرت مما تقدم النكتة في جمع الشيطان أولا وإفراده ثانيا فإن الاعتبار أولا بأن كل مبذر أخو شيطانه الخاص فالجميع إخوان للشياطين والاعتبار ثانيا بإبليس الذي هو أبو الشياطين أو بجنس الشيطان.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن حريز عن علي بن الحسين: أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ﴾ قال، وإنكم للقرابة الذي أمر الله أن يؤتى حقه؟ قال: نعم.

• أقول: ورواه في البرهان، عن الصدوق بإسناده عنه عليه السلام وعن الثعلبي في تفسيره، عن السدي عن ابن الديلمي عنه عليه السلام.

ب. وفي تفسير العياشي، عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ قال: من أنفق شيئا في غير طاعة الله فهو مبذر، ومن أنفق في سبيل الخير فهو مقتصد.

٢١. القول الميسور عند الإعراض عن السائل:

المقطع [٢١] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٨٣»:

١. ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾:

أ. أصله إن تعرض عنهم و(ما) زائدة للتأكيد والنون للتأكيد.

ب. والسياق يشهد بأن الكلام في إنفاق الأموال فالمراد بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ الإعراض عمن سأله شيئا من المال ينفقه له ويسد به خلته وليس المراد به كل إعراض كيف اتفق بل الإعراض عند ما ليس عنده شيء من المال يبذله له وليس بآيس من وجدانه بدليل قوله: ﴿ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها﴾ أي كنت تعرض عنهم لا لكونك مليئا بالمال شحيحا به، ولا لأنك فاقد له آيس من حصوله بل لأنك فاقد له مبتغ وطالب لرحمة من ربك ترجوها يعني الرزق.

٢. ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾:

أ. أي سهلا لينا أي لا تغلظ في القول ولا تجف في الرد كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾

[الضحى: ١٠] بل رده بقول سهل لين.

ب. قال في الكشاف: (وقوله: ﴿ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدما عليه أي فقل لهم قولا سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا رحمة لهم وتطييبا لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك أي ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط أي وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك، فسمى الرزق رحمة، فردهم ردا جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب)

٢٢. التوسط في الإنفاق وعدم البخل ولا الإسراف:

المقطع [٢٢] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٩-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٨٣»:

١. ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾:

أ. جعل اليد مغلولة إلى العنق كناية عن الإمساك كمن لا يعطي ولا يهب شيئا لبخله وشح نفسه، وبسط اليد كل البسط كناية عن إنفاق الإنسان كل ما في وجده بحيث لا يبقى شيئا كمن يبسط يده كل البسط بحيث لا يستقر عليها شيء ففي الكلام نهي بالغ عن التفريط والإفراط في الإنفاق.

ب. ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ متفرع على قوله: ﴿وَلا تَبْسُطْها﴾ إلخ والحسر هو الانقطاع أو العرى أي ولا تبسط يدك كل البسط حتى يتعقب ذلك أن تقعد ملوما لنفسك وغيرك منقطعا عن واجبات المعاش أو عريانا لا تقدر على أن تظهر للناس وتعاشرهم وتراودهم.

ج. وقيل: إن قوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ متفرع على الجملتين لا على الجملة الأخيرة فحسب والمعنى إن أمسكت قعدت ملوما مذموما وإن أسرفت بقيت متحسرا مغموما.

د. وفيه أن كون قوله: ﴿وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ظاهرا في النهي عن التبذير والإسراف غير معلوم وكذا كون إنفاق جميع المال في سبيل الله إسرافا وتبذيرا غير ظاهر وإن كان منهيا عنه بهذه الآية كيف ومن المأخوذ في مفهوم التبذير أن يكون على وجه الإفساد، ووضع المال ولو كان كثيرا أو جميعه في سبيل الله وإنفاقه على من يستحقه ليس بإفساد له، ولا وجه للتحسر والغم على ما لم يفسد ولا أفسد.

٢. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾:

أ. ظاهر السياق أن الآية في مقام التعليل لما تقدم في الآية السابقة من النهي عن الإفراط والتفريط في إنفاق المال وبذله.

ب. والمعنى: أن هذا دأب ربك وسنته الجارية يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لمن يشاء فلا يبسطه كل البسط ولا يمسك عنه كل الإمساك رعاية لمصلحة العباد إنه كان بعباده خبيرا بصيرا وينبغي لك أن تتخلق بخلق الله وتتخذ طريق الاعتدال وتتجنب الإفراط والتفريط.

ج. وقيل: إنها تعليل على معنى أن ربك يبسط ويقبض، وذلك من الشئون الإلهية المختصة به تعالى، وليس لك أن تتصف به والذي عليك أن تقتصد من غير أن تعدل عنه إلى إفراط أو تفريط، وقيل في معنى التعليل غير ذلك، وهي وجوه بعيدة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن أبي بصير عنه عليه السلام: في الآية قال: بذل الرجل ماله ويقعد ليس له مال، قلت: فيكون تبذير في حلال؟ قال: نعم.

ب. وفي تفسير القمي، قال: قال الصادق عليه السلام: المحسور العريان.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن عجلان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فجاء سائل فقام إلى مكتل فيه تمر، فملأ يده فناوله ثم جاء آخر فسأله فقام، فأخذه بيده فناوله ثم آخر فقال: الله رازقنا وإياك، ثم قال: إن رسول الله ﷺ كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئا، إلا أعطاه فأرسلت إليه امرأة ابنا لها فقالت: فاسأله فإن قال: ليس عندنا شيء فقل: أعطني قميصك قال: فأخذ قميصه فرماه إليه، وفي نسخة أخرى: وأعطاه، فأدبه الله تبارك وتعالى على القصد فقال: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ قال: الإحسار الفاقة.

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره، عن عجلان عنه عليه السلام، وروى قصة النبي ﷺ القمي في تفسيره، ورواها في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو وعن ابن جرير الطبري عن ابن مسعود.

د. وفي الكافي، بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: علم الله عز

اسمه نبيه كيف ينفق؟ وذلك أنه كانت عنده أوقية من الذهب، فكره أن يبيت عنده فتصدق بها فأصبح وليس عنده شيء، وجاء من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل، واغتم هو حيثما لم يكن عنده شيء وكان رحيما رقيقا، فأدب الله عز وجل نبيه بأمره فقال: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ يقول: إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال قد كنت حسرت من المال.

هـ. وفي تفسير العياشي، عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ﴾ قال: فضم يده وقال: هكذا فقال: ﴿وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فبسط راحته وقال: هكذا.

٢٣. تحريم قتل الأولاد خشية الفقر:

المقطع [٢٣] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٨٤»:

١. ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً﴾:

أ. الإملاق الفاقة والفقر، وقال في المفردات: (الخطأ العدول عن الجهة وذلك أضرب: أحدها أن تريد غير ما تحسن إرادته وفعله، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان يقال: خطئ يخطأ وخطأة، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ وقال: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ﴾ والثاني أن يريد ما يحسن فعله ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال: أخطأ إخطاء فهو مخطئ وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهذا المعنى بقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، والثالث أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه فهذا مخطئ في الإرادة مصيب في الفعل فهو مذموم بقصده غير محمود على فعله.

ب. وجملة الأمر أن من أراد شيئا فاتفق منه غيره يقال: أخطأ، وإن وقع منه كما أراده يقال: أصاب، وقد يقال لمن فعل فعلا لا يحسن أو أراد إرادة لا يجمل: أنه أخطأ، ولذا يقال: أصاب الخطأ وأخطأ الصواب وأصاب الصواب وأخطأ الخطأ وهذه اللفظة مشتركة كما ترى مترددة بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أن يتأملها)

ج. وفي الآية نهي شديد عن قتل الأولاد خوفا من الفقر والحاجة وقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾

تعليل للنهي وتمهيد لقوله بعده: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ والمعنى ولا تقتلوا أولادكم خوفا من أن تبتلوا بالفقر والحاجة فيؤديهم ذلك إلى ذل السؤال أو ازدواج بناتكم من غير الأكفاء أو غير ذلك مما يذهب بكرامتكم فإنكم لستم ترزقونهم حتى تفقدوا الرزق عند فقركم وإعساركم بل نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا.

٢. وقد تكرر في كلامه تعالى النهي عن قتل الأولاد خوفا من الفقر وخشية من الإملاق، وهو مع كونه من قتل النفس المحترمة التي يبالغ كلامه تعالى في النهي عنه إنما أفرد بالذكر واختص بنهي خاص لكونه من أقبح الشقوة وأشد القسوة، ولأنهم، كما قيل، كانوا يعيشون في أراضي يكثر فيها السنة ويسرع إليها الجدب فكانوا إذا لاحت لوائح الفاقة والإعسار بجدب وغيره بادروا إلى قتل الأولاد خوفا من ذهاب الكرامة والعزة.

٣. وفي الكشاف: (قتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم كانوا يأدونهن خشية الفاقة وهي الإملاق فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم)، والظاهر خلاف ما ذكره وأن الآيات المتعرضة لوأد البنات آيات خاصة تصرح به وبحرمته كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩]، وقوله: ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩]، وأما الآية التي نحن فيها وأترابها فإنها تنهى عن قتل الأولاد خشية إملاق، ولا موجب لحمل الأولاد على البنات مع كونه أعم، ولا حمل الهون على خوف الفقر مع كونهما متغايرين فالحق أن الآية تكشف عن سنة سيئة أخرى غير وأد البنات دفعا للهون وهي قتل الأولاد من ذكر وأنثى خوفا من الفقر والفاقة والآيات تنهى عنه.

٢٤. تحريم الزنا وقبحه وسوء سبيله:

المقطع [٢٤] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٨٥»:

١. ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً﴾ نهي عن الزنا وقد بالغ في تحريمه حيث نهاهم عن أن يقربوه، وعلله بقوله: ﴿إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً﴾ فأفاد أن الفحش صفة لازمة له لا يفارقه، وقوله: ﴿وَساءَ سَبِيلاً﴾ فأفاد أنه سبيل سيء يؤدي إلى فساد المجتمع في جميع شئونه حتى ينحل عقده ويختل نظامه وفيه

هلاك الإنسانية وقد بالغ سبحانه في وعيد من أتى به حيث قال في صفات المؤمنين: ﴿وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً﴾ [الفرقان: ٧٠]

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة: في قوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً﴾ قال قتادة عن الحسن أن رسول الله ﷺ كان يقول: لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولا يبهت حين يبهت وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يغل حين يغل وهو مؤمن قيل: يا رسول الله والله إن كنا لنرى أنه يأتي ذلك وهو مؤمن، فقال رسول الله ﷺ: إذا فعل شيئا من ذلك نزع الإيمان من قلبه، فإن تاب تاب الله عليه.

• أقول: والحديث مروي بطرق أخرى عن عائشة وأبي هريرة وقد ورد من طرق أهل البيت عليه السلام أن روح الإيمان يفارقه إذ ذاك.

٣. وضع هنا مبحثا حول [حرمة الزنا]، خلاصته:

أ. الميل الغريزي بين الذكر والأنثى هو وسيلة تكوينية إلى التوالد والتناسل، وهو أصل طبيعي لانعقاد المجتمع الإنساني، وقد جهز الإنسان بأمور متممة لهذه البغية الطبيعية (كحب الولد، وإرضاع الأنثى)

ب. البشر منذ القدم جروا على سنة الازدواج التي فيها اختصاص وملازمة بين الرجل والمرأة، واستقبحوا الزنا لأنه يؤدي إلى فساد الأنساب، وقطع النسل، وظهور الأمراض التناسلية، والجنايات الاجتماعية (القتل، الجرح، السرقة، الخيانة)، وذهاب العفة والحياء والغيرة والمودة والرحمة.

ج. المدنية الغربية الحديثة أباحت الزنا بحجة حرية الأفراد، مما أدى إلى شيوع الفاحشة بين الرجال والنساء، وضعف الأخلاق الكريمة (كالعفة والغيرة والحياء)، وكادت مواليد الزنا أن تثقل كفة الميزان.

د. الشرائع السماوية (اليهودية، النصرانية، الإسلام) تنهى عن الزنا أشد النهي، والإسلام عده من المعاصي الكبيرة، وأغلظ في تحريم المحارم، وشرع الحدود (الجلد والرجم) للزناة.

هـ. حكمة تحريم الزنا في القرآن: أنه فاحشة (قبيحة في نفسها)، وسبيل سيئ، لأنه يقطع سبيل البقاء (بقطع النسل وتفكيك المجتمع المنزلي)، ويفسد الأنساب التي بنيت عليها المناكح والمواريث.

و. الازدواج والنكاح هو أقوى وسيلة لضمان بقاء المجتمع المدني، وأما الزنا فيفتح باباً للرغبات دون تكاليف النفقة وتربية الأولاد، مما يؤدي إلى انقطاع المودة والرحمة بين الآباء والأولاد، ويهدد الإنسانية بالهلاك.

٢٥. تحريم القتل وإقامة القصاص:

المقطع [٢٥] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٩٠»:

١. ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِ﴾ نهي عن قتل النفس المحترمة إلا بالحق أي إلا أن يكون قتلا بالحق بأن يستحق ذلك لقود أو ردة أو لغير ذلك من الأسباب الشرعية، ولعل في توصيف النفس بقوله: ﴿حَرَّمَ اللهُ﴾ من غير تقييد إشارة إلى حرمة قتل النفس في جميع الشرائع السماوية فيكون من الشرائع العامة كما تقدمت الإشارة إليه في ذيل [الآيات: ١٥١] من سورة الأنعام.

٢. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾:

أ. المراد بجعل السلطان لوليه تسليطه شرعا على قتل قاتل وليه قصاصا والضميران في ﴿فَلا يُسْرِفْ﴾ و﴿إِنَّهُ﴾ للولي، والمراد بكونه منصورا هو التسليط الشرعي المذكور.

ب. والمعنى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا بحسب التشريع لوليه وهو ولي دمه سلطنة على القصاص وأخذ الدية والعفو فلا يسرف الولي في القتل بأن يقتل غير القاتل أو يقتل أكثر من الواحد إنه كان منصورا أي فلا يسرف فيه لأنه كان منصورا فلا يفوته القاتل بسبب أنا نصرناه أو فلا يسرف اعتمادا على أنا نصرناه.

ج. وربما احتمل بعضهم رجوع الضمير في قوله: ﴿فَلا يُسْرِفْ﴾ إلى القاتل المدلول عليه بالسياق، وفي قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ إلى ﴿مَنْ﴾ والمعنى قد جعلنا لولي المقتول ظلما سلطنة فلا يسرف القاتل الأول بإقدامه على القتل ظلما فإن المقتول ظلما منصور من ناحيتنا لما جعلنا لوليه من السلطنة، وهو معنى بعيد من السياق ودونه إرجاع ضمير ﴿إِنَّهُ﴾ فقط إلى المقتول.

د. وقد تقدم كلام في معنى القصاص في ذيل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] في الجزء الأول من الكتاب.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: إن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً، فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾ فما هذا الإسراف الذي نهى الله عنه؟ قال: نهى أن يقتل غير قاتله أو يمثل بالقاتل، قلت: فما معنى ﴿إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾ قال: وأي نصرة أعظم من أن يدفع القاتل، إلى أولياء المقتول فيقتله، ولا تبعة يلزمه في قتله في دين ولا دنيا.

ب. وفي تفسير العياشي، عن أبي العباس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين قتلا رجلا فقال: يخير وليه أن يقتل أيهما شاء، ويغرم الباقي نصف الدية، أعني دية المقتول فيرد على ذريته، وكذلك إن قتل رجل امرأة إن قبلوا دية المرأة فذاك، وإن أبى أولياؤها إلا قتل قاتلها غرموا نصف دية الرجل وقتلوه، وهو قول الله: ﴿فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾

• أقول: وفي معنى هاتين الروايتين غيرهما، وقد روي في الدر المنثور، عن البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم: أن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلا، لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلا شريفا، إذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره، فوعظوا في ذلك بقول الله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا﴾ إلى قوله ـ﴿فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾

٢٦. حفظ مال اليتيم والوفاء بالعهد:

المقطع [٢٦] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٩٠»:

١. ﴿وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ نهي عن أكل مال اليتيم وهو من الكبائر التي أوعد الله عليها النار قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١٠]، وفي النهي عن الاقتراب مبالغة لإفادة اشتداد الحرمة.

٢. ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالطريقة التي هي أحسن وفيه مصلحة إنماء ماله، وقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ هو أوان البلوغ والرشد وعند ذلك يرتفع عنه اليتم فالتحديد بهذه الجملة لكون النهي عن

القرب في معنى الأمر بالصيانة والحفظ كأنه قيل: احتفظوا على ماله حتى يبلغ أشده فتردوه إليه، وبعبارة أخرى الكلام في معنى قولنا: لا تقربوا مال اليتيم ما دام يتيما، وقد تقدم بعض ما يناسب المقام في سورة الأنعام [آية: ١٥٢]

٣. ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً﴾ أي مسئول عنه وهو من الحذف والإيصال السائغ في الكلام، وقيل: المراد السؤال عن نفس العهد فإن من الجائز أن تتمثل الأعمال يوم القيامة فتشهد للإنسان أو عليه وتشفع له أو تخاصمه.

٢٧. إيفاء الكيل والميزان بالقسط:

المقطع [٢٧] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٩١»:

١. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ القسطاس بكسر القاف وضمها هو الميزان قيل: رومي معرب وقيل: عربي، وقيل مركب في الأصل من القسط وهو العدل وطاس وهو كفة الميزان والقسطاس المستقيم هو الميزان العادل لا يخسر في وزنه.

٢. ﴿ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾:

أ. الخير هو الذي يجب أن يختاره الإنسان إذا تردد الأمر بينه وبين غيره، والتأويل هو الحقيقة التي ينتهي إليها الأمر، وكون إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم خيرا لما فيه من الاتقاء من استراق أموال الناس واختلاسها من حيث لا يشعرون وجلب وثوقهم.

ب. وكونهما أحسن تأويلا لما فيهما من رعاية الرشد والاستقامة في تقدير الناس معيشتهم فإن معايشهم تقوم في التمتع بأمتعة الحياة على أصلين اكتساب الأمتعة الصالحة للتمتع والمبادلة على الزائد على قدر حاجتهم فهم يقدرون معيشتهم على قدر ما يسعهم أن يبذلوه من المال عينا أو قيمة، وعلى قدر ما يحتاجون إليه من الأمتعة المشتراة فإذا خسروا بالتطفيف ونقص الكيل والوزن فقد اختلت عليهم الحياة من الجهتين جميعا، وارتفع الأمن العام من بينهم.

ج. وأما إذا أقيم الوزن بالقسط فقد أطل عليهم الرشد واستقامت أوضاعهم الاقتصادية بإصابة الصواب فيما قدروا عليه معيشتهم واجتلب وثوقهم إلى أهل السوق واستقر بينهم الأمن العام.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: القسطاس المستقيم هو الميزان الذي له لسان.

- أقول: وذكر اللسان للدلالة على الاستقامة فإن الميزان ذا الكفتين كذلك.

٢٨. النهي عن اتباع الظنون والجهل:

المقطع [٢٨] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٩٢»:

١. ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾:

أ. القراءة المشهورة ﴿لا تَقْفُ﴾ بسكون القاف وضم الفاء من قفا يقفو قفوا إذا اتبعه ومنه قافية الشعر لكونها في آخر المصراع تابعة لما تقدمها، وقرئ ﴿لا تَقُفُ﴾ بضم القاف وسكون الفاء من قاف بمعنى قفا، ولذلك نقل عن بعض أهل اللغة أن قاف مقلوب قفا مثل جبذ مقلوب جذب، ومنه القيافة بمعنى اتباع أثر الأقدام.

ب. والآية تنهى عن اتباع ما لا علم به، وهي لإطلاقها تشمل الاتباع اعتقادا وعملا، وتتحصل في مثل قولنا: لا تعتقد ما لا علم لك به ولا تقل ما لا علم لك به ولا تفعل ما لا علم لك به لأن في ذلك كله اتباعا.

ج. وفي ذلك إمضاء لما تقضي به الفطرة الإنسانية وهو وجوب اتباع العلم والمنع عن اتباع غيره فإن الإنسان بفطرته الموهوبة لا يريد في مسير حياته باعتقاده أو عمله إلا أصابة الواقع والحصول على ما في متن الخارج والمعلوم هو الذي يصح له أن يقول: إنه هو، وأما المظنون والمشكوك والموهوم فلا يصح فيها إطلاق القول بأنه هو فافهم ذلك.

د. والإنسان بفطرته السليمة يتبع في اعتقاده ما يراه حقا ويجده واقعا في الخارج، ويتبع في عمله ما يرى نفسه مصيبا في تشخيصه، وذلك فيما تيسر له أن يحصل العلم به، وأما فيما لا يتيسر له العلم به كالفروع الاعتقادية بالنسبة إلى بعض الناس وغالب الأعمال بالنسبة إلى غالب الناس فإن الفطرة السليمة تدفعه إلى اتباع علم من له علم بذلك وخبرة باعتبار علمه وخبرته علما لنفسه فيئول اتباعه في ذلك بالحقيقة اتباعا

لعلمه بأن له علما وخبرة كما يرجع السالك وهو لا يعرف الطريق إلى الدليل لكن مع علمه بخبرته ومعرفته، ويرجع المريض إلى الطبيب ومثله أرباب الحوائج إلى مختلف الصناعات المتعلقة بحوائجهم إلى أصحاب تلك الصناعات.

هـ. ويتحصل من ذلك أنه لا يتخطى العلم في مسير حياته بحسب ما تهدي إليه فطرته غير أنه يعد ما يثق به نفسه ويطمئن إليه قلبه علما وإن لم يكن ذاك اليقين الذي يسمى علما في صناعة البرهان من المنطق.

و. فله في كل مسألة ترد عليه إما علم بنفس المسألة وإما دليل علمي بوجوب العمل بما يؤديه ويدل عليه، وعلى هذا ينبغي أن ينزل قوله سبحانه ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فاتباع الظن عن دليل علمي بوجوب اتباعه اتباع للعلم كاتباع العلم في مورد العلم.

ز. فيئول المعنى إلى أنه يحرم الاقتحام على اعتقاد أو عمل يمكن تحصيل العلم به إلا بعد تحصيل العلم، والاقتحام على ما لا يمكن فيه ذلك إلا بعد الاعتماد على دليل علمي يجوز الاقتحام والورود وذلك كأخذ الأحكام عن النبي واتباعه وإطاعته فيما يأمر به وينهى عنه عن قبل ربه وتناول المريض ما يأمر به الطبيب والرجوع إلى أصحاب الصنائع فيما يرجع إلى صناعتهم فإن الدليل العلمي على عصمة النبي دليل علمي على مطابقة ما يخبر به أو ما يأمر به وينهى عنه الواقع وأصابة من اتبعه الصواب، والحجة العلمية على خبرة الطبيب في طبه وأصحاب الصناعات في صناعاتهم حجة علمية على أصابة من يرجع إليهم فيما يعمل به.

ح. ولولا كون الاقتحام على العمل عن حجة علمية على وجوب الاقتحام اقتحاما علميا لكانت الآية قاصرة عن الدلالة على مدلولها من رأس فإن الطريق إلى فهم مدلول الآية هو ظهورها اللفظي فيه، والظهور اللفظي من الأدلة الظنية غير أنه حجة عن دليل علمي وهو بناء العقلاء على حجيته فلو كان غير ما تعلق العلم به بعينه مما لا علم به مطلقا لكان اتباع الظهور ومنه ظهور نفس الآية منهيا عنه بالآية وكانت الآية ناهية عن اتباع نفسه فكانت ناقضة لنفسها.

٢. ومن هنا يظهر اندفاع:

أ. ما أورده بعضهم في المقام كما عن الرازي في تفسيره أن العمل بالظن كثير في الفروع فالتمسك بالآية تمسك بعام مخصوص وهو لا يفيد إلا الظن فلو دلت على أن التمسك بالظن غير جائز لدلت على

أن التمسك بها غير جائز فالقول بحجيتها يقضي إلى نفيه وهو غير جائز.

• وفيه أن الآية تدل على عدم جواز اتباع غير العلم بلا ريب غير أن موارد العمل بالظن شرعا موارد قامت عليها حجة علمية فالعمل فيها بالحقيقة إنما هو عمل بتلك الحجج العلمية والآية باقية على عمومها من غير تخصص، ولو سلم فالعمل بالعام المخصص فيما بقي من الأفراد سالمة عن التخصيص عمل بحجة عقلائية نظير العمل بالعام غير المخصص من غير فرق بينهما البتة.

ب. ونظيره الاستشكال فيها بأن الطريق إلى فهم المراد من الآية هو ظهورها والظهور طريق ظني فلو دلت الآية على حرمة اتباع غير العلم لدلت على حرمة الأخذ بظهور نفسها، ولازمها حرمة العمل بنفسها.

• ويرده ما تقدمت الإشارة إليه أن اتباع الظهور اتباع لحجة علمية عقلائية وهي بناء العقلاء على حجيته فليس اتباعه من اتباع غير العلم بشيء.

٣. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾:

أ. تعليل للنهي السابق في قوله: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾

ب. والظاهر المتبادر إلى الذهن، أن الضميرين في ﴿كانَ عَنْهُ﴾ راجعان إلى ﴿كُلُّ﴾ فيكون ﴿عَنْهُ﴾ نائب فاعل لقوله: ﴿مَسْؤُلاً﴾ مقدما عليه كما ذكره الزمخشري في الكشاف، أو مغنيا عن نائب الفاعل، وقوله: ﴿أُولئِكَ﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، وإنما عبر عنها بأولئك المختص بالعقلاء لأن كون كل منها مسئولا عنه يجريه مجرى العقلاء وهو كثير النظير في كلامه تعالى.

ج. وربما منع بعضهم كون (أولئك) مختصا بالعقلاء استنادا إلى قول جرير:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى...و العيش بعد أولئك الأيام

وعلى ذلك فالمسئول هو كل من السمع والبصر والفؤاد يسأل عن نفسه فيشهد للإنسان أو عليه كما قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]

د. واختار بعضهم رجوع ضمير ﴿عَنْهُ﴾ إلى ﴿كُلُّ﴾ وعود باقي الضمائر إلى القافي المدلول عليه في الكلام فيكون المسئول هو القافي يسأل عن سمعه وبصره وفؤاده كيف استعملها؟ وفيما استعملها؟ وعليه ففي الكلام التفات عن الخطاب إلى الغيبة، وكان الأصل أن يقال: كنت عنه مسئولا، وهو بعيد.

هـ. والمعنى: لا تتبع ما ليس لك به علم لأن الله سبحانه سيسأل عن السمع والبصر والفؤاد وهي الوسائل التي يستعملها الإنسان لتحصيل العلم، والمحصل من التعليل بحسب انطباقه على المورد أن السمع والبصر والفؤاد إنما هي نعم آتاها الله الإنسان ليشخص بها الحق ويحصل بها على الواقع فيعتقد به ويبني عليه عمله وسيسأل عن كل منها هل أدرك ما استعمل فيه إدراكا علميا؟ وهل اتبع الإنسان ما حصلته تلك الوسيلة من العلم؟

و. فيسأل السمع هل كان ما سمعه معلوما مقطوعا به؟ وعن البصر هل كان ما رآه ظاهرا بينا؟ وعن الفؤاد هل كان ما فكره وقضى به يقينيا لا شك فيه؟ وهي لا محالة تجيب بالحق وتشهد على ما هو الواقع فمن الواجب على الإنسان أن يتحرز عن اتباع ما ليس له به علم فإن الأعضاء ووسائل العلم التي معه ستسأل فتشهد عليه فيما اتبعه مما حصلته ولم يكن له به علم ولا يقبل حينئذ له عذر.

ز. ومآله إلى نحو من قولنا: لا تقف ما ليس لك به علم فإنه محفوظ عليك في سمعك وبصرك وفؤادك، والله سائلها عن عملك لا محالة، فتكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٠] وغيرها من آيات شهادة الأعضاء.

ح. غير أن الآية تزيد عليها بعد الفؤاد من الشهداء على الإنسان وهو الذي به يشعر الإنسان ما يشعر ويدرك ما يدرك، وهو من أعجب ما يستفاد من آيات الحشر أن يوقف الله النفس الإنسانية فيسألها عما أدركت فتشهد على الإنسان نفسه.

ط. وقد تبين أن الآية تنهى عن الإقدام على أمر مع الجهل به سواء كان اعتقادا مع الجهل أو عملا مع الجهل بجوازه ووجه الصواب فيه أو ترتيب أثر لأمر مع الجهل به وذيلها يعلل ذلك بسؤاله تعالى السمع والبصر والفؤاد، ولا ضير في كون العلة أعم مما عللتها فإن الأعضاء مسئولة حتى عما إذا أقدم الإنسان مع العلم بعدم جواز الإقدام قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ الآية.

ي. قال في المجمع: (في معنى قوله: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ معناه لا تقل: سمعت ولم

تسمع ولا رأيت ولم تر ولا علمت ولم تعلم عن ابن عباس وقتادة، وقيل: معناه لا تقل في قفا غيرك كلاما أي إذا مر بك فلا تغتبه عن الحسن، وقيل: هو شهادة الزور عن محمد بن الحنفية.

ك. والأصل أنه عام في كل قول أو فعل أو عزم يكون على غير علم فكأنه سبحانه قال: لا تقل إلا ما تعلم أنه يجوز أن يقال، ولا تفعل إلا ما تعلم أنه يجوز أن يفعل ولا تعتقد إلا ما تعلم أنه مما يجوز أن يعتقد)

ل. وفيه أن الذي ذكره أعم مما تفيده الآية فإنها تنهى عن اقتفاء ما لا علم به لا عن الاقتفاء إلا مع العلم والثاني أعم من الأول فإنه يشمل النهي عن الاقتفاء مع العلم بعدم الجواز لكن الأول إنما يشمل النهي عن الاقتفاء مع الجهل بوجه الاعتقاد أو العمل: وأما ما نقله من الوجوه في أول كلامه فالأحرى بها أن يذكر في تفسير التعليل بعنوان الإشارة إلى بعض المصاديق دون المعلل.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح بني آدم، وقسمه عليها فليس من جوارحه جارحة، إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها، فمنها عيناه اللتان ينظر بهما ورجلاه اللتان يمشي بهما، ففرض على العين أن لا تنظر إلى ما حرم الله عليه، وأن تغض عما نهاه الله عنه مما لا يحل، وهو عمله وهو من الإيمان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ، كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ فهذا ما فرض من غض البصر عما حرم الله، وهو عمله وهو من الإيمان، وفرض الله على الرجلين، أن لا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله، والله فرض عليهما المشي فيما فرض الله فقال: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً﴾ قال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾

• أقول: ورواه في الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عنه عليه السلام في حديث مفصل.

ب. وفيه، عن أبي جعفر قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال له رجل: بأبي أنت وأمي إني أدخل كنيفا لي ولي جيران، وعندهم جوار يغنين ويضربن بالعود، فربما أطيل الجلوس استماعا مني لهن فقال: لا تفعل، فقال الرجل والله ما أتيتهن إنما هو سماع أسمعه بأذني، فقال له: أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ

السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ قال بلى والله فكأني لم أسمع هذه الآية قط، من كتاب الله من عجمي ولا عربي، لا جرم أني لا أعود إن شاء الله وأني أستغفر الله، فقال: قم واغتسل وصل ما بدا لك، فإنك كنت مقيما على أمر عظيم ما كان أسوأ حالك، لو مت على ذلك أحمد الله واسأله التوبة من كل ما يكره، فإنه لا يكره إلا كل قبيح، والقبيح دعه لأهله فإن لكل أهلا:

• أقول: ورواه الشيخ في التهذيب، عنه عليه السلام والكليني في الكافي، عن مسعدة بن زياد عنه عليه السلام.

ج. وفيه، عن الحسين بن هارون عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ قال: يسأل السمع عما يسمع والبصر عما يطرف والفؤاد عما يعقد عليه.

د. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ الآية، قال: قال: لا تؤم أحدا مما ليس لك به علم، قال: قال رسول الله عليه السلام: من بهت مؤمنا أو مؤمنة أقيم في طينة خبال أو يخرج مما قال.

• أقول: وفسرت طينة خبال في رواية ابن أبي يعفور عن الصادق عليه السلام، على ما في الكافي،، بأنها صديد يخرج من فروج المومسات وروي من طرق أهل السنة ما يقرب منها عن أبي ذر وأنس عنه ﷺ.

• والروايات، كما ترى، بعضها مبني على خصوص مورد الآية وبعضها على عموم التعليل كما أشير إليه في البيان المتقدم.

٢٩. النهي عن المشي في الأرض مرحاً:

المقطع [٢٩] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٩٦»:

١. ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً﴾:

أ. المرح شدة الفرح بالباطل، كما قيل، ولعل التقييد بالباطل للدلالة على خروجه عن حد الاعتدال فإن الفرح الحق هو ما يكون ابتهاجا بنعمة من نعم الله شكرا له وهو لا يتعدى حد الاعتدال، وأما إذا فرح واشتد منه ذلك حتى خف عقله وظهر آثاره في أفعاله وأقواله وقيامه وقعوده وخاصة في مشيه فهو من

الباطل.

ب. ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ نهي عن استعظام الإنسان نفسه بأكثر مما هو عليه لمثل البطر والأشر والكبر والخيلاء، وإنما ذكر المشي في الأرض مرحا لظهور ذلك فيه.

٢. ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً﴾ كناية عن أن فعالك هذا وأنت تريد به إظهار القدرة والقوة والعظمة إنما هو وهم تتوهمه فإن هناك ما هو أقوى منك لا يخترق بقدميك وهي الأرض وما هو أطول منك وهي الجبال فاعترف بذلك أنك وضيع مهين فلا شيء مما يبتغيه الإنسان ويتنافس فيه في هذه النشأة من ملك وعزة وسلطنة وقدرة وسؤدد ومال وغيرها إلا أمور وهمية لا حقيقة لها وراء الإدراك الإنساني سخر الله النفوس للتصديق بها والاعتماد في العمل عليها لتعمير النشأة وتمام الكلمة، ولولا هذه الأوهام لم يعش الإنسان في الدنيا ولا تمت كلمته تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]

٣٠. السيئات مكروهة عند الله:

المقطع [٣٠] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٩٧»:

١. ﴿كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ الإشارة بذلك إلى ما تقدم من الواجبات والمحرمات، كما قيل، والضمير في ﴿سَيِّئُهُ﴾ يرجع إلى ذلك، والمعنى كل ما تقدم كان سيئه، وهو ما نهي عنه وكان معصية من بين المذكورات، عند ربك مكروها لا يريده الله تعالى، وفي غير القراءة المعروفة (سيئة) بفتح الهمزة والتاء في آخرها وهي على هذه القراءة خبر كان والمعنى واضح.

٣١. الحكمة في الوحي والتحذير من الشرك:

المقطع [٣١] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٩٧»:

١. ﴿ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم من تفصيل التكاليف وفي الآية إطلاق الحكمة على الأحكام الفرعية ويمكن أن يكون لما تشتمل عليه من المصالح المستفادة إجمالا

من سابق الكلام.

٢. ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ كرر سبحانه النهي عن الشرك وقد نهى عنه سابقا اعتناء بشأن التوحيد وتفخيما لأمره، وهو كالوصلة يتصل به لاحق الكلام بسابقه، ومعنى الآية ظاهر.

٣٢. إفتراء المشركين وجحودهم للذكر:

المقطع [٣٢] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٠ـ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٠٤»:

١. ﴿أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾:

أ. الإصفاء الإخلاص قال في المجمع: (تقول: أصفيت فلانا بالشيء إذا آثرته به)

ب. خطاب لمن يقول منهم: إن الملائكة بنات الله أو بعضهم بنات الله والاستفهام للإنكار، ولعله بدل البنات من الإناث لكونهم يعدون الأنوثة من صفات الخسة.

ج. والمعنى إذا كان سبحانه ربكم لا رب غيره وهو الذي يتولى أمر كل شيء فهل تقولون إنه آثركم بكرامة لم يتكرم به هو نفسه وهو أنه خصكم بالبنين ولم يتخذ لنفسه من الولد إلا الإناث وهم الملائكة الكرام الذين تزعمون أنهم إناث إنكم لتقولون قولا عظيما من حيث استتباعه التبعة السيئة.

٢. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾:

أ. قال في المفردات: (الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره، قال: والتصريف كالصرف إلا في التكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة ومن أمر إلى أمر، وتصريف الرياح هو صرفها من حال إلى حال قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ الآيات ﴿وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ ومنه تصريف الكلام وتصريف الدراهم) وقال: النفر الانزعاج من الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء وعن الشيء يقال: نفر عن الشيء نفورا قال تعالى: ﴿ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ ﴿وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾)

ب. فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ معناه بشهادة السياق: وأقسم لقد رددنا الكلام معهم في أمر التوحيد ونفي الشريك من وجه إلى وجه وحولناه من لحن إلى لحن في هذا القرآن فأوردناه

بمختلف العبارات وبيناه بأقسام البيانات ليتذكروا ويتبين لهم الحق.

ج. ﴿وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ أي ما يزيدهم التصريف إلا انزعاجا كلما استؤنف جيء ببيان جديد أورثهم نفرة جديدة، وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة تنبيها على أنهم غير صالحين للخطاب والتكليم بعد ما كان حالهم هذا الحال.

٣. سؤال وإشكال: قال في المجمع: (فإن قيل: إذا كان المعلوم أنهم يزدادون النفور عند إنزال القرآن فما المعنى في إنزاله؟ وما وجه الحكمة فيه؟ قيل: الحكمة فيه إلزام الحجة وقطع المعذرة في إظهار الدلائل التي تحسن التكليف، وإنه يصلح عند إنزاله جماعة ما كانوا يصلحون عند عدم إنزاله، ولو لم ينزل لكان هؤلاء الذين ينفرون عن الإيمان يفسدون بفساد أعظم من هذا النفور فالحكمة اقتضت إنزاله لهذه المعاني، وإنما ازدادوا نفورا عند مشاهدة الآيات والدلائل لاعتقادهم أنها شبه وحيل وقلة تفكرهم فيها)

أ. وقوله: إنه لو لم ينزل لكانوا يفسدون بفساد أعظم من النفور لا يخلو من شيء فإن ازدياد النفور يبلغ بهم إلى الجحود ومعاندة الحق والصد عنه ولا فساد أعظم منه في باب الدعوة.

ب. لكن ينبغي أن يعلم أن الكفر والجحود والنفور عن الحق والعناد معه كما كانت تضر أصحابها ويوردهم مورد الهلاك فهي تنفع أرباب الإيمان والرضا بالحق والتسليم له إذ لو لم يتحقق لهذه الخصال الحسنة والصفات الجميلة مقابلات لم تتحقق لها كينونة فافهم ذلك.

ج. فمن الواجب في الحكمة أن تتم الحجة ثم تزيد في تمامها حتى يظهر من الشقي كل ما في وسعه من الشقاء، ويتخذ السعداء بمختلف مساعيهم من الدرجات ما يحاذي دركات الأشقياء وقد قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الآية: ٢٠] من السورة.

٣٣. تنزيه الله عن الشركاء وتسبيح الكائنات:

المقطع [٣٣] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٢ـ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٠٦»:

١. ﴿قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾:

أ. أعرض عن مخاطبتهم فصرف الخطاب إلى النبي ﷺ بأمره أن يكلمهم في أمر التوحيد ونفي الشريك، والذي يقولون به أن هناك آلهة دون الله يتولون جهات التدبير في العالم على اختلاف مراتبهم والواحد منهم رب لما يدبره كإله السماء وإله الأرض وإله الحرب وإله قريش.

ب. وإذ كانوا شركاء من جهة التدبير لكل واحد منهم الملك على حسب ربوبيته والملك من توابع الخلق الذي يختص به سبحانه حتى على معتقدهم كان الملك مما يقبل في نفسه أن يقوم به غيره تعالى وحب الملك والسلطنة ضروري لكل موجود كانوا بالضرورة طالبين أن ينازعوه في ملكه وينتزعوه من يده حتى ينفرد الواحد منهم بالملك والسلطنة، ويتعين بالعزة والهيمنة تعالى الله عن ذلك.

ج. فملخص الحجة أنه لو كان معه آلهة كما يقولون وكان يمكن أن ينال غيره تعالى شيئا من ملكه الذي هو من لوازم ذاته الفياضة لكل شيء وحب الملك والسلطنة مغروز في كل موجود بالضرورة لطلب أولئك الآلهة أن ينالوا ملكه فيعزلوه عن عرشه ويزدادوا ملكا على ملك لحبهم ذلك ضرورة لكن لا سبيل لأحد إليه تعالى عن ذلك.

د. فقوله: ﴿إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ أي طلبوا سبيلا إليه ليغلبوه على ما له من الملك، والتعبير عنه تعالى بذي العرش وهو من الصفات الخاصة بالملك للدلالة على أن ابتغاءهم السبيل إليه إنما هو لكونه ذا العرش وهو ابتغاء سبيل إلى عرشه ليستقروا عليه.

٢. ومن هنا يظهر أن قول بعضهم إن الحجة في الآية هي في معنى الحجة التي في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ الآية: [الأنبياء: ٢٢] في غير محله:

أ. وذلك أن الحجتين مختلفتان في مقدماتها فالحجة التي في الآية التي نحن فيها تسلك إلى نفي الشريك من جهة ابتغاء الآلهة السبيل إلى ذي العرش وطلبهم الغلبة عليه بانتزاع الملك منه، والتي في آية الأنبياء تسلك من جهة أن اختلاف الآلهة في ذواتهم يؤدي إلى اختلافهم في التدبير وذلك يؤدي إلى فساد النظام فالحق أن الحجة التي فيما نحن فيه غير الحجة التي في آية الأنبياء، والتي تقرب من حجة آية الأنبياء ما في قوله: ﴿إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]

ب. وكذا ما نقل عن بعض قدماء المفسرين: أن المراد من ابتغائهم سبيلا إلى ذي العرش طلبهم التقرب والزلفى منه لعلوه عليهم، وتقريب الحجة أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لطلبوا التقرب منه تعالى

والزلفى لديه لعلمهم بعلوه وعظمته، والذي كان حاله هذا الحال لا يكون إلها فليسوا بآلهة.

ج. في غير محله لشهادة السياق على خلافه كوصفه تعالى بذي العرش وقوله بعد: ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ فإنه ظاهر في أن لما قدروه من ثبوت الآلهة المستلزم لابتغائهم سبيلا إلى الله محذورا عظيما لا تحتمله ساحة العظمة والكبرياء مثل كون ملكه في معرض ابتغاء سبيل إليه وتهاجم غيره عليه وكونه لا يأبى بحسب طبعه أن يبتز وينتقل إلى من دونه.

٣. ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ التعالي هو العلو البالغ ولهذا وصف المفعول المطلق أعني ﴿عُلُوًّا﴾ بقوله: ﴿كَبِيراً﴾ فالكلام في معنى تعالى تعاليا: والآية تنزيه له تعالى عما يقولونه من ثبوت الآلهة وكون ملكه وربوبيته مما يمكن أن يناله غيره.

٤. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى تسبيح الأشياء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وبيان حقيقته]، خلاصته:

أ. بيان أن تسبيح الأشياء هو كشفها عن تنزه الله عن الشريك والنقص من خلال إظهار حاجتها وفقرها الذاتي، وهذا كشف حقيقي لا مجازي.

ب. إثبات أن التسبيح في الآية ليس مجرد دلالة وجودية على الصانع، بل هو تسبيح حقيقي قولي، وإن لم يكن بألفاظ موضوعة وأصوات مقروعة.

ج. توضيح أن كل موجود يشعر بنفسه بعض الشعور، ويكشف بحاجته عن غنى ربه وكماله، فيكون ذلك تسبيحاً منه وحمداً له.

د. بيان أن الحمد مع التسبيح في الآية يعني أن كل شيء يحمد الله بجميل صنعه، كما يسبحه بتنزيهه عن النقص.

هـ. الرد على من زعم أن التسبيح مجازي أو أنه دلالة فقط، وبيان أن النفي عن الناس في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ يدل على أن التسبيح حقيقي، وإلا لكانوا يفقهون الدلالة.

و. عرض الروايات الدالة على تسبيح الأشياء كالحصى والجبال والطير، وبيان أنها تدل على أن

التسبيح حقيقة وليس مجازاً.

ز. توضيح أن ما يسمعه الإنسان من تسبيح الأشياء هو محاكاة حسية لحقيقة معنوية، كما تتمثل المعاني في الرؤيا بأشكال وصور مناسبة.

٥. ﴿إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾:

أ. أي يمهل فلا يعاجل بالعقوبة ويغفر من تاب ورجع إليه، وفي الوصفين دلالة على تنزهه تعالى عن كل نقص فإن لازم الحلم أن لا يخاف الفوت، ولازم المغفرة أن لا يتضرر بالمغفرة ولا بإفاضة الرحمة فملكه وربوبيته لا يقبل نقصا ولا زوالا.

ب. وقد قيل في وجه هذا التذييل إنه إشارة إلى أن الإنسان في قصوره عن فهم هذا التسبيح الذي لا يزال كل شيء مشتغلا به حتى نفسه بجميع أركان وجوده وبأبلغ بيان، مخطئ من حقه أن يؤاخذ به لكن الله سبحانه بحلمه ومغفرته لا يعاجله ويعفو عن ذلك إن شاء، وهو وجه حسن ولازمه أن يكون الإنسان في وسعه أن يفقه هذا التسبيح من نفسه ومن غيره، ولعلنا نوفق لبيانه إن شاء الله في موضع يليق به.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ، إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ قال: قال: لو كانت الأصنام آلهة كما تزعمون، لصعدوا إلى العرش.

• أقول: أي لاستولوا على ملكه تعالى وأخذوا بأزمة الأمور وأما العرش بمعنى الفلك المحدد للجهات أو جسم نوراني عظيم فوق العالم الجسماني كما ذكره بعضهم فلا دليل عليه من الكتاب، وعلى تقدير ثبوته لا ملازمة بين الربوبية والصعود على هذا الجسم.

٣٤. حجاب الكافرين عن فهم القرآن:

المقطع [٣٤] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١١٣»:

١. ﴿وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً﴾:

أ. ظاهر توصيف الحجاب بالمستور أنه حجاب مستور عن الحواس على خلاف الحجابات

المتداولة بين الناس المعمولة لستر شيء عن شيء فهو حجاب معنوي مضروب بين النبي ﷺ بما أنه قار للقرآن حامل له وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة يحجبه عنهم فلا يستطيعون أن يفقهوا حقيقة ما عنده من معارف القرآن ويؤمنوا به ولا أن يذعنوا بأنه رسول من الله جاءهم بالحق، ولذلك تولوا عنه إذا ذكر الله وحده وبالغوا في إنكار المعاد ورموه بأنه رجل مسحور، والآيات التالية تؤيد هذا المعنى.

ب. وإنما وصف المشركين بقوله: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأن إنكار الآخرة يلغو معه الإيمان بالله وحده وبالرسالة فالكفر بالمعاد يستلزم الكفر بجميع أصول الدين، وليكون تمهيدا لما سيذكر من إنكارهم البعث.

ج. والمعنى: إذا قرأت القرآن وتلوته عليهم جعلنا بينك وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة، وفي توصيفهم بذلك ذم لهم، حجابا معنويا محجوبا عن فهمهم فلا يسعهم أن يسمعوا ذكره تعالى وحده، ولا أن يعرفوك بالرسالة الحقة، ولا أن يؤمنوا بالمعاد ويفقهوا حقيقته.

د. وللقوم في قوله: ﴿حِجاباً مَسْتُوراً﴾ أقوال أخر:

• فعن بعضهم أن (مفعول) فيه للنسب أي حجابا ذا ستر نظير قولهم: رجل مرطوب ومكان مهول وجارية مغنوجة أي ذو رطوبة وذو هول وذات غنج، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي ذا إتيان والأكثر في ذلك أن يجيء على فاعل كلابن وتامر.

• وعن الأخفش أن (مفعول) ربما ورد بمعنى فاعل كميمون ومشئوم بمعنى يامن وشائم كما أن (فاعل) ربما ورد بمعنى مفعول كماء دافق أي مدفوق فمستور بمعنى ساتر.

• وعن بعضهم أن ذلك من الإسناد المجازي والمستور بحسب الحقيقة هو ما وراء الحجاب لا نفسه.

• عن بعضهم أنه من قبيل الحذف والإيصال وأصله حجابا مستورا به الرسول ﷺ عنهم.

• وقيل: المعنى حجابا مستورا بحجاب آخر أي بحجب متعددة وقيل المعنى حجابا مستورا كونه حجابا بمعنى أنهم لا يدرون أنهم لا يدرون والثلاثة الأخيرة أسخف الوجوه.

٢. ﴿وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً﴾:

أ. الأكنة جمع كن بالكسر وهو على ما ذكره الراغب ما يحفظ فيه الشيء ويستر به عن غيره، والوقر الثقل في السمع، وفي المجمع: (النفور جمع نافر، وهذا الجمع قياس في كل فاعل اشتق من فعل مصدره على فعول مثل ركوع وسجود وشهود)

ب. ﴿وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ كالبيان للحجاب المذكور سابقا أي أغشينا قلوبهم بأغشية وحجب حذار أن يفقهوا القرآن وجعلنا في آذانهم وقرا وثقلا أن يسمعوه فهم لا يسمعون القرآن سمع قبول ولا يفقهونه فقه إيمان وتصديق كل ذلك مجازاة لهم بما كفروا وفسقوا.

٣. ﴿وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي على نعت التوحيد ونفي الشريك ولوا على أدبارهم نافرين وأعرضوا عنه مستدبرين.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معا في الدلائل، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت ﴿يَدا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل، ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول: مذمما أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: إنها لن تراني وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال تعالى: ﴿وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ، وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك فانصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها:

• أقول: وروي أيضا بطريق آخر عن أسماء وعن أبي بكر وابن عباس مختصرا ورواه أيضا في البحار، عن قرب الإسناد عن الحسن بن ظريف عن معمر عن الرضا عن أبيه عن جده عليه السلام في حديث يذكر فيه جوامع معجزات النبي ﷺ.

ب. وفي تفسير العياشي، عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: هو أحق ما جهر به، وهي الآية التي قال الله: ﴿وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً﴾ كان المشركون يستمعون إلى قراءة النبي ﷺ، فإذا قرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ نفروا وذهبوا، فإذا فرغ منه عادوا وتسمعوا:

• أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام ورواه القمي في تفسيره، مضمرا.

ج. أخرج البخاري في تاريخه، عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: لم كتمتم ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ فنعم الاسم والله كتموا، فإن رسول الله ﷺ كان إذا دخل منزله اجتمعت عليه قريش، فيجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ويرفع صوته بها، فتولى قريش فرارا فأنزل الله: ﴿وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً﴾

٣٥. إعراض المشركين واستهزاؤهم بالرسول:

المقطع [٣٥] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٧-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١١٤»:

١. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾:

أ. النجوى مصدر ولذا يوصف به الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث وهو لا يتغير في لفظه.

ب. والآية بمنزلة الحجة على ما ذكر في الآية السابقة أنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا فقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ ناظر إلى جعل الوقر، ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوى﴾ ناظر إلى جعل الأكنة.

ج. يقول تعالى: نحن أعلم بآذانهم التي يستمعون بها إليك وبقلوبهم التي ينظرون بها في أمرك، وكيف لا؟ وهو تعالى خالقها ومدبر أمرها فإخباره أنه جعل على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرا أصدق وأحق بالقبول، فنحن أعلم بما يستمعون به وهو آذانهم في وقت يستمعون إليك، ونحن أعلم أي بقلوبهم إذ هم نجوى إذ يناجي بعضهم بعضا متحرزين عن الإجهار ورفع الصوت وهم يرون الرأي إذ يقول الظالمون أي يقول القائلون منهم وهم ظالمون في قولهم، إن تتبعون إلا رجلا مسحورا وهذا تصديق أنهم لم يفقهوا الحق.

د. وفي الآية إشعار بل دلالة على أنهم كانوا لا يأتونه ﷺ لاستماع القرآن علنا حذرا من اللائمة وإنما

يأتونه متسترين مستخفين حتى إذا رأى بعضهم بعضا على هذا الحال تلاوموا بالنجوى خوفا أن يحس النبي ﷺ والمؤمنون بموقفهم فقال بعضهم لبعض: إن تتبعون إلا رجلا مسحورا، وبهذا يتأيد ما ورد في أسباب النزول بهذا المعنى، وسنورده إن شاء الله في البحث الروائي الآتي.

٢. ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ المثل بمعنى الوصف، وضرب الأمثال التوصيف بالصفات ومعنى الآية ظاهر، وهي تفيد أنهم لا مطمع في إيمانهم كما قال تعالى: ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]

٣٦. إعادة الخلق وبعثهم من جديد:

المقطع [٣٦] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١١٥»:

١. ﴿وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾:

أ. قال في المجمع: (الرفات ما تكسر وبلي من كل شيء، ويكثر بناء فعال في كل ما يحطم ويرضض يقال: حطام ودقاق وتراب وقال المبرد: كل شيء مدقوق مبالغ في دقه حتى انسحق فهو رفات)

ب. في الآية مضي في بيان عدم فقههم بمعارف القرآن حيث استبعدوا البعث وهو من أهم ما يثبته القرآن وأوضح ما قامت عليه الحجج من طريق الوحي والعقل حتى وصفه الله في مواضع من كلامه بأنه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ وليس لهم حجة على نفيه غير أنهم استبعدوه استبعادا.

ج. ومن أعظم ما يزين في قلوبهم هذا الاستبعاد زعمهم أن الموت فناء للإنسان ومن المستبعد أن يتكون الشيء عن عدم بحت كما قالوا: أإذا كنا عظاما ورفاتا بفساد أبداننا عن الموت حتى إذا لم يبق منها إلا العظام ثم رمت العظام وصارت رفاتا أإنا لفي خلق جديد نعود أناسي كما كنا؟ ذلك رجع بعيد ولذلك رده سبحانه إليهم بتذكيرهم القدرة المطلقة والخلق الأول كما سيأتي.

٢. ﴿قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾:

أ. جواب عن استبعادهم، وقد عبروا في كلامهم بقولهم: ﴿أَإِذا كُنَّا﴾ فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم أمر تسخير أن يكونوا حجارة أو حديدا مما تبديله إلى الإنسان أبعد وأصعب عندهم من تبديل العظام الرفات إليه.

ب. فيكون إشارة إلى أن القدرة المطلقة الإلهية لا يشقها شيء تريد تجديد خلقه سواء أكان عظاما ورفاتا أو حجارة أو حديدا أو غير ذلك.

ج. والمعنى: قل لهم ليكونوا شيئا أشد من العظام والرفات حجارة أو حديدا أو مخلوقا آخر من الأشياء التي تكبر في صدورهم ويبالغون في استبعاد أن يخلق منه الإنسان، فليكونوا ما شاءوا فإن الله سيعيد إليهم خلقهم الأول ويبعثهم.

٣. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

أ. أي فإذا أجبت عن استبعادهم بأنهم مبعوثون أياما كانوا وإلى أي حال وصفة تحولوا سيسألونك ويقولون من يعيدنا إلى ما كنا عليه من الخلقة الإنسانية؟ فاذكر لهم الله سبحانه وذكرهم من وصفه بما لا يبقى معه لاستبعادهم محل وهو فطره إياهم أول مرة ولم يكونوا شيئا وقل: يعيدكم الذي خلقكم أول مرة.

ب. ففي تبديل لفظ الجلالة من قوله: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إثبات الإمكان ورفع الاستبعاد بإراءة المثل.

٤. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾:

أ. قال الراغب: (الإنغاض تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه)

ب. والمعنى: فإذا قرعتهم بالحجة وذكرتهم بقدرة الله على كل شيء وفطرة إياهم أول مرة وجدتهم يحركون إليك رءوسهم تحريك المستهزئ المستخف بك المستهين له ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريبا فإنه لا سبيل إلى العلم به وهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله لكن وصف اليوم معلوم بإعلامه تعالى ولذا وصفه لهم واضعا الصفة مكان الوقت فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، الآية.

٥. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾:

أ. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بفعل مضمر أي تبعثون يوم كذا وكذا والدعوة هي أمره تعالى لهم أن يقوموا ليوم الجزاء واستجابتهم هي قبولهم الدعوة الإلهية، وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ حال من فاعل تستجيبون والتقدير

تستجيبون متلبسين بحمده أي حامدين له تعدون البعث والإعادة منه فعلا جميلا يحمد فاعله ويثنى عليه لأن الحقائق تنكشف لكم اليوم فيتبين لكم أن من الواجب في الحكمة الإلهية أن يبعث الناس للجزاء وأن تكون بعد الأولى أخرى.

ب. ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي تزعمون يوم البعث أنكم لم تلبثوا في القبور بعد الموت إلا زمانا قليلا وترون أن اليوم كان قريبا منكم جدا.

ج. وقد صدقهم الله في هذه المزعمة وأن خطأهم فيما ضربوا له من المدة قال تعالى: ﴿قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٤]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات.

د. وفي التعرض لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ تعريض لهم في استبطائهم اليوم واستهزائهم به، وتأييد لما مر من رجاء قربه في قوله: ﴿قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ أي وأنكم ستعدونه قريبا، وكذا في قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ تعريض لهم في استهزائهم به وتعجبهم منه أي وأنكم ستحمدونه يوم البعث وأنتم اليوم تستبعدونه وتستهزءون بأمره.

٣٧. الأمر بالقول الحسن ومخاطبة الناس بالتي هي أحسن:

المقطع [٣٧] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ [الإسراء: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١١٧»:

١. ﴿قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾:

أ. يلوح من السياق أن المراد بعبادي هم المؤمنون فالإضافة للتشريف، وقوله: ﴿قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا﴾ أي مرهم أن يقولوا فهو أمر وجواب أمر مجزوم، وقوله: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي الكلمة التي هي أحسن، وهو اشتمالها على الأدب الجميل وتعريها عن الخشونة والشتم وسوء الأمر.

ب. الآية وما بعدها من الآيتين ذات سياق واحد، وخلاصة مضمونها الأمر بإحسان القول ولزوم الأدب الجميل في الكلام تحرزا عن نزغ الشيطان، وليعلموا أن الأمر إلى مشية الله لا إلى النبي ﷺ حتى يرفع

القلم عن كل من آمن به وانتسب إليه ويتأهل للسعادة، فله ما يقول، وله أن يحرم غيره كل خير ويسيء القول فيه فما للإنسان إلا حسن سريرته وكمال أدبه، وقد فضل الله بذلك بعض الأنبياء على بعض وخص داود بإيتاء الزبور الذي فيه أحسن القول وجميل الثناء على الله سبحانه.

ج. ومن هنا يظهر أن المؤمنين قبل الهجرة ربما كانوا يحاورون المشركين فيغلظون لهم في القول ويخاشنونهم بالكلام وربما جبهوهم بأنهم أهل النار، وأنهم معشر المؤمنين أهل الجنة ببركة من النبي ﷺ فكان ذلك يهيج المشركين عليهم ويزيد في عداوتهم ويبعثهم إلى المبالغة في فتنتهم وتعذيبهم وإيذاء النبي ﷺ والعناد مع الحق.

د. فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بقول التي هي أحسن والمقام مناسب لذلك فقد تقدم آنفا حكاية إساءة الأدب من المشركين إلى النبي وتسميتهم إياه رجلا مسحورا واستهزائهم بالقرآن وبما فيه من معارف المبدإ والمعاد، وهذا هو وجه اتصال الآيات الثلاث بما قبلها واتصال بعض الثلاث ببعض فافهم ذلك.

هـ. فقوله: ﴿وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أمر بالأمر والمأمور به قول الكلمة التي هي أحسن فهو نظير قوله: ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ تعليل للأمر، وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ تعليل لنزغ الشيطان بينهم.

و. وربما قيل: إن المراد بقول التي هي أحسن الكف عن قتال المشركين ومعاملتهم بالسلم والخطاب للمؤمنين بمكة قبل الهجرة فالآية نظيرة قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة: ٨٣] على ما ورد في أسباب النزول، وأنت خبير بأن سياق التعليل في الآية لا يلائمه.

٢. أحاديث وآثار: في المجمع: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكة، فيقولون يا رسول الله ائذن لنا في قتالهم، فيقول لهم: إني لم أومر فيهم بشيء فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ لِعِبادِي﴾ الآية: عن الكلبي.

- أقول: قد أشرنا في تفسير الآية أنه لا يلائم سياقها، والله أعلم.

٣٨. علم الله ورحمته وتفضيل النبيين:

المقطع [٣٨] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ

أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٤ـ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٢٠»:

١. ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾:

أ. قد تقدم أن الآية وما بعدها تتمة السياق السابق، وعلى ذلك فصدر الآية من تمام كلام النبي ﷺ الذي أمر بإلقائه على المؤمنين بقوله: ﴿قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا﴾ وذيل الآية خطاب للنبي خاصة فلا التفات في الكلام.

ب. ويمكن أن يكون الخطاب في صدر الآية للنبي ﷺ والمؤمنين جميعا بتغليب جانب خطابه على غيبتهم، وهذا أنسب بسياق الآية السابقة وتلاحق الكلام، والكلام لله جميعا.

ج. وكيف كان فقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ في مقام تعليل الأمر السابق ثانيا، ويفيد أنه يجب على المؤمنين أن يتحرزوا من إغلاظ القول على غيرهم والقضاء بما الله أعلم به من سعادة أو شقاء كأن يقولوا: فلان سعيد بمتابعة النبي وفلان شقي وفلان من أهل الجنة وفلان من أهل النار وعليهم أن يرجعوا الأمر ويفوضوه إلى ربهم فربكم، والخطاب للنبي وغيره، أعلم بكم وهو يقضي فيكم على ما علم من استحقاق الرحمة أو العذاب إن يشأ يرحمكم ولا يشاء ذلك إلا مع الإيمان والعمل الصالح على ما بينه في كلامه أو إن يشأ يعذبكم ولا يشاء ذلك إلا مع الكفر والفسوق، وما جعلناك أيها النبي عليهم وكيلا مفوضا إليه أمرهم حتى تختار لمن تشاء ما تشاء فتعطي هذا وتحرم ذاك.

د. ومن ذلك يظهر أن الترديد في قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ باعتبار المشية المختلفة باختلاف الموارد بالإيمان والكفر والعمل الصالح والطالح وأن قوله: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ لردع المؤمنين عن أن يعتمدوا في نجاتهم على النبي ﷺ والانتساب إلى قبول دينه نظير قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢] وآيات أخرى في هذا المعنى.

هـ. وفي الآية أقوال أخر تركنا التعرض لها لعدم الجدوى.

٢. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ

زَبُوراً﴾:

أ. صدر الآية توسعة في معنى التعليل السابق كأنه قيل: وكيف لا يكون أعلم بكم وهو أعلم بكم وهو أعلم بمن في السماوات والأرض وأنتم منهم.

ب. ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ﴾ كأنه تمهيد لقوله: ﴿وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾ والجملة تذكر فضل داود عليه السلام بكتابه الذي هو زبور وفيه أحسن الكلمات في تسبيحه وحمده تعالى، وفيه تحريض للمؤمنين أن يرغبوا في أحسن القول ويتأدبوا بالأدب الجميل في المحاورة والكلام.

ج. ولهم في تفسير الآية أقوال أخرى تركنا التعرض لها ومن أرادها فليراجع المطولات.

٣٩. عجز المعبودات من دون الله وكشف الضر:

المقطع [٣٩] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٢٧»:

١. ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾:

أ. الزعم بتثليث الزاي مطلق الاعتقاد ثم غلب استعماله في الاعتقاد الباطل، ولذا نقل عن ابن عباس أن ما كان في القرآن من الزعم فهو كذب.

ب. والدعاء والنداء واحد غير أن النداء إنما هو فيما إذا كان معه صوت والدعاء ربما يطلق على ما كان بإشارة أو غيرها، وذكر بعضهم في الفرق بينهما (أن النداء قد يقال إذا قيل: يا أو أيا أو نحوهما من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان)

ج. والآية تحتج على نفي ألوهية آلهتهم من دون الله بأن الرب المستحق للعباد يجب أن يكون قادرا على إيصال النفع ودفع الضر إذ هو لازم ربوبية الرب على أن المشركين مسلمون لذلك وإنما اتخذوا الآلهة وعبدوهم طمعا في نفعهم وخوفا من ضررهم لكن الذين يدعونهم من دون الله لا يستطيعون ذلك فليسوا بآلهة، والشاهد على ذلك أن يدعوهم هؤلاء الذين يعبدونهم لكشف ضر مسهم أو تحويله عنهم إلى غيرهم فإنهم لا يملكون كشفا ولا تحويلا، وكيف يملكون من عند أنفسهم كشف ضر أو تحويله ويستقلون بقضاء

حاجة ورفع فاقة وهم في أنفسهم مخلوقون لله يبتغون إليه الوسيلة يرجون رحمته ويخافون عذابه باعتراف من المشركين.

د. فقد بان:

• أولا: أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ هم الذين كانوا يعبدونهم من الملائكة والجن والإنس فإنهم إنما يقصدون بعبادة الأصنام التقرب إليهم وكذا بعبادة الشمس والقمر والكواكب التقرب إلى روحانيتهم من الملائكة، على أن الأصنام بما هي أصنام ليست بأشياء حقيقية كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ وأما ما صنعت منه من خشب أو فلز فليس إلا جمادا حاله حال الجماد في التقرب إليه والسجود له وتسبيحه، وليست من تلك الجهة بأصنام.

• وثانيا: أن المراد بنفي قدرتهم نفي استقلالهم بالقدرة من دون استعانة بالله واستمداد من إذنه والدليل عليه قوله سبحانه في الآية التالية: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾

هـ. وقال بعض المفسرين: وكأن المراد من نفي ملكهم ذلك نفي قدرتهم التامة الكاملة عليه، وكون قدرة الآلهة الباطلة مفاضة منه تعالى مسلم عند الكفرة لأنهم لا ينكرون أنها مخلوقة لله تعالى بجميع صفاتها وأن الله سبحانه أقوى وأكمل صفة منها، وبهذا يتم الدليل ويحصل الإفحام وإلا فنفي قدرة نحو الجن والملائكة الذين عبدوا من دون الله تعالى مطلقا على كشف الضر مما لا يظهر دليله فإنه إن قيل هو أن الكفرة يتضرعون إليهم ولا يحصل لهم الإجابة عورض بأنا نرى أيضا المسلمين يتضرعون إلى الله تعالى ولا يحصل لهم الإجابة، وقد يقال: المراد نفي قدرتهم على ذلك أصلا ويحتج له بدليل الأشعري على استناد جميع الممكنات إليه عز وجل ابتداء):

• قلت: هو سبحانه يثبت في كلامه أنواعا من القدرة للملائكة والجن والإنس في آيات كثيرة لا تقبل التأويل البتة غير أنه يخص حقيقة القدرة بنفسه في مثل قوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٦٥] ويظهر به أن غيره إنما يقدر على ما يقدر بإقداره ويملك ما يملك بتمليكه تعالى إياه فلا أحد مستقلا بالقدرة والملك إلا هو، وما عند غيره تعالى من القدرة والملك مستعار منوط في تأثيره بالإذن والمشية.

• وعلى هذا فلا سبيل إلى تنزيل الحجة في الآية على نفي قدرة آلهتهم من الملائكة والجن والإنس من أصلها بل الحجة مبتنية على أن أولئك المدعوين غير مستقلين بالملك والقدرة، وأنهم فيما عندهم من

ذلك كالداعين محتاجون إلى الله مبتغون إليه الوسيلة والدعاء إنما يتعلق بالقدرة المستقلة بالتأثير والدعاء والمسألة ممن هو قادر بقدرة غيره مالك بتمليكه مع قيام القدرة والملك بصاحبها الأصلي فهو في الحقيقة دعاء ومسألة ممن قام بهما حقيقة واستقلالا دون من هو مملك بتمليكه.

• وأما ما ذكره أن نفي قدرتهم مطلقا غير ظاهر الدليل فإنه إن قيل: إن الكفرة يتضرعون إليهم ولا يحصل لهم الإجابة، عورض بأنا نرى أيضا المسلمين يتضرعون إلى الله تعالى ولا يحصل لهم الإجابة، فقد أجاب الله سبحانه في كلامه عن مثل هذه المعارضة.

• توضيح ذلك: أنه تعالى قال وقوله الحق: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فأطلق الكلام وأفاد أن العبد إذا جد بالدعاء ولم يلعب به ولم يتعلق قلبه في دعائه الجدي إلا به تعالى بأن انقطع عن غيره والتجأ إليه فإنه يستجاب له البتة ثم ذكر هذا الانقطاع في الدعاء والسؤال في ذيل هذه الآيات الذي كالمتمم لما في هذه الحجة بقوله: ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الآية: ٦٧] من السورة فأفاد أنكم عند مس الضر في البحر تنقطعون عن كل شيء إليه فتدعونه بهداية من فطرتكم فيستجيب لكم وينجيكم إلى البر.

• ويتحصل من الجميع أن الله سبحانه إذا انقطع العبد عن كل شيء ودعاه عن قلب فارغ سليم فإنه يستجيب له وأن غيره إذا انقطع داعيه عن الله وسأله مخلصا فإنه لا يملك الاستجابة.

• وعلى هذا فلا محل للمعارضة من قبل المشركين فإنهم لا يستجاب لهم إذا دعوا آلهتهم وهم أنفسهم يرون أنهم إذا مسهم الضر في البحر وانقطعوا إلى الله وسألوه النجاة نجاهم إلى البر وهم معترفون بذلك، ولئن دعاه المسلمون على هذا النمط عن جد في الدعاء وانقطاع إليه كان حالهم في البر حال غيرهم وهم في البحر ولم يخيبوا ولا ردوا.

• ولم يقابل سبحانه في كلامه بين دعائهم آلهتهم ودعاء المسلمين لإلههم حتى يعارض باشتراك الدعاءين في الرد وعدم الاستجابة وإنما قابل بين دعاء المشركين لآلهتهم وبين دعائهم أنفسهم له سبحانه في البحر عند انقطاع الأسباب وضلال كل مدعو من دون الله.

• ومن لطيف النكتة في الكلام إلقاؤه سبحانه الحجة إليهم بواسطة نبيه ﷺ إذ قال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ولو ناقشه المشركون بمثل هذه المعارضة لدعا ربه عن انقطاع وإخلاص

فاستجيب له.

٢. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾:

أ. ﴿أُولئِكَ﴾ مبتدأ و﴿الَّذِينَ﴾ صفة له و﴿يَدْعُونَ﴾ صلته وضميره عائد إلى المشركين، و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر ﴿أُولئِكَ﴾ وضميره وسائر ضمائر الجمع إلى آخر الآية راجعة إلى ﴿أُولئِكَ﴾ وقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بيان لابتغاء الوسيلة لكون الابتغاء فحصا وسؤالا في المعنى هذا ما يعطيه السياق.

ب. والوسيلة على ما فسروه هي التوصل والتقرب، وربما استعملت بمعنى ما به التوصل والتقرب ولعله هو الأنسب بالسياق بالنظر إلى تعقيبه بقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾

ج. والمعنى، والله أعلم، أولئك الذين يدعوهم المشركون من الملائكة والجن والإنس يطلبون ما يتقربون به إلى ربهم يستعلمون أيهم أقرب؟ حتى يسلكوا سبيله ويقتدوا بأعماله ليتقربوا إليه تعالى كتقربه ويرجون رحمته من كل ما يستمدون به في وجودهم ويخافون عذابه فيطيعونه ولا يعصونه إن عذاب ربك كان محذورا يجب التحرز منه.

د. والتوسل إلى الله ببعض المقربين إليه، على ما في الآية الكريمة قريب منه قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] غير ما يرومه المشركون من الوثنيين فإنهم يتوسلون إلى الله ويتقربون بالملائكة الكرام والجن والأولياء من الإنس فيتركون عبادته تعالى ولا يرجونه ولا يخافونه وإنما يعبدون الوسيلة ويرجون رحمته ويخافون سخطه ثم يتوسلون إلى هؤلاء الأرباب والآلهة بالأصنام والتماثيل فيتركونهم ويعبدون الأصنام ويتقربون إليهم بالقرابين والذبائح.

هـ. وبالجملة يدعون التقرب إلى الله ببعض عباده أو أصنام خلقه ثم لا يعبدون إلا الوسيلة مستقلة بذلك ويرجونها ويخافونها مستقلة بذلك من دون الله فيشركون بإعطاء الاستقلال لها في الربوبية والعبادة.

و. والمراد بأولئك الذين يدعون إن كان هو الملائكة الكرام والصلحاء المقربون من الجن والأنبياء والأولياء من الإنس كان المراد من ابتغائهم الوسيلة ورجاء الرحمة وخوف العذاب ظاهره المتبادر، وإن كان المراد بهم أعم من ذلك حتى يشمل من كانوا يعبدونه من مردة الشياطين وفسقة الإنسان كفرعون ونمرود وغيرهما كان المراد بابتغائهم الوسيلة إليه تعالى ما ذكر من خضوعهم وسجودهم وتسبيحهم التكويني وكذا المراد من رجائهم وخوفهم ما لذواتهم.

ز. وذكر بعضهم: (أن ضمائر الجمع في الآية جميعا راجعة إلى أولئك والمعنى أولئك الأنبياء الذين يعبدونهم من دون الله يدعون الناس إلى الحق أو يدعون الله ويتضرعون إليه يبتغون إلى ربهم التقرب، وهو كما ترى)، وقال في الكشاف، في معنى الآية: (يعني أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة إلى الله تعالى، و﴿أَيُّهُمْ﴾ بدل من واو ﴿يَبْتَغُونَ﴾ وأي موصولة أي يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب؟ أو ضمن ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ معنى يحرصون فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ويرجون ويخافون كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة) والمعنيان لا بأس بهما لولا أن السياق لا يلائمهما كل الملاءمة وثانيهما أقرب إليه من أولهما.

ح. وقيل: (إن معنى الآية أولئك الذين يدعونهم ويعبدونهم ويعتقدون أنهم آلهة يبتغون الوسيلة والقربة إلى الله تعالى بعبادتهم ويجتهد كل منهم ليكون أقرب من رحمته)، وهو معنى لا ينطبق على لفظ الآية البتة.

٤٠. سنة الإهلاك أو العذاب الشديد قبل القيامة:

المقطع [٤٠] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٣٢»:

١. ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾:

أ. ذكروا أن المراد بالعذاب الشديد عذاب الاستئصال فيبقى للإهلاك المقابل له الإماتة بحتف الأنف فالمعنى ما من قرية إلا نحن نميت أهلها قبل يوم القيامة أو نعذبهم عذاب الاستئصال قبل يوم القيامة إذ لا قرية بعد طي بساط الدنيا بقيام الساعة وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً﴾ [الكهف: ٨] ولذا قال بعضهم: (إن الإهلاك للقرى الصالحة والتعذيب للقرى الطالحة.

ب. وقد ذكروا في وجه اتصال الآية أنها موعظة، وقال بعضهم: (كأنه تعالى بعد ما ذكر من شأن البعث والتوحيد ما ذكر، ذكر بعض ما يكون قبل يوم البعث مما يدل على عظمته سبحانه وفيه تأييد لما ذكر

قبله.

ج. والظاهر أن في الآية عطفا على ما تقدم من قوله قبل آيات: ﴿وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً﴾ فإن آيات السورة لا تزال ينعطف بعضها على بعض، والغرض العام بيان سنة الله تعالى الجارية بدعوتهم إلى الحق ثم إسعاد من سعد منهم بالسمع والطاعة وعقوبة من خالف منهم وطغى بالاستكبار.

د. وعلى هذا فالمراد بالإهلاك التدمير بعذاب الاستئصال كما نقل عن أبي مسلم المفسر والمراد بالعذاب الشديد ما دون ذلك من العذاب كقحط أو غلاء ينجر إلى جلاء أهلها وخراب عمارتها أو غير ذلك من البلايا والمحن.

أ. هـ. فتكون في الآية إشارة إلى أن هذه القرى سيخرب كل منها بفساد أهلها وفسق مترفيها، وأن ذلك بقضاء من الله سبحانه كما يشير إليه ذيل الآية، وبذلك يتضح اتصال الآية التالية ﴿وَما مَنَعَنا﴾ إلخ بهذه الآية فإن المعنى أنهم مستعدون للفساد مهيئون لتكذيب الآيات الإلهية وهي تتعقب بالهلاك والفناء على من يردها ويكذب بها وقد أرسلناها إلى الأولين فكذبوا بها واستؤصلوا فلو أنا أرسلنا إلى هؤلاء شيئا من جنس تلك الآيات المخوفة لحق بهم الإهلاك والتدمير وانطوى بساط الدنيا فأمهلناهم حتى حين وسيلحق بهم ولا يتخطاهم، كما أشير إليه في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ الآيات: [يونس: ٤٧]

ب. وذكر بعضهم: (أن المراد بالقرى في الآية القرى الكافرة وأن تعميم القرى لا يساعد عليه السياق)، وهو دعوى لا دليل عليها.

٢. ﴿كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾:

أ. أي إهلاك القرى أو تعذيبها عذابا شديدا كان في الكتاب مسطورا وقضاء محتوما، وبذلك يظهر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ الذي يذكر القرآن أن الله كتب فيه كل شيء كقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقوله: ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]

ب. ومن غريب الكلام ما ذكره بعضهم: (وذكر غير واحد أنه ما من شيء إلا بين فيه أي في اللوح المحفوظ والكتاب المسطور بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له، واستشكل العموم بأنه يقتضي

عدم تناهي الأبعاد، وقد قامت البراهين النقلية والعقلية على خلاف ذلك فلا بد أن يقال بالتخصيص بأن يحمل الشيء على ما يتعلق بهذه النشأة أو نحو ذلك.

ج. وقال بعضهم: (بالعموم إلا أنه التزم كون البيان على نحو يجتمع مع التناهي فاللوح المحفوظ في بيانه جميع الأشياء الدنيوية والأخروية وما كان وما يكون نظير الجفر الجامع في بيانه لما يبينه)

د. والكلام مبني على كونه لوحا جسمانيا موضوعا في بعض أقطار العالم مكتوبا فيه أسماء الأشياء وأوصافها وأحوالها وما يجري عليها في الأنظمة الخاصة بكل منها والنظام العام الجاري عليها من جميع الجهات، ولو كان كما يقولون لوحا ماديا جسمانيا لم يسع كتابة أسماء أجزائه التي تألف منها جسمه وتفصيل صفاتها وحالاتها فضلا عن غيره من الموجودات التي لا يحصيها ولا يحيط بتفاصيل صفاتها وأحوالها وما يحدث عليها والنسب التي بينها إلا الله سبحانه، وليس ينفع في ذلك التخصيص بما في هذه النشأة أو بما دون ذلك وهو ظاهر.

هـ. وما التزم به البعض أنه من قبيل انطواء غير المتناهي في المتناهي نظير اشتمال الحروف المقطعة جميع الكلام مع عدم تناهي التأليفات الكلامية التزام بوجود صور الحوادث فيه بالقوة والإمكان أو الإجمال وكلامه سبحانه فيما يصف فيه هذا اللوح كالصريح أو هو صريح في اشتماله على الأشياء والحوادث مما كان أو يكون أو هو كائن بالفعل وعلى نحو التفصيل وبسمة الوجوب الذي لا سبيل للتغير إليه، ولو كان كذلك لكفى فيه كتابة حروف التهجي في دائرة على لوح.

و. على أن الجمع بين جسمية اللوح وماديته التي من خاصتها قبول التغير وبين كونه محفوظا من أي تغير وتحول مفروض مما يحتاج إلى دليل أجلى من هذه التصويرات وفي الكلام مواقع أخرى للنظر.

ز. فالحق أن الكتاب المبين هو متن الأعيان بما فيه من الحوادث من جهة ضرورة ترتب المعلولات على عللها، وهو القضاء الذي لا يرد ولا يبدل لا من جهة إمكان المادة وقوتها، والتعبير عنه بالكتاب واللوح لتقريب الأفهام إلى حقيقة المعنى بالتمثيل، وسنستوفي الكلام في هذا البحث إن شاء الله في موضع يناسبه.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ قال: هو الفناء بالموت أو غيره، وفي رواية أخرى عنه عليه

السلام: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ قال: بالقتل والموت أو غيره.

• أقول: ولعله تفسير لجميع الآية.

٤١. الآيات للتخويف وليست للعبث:

المقطع [٤١] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٣٤»:

١. ﴿وما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾:

أ. قد تقدم وجه اتصال الآية بما قبلها ومحصله أن الآية السابقة أفادت أن الناس، وآخروهم كأوليهم، مستحقون بما فيهم من غريزة الفساد والفسق لحلول الهلاك وسائر أنواع العذاب الشديد، وقد قضى الله على القرى أن تهلك أو تعذب عذابا شديدا وهذا هو الذي منعنا أن نرسل بالآيات التي يقترحونها فإن السابقين منهم اقترحوها فأرسلناها إليهم فكذبوا بها فأهلكناهم، وهؤلاء اللاحقون في خلق سابقيهم فلو أرسلنا بالآيات حسب اقتراحهم لكذبوا بها فحل الهلاك بهم لا محالة كما حل بسابقيهم، وما يريد الله سبحانه أن يعاجلهم بالعقوبة.

ب. وبهذا يظهر أن للآيتين ارتباطا بما سيحكيه من اقتراحهم الآيات بقوله: ﴿وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ [الآية: ٩٠] من السورة إلى آخر الآيات، وظاهر آيات السورة أنها نزلت دفعة واحدة.

ج. فقوله: ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ﴾ المنع هو قسر الغير عما يريد أن يفعله وكفه عنه، والله سبحانه يحكم ولا معقب لحكمه وهو الغالب القاهر إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، فكون تكذيب الأولين لآياته مانعا له من إرسال الآيات المقترحة بعد ذلك كون الفعل بالنظر إلى ما ارتكز فيهم من خلق التكذيب خاليا عن المصلحة بالنسبة إلى أمة أراد الله أن لا يعاجلهم بالعقوبة والهلاك أو خاليا عن المصلحة مطلقا للعلم بأن عامتهم لا يؤمنون بالآيات المقترحة.

د. وإن شئت فقل: إن المنافاة بين إرسال الآيات المقترحة مع تكذيب الأولين وكون الآخرين سالكين سبيلهم المستتبع للاستئصال وبين تعلق المشية بإمهال هذه الأمة عبر عنها في الآية بالمنع استعارة،

وكأنه للإشعار بذلك عبر عن إيتاء الآيات بالإرسال كأنها تتعاضد وتتداعى للنزول لكن التكذيب وتعرق الفساد في فطر الناس يمنع من ذلك.

٢. ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾:

أ. التعبير عن الأمم الهالكة بالأولين المضايف للآخرين فيه إيماء إلى أن هؤلاء آخر أولئك الأولين فهم في الحقيقة أمة واحدة لآخرها من الخلق والغريزة ما لأولها، لذيلها من الحكم ما لصدرها ولذلك كانوا يقولون: ﴿ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ويكررون ذكر هذه الكلمة.

ب. وكيف كان فمعنى الآية أنا لم نرسل الآيات التي يقترحونها والمقترحون هم قريش، لأنا لو أرسلناها لم يؤمنوا وكذبوا بها فيستحقوا عذاب الاستئصال كما أنا أرسلناها إلى الأولين بعد اقتراحهم إياها فكذبوا بها فأهلكناهم لكنا قضينا على هذه الأمة أن لا نعذبهم إلا بعد مهلة ونظرة كما يظهر من مواضع من كلامه تعالى.

ج. وذكروا في معنى الآية الكريمة وجهين آخرين:

• أحدهما: أنا لا نرسل الآيات لعلمنا بأنهم لا يؤمنون عندها فيكون إنزالها عبثا لا فائدة فيه كما أن من قبلهم لم يؤمنوا عند إنزال الآيات وهذا إنما يتم في الآيات المقترحة وأما الآيات التي يتوقف عليها ثبوت النبوة فإن الله يؤتيها رسوله لا محالة، وكذا الآيات التي في نزولها لطف منه سبحانه فإن الله يظهرها أيضا لطفا منه، وأما غير هذين النوعين فلا فائدة في إنزالها.

• وثانيهما: أن المعنى أنا لا نرسل الآيات لأن آباءكم وأسلافكم سألوا مثلها ولم يؤمنوا به عند ما نزل وأنتم على آثار أسلافكم مقتدون فكما لم يؤمنوا هم لا تؤمنون أنتم.

• والمعنى الثاني منقول عن أبي مسلم وتمييزه من المعنيين السابقين من غير أن ينطبق على أحدهما لا يخلو من صعوبة.

٣. ﴿وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها﴾ ثمود هم قوم صالح ولقد آتاهم الناقة آية، والمبصرة الظاهرة البينة على حد ما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، وهي صفة الناقة أو صفة لمحذوف والتقدير آية مبصرة والمعنى وآتينا قوم ثمود الناقة حالكونها ظاهرة بينة أو حالكونها آية ظاهرة بينة فظلموا أنفسهم بسببها أو ظلموا مكذبين بها.

٤. ﴿وما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾:

أ. أي إن الحكمة في الإرسال بالآيات التخويف والإنذار فإن كانت من الآيات التي تستتبع عذاب الاستئصال ففيها تخويف بالهلاك في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وإن كانت من غيرها ففيها تخويف وإنذار بعقوبة العقبى.

ب. وليس من البعيد أن يكون المراد بالتخويف إيجاد الخوف والوحشة بإرسال ما دون عذاب الاستئصال على حد ما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧] فيرجع محصل معنى الآية إنا لا نرسل بالآيات المقترحة لأنا لا نريد أن نعذبهم بعذاب الاستئصال وإنما نرسل ما نرسل من الآيات تخويفا ليحذروا بمشاهدتها عما هو أشد منها وأفظع ونسب الوجه إلى بعضهم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ﴾ الآية، قال نزلت في قريش، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في الآية: وذلك أن محمدا سأل قومه أن يأتيهم، فنزل جبرئيل فقال: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ، إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾، وكنا إذا أرسلنا إلى قريش آية فلم يؤمنوا بها أهلكناهم، فلذلك أخرنا عن قومك الآيات.

ب. أخرج أحمد والنسائي والبزاز وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعون فقيل له: إن شئت أن نتأنى بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم، قال: لا بل أستأني بهم فأنزل الله: ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ، إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾

• أقول: وروي ما يقرب منه بغير واحد من الطرق.

٤٢. الرؤيا والشجرة الملعونة فتنة للناس:

المقطع [٤٢] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٣٦»:

١. ﴿وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً﴾:

أ. فقرات الآية وهي أربع واضحة المعاني لكنها بحسب ما بينها من الاتصال وارتباط بعضها ببعض لا تخلو من إجمال والسبب الأصلي في ذلك إجمال الفقرتين الوسطيين الثانية والثالثة، فلم يبين سبحانه ما هذه الرؤيا التي أراها نبيه ﷺ ولم يقع في سائر كلامه ما يصلح لأن يفسر به هذه الرؤيا، والذي ذكره من رؤياه في مثل قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال: ٤٣] وقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ﴾ [الفتح: ٢٧] من الحوادث الواقعة بعد الهجرة وهذه الآية مكية نازلة قبل الهجرة.

ب. ولا يدرى ما هذه الشجرة الملعونة في القرآن التي جعلها فتنة للناس، ولا توجد في القرآن شجرة يذكرها الله ثم يلعنها نعم ذكر سبحانه شجرة الزقوم ووصفها بأنها فتنة كما في قوله: ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣] لكنه سبحانه لم يلعنها في شيء من المواضع التي ذكرها، ولو كان مجرد كونها شجرة تخرج في أصل الجحيم وسببا من أسباب عذاب الظالمين موجبا للعنها لكانت النار وكل ما أعد الله فيها للعذاب ملعونة ولكانت ملائكة العذاب وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] ملعونين وقد أثنى الله عليهم ذاك الثناء البالغ في قوله: ﴿عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقد عد سبحانه أيدي المؤمنين من أسباب عذاب الكفار إذ قال: ﴿قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وليست بملعونة.

ج. وبهذا يتأيد أنه لم يكن المراد بالآية الكشف عن قناع الفقرتين وإيضاح قصة الرؤيا والشجرة الملعونة في القرآن المجعولتين فتنة للناس بل إنما أريدت الإشارة إلى إجمالها والتذكير بما يقتضيانه بحكم السياق.

د. نعم ربما يلوح السياق إلى بعض شأن الأمرين: الرؤيا والشجرة الملعونة فإن الآيات السابقة كانت تصف الناس أن أخراهم كأولاهم وذيلهم كصدرهم في عدم الاعتناء بآيات الله سبحانه وتكذيبها، وأن المجتمعات الإنسانية ذائقون عذاب الله قرية بعد قرية وجيلا بعد جيل بإهلاك أو بعذاب مخوف دون

ذلك، والآيات اللاحقة ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ المشتملة على قصة إبليس وعجيب تسلطه على إغواء بني آدم تجري على سياق الآيات السابقة.

هـ. وبذلك يظهر أن الرؤيا والشجرة المشار إليهما في الآية أمران سيظهران على الناس أو هما ظاهران يفتتن بهما الناس فيشيع بهما فيهم الفساد ويتعرق فيهم الطغيان والاستكبار وذيل الآية ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً﴾ يشير إلى ذلك ويؤيده بل وصدر الآية ﴿وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ﴾

و. أضف إلى ذلك أنه تعالى وصف هذه الشجرة التي ذكرها بأنها ملعونة في القرآن، وبذلك يظهر أن القرآن مشتمل على لعنها وأن لعنها بين اللعنات الموجودة في القرآن كما هو ظاهر قوله: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وقد لعن في القرآن إبليس ولعن فيه اليهود ولعن فيه المشركون ولعن فيه المنافقون ولعن فيه أناس بعناوين أخر كالذين يموتون وهم كفار والذين يكتمون ما أنزل الله والذين يؤذون الله ورسوله إلى غير ذلك.

ز. وقد جعل الموصوف بهذه اللعنة شجرة، والشجرة كما تطلق على ذي الساق من النبات كذلك تستعمل في الأصل الذي تطلع منه وتنشأ عليه فروع بالنسب أو بالاتباع على أصل اعتقادي، قال في لسان العرب: (ويقال: فلان من شجرة مباركة أي من أصل مبارك)، وقد ورد ذلك في لسانه ﷺ كثيرا كقوله: أنا وعلي من شجرة واحدة، ومن هذا الباب قوله في حديث العباس: عم الرجل صنو أبيه.

ح. وبالتأمل في ذلك يتضح للباحث المتدبر أن هذه الشجرة الملعونة قوم من هؤلاء الملعونين في كلامه لهم صفة الشجرة في النشوء والنمو وتفرع الفروع على أصل له حظ من البقاء والاثمار وهم فتنة تفتتن بها هذه الأمة، وليس يصلح لهذه الصفة إلا طوائف ثلاث من المعدودين وهم أهل الكتاب والمشركون والمنافقون ولبثهم في الناس وبقاؤهم على الولاء إما بالتناسل والتوالد كأهل بيت من الطوائف المذكورة يعيشون بين الناس ويفسدون على الناس دينهم ودنياهم ويفتتن بهم الناس وإما بطلوع عقيدة فاسدة ثم اتباعها على الولاء من خلف بعد سلف.

ط. ولم يظهر من المشركين وأهل الكتاب في زمن الرسول قبل الهجرة وبعدها قوم بهذا النعت، وقد آمن الله الناس من شرهم مستقلين بذلك بمثل قوله النازل في أواخر عهد النبي ﷺ: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣] وقد استوفينا البحث عن معنى الآية فيما

تقدم.

ي. فالذي يهدي إليه الإمعان في البحث أن المراد بالشجرة الملعونة قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرقون بين المسلمين إما بالنسل وإما بالعقيدة والمسلك هم فتنة للناس، ولا ينبغي أن يرتاب في أن في سياق الآية تلويحا بالارتباط بين الفقرتين أعني قوله: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ وخاصة بعد الإمعان في تقدم قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ﴾ وتذييل الفقرات جميعا بقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً﴾ فإن ارتباط الفقرات بعضها ببعض ظاهر في أن الآية بصدد الإشارة إلى أمر واحد هو سبحانه محيط به ولا ينفع فيه عظة وتخويف إلا زيادة في الطغيان.

ك. ويستفاد من ذلك أن الشأن هو أن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في الرؤيا هذه الشجرة الملعونة وبعض أعمالهم في الإسلام ثم بين لرسوله أن ذلك فتنة.

ل. فقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ﴾ مقتضى السياق أن المراد بالإحاطة الإحاطة العلمية، والظرف متعلق بمحذوف والتقدير واذكر إذ قلنا لك كذا وكذا والمعنى واذكر للتثبت فيما ذكرنا لك في هذه الآيات أن شيمة الناس الاستمرار في الفساد والفسوق واقتداء أخلافهم بأسلافهم في الإعراض عن ذكر الله وعدم الاعتناء بآيات الله، وقتا قلنا لك إن ربك أحاط بالناس علما وعلم أن هذه السنة ستجري بينهم كما كانت تجري.

٢. ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾:

أ. محصل معناه على ما تقدم أنه لم نجعل الشجرة الملعونة في القرآن التي تعرفها بتعريفنا، وما أريناك في المنام من أمرهم إلا فتنة للناس وامتحانا وبلاء نمتحنهم ونبلوهم به وقد أحطنا بهم.

ب. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً﴾ ضميرا الجمع للناس ظاهرا والمراد بالتخويف إما التخويف بالموعظة والبيان أو بالآيات المخوفة التي هي دون الآيات المهلكة المبيدة، والمعنى ونخوف الناس فما يزيدهم التخويف إلا طغيانا ولا أي طغيان كان بل طغيانا كبيرا أي أنهم لا يخافون من تخويفنا حتى ينتهوا عما هم عليه بل يجيبوننا بالطغيان الكبير فهم يبالغون في طغيانهم ويفرطون في عنادهم مع الحق.

ج. وسياق الآية سياق التسلية فالله سبحانه يعزي نبيه ﷺ فيها بأن الذي أراه من الأمر، وعرفه من الفتن، وقد جرت سنته تعالى على امتحان عباده بالمحن والفتن، وقد اعترف بذلك غير واحد من المفسرين.

د. ويؤيد جميع ما تقدم ما ورد من طرق أهل السنة واتفقت عليه أحاديث أئمة أهل البيت عليه السلام أن المراد بالرؤيا في الآية هي رؤيا رآها النبي ﷺ في بني أمية والشجرة شجرتهم وسيوافيك الروايات في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

هـ. وقد ذكر جمع من المفسرين استنادا إلى ما نقل عن ابن عباس أن المراد بالرؤيا التي أراها الله نبيه هو الإسراء، والمراد بالشجرة الملعونة في القرآن شجرة الزقوم، وذكروا أن النبي ﷺ لما رجع من الإسراء وأصبح أخبر المشركين بذلك فكذبوه واستهزءوا به، وكذلك لما سمع المشركون آيات ذكر الله فيها الزقوم كذبوه وسخروا منه فأنزل الله في هذه الآية أن الرؤيا التي أريناك وهي الإسراء وشجرة الزقوم ما جعلناهما إلا فتنة للناس.

و. ثم لما ورد عليهم أن الرؤيا على ما صرح به أهل اللغة هي ما يراه النائم في منامه والإسراء كان في اليقظة اعتذروا عنه تارة بأن الرؤيا كالرؤية مصدر رأى ولا اختصاص لها بالمنام، وتارة بأن الرؤيا ما يراه الإنسان بالليل سواء فيه النوم واليقظة، وتارة بأنها مشاكلة لتسمية المشركين له رؤيا، وتارة بأنه جار على زعمهم كما سموا أصنامهم آلهة فقد روي أن بعضهم قال للنبي ﷺ لما قص عليهم إسراءه لعله شيء رأيته في منامك فسماه الله رؤيا على زعمهم كما قال في الأصنام ﴿آلِهَتُهُمُ﴾، وتارة بأنه سمي رؤيا تشبيها له بالمنام لما فيها من العجائب أو لوقوعه ليلا أو لسرعته، وقد أجاب عن ذلك بعضهم أن الإسراء كان في المنام كما روي عن عائشة ومعاوية.

ز. ولما ورد عليهم أيضا أن لا معنى لتسمية الزقوم شجرة ملعونة ولا ذنب للشجرة اعتذروا عنه تارة بأن المراد من لعنها لعن طاعميها على نحو المجاز في الإسناد للدلالة على المبالغة في لعنهم كما قيل وتارة بأن اللعنة بمعنى البعد وهي في أبعد مكان من الرحمة لكونها تنبت في أصل الجحيم، وتارة بأنها جعلت ملعونة لأن طلعها يشبه رءوس الشياطين والشياطين ملعونون، وتارة بأن العرب تسمي كل غذاء مكروه ضار ملعونا.

ح. أما ما ذكروه في معنى الرؤيا، فما قيل: إن الرؤيا مصدر مرادف للرؤية أو إنها بمعنى الرؤية ليلا

يرده عدم الثبوت لغة ولم يستندوا في ذلك إلى شيء من كلامهم من نظم أو نثر إلا إلى مجرد الدعوى:

• وأما قولهم: إن ذلك مشاكلة لتسمية المشركين الإسراء رؤيا أو جرى على زعمهم أنه رؤيا فيجب تنزيه كلامه سبحانه من ذلك البتة فما هي القرينة الدالة على هذه العناية وأنه ليس فيه اعتراف بكونها رؤيا حقيقة؟ ولم يطلق تعالى على أصنامهم (آلهة) و(شركاء) وإنما أطلق ﴿آلِهَتُهُمْ﴾ و﴿لِشُرَكَائِهِمْ﴾ فأضافها إليهم والإضافة نعمت القرينة على عدم التسليم، ونظير الكلام جار في اعتذارهم بأنه من تشبيه الإسراء بالرؤيا فالاستعارة كسائر المجازات لا تصح إلا مع قرينة، ولو كانت هناك قرينة لم يستدل كل من قال بكون الإسراء مناميا بوقوع لفظة الرؤيا في الآية بناء على كون الآية ناظرة إلى الإسراء.

• وأما قول القائل: إن الإسراء كان في المنام فقد اتضح بطلانه في أول السورة في تفسير آية الإسراء.

• وأما المعاذير التي ذكروها تفصيا عن جعل الشجرة ملعونة في القرآن فقولهم: إن حقيقة لعنها لعن طاعميها على طريق المجاز في الإسناد للمبالغة في لعنهم فهو وإن كان كثير النظير في محاورات العامة لكنه مما يجب أن ينزه عنه ساحة كلامه تعالى وإنما هو من دأب جهلة الناس وسفلتهم تراهم إذا أرادوا أن يسبوا أحدا لعنوه بلعن أبيه وأمه وعشيرته مبالغة في سبه، وإذا شتموا رجلا أساءوا ذكر زوجته وبنته وسبوا السماء التي تظله والأرض التي تقله والدار التي يسكنها والقوم الذين يعاشرهم وأدب القرآن يمنعه أن يبالغ في لعن أصحاب النار بلعن الشجرة التي يعذبهم الله بأكل ثمارها.

• وقولهم: إن اللعن مطلق الإبعاد مما لم يثبت لغة والذي ذكروه ويشهد به ما ورد من استعماله في القرآن أن معناه الإبعاد من الرحمة والكرامة وما قيل: إنها كما قال الله ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ فهي في أبعد مكان من الرحمة إن أريدت بالرحمة الجنة فهو قول من غير دليل وإن أريدت به الرحمة المقابلة للعذاب كان لازمه كون الشجرة ملعونة بمعنى الإبعاد من الرحمة والكرامة ومقتضاه كون جهنم وما أعد الله فيها من العذاب وملائكة النار وخزنتها ملعونين مغضوبين مبعدين من الرحمة، وليس شيء منها ملعونا وإنما اللعن والغضب والبعد للمعذبين فيها من الإنس والجن.

• وقولهم: إنها جعلت ملعونة لأن طلعها يشبه رءوس الشياطين والشياطين ملعونون فهو مجاز في الإسناد بعيد من الفهم يرد عليه ما أوردناه على الوجه الأول.

• وقولهم: إن العرب تسمي كل غذاء مكروه ضار ملعونا فيه استعمال الشجرة وإرادة الثمرة مجازا

ثم جعلها ملعونة لكونها مكروهة ضارة أو نسبة اللعن وهو وصف الثمرة إلى الشجرة مجازا وعلى أي حال كونها معنى من معاني اللعن غير ثابت بل الظاهر أنهم يصفونه باللعن بمعناه المعروف والعامة يلعنون كل ما لا يرتضونه من طعام وشراب وغيرهما.

• وأما انتساب القول إلى ابن عباس فعلى تقدير ثبوته لا حجية فيه وخاصة مع معارضته لما في حديث عائشة الآتية وغيرها وهو يتضمن تفسير النبي ﷺ ولا يعارضه قول غيره.

ح. وقال في الكشاف، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش يعني بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ وغير ذلك فجعله كأن قد كان ووجد فقال: ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ على عادته في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي ﷺ في العريش مع أبي بكر كان يدعو ويقول: اللهم إني أسألك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يومئ إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله ﷺ من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء، وحين سمعوا بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ جعلوها سخرية وقالوا: إن محمدا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول: ينبت فيها الشجر، إلى أن قال، والمعنى أن الآيات إنما يرسل بها تخويفا للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر) ثم ذكر تفسير الرؤيا في الآية بالإسراء ناسبا له إلى قيل.

• وهو ظاهر في أنه لم يرتض تفسير الرؤيا في الآية بالإسراء وإن نسب إلى الرواية فعدل عنه إلى تفسيرها برؤيا النبي ﷺ وقعة بدر قبل وقوعها وتسامع قريش بذلك واستهزاءهم به.

• وهو وإن تقصى به عما يلزم تفسيرهم الرؤيا بالإسراء من المحذور لكنه وقع فيما ليس بأهون منه إن لم يكن أشد وهو تفسير الرؤيا بما رجى أن يكون النبي ﷺ يرى في منامه وقعة بدر ومصارع القوم فيها قبل وقوعها ويسخر قريش منه فيجعل فتنة لهم فلا حجة له على ما فسر إلا قوله: (ولعل الله أراه مصارعهم في منامه) وكيف يجترئ على تفسير كلامه تعالى بتوهم أمر لا مستند له ولا حجة عليه من أثر يعول عليه

أو دليل من خلال الآيات يرجع إليه.

ط. وذكر بعضهم: (أن المراد بالرؤيا رؤيا النبي ﷺ أنه يدخل مكة والمسجد الحرام وهي التي ذكرها الله سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا﴾ الآية.

• وفيه أن هذه الرؤيا إنما رآها النبي ﷺ بعد الهجرة قبل صلح الحديبية والآية مكية؛ وسنستوفي البحث عن هذه الرؤيا إن شاء الله تعالى.

ي. وذكر بعضهم: (أن المراد بالشجرة الملعونة في القرآن هم اليهود ونسب إلى أبي مسلم المفسر.

• وقد تقدم ما يمكن أن يوجه به هذا القول مع ما يرد عليه.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان، ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكا حتى مات فأنزل الله: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أن النبي قال: رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر، كأنهم القردة وأنزل الله في ذلك: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ يعني الحكم وولده.

ج. أخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: أريت بني أمية على منابر الأرض، وسيتملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتم رسول الله ﷺ لذلك فأنزل الله: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾

د. أخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي: أن رسول الله أصبح وهو مهموم فقيل: ما لك يا رسول الله؟ فقال: إني أريت في المنام، كان بني أمية يتعاورون منبري هذا فقيل: يا رسول الله لا تهتم فإنها دنيا تنالهم فأنزل الله: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾

هـ. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله ﷺ بني أمية على المنابر فساءه ذلك، فأوحى الله إليه إنما هي دنيا، أعطوها فقرت عينه، وهي قوله: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ يعني بلاء للناس:

• أقول: ورواه في تفسير البرهان، عن الثعلبي في تفسيره، يرفعه إلى سعيد بن المسيب.

و. وفي تفسير البرهان، عن كتاب فضيلة الحسين يرفعه إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت في النوم بني الحكم أو بني العاص، ينزون على منبري كما تنزو القردة فأصبح كالمتغيظ، فما رؤي رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا بعد ذلك حتى مات.

ز. أخرج ابن مردويه عن عائشة: أنها قالت لمروان بن الحكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن.

ح. وفي مجمع البيان: (رؤيا رآها النبي ﷺ أن قرودا تصعد منبره، وتنزل وساءه ذلك واغتم:، رواه سهل بن سعيد عن أبيه، ثم قال: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، وقالوا: على هذا التأويل الشجرة الملعونة في القرآن هو بنو أمية.

• أقول: وليس من التأويل في شيء بل هو تنزيل كما تقدم بيانه، إلا أن التأويل ربما أطلق في كلامهم على مطلق توجيه المقصود.

• وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره، عن عدة من الثقات كزرارة وحمران ومحمد بن مسلم ومعروف بن خربوذ وسلام الجعفي والقاسم بن سليمان ويونس بن عبد الرحمن الأشل وعبد الرحيم القصير عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام ورواه القمي في تفسيره، مضمرا، ورواه العياشي أيضا عن أبي الطفيل عن علي عليه السلام.

• وفي بعض هذه الروايات أن مع بني أمية غيرهم وقد تقدم ما يهدي إليه البحث في معنى الآية، وقد مر أيضا الروايات في ذيل قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية: [إبراهيم: ٢٦] أن الشجرة الخبيثة هي الأفجران من قريش.

ط. أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس: في قوله: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ، ليلة أسري به إلى بيت المقدس، وليست برؤيا منام (والشجرة الملعونة في القرآن) قال: هي شجرة الزقوم.

• أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن ابن سعد وأبي يعلى وابن عساكر عن أم هاني، وقد عرفت حال

الرواية في الكلام على تفسير الآية.

ي. أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ الآية قال: إن رسول الله أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة فسار إلى مكة قبل الأجل، فرده المشركون فقال أناس: قد رد وقد كان حدثنا أنه سيدخلها، فكانت رجعته فتنتهم.

• أقول: وقد تقدم ما على الرواية في تفسير الآية على أنها تعارض ما تقدمها.

٤٣. إبليس وعداوته المعلنة لذرية آدم:

المقطع [٤٣] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٤٣»:

١. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾:

أ. قال في المجمع: (قال الزجاج: طينا منصوب على الحال بمعنى أنك أنشأته في حال كونه من طين، ويجوز أن يكون تقديره من طين فحذف (من) فوصل الفعل، ومثله قوله: ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ﴾ أي لأولادكم وقيل: إنه منصوب على التميز)

ب. وجوز في الكشاف، كونه حالا من الموصول لا من المفعول ﴿خَلَقْتَ﴾ كما قاله الزجاج، وقيل: إن الحالية على أي حال خلاف الظاهر لكون ﴿طِيناً﴾ جامدا.

ج. وفي الآية تذكير آخر للنبي ﷺ بقصة إبليس وما جرى بينه وبين الله سبحانه من المحاورة عند ما عصى أمر السجدة ليتثبت فيما أخبره الله من حال الناس أنهم لم يزالوا على الاستهانة بأمر الله والاستكبار عن الحق وعدم الاعتناء بآيات الله ولن يزالوا على ذلك فليذكر قصة إبليس وما عقد عليه أن يحتنك ذرية آدم وسلطه الله يومئذ على من أطاعه من بني آدم واتبع دعوته ودعوة خيله ورجله ولم يستثن في عقده إلا عباده المخلصين.

د. فالمعنى: واذكر إذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، فكأنه قيل: فما ذا صنع؟ أو فما ذا قال؟ إذ لم يسجد؟ فقيل: إنه أنكر الأمر بالسجدة وقال أأسجد، والاستفهام للإنكار، لمن خلقته من طين وقد خلقتني من نار وهي أشرف من الطين.

هـ. وفي القصة اختصار بحذف بعض فقراتها، والوجه فيه أن السياق اقتضى ذلك فإن الغرض بيان العلل والعوامل المقتضية لاستمرار بني آدم على الظلم والفسوق فقد ذكر أولا أن الأولين منهم لم يؤمنوا بالآيات المقترحة والآخرون بانون على الاقتداء بهم ثم ذكره ﷺ أن هناك من الفتن ما سيفتنون به ثم ذكره بما قصه عليه من قصة آدم وإبليس وفيها عقد إبليس أن يغوي ذرية آدم وسؤاله أن يسلطه الله عليهم وإجابته تعالى إياه على ذلك في الغاوين فليس بمستبعد أن يميل أكثر الناس إلى سبيل الضلال وينكبوا على الظلم والطغيان والإعراض عن آيات الله وقد أحاطت بهم الفتنة الإلهية من جانب والشيطان بخيله ورجله من جانب.

٢. ﴿قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾:

أ. الكاف في ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ زائدة لا محل لها من الإعراب وإنما تفيد معنى الخطاب كما في أسماء الإشارة، والمراد بقوله: ﴿هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ آدم عليه السلام وتكريمه على إبليس تفضيله عليه بأمره بالسجدة ورجمه حيث أبى.

ب. ومن هنا يظهر أنه فهم التفضيل من أمر السجدة كما أنه اجترى على إرادة إغواء ذريته مما جرى في محاورته تعالى الملائكة من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقد تقدم في تفسير الآية ما ينفع هاهنا.

ج. والاحتناك على ما في المجمع: (ـ الاقتطاع من الأصل، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم إذا استقصاه فأخذه كله، واحتنك الجراد المزرع إذا أكله كله وقيل: إنه من قولهم: حنك الدابة بحبلها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به، والظاهر أن المعنى الأخير هو الأصل في الباب، والاحتناك الإلجام.

د. والمعنى: قال إبليس بعد ما عصى وأخذه الغضب الإلهي رب أرأيت هذا الذي فضلته بأمري بسجدته ورجمي بمعصيته أقسم لئن أخرتني إلى يوم القيامة وهو مدة مكث بني آدم في الأرض لألجمن

ذريته إلا قليلا منهم وهم المخلصون.

٣. ﴿قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً﴾ قيل: الأمر بالذهاب ليس على حقيقته وإنما هو كناية عن تخليته ونفسه كما تقول لمن يخالفك: افعل ما تريد، وقيل: الأمر على حقيقته وهو تعبير آخر لقوله في موضع آخر: ﴿فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ والموفور المكمل فالجزاء الموفور الجزاء الذي يوفى كله ولا يدخر منه شيء، ومعنى الآية واضح.

٤. ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾:

أ. الاستفزاز الإزعاج والاستنهاض بخفة وإسراع، والإجلاب كما في المجمع: (السوق بجلبة من السائق والجلبة شدة الصوت، وفي المفردات: (أصل الجلب سوق الشيء يقال: جلبت جلبا قال الشاعر: (وقد يجلب الشيء البعيد الجواب) وأجلبت عليه صحت عليه بقهر، قال الله عز وجل: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾)

ب. والخيل، على ما قيل، الأفراس حقيقة ولا واحد له من لفظه ويطلق على الفرسان مجازا، والرجل بالفتح فالكسر هو الراجل كحذر وحاذر وكمل وكامل وهو خلاف الراكب، وظاهر مقابلته بالخيل أن يكون المراد به الرجالة وهم غير الفرسان من الجيش.

ج. فقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ أي استنهض للمعصية من استطعت أن تستنهضه من ذرية آدم، وهم الذين يتولونه منهم ويتبعونه كما ذكره في سورة الحجر، بصوتك، وكأن الاستفزاز بالصوت كناية عن استخفافهم بالوسوسة الباطلة من غير حقيقة، وتمثيل بما يساق الغنم وغيره بالنعيق والزجر وهو صوت لا معنى له.

٥. ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي وصح عليهم لسوقهم إلى معصية الله بأعوانك وجيوشك فرسانهم ورجالتهم وكأنه إشارة إلى أن قبيله وأعوانه منهم من يعمل ما يعمل بسرعة كما هو شأن الفرسان في معركة الحرب ومنهم من يستعمل في غير موارد الحملات السريعة كالرجالة، فالخيل والرجل كناية عن المسرعين في العمل والمبطئين فيه وفيه تمثيل نحو عملهم.

٦. ﴿وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ﴾:

أ. الشركة إنما يتصور في الملك والاختصاص ولازمه كون الشريك سهيما لشريكه في الانتفاع الذي

هو الغرض من اتخاذ المال والولد فإن المال عين خارجي منفصل من الإنسان وكذا الولد شخص إنساني مستقل عن والديه، ولولا غرض الانتفاع لم يعتبر الإنسان مالية لمال ولا اختصاص بولد.

ب. فمشاركة الشيطان للإنسان في ماله أو ولده مساهمته له في الاختصاص والانتفاع كأن يحصل المال الذي جعله الله رافعا لحاجة الإنسان الطبيعية من غير حله فينتفع به الشيطان لغرضه والإنسان لغرضه الطبيعي، أو يحصله من طريق الحل لكن يستعمله في غير طاعة الله فينتفعان به معا وهو صفر الكف من رحمة الله وكأن يولد الإنسان من غير طريق حله أو يولد من طريق حله ثم يربيه تربية غير صالحة ويؤدبه بغير أدب الله فيجعل للشيطان سهما ولنفسه سهما، وعلى هذا القياس.

ج. وهذا وجه مستقيم لمعنى الآية وجامع لما ذكره المفسرون في معنى الآية من الوجوه المختلفة كقول بعضهم الأموال والأولاد التي يشارك فيها الشيطان كل مال أصيب من حرام وأخذ من غير حقه وكل ولد زنا كما عن ابن عباس وغيره.

د. وقول آخر: إن مشاركته في الأموال أنه أمرهم أن يجعلوها سائبة وبحيرة وغير ذلك وفي الأولاد أنهم هودوهم ونصروهم ومجسوهم كما عن قتادة.

هـ. وقول آخر: إن كل مال حرام وفرج حرام فله فيه شرك كما عن الكلبي، وقول آخر: إن المراد بالأولاد تسميتهم عبد شمس وعبد الحارث ونحوهما، وقول آخر: هو قتل الموءودة من أولادهم كما عن ابن عباس أيضا، وقول آخر: إن المشاركة في الأموال الذبح للآلهة كما عن الضحاك إلى غير ذلك مما روي عن قدماء المفسرين.

٧. ﴿وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ أي ما يعدهم إلا وعدا غارا بإظهار الخطإ في صورة الصواب والباطل على هيئة الحق فالغرور مصدر بمعنى اسم الفاعل للمبالغة.

٨. ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ المراد بعبادي أعم من المخلصين الذين استثناهم إبليس بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ بل غير الغاوين من اتباع إبليس كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] والإضافة للتشريف.

٩. ﴿وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ أي قائما على نفوسهم وأعمالهم حافظا لمنافعهم متوليا لأمورهم فإن الوكيل هو الكافل لأمور الغير القائم مقامه في تدبيرها وإدارة رحاها، وبذلك يظهر أن المراد به وكالته

الخاصة لغير الغاوين من عباده كما مر في سورة الحجر.

١٠. وقد تقدمت أبحاث مختلفة حول قصة سجدة آدم نافعة في هذا المقام في مواضع متفرقة من كلامه تعالى كسورة البقرة وسورة الأعراف وسورة الحجر.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن الحسين بن سعيد في كتاب الزهد، عن عثمان بن عيسى عن عمر بن أذينة عن سليمان بن قيس قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ: إن الله حرم الجنة على كل فحاش، بذيء قليل الحياء لا يبالي ما قال وما قيل له، فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغية أو شرك شيطان، فقال رجل، يا رسول الله وفي الناس شرك شيطان؟ فقال: أوما تقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ﴾؟ فقال: من لا يبالي ما قال وما قيل له؟ فقال: نعم من تعرض للناس فقال فيهم، وهو يعلم أنهم لا يتركونه، فذلك الذي لا يبالي ما قال وما قيل له.

ب. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن شرك الشيطان: قوله: ﴿وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ﴾ قال: ما كان من مال حرام فهو شرك الشيطان، قال: ويكون مع الرجل حتى يجامع فيكون من نطفته ونطفة الرجل إذا كان حراما.

- أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة، وهي من قبيل ذكر المصاديق، وقد تقدم المعنى الجامع لها.
- وما ذكر فيها على مشاركته الرجل في الوقاع والنطفة وغير ذلك كناية عن أن له نصيبا في جميع ذلك فهو من التمثيل بما يتبين به المعنى المقصود، ونظائره كثيرة في الروايات.

٤٤. الفلك والبحر والكفران:

المقطع [٤٤] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٥٢»:

١. ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾:

أ. الإزجاء على ما في مجمع البيان، سوق الشيء حالا بعد حال فالمراد به إجراء السفن في البحر بإرسال الرياح ونحوه وجعل الماء رطبا مائعا يقبل الجري والخرق، والفلك جمع الفلكة وهي السفينة.

ب. وابتغاء الفضل طلب الرزق فإن الجواد إنما يجود غالبا بما زاد على مقدار حاجة نفسه وفضل الشيء ما زاد وبقي منه ومن ابتدائية، وربما قيل: إنها للتبعيض، وذيل الآية تعليل للحكم بالرحمة، والمعنى ظاهر، والآية تمهيد لتاليها.

٢. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾

أ. الضر الشدة، ومس الضر في البحر هو خوف الغرق بالإشراف عليه بعصف الرياح وتقاذف الأمواج ونحو ذلك.

ب. ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ المراد بالضلال، على ما ذكروا، الذهاب عن الخواطر دون الخروج عن الطريق وقيل: هو بمعنى الضياع من قولهم: ضل عن فلان كذا أي ضاع عنه ويعود على أي حال إلى معنى النسيان.

ج. والمراد بالدعاء دعاء المسألة دون دعاء العبادة فيعم قوله: ﴿مَنْ تَدْعُونَ﴾ الإله الحق والآلهة الباطلة التي يدعوها المشركون، والاستثناء متصل، والمعنى وإذا اشتد عليكم الأمر في البحر بالإشراف على الغرق نسيتم كل إله تدعونه وتسألونه حوائجكم إلا الله.

د. وقيل: المراد دعاء العبادة دون المسألة فيختص بمن يعبدونه من دون الله والاستثناء منقطع، والمعنى إذا مسكم الضر في البحر ذهب عن خواطركم الآلهة الذين تعبدونهم لكن الله سبحانه لا يغيب عنكم ولا ينسى.

هـ. والظاهر أن المراد بالضلال معناه المعروف وهو خلاف الهدى والكلام مبني على تمثيل لطيف كأن الإنسان إذا مسه الضر في البحر ووقع في قلبه أن يدعو لكشف ضره قصده آلهته الذين كان يدعوهم ويستمر في دعائهم قبل ذلك وأخذوا يسعون نحوه ويتسابقون في قطع الطريق إلى ذكره ليذكرهم ويدعوهم ويستغيث بهم لكنهم جميعا يضلون الطريق ولا ينتهون إلى ذكره فينساهم والله سبحانه مشهود لقلبه حاضر في ذكره يذكره الإنسان عند ذلك فيدعوه وقد كان معرضا عنه فيجيبه وينجيه إلى البر.

و. وبذلك يظهر أن المراد بالضلال معناه المعروف، وبمن تدعون آلهتهم من دون الله فحسب وأن

الاستثناء منقطع والوجه في جعل الاستثناء منقطعا أن الذي يبتني عليه الكلام من معنى التشبيه لا يناسب ساحة قدسه تعالى لتنزهه من السعي والوقوع في الطريق وقطعه ونحو ذلك.

ز. مضافا إلى أن قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ ظاهر في أن المراد بالدعوة دعاء المسألة وأنهم في البر أي في حالهم العادي غير حال الضر معرضون عنه تعالى لا يدعونه فقوله: ﴿مَنْ تَدْعُونَ﴾ الظاهر في استمرار الدعوة المراد به آلهتهم الذين كانوا يدعونهم فاستثناؤه تعالى استثناء منقطع.

٣. ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي فلما نجاكم من الغرق وكشف عنكم الضر رادا لكم إلى البر أعرضتم عنه أو عن دعائه وفيه دلالة على أنه تعالى غير مغفول عنه للإنسان في حال وأن فطرته تهديه إلى دعائه في الضراء والسراء والشدة والرخاء جميعا فإن الإعراض إنما يتحقق عن أمر ثابت موجود فقوله: إن الإنسان يدعوه في الضر ويعرض عنه بعد كشفه في معنى أنه مهدي إليه بالفطرة دائما.

٤. ﴿وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً﴾:

أ. أي إن الكفران من دأب الإنسان من حيث إن له الطبيعة الإنسانية فإنه يتعلق بالأسباب الظاهرية فينسى مسبب الأسباب فلا يشكره تعالى وهو يتقلب في نعمة الظاهرة والباطنة.

ب. وفي تذييل الكلام بهذه الجملة تنبيه على أن إعراض الإنسان عن ربه في غير حال الضر ليس بحال غريزي فطري له حتى يستدل بنسيانه ربه على نفي الربوبية بل هو دأب سيء من الإنسان يوقعه فيه كفران النعمة.

٥. وفي الآية حجة على توحده تعالى في ربوبيته، ومحصله أن الإنسان إذا انقطع عن جميع الأسباب الظاهرية وأيس منها لم ينقطع عن التعلق بالسبب من أصله ولم يبطل منه رجاء النجاة من رأس بل رجى النجاة وتعلق قلبه بسبب ما يقدر على ما لا يقدر عليه سائر الأسباب، ولا معنى لهذا التعلق الفطري لولا أن هناك سببا فوق الأسباب إليه يرجع الأمر كله، وهو الله سبحانه، وليس يصرف الإنسان عنه إلا الاشتغال بزخارف الحياة الدنيا والتعلق بالأسباب الظاهرية والغفلة عما وراءها.

٦. ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾:

أ. خسوف القمر استتار قرصه بالظلمة والظل وخسف الله به الأرض أي ستره فيها، والحاصب، كما في المجمع: (ـ الريح التي ترمي بالحصباء والحصى الصغار وقيل: الحاصب الريح المهلكة في البر

والقاصف الريح المهلكة في البحر.

ب. والاستفهام للتوبيخ يوبخهم الله تعالى على إعراضهم عن دعائه في البر فإنهم لا مؤمن لهم من مهلكات الحوادث في البر كما لا مؤمن لهم حال مس الضر في البحر إذ لا علم لهم بما سيحدث لهم وعليهم فمن الجائز أن يخسف الله بهم جانب البر أو يرسل عليهم ريحا حاصبا فيهلكهم بذلك ثم لا يجدوا لأنفسهم وكيلا يدفع عنهم الشدة والبلاء ويعيد إليهم الأمن والسلام.

٧. ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى﴾

أ. القصف الكسر بشدة وقاصف الريح هي التي تكسر السفن والأبنية، وقيل: القاصف الريح المهلكة في البحر والتبيع هو التابع يتبع الشيء، وضمير ﴿فِيهِ﴾ للبحر وضمير ﴿بِهِ﴾ للغرق أو للإرسال أو لهما معا باعتبار ما وقع ولكل قائل، والآية من تمام التوبيخ.

ب. والمعنى أم هل أمنتم بنجاتكم إلى البر أن يعيدكم الله في البحر تارة أخرى فيرسل عليكم ريحا كاسرة للسفن أو مهلكة فيغرقكم بسبب كفركم ثم لا تجدوا بسبب الإغراق أحدا يتبع الله لكم عليه فيسأله لم فعل هذا بكم؟ ويؤاخذه على ما فعل.

ج. وفي قوله: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم بالغير وكان النكتة فيه الظهور على الخصم بالعظمة والكبرياء، وهو المناسب في المقام، وليكون مع ذلك توطئة لما في الآيات التالية من سياق التكلم بالغير.

٤٥. تكريم الله لبني آدم وتفضيلهم:

المقطع [٤٥] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٥٥»:

١. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾:

أ. الآية مسوقة للامتنان مشوبا بالعتاب كأنه تعالى لما ذكر وفور نعمه وتواتر فضله ورحمته على الإنسان وحمله في البحر ابتغاء فضله ورزقه، ورفاه حاله في البر ثم نسيانه لربه وإعراضه عن دعائه إذا نجاه

وكشف ضره كفرانا مع أنه متقلب دائما بين نعمه التي لا تحصى نبه على جملة تكريمه وتفضيله ليعلم بذلك مزيد عنايته بالإنسان وكفران الإنسان لنعمه على كثرتها وبلوغها.

ب. وبذلك يظهر أن المراد بالآية بيان حال لعامة البشر مع الغض عما يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية والقرب والفضيلة الروحية المحضة فالكلام يعم المشركين والكفار والفساق وإلا لم يتم معنى الامتنان والعتاب.

ج. فقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ المراد بالتكريم تخصيص الشيء بالعناية وتشريفه بما يختص به ولا يوجد في غيره، وبذلك يفترق عن التفضيل فإن التكريم معنى نفسي وهو جعله شريفا ذا كرامة في نفسه، والتفضيل معنى إضافي وهو تخصيصه بزيادة العطاء بالنسبة إلى غيره مع اشتراكهما في أصل العطية، والإنسان يختص من بين الموجودات الكونية بالعقل ويزيد على غيره في جميع الصفات والأحوال التي توجد بينها والأعمال التي يأتي بها.

د. وينجلي ذلك بقياس ما يتفنن الإنسان به في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ومنكحه ويأتي به من النظم والتدبير في مجتمعة، ويتوسل إليه من مقاصده باستخدام سائر الموجودات الكونية، وقياس ذلك مما لسائر الحيوان والنبات وغيرهما من ذلك فليس عندها من ذلك إلا وجوه من التصرف ساذجة بسيطة أو قريب من البساطة وهي واقفة في موقفها المحفوظ لها يوم خلقت من غير تغير أو تحول محسوس؛ وقد سار الإنسان في جميع وجوه حياته الكمالية إلى غايات بعيدة ولا يزال يسعى ويرقى.

هـ. وبالجملة بنو آدم مكرمون بما خصهم الله به من بين سائر الموجودات الكونية وهو الذي يمتازون به من غيرهم وهو العقل الذي يعرفون به الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار.

و. وأما ما ذكره المفسرون أو وردت به الرواية أن الذي كرمهم الله به النطق أو تعديل القامة وامتدادها أو الأصابع يفعلون بها ما يشاءون أو الأكل باليد أو الخط أو حسن الصورة أو التسلط على سائر الخلق وتسخيرهم له أو أن الله خلق أباهم آدم بيده أو أنه جعل محمدا ﷺ منهم أو جميع ذلك وما ذكر منها فإنما ذكر على سبيل التمثيل.

ز. فبعضها مما يتفرع على العقل كالخط والنطق والتسلط على غيره من الخلق وبعضها من مصاديق التفضيل دون التكريم وقد تقدم الفرق بينهما، وبعضها خارج عن مدلول الآية كالتكريم بخلق أبيهم آدم

عليه السلام بيده وجعل محمد ﷺ منهم فإن ذلك من التكريم الأخروي والتشريف المعنوي الخارج عن مدلول الآية كما تقدم.

ح. وبذلك يظهر ما في قول بعضهم: (إن التكريم بجميع ذلك وقد أخطأ صاحب روح المعاني حيث قال بعد ذكر الأقوال، والكل في الحقيقة على سبيل التمثيل ومن ادعى الحصر في واحد كابن عطية حيث قال: إنما التكريم بالعقل لا غيره فقد ادعى غلطا ورام شططا وخالف صريح العقل وصحيح النقل)، ووجه خطأه ظاهر مما تقدم.

٢. ﴿وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي حملناهم على السفن والدواب وغير ذلك يركبونها إلى مقاصدهم وابتغاء فضل ربهم ورزقه وهذا أحد مظاهر تكريمهم.

٣. ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾:

أ. أي من الأشياء التي يستطيبونها من أقسام النعم من الفواكه والثمار وسائر ما يتنعمون به ويستلذونه مما يصدق عليه الرزق، وهذا أيضا أحد مظاهر التكريم فمثل الإنسان في هذا التكريم الإلهي مثل من يدعى إلى الضيافة وهي تكريم ثم يرسل إليه مركوب يركبه للحضور لها وهو تكريم ثم يقدم عليه أنواع الأغذية والأطعمة الطيبة اللذيذة وهو تكريم.

ب. وبذلك يظهر أن عطف قوله: ﴿وَحَمَلْناهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَرَزَقْناهُمْ﴾ على التكريم من قبيل عطف المصاديق المترتبة على العنوان الكلي المنتزع منها.

٤. ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾:

أ. لا يبعد أن يكون المراد بمن خلقناهم أنواع الحيوان ذوات الشعور والجن الذي يثبته القرآن فإن الله سبحانه يعد أنواع الحيوان أمما أرضية كالأمة الإنسانية ويجريها مجرى أولي العقل كما قال: ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

ب. وهذا هو الأنسب بمعنى الآية وقد عرفت أن الغرض منها بيان ما كرم الله به بني آدم وفضلهم على سائر الموجودات الكونية وهي، فيما نعلم، الحيوان والجن وأما الملائكة فليسوا من الموجودات الكونية الواقعة تحت تأثير النظام المادي الحاكم في عالم المادة.

ج. فالمعنى: وفضلنا بني آدم على كثير مما خلقنا وهم الحيوان والجن وأما غير الكثير وهم الملائكة

فهم خارجون عن محل الكلام لأنهم موجودات نورية غير كونية ولا داخلة في مجرى النظام الكوني، والآية إنما تتكلم في الإنسان من جهة أنه أحد الموجودات الكونية وقد أنعم عليه بنعم نفسية وإضافية.

٥. وقد تبين مما تقدم:

أ. أولا: أن كلا من التكريم والتفضيل في الآية ناظر إلى نوع من الموهبة الإلهية التي أوتيها الإنسان:

• أما تكريمه فيما يختص بنوعه من الموهبة لا يتعداه إلى غيره وهو العقل الذي يميز به الخير من الشر والنافع من الضار والحسن من القبيح ويتفرع عليه مواهب أخرى كالتسلط على غيره واستخدامه في سبيل مقاصده والنطق والخط وغيره.

• وأما تفضيله فبما يزيد به على غيره في الأمور المشتركة بينه وبين غيره كما أن الحيوان يتغذى بما وجده من لحم أو فاكهة أو حب أو عشب ونحو ذلك على وجه ساذج والإنسان يتغذى بذلك ويزيد عليه بما يبدعه من ألوان الغذاء المطبوخ وغير المطبوخ على أنحاء مختلفة وفنون مبتكرة وطعوم مستطابة لذيذة لا تكاد تحصى ولا تزال تزداد نوعا وصنفا، وقس على ذلك الحال في مشربه وملبسه ومسكنه ونكاحه واجتماعه المنزلي والمدني وغير ذلك.

• وقال في مجمع البيان: (ومتى قيل: إذا كان معنى التكريم والتفضيل واحدا فما معنى التكرار؟ فجوابه أن قوله: ﴿كَرَّمْنا﴾ ينبئ عن الإنعام ولا ينبئ عن التفضل فجاء بلفظ التفضيل ليدل عليه، وقيل: إن التكريم يتناول نعم الدنيا والتفضيل يتناول نعم الآخرة، وقيل: إن التكريم بالنعم التي يصح بها التكليف، والتفضل بالتكليف الذي عرضهم به للمنازل العالية) أما ما ذكره أن التفضيل يدل على نكتة زائدة على مدلول التكريم وهو كونه تفضلا وإعطاء لا عن استحقاق ففيه أنه ممنوع والتفضيل كما يصح لا عن استحقاق من المفضل كذلك يصح عن استحقاق منه لذلك، وأما ما نقله عن غيره فدعوى من غير دليل.

• وقال الرازي في تفسيره، في الفرق بينهما: إن الأقرب في ذلك أن يقال: إنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم إنه عز وجل عرضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل فكأنه قيل: فضلناهم بالتعريض لاكتساب ما فيه النجاة والزلفى بواسطة ما

كرمناهم به من مبادئ ذلك فعليهم أن يشكروا ويصرفوا ما خلق لهم لما خلق له فيوحدوا الله تعالى ولا يشركوا به شيئا ويرفضوا ما هم عليه من عبادة غيره) ومحصله الفرق بين التكريم والتفضيل بأن الأول إنما هو في الأمور الذاتية أو ما يلحق بها من الغريزيات والثاني في الأمور الاكتسابية وأنت خبير بأن الإنسان وإن وجد فيه من المواهب الإلهية والكمالات الوجودية أمور ذاتية وأمور اكتسابية على ما ذكره لكن اختصاص التكريم بالنوع الأول والتفضيل بالنوع الثاني لا يساعد عليه لغة ولا عرف، فالوجه ما قدمناه.

ب. وثانيا: أن الآية ناظرة إلى الكمال الإنساني من حيث وجوده الكوني وتكريمه وتفضيله بالقياس إلى سائر الموجودات الكونية الواقعة تحت النظام الكوني:

• فالملائكة الخارجون عن النظام الكوني خارجون عن محل الكلام والمراد بتفضيل الإنسان على كثير ممن خلق تفضيله على غير الملائكة من الموجودات الكونية، وأما الملائكة فوجودهم غير هذا الوجود فلا تعرض لهم في ذلك بوجه.

• وبذلك يظهر فساد ما استدل بعضهم بالآية على كون الملائكة أفضل من الإنسان حتى الأنبياء عليهم‌السلام قال: لأن قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ يدل على أن هاهنا من لم يفضلهم عليه، وليس إلا الملائكة لأن بني آدم أفضل من كل حيوان سوى الملائكة بالاتفاق.

• وجه الفساد: أن الذي تعرضت له الآية إنما هو التفضيل من حيث الوجود الكوني الدنيوي والملائكة غير موجودين بهذا النحو من الوجود، وإلى هذا يرجع ما أجاب به بعضهم أن التفضيل في الآية لم يرد به الثواب لأن الثواب لا يجوز التفضيل به ابتداء، وإنما المراد بذلك ما فضلهم الله به من فنون النعم التي أوتيها في الدنيا.

• وأما ما أجابوا عنه بأن المراد بالكثير في الآية الجميع ومن بيانية، والمعنى وفضلناهم على من خلقنا وهم كثير، ففيه أنه وجه سخيف لا يساعد عليه كلامهم ولا سياق الآية، وما قيل: إنه من قبيل قولهم: بذلت له العريض من جاهي وأبحته المنيع من حريمي ولا يراد به أني بذلت له عريض جاهي ومنعته ما ليس بعريض وأبحته منيع حريمي ولم أبحه ما ليس بمنيع بل المراد بذلت له جاهي الذي من صفته أنه عريض وأبحته حريمي الذي هو منيع، يرده أنه إن أريد بما فسر به المثالان أن العناية في الكلام مصروفة إلى أخذ كل الجاه عريضا وكل الحريم منيعا لم ينقسم الجاه والحريم حينئذ إلى عريض وغير عريض

ومنيع وغير منيع ولم ينطبق على مورد الآية المدعى أنه أطلق فيها البعض وأريد به الكل، وإن أريد به أن المعنى بذلت له عريض جاهي فكيف بغير العريض وأبحته المنيع من حريمي فكيف بغير المنيع كان شمول حكم البعض للكل بالأولوية ولم يجز في مورد الآية قطعا.

● وربما أجيب عن ذلك بأنا إن سلمنا أن المراد بالكثير غير الملائكة ولفظة من للتبعيض فغاية ما في الباب أن تكون الآية ساكتة عن تفضيل بني آدم على الملائكة وهو أعم من تفضيل الملك على الإنسان لجواز التساوي، ولو سلم أنها تدل على التفضيل فغايته أن تدل على تفضيل جنس الملائكة على جنس بني آدم وهذا لا ينافي أن يكون بعض بني آدم أفضل من الملائكة كالأنبياء عليهم‌السلام.

● والحق كما عرفت أن الآية غير متعرضة للتفضيل من جهة الثواب والفضل الأخروي وبعبارة أخرى هي متعرضة للتفضيل من جهة الوجود الكوني، والمراد بكثير ممن خلقنا غير الملائكة ومن تبعيضية والمراد بمن خلقنا الملائكة وغيرهم من الإنسان والحيوان والجن، والإنسان مفضل بحسب وجوده الكوني على الحيوان والجن هذا وسيوافيك كلام في معنى تفضيل الإنسان على الملك إن شاء الله.

٦. وضع هنا مبحثا حول [الفضل بين الإنسان والملك]، خلاصته:

أ. اختلف المسلمون في أن الإنسان والملك أيهما أفضل: فالمعروف عن الأشاعرة والشيعة أن الإنسان المؤمن أفضل من الملك، واستدلوا بقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ (بجعل الكثير بمعنى الجميع)، وبأن المؤمن يطيع الله مع إمكان المعصية، بخلاف الملك المطبوع على الطاعة.

ب. ذهبت المعتزلة إلى أفضلية الملائكة على البشر، مستدلة بظاهر الآية (أن الكثير لا يعني الجميع)، وبمنزلة الملائكة عند الله وقربهم منه، وبأنهم لا يعصون الله ما أمرهم.

ج. من الأشاعرة من قال بأفضلية الملك مطلقاً، ومنهم من فضل الرسل من البشر على الرسل من الملائكة، ومنهم من فضل الكروبيين من الملائكة مطلقاً، ثم الرسل من البشر، ثم عموم الملائكة على عموم البشر.

د. استدلال القائلين بأفضلية الإنسان بأن طاعته أفضل لأنها مع إمكان المعصية، مبني على أن العمل الجائز الفعل والترك يكشف عن صفاء طينة الإنسان وخلوصه، لكن هذا الدليل لا يتم لأن الملائكة لهم شرف ذاتي وقيمة جوهرية، وقد أثنى الله عليهم ووصفهم بالإكرام والطهارة.

هـ. الحق أن القوام الملكي (الطهارة والكرامة وخلوص العبودية) أفضل من القوام الإنساني المتكدر بالهوى والمشوب بالغضب والشهوة، والأعمال الملكية الخالصة أفضل من أعمال الإنسان التي فيها شوب من ذاته، لكن الإنسان قد ينال عن استعداده مقاماً من الكمال يفوق ما ناله الملك ببهاء ذاته، كما دلت عليه قصة الخلافة وعلم الأسماء والسجود للملائكة لآدم.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في أمالي الشيخ، بإسناده عن زيد بن علي عن أبيه عليه السلام: في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ يقول: فضلنا بني آدم على سائر الخلق ﴿وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يقول: على الرطب واليابس ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ يقول: من طيبات الثمار كلها ﴿وَفَضَّلْناهُمْ﴾ يقول: ليس من دابة ولا طائر، إلا هي تأكل وتشرب بفيها، لا ترفع يدها إلى فيها طعاما ولا شرابا غير ابن آدم، فإنه يرفع إلى فيه بيده طعامه فهذا من التفضيل.

ب. وفي تفسير العياشي، عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ قال: خلق كل شيء منكبا غير الإنسان خلق منتصبا.

• أقول: وما في الروايتين من قبيل ذكر بعض المصاديق والدليل عليه قوله في آخر الرواية الأولى: فهذا من التفضيل.

٤٦. دعوة الناس بأئمتهم:

المقطع [٤٦] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١-٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٦٥»:

١. ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾:

أ. اليوم يوم القيامة والظرف متعلق بمقدر أي اذكر يوم كذا، والإمام المقتدى وقد سمى الله سبحانه بهذا الاسم أفرادا من البشر يهدون الناس بأمر الله كما في قوله: ﴿قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ [البقرة: ١٢٤] وقوله: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وأفرادا آخرين يقتدى بهم في الضلال كما في قوله: ﴿فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢] وسمى به أيضا التوراة كما في قوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ

كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، وربما استفيد منه أن الكتب السماوية المشتملة على الشريعة ككتاب نوح وإبراهيم وعيسى ومحمد عليه السلام جميعا أئمة، وسمى به أيضا اللوح المحفوظ كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]

ب. ولما كان ظاهر الآية أن لكل طائفة من الناس إماما غير ما لغيرها فإنه المستفاد من إضافة الإمام إلى الضمير الراجع إلى كل أناس لم يصلح أن يكون المراد بالإمام في الآية اللوح لكونه واحدا لا اختصاص له بأناس دون أناس.

ج. وأيضا ظاهر الآية أن هذه الدعوة تعم الناس جميعا من الأولين والآخرين وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ﴾ [البقرة: ٢١٣] أن أول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة هو كتاب نوح عليه السلام ولا كتاب قبله في هذا الشأن وبذلك يظهر عدم صلاحية كون الإمام في الآية مرادا به الكتاب وإلا خرج من قبل نوح من شمول الدعوة في الآية.

د. فالمتعين أن يكون المراد بإمام كل أناس من يأتمون به في سبيلي الحق والباطل كما تقدم أن القرآن يسميهما إمامين أو إمام الحق خاصة وهو الذي يجتبيه الله سبحانه في كل زمان لهداية أهله بأمره نبيا كان كإبراهيم ومحمد عليه السلام أو غير نبي، وقد تقدم تفصيل الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]

هـ. لكن المستفاد من مثل قوله في فرعون وهو من أئمة الضلال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، وقوله: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وغيرهما من الآيات وهي، كثيرة أن أهل الضلال لا يفارقون أولياءهم المتبوعين يوم القيامة، ولازم ذلك أن يصاحبوهم في الدعوة والإحضار.

و. على أن قوله: ﴿بِإِمامِهِمْ﴾ مطلق لم يقيد بالإمام الحق الذي جعله الله إماما هاديا بأمره، وقد سمى مقتدى الضلال إماما كما سمى مقتدى الهدى إماما وسياق ذيل الآية والآية الثانية أيضا مشعر بأن الإمام المدعو به هو الذي اتخذه الناس إماما واقتدوا به في الدنيا لا من اجتباه الله للإمامة ونصبه للهداية

بأمره سواء اتبعه الناس أو رفضوه.

ز. فالظاهر أن المراد بإمام كل أناس في الآية من ائتموا به سواء كان إمام حق أو إمام باطل، وليس كما يظن أنهم ينادون بأسماء أئمتهم فيقال: يا أمة إبراهيم ويا أمة محمد ويا آل فرعون ويا آل فلان فإنه لا يلائمه ما في الآية من التفريع أعني قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى﴾ إذ لا تفرع بين الدعوة بالإمام بهذا المعنى وبين إعطاء الكتاب باليمين أو العمى.

ح. بل المراد بالدعوة، على ما يعطيه سياق الذيل، هو الإحضار فهم محضرون بإمامهم ثم يأخذ من اقتدى بإمام حق كتابه بيمينه ويظهر عمى من عمي عن معرفة الإمام الحق في الدنيا واتباعه، هذا ما يعطيه التدبر في الآية.

ط. وللمفسرين في تفسير الإمام في الآية مذاهب شتى مختلفة:

• منها: أن المراد بالإمام الكتاب الذي يؤتم به كالتوراة والإنجيل والقرآن فينادي يوم القيامة يا أهل التوراة ويا أهل الإنجيل ويا أهل القرآن، وقد تقدم بيانه وبيان ما يرد عليه.

• ومنها: أن المراد بالإمام النبي لمن كان على الحق والشيطان وإمام الضلال لمبتغي الباطل فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي محمد فيقوم أهل الحق الذين اتبعوهم فيعطون كتب أعمالهم بأيمانهم ثم يقال: هاتوا متبعي الشيطان هاتوا متبعي رؤساء الضلال.

● وفيه أنه مبني على أخذ الإمام في الآية بمعناه العرفي وهو من يؤتم به من العقلاء، ولا سبيل إليه مع وجود معنى خاص له في عرف القرآن وهو الذي يهدي بأمر الله والمؤتم به في الضلال.

• ومنها: أن المراد كتاب أعمالهم فيقال: يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر ووجه كونه إماما بأنهم متبعون لما يحكم به من جنة أو نار.

● وفيه أنه لا معنى لتسمية كتاب الأعمال إماما وهو يتبع عمل الإنسان من خير أو شر فإن يسمى تابعا أولى به من أن يسمى متبوعا، وأما ما وجه به أخيرا ففيه أن المتبع من الحكم ما يقضي به الله سبحانه بعد نشر الصحف والسؤال والوزن والشهادة وأما الكتاب فإنما يشتمل على متون أعمال الخير والشر من غير فصل القضاء، ومنه يظهر أن ليس المراد بالإمام اللوح المحفوظ ولا صحيفة عمل الأمة وهي التي يشير إليها قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨] لعدم ملائمته قوله ذيلا: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ

﴿بِيَمِينِهِ﴾ الظاهر في الفرد دون الجماعة.

• ومنها: أن المراد به الأمهات، بجعل إمام جمعا لأم فيقال: يا ابن فلانة ولا يقال يا ابن فلان، وقد رووا فيه رواية.

● وفيه أنه لا يلائم لفظ الآية فقد قيل: ﴿نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ ولم يقل ندعو الناس بإمامهم أو ندعو كل إنسان بأمه ولو كان كما قيل لتعين أحد التعبيرين الأخيرين وما أشير إليه من الرواية على تقدير صحتها وقبولها رواية مستقلة غير واردة في تفسير الآية، على أن جمع الأم بالإمام لغة نادرة لا يحمل على مثلها كلامه تعالى وقد عد في الكشاف هذا القول من بدع التفاسير.

• ومنها: أن المراد به المقتدى به والمتبع عاقلا كان أو غيره حقا كان أو باطلا كالنبي والولي والشيطان ورؤساء الضلال والأديان الحقة والباطلة والكتب السماوية وكتب الضلال والسنن الحسنة والسيئة، ولعل دعوة كل أناس بإمامهم على هذا الوجه كناية عن ملازمة كل تابع يوم القيامة لمتبوعه، والباء للمصاحبة.

● وفيه ما أوردناه على القول بأن المراد به الأنبياء ورؤساء الضلال فالحمل على المعنى اللغوي إنما يحسن فيما لم يكن للقرآن فيه عرف، وقد عرفت أن الإمام في عرف القرآن هو الذي يهدي بأمر الله أو المقتدى في الضلال ومن الممكن أن يكون الباء في ﴿بِإِمامِهِمْ﴾ للآلة فافهم ذلك.

● على أن هداية الكتاب والسنة والدين وغير ذلك بالحقيقة ترجع إلى هداية الإمام وكذا النبي إنما يهدي بما أنه إمام يهدي بأمر الله، وأما من حيث إنبائه عن معارف الغيب أو تبليغه ما أرسل به فإنما هو نبي أو رسول وليس بإمام، وكذا إضلال المذاهب الباطلة وكتب الضلال والسنن المبتدعة بالحقيقة إضلال مؤسسيها والمبتدعين بها.

٢. ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾:

أ. الفتيل هو المفتول الذي في شق النواة، وقيل: الفتيل هو الذي في بطن النواة والنقير في ظهرها والقطمير شق النواة.

ب. وتفريع التفصيل على دعوتهم بإمامهم دليل على أن ائتمامهم هو الموجب لانقسامهم إلى قسمين وتفرقهم فريقين: من أوتي كتابه بيمينه ومن كان أعمى وأضل سبيلا فالإمام إمامان: إمام هدى

وإمام ضلال، وهذا هو الذي قدمناه أن تفريع التفصيل يشهد بكون المراد بالإمام أعم من إمام الهدى.

ج. ويشهد به أيضا تبديل إيتاء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر كما وقع في غير هذا الموضع من قوله: ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى﴾

د. والمعنى، بإعانة من السياق، فيتفرقون حينئذ فريقين فالذين أعطوا صحيفة أعمالهم بأيمانهم فأولئك يقرءون كتابهم فرحين مستبشرين مسرورين بالسعادة ولا يظلمون مقدار فتيل بل يوفون أجورهم تامة كاملة.

٣. ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾:

أ. المقابلة بين قوليه: ﴿فِي هذِهِ﴾ و﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ دليل على أن الإشارة بهذه إلى الدنيا كما أن كون الآية مسوقة لبيان التطابق بين الحياة الدنيا والآخرة دليل على أن المراد بعمى الآخرة عمى البصيرة كما أن المراد بعمى الدنيا ذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ويؤيد ذلك أيضا تعقيب عمى الآخرة بقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾

ب. والمعنى: ومن كان في هذه الحياة الدنيا لا يعرف الإمام الحق ولا يسلك سبيل الحق فهو في الحياة الآخرة لا يجد السعادة والفلاح ولا يهتدي إلى المغفرة والرحمة.

ج. وبما تقدم يتبين ما في قول بعضهم: (إن الإشارة بقوله: ﴿فِي هذِهِ﴾ إلى النعم المذكورة والمعنى ومن كان في هذه النعم التي رزقها أعمى لا يعرفها ولا يشكر الله على ما أنعمها فهو في الآخرة أعمى.

د. وكذا ما ذكره بعضهم أن المراد بعمى الدنيا عمى البصيرة وبعمى الآخرة عمى البصر، وقد تقدم وجه الفساد على أن عمى البصر في الآخرة ربما رجع إلى عمى البصيرة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾

هـ. وظاهر بعض المفسرين أن الأعمى الثاني في الآية تفيد معنى التفضيل حيث فسره أنه في الآخرة أشد عمى وأضل سبيلا والسياق يساعده على ذلك.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الفضيل قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ قال: يجيء رسول الله ﷺ في قومه، وعلي عليه السلام في قومه، والحسن في قومه والحسين

في قومه، وكل من مات بين ظهراني إمام جاء معه.

ب. وفي تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب عن الصادق عليه السلام: ألا تحمدون الله؟ أنه إذا كان يوم القيامة يدعى كل قوم إلى من يتولونه، وفزعنا إلى رسول الله ﷺ وفزعتم أنتم إلينا.

• أقول: ورواه في المجمع: عنه عليه السلام وفيه دلالة على أن رسول الله ﷺ إمام الأئمة كما أنه شهيد الشهداء وأن حكم الدعوة بالإمام جار بين الأئمة أنفسهم.

ج. وفي مجمع البيان، روى الخاص والعام عن علي بن موسى الرضا عليه السلام بالأسانيد الصحيحة أنه روى عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال فيه: يدعى كل أناس بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم:

• أقول: ورواه في تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب عنه عن آبائه عن النبي ﷺ بلفظه وقد أسنده أيضا إلى رواية الخاص والعام.

د. أخرج ابن مردويه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ قال: يدعى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم.

هـ. وفي تفسير العياشي، عن عمار الساباطي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يترك الأرض بغير إمام يحل حلال الله ويحرم حرامه، وهو قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية، الحديث.

• أقول: ووجه الاحتجاج بالآية عموم الدعوة فيها لجميع الناس.

و. وفيه، عن إسماعيل بن همام عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة قال الله: أليس العدل من ربكم أن يولوا كل قوم من تولوا؟ قالوا: بلى قال: فيقول: تميزوا فيتميزون.

• أقول: وفيه تأييد لما قدمنا أن المراد بالدعوة بالإمام إحضارهم معه دون النداء بالاسم، والروايات في المعاني السابقة كثيرة.

ز. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ قال: قال: الجلدة التي في ظهر النواة.

ح. وفي تفسير العياشي، عن المثنى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأله أبو بصير وأنا أسمع،

فقال له: رجل له مائة ألف، فقال: العام أحج العام أحج حتى يجيئه الموت، فحجبه البلاء ولم يحج حج الإسلام، فقال: يا با بصير أوما سمعت قول الله، ﴿مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ عمي عن فريضة من فرائض الله.

٤٧. تثبيت الله لنبيه ومنعه من الركون:

المقطع [٤٧] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٧٢»:

١. تذكر الآيات بعض مكر المشركين بالقرآن وبالنبي ﷺ، بعد ما ذمتهم على تماديهم في إنكار التوحيد والمعاد واحتجت عليهم في ذلك، حيث أرادوا أن يفتنوا النبي ﷺ عن بعض ما أوحي إليه ليداهنهم فيه بعض المداهنة، وأرادوا أن يخرجوه من مكة، وقد أوعد الله النبي ﷺ أشد الوعيد إن مال إلى الركون إليهم بعض الميل، وأوعدهم أن أخرجوا النبي ﷺ بالهلاك، وفي الآيات إيصاء النبي ﷺ بالصلوات والالتجاء بربه في مدخله ومخرجه وإعلام ظهور الحق.

٢. ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾:

أ. إن مخففة بدليل اللام في ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ والفتنة الإزلال والصرف، والخليل من الخلة بمعنى الصداقة وربما قيل: هو من الخلة بمعنى الحاجة وهو بعيد.

ب. وظاهر السياق أن المراد بالذي أوحينا إليك القرآن بما يشتمل عليه من التوحيد ونفي الشريك والسيرة الصالحة وهذا يؤيد ما ورد في بعض أسباب النزول أن المشركين سألوا النبي ﷺ أن يكف عن ذكر آلهتهم بسوء ويبعد عن نفسه عبيدهم المؤمنين به والسقاط حتى يجالسوه ويسمعوا منه فنزلت الآيات.

ج. والمعنى: وإن المشركين اقتربوا أن يزلوك ويصرفوك عما أوحينا إليك لتتخذ من السيرة والعمل ما يخالفه فيكون في ذلك افتراء علينا لانتسابه بعملك إلينا وإذا لاتخذوك صديقا.

٣. ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾:

أ. التثبيت، كما يفيده السياق، هو العصمة الإلهية وجعل جواب لولا قوله: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ﴾

دون نفس الركون والركون هو الميل أو أدنى الميل كما قيل دليل على أنه ﷺ لم يركن ولم يكد، ويؤكده إضافة الركون إليهم دون إجابتهم إلى ما سألوه.

ب. والمعنى: ولولا أن ثبتناك بعصمتنا دنوت من أن تميل إليهم قليلا لكنا ثبتناك فلم تدن من أدنى الميل إليهم فضلا من أن تجيبهم إلى ما سألوا فهو ﷺ لم يجبهم إلى ما سألوا ولا مال إليهم شيئا قليلا ولا كاد أن يميل.

٤. ﴿إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً﴾:

أ. سياق الآية سياق توعد فالمراد بضعف الحياة والممات المضاعف من عذاب الحياة والممات، والمعنى لو قارنت أن تميل إليهم بعض الميل لأذقناك الضعف من العذاب الذي نعذب به المجرمين في حياتهم والضعف مما نعذبهم به في مماتهم أي ضعف عذاب الدنيا والآخرة.

ب. ونقل في المجمع: (عن أبان بن تغلب أن المراد بالضعف العذاب المضاعف ألمه والمعنى لأذقناك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وأنشد قول الشاعر:

لمقتل مالك إذ بان، مني... أبيت الليل في ضعف أليم

أي في عذاب أليم.

ج. وما في ذيل الآية من قوله: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً﴾ تشديد في الإيعاد أي إن العذاب واقع حينئذ لا مخلص منه.

٥. ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾:

أ. الاستفزاز الإزعاج والتحريك بخفة وسهولة، واللام في ﴿الْأَرْضِ﴾ للعهد والمراد بها مكة، والخلاف بمعنى بعد، والمراد بالقليل اليسير من الزمان.

ب. والمعنى وإن المشركين قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لإخراجك منها ولو كان منهم وخرجت منها لم يمكثوا بعدك فيها إلا قليلا فهم هالكون لا محالة.

ج. وقيل: هؤلاء الذين كادوا يستفزونه هم اليهود أرادوا أن يخرجوه من المدينة وقيل: المراد المشركون واليهود أرادوا جميعا أن يخرجوه من أرض العرب.

د. ويبعد ذلك أن السورة مكية والآيات ذات سياق واحد وابتلاء النبي ﷺ باليهود إنما كان بالمدينة

بعد الهجرة.

٦. ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً﴾:

أ. التحويل نقل الشيء من حال، إلى حال، وقوله: ﴿سُنَّةَ﴾ أي كسنة من قد أرسلنا وهو متعلق بقوله: ﴿لا يَلْبَثُونَ﴾ أي لا يلبثون بعدك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا.

ب. وهذه السنة وهي إهلاك المشركين الذين أخرجوا رسولهم من بلادهم وطردوه من بينهم سنة الله سبحانه، وإنما نسبها إلى رسله لأنها مسنونة لأجلهم بدليل قوله بعد: ﴿وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]

ج. والمعنى: وإذا نهلكهم لسنتنا التي سنناها لأجل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا وأجريناها ولست تجد لسنتنا تحويلا وتبديلا.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ الآيات، أنهم قالوا له: كف عن شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا، واطرد هؤلاء العبيد والسقاط الذين رائحتهم رائحة الصنان، حتى نجالسك ونسمع منك فطمع في إسلامهم فنزلت الآية:

ب. وروي في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم عن سعيد بن نفير ما يقرب منه:، وأما ما روي عن ابن عباس: أن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالا من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: تعال فاستلم آلهتنا وندخل معك في دينك، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيراً﴾ فلا يلائم ظاهر الآيات حيث تنفي عن النبي ﷺ أن يقارب الركون فضلا عن الركون.

ج. وكذا ما رواه الطبري وابن مردويه عن ابن عباس: أن ثقيفا قالوا للنبي ﷺ: أجلنا سنة حتى يهدي لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدي للآلهة أحرزناه، ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهم أن يؤجلهم فنزلت: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية.

د. وكذا ما في تفسير العياشي، عن أبي يعقوب عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية قال: لما كان

يوم الفتح أخرج رسول الله ﷺ أصناما من المسجد، وكان منها صنم على المروة فطلبت إليه قريش أن يتركه وكان مستحيا، ثم أمر بكسره فنزلت هذه الآية.

• ونظيرهما أخبار أخر تقرب منها معنى فهذه روايات لا تلائم ظاهر الكتاب وحاشا رسول الله ﷺ أن يهم بمثل هذه البدع والله سبحانه ينفي عنه المقارنة من الركون والميل اليسير فضلا أن يهم بالعمل.

• على أن هذه القضايا من الحوادث الواقعة بعد الهجرة والسورة مكية.

هـ. وفي العيون، بإسناده عن علي بن محمد بن الجهم عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: مما سأله المأمون فقال له: أخبرني عن قول الله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ قال الرضا عليه السلام هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله بذلك نبيه وأراد به أمته، وكذلك قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ قال: صدقت يا ابن رسول الله.

و. وفي المجمع: عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿إِذاً لَأَذَقْنَاكَ﴾ الآية، قال: إنه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدا.

٤٨. محاولة إخراج النبي وسنة الله في الرسل:

المقطع [٤٨] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦-٧٧]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يُخبر الله نبيه أن المشركين كادوا أن يزعجوه ويُفزعوه من أرض مكة ليُخرجوه منها، لكن لو تمّ ذلك لما لبثوا فيها بعده إلا زمنًا قليلًا حتى ينزل بهم العذاب، وهذه سنة الله فيمن يخرج رسله من ديارهم، كما فعل بقوم نوح وهود وصالح وشعيب، وسنة الله ثابتة لا تبديل لها ولا تحويل.

٢. وهي تشير إلى:

أ. أن كيد المشركين ومكرهم لا يضر النبي صلى الله عليه وسلم ما دام الله ناصره وحافظه.

ب. أن إخراج النبي من بلده ليس نصرًا للأعداء، بل هو سبب في هلاكهم وإزالة ملكهم.

ج. أن سنن الله في الأمم السابقة مطردة، فلا تتغير ولا تتبدل، فمن آذى رسول الله أو أخرجه

حلّت به العقوبة.

د. الاطمئنان إلى وعد الله وعدله، وأن الظلم لا يدوم، والنصر للرسل والمؤمنين.

هـ. تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه بأن العاقبة للمتقين، وأن الله لا يخلف وعده.

٤٩. فضل صلاة الفجر وأوقات الصلاة:

المقطع [٤٩] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٧٤»:

١. ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (الدلوك الزوال، وقال المبرد: دلوك الشمس من لدن زوالها إلى غروبها، وقيل: هو الغروب وأصله من الدلك فسمي الزوال دلوكا لأن الناظر إليها يدلك عينيه لشدة شعاعها، وسمي الغروب دلوكا لأن الناظر يدلك عينيه ليثبتها)

ب. وقال فيه: غسق الليل ظهور ظلامه يقال: غسقت القرحة إذا انفجرت فظهر ما فيها)، وفي المفردات: (غسق الليل شدة ظلمته)

ج. وقد اختلف المفسرون في تفسير صدر الآية والمروي عن أئمة أهل البيت عليه السلام من طرق الشيعة تفسير دلوك الشمس بزوالها وغسق الليل بمنتصفه، وسيجيء الإشارة إلى الروايات في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

د. وعليه فالآية تشمل من الوقت ما بين زوال الشمس ومنتصف الليل، والواقع في هذا المقدار من الوقت من الفرائض اليومية أربع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، وبانضمام صلاة الصبح المدلول عليها بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ إليها تتم الصلوات الخمس اليومية.

هـ. ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ معطوف على الصلاة أي وأقم قرآن الفجر والمراد به صلاة الصبح لما تشتمل عليه من القرائة وقد اتفقت الروايات على أن صلاة الصبح هي المراد بقرآن الفجر.

و. وكذا اتفقت الروايات من طرق الفريقين على تفسير قوله ذيلا: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً﴾ بأنه يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، وسنشير إلى بعض هذه الروايات عن قريب إن شاء الله.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين عليه السلام قال: قلت له: متى فرضت الصلاة على المسلمين على ما هم اليوم عليه؟ قال: بالمدينة حين ظهرت الدعوة وقوي الإسلام، فكتب الله على المسلمين الجهاد، وزاد في الصلاة رسول الله ﷺ سبع ركعات في الظهر ركعتين، وفي العصر ركعتين، وفي المغرب ركعة، وفي العشاء ركعتين، وأقر الفجر على ما فرضت عليه بمكة، لتعجيل نزول ملائكة النهار إلى الأرض، وتعجيل عروج ملائكة الليل إلى السماء، فكان ملائكة الليل وملائكة النهار، يشهدون مع رسول الله الفجر فلذلك قال الله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً﴾ يشهد المسلمون ويشهد ملائكة الليل والنهار.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ قال: (ففي الآية بيان وجوب الصلوات الخمس وبيان أوقاتها: ويؤيد ذلك ما رواه العياشي بالإسناد عن عبيدة بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية)، قال: إن الله افترض أربع صلوات أول وقتها من زوال الشمس إلى انتصاف الليل منها صلاتان أول وقتهما من عند زوال الشمس إلى غروبها إلا أن هذه قبل هذه، ومنها صلاتان أول وقتهما من غروب الشمس إلى انتصاف الليل إلا أن هذه قبل هذه.

ج. أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت، فصلى بي الظهر.

د. أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً﴾ قال: يشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار.

• أقول: تفسير كون قرآن الفجر مشهودا في روايات الفريقين بشهادة ملائكة الليل وملائكة النهار يكاد يبلغ حد التواتر، وقد أضيف إلى ذلك في بعضها شهادة الله كما في هذه الرواية، وفي بعضها شهادة المسلمين كما فيما تقدم.

٥٠. تهجد الليل نافلة والمقام المحمود:

المقطع [٥٠] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٧٥»:

١. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾:

أ. التهجد من الهجود وهو النوم في الأصل ومعنى التهجد التيقظ والسهر بعد النوم على ما ذكره غير واحد منهم، والضمير في ﴿بِهِ﴾ للقرآن أو للبعض المفهوم من قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ والنافلة من النفل وهو الزيادة، وربما قيل: إن قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ من قبيل الإغراء نظير قولنا: عليك بالليل، والفاء في قوله: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ نظير قوله: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]

ب. والمعنى: وأسهر بعض الليل بعد نومتك بالقرآن، وهو الصلاة، حال كونها صلاة زائدة لك على الفريضة.

٢. ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾:

أ. من الممكن أن يكون المقام مصدرا ميميا وهو البعث فيكون مفعولا مطلقا ليبعثك من غير لفظه، والمعنى عسى أن يبعثك ربك بعثا محمودا، ومن الممكن أن يكون اسم مكان والبعث بمعنى الإقامة أو مضمنا معنى الإعطاء ونحوه، والمعنى عسى أن يقيمك ربك في مقام محمود أو يبعثك معطيا لك مقاما محمودا أو يعطيك باعثا مقاما محمودا.

ب. وقد وصف سبحانه مقامه بأنه محمود وأطلق القول من غير تقييد وهو يفيد أنه مقام يحمده الكل ولا يثني عليه الكل إلا إذا استحسنه الكل وانتفع به الجميع ولذا فسروا المقام المحمود بأنه المقام الذي يحمده عليه جميع الخلائق وهو مقام الشفاعة الكبرى له ﷺ يوم القيامة وقد اتفقت على هذا التفسير الروايات من طرق الفريقين عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن عبيد بن زرارة قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المؤمن هل له شفاعة؟ قال: نعم، فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد ﷺ؟ قال: نعم للمؤمنين خطايا وذنوب، وما من أحد إلا ويحتاج إلى شفاعة محمد ﷺ يومئذ، قال: وسأله رجل عن قول رسول الله ﷺ: أنا سيد ولد آدم ولا فخر قال: نعم، يأخذ حلقة من باب الجنة فيفتحها فيخر ساجدا فيقول: الله: ارفع رأسك اشفع تشفع اطلب تعط فيرفع رأسه، ثم يخر ساجدا فيقول الله: ارفع رأسك اشفع تشفع واطلب تعط، ثم يرفع رأسه فيشفع يشفع (فيشفع) ويطلب فيعطى.

ب. وفيه، عن سماعة بن مهران عن أبي إبراهيم عليه السلام: في قول الله ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين يوما، وتؤمر الشمس فنزلت على رءوس العباد ويلجم العرق، وتؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئا، فيأتون آدم فيشفعون له فيدلهم على نوح، ويدلهم نوح على إبراهيم، ويدلهم إبراهيم على موسى ويدلهم موسى على عيسى، ويدلهم عيسى على محمد ﷺ فيقول: عليكم بمحمد خاتم النبيين، فيقول محمد ﷺ: أنا لها، فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق فيقال له: من هذا؟ والله أعلم فيقول محمد: افتحوا فإذا فتح الباب استقبل ربه فخر ساجدا، فلا يرفع رأسه حتى يقال له تكلم وسل تعط واشفع تشفع، فيرفع رأسه فيستقبل ربه فيخر ساجدا فيقال له مثلها، فيرفع رأسه حتى أنه ليشفع من قد أحرق بالنار، فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد ﷺ، وهو قول الله تعالى: ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾

• أقول: وقوله: (حتى أنه ليشفع من قد أحرق بالنار) أي بعض من أدخل النار، وفي معنى هذه الرواية عدة روايات من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ.

ج. أخرج البخاري وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الإذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم عليه السلام فيقول: لست بصاحب ذلك ثم موسى عليه السلام فيقول مثل ذلك ثم محمد ﷺ، فيشفع فيقضي الله بين الخلائق فيمشي، حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاما.

د. أخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: المقام المحمود الشفاعة.

هـ. أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي الوقاص قال: سئل رسول الله ﷺ عن المقام المحمود فقال: هو الشفاعة.

• أقول: والروايات في المضامين السابقة كثيرة.

٥١. طلب مدخل ومخرج الصدق:

المقطع [٥١] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان:

١٣/ ١٧٦»:

١. ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾:

أ. المدخل بضم الميم وفتح الخاء مصدر ميمي بمعنى الإدخال ونظيره المخرج بمعنى الإخراج، والعناية في إضافة الإدخال والإخراج إلى الصدق أن يكون الدخول والخروج في كل أمر منعوتا بالصدق جاريا على الحقيقة من غير أن يخالف ظاهره باطنه أو يضاد بعض أجزائه بعضا كأن يدعو الإنسان بلسانه إلى الله وهو يريد بقلبه أن يسود الناس أو يخلص في بعض دعوته لله ويشرك في بعضها غيره.

ب. وبالجملة هو أن يرى الصدق في كل مدخل منه ومخرج ويستوعب وجوده فيقول ما يفعل ويفعل ما يقول ولا يقول ولا يفعل إلا ما يراه ويعتقد به، وهذا مقام الصديقين.

ج. ويرجع المعنى إلى نحو قولنا: اللهم تول أمري كما تتولى أمر الصديقين.

٢. ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾:

أ. أي سلطنة بنصرتي على ما أهم به من الأمور وأشتغل به من الأعمال فلا أغلب في دعوتي بحجة باطلة، ولا أفتتن بفتنة أو مكر يمكرني به أعداؤك ولا أضل بنزغ شيطان ووسوسته.

ب. والآية، كما ترى، مطلقة تأمر النبي ﷺ أن يسأل ربه أن يتولى أمره في كل مدخل ومخرج بالصدق ويجعل له سلطانا من عنده ينصره فلا يزيغ في حق ولا يظهر بباطل فلا وجه لما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالدخول والخروج دخول المدينة بالهجرة والخروج منها إلى مكة للفتح أو أن المراد بهما دخول القبر بالموت والخروج منه بالبعث.

ج. نعم لما كانت الآية بعد قوله: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ وفي سياقهما، لوحت إلى أمره ﷺ أن يلتجئ إلى ربه في كل أمر يهم به أو يشتغل به من أمور الدعوة، وفي الدخول والخروج في كل مكان يسكنه أو يدخله أو يخرج منه وهو ظاهر.

٥٢. مجيء الحق وزهوق الباطل:

المقطع [٥٢] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٧٧»:

١. ﴿وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾ قال في المجمع: (الزهوق هو الهلاك والبطلان يقال: زهقت نفسه إذا خرجت فكأنها قد خرجت إلى الهلاك) والمعنى ظاهر.

٢. وفي الآية أمره ﷺ بإعلام ظهور الحق وهو لوقوع الآية في سياق ما مر من قوله: (وإن كادوا ليفتنونك) إلى آخر الآيات أمر بإياس المشركين من نفسه وتنبيههم أن يوقنوا أن لا مطمع لهم فيه ﷺ.

٣. وفي الآية دلالة على أن الباطل لا دوام له كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]

٥٣. القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين:

المقطع [٥٣] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٨٢»:

١. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾:

أ. من بيانية تبين الموصول أعني قوله: ﴿ما هُوَ شِفاءٌ﴾ أي وننزل ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن.

ب. وعد القرآن شفاء والشفاء إنما يكون عن مرض دليل على أن للقلوب أحوالا نسبة القرآن إليها نسبة الدواء الشافي إلى المرض، وهو المستفاد من كلامه سبحانه حيث ذكر أن الدين الحق فطري للإنسان فكما أن للبنية الإنسانية التي سويت على الخلقة الأصلية قبل أن يلحق بها أحوال منافية وآثار مغايرة للتسوية الأولية استقامة طبيعية تجري عليها في أطوار الحياة كذلك لها بحسب الخلقة الأصلية عقائد حقة في المبدإ والمعاد وما يتفرع عليهما من أصول المعارف، وأخلاق فاضلة زاكية تلائمها ويترتب عليها من الأحوال والأعمال ما يناسبها.

ج. فللإنسان صحة واستقامة روحية معنوية كما أن له صحة واستقامة جسمية صورية، وله أمراض وأدواء روحية باختلال أمر الصحة الروحية كما أن له أمراضا وأدواء جسمية باختلال أمر الصحة الجسمية ولكل داء دواء ولكل مرض شفاء.

د. وقد ذكر الله سبحانه في أناس من المؤمنين أن في قلوبهم مرضا وهو غير الكفر والنفاق الصريحين كما يدل عليه قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠] وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً﴾ [المدثر:

هـ. وليس هذا المسمى مرضا إلا ما يختل به ثبات القلب واستقامة النفس من أنواع الشك والريب الموجبة لاضطراب الباطن وتزلزل السر والميل إلى الباطل واتباع الهوى مما يجامع إيمان عامة المؤمنين من أهل أدنى مراتب الإيمان ومما هو معدود نقصا وشركا بالإضافة إلى مراتب الإيمان العالية، وقد قال تعالى: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وقال: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]

و. والقرآن الكريم يزيل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة أنواع الشكوك والشبهات المعترضة في طريق العقائد الحقة والمعارف الحقيقية ويدفع بمواعظه الشافية وما فيه من القصص والعبر والأمثال والوعد والوعيد والإنذار والتبشير والأحكام والشرائع عاهات الأفئدة وآفاتها فالقرآن شفاء للمؤمنين.

ز. وأما كونه رحمة للمؤمنين، والرحمة إفاضة ما يتم به النقص ويرتفع به الحاجة، فلأن القرآن ينور القلوب بنور العلم واليقين بعد ما يزيل عنها ظلمات الجهل والعمى والشك والريب ويحليها بالملكات الفاضلة والحالات الشريفة الزاكية بعد ما يغسل عنها أوساخ الهيآت الردية والصفات الخسيسة.

ح. فهو بما أنه شفاء يزيل عنها أنواع الأمراض والأدواء، وبما أنه رحمة يعيد إليها ما افتقدته من الصحة والاستقامة الأصلية الفطرية فهو بكونه شفاء يطهر المحل من الموانع المضادة للسعادة ويهيئها لقبولها، وبكونه رحمة يلبسه لباس السعادة وينعم عليه بنعمة الاستقامة.

ط. فالقرآن شفاء ورحمة للقلوب المريضة كما أنه هدى ورحمة للنفوس غير الآمنة من الضلال، وبذلك يظهر النكتة في ترتب الرحمة على الشفاء في قوله: ﴿ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو كقوله: ﴿هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٦]

ي. فمعنى قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وننزل إليك أمرا يشفي أمراض القلوب ويزيلها ويعيد إليها حالة الصحة والاستقامة فتتمتع من نعمة السعادة والكرامة.

٢. ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾:

أ. السياق دال على أن المراد به بيان ما للقرآن من الأثر في غير المؤمنين قبال ما له من الأثر الجميل في المؤمنين فالمراد بالظالمين غير المؤمنين وهم الكفار دون المشركين خاصة كما يظهر من بعض المفسرين

وإنما علق الحكم بالوصف أعني الظلم ليشعر بالتعليل أي أن القرآن إنما يزيدهم خسارا لمكان ظلمهم بالكفر.

ب. والخسار هو النقص في رأس المال فللكفار رأس مال بحسب الأصل وهو الدين الفطري تلهم به نفوسهم الساذجة ثم إنهم بكفرهم بالله وآياته خسروا فيه ونقصوا، ثم إن كفرهم بالقرآن وإعراضهم عنه بظلمهم يزيدهم خسارا على خسار ونقصا على نقص إن كانت عندهم بقية من موهبة الفطرة، وإلى هذه النكتة يشير سياق النفي والاستثناء حيث قيل: ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ ولم يقل: ويزيد الظالمين خسارا.

ج. وبه يظهر أن محصل معنى الآية أن القرآن يزيد المؤمنين صحة واستقامة على صحتهم واستقامتهم بالإيمان وسعادة على سعادتهم وإن زاد الكافرين شيئا فإنما يزيدهم نقصا وخسارا.

٣. وللمفسرين في معنى صدر الآية وذيلها وجوه أخر أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فليراجع مسفوراتهم، ومما ذكروه فيها أن المراد بالشفاء في الآية أعم من شفاء الأمراض الروحية من الجهل والشبهة والريب والملكات النفسانية الرذيلة وشفاء الأمراض الجسمية بالتبرك بآياته الكريمة قراءة وكتابة هذا، ولا بأس به لكن لو صح التعميم فليصح في الصدر والذيل جميعا فإنه كما يستعان به على دفع الأمراض والعاهات بقراءة أو كتابة كذلك يستعان به على دفع الأعداء ورفع ظلم الظالمين وإبطال كيد الكافرين فيزيد بذلك الظالمين خسارا كما يفيد المؤمنين شفاء هذا، ونسبة زيادة خسارهم إلى القرآن مع أنها مستندة بالحقيقة إلى سوء اختيارهم وشقاء أنفسهم إنما هي بنوع من المجاز.

٥٤. طبيعة الإنسان بين الكفر واليأس:

المقطع [٥٤] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٣-٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٨٥»:

١. ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً﴾

أ. قال في المفردات: (العرض خلاف الطول وأصله أن يقال في الأجسام ثم يستعمل في غيرها، إلى أن قال، وأعرض أظهر عرضه أي ناحيته فإذا قيل: أعرض لي كذا أي بدا عرضه فأمكن تناوله، وإذا قيل:

أعرض عني فمعناه ولى مبديا عرضه)

ب. والنأي البعد ونأى بجانبه أي اتخذ لنفسه جهة بعيدة منا، ومجموع قوله: ﴿أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ﴾ يمثل حال الإنسان في تباعده وانقطاعه من ربه عند ما ينعم عليه، كمن يحول وجهه عن صاحبه ويتخذ لنفسه موقفا بعيدا منه، وربما ذكر بعض المفسرين أن قوله: ﴿نَأى بِجانِبِهِ﴾ كناية عن الاستكبار والاستعلاء.

ج. ﴿وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً﴾ أي وإذا أصابه الشر أصابة خفيفة كالمس كان آيسا منقطع الرجاء عن الخير وهو النعمة، ولم ينسب الشر إليه تعالى كما نسب النعمة تنزيها له تعالى من أن يسند إليه الشر، ولأن وجود الشر أمر نسبي لا نفسي فما يتحقق من الشر في العالم كالموت والمرض والفقر والنقص وغير ذلك إنما هو شر بالنسبة إلى مورده، وأما بالنسبة إلى غيره وخاصة النظام العام الجاري في الكون فهو من الخير الذي لا مناص عنه في التدبير الكلي فما كان من الخير فهو مما تعلقت به بعينه العناية الإلهية وهو مراد بالذات، وما كان من الشر فهو مما تعلقت به العناية لغيره وهو مقضي بالعرض.

د. فالمعنى أنا إذا أنعمنا على الإنسان هذا الموجود الواقع في مجرى الأسباب اشتغل بظواهر الأسباب وأخلد إليها فنسينا فلم يذكرنا ولم يشكرنا، وإذا ناله شيء يسير من الشر فسلب منه الخير وزالت عنه أسبابه ورأى ذلك كان شديد اليأس من الخير لكونه متعلقا بأسبابه وهو يرى بطلان أسبابه ولا يرى لربه في ذلك صنعا.

هـ. والآية تصف حال الإنسان العادي الواقع في المجتمع الحيوي الذي يحكم فيه العرف والعادة فهو إذا توالت عليه النعم الإلهية من المال والجاه والبنين وغيرها ووافقته على ذلك الأسباب الظاهرية اشتغل بها وتعلق قلبه بها فلم تدع له فراغا يشتغل فيه بذكر ربه وشكره بما أنعم عليه، وإذا مسه الشر وسلب عنه بعض النعم الموهوبة أيس من الخير ولم يتسل بالرجاء لأنه لا يرى للخير إلا الأسباب الظاهرية التي لا يجد وقتئذ شيئا منها في الوجود.

و. وهذه الحال غير حال الإنسان الفطري غير المشوب ذهنه بالرسوم والآداب ولا الحاكم فيه العرف والعادة إما بتأييد إلهي يلازمه ويسدده وإما بعروض اضطرار ينسيه الأسباب الظاهرية فيرجع إلى سذاجة فطرته ويدعو ربه ويسأله كشف ضره فللإنسان حالان حال فطرية تهديه إلى الرجوع إلى ربه عند

مس الضر ونزول الشر وحال عادية تحول فيها الأسباب بينه وبين ربه فتشغله وتصرفه عن الرجوع إليه بالذكر والشكر، والآية تصف حاله الثانية دون الأولى.

ز. ومن هنا يظهر أن لا منافاة بين هذه الآية والآيات الدالة على أن الإنسان إذا مسه الضر رجع إلى ربه كقوله تعالى فيما تقدم: ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية وقوله: ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً﴾ الآية: [يونس: ١٢] إلى غير ذلك.

ح. ويظهر أيضا وجه اتصال الآية بما قبلها وأنها متصلة بالآية السابقة من جهة ذيلها أعني قوله: ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ والمحصل أن هذا الخسار غير بعيد منهم فإن من حال الإنسان أن يشغله الأسباب الظاهرية عند نزول النعم الإلهية فينصرف عن ربه ويعرض وينأى بجانبه، وييأس عند مس الشر.

٢. وضع هنا مبحثا حول [الشرور داخلة في القضاء الإلهي بالعرض]، خلاصته:

أ. الشر عند الفلاسفة هو عدم، وقد بين ذلك بالأمثلة: فالقتل بالسيف مثلاً، ليس الشر في قدرة الضارب، ولا في حدة السيف، ولا في انفعال رقبة المقتول، بل الشر هو زهاق روح المقتول وبطلان حياته، وهو عدمي.

ب. الشرور التي في العالم هي أعدام مضافة (ليست عدماً مطلقاً)، كالفقد والنقص والموت والفساد، وهي داخلة في القضاء الإلهي بالعرض لا بالذات، لأن العلة التامة للوجود هي الله، وعلة العدم هي عدم القابلية وقصور الاستعداد.

ج. الأمور على خمسة أقسام: خير محض، وخيره أكثر من شره، ومتساوي الخير والشر، وشره أكثر من خيره، وشر محض، والثلاثة الأخيرة لا توجد لاستلزامها الترجيح بلا مرجح، والحكمة الإلهية تقتضي إفاضة ما هو الأصلح في النظام الأتم (الخير المحض، وما خيره أكثر من شره)

د. الشر القليل يوجد بتبع الخير الكثير، وهو قليل نادر بالنسبة إلى الخير، وإنما وجد لارتباطه بالنظام العام الذي لا يتم إلا به.

هـ. نقد قول الإمام الرازي: أنه قال إن الفلاسفة لما قالوا بالإيجاب والجبر، فخوضهم في هذا المبحث فضول وضلال، وهذا ناشئ من التعصب، لأن محققيهم يثبتون الاختيار، وليس صدور الأفعال

من الله كصدور الإحراق من النار، وبحثهم في كيفية وقوع الشر كان لدفع ما افترته الثنوية من مبدأين خيري وشري.

٣. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ وبيان حقيقة الشاكلة الإنسانية]، خلاصته:

أ. بيان معنى الشاكلة لغةً، وأنها السجية والطريقة والمذهب، وهي التي تقيد الإنسان وتحدد مساره السلوكي.

ب. إثبات أن العمل يصدر عن الشاكلة، وأن الشاكلة تتكون من تفاعل البنية الخلقية مع العوامل الخارجية، وأنها على نحو الاقتضاء لا العلية التامة.

ج. توضيح أن الشاكلة لا تلغي الاختيار، بل الفعل باقٍ على اختياريته، وإن كان صعباً في بعض الموارد، بدليل قوله: (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

د. بيان أن هناك شاكلتين للإنسان: شاكلة خلقية ناشئة من التركيب البدني، وشاكلة ثانية ناشئة من العوامل الخارجية، والأعمال تجري على هاتين الشاكلتين.

هـ. الرد على من زعم أن السعادة والشقاوة ذاتيتان أو مقضيتان بقضاء أزلي، وأن الدعوة لإتمام الحجة فقط، وبيان أن صحة إقامة الحجة تكشف عن عدم ضرورية السعادة والشقاوة.

و. توضيح أن الآية في سياق بيان أن المؤمنين ينتفعون بالقرآن شفاءً ورحمة، والظالمين يزدادون خساراً، وأن ذلك بسبب اختلاف شاكلتهم.

ز. نقد قول الرازي بأن الآية تدل على اختلاف ماهيات النفوس، وبيان أن الاختلاف إنما هو بعد رسوخ الملكات، لا في النفوس الساذجة.

٤. وضع هنا مبحثا حول [السنخية بين الفعل والفاعل]، خلاصته:

أ. الحكماء أثبتوا سنخية وجودية ورابطة ذاتية بين الفعل وفاعله (أي المعلول وعلته الفاعلة)، بحيث يصير وجود الفعل كأنه مرتبة نازلة من وجود فاعله، ووجود الفاعل كأنه مرتبة عالية من وجود

فعله، وذلك بناء على أصالة الوجود وتشكيكه.

ب. لو لم تكن بين الفعل وعلته مناسبة ذاتية وخصوصية واقعية، كانت نسبة الفاعل إلى فعله كنسبته إلى غيره، ولم يكن لاستناد صدور الفعل إلى فاعله معنى.

ج. صدر المتألهين (الملا صدرا) بين ذلك بوجه أدق: المعلول مفتقر في وجوده إلى العلة، متعلق الذات بها، ولا يجوز أن يتأخر هذا الفقر عن مرتبة ذاته، وإلا استغنى بحسب ذاته عن العلة، فذاته عين الفقر والتعلق، فليس له من الوجود إلا الرابط غير المستقل، وما يتراءى فيه من استقلال إنما هو استقلال علته.

د. القرآن الكريم يعد الأشياء آيات لله دالة على أسمائه وصفاته، فما من شيء إلا وهو آية في وجوده وفي أي جهة مفروضة من وجوده لله، مشيرة إلى ساحة عظمته، والآية من حيث إنها آية، وجودها مرآتي، غير مستقلة عن مدلولها، إذ لو استقلت في وجودها لم تكن مشيرة إليه.

هـ. الأشياء بما هي مخلوقة لله، تحاكي بوجودها وصفات وجودها وجوده سبحانه وكرائم صفاته، وهذا هو المراد بمسانخة الفعل لفاعله، لا أن الفعل واجد لهوية الفاعل مماثل لحقيقة ذاته، فإن الضرورة تدفع ذلك.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: قال: النية أفضل من العمل ألا وإن النية هي العمل، ثم قرأ قوله عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ﴾ يعني على نيته.

• أقول: وقوله: إن النية هي العمل يشير إلى اتحادهما اتحاد العنوان ومعنونه.

ب. وفيه، بإسناده عن أبي هاشم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنما خلد أهل النار في النار، لأن نياتهم كانت في الدنيا، أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبدا، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا، أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبدا، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ﴾ قال: على نيته.

• أقول: إشارة إلى رسوخ الملكات بحيث يبطل في النفس استعداد ما يقابلها وروى الرواية العياشي أيضا في تفسيره، عن أبي هاشم عنه عليه السلام.

٥٥. الروح من أمر الله وعلم الإنسان قليل:

المقطع [٥٥] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ١٩٥»:

١. ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى الروح في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ وبيان حقيقته في القرآن]، خلاصته:

أ. بيان أن الروح في القرآن ليس مقصوراً على الروح الحيواني، بل له مراتب متعددة: روح القدس، والروح الأمين، والروح المؤيد للمؤمنين، والروح المنفوخ في الإنسان.

ب. إثبات أن الروح من سنخ الأمر الإلهي، والأمر هو كلمة الإيجاد التي لا تتوسط فيها الأسباب الكونية، وهو الوجود الأرفع من نشأة المادة.

ج. توضيح أن قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ليس تركاً للبيان، بل بيان لحقيقة الروح وأنه من سنخ الأمر، وهو ما لا يحيط به علم البشر.

د. الرد على الأقوال التي حصرت الروح في جبريل أو القرآن أو الروح الحيواني، وبيان أن الآية تشير إلى حقيقة وسيعة ذات مراتب.

هـ. بيان أن الروح غير الملائكة، وأنه خلق أعظم من جبريل وميكائيل، وهو مع الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

و. توضيح أن قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يشير إلى قصور العلم البشري عن إحاطة حقيقة الروح، وأن علمهم بالروح قليل بالنسبة لما له من خواص وآثار في الكون.

٢. وضع هنا مبحثا حول [الروح في القرآن]، خلاصته:

أ. الروح في اللغة هو مبدأ الحياة الذي به يقوى الحيوان على الإحساس والحركة الإرادية، وقد يتجوز فيطلق على الأمور التي يظهر بها آثار حسنة مطلوبة (كالوحي والقرآن) لأن بها حياة النفوس الميتة.

ب. الروح ورد في القرآن بمعانٍ متعددة: الروح الحيواني (مبدأ الحياة)، والروح المذكور مع

الملائكة (كقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾)، والروح المنفوخ في الإنسان (﴿نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾)، والروح المؤيد للمؤمنين (﴿أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾)، والروح المنزل على الأنبياء (روح القدس، الروح الأمين)

ج. الروح من سنخ الأمر، والأمر هو كلمة الإيجاد الإلهي التي لا تتوسط فيه الأسباب الكونية، وهو الوجود الأرفع من نشأة المادة وظرف الزمان، وهو ملكوت كل شيء.

د. الفرق بين الخلق والأمر: الخلق هو وجود الشيء من جهة استناده إلى الله مع توسط الأسباب الكونية فيه، والأمر هو وجود الشيء من جهة استناده إلى الله وحده دون توسط الأسباب.

هـ. لكل شيء ملكوت كما أن له أمراً، والروح بحسب وجوده من سنخ الأمر من الملكوت.

و. قوله: ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ يعني أن علم البشر بالروح قليل جداً، فإن للروح موقعاً من الوجود وخواص وآثاراً في الكون عجيبة بديعة، والناس عنها في حجاب.

٥٦. قدرة الله على الوحي ورحمته وفضله:

المقطع [٥٦] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٦-٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٠٠»:

١. ﴿وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَينا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً﴾:

أ. الكلام متصل بما قبله فإن الآية السابقة وإن كانت متعرضة لأمر مطلق الروح وهو ذو مراتب مختلفة إلا أن الذي ينطبق عليه منه بحسب سياق الآيات السابقة المسوقة في أمر القرآن هو الروح السماوي النازل على النبي ﷺ الملقي إليه القرآن.

ب. فالمعنى، والله أعلم، الروح النازل عليك الملقي بالقرآن إليك من أمرنا غير خارج من قدرتنا، وأقسم لئن شئنا لنذهبن بهذا الروح الذي هو كلمتنا الملقاة إليك ثم لا تجد أحدا يكون وكيلا به لك علينا يدافع عنك ويطالبنا به ويجبرنا على رد ما أذهبنا به.

٢. وبذلك يظهر:

أ. أولا: أن المراد بالذي أوحينا إليك الروح الإلهي الذي هي كلمة ملقاة من الله إلى النبي ﷺ على حد قوله: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ [الشورى: ٥٤]

ب. وثانيا: أن المراد بالوكيل للمطالبة والرد لما أذهبه الله دون الوكيل في حفظ القرآن وتلاوته على ما فسره بعض المفسرين وهو مبني على تفسير قوله: ﴿بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ بالقرآن دون الروح النازل به كما قدمنا.

٣. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ استثناء من محذوف يدل عليه السياق، والتقدير فما اختصصت بما اختصصت به ولا أعطيت ما أعطيت من نزول الروح وملازمته إياك إلا رحمة من ربك، ثم علله بقوله: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ وهو وارد مورد الامتنان.

٥٧. تحدّي الإنس والجن بالإتيان بمثل القرآن:

المقطع [٥٧] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٠١»:

١. ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الظهير هو المعين مأخوذ من الظهر كالرئيس من الرأس، وقوله: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر وضميره عائد إلى القرآن.

٢. وفي الآية تحد ظاهر، وهي ظاهرة في أن التحدي بجميع ما للقرآن من صفات الكمال الراجعة إلى لفظه ومعناه لا بفصاحته وبلاغته وحدها فإن انضمام غير أهل اللسان إليهم لا ينفع في معارضة البلاغة شيئا وقد اعتنت الآية باجتماع الثقلين وإعانة بعضهم لبعض.

٣. على أن الآية ظاهرة في دوام التحدي وقد انقرضت العرب العرباء أعلام الفصاحة والبلاغة اليوم فلا أثر منهم، والقرآن باق على إعجازه متحد بنفسه كما كان.

٥٨. تصريف المثل في القرآن واقتراحات الكافرين المعجزة:

المقطع [٥٨] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا

نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩-٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٠١»:

١. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾:

أ. تصريف الأمثال ردها وتكرارها وتحويلها من بيان إلى بيان ومن أسلوب إلى أسلوب، والمثل هو وصف المقصود بما يمثله ويقربه من ذهن السامع، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ لابتداء الغاية، والمراد من كل مثل يوضح لهم سبيل الحق ويمهد لهم طريق الإيمان والشكر بقرينة قوله: ﴿فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ والكلام مسوق للتوبيخ والملامة.

ب. وفي قوله: ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر والأصل أكثرهم ولعل الوجه فيه الإشارة إلى أن ذلك مقتضى كونهم ناسا كما مر في قوله: ﴿وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء: ٦٧]

ج. والمعنى: وأقسم لقد كررنا للناس في هذا القرآن من كل مثل يوضح لهم الحق ويدعوهم إلى الإيمان بنا والشكر لنعمنا فأبى أكثر الناس إلا أن يكفروا ولا يشكروا.

٢. ﴿وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾:

أ. الفجر الفتح والشق وكذلك التفجير إلا أنه يفيد المبالغة والتكثير، والينبوع العين التي لا ينضب ماؤها، وخلال الشيء وسطه وأثناؤه، والكسف جمع كسفة كقطع جمع قطعة وزنا ومعنى، والقبيل هو المقابل كالعشير والمعاشر، والزخرف، الذهب، والرقي الصعود والارتقاء.

ب. والآيات تحكي الآيات المعجزة التي اقترحتها قريش على النبي ﷺ وعلقوا إيمانهم به عليها مستهينة بالقرآن الذي هو معجزة خالدة.

ج. والمعنى ﴿وَقالُوا﴾ أي قالت قريش ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ يا محمد ﴿حَتَّى تَفْجُرَ﴾ وتشق ﴿لَنا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مكة لقلة مائها ﴿يَنْبُوعاً﴾ عينا لا ينضب ماؤها ﴿أَوْ تَكُونَ﴾ بالإعجاز ﴿لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ﴾ أي تشقها أو تجريها ﴿خِلالَها﴾ أي وسط تلك الجنة وأثناءها ﴿تَفْجِيراً﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ﴾ أي مماثلا لما زعمت يشيرون به إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ [السبا: ٩] ﴿عَلَيْنا كِسَفاً﴾ وقطعا ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ مقابلا نعاينهم ونشاهدهم ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ وذهب ﴿أَوْ تَرْقى﴾ وتصعد ﴿فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ وصعودك

﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا﴾ منها ﴿كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾ ونتلوه.

٣. ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾:

أ. فيه أمره ﷺ أن يجيب عما اقترحوه عليه وينبههم على جهلهم ومكابرتهم فيما لا يخفى على ذي نظر فإنهم سألوه أمورا عظاما لا يقوى على أكثرها إلا القدرة الغيبية الإلهية وفيها ما هو مستحيل بالذات كالإتيان بالله والملائكة قبيلا، ولم يرضوا بهذا المقدار ولم يقنعوا به دون أن جعلوه هو المسئول المتصدي لذلك المجيب لما سألوه فلم يقولوا لن نؤمن لك حتى تسأل ربك أن يفعل كذا وكذا بل قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ﴾ ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ﴾ ﴿أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾

ب. فإن أرادوا منه ذلك بما أنه بشر فأين البشر من هذه القدرة المطلقة غير المتناهية المحيطة حتى بالمحال الذاتي، وإن أرادوا منه ذلك بما أنه يدعي الرسالة فالرسالة لا تقتضي إلا حمل ما حمله الله من أمره وبعثه لتبليغه بالإنذار والتبشير لا تفويض القدرة الغيبية إليه وإقداره أن يخلق كل ما يريد، ويوجد كل ما شاءوا، وهو ﷺ لا يدعي لنفسه ذلك فاقتراحهم ما اقترحوه مع ظهور الأمر من عجيب الاقتراح.

ج. ولذلك أمره ﷺ أن يبادر في جوابهم:

• أولا: إلى تنزيه ربه مما يلوح إليه اقتراحهم هذا من المجازفة وتفويض القدرة إلى النبي ﷺ، ولا يبعد أن يستفاد منه التعجب فالمقام صالح لذلك.

• وثانيا: إلى الجواب بقوله في صورة الاستفهام: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ وهو يؤيد كون قوله: ﴿سُبْحانَ رَبِّي﴾ واقعا موقع التعجب أي إن كنتم اقترحتم على هذه الأمور وطلبتموها مني بما أنا محمد فإنما أنا بشر ولا قدرة للبشر على شيء من هذه الأمور، وإن كنتم اقترحتموها لأني رسول أدعي الرسالة فلا شأن للرسول إلا حمل الرسالة وتبليغها لا تقلد القدرة الغيبية المطلقة.

د. وقد ظهر بهذا البيان أن كلا من قوله: ﴿بَشَراً﴾ و﴿رَسُولاً﴾ دخيل في استقامة الجواب عن اقتراحهم أما قوله: ﴿بَشَراً﴾ فليرد به اقتراحهم عليه أن يأتي بهذه الآيات عن قدرته في نفسه، وأما قوله: ﴿رَسُولاً﴾ فليرد به اقتراح إيتائها عن قدرة مكتسبة من ربه.

هـ. وذكر بعضهم ما محصله أن معتمد الكلام هو قوله: ﴿رَسُولاً﴾ وقوله: ﴿بَشَراً﴾ توطئة له ردا

لما أنكروه من جواز كون الرسول بشرا، ودلالة على أن من قبله من الرسل كانوا كذلك، والمعنى على هذا هل كنت إلا بشرا رسولا كسائر الرسل وكانوا لا يأتون إلا بما أجراه على أيديهم من غير أن يفوض إليهم أو يتحكموا على ربهم بشيء، قال: وجعل ﴿بَشَراً﴾ و﴿رَسُولاً﴾ كليهما معتمدين مخالف لما يظهر من الآثار أولا فإن الذي ورد في الآثار أنهم سألوا النبي ﷺ أن يسأل ربه أن يفعل كذا وكذا، ولم يسألوه أن يأتيهم بشيء من قبل نفسه حتى يشار إلى رده بإثبات بشريته، ومستلزم لكون رسولا خبرا بعد خبر وكونهما خبرين لكان يأباه الذوق السليم)، وفيه:

• أولا: أن أخذ قوله: ﴿بَشَراً﴾ ردا على زعمهم عدم جواز كون الرسول بشرا مع عدم اشتمال الآيات على مزعمتهم هذه لا تصريحا ولا تلويحا تحميل من غير دليل.

• وثانيا: أن الذي ذكره في معنى الآية (هل كنت إلا بشرا رسولا كسائر الرسل وكانوا لا يأتون إلا كذا وكذا) معتمد الكلام فيه هو التشبيه الذي في قوله: (كسائر الرسل) لا قوله: ﴿رَسُولاً﴾ وفي حذف معتمد الكلام إفساد السياق فافهم ذلك.

• وثالثا: أن اشتمال الآثار على أنهم إنما سألوا النبي ﷺ أن يسأل ربه الإتيان بتلك الآيات من غير أن يسألوه نفسه أن يأتي بها، لا يعارض نص الكتاب بخلافه، والذي حكاه الله عنهم أنهم قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا﴾ ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ﴾ وهذا من عجيب المغالاة في حق الآثار وتحكيمها على كتاب الله وتقديمها عليه حتى في صورة المخالفة.

• ورابعا: أن إباء الذوق السليم عن تجويز كون ﴿رَسُولاً﴾ خبرا بعد خبر لا يظهر له وجه.

٥٩. حجة الله على الناس بإرسال بشر رسولاً:

المقطع [٥٩] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٠٤»:

١. ﴿وما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾:

أ. الاستفهام في قوله: ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ للإنكار، وجملة ﴿قالُوا أَبَعَثَ اللهُ﴾ حكاية حالهم

بحسب الاعتقاد وإن لم يتكلموا بهذه الكلمة بعينها.

ب. وإنكار النبوة والرسالة مع إثبات الإله من عقائد الوثنية، وهذه قرينة على أن المراد بالناس الوثنيون، والمراد بالإيمان الذي منعوه هو الإيمان بالرسول.

ج. فمعنى الآية وما منع الوثنيين، وكانت قريش وعامة العرب يومئذ منهم، أن يؤمنوا بالرسالة، أو برسالتك، إلا إنكارهم لرسالة البشر، ولذلك كانوا يردون على رسلهم دعوتهم، كما حكاه الله، بمثل قولهم: ﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤]

٢. ﴿قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ وبيان دلالته على ضرورة الرسالة]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية ترد على منكري رسالة البشر، وتثبت أن الحياة الأرضية المادية تستلزم هداية إلهية بوحي سماوي، وأن الرسالة ضرورية لكل نوع يعيش على الأرض.

ب. توضيح أن العناية الإلهية متعلقة بهداية أهل الأرض، ولا تتم هذه الهداية إلا بنزول وحي سماوي بواسطة ملك رسول.

ج. إثبات أن كون الرسول من جنس المرسل إليهم ليس هو المهم في الآية، بل المهم هو ضرورة النزول السماوي والوساطة الملكية.

د. بيان أن الملك النازل بالوحي لا يمسه إلا المطهرون من البشر، وهم الرسل الذين اصطفاهم الله لتلقي الوحي.

هـ. توضيح أن البرهان على ضرورة النبوة مبني على أن حياة الإنسان شعورية اجتماعية، ولا تكفي العقول وحدها لرفع الاختلافات، بل تحتاج إلى وحي إلهي.

و. بيان أن الآية تشير إلى أن رسالة الملك هي إلى عامة البشر، لكن الذي يصلح لتلقي الوحي هم الأنبياء فقط، والفيض الإلهي عام وإن كان المستفيض خاصاً.

ز. توضيح أن التعبير عن الحياة الأرضية بـ ﴿يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ إشارة لطيفة إلى خواص الحياة المادية، وأن الآية تؤيد الفرق بين الرسول والنبي: فالرسول يرى الملك ويسمع منه، والنبي يرى المنام.

٣. ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾:

أ. لما احتج عليهم بما احتج وبين لهم ما بين في أمر معجزة رسالته وهي القرآن الذي تحدى به وهم على عنادهم وجحودهم وعنتهم لا يعتنون به ويقترحون عليه بأمور جزافية أخرى ولا يحترمون لحق ولا ينقطعون عن باطل أمر أن يرجع الأمر إلى شهادة الله فهو شهيد بما وقع منه ومنهم فقد بلغ ما أرسل به ودعا واحتج وأعذر وقد سمعوا وتمت عليهم الحجة واستكبروا وعتوا فالكلام في معنى إعلام قطع المحاجة وترك المخاصمة ورد الأمر إلى مالك الأمر فليقض ما هو قاض.

ب. وقيل المراد بالآية الاستشهاد بالله سبحانه على حقية الدعوة وصحة الرسالة كأنه يقول: كفاني حجة أن الله شهيد على رسالتي فهذا كلامه يصرح بذلك فإن قلتم: ليس بكلامه بل مما افتريته فأتوا بمثله ولن تأتوا بمثله ولو كان الثقلان أعوانا لكم وأعضادا يمدونكم.

ج. وهذا في نفسه جيد غير أن ذيل الآية كما قيل لا يلائمه أعني قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ بل كان الأقرب أن يقال: شهيدا لي عليكم أو على رسالتي أو نحو ذلك.

د. وهذه الآية والآيتان قبلها مسجعة بقوله: ﴿رَسُولاً﴾ وهو المورد الوحيد في القرآن الذي اتفقت فيه ثلاث آيات متوالية في سجع واحد على ما نذكر.

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب، ورجلا من بني عبد الدار وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب وربيعة بن الأسود والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف والعاص بن وائل، ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنهم قد بدا لهم في أمره بدء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذرك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء،

وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئت فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب الشرف فينا، سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه ونعذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا فيئكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من قد مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً، فقال رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا، فخر لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله أن يجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف منزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك، قالوا: يا محمد، قد علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك بما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به،

فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لن نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معهم عبد الله بن أبي أمية فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك عند الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله ما أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً، لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من متابعتهم إياه، وأنزل عليه فيما قال له عبد الله بن أبي أمية: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله: ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] الحديث.

• أقول: والذي ذكر في الرواية من محاورتهم النبي ﷺ وسؤالاتهم لا ينطبق على ظاهر الآيات، ولا ما فيها من الجواب على ظاهر ما فيها من الجواب، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في بيان الآيات.

• وقد تكررت الرواية من طرق الشيعة وأهل السنة أن الذي ألقى إليه ﷺ القول من بين القوم وسأله هذه المسائل هو عبد الله بن أبي أمية المخزومي، أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ.

٦٠. الهدى من الله والضلال والعقاب يوم القيامة:

المقطع [٦٠] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٠٩»:

١. ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾:

أ. هو، على ما يشعر به السياق، من تتمة الخطاب الأخير للنبي ﷺ بقوله: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو كناية عن أنه تمت عليهم الحجة وحقت عليهم الضلالة فلا مطمع في هدايتهم.

ب. ومحصل المعنى: خاطبهم بإعلام قطع المحاجة فإن الهداية لله تعالى لا يشاركه فيها أحد فمن هداه فهو المهتدي لا غير ومن أضله ولم يهده فلن تجد يا محمد له أولياء من دونه يهدونه والله لا يهدي هؤلاء

فانقطع عنهم ولا تكلف نفسك في دعوتهم رجاء أن يؤمنوا.

ج. ومن هنا يظهر أن قول بعضهم: إن الآية كلام مبتدأ غير داخل في حيز (قل) في غير محله.

د. وإنما أتى بأولياء بصيغة الجمع مع كون المفرد أبلغ وأشمل إشارة إلى أنه لو كان له ولي من دون الله لكان ذلك إما آلهتهم وهي كثيرة وإما سائر الأسباب الكونية وهي أيضا كثيرة.

هـ. وفي قوله: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة فقد كان السياق سياق التكلم بالغير ولعل الوجه فيه أنه لو قيل: ومن نهد ومن نضل على التكلم بالغير أوهم تشريك الملائكة في أمر الهداية والإضلال فأوهم التناقض في قوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ فإن الأولياء عندهم الملائكة وهم يتخذونهم آلهة ويعبدونهم.

٢. قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ إلى آخر الآيتين العمى والبكم والصم جمع أعمى وأبكم وأصم، وخبو النار وخبوها سكون لهبها، والسعير لهب النار، والمعنى ظاهر.

٣. أحاديث وآثار: في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]، أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وأبو نعيم في المعرفة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم.

- أقول: وفي معناه روايات أخر.
- أقول: والذي ذكر في الرواية من محاورتهم النبي ﷺ وسؤالاتهم لا ينطبق على ظاهر الآيات ولا ما فيها من الجواب على ظاهر ما فيها من الجواب، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في بيان الآيات.
- وقد تكررت الرواية من طرق الشيعة وأهل السنة أن الذي ألقى إليه ﷺ القول من بين القوم وسأله هذه المسائل هو عبد الله بن أبي أمية المخزومي أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ.

٦١. عقاب الكافرين وإنكارهم للبعث:

المقطع [٦١] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٨-٩٩]، وفيه

المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٠٩»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾:

أ. الكفور الجحود، احتجاج منه تعالى على البعث بعد الموت فقد كان قولهم: ﴿أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ استبعادا مبنيا على إحالة أن يعود هذا البدن الدنيوي بعد تلاشيه وصيرورته عظاما ورفاتا إلى ما كان عليه بخلق جديد فاحتج عليهم بأن خلق البدن أولا يثبت القدرة عليه وعلى مثله الذي هو الخلق الجديد للبعث فحكم الأمثال واحد.

ب. فالمماثلة إنما هي من جهة مقايسة البدن الجديد من البدن الأول مع قطع النظر عن النفس التي هي الحافظة لوحدة الإنسان وشخصيته، ولا ينافي ذلك كون الإنسان الأخروي عين الإنسان الدنيوي لا مثله لأن ملاك الوحدة والشخصية هي النفس الإنسانية وهي محفوظة عند الله سبحانه غير باطلة ولا معدومة، وإذا تعلقت بالبدن المخلوق جديدا كان هو الإنسان الدنيوي كما أن الإنسان في الدنيا واحد شخصي باق على وحدته الشخصية مع تغير البدن بجميع أجزائه حينا بعد حين.

ج. والدليل على أن النفس التي هي حقيقة الإنسان محفوظة عند الله مع تفرق أجزاء البدن وفساد صورته قوله تعالى: ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] حيث استشكلوا في المعاد بأنه تجديد للخلق بعد فناء الإنسان بتفرق أجزاء بدنه فأجيب عنه بأن ملك الموت يتوفى الإنسان ويأخذه تاما كاملا فلا يضل ولا يتلاشى، وإنما الضال بدنه ولا ضير في ذلك فإن الله يجدده.

د. والدليل على أن الإنسان المبعوث هو عين الإنسان الدنيوي لا مثله جميع آيات القيامة الدالة على رجوع الإنسان إليه تعالى وبعثه وسؤاله وحسابه ومجازاته بما عمل.

هـ. فهذا كله يشهد على أن المراد بالمماثلة ما ذكرناه، وإنما تعرض لأمر البدن حتى ينجر إلى ذكر المماثلة محاذاة لمتن ما استشكلوا به من قولهم: ﴿أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ فلم يضمنوا قولهم إلا شئون البدن لا النفس المتوفاة منه، وإذا قطع النظر عن النفس كان البدن مماثلا للبدن، وإن كان مع اعتبارها عينا.

و. وذكر بعضهم: (أن المراد بمثلهم نفسهم فهو من قبيل قولهم: مثلك لا يفعل هذا أي أنت لا

تفعله، وللمناقشة إليه سبيل والظاهر أن العناية في هذا التركيب أن مثلك لاشتماله على مثل ما فيك من الصفة لا يفعل هذا فأنت لا تفعله لمكان صفتك ففيه نفي الفعل بنفي سببه على سبيل الكناية، وهو آكد من قولنا: أنت لا تفعله.

٢. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالأجل هو زمان الموت فإن الأجل إما مجموع مدة الحياة الدنيا وهي محدودة بالموت وإما آخر زمان الحياة ويقارنه الموت وكيف كان فالتذكير بالموت الذي لا ريب فيه ليعتبروا به ويكفوا عن الجرأة على الله وتكذيب آياته فهو قادر على بعثهم والانتقام منهم بما صنعوا.

ب. فقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ناظر إلى قوله في صدر الآية السابقة: ﴿ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا﴾ فهو نظير قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

ج. وجوز بعضهم أن يكون المراد بالأجل هو يوم القيامة، وهو لا يلائم السياق فإن سابق الكلام يحكي إنكارهم للبعث ثم يحتج عليهم بالقدرة فلا يناسبه أخذ البعث مسلما لا ريب فيه.

د. ونظيره تقرير بعضهم قوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ﴾ حجة أخرى مسوقة لإثبات يوم القيامة على كل من تقديري كون المراد بالأجل هو يوم الموت أو يوم القيامة، وهو تكلف لا يعود إلى جدوى البتة فلا موجب للاشتغال به.

٦٢. شح الإنسان وخوفه من الإنفاق:

المقطع [٦٢] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢١١»:

أ. فسر القتور بالبخيل المبالغ في الإمساك وقال في المجمع: (القتر التضييق والقتور فعول منه للمبالغة، ويقال: قتر يقتر وتقتر وأقتر وقتر إذا قدر في النفقة)

ب. وهذا توبيخ لهم على منعهم رسالة البشر المنقول عنهم سابقا بقوله: ﴿وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا

إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ ومعنى الآية ظاهر.

٦٣. معجزة موسى وموقف فرعون وإغراقه:

المقطع [٦٣] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠١ـ١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢١٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً﴾:

أ. الذي أوتي موسى عليه السلام من الآيات على ما يقصه القرآن أكثر من تسع غير أن الآيات التي أتى بها لدعوة فرعون فيما يذكره القرآن تسع وهي: العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفدع والدم والسنون ونقص من الثمرات فالظاهر أنها هي المرادة بالآيات التسع المذكورة في الآية وخاصة مع ما فيها من محكي قول موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ﴾ وأما غير هذه الآيات كالبحر والحجر وإحياء المقتول بالبقرة وإحياء من أخذته الصاعقة من قومه ونتق الجبل فوقهم وغير ذلك فهي خارجة عن هذه التسع المذكورة في الآية.

ب. ولا ينافي ذلك كون الآيات إنما ظهرت تدريجا فإن هذه المحاورة مستخرجة من مجموع ما تخاصم به موسى وفرعون طول دعوته.

ج. فلا عبرة بما ذكره بعض المفسرين مخالفا لما عددناه لعدم شاهد عليه وفي التوراة أن التسع هي العصا والدم والضفادع والقمل وموت البهائم وبرد كنار أنزل مع نار مضطرمة أهلكت ما مرت به من نبات وحيوان والجراد والظلمة وموت عم كبار الآدميين وجميع الحيوانات.

د. ولعل مخالفة التوراة لظاهر القرآن في الآيات التسع هي الموجبة لترك تفصيل الآيات التسع في الآية ليستقيم الأمر بالسؤال من اليهود لأنهم مع صريح المخالفة لم يكونوا ليصدقوا القرآن بل كانوا يبادرون إلى التكذيب قبل التصديق.

هـ. ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً﴾ أي سحرت فاختل عقلك وهذا في معنى قوله المنقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وقيل: المراد بالمسحور الساحر نظير الميمون والمشئوم بمعنى اليامن والشائم وأصله استعمال وزن الفاعل في النسبة ومعنى الآية ظاهر.

٢. ﴿قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾:

أ. المثبور الهالك وهو من الثبور بمعنى الهلاك، والمعنى قال موسى مخاطبا لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات البينات إلا رب السموات والأرض أنزلها بصائر يتبصر بها لتمييز الحق من الباطل وإني لأظنك يا فرعون هالكا بالآخرة لعنادك وجحودك.

ب. وإنما أخذ الظن دون اليقين لأن الحكم لله وليوافق ما في كلام فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى﴾ ومن الظن ما يستعمل في مورد اليقين.

٣. ﴿فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً﴾ الاستفزاز الإزعاج والإخراج بعنف، ومعنى الآية ظاهر.

٤. ﴿وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ المراد بالأرض التي أمروا أن يسكنوها هي الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم بشهادة قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، وغير ذلك كما أن المراد بالأرض في الآية السابقة مطلق الأرض أو أرض مصر بشهادة السياق.

٥. ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾:

أ. أي وعد الكرة الآخرة أو الحياة الآخرة والمراد به على ما ذكره المفسرون يوم القيامة، وقوله: ﴿جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي مجموعا ملفوفا بعضكم ببعض.

ب. والمعنى: وقلنا من بعد غرق فرعون لبني إسرائيل اسكنوا الأرض المقدسة، وكان فرعون يريد أن يستفزهم من الأرض، فإذا كان يوم القيامة جئنا بكم ملتفين مجتمعين للحساب وفصل القضاء.

ج. وليس ببعيد أن يكون المراد بوعد الآخرة ما ذكره الله سبحانه في أول السورة فيما قضى إلى بني إسرائيل بقوله: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا

ما عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ وإن لم يذكره جمهور المفسرين فينعطف بذلك ذيل الكلام في السورة إلى صدره، ويكون المراد أنا أمرناهم بعد غرق فرعون أن اسكنوا الأرض المقدسة التي كان يمنعكم منها فرعون والبثوا فيها حتى إذا جاء وعد الآخرة التي يلتف بكم فيها البلاء بالقتل والأسر والجلاء جمعناكم منها وجئنا بكم لفيفا، وذلك إسارتهم وإجلاؤهم إلى بابل.

د. ويتضح على هذا الوجه نكتة تفرع قوله: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ على قوله: ﴿وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ على خلاف الوجه السابق الذي لا يترتب فيه على التفريع نكتة ظاهرة.

٦٤. نزول القرآن بالحق وبشيراً ونذيراً:

المقطع [٦٤] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٢٠»:

١. ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾:

أ. لما فرغ من التنظير رجع إلى ما كان عليه من بيان حال القرآن وذكر أوصافه فذكر أنه أنزله إنزالا مصاحبا للحق وقد نزل هو من عنده نزولا مصاحبا للحق فهو مصون من الباطل من جهة من أنزله فليس من لغو القول وهذره ولا داخله شيء يمكن أن يفسده يوما ولا شاركه فيه أحد حتى ينسخه في وقت من الأوقات وليس النبي ﷺ إلا رسولا منه تعالى يبشر به وينذر وليس له أن يتصرف فيه بزيادة أو نقيصة أو يتركه كلا أو بعضا باقتراح من الناس أو هوى من نفسه أو يعرض عنه فيسأل الله آية أخرى فيها هواه أو هوى الناس أو يداهنهم فيه أو يسامحهم في شيء من معارفه وأحكامه كل ذلك لأنه حق صادر عن مصدر حق، وما ذا بعد الحق إلا الضلال.

ب. فقوله: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ﴾ متمم للكلام السابق، ومحصله أن القرآن آية حقة ليس لأحد أن يتصرف فيه شيئا من التصرف والنبي وغيره في ذلك سواء.

٢. ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾:

أ. معطوف على ما قبله أي أنزلناه بالحق وفرقناه قرآنا، قال في المجمع: (معنى فرقناه فصلناه ونزلناه آية آية وسورة سورة ويدل عليه قوله: ﴿عَلى مُكْثٍ﴾ والمكث، بضم الميم، والمكث، بفتحها، لغتان)

ب. فاللفظ بحسب نفسه يعم نزول المعارف القرآنية التي هي عند الله في قالب الألفاظ والعبارات التي لا تتلقى إلا بالتدريج ولا تتعاطى إلا بالمكث والتؤدة ليسهل على الناس تعقله وحفظه على حد قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]

ج. ونزول الآيات القرآنية نجوما مفرقة سورة سورة وآية آية بحسب بلوغ الناس في استعداد تلقي المعارف الأصلية للاعتقاد والأحكام الفرعية للعمل واقتضاء المصالح ذلك ليقارن العلم العمل ولا يجمح عنه طباع الناس بأخذ معارفه وأحكامه واحدا بعد واحد كما لو نزل دفعة وقد نزلت التوراة دفعة فلم يتلقها اليهود بالقبول إلا بعد نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة.

د. لكن الأوفق بسياق الآيات السابقة وفيها مثل قولهم المحكي: ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾ الظاهر في اقتراح نزول القرآن دفعة هو أن يكون المراد بتفريق القرآن إنزاله سورة سورة وآية آية حسب تحقق أسباب النزول تدريجا وقد تكرر من الناس اقتراح أن ينزل القرآن جملة واحدة كما في: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقوله حكاية عن أهل الكتاب: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ﴾ [النساء: ١٥٣]، ويؤيده تذييل الآية بقوله: ﴿وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ فإن التنزيل وهو إنزال الشيء تدريجا أمس بالاعتبار الثاني منه بالأول.

هـ. ومع ذلك فالاعتبار الثاني وهو تفصيل القرآن وتفريقه بحسب النزول بإنزال بعضه بعد بعض من دون أن ينزل جملة واحدة يستلزم الاعتبار الأول وهو تفصيله وتفريقه إلى معارف وأحكام متبوعة مختلفة بعد ما كان الجميع مندمجة في حقيقة واحدة منطوية مجتمعة الأعراق في أصل واحد فارد.

و. ولذلك فصل الله سبحانه كتابه سورا وآيات بعد ما ألبسه لباس اللفظ العربي ليسهل على الناس فهمه كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثم نوعها أنواعا ورتبها ترتيبا فنزلها واحدة بعد واحدة عند قيام الحاجة إلى ذلك وعلى حسب حصول استعدادات الناس المختلفة وتمام قابليتهم بكل واحد منها وذلك في تمام ثلاث وعشرين سنة ليشفع التعليم بالتربية ويقرن العلم بالعمل.

ز. وسنعود إلى البحث عن بعض ما يتعلق بالآية والسورة في كلام مستقل إن شاء الله تعالى.

٣. وضع هنا مبحثا حول [أجزاء القرآن وترتيبه]، خلاصته:

أ. للقرآن أجزاء يعرف بها كالجزء والحزب والعشر، لكن الأجزاء التي ينتهي اعتبارها إلى عناية

من الكتاب العزيز اثنان: السورة والآية، وقد كرر الله ذكرهما في كلامه، واستعملها النبي والصحابة والأئمة استعمالاً لا يدع ريباً في حقيقتهما.

ب. السورة هي مجموعة من الكلام الإلهي مبدوءة بالبسملة مسوقة لبيان غرض، وهي معرف مطرد غير منقوض إلا في سورة براءة، وورد عن أئمة أهل البيت أن الضحى وألم نشرح سورة واحدة، والفيل والإيلاف سورة واحدة.

ج. الآية هي قطعة من الكلام من حقها أن تعتمد عليها التلاوة بفصلها عما قبلها وعما بعدها، وتختلف باختلاف السياقات، فربما كانت كلمة واحدة (كمُدْهامَّتانِ) وربما طالت (كآية الدين)

د. عدد السور القرآنية مائة وأربع عشرة سورة على المصحف العثماني، ولكن ورد عن أئمة أهل البيت أن براءة ليست سورة مستقلة، وأن الضحى وألم نشرح سورة واحدة، والفيل والإيلاف سورة واحدة.

هـ. عدد الآيات لم يرد فيه نص متواتر، واختلف أهل العدد (المكيون والمدنيون والشاميون والبصريون والكوفيون) فمنهم من قال ستة آلاف آية، ومنهم من قال ستة آلاف ومائتان وأربع، وهكذا، ولا ملزم للأخذ بشيء منها، والباحث المتدبر يختار ما أدى إليه نظره.

و. ترتيب السور نزولاً اختلفت فيه الروايات، وأهمها رواية ابن عباس التي تذكر ترتيباً مفصلاً، لكنها لا تصلح حجة معتمدة بسبب التعارض بينها، والطريق المتعين لمعرفة المكي والمدني هو التدبر في سياق الآيات والاستمداد من القرائن الداخلية والخارجية.

٦٥. خشوع العلماء عند سماع القرآن:

المقطع [٦٥] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٢١»:

١. ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾:

أ. المراد بالذين أوتوا العلم من قبله هم الذين تحققوا بالعلم بالله وآياته من قبل نزول القرآن سواء

كانوا من اليهود أو النصارى أو غيرهم فلا موجب للتخصيص اللهم إلا أن يقال: إن السياق يفيد كون هؤلاء من أهل الحق والدين غير المنسوخ يومئذ هو دين المسيح عليه السلام فهم أهل الحق من علماء النصرانية الذين لم يزيغوا ولم يبدلوا.

ب. وعلى أي حال المراد من كونهم أوتوا العلم من قبله أنهم استعدوا لفهم كلمة الحق وقبولها لتجهزهم بالعلم بحقيقة معناه وإيراثه إياهم وصف الخشوع فيزيدهم القرآن المتلو عليهم خشوعا.

٢. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً﴾ الأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين من الوجه، والخرور للأذقان السقوط على الأرض على أذقانهم للسجدة كما يبينه قوله: ﴿سُجَّداً﴾ وإنما اعتبرت الأذقان لأن الذقن أقرب أجزاء الوجه من الأرض عند الخرور عليها للسجدة، وربما قيل: المراد بالأذقان الوجوه إطلاقا للجزء على الكل مجازا.

٣. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً﴾ أي ينزهونه تعالى عن كل نقص وعن خلف الوعد خاصة ويعطي سياق الآيات السابقة أن المراد بالوعد وعده سبحانه بالبعث وهذا في قبال إصرار المشركين على نفي البعث وإنكار المعاد كما تكرر في الآيات السابقة.

٤. ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ تكرار الخرور للأذقان وإضافته إلى البكاء لإفادة معنى الخضوع وهو التذلل الذي يكون بالبدن كما أن الجملة الثانية لإفادة معنى الخشوع وهو التذلل الذي يكون بالقلب فمحصل الآية أنهم يخضعون ويخشعون.

٥. وفي الآية إثبات خاصة المؤمنين لهم وهي التي أشير إليها بقوله سابقا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما أن في الآية نفي خاصة المشركين عنهم وهي إنكار البعث.

٦. وفي هذه الآيات الثلاث بيان أن القرآن في غنى عن إيمانهم لا لأن إيمان الذين أوتوا العلم من قبله يرفع حاجة له إلى إيمان غيرهم بل لأن إيمانهم به يكشف عن أنه كتاب حق أنزل بالحق لا حاجة له في حقيته ولا افتقار في كماله إلى إيمان مؤمن وتصديق مصدق فإن آمنوا به فلأنفسهم وإن كفروا به فعليها لا له ولا عليه، فقد ذكر سبحانه إعراضهم عن القرآن وكفرهم به وعدم اعتنائهم بكونه آية واقتراحهم آيات أخرى ثم بين له من نعوت الكمال ودلائل الإعجاز في لفظه ومعناه وغزارة الأثر في النفوس وكيفية نزوله ما استبان به أنه حق لا يعتريه بطلان ولا فساد أصلا ثم بين في هذه الآيات أنه في غنى عن إيمانهم فهم وما

يختارونه من الإيمان والكفر.

٦٦. أسماء الله الحسنى والتوسط في الصلاة:

المقطع [٦٦] من سورة الإسراء، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١٠-١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٢٣»:

١. ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾:

أ. لفظة أو للتسوية والإباحة فالمراد بقوله: ﴿اللَّهَ﴾ و﴿الرَّحْمَنَ﴾ الاسمان الدالان على المسمى دون المسمى، والمعنى ادعوا باسم الله أو باسم الرحمن فالدعاء دعاؤه.

ب. ﴿أَيًّا ما تَدْعُوا﴾ شرط و﴿ما﴾ صلة للتأكيد نظير قوله: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] و﴿أَيًّا﴾ شرطية وهي مفعول ﴿تَدْعُوا﴾

ج. ﴿فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ جواب الشرط، وهو من وضع السبب موضع المسبب والمعنى أي اسم من الاسمين تدعوه فهو اسم أحسن له لأن الأسماء الحسنى كلها له فالأسماء الدالة على المسميات منها حسنة تدل على ما فيه حسن ومنها قبيحة بخلافها ولا سبيل للقبيح إليه تعالى، والأسماء الحسنة منها ما هو أحسن لا شوب نقص وقبح فيه كالغنى الذي لا فقر معه والحياة التي لا موت معها والعزة التي لا ذلة دونها ومنها ما هو حسن يغلب عليه الحسن من غير محوضة ولله سبحانه الأسماء الحسنى، وهي كل اسم هو أحسن الأسماء في معناه كما يدل عليه قول أئمة الدين: إن الله تعالى غني لا كالأغنياء، حي لا كالأحياء، عزيز لا كالأعزة عليم لا كالعلماء وهكذا أي له من كل كمال صرفه ومحضه الذي لا يشوبه خلافه.

د. والضمير في قوله: ﴿أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ عائد إلى الذات المتعالية من كل اسم ورسم، وليس براجع إلى شيء من الاسمين: الله والرحمن لأن المراد بهما، كما تقدم، الاسمان دون الذات المتعالية التي هي مسماة بهما ولا معنى لأن يقال: أيا من الاسمين تدعوا فإن لذلك الاسم جميع الأسماء الحسنى أو باقي الأسماء الحسنى بل المعنى أيا من أسمائه تدعوا فلا مانع منه لأنها جميعا أسماؤه لأنها أسماء

حسنى وله الأسماء الحسنى فهي طرق دعوته ودعوتها دعوته فإنها أسماؤه والاسم مرآة المسمى وعنوانه فافهم ذلك.

٢. والآية من غرر الآيات القرآنية تنير حقيقة ما يراه القرآن الكريم من توحيد الذات وتوحيد العبادة قبال ما يراه الوثنية من توحيد الذات وتشريك العبادة:

أ. فإن الوثنية، على ما تقدم جملة من آرائهم في الجزء العاشر من الكتاب، ترى أنه سبحانه ذات متعالية من كل حد ونعت ثم تعينت بأسماء اسما بعد اسم وتسمي ذلك تولدا، وترى الملائكة والجن مظاهر عالية لأسمائه فهم أبناؤه المتصرفون في الكون، وترى أن عبادة العابدين وتوجه المتوجهين لا يتعدى طور الأسماء ولا يتجاوز مرتبة الأبناء الذين هم مظاهر أسمائه فإنا إنما نعبد فيها نعبد الإله أو الخالق أو الرازق أو المحيي أو المميت إلى غير ذلك، وهذه كلها أسماء مظاهرها الأبناء من الملائكة والجن، وأما الذات المتعالية فهي أرفع من أن يناله حس أو وهم أو عقل، وأعلى من أن يتعلق به توجه أو طلب أو عبادة أو نسك.

ب. فعندهم دعوة كل اسم هي عبادة ذلك الاسم أي الملك أو الجن الذي هو مظهر ذلك الاسم، وهو الإله المعبود بتلك العبادة فيتكثر الآلهة بتكثر أنواع الدعوات بأنواع الحاجات ولذلك لما سمع بعض المشركين دعاءه ﷺ في صلاته: يا الله يا رحمن قال: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهين.

ج. والآية الكريمة ترد عليهم ذلك وتكشف عن وجه الخطإ في رأيهم بأن هذه الأسماء أسماء حسنى له تعالى فهي مملوكة له محضا لا تستقل دونه بنعت ولا تنحاز عنه في ذات أو صفة تملكه وتقوم به فليس لها إلا الطريقية المحضة، ويكون دعاؤها دعاءه والتوجه بها توجها إليه، وكيف يستقيم أن يحجب الاسم المسمى وليس إلا طريقا دالا عليه هاديا إليه ووجها له يتجلى به لغيره، فدعاء الأسماء الكثيرة لا ينافي توحيد عبادة الذات كما يمتنع أن تقف العبادة على الاسم ولا يتعداه.

د. ويتفرع على هذا البيان ظهور الخطإ في عد الأسماء أو مظاهرها من الملائكة والجن أبناء له تعالى فإن إطلاق الولد والابن سواء كان على وجه الحقيقة أو التشريف يقتضي نوع مسانخة واشتراك بين الولد والوالد، أو الابن والأب، في حقيقة الذات أو كمال من كمالاته وساحة كبريائه منزهة من أن يشاركه شيء

غيره في ذات أو كمال فإن الذي له هو لنفسه، والذي لغيره هو له لا لأنفسهم.

هـ. وكذا ظهور الخطإ في نسبة التصرف في الكون بأنواعه إليهم فإن هؤلاء الملائكة وكذا الأسماء التي هم مظاهر لها عندهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ولا يستقلون دونه بشيء بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وكذا الجن فيما يعملون وبالجملة ما من سبب من الأسباب الفعالة في الكون إلا وهو تعالى الذي ملكه القدرة على ما يعمله، وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره.

و. وهذا هو الذي تفيده الآية التالية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ﴾ وسنكرر الإشارة إليه إن شاء الله.

ز. وفي الآية دلالة على أن لفظة الجلالة من الأسماء الحسنى فهو في أصله، الإله، وصف يفيد معنى المعبودية وإن عرضت عليه العلمية بكثرة الاستعمال كما يدل عليه صحة إجراء الصفات عليه يقال: الله الرحمن الرحيم ولا يقال: الرحمن الله الرحيم وفي كلامه تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾

٣. ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً﴾:

أ. الجهر والإخفات وصفان متضائفان، يتصف بهما الأصوات، وربما يعتبر بينهما خصلة ثالثة هي بالنسبة إلى الجهر إخفات وبالنسبة إلى الإخفات جهر فيكون الجهر هو المبالغة في رفع الصوت، والإخفات هو المبالغة في خفضه وما بينهما هو الاعتدال فيكون معنى الآية لا تبالغ في صلاتك في الجهر ولا في الإخفات بل اسلك فيما بينهما سبيلا وهو الاعتدال وتسميته سبيلا لأنه سنة يستن بها هو ومن يقتدي به من أمته المؤمنين به.

ب. هذا لو كان المراد بالصلاة في قوله: ﴿بِصَلاتِكَ﴾ للاستغراق والمراد به كل صلاة صلاة وأما لو أريد المجموع ولعله الأظهر كان المعنى لا تجهر في صلواتك كلها ولا تخافت فيها كلها بل اتخذ سبيلا وسطا تجهر في بعض وتخافت في بعض، وهذا المعنى أنسب بالنظر إلى ما ثبت في السنة من الجهر في بعض الفرائض اليومية كالصبح والمغرب والعشاء والإخفات في غيرها.

ج. ولعل هذا الوجه أوفق بالنظر إلى اتصال ذيل الآية بصدرها فالجهر بالصلاة يناسب كونه تعالى عليا متعاليا والإخفات يناسب كونه قريبا أقرب من حبل الوريد فاتخاذ الخصلتين جميعا في الصلوات أداء لحق أسمائه جميعا.

٤. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾:

أ. معطوف على قوله في الآية السابقة: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ﴾ ويرجع محصل الكلام إلى أن قل لهم إن ما تدعونها من الأسماء وتزعمون أنها آلهة معبودون غيره إنما هي أسماؤه وهي مملوكة له لا تملك أنفسها ولا شيئا لأنفسها فدعاؤها دعاؤه فهو المعبود على كل حال.

ب. ثم أحمده وأثن عليه بما يتفرع على إطلاق ملكه فإنه لا يماثله شيء في ذات ولا صفة حتى يكون ولدا له إن اشتق عنه في ذات أو صفة كما تقوله الوثنية وأهل الكتاب من النصارى واليهود وقدماء المجوس في الملائكة أو الجن أو المسيح أو عزير والأحبار، أو يكون شريكا إن شاركه في الملك من غير اشتقاق كما تقوله الوثنيون والثنويون وغيرهم من عبدة الشيطان أو يكون وليا له إن شاركه في الملك وفاق عليه فأصلح من ملكه بعض ما لم يقدر هو على إصلاحه.

ج. وبوجه آخر لا يجانسه شيء حتى يكون ولدا إن كان دونه أو شريكا له إن كان مساويا له في مرتبته أو وليا له إن كان فائقا عليه في الملك.

د. والآية في الحقيقة ثناء عليه تعالى بما له من إطلاق الملك الذي يتفرع عليه نفي الولد والشريك والولي، ولذلك أمره ﷺ بالتحميد دون التسبيح مع أن المذكور فيها من نفي الولد والشريك والولي صفات سلبية والذي يناسبها التسبيح دون التحميد فافهم ذلك.

هـ. وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ وقد أطلق إطلاقا بعد التوصيف والتنزيه فهو تكبير من كل وصف، ولذا فسر (الله أكبر) بأنه أكبر من أن يوصف على ما ورد عن الصادق عليه السلام، ولو كان المعنى أنه أكبر من كل شيء لم يخل من إشراك الأشياء به تعالى في معنى الكبر وهو أعز ساحة أن يشاركه شيء في أمر.

٥. ومن لطيف الصنعة في السورة افتتاح أول آية منها بالتسبيح واختتام آخر آية منها بالتكبير مع افتتاحها بالتحميد.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فدعا الله

فقال في دعائه: يا الله يا رحمان فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو إلهين فأنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ﴾ الآية.

• أقول: وفي سبب نزول الآية روايات أخر تخالف هذه الرواية وتذكر أشياء غير ما ذكرته غير أن هذه الرواية أقربها انطباقا على مفاد الآية.

ب. وفي التوحيد، مسندا وفي الاحتجاج، مرسلا عن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أسماء الله عز ذكره واشتقاقها فقلت: الله مما هو مشتق؟ قال يا هشام: الله مشتق من إله وإله يقتضي مألوها، والاسم غير المسمى فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئا، ومن عبد الاسم والمعنى فقد كفر وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذلك التوحيد أفهمت يا هشام؟ قال: فقلت: زدني فقال: إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسما، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلها، ولكن الله معنى يدل عليه بهذه الأسماء وكلها غيره، يا هشام الخبز اسم المأكول والماء اسم المشروب، والثوب اسم الملبوس والنار اسم المحرق، الحديث.

ج. وفي التوحيد، بإسناده عن ابن رئاب عن غير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم ولم يعبد المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته، التي يصف بها نفسه فعقد عليه قلبه، ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته، فأولئك أصحاب أمير المؤمنين وفي حديث آخر: أولئك هم المؤمنون حقا.

د. وفي توحيد البحار، في باب المغايرة بين الاسم والمعنى عن التوحيد بإسناده عن إبراهيم بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى خلق اسما بالحروف غير منعوت، وباللفظ غير منطق، وبالشخص غير مجسد، وبالتشبيه غير موصوف، وباللون غير مصبوغ منفي عنه الأقطار، مبعد عنه الحدود، محجوب عنه حس كل متوهم، مستتر غير مستور فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معا، ليس منها واحد قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أشياء لفاقة الخلق إليها، وحجب واحدا منها، وهو الاسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي أظهرت، فالظاهر هو الله وتبارك وسبحان، لكل اسم من هذه أربعة أركان فذلك اثنا عشر ركنا، ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين اسما وفعلا منسوبا إليها، فهو الرحمن الرحيم الملك القدوس الخالق البارئ، المصور الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، العليم الخبير السميع البصير

الحكيم العزيز، الجبار المتكبر العلي العظيم المقتدر القادر، السلام المؤمن المهيمن البارئ، المنشئ البديع الرفيع الجليل الكريم، الرازق المحيي المميت الباعث الوارث، فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى، حتى تتم ثلاث مائة وستين اسما فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة، وهذه الأسماء الثلاثة أركان وحجب للاسم الواحد، المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة، وذلك قوله عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ، أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾

• أقول: والحديث مروي في الكافي، أيضا عنه عليه السلام.

• وقد تقدم في بحث الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن هذه الألفاظ المسماة بأسماء الله إنما هي أسماء الأسماء وأن ما تدل عليه وتشير إليه من المصداق أعني الذات مأخوذة بوصف ما هو الاسم بحسب الحقيقة، وعلى هذا فبعض الأسماء الحسنى عين الذات وهو المشتمل على صفة ثبوتية كمالية كالحي والعليم والقدير، وبعضها زائد على الذات خارج منها وهو المشتمل على صفة سلبية أو فعلية كالخالق والرازق لا تأخذه سنة ولا نوم، هذا في الأسماء وأما أسماء الأسماء وهي الألفاظ الدالة على الذات المأخوذة مع وصف من أوصافها فلا ريب في كونها غير الذات، وأنها ألفاظ حادثة قائمة بمن يتلفظ بها.

• إلا أن هاهنا خلافا من جهتين:

● إحداهما: أن بعض الجهلة من متكلمي السلف خلطوا بين الأسماء وأسماء الأسماء فحسبوا أن المراد من عينية الأسماء مع الذات عينية أسماء الأسماء معها فذهبوا إلى أن الاسم هو المسمى ويكون على هذا عبادة الاسم ودعوته هو عين عبادة المسمى، وقد كان هذا القول سائغا في أوائل عصر العباسيين، والروايتان السابقتان أعني روايتي التوحيد في الرد عليه.

● والثانية: ما عليه الوثنية وهو أن الله سبحانه لا يتعلق به التوجه العبادي وإنما يتعلق بالأسماء فالأسماء أو مظاهرها من الملائكة والجن والكمل من الإنس هم المدعوون وهم الآلهة المعبودون دون الله، وقد عرفت في البيان المتقدم أن قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ﴾ إلخ رد عليه.

• والرواية الأخيرة أيضا تكشف عن وجه انتشاء الأسماء عن الذات المتعالية التي هي أرفع من أن يحيط به علم أو يقيده وصف ونعت أو يحده اسم أو رسم، وهي بما في صدره وذيله من البيان صريح في أن المراد بالأسماء فيها هي الأسماء دون أسماء الأسماء وقد شرحناها بعض الشرح في ذيل البحث عن الأسماء

الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب فراجعه إن شئت.

هـ. وفي تفسير العياشي، عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً﴾ قال: كان رسول الله ﷺ إذا كان بمكة جهر بصوته، فيعلم بمكانه المشركون فكانوا يؤذونه، فأنزلت هذه الآية عند ذلك.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن ابن عباس، وروي أيضا عن عائشة: أنها نزلت في الدعاء، ولا بأس به لعدم معارضته، وروي عنها أيضا أنها نزلت في التشهد.

و. وفي الكافي، بإسناده عن سماعة قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها﴾ قال: المخافتة ما دون سمعك والجهر أن ترفع صوتك شديدا.

• أقول: فيه تأييد المعنى الأول المتقدم في تفسير الآية.

ز. وفيه، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام على الإمام أن يسمع من خلفه وإن كثروا؟ فقال: ليقرأ وسطا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها﴾

ح. أخرج أحمد والطبراني عن معاذ بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: آية العز ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ الآية كلها.

ط. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ﴾ قال: قال: لم يذل فيحتاج إلى ولي ينصره.

سورة الكهف

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تتضمن الدعوة إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح بالإنذار والتبشير، كما يلوح إليه ما افتتحت به من الآيتين وما اختتمت به من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾

ب. وفيها مع ذلك عناية بالغة بنفي الولد، كما يدل على ذلك تخصيص إنذار القائلين بالولد بالذكر ثانياً بعد ذكر مطلق الإنذار أولاً، أعني وقوع قوله: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ بعد قوله: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ﴾

ج. فوجه الكلام فيها إلى الوثنيين القائلين ببنوة الملائكة والجن والمصلحين من البشر، والنصارى القائلين ببنوة المسيح عليه السلام، ولعل اليهود يشاركونهم فيه حيث يذكر القرآن عنهم أنهم قالوا: عزير ابن الله.

د. وغير بعيد أن يقال إن الغرض من نزول السورة ذكر القصص الثلاث العجيبة التي لم تذكر في القرآن الكريم إلا في هذه السورة: وهي قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى وفتاه في مسيرهما إلى مجمع البحرين، وقصة ذي القرنين، ثم استفيد منها ما استفرغ في السورة من الكلام في نفي الشريك والحث على تقوى الله سبحانه.

هـ. والسورة مكية على ما يستفاد من سياق آياتها، وقد استثني منها قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، وسيجيء ما فيه من الكلام.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٨] افتتح تعالى الكلام في السورة بالثناء على نفسه بما نزل على عبده قرآناً لا انحراف فيه عن الحق بوجه، وهو قيم على مصالح عباده في حياتهم الدنيا والآخرة، فله كل الحمد فيما يترتب على نزوله من الخيرات والبركات من يوم نزل إلى يوم القيامة، فلا ينبغي أن يرتاب الباحث الناقد أن ما في

المجتمع البشري من الصلاح والسداد من بركات ما بثه الأنبياء الكرام من الدعوة إلى القول الحق والخلق الحسن والعمل الصالح، وأن ما يمتاز به عصر القرآن في قرونه الأربعة عشر عما تقدمه من الأعصار من رقي المجتمع البشري وتقدمه في علم نافع أو عمل صالح، للقرآن فيه أثره الخاص، وللدعوة النبوية فيه أياديها الجميلة، فلله في ذلك الحمد كله.

٢. الآيات [٩ ـ ٢٦]:

أ. الآيات تذكر قصة أصحاب الكهف، وهي أحد الأمور الثلاثة التي أشارت اليهود على قريش أن تسأل النبي ﷺ عنها وتختبر بها صدقه في دعوى النبوة: قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى وفتاه، وقصة ذي القرنين، على ما وردت به الرواية، غير أن هذه القصة لم تصدر بما يدل على تعلق السؤال بها كما صدرت به قصة ذي القرنين: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ الآية، وإن كان في آخرها بعض ما يشعر بذلك كقوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً﴾ على ما سيجيء.

ب. وسياق الآيات الثلاث التي افتتحت بها القصة مشعر بأن قصة الكهف كانت معلومة إجمالاً قبل نزول الوحي بذكر القصة، وخاصة سياق قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً﴾، وأن الذي كشف عنه الوحي تفصيل قصتهم الآخذ من قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ﴾ إلى آخر الآيات.

ج. ووجه اتصال آيات القصة بما تقدم أنه يشير بذكر قصتهم ونفي كونهم عجباً من آيات الله، أن أمر جعله تعالى ما على الأرض زينة لها يتعلق بها الإنسان ويطمئن إليها مكباً عليها منصرفاً غافلاً عن غيرها لغرض البلاء والامتحان، ثم جعل ما عليها بعد أيام قلائل صعيداً جرزاً لا يظهر للإنسان إلا سدى وسراباً، ليس ذلك كله إلا آية إلهية هي نظيرة ما جرى على أصحاب الكهف حين سلط الله عليهم النوم في فجوة من الكهف ثلاث مائة سنين شمسية، ثم لما بعثهم لم يحسبوا مكثهم ذلك إلا مكث يوم أو بعض يوم.

د. فمكث كل إنسان في الدنيا واشتغاله بزخارفها وزيناتها وتولهه إليها ذاهلاً عما سواها آية تضاهي في معناها آية أصحاب الكهف، وسيبعث الله الناس من هذه الرقدة فيسألهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣] ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فما آية أصحاب الكهف ببدع عجيب من بين الآيات، بل هي متكررة جارية ما

جرت الأيام والليالي على الإنسان.

هـ. فكأنه تعالى لما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ إلى تمام ثلاث آيات، قال مخاطباً لنبيه: فكأنك ما تنبهت أن اشتغالهم بالدنيا وعدم إيمانهم بهذا الحديث عن تعلقهم بزينة الأرض آية إلهية تشابه آية مكث أصحاب الكهف في كهفهم ثم انبعاثهم، ولذلك حزنت وكدت تقتل نفسك أسفاً، بل حسبت أن أصحاب الكهف كانوا من آياتنا بدعاً عجباً من النوادر في هذا الباب.

و. وإنما لم يصرح بهذا المعنى صوناً لمقام النبي ﷺ عن نسبة الغفلة والذهول إليه، ولأن الكناية أبلغ من التصريح.

ز. هذا ما يعطيه التدبر في وجه اتصال القصة، وعلى هذا النمط يجري السياق في اتصال ما يتلو هذه القصة من مثل رجلين لأحدهما جنتان وقصة موسى وفتاه، وسيجيء بيانه، وقد ذكر في اتصال القصة وجوه أخر غير وجيهة لا جدوى في نقلها.

٣. الآيات [٢٧ ـ ٣١]:

أ. رجوع وانعطاف على ما انتهى إليه الكلام قبل القصة، من بلوغ النبي ﷺ حزناً وأسفاً على عدم إيمانهم بالكتاب النازل عليه وردهم دعوته الحقة، ثم تسليته بأن الدار دار البلاء والامتحان، وما عليها زينة لها سيجعله الله صعيداً جرزاً، فليس ينبغي له ﷺ أن يتحرج لأجلهم إن لم يستجيبوا دعوته ولم يؤمنوا بكتابه.

ب. بل الذي عليه أن يصبر نفسه مع أولئك الفقراء من المؤمنين الذين لا يزالون يدعون ربهم، ولا يلتفت إلى هؤلاء الكفار المترفين الذين يباهون بما عندهم من زينة الحياة الدنيا التي ستعود صعيداً جرزاً، بل يدعوهم إلى ربهم ولا يزيد على ذلك، فمن شاء منهم آمن به ومن شاء كفر ولا عليه شيء.

ج. وأما الذي يجب أن يواجهوا به إن كفروا أو آمنوا فليس هو أن يتأسف أو يسر، بل ما أعده الله للفريقين من عقاب أو ثواب.

٤. الآيات [٣٢ـ ٤٦]:

أ. الآيات تتضمن مثلين يبينان حقيقة ما يملكه الإنسان في حياته الدنيا من الأموال والأولاد، وهي زخارف الحياة وزيناتها الغارة السريعة الزوال والفناء، التي تتزين بها للإنسان فتلهيه عن ذكر ربه

وتجذب وهمه إلى أن يخلد إليها ويعتمد عليها، فيخيل إليه أنه يملكها ويقدر عليها، حتى إذا طاف عليها طائف من الله سبحانه فنت وبادت، ولم يبق للإنسان منها إلا كحلمة نائم وأمنية كاذبة.

ب. فالآيات ترجع الكلام إلى توضيح ما أشار سبحانه إليه في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿صَعِيداً جُرُزاً﴾ من الحقيقة.

ج. قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ﴾ إلخ، أي واضرب لهؤلاء المتوهين بزينة الحياة الدنيا المعرضين عن ذكر الله مثلاً، ليتبين لهم أنهم لم يتعلقوا في ذلك إلا بسراب وهمي لا واقع له.

د. وقد ذكر بعض المفسرين أن الذي يتضمنه المثل قصة مقدرة مفروضة، فليس من الواجب أن يتحقق مضمون المثل خارجاً، وذكر آخرون أنه قصة واقعة، وقد رووا في ذلك قصصاً كثيرة مختلفة لا معول عليها، غير أن التدبر في سياق القصة بما فيها من كونهما جنتين اثنتين وانحصار أشجارهما في الكرم والنخل ووقوع الزرع بينهما وغير ذلك، يؤيد كونها قصة واقعة.

٥. الآيات [٤٧ ـ ٥٩]:

أ. الآيات متصلة بما قبلها، تسير مسيرها في تعقيب بيان أن هذه الأسباب الظاهرية وزخارف الدنيا الغارة زينة الحياة، سيسرع إليها الزوال ويتبين للإنسان أنها لا تملك له نفعاً ولا ضراً، وإنما يبقى للإنسان أو عليه عمله فيجازى به.

ب. وقد ذكرت الآيات أولاً قيام الساعة ومجيء الإنسان فرداً ليس معه إلا عمله، ثم تذكر إبليس وإباءه عن السجدة لآدم وفسقه عن أمر ربه، وهم يتخذونه وذريته أولياء من دون الله وهم لهم عدو، ثم تذكر يوم القيامة وإحضارهم وشركاءهم، وظهور انقطاع الرابطة بينهم، وتعقب ذلك آيات أخر في الوعد والوعيد، والجميع بحسب الغرض متصل بما تقدم.

٦. الآيات [٦٠ ـ ٨٢] قصة موسى والعالم الذي لقيه بمجمع البحرين وكان يعلم تأويل الحوادث:

أ. ذكر الله سبحانه بها نبيه ﷺ، وهو التذكير الرابع من التذكيرات الواقعة إثر ما أمره في صدر السورة بالصبر والمضي على تبليغ رسالته والسلوة فيما يشاهده من إعراض الناس عن ذكر الله وإقبالهم على الدنيا، وبين أن الذي هم مشتغلون به زينة معجلة ومتاع إلى حين، فلا يشقن عليه ما يجده عندهم من ظاهر

تمتعهم بالحياة وفوزهم بما يشتهون فيها، فإن وراء هذا الظاهر باطناً، وفوق سلطتهم على المشتهيات سلطنة إلهية.

ب. فالتذكير بقصة موسى والعالم كأنه للإشارة إلى أن لهذه الوقائع والحوادث التي تجري على مشتهى أهل الدنيا تأويلاً سيظهر لهم إذا بلغ الكتاب أجله، فأذن الله لهم أن ينتبهوا من نومة الغفلة وبعثوا لنشأة غير النشأة، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل: لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

ج. وموسى الذي ذكر في القصة:

• هو ابن عمران الرسول النبي أحد أولي العزم عليه السلام، على ما وردت به الرواية من طرق الشيعة وأهل السنة.

• وقيل: هو أحد أسباط يوسف بن يعقوب عليه السلام، وهو موسى بن ميشا بن يوسف، وكان من أنبياء بني إسرائيل، ويبعده أن القرآن قد أكثر ذكر اسم موسى حتى بلغ مائة ونيفاً وثلاثين، وهو يريد ابن عمران عليه السلام، فلو أريد بها في هذه القصة غيره لضم إليه قرينة صارفة.

د. وقيل إن القصة أسطورة تخييلية صورت لغاية أن كمال المعرفة يورد الإنسان مشرعة عين الحياة ويسقيه ماءها، وهي الحياة الخالدة التي لا موت بعدها أبداً، والسعادة السرمدية التي لا سعادة فوقها قط.

• وفيه أنه تقدير من غير دليل، وظاهر الكتاب العزيز يدفعه، ولا خبر في القصة التي يقصها القرآن عن عين الحياة هذه إلا ما ورد في أقاويل بعض المفسرين والقصاصين من أهل التاريخ من غير أصل قرآني يستند إليه، أو وجدان حسي لعين هذه صفتها في صقع من أصقاع الأرض.

هـ. والفتى الذي ذكره الله وأضافه إلى موسى قيل هو يوشع بن نون وصيه، وبه وردت الرواية، قيل: سمي فتى لأنه كان يلازمه سفراً وحضراً، أو لأنه كان يخدمه.

و. والعالم الذي لقيه موسى ووصفه الله وصفاً جميلاً بقوله: ﴿عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ ولم يسمه، ورد في الروايات أن اسمه الخضر، وكان نبياً من الأنبياء معاصراً لموسى عليه السلام، وفي بعضها أن الله رزقه طول الحياة فهو حي لم يمت بعد، وهذا المقدار لا بأس به إذ لم يرد عقل أو نقل قطعي بخلافه، وقد طال البحث عن شخصية الخضر بين القوم كما في مطولات التفاسير، وتكاثرت القصص والحكايات في رؤيته، ومع ذلك لا تخلو الأخبار والقصص عن أساطير موضوعة أو

مدسوسة.

٧. الآيات [٨٣ ـ ١٠٢] الآيات تشتمل على قصة ذي القرنين، وفيها شيء من ملاحم القرآن.

٨. الآيات [١٠٣ ـ ١٠٨] الآيات الست في منزلة الاستنتاج مما تقدم من آيات السورة الشارحة لافتنان المشركين بزينة الحياة الدنيا واطمئنانهم بأولياء من دون الله، وابتلائهم بما ابتلوا به من غشاوة الأبصار ووقر الأذان، وما يتعقب ذلك من سوء العاقبة، وتمهيد لما سيأتي من قوله في آخر السورة: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ الآية.

٩. الآيات [١١٠] الآية خاتمة السورة وتلخص غرض البيان فيها، وقد جمعت أصول الدين الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والمعاد:

أ. فالتوحيد ما في قوله: ﴿أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾

ب. والنبوة ما في قوله: ﴿إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ﴾ وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً﴾ إلخ.

ج. والمعاد ما في قوله: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ﴾

١. حمد لله على إنزال الكتاب القيّم:

المقطع [١] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٣٦»:

١ . ﴿الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً﴾:

أ. العوج بفتح العين وكسرها الانحراف، قال في المجمع: (العوج بالفتح فيما يرى كالقناة والخشبة وبالكسر فيما لا يرى شخصا قائما كالدين والكلام)

ب. ولعل المراد بما يرى وما لا يرى ما يسهل رؤيته وما يشكل كما ذكره الراغب في المفردات: (بقوله: العوج، بالفتح، يقال فيما يدرك بالبصر سهلا كالخشب المنتصب ونحوه والعوج، بالكسر، يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة كما يكون في أرض بسيط يعرف تفاوته بالبصيرة وكالدين والمعاش)، فلا يرد عليه ما في قوله تعالى: ﴿لا تَرى فِيها عِوَجاً﴾ بكسر العين ـ﴿وَلا أَمْتاً﴾ [طه: ١٠٧] فافهم.

ج. وقد افتتح تعالى الكلام في السورة بالثناء على نفسه بما نزل على عبده قرآنا لا انحراف فيه عن

الحق بوجه وهو قيم على مصالح عباده في حياتهم الدنيا والآخرة فله كل الحمد فيما يترتب على نزوله من الخيرات والبركات من يوم نزل إلى يوم القيامة فلا ينبغي أن يرتاب الباحث الناقد أن ما في المجتمع البشري من الصلاح والسداد من بركات ما بثه الأنبياء الكرام من الدعوة إلى القول الحق والخلق الحسن والعمل الصالح وأن ما يمتاز به عصر القرآن في قرونه الأربعة عشر عما تقدمه من الأعصار من رقي المجتمع البشري وتقدمه في علم نافع أو عمل صالح للقرآن فيه أثره الخاص وللدعوة النبوية فيه أياديها الجميلة فلله في ذلك الحمد كله.

د. ومن هنا يظهر أن قول بعضهم في تفسير الآية: يعني قولوا الحمد لله الذي نزل ليس على ما ينبغي.

٢. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾:

أ. الضمير للكتاب والجملة حال عن الكتاب وقوله: ﴿قَيِّماً﴾ حال بعد حال على ما يفيده السياق فإنه تعالى في مقام حمد نفسه من جهة تنزيله كتابا موصوفا بأنه لا عوج له وأنه قيم على مصالح المجتمع البشري فالعناية متعلقة بالوصفين موزعة بينهما على السواء وهو مفاد كونهما حالين من الكتاب.

ب. وقيل إن جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ معطوفة على الصلة و﴿قَيِّماً﴾ حال من ضمير ﴿للهِ﴾ والمعنى والذي لم يجعل للكتاب حال كونه قيما عوجا أو أن ﴿قَيِّماً﴾ منصوب بمقدر، والمعنى: والذي لم يجعل له عوجا وجعله قيما، ولازم الوجهين انقسام العناية بين أصل النزول وبين كون الكتاب قيما لا عوج له، وقد عرفت أنه خلاف ما يستفاد من السياق.

ج. وقيل: إن في الآية تقديما وتأخيرا، والتقدير نزل الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا وهو أردأ الوجوه.

د. وقد قدم نفي العوج على إثبات القيمومة لأن الأول كمال الكتاب في نفسه والثاني تكميله لغيره والكمال مقدم طبعا على التكميل.

هـ. ووقوع ﴿عِوَجاً﴾ وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم فالقرآن مستقيم في جميع جهاته فصيح في لفظه، بليغ في معناه، مصيب في هدايته، حي في حججه وبراهينه، ناصح في أمره ونهيه، صادق فيما يقصه من قصصه وأخباره، فاصل فيما يقضي به محفوظ من مخالطة الشياطين، لا اختلاف فيه، ولا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه.

٣. ﴿قَيِّماً﴾:

أ. القيم هو الذي يقوم بمصلحة الشيء وتدبير أمره كقيم الدار وهو القائم بمصالحها ويرجع إليه في أمورها، والكتاب إنما يكون قيما بما يشتمل عليه من المعاني، والذي يتضمنه القرآن هو الاعتقاد الحق والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وهذا هو الدين وقد وصف تعالى دينه في مواضع من كتابه بأنه قيم قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣] وعلى هذا فتوصيف الكتاب بالقيم لما يتضمنه من الدين القيم على مصالح العالم الإنساني في دنياهم وأخراهم.

ب. وربما عكس الأمر فأخذ القيمومة وصفا للكتاب ثم للدين من جهته كما في قوله تعالى: ﴿وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] فالظاهر أن معناه دين الكتب القيمة وهو نوع تجوز.

ج. وقيل: المراد بالقيم المستقيم المعتدل الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، وقيل: القيم المدبر لسائر الكتب السماوية يصدقها ويحفظها وينسخ شرائعها وتعقيب الكلمة بقوله: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يؤيد ما قدمناه.

٤. ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ﴾ الآية:

أ. أي لينذر الكافرين عذابا شديدا صادرا من عند الله كذا قيل والظاهر بقرينة تقييد المؤمنين المبشرين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ﴾ إن التقدير لينذر الذين لا يعملون الصالحات أعم ممن لا يؤمن أصلا أو يؤمن ويفسق في عمله.

ب. والجملة على أي حال بيان لتنزيله الكتاب على عبده مستقيما قيما إذ لولا استقامته في نفسه وقيمومته على غيره لم يستقم إنذار ولا تبشير وهو ظاهر.

ج. والمراد بالأجر الحسن الجنة بقرينة قوله في الآية التالية: ﴿ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ والمعنى ظاهر.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن البرقي رفعه عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ﴾ قال: البأس الشديد علي عليه السلام وهو من لدن رسول الله ﷺ، قاتل معه عدوه فذلك قوله: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ﴾

• أقول: ورواه ابن شهرآشوب عن الباقر والصادق عليه السلام: وهو من التطبيق وليس بتفسير.

٢. إنذار من نسب لله الولد:

المقطع [٢] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٣٩»:

١. ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾:

أ. وهم عامة الوثنيين القائلين بأن الملائكة أبناء أو بنات له وربما قالوا بذلك في الجن والمصلحين من البشر والنصارى القائلين بأن المسيح ابن الله وقد نسب القرآن إلى اليهود أنهم قالوا: عزير ابن الله.

ب. وذكر إنذارهم خاصة ثانيا بعد ذكره على وجه العموم أولا بقوله: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ﴾ لمزيد الاهتمام بشأنهم.

٢. ﴿ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ﴾:

أ. كانت عامتهم يريدون بقولهم: اتخذ الله ولدا حقيقة التوليد كما يدل عليه قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]

ب. وقد رد سبحانه قولهم عليهم أولا بأنه قول منهم جهلا بغير علم وثانيا بقوله في آخر الآية: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾

ج. وكان قوله: ﴿ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ شاملا لهم جميعا من آباء وأبناء لكنهم لما كانوا يحيلون العلم به إلى آبائهم قائلين إن هذه ملة آبائنا وهم أعلم منا وليس لنا إلا أن نتبعهم ونقتدي بهم فرق تعالى بينهم وبين آبائهم فنفى العلم عنهم أولا وعن آبائهم الذين كانوا يركنون إليهم ثانيا ليكون إبطالا لقولهم ولحجتهم جميعا.

٣. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ﴾:

أ. ذم لهم وإعظام لقولهم: اتخذ الله ولدا لما فيه من عظيم الاجتراء على الله سبحانه بنسبة الشريك والتجسم والتركب والحاجة إلى المعين والخليفة إليه، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

ب. وربما وقع في كلام أوائلهم إطلاق الابن على بعض خلقه بعناية التشريف للدلالة على قربه منه واختصاصه به نظير قول اليهود فيما حكاه القرآن: عزير ابن الله، وقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وكذا

وقع في كلام عدة من قدمائهم إطلاق الابن على بعض الخلق الأول بعناية صدوره منه كما يصدر الابن عن الأب وإطلاق الزوج والصاحبة على وسائط الصدور والإيجاد كما أن زوج الرجل واسطة لصدور الولد منه فأطلق على بعض الملائكة من الخلق الأول الزوج وعلى بعض آخر منهم الابن أو البنت.

ج. وهذان الإطلاقان وإن لم يشتملا على مثل ما اشتمل عليه الإطلاق الأول لكونهما من التجوز بعناية التشريف ونحوه لكنهما ممنوعان شرعا وكفى ملاكا لحرمتهما سوقهما وسوق أمثالهما عامة الناس إلى الشقاء الدائم والهلاك الخالد.

٣. نهي النبي عن الحزن والأسى على الكافرين:

المقطع [٣] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٤٠»:

١. ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾:

أ. البخوع والبخع القتل والإهلاك والآثار علائم أقدام المارة على الأرض، والأسف شدة الحزن والمراد بهذا الحديث القرآن.

ب. والآية واللتان بعدها في مقام تعزية النبي ﷺ وتسليته وتطييب نفسه والفاء لتفريع الكلام على كفرهم وجحدهم بآيات الله المفهوم من الآيات السابقة والمعنى يرجى منك أن تهلك نفسك بعد إعراضهم عن القرآن وانصرافهم عنك من شدة الحزن، وقد دل على إعراضهم وتوليهم بقوله: ﴿عَلى آثارِهِمْ﴾ وهو من الاستعارة.

٤. الدنيا زينة وابتلاء:

المقطع [٤] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٤٠»:

١. ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾:

أ. الزينة الأمر الجميل الذي ينضم إلى الشيء فيفيده جمالا يرغب إليه لأجله والصعيد ظهر الأرض والجرز على ما في المجمع: (الأرض التي لا تنبت كأنها تأكل النبت أكلا)

ب. ولقد أتى في الآيتين ببيان عجيب في حقيقة حياة الإنسان الأرضية وهو أن النفوس الإنسانية، وهي في أصل جوهرها علوية شريفة، ما كانت لتميل إلى الأرض والحياة عليها وقد قدر الله أن يكون كمالها وسعادتها الخالدة بالاعتقاد الحق والعمل الصالح فاحتالت العناية الإلهية إلى توقيفها موقف الاعتقاد والعمل وإيصالها إلى محك التصفية والتطهير وإسكانها الأرض إلى أجل معلوم بإلقاء التعلق والارتباط بينها وبين ما على الأرض من أمتعة الحياة من مال وولد وجاه وتحبيبه إلى قلوبهم فكان ما على الأرض وهو جميل عندهم محبوب في أنفسهم زينة للأرض وحلية تتحلى بها لكونه عليها فتعلقت نفوسهم على الأرض بسببه واطمأنت إليها.

ج. فإذا انقضى الأجل الذي أجله الله تعالى لمكثهم في الأرض بتحقق ما أراده من البلاء والامتحان سلب الله ما بينهم وبين ما على الأرض من التعلق ومحى ما له من الجمال والزينة وصار كالصعيد الجرز الذي لا نبت فيه ولا نضارة عليه ونودي فيهم بالرحيل وهم فرادى كما خلقهم الله تعالى أول مرة.

د. وهذه سنة الله تعالى في خلق الإنسان وإسكانه الأرض وتزيينه ما عليها له ليمتحنه بذلك ويتميز به أهل السعادة من غيرهم فيأتي سبحانه بالجيل بعد الجيل والفرد بعد الفرد فيزين له ما على وجه الأرض من أمتعة الحياة ثم يخليه واختياره ليختبرهم بذلك ثم إذا تم الاختبار قطع ما بينه وبين زخارف الدنيا المزينة ونقله من دار العمل إلى دار الجزاء قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]

هـ. فمحصل معنى الآية لا تتحرج ولا تأسف عليهم إذ أعرضوا عن دعوتك بالإنذار والتبشير واشتغلوا بالتمتع من أمتعة الحياة فما هم بسابقين ولا معجزين وإنما حقيقة حياتهم هذه نوع تسخير إلهي أسكناهم الأرض ثم جعلنا ما على الأرض زينة يفتتن الناظر إليها لتتعلق به نفوسهم فنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون هذا الذي زين لهم بعينه كالصعيد الجرز الذي ليس فيه نبت ولا شيء مما يرغب فيه النفس فالله سبحانه لم يشأ منهم الإيمان جميعا حتى يكون مغلوبا بكفرهم بالكتاب وتماديهم في الضلال وتبخع أنت نفسك على آثارهم أسفا وإنما أراد بهم الابتلاء والامتحان وهو سبحانه الغالب فيما شاء وأراد.

٢. وقد ظهر بما تقدم أن قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً﴾:

أ. من الاستعارة بالكناية، والمراد به قطع رابطة التعلق بين الإنسان وبين أمتعة الحياة الدنيا مما على الأرض.

ب. وربما قيل: إن المراد به حقيقة معنى الصعيد الجرز، والمعنى أنا سنعيد ما على الأرض من زينة ترابا مستويا بالأرض، ونجعله صعيدا أملس لا نبات فيه ولا شيء عليه.

ج. ﴿ما عَلَيْها﴾ من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر وكان من طبع الكلام أن يقال: وإنا لجاعلوه، ولعل النكتة مزيد العناية بوصف كونه على الأرض.

٥. قصة أصحاب الكهف آية عجيبة:

المقطع [٥] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٤٤»:

١. ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً﴾:

أ. الحسبان هو الظن، والكهف هو المغارة في الجبل إلا أنه أوسع منها فإذا صغر سمي غارا والرقيم من الرقم وهو الكتابة والخط فهو في الأصل فعيل بمعنى المفعول كالجريح والقتيل بمعنى المجروح والمقتول، والعجب مصدر بمعنى التعجب أريد به معنى الوصف مبالغة.

ب. وظاهر سياق القصة أن أصحاب الكهف والرقيم جماعة بأعيانهم والقصة قصتهم جميعا فهم المسمون أصحاب الكهف وأصحاب الرقيم أما تسميتهم أصحاب الكهف فلدخولهم الكهف ووقوع ما جرى عليهم فيه.

ج. وأما تسميتهم أصحاب الرقيم:

• فقد قيل: إن قصتهم كانت منقوشة في لوح منصوب هناك أو محفوظ في خزانة الملوك فبذلك سموا أصحاب الرقيم.

• وقيل: إن الرقيم اسم الجبل الذي فيه الكهف، أو الوادي الذي فيه الجبل أو البلد الذي خرجوا منه إلى الكهف أو الكلب الذي كان معهم أقوال خمسة، وسيأتي في الكلام على قصتهم ما يؤيد القول الأول.

• وقيل: إن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف وقصتهم غير قصتهم ذكرهم الله مع أصحاب الكهف ولم يذكر قصتهم وقد رووا لهم قصة سنشير إليها في البحث الروائي الآتي، وهو بعيد جدا فما كان الله ليشير في بليغ كلامه إلى قصة طائفتين ثم يفصل القول في إحدى القصتين ولا يتعرض للأخرى لا إجمالا ولا تفصيلا على أن ما أوردوه من قصة أصحاب الرقيم لا يلائم السياق السابق المستدعي لذكر قصة أصحاب الكهف.

د. وقد تبين مما تقدم في وجه اتصال القصة أن معنى الآية: بل ظننت أن أصحاب الكهف والرقيم، وقد أنامهم الله مئات من السنين ثم أيقظهم فحسبوا أنهم لبثوا يوما أو بعض يوم، كانوا من آياتنا آية عجيبة كل العجب؟ لا وليسوا بعجب وما يجري على عامة الإنسان من افتتانه بزينة الأرض وغفلته عن أمر المعاد ثم بعثه وهو يستقل اللبث في الدنيا آية جارية تضاهي آية الكهف.

هـ. وظاهر السياق، كما تقدمت الإشارة إليه، أن القصة كانت معلومة للنبي ﷺ إجمالا عند نزول القصة وإنما العناية متعلقة بالإخبار عن تفصيلها، ويؤيد ذلك تعقيب الآية بالآيات الثلاث المتضمنة لإجمال القصة حيث إنها تذكر إجمال القصة المؤدي إلى عدهم آية عجيبة نادرة في بابها.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ﴾ الآية قال: يقول: قد آتيناك من الآيات ما هو أعجب منه، وهم فتية كانوا في الفترة بين عيسى بن مريم ومحمد ﷺ، وأما الرقيم فهما لوحان من نحاس مرقوم، أي مكتوب فيهما أمر الفتية وأمر إسلامهم، وما أراد منهم دقيانوس الملك وكيف كان أمرهم وحالهم.

ب. وفيه، حدثنا أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب نزول سورة الكهف، أن قريشا بعثوا ثلاثة نفر إلى نجران: النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل السهمي، ليتعلموا من اليهود مسائل يسألونها رسول الله ﷺ، فخرجوا إلى نجران إلى علماء اليهود فسألوهم فقالوا: اسألوه عن ثلاث مسائل، فإن أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق، ثم اسألوه عن مسألة واحدة فإن ادعى علمها فهو كاذب، قالوا: وما هذه المسائل؟ قالوا: سلوه عن فتية كانوا في الزمن الأول، فخرجوا وغابوا وناموا، كم بقوا في نومهم حتى انتبهوا؟ وكم كان عددهم؟ وأي شيء

كان معهم من غيرهم؟ وما كان قصتهم؟ وسلوه عن موسى حين أمره الله أن يتبع العالم ويتعلم منه، من هو؟ وكيف تبعه؟ وما كان قصته معه؟ وسلوه عن طائف طاف مغرب الشمس ومطلعها، حتى بلغ سد يأجوج ومأجوج، من هو؟ وكيف كان قصته؟ ثم أملئوا عليهم أخبار هذه المسائل الثلاث، وقالوا لهم: إن أجابكم بما قد أملينا عليكم، فهو صادق، وإن أخبركم بخلاف ذلك، فلا تصدقوه، قالوا: فما المسألة الرابعة؟ قالوا: سلوه متى تقوم الساعة! فإن ادعى علمها فهو كاذب، فإن قيام الساعة لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، فرجعوا إلى مكة واجتمعوا إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يزعم أن خبر السماء يأتيه، ونحن نسأله عن مسائل، فإن أجابنا عنها علمنا أنه صادق، وإن لم يخبرنا علمنا أنه كاذب، فقال أبو طالب: سلوه عما بدا لكم، فسألوه عن الثلاث المسائل، فقال رسول الله ﷺ: غداً أخبركم، ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً، حتى اغتم النبي ﷺ، وشك أصحابه الذين كانوا آمنوا به، وفرحت قريش واستهزءوا وآذوا، وحزن أبو طالب، فلما كان بعد أربعين يوماً، نزل عليه سورة الكهف، فقال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل، لقد أبطأت، فقال: إنا لا نقدر أن ننزل إلا بإذن الله، فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، ثم قص قصتهم، فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، قال: فقال الصادق عليه السلام: إن أصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمن ملك جبار عات، وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام، فمن لم يجبه قتله، وكان هؤلاء قوماً مؤمنين يعبدون الله عز وجل، ووكل الملك بباب المدينة ولم يدع أحداً يخرج حتى يسجد للأصنام، فخرجوا هؤلاء بعلة الصيد، وذلك أنهم مروا براع في طريقهم فدعوه إلى أمرهم، فلم يجبهم، وكان مع الراعي كلب، فأجابهم الكلب وخرج معهم، قال عليه السلام: فخرج أصحاب الكهف من المدينة بعلة الصيد، هرباً من دين ذلك الملك، فلما أمسوا دخلوا إلى ذلك الكهف والكلب معهم، فألقى الله عليهم النعاس، كما قال الله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]، فناموا حتى أهلك الله ذلك الملك وأهل المدينة، وذهب ذلك الزمان، وجاء زمان آخر وقوم آخرون، ثم انتبهوا، فقال بعضهم لبعض: كم نمنا هاهنا؟ فنظروا إلى الشمس قد ارتفعت، فقالوا: نمنا يوماً أو بعض يوم، ثم قالوا لواحد منهم: خذ هذه الورق وأدخل المدينة متنكراً لا يعرفونك، فاشتر لنا طعاماً، فإنهم إن علموا بنا وعرفونا قتلونا أو ردونا في دينهم، فجاء ذلك الرجل، فرأى مدينة

بخلاف التي عهدها، ورأى قوماً بخلاف أولئك لم يعرفهم، ولم يعرفوا لغته ولم يعرف لغتهم، فقالوا له: من أنت، ومن أين جئت؟ فأخبرهم، فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه والرجل معهم، حتى وقفوا على باب الكهف وأقبلوا يتطلعون فيه، فقال بعضهم: هؤلاء ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال بعضهم: خمسة سادسهم كلبهم، وقال بعضهم: سبعة وثامنهم كلبهم، وحجبهم الله بحجاب من الرعب، فلم يكن يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم، فإنه لما دخل عليهم وجدهم خائفين أن يكونوا أصحاب دقيانوس شعروا بهم، فأخبرهم صاحبهم أنهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل، وأنهم آية للناس، فبكوا وسألوا الله أن يعيدهم إلى مضاجعهم نائمين كما كانوا، ثم قال الملك: ينبغي أن نبني هاهنا مسجداً نزوره، فإن هؤلاء قوم مؤمنون، فلهم في كل سنة تقلبان: ينامون ستة أشهر على جنوبهم اليمنى، وستة أشهر على جنوبهم اليسرى، والكلب معهم باسط ذراعيه بفناء الكهف، وذلك قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] إلى آخر الآيات.

• أقول: والرواية من أوضح روايات القصة متنا وأسلمها من التشوش وهي مع ذلك تتضمن أن الذين اختلفوا في عددهم فقالوا: ثلاثة أو خمسة أو سبعة هم أهل المدينة الذين اجتمعوا على باب الكهف بعد انتباه الفتية وهو خلاف ظاهر الآية، وتتضمن أن أصحاب الكهف لم يموتوا ثانيا بل عادوا إلى نومتهم وكذلك كلبهم باسطا ذراعيه بالوصيد وأن لهم في كل سنة تقلبين من اليمين إلى اليسار وبالعكس وأنهم بعد على هيئتهم، ولا كهف معهودا على وجه الأرض وفيه قوم نيام على هذه الصفة.

• على أن في ذيل هذه الرواية، وقد تركنا نقله هاهنا لاحتمال أن يكون من كلام القمي أو رواية أخرى، أن قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ من كلام أهل الكتاب، وأن قوله بعده: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ رد له، وقد عرفت في البيان المتقدم أن السياق يدفعه والنظم البليغ لا يقبله.

ج. وقد تكاثرت الروايات في بيان القصة من طرق الفريقين لكنها متهافتة مختلفة لا يكاد يوجد منها خبران متوافقا المضمون من جميع الجهات:

• فمن الاختلاف ما في بعض الروايات كالرواية المتقدمة أن سؤالهم كان عن أربعة نبأ أصحاب الكهف ونبإ موسى والعالم ونبإ ذي القرنين وعن الساعة متى تقوم؟

• وفي بعضها أن السؤال كان عن خبر أصحاب الكهف وذي القرنين وعن الروح وقد ذكروا أن آية صدق النبي ﷺ أن لا يجيب آخر الأسئلة فأجاب عن نبإ أصحاب الكهف ونبإ ذي القرنين، ونزل ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الآية فلم يجب عنها، وقد عرفت في بيان آية الروح أن الكلام مسوق سوق الجواب وليس بتجاف.

• ومن ذلك ما في أكثر الروايات أنهم جماعة واحدة سمعوا أصحاب الكهف والرقيم، وفي بعضها أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف، وأن الله سبحانه أشار في كلامه إليهما معا لكنه قص قصة أصحاب الكهف وأعرض عن قصة أصحاب الرقيم، وذكروا لهم قصة وهي أن قوما وهم ثلاثة خرجوا يرتادون لأهلهم فأخذتهم السماء فأووا إلى كهف وانحطت صخرة من أعلى الجبل وسدت بابه، فقال بعضهم لبعض: ليذكر كل منا شيئا من عمله الصالح وليدع الله به لعله يفرج عنا فذكر واحد منهم منه عمله لوجه الله ودعا الله به فتنحت الصخرة قدر ما دخل عليهم الضوء ثم الثاني فتنحت حتى تعارفوا ثم الثالث ففرج الله عنهم فخرجوا رواه النعمان بن بشير مرفوعا عن النبي ﷺ، والمستأنس بأسلوب الذكر الحكيم يأبى أن يظن به أن يشير في دعوته إلى قصتين ثم يفصل القول في إحداهما وينسى الأخرى من أصلها.

• ومن ذلك ما تذكره الروايات أن الملك الذي هرب منه الفتية هو دقيانوس [ديوكليس: ٢٨٥ [م: ٣٠٥] م) ملك الروم وفي بعضها كان يدعي الألوهية، وفي بعض أنه كان دقيوس [دسيوس: ٢٤٩] م) ملك الروم وبينهما عشرات من السنين وكان الملك يدعو إلى عبادة الأصنام ويقتل أهل التوحيد، وفي بعض الروايات كان مجوسيا يدعو إلى دين المجوس، ولم يذكر التاريخ شيوع المجوسية هذا الشيوع في بلاد الروم، وفي بعض الروايات أنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام.

• ومن ذلك أن بعض الروايات تذكر أن الرقيم اسم البلد الذي خرجوا منه وفي بعضها اسم الوادي، وفي بعضها اسم الجبل الذي فيه الكهف، وفي بعضها اسم كلبهم، وفي بعضها هو لوح من حجر، وفي بعضها من رصاص، وفي بعضها من نحاس وفي بعضها من ذهب رقم فيه أسماؤهم وأسماء آبائهم وقصتهم ووضع على باب الكهف وفي بعضها داخله، وفي بعضها كان معلقا على باب المدينة، وفي بعضها في بعض خزائن الملوك وفي بعضها هما لوحان.

• ومن ذلك ما في بعض الروايات أن الفتية كانوا من أولاد الملوك، وفي بعضها من أولاد الأشراف، وفي بعضها من أولاد العلماء، وفي بعضها أنهم سبعة سابعهم كان راعي غنم لحق بهم هو وكلبه في الطريق، وفي حديث وهب بن منبه أنهم كانوا حماميين يعملون في بعض حمامات المدينة وساق لهم قصة دعوة الملك إلى عبادة الأصنام وفي بعضها أنهم كانوا من وزراء الملك يستشيرهم في أموره.

• ومن ذلك ما في بعض الروايات أنهم أظهروا المخالفة وعلم بها الملك قبل الخروج وفي بعضها أنه لم يعلم إلا بعد خروجهم وفي بعضها أنهم تواطئوا على الخروج فخرجوا وفي بعضها أنهم خرجوا على غير معرفة من بعضهم لحال بعض وعلى غير ميعاد ثم تعارفوا واتفقوا في الصحراء وفي بعضها أن راعي غنم لحق بهم وهو سابعهم وفي بعضها أنه لم يتبعهم وتبعهم كلبه وسار معهم.

• ومن ذلك ما في بعض الروايات أنهم لما هربوا واطلع الملك على أمرهم افتقدهم ولم يحصل منهم على أثر، وفي بعضها أنه فحص عنهم فوجدهم نياما في كهفهم فأمر أن يبنى على باب الكهف بنيان ليحتبسوا فيموتوا جوعا وعطشا جزاء لعصيانهم فبقوا على هذه الحال حتى إذا أراد الله أن ينبههم بعث راعي غنم فخرب البنيان ليتخذ حظيرة لغنمه وعند ذلك بعثهم الله أيقاظا وكان من أمرهم ما قصه الله.

• ومن ذلك ما في بعض الروايات أنه لما ظهر أمرهم أتاهم الملك ومعه الناس فدخل عليهم الكهف فكلمهم فبينا هو يكلمهم ويكلمونه إذ ودعوه وسلموا عليه وقضوا نحبهم، وفي بعضها أنهم ماتوا أو ناموا قبل أن يدخل الملك عليهم وسد باب الكهف وغاب عن أبصارهم فلم يهتدوا للدخول فبنوا هناك مسجدا يصلون فيه.

• ومن ذلك ما في بعض الروايات أنهم قبضت أرواحهم، وفي بعضها أن الله أرقدهم ثانيا فهم نيام إلى يوم القيامة، ويقلبهم كل عام مرتين من اليمين إلى الشمال وبالعكس.

• ومن ذلك اختلاف الروايات في مدة لبثهم ففي أكثرها أن الثلاثمائة وتسع سنين المذكور في الآية قول الله تعالى، وفي بعضها أنه محكي قول أهل الكتاب، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا﴾ رد له، وفي بعضها أن الثلاثمائة قوله سبحانه وزيادة التسع قول أهل الكتاب.

• إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف بين الروايات، وقد جمعت أكثرها من طرق أهل السنة في الدر المنثور، ومن طرق الشيعة في البحار، وتفسيري البرهان، ونور، الثقلين، من أراد الاطلاع عليها فليراجعها،

والذي يمكن أن تعد الروايات متفقة أو كالمتفقة عليه أنهم كانوا قوما موحدين هربوا من ملك جبار كان يجبر الناس على الشرك فأووا إلى الكهف فناموا إلى آخر ما قصه الله تعالى.

٣. وضع هنا مبحثا حول [قصة أصحاب الكهف]، خلاصته:

أ. وردت قصة الكهف مفصلة في عدة روايات عن الصحابة والتابعين وأئمة أهل البيت (كرواية القمي، ورواية ابن عباس، ورواية عكرمة، ورواية مجاهد، ورواية ابن إسحاق، ورواية وهب بن منبه، ورواية النعمان بن بشير)، لكنها مختلفة في متونها اختلافاً شديداً، ولا تكاد تتفق في جهة بارزة من جهات القصة.

ب. سبب اختلاف الروايات: اعتناء أهل الكتاب بالقصة ودخول إسرائيلياتها إلى الروايات الإسلامية، بالإضافة إلى أن القرآن لم يذكر جزئيات القصة (كالأسماء والأنساب والزمان والمكان) لأن القرآن ليس كتاب تاريخ بل كتاب هدى، والمفسرون حاولوا استيفاء القصة فاختلفوا.

ج. قصة أصحاب الكهف في القرآن: فتية آمنوا بالله في مجتمع مشرك، فاعتزلوا قومهم ودخلوا الكهف، فضرب الله على آذانهم سنين (ثلاثمائة وتسع سنين)، ثم بعثهم ليكونوا آية في المعاد، ثم توفاهم الله، واتخذ الناس على كهفهم مسجداً.

د. القصة عند غير المسلمين: المصادر السريانية تذكر عددهم ثمانية (والمسلمون يذكرون سبعة)، وتخلو من ذكر الكلب، وتذكر مدة لبثهم مائتي سنة (والمسلمون يذكرون ثلاثمائة وتسعاً)، وتحدد ذلك بأن الطاغية الذي هربوا منه هو دقيوس الملك (٢٤٩ م)، واستيقظوا في عهد ثئودوسيوس (٤٠٨ م)

هـ. مواقع كهف أصحاب الكهف: ادعي وجوده في عدة مواضع: كهف أفسوس في تركيا (وهو الأعرف عند النصارى لكنه لا ينطبق على مشخصات القرآن)، وكهف الرجيب في الأردن (وهو الأقرب انطباقاً على مشخصات القرآن)، وكهف قاسيون في دمشق، وكهف البتراء في فلسطين، وكهف في إسكاندنافية، وكهف في نخجوان بقفقاز، ولا شاهد قاطع على كون أي منها هو الكهف المذكور في القرآن.

٦. الفتية يلوذون بالكهف داعين ربهم:

المقطع [٦] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ

أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٠ـ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٤٧»:

١. ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾:

أ. الأوي الرجوع ولا كل رجوع بل رجوع الإنسان أو الحيوان إلى محل يستقر فيه أو ليستقر فيه والفتية جمع سماعي لفتى والفتى الشاب ولا تخلو الكلمة من شائبة مدح.

ب. والتهيئة الإعداد قال البيضاوي: (وأصل التهيئة إحداث هيأة الشيء) والرشد بفتحتين أو الضم فالسكون الاهتداء إلى المطلوب، قال الراغب: (الرشد والرشد خلاف الغي يستعمل استعمال الهداية)

٢. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾:

أ. تفريع لدعائهم على أويهم كأنهم اضطروا لفقد القوة وانقطاع الحيلة إلى المبادرة إلى المسألة، ويؤيده قولهم: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ فلو لا أن المذاهب أعيتهم والأسباب تقطعت بهم واليأس أحاط بهم ما قيدوا الرحمة المسئولة أن تكون من لدنه تعالى بل قالوا: آتنا رحمة كقول غيرهم ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] فالمراد بالرحمة المسئولة التأييد الإلهي إذ لا مؤيد غيره.

ب. ويمكن أن يكون المراد بالرحمة المسئولة من لدنه بعض المواهب والنعم المختصة به تعالى كالهداية التي يصرح في مواضع من كلامه بأنها منه خاصة، ويشعر به التقييد بقوله: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾، ويؤيده ورود نظيره في دعاء الراسخين في العلم المنقول في قوله: ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٨] فما سألوا إلا الهداية.

٣. ﴿وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾:

أ. المراد من أمرهم الشأن الذي يخصهم وهم عليه وقد هربوا من قوم يتبعون المؤمنين ويسفكون دماءهم ويكرهونهم على عبادة غير الله، والتجئوا إلى كهف وهم لا يدرون ما ذا سيجري عليهم؟ ولا يهتدون أي سبيل للنجاة يسلكون؟ ومن هنا يظهر أن المراد بالرشد الاهتداء إلى ما فيه نجاتهم.

ب. فالجملة أعني قوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾ على أول الاحتمالين السابقين في معنى الرحمة عطف تفسير على قوله: ﴿آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ وعلى ثانيهما مسألة بعد مسألة.

٤. ﴿فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾:

أ. قال في الكشاف: (أي ضربنا عليها حجابا من أن تسمع يعني أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال: بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة)

ب. وقال في المجمع: (ومعنى ضربنا على آذانهم سلطنا عليهم النوم، وهو من الكلام البالغ في الفصاحة يقال: ضربه الله بالفالج إذا ابتلاه الله به، قال قطرب: هو كقول العرب: ضرب الأمير على يد فلان إذا منعه من التصرف، قال الأسود بن يعفر وقد كان ضريرا:

ومن الحوادث لا أبالك أنني...ضربت علي الأرض بالأسداد

وقال: هذا من فصيح لغات القرآن التي لا يمكن أن يترجم بمعنى يوافق اللفظ)، وما ذكره من المعنى أبلغ مما ذكره الزمخشري.

ج. وهنا معنى ثالث وإن لم يذكروه: وهو أن يكون إشارة إلى ما تصنعه النساء عند إنامة الصبي غالبا من الضرب على أذنه بدق الأكف أو الأنامل عليها دقا نعيما لتتجمع حاسته عليه فيأخذه النوم بذلك فالجملة كناية عن إنامتهم سنين معدودة بشفقة وحنان كما تفعل الأم المرضع بطفلها الرضيع.

٥. ﴿سِنِينَ عَدَداً﴾:

أ. ظرف للضرب، والعدد مصدر كالعد بمعنى المعدود فالمعنى سنين معدودة، وقيل بحذف المضاف والتقدير ذوات عدد.

ب. وقد قال في الكشاف: (إن توصيف السنين بالعدد يحتمل أن يراد به التكثير أو التقليل لأن الكثير قليل عنده كقوله: لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، وقال الزجاج إن الشيء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعد وإذا كثر احتاج إلى أن يعد)

ج. وربما كانت العناية في التوصيف بالعدد هي أن الشيء إذا بلغ في الكثرة عسر عده فلم يعد عادة وكان التوصيف بالعدد أمارة كونه قليلا يقبل العد بسهولة، قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] أي قليلة.

د. وكون الغرض من التوصيف بالعدد هو التقليل هو الملائم للسياق على ما مر فإن الكلام مسرود

لنفي كون قصتهم عجبا وإنما يناسبه تقليل سني لبثهم لا تكثيرها.

هـ. ومعنى الآية ظاهر وقد دل فيها على كونهم نائمين في الكهف طول المدة لا ميتين.

٦. ﴿ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً﴾:

أ. المراد بالبعث هو الإيقاظ دون الإحياء بقرينة الآية السابقة، وقال الراغب: (الحزب جماعة فيها غلظ)، وقال: (الأمد والأبد يتقاربان لكن الأبد عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود ولا يتقيد لا يقال: أبد كذا، والأمد مدة لها حد مجهول إذا أطلق، وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا كما يقال: زمان كذا، والفرق بين الأمد والزمان أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدإ والغاية، ولذلك قال بعضهم: (المدى والأمد يتقاربان)

ب. والمراد بالعلم العلم الفعلي وهو ظهور الشيء وحضوره بوجوده الخاص عند الله، وقد كثر ورود العلم بهذا المعنى في القرآن كقوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨] وإليه يرجع قول بعضهم في تفسيره: (أن المعنى ليظهر معلومنا على ما علمناه.

٧. ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى﴾:

أ. تعليل للبعث واللام للغاية والمراد بالحزبين الطائفتان من أصحاب الكهف حين سأل بعضهم بعضا بعد البعث: قائلا كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم على ما يفيده قوله تعالى في الآيات التالية: ﴿وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾

ب. وأما قول القائل: إن المراد بالحزبين الطائفتان من قومهم المؤمنون والكافرون كأنهم اختلفوا في أمد لبثهم في الكهف بين مصيب في إحصائه ومخطئ فبعثهم الله تعالى ليبين ذلك ويظهر، والمعنى أيقظناهم ليظهر أي الطائفتين المختلفتين من المؤمنين والكافرين في أمد لبثهم مصيبة في قولها، فبعيد.

٨. ﴿أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً﴾ فعل ماض من الإحصاء، و(أمدا) مفعوله والظاهر أن ﴿لِما لَبِثُوا﴾ قيد لقوله: ﴿أَمَداً﴾ وما مصدرية أي أي الحزبين عد أمد لبثهم وقيل: أحصى اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد كقولهم: هو أحصى للمال وأفلس من ابن المذلق، وأمدا منصوب بفعل يدل عليه ﴿أَحْصى﴾ ولا يخلو من تكلف، وقيل غير ذلك.

٩. ومعنى الآيات الثلاث أعني قوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ إلى قوله: ﴿أَمَدًا﴾ إذ رجع الشبان إلى الكهف فسألوا عند ذلك ربهم قائلين: ربنا هب لنا من لدنك ما ننجو به مما يهددنا بالتخيير بين عبادة غيرك وبين القتل وأعد لنا من أمرنا هدى نهتدي به إلى النجاة فأنمناهم في الكهف سنين معدودة ثم أيقظناهم ليتبين أي الحزبين عد أمدا للبثهم.

١٠. والآيات الثلاث، كما ترى، تذكر إجمال قصتهم تشير بذلك إلى جهة كونهم من آيات الله وغرابة أمرهم، تشير الآية الأولى إلى دخولهم الكهف ومسألتهم للنجاة، والثانية إلى نومهم فيه سنين عددا، والثالثة إلى تيقظهم وانتباههم واختلافهم في تقدير زمان لبثهم.

١١. فلإجمال القصة أركان ثلاثة تتضمن كل واحدة من الآيات الثلاث واحدا منها وعلى هذا النمط تجري الآيات التالية المتضمنة لتفصيل القصة غير أنها تضيف إلى ذلك بعض ما جرى بعد ظهور أمرهم وتبين حالهم للناس، وهو الذي يشير إليه قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر آيات القصة.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن سليمان بن جعفر الهمداني قال: قال لي جعفر بن محمد عليه السلام يا سليمان من الفتى؟ فقلت له؟ جعلت فداك الفتى عندنا الشاب، قال لي: أما علمت أن أصحاب الكهف كانوا كلهم كهولا، فسماهم الله فتية بإيمانهم يا سليمان من آمن بالله واتقى فهو الفتى.

• أقول: وروي ما في معناه في الكافي، عن القمي مرفوعا عن الصادق عليه السلام، وقد روي عن ابن عباس أنهم كانوا شبانا.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر قال: كان أصحاب الكهف صيارفة.

• أقول: وروى القمي أيضا بإسناده عن سدير الصيرفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان أصحاب الكهف صيارفة: لكن في تفسير العياشي، عن درست عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه ذكر أصحاب الكهف، فقال: كانوا صيارفة كلام ولم يكونوا صيارفة دراهم.

ج. وفي تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان، وأظهروا الكفر فآجرهم الله مرتين.

• أقول: وروي في الكافي، ما في معناه عن هشام بن سالم عنه عليه السلام وروى ما في معناه العياشي

عن الكاهلي عنه عليه السلام وعن درست في خبرين عنه عليه السلام وفي أحد الخبرين: أنهم كانوا ليشدون الزنانير ويشهدون الأعياد.

• ولا يرد عليه أن ظاهر قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً﴾ الآية أنهم كانوا لا يرون التقية كما احتمله المفسرون في تفسير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ الآية وقد تقدم.

• وذلك لأنك عرفت أن خروجهم من المدينة كان هجرة من دار الشرك التي كانت تحرمهم إظهار كلمة الحق والتدين بدين التوحيد غير أن تواطيهم على الخروج وهم ستة من المعاريف وأهل الشرف وإعراضهم عن الأهل والمال والوطن لم يكن لذلك عنوان إلا المخالفة لدين الوثنية فقد كانوا على خطر عظيم لو ظهر عليهم القوم ولم ينته أمرهم إلا إلى أحد أمرين الرجم أو الدخول في ملة القوم.

• وبذلك يظهر أن قيامهم أول مرة وقولهم: ﴿رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً﴾ لم يكن بتظاهر منهم على المخالفة وتجاهر على ذم ملة القوم ورمي طريقتهم فما كانت الأوضاع العامة تجيز لهم ذلك، وإنما كان ذلك منهم قياما لله وتصميما على الثبات على كلمة التوحيد ولو سلم دلالة قوله: ﴿إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ على التظاهر ورفض التقية فقد كان في آخر أيام مكثهم بين القوم وكانوا قبل ذلك سائرين على التقية لا محالة، فقد بان أن سياق شيء من الآيتين لا ينافي كون الفتية سائرين على التقية ما داموا بين القوم وفي المدينة.

د. وفي تفسير العياشي، أيضا عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خرج أصحاب الكهف على غير معرفة ولا ميعاد، فلما صاروا في الصحراء أخذ بعضهم على بعض العهود والمواثيق، فأخذ هذا على هذا وهذا على هذا ثم قالوا: أظهروا أمركم فأظهروه فإذا هم على أمر واحد.

• أقول: وفي معناه ما عن ابن عباس في الخبر الآتي.

هـ. وفي تفسير روح المعاني، أسماؤهم على ما صح عن ابن عباس: مكسلمينا ويمليخا ومرطولس وثبيونس ودردونس، وكفاشيطيطوس ومنطنواسيس، وهو الراعي والكلب اسمه قطمير، قال: وروي عن علي كرم الله وجهه: إن أسماءهم: يمليخا ومكسلينيا ومسلينيا وهؤلاء أصحاب يمين الملك، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش، وهؤلاء أصحاب يساره، وكان يستشير الستة والسابع الراعي ولم يذكر في هذه

الرواية اسمه وذكر فيها أن اسم كلبهم قطمير، قال: وفي صحة نسبة هذه الرواية لعلي كرم الله وجه مقال وذكر العلامة السيوطي في حواشي البيضاوي، أن الطبراني روى ذلك عن ابن عباس في معجمه الأوسط، بإسناد صحيح، والذي في الدر المنثور، رواية الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح ما قدمناه عن ابن عباس، قال: وقد سموا في بعض الروايات بغير هذه الأسماء، وذكر الحافظ ابن حجر في شرح البخاري، أن في النطق بأسمائهم اختلافا كثيرا ولا يقع الوثوق من ضبطها، وفي البحر، أن أسماء أصحاب الكهف أعجمية لا تنضبط بشكل ولا نقط والسند في معرفتها ضعيف)، الرواية التي نسبها إلى علي عليه السلام هي التي رواها الثعلبي في العرائس، والديلمي في كتابه مرفوعة وفيها أعاجيب.

و. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: أصحاب الكهف أعوان المهدي.

ز. وفي البرهان، عن ابن الفارسي قال الصادق عليه السلام: يخرج للقائم عليه السلام من ظهر الكعبة سبعة وعشرون رجلا من قوم موسى، الذين كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون وسبعة من أهل الكهف، ويوشع بن نون، وأبو دجانة الأنصاري، ومقداد بن الأسود ومالك الأشتر، فيكونون بين يديه أنصارا وحكاما.

٧. إيمان الفتية وتوحيدهم وبراءتهم من الشرك:

المقطع [٧] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٥٠»:

١. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ﴾ شروع في ذكر ما يهم من خصوصيات قصتهم تفصيلا، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي آمنوا إيمانا مرضيا لربهم ولولا ذلك لم ينسبه إليهم قطعا.

٢. ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ الهدى بعد أصل الإيمان ملازم لارتقاء درجة الإيمان الذي فيه اهتداء الإنسان إلى كل ما ينتهي إلى رضوان الله قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]

٣. ﴿وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا﴾ إلى آخر الآيات الثلاث الربط هو الشد، والربط على

القلوب كناية عن سلب القلق والاضطراب عنها، والشطط الخروج عن الحد والتجاوز عن الحق، والسلطان الحجة والبرهان.

٤. والآيات الثلاث تحكي الشطر الأول من محاورتهم حين انتهضوا لمخالفة الوثنية ومخاصمتهم ﴿إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لولا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾، وقد أتوا بكلام مملوء حكمة وفهما راموا به إبطال ربوبية أرباب الأصنام من الملائكة والجن والمصلحين من البشر الذين رامت الفلسفة الوثنية إثبات ألوهيتهم وربوبيتهم دون نفس الأصنام التي هي تماثيل وصور لأولئك الأرباب تدعوها عامتهم آلهة وأربابا، ومن الشاهد على ذلك قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حيث أرجع إليهم ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ المختص بأولى العقل:

أ. فبدءوا بإثبات توحيده بقولهم: ﴿رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فأسندوا ربوبية الكل إلى واحد لا شريك له، والوثنية تثبت لكل نوع من أنواع الخلقية إلها وربا كرب السماء ورب الأرض ورب الإنسان.

ب. ثم أكدوا ذلك بقولهم: ﴿لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً﴾ ومن فائدته نفي الآلهة الذين تثبتهم الوثنية فوق أرباب الأنواع كالعقول الكلية التي تعبده الصابئة وبرهما وسيوا ووشنو الذين تعبدهم البراهمة والبوذية وأكدوه ثانيا بقولهم: ﴿لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً﴾ فدلوا على أن دعوة غيره من التجاوز عن الحد بالغلو في حق المخلوق برفعه إلى درجة الخالق.

ج. ثم كروا على القوم في عبادتهم غير الله سبحانه باتخاذهم آلهة فقالوا: ﴿هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لولا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ﴾ فردوا قولهم بأنهم لا برهان لهم على ما يدعونه يدل عليه دلالة بينة.

د. وما استدلوا به من قولهم: إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به إدراك خلقه فلا يمكن التوجه إليه بالعبادة ولا التقرب إليه بالعبودية فلا يبقى لنا إلا أن نعبد بعض الموجودات الشريفة من عباده المقربين ليقربونا إليه زلفى مردود إليهم أما عدم إحاطة الإدراك به تعالى فهو مشترك بيننا معاشر البشر وبين من يعبدونه من العباد المقربين، والجميع منا ومنهم يعرفونه بأسمائه وصفاته وآثاره كل على قدر طاقته فله أن يتوجه إليه بالعبادة على قدر معرفته، على أن جميع الصفات الموجبة لاستحقاق العبادة من الخلق والرزق

والملك والتدبير له وحده ولا يملك غيره شيئا من ذلك فله أن يعبد وليس لغيره ذلك.

هـ. ثم أردفوا قولهم: ﴿لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ﴾ بقولهم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ وهو من تمام الحجة الرادة لقولهم، ومعناه أن عليهم أن يقيموا برهانا قاطعا على قولهم فلو لم يقيموه كان قولهم من القول بغير علم في الله وهو افتراء الكذب عليه تعالى، والافتراء ظلم والظلم على الله أعظم الظلم، هذا فقد دلوا بكلامهم هذا أنهم كانوا علماء بالله أولي بصيرة في دينهم، وصدقوا قوله تعالى: ﴿وَزِدْناهُمْ هُدىً﴾ وفي الكلام على ما به من الإيجاز قيود تكشف عن تفصيل نهضتهم في بادئها فقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ يدل على أن قولهم: ﴿رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ لم يكن بإسرار النجوى وفي خلاٍ من عبدة الأوثان بل كان بإعلان القول والإجهار به في ظرف تذوب منه القلوب وترتاع النفوس وتقشعر الجلود في ملإ معاند يسفك الدماء ويعذب ويفتن.

٥. ﴿لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً﴾ بعد قوله: ﴿رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو جحد وإنكار، فيه إشعار وتلويح إلى أنه كان هناك تكليف إجباري بعبادة الأوثان ودعاء غير الله.

٦. ﴿إِذْ قامُوا فَقالُوا﴾:

أ. يشير إلى أنهم في بادئ قولهم كانوا في مجلس يصدر عنه الأمر بعبادة الأوثان والإجبار عليها والنهي عن عبادة الله والسياسة المتحلية بالقتل والعذاب كمجلس الملك أو ملئه أو ملإ عام كذلك فقاموا وأعلنوا مخالفتهم وخرجوا واعتزلوا القوم وهم في خطر عظيم يهددهم ويهجم عليهم من كل جانب كما يدل عليه قولهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾

ب. وهذا يؤيد ما وردت به الرواية، وسيجيء الخبر، أن ستة منهم كانوا من خواص الملك يستشيرهم في أموره فقاموا من مجلس وأعلنوا التوحيد ونفي الشريك عنه تعالى.

ج. ولا ينافي ذلك ما سيأتي من الروايات أنهم كانوا يسرون إيمانهم ويعملون بالتقية لجواز أن يكونوا سائرين عليها ثم يفاجئوا القوم بإعلان الإيمان ثم يعتزلوهم من غير مهل فلم تكن تسعهم إدامة التظاهر بالإيمان وإلا قتلوا بلا شك.

د. وربما احتمل أن يكون المراد بقيامهم قيامهم لله نصرة منهم للحق وقولهم: ﴿رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ قولا منهم في أنفسهم وقولهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ قولا منهم بعد ما خرجوا من المدينة، أو

يكون المراد قيامهم لله، وجميع ما نقل من أقوالهم إنما قالوها فيما بين أنفسهم بعد ما خرجوا من المدينة وتنحوا عن القوم وعلى الوجهين يكون المراد بالربط على قلوبهم أنهم لم يخافوا عاقبة الخروج والهرب من المدينة وهجرة القوم لكن الأظهر هو الوجه الأول.

٨. أمر الفتية بالاعتزال إلى الكهف:

المقطع [٨] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٥٣»:

١. ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾:

أ. الاعتزال والتعزل التنحي عن أمر، والنشر البسط، والمرفق بكسر الميم وفتح الفاء وبالعكس وبفتحهما المعاملة بلطف.

ب. هذا هو الشطر الثاني من محاورتهم جرت بينهم بعد خروجهم من بين الناس واعتزالهم إياهم وما يعبدون من دون الله وتنحيهم عن الجميع يشير به بعضهم عليهم أن يدخلوا الكهف ويتستروا فيه من أعداء الدين.

ج. وقد تفرسوا بهدى إلهي أنهم لو فعلوا ذلك عاملهم الله من لطفه ورحمته بما فيه نجاتهم من تحكم القوم وظلمهم والدليل على ذلك قولهم بالجزم: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ إلخ ولم يقولوا: عسى أن ينشر أو لعل.

د. وهذان اللذان تفرسوا بهما من نشر الرحمة وتهيئة المرفق هما اللذان سألوهما بعد دخول الكهف إذ قالوا، كما حكى الله ﴿رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾

هـ. والاستثناء في قوله: ﴿وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ استثناء منقطع فإن الوثنيين لم يكونوا يعبدون الله مع سائر آلهتهم حتى يفيد الاستثناء إخراج بعض ما دخل أولا في المستثنى منه فيكون متصلا فقول بعضهم: (إنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين، وكذا قول بعض آخر: يجوز أنه كان فيهم من يعبد الله مع عبادة الأصنام فيكون الاستثناء متصلا في غير محله، إذ لم يعهد من الوثنيين عبادة الله سبحانه مع عبادة الأصنام، وفلسفتهم لا تجيز ذلك، وقد أشرنا إلى حجتهم في ذلك آنفا.

٩. حراسة الله للفتية في كهفهم:

المقطع [٩] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٥٤»:

١. ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. التزاور هو التمايل مأخوذ من الزور بمعنى الميل والقرض القطع، والفجوة المتسع من الأرض وساحة الدار والمراد بذات اليمين وذات الشمال الجهة التي تلي اليمين أو الشمال أو الجهة ذات اسم اليمين أو الشمال وهما جهتا اليمين والشمال.

ب. وهاتان الآيتان تمثلان الكهف ومستقرهم منه ومنظرهم وما يتقلب عليهم من الحال أيام لبثهم فيه وهم رقود والخطاب للنبي ﷺ بما أنه سامع لا بما أنه هو، وهذا شائع في الكلام، والخطاب على هذا النمط يعم كل سامع من غير أن يختص بمخاطب خاص.

ج. فقوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ يصف موقع الكهف وموقعهم فيه وهم نائمون وأما إنامتهم فيه بعد الأوي إليه ومدة لبثهم فيه فقد اكتفي في ذلك بما أشير إليه في الآيات السابقة من إنامتهم ولبثهم وما سيأتي من قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ إيثارا للإيجاز.

د. والمعنى: وترى أنت وكل راء يفرض اطلاعه عليهم وهم في الكهف يرى الشمس إذا طلعت تتزاور وتتمايل عن كهفهم جانب اليمين فيقع نورها عليه، وإذا غربت تقطع جانب الشمال فيقع شعاعها عليه وهم في متسع من الكهف لا تناله الشمس.

هـ. وقد أشار سبحانه بذلك إلى أن الكهف لم يكن شرقيا ولا غربيا لا يقع عليه شعاع الشمس إلا في أحد الوقتين بل كان قطبيا يحاذي ببابه القطب فيقع شعاع الشمس على أحد جانبيه من داخل طلوعا وغروبا، ولا يقع عليهم لأنهم كانوا في متسع منه فوقاهم الله بذلك من أن يؤذيهم حر الشمس أو يغير ألوانهم أو يبلي ثيابهم بل كانوا مرتاحين في نومتهم مستفيدين من روح الهواء المتحول عليهم بالشروق

والغروب وهم في فجوة منه، ولعل تنكير فجوة للدلالة على وصف محذوف والتقدير وهم في فجوة منه لا يصيبهم فيه شعاعها.

و. وقد ذكر المفسرون أن الكهف كان بابه مقابلا للقطب الشمالي يسامت بنات النعش، والجانب الأيمن منه ما يلي المغرب ويقع عليه شعاع الشمس عند طلوعها والجانب الأيسر منه ما يلي المشرق وتناله الشمس عند غروبها، وهذا مبني على أخذ جهتي اليمين والشمال للكهف باعتبار الداخل فيه، وكأن ذلك منهم تعويلا على ما هو المشهور أن هذا الكهف واقع في بلدة أفسوس من بلاد الروم الشرقي فإن الكهف الذي هناك قطبي يقابل بابه القطب الشمالي متمايلا قليلا إلى المشرق على ما يقال.

ز. والمعمول في اعتبار اليمين واليسار لمثل الكهف والبيت والفسطاط وكل ما له باب أن يؤخذا باعتبار الخارج منه دون الداخل فيه فإن الإنسان أول ما أحس الحاجة إلى اعتبار الجهات أخذها لنفسه فسمى ما يلي رأسه وقدمه علوا وسفلا وفوق وتحت، وسمى ما يلي وجهه قدام وما يقابله خلف، وسمى الجانب القوي منه وهو الذي فيه يده القوية يمينا، والذي يخالفه شمالا ويسارا ثم إذا مست الحاجة إلى اعتبار الجهات في شيء فرض الإنسان نفسه مكانه فما كان من أطراف ذلك الشيء ينطبق عليه الوجه وهو الطرف الذي يستقبل به الشيء غيره تعين به قدامه وبما يقاطره خلفه، وبما ينطبق عليه يمين الإنسان من أطرافه يمينه وكذا بيسار الإنسان يساره.

ح. وإذ كان الوجه في مثل البيت والدار والفسطاط وكل ما له باب طرفه الذي فيه الباب كان تعين يمينه ويساره باعتبار الخارج من الباب دون الداخل منه، وعلى هذا يكون الكهف الذي وصفته الآية بما وصفت جنوبيا يقابل بابه القطب الجنوبي لا كما ذكروه، وللكلام تتمة ستوافيك إن شاء الله.

٢. وعلى أي حال كان وضعهم هذا من عناية الله ولطفه بهم ليستبقيهم بذلك حتى يبلغ الكتاب أجله، وإليه الإشارة بقوله عقيبه: ﴿ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً﴾

١٠. رقاد أصحاب الكهف وهيبته:

المقطع [١٠] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا

وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٥٥»:

١. ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ الأيقاظ جمع يقظ ويقظان والرقود جمع راقد وهو النائم، وفي الكلام تلويح إلى أنهم كانوا مفتوحي الأعين حال نومهم كالأيقاظ.

٢. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ﴾ أي ونقلبهم جهة اليمين وجهة الشمال، والمراد نقلبهم تارة من اليمين إلى الشمال وتارة من الشمال إلى اليمين لئلا تأكلهم الأرض، ولا تبلى ثيابهم، ولا تبطل قواهم البدنية بالركود والخمود طول المكث.

٣. ﴿وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الوصيد فناء البيت وقيل: عتبة الدار والمعنى كانوا على ما وصف من الحال والحال أن كلبهم مفترش بذراعيه باسط لهما بفناء الكهف وفيه إخبار بأنهم كان لهم كلب يلازمهم وكان ماكثا معهم طول مكثهم في الكهف.

٤. ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ بيان أنهم وحالهم هذا الحال كان لهم منظر موحش هائل لو أشرف عليهم الإنسان فر منهم خوفا من خطرهم تبعدا من المكروه المتوقع من ناحيتهم وملأ قلبه الروع والفزع رعبا وسرى إلى جميع الجوارح فملأ الجميع رعبا، والكلام في الخطاب الذي في قوله: ﴿لَوَلَّيْتَ﴾ وقوله: ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ كالكلام في الخطاب الذي في قوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾

٥. وقد بان بما تقدم من التوضيح:

أ. أولا: الوجه في قوله: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ ولم يقل: ولملىء قلبك رعبا.

ب. وثانيا: الوجه في ترتيب الجملتين: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ وذلك أن الفرار وهو التبعد من المكروه معلول لتوقع وصول المكروه تحذرا منه، وليس بمعلول للرعب الذي هو الخشية وتأثر القلب، والمكروه المترقب يجب أن يتحذر منه سواء كان هناك رعب أو لم يكن، فتقديم الفرار على الرعب ليس من قبيل تقديم المسبب على سببه بل من تقديم حكم الخوف على الرعب وهما حالان متغايران قلبيان، ولو كان بدل الخوف من الرعب لكان من حق الكلام تقديم الجملة الثانية وتأخير الأولى وأما بناء على ما ذكرناه فتقديم حكم الخوف على حصول الرعب وهما جميعا أثران للاطلاع على منظرهم الهائل الموحش أحسن وأبلغ لأن الفرار أظهر دلالة على ذلك من الامتلاء بالرعب.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، الذي ذكر الله في القرآن فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع الله ذلك عمن هو خير منك فقال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث رجالا فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف فانظروا فذهبوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم، فبلغ ذلك ابن عباس فأنشأ يحدث عنهم، فقال: إنهم كانوا في مملكة ملك من الجبابرة، فجعلوا يعبدون حتى عبدوا الأوثان وهؤلاء الفتية في المدينة، فلما رأوا ذلك خرجوا من تلك المدينة، فجمعهم الله على غير ميعاد فجعل بعضهم يقول لبعض: أين تريدون؟ أين تذهبون؟ فجعل بعضهم يخفي على بعض لأنه لا يدري هذا على ما خرج هذا، ولا يدري هذا فأخذوا العهود والمواثيق أن يخبر بعضهم بعضا، فإن اجتمعوا على شيء وإلا كتم بعضهم بعضا، فاجتمعوا على كلمة واحدة فقالوا: ﴿رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿مِرْفَقاً﴾ قال: فقعدوا فجاء أهلهم يطلبونهم لا يدرون أين ذهبوا؟ فرفع أمرهم إلى الملك فقال: ليكونن لهؤلاء القوم بعد اليوم شأن، ناس خرجوا لا يدرى أين ذهبوا في غير خيانة ولا شيء يعرف؟ فدعا بلوح من رصاص فكتب فيه أسماءهم، ثم طرح في خزانته فذلك قول الله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ والرقيم هو اللوح الذي كتبوا، فانطلقوا حتى دخلوا الكهف، فضرب الله على آذانهم فناموا، فلو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولولا أنهم يقلبون لأكلتهم الأرض، وذلك قول الله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ الآية، قال: ثم إن ذلك الملك ذهب وجاء ملك آخر، فعبد الله وترك تلك الأوثان وعدل في الناس، فبعثهم الله لما يريد فقال قائل منهم: كم لبثتم؟ فقال بعضهم: (يوما وقال بعضهم: (يومين، وقال بعضهم: (أكثر من ذلك فقال كبيرهم: لا تختلفوا فإنه لم يختلف قوم قط إلا هلكوا، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة، فرأى شارة أنكرها ورأى بنيانا أنكره، ثم دنا إلى خباز فرمى إليه بدرهم، وكانت دراهمهم كخفاف الربع يعني ولد الناقة، فأنكر الخباز الدرهم فقال: من أين لك هذا الدرهم؟ لقد وجدت كنزا لتدلني عليه أو لأرفعنك إلى الأمير، فقال: أوتخوفني بالأمير؟ وأتى الدهقان الأمير قال: من أبوك؟ قال: فلان فلم يعرفه قال: فمن الملك؟ قال: فلان فلم يعرفه، فاجتمع عليهم الناس فرفع إلى عالمهم فسأله فأخبره فقال: علي باللوح فجيء به فسمى أصحابه فلانا وفلانا، وهم مكتوبون في اللوح فقال للناس: إن

الله قد دلكم على إخوانكم، وانطلقوا وركبوا حتى أتوا إلى الكهف، فلما دنوا من الكهف قال الفتى، مكانكم أنتم حتى أدخل أنا على أصحابي، ولا تهجموا فيفزعون منكم، وهم لا يعلمون أن الله قد أقبل بكم وتاب عليكم فقالوا: لتخرجن علينا؟ قال: نعم إن شاء الله فدخل فلم يدروا أين ذهب؟ وعمي عليهم فطلبوا وحرضوا فلم يقدروا على الدخول عليهم، فقالوا: لنتخذن عليهم مسجدا، فاتخذوا عليهم مسجدا يصلون عليهم ويستغفرون لهم.

• أقول: والرواية مشهورة أوردها المفسرون في تفاسيرهم وتلقوها بالقبول وهي بعد غير خالية عن أشياء منها أن ظاهرها أنهم بعد على هيئة النيام لا يمكن الاطلاع عليهم بصرف إلهي، والكهف الذي في المضيق وهو كهف أفسوس المعروف اليوم ليس على هذا النعت.

• والآية التي تمسك بها ابن عباس إنما تمثل حالهم وهم رقود قبل البعث لا بعده وقد وردت عن ابن عباس رواية أخرى تخالف هذه الرواية وهي ما في الدر المنثور، عن عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن عكرمة وقد ذكرت فيها القصة وفي آخرها: فركب الملك وركب معه الناس حتى) إلى الكهف فقال الفتى: دعوني أدخل إلى أصحابي فلما أبصروه وأبصرهم ضرب على آذانهم فلما استبطئوه دخل الملك ودخل الناس معه فإذا أجساد لا يبلى منها شيء غير أنها لا أرواح فيها فقال الملك: هذه آية بعثها الله لكم، فغزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة فمروا بالكهف فإذا فيه عظام فقال رجل: هذه عظام أهل الكهف فقال ابن عباس ذهبت عظامهم أكثر من ثلاثمائة سنة الحديث.

• وتزيد هذه الرواية إشكالا أن قوله: ذهبت عظامهم (إلخ) يؤدي إلى وقوع القصة في أوائل التاريخ الميلاد أو قبله فتخالف حينئذ عامة الروايات إلا ما تقول إنهم كانوا قبل المسيح.

• ومنها ما في قوله: (فقال بعضهم: (يوما وقال بعضهم: (يومين) والذي وقع في القرآن: ﴿قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ﴾ وهو المعقول الموافق للاعتبار من قوم ناموا ثم انتبهوا وتكلموا في مدة لبثهم أخذا بشواهد الحال وأما احتمال اليومين وأزيد فمما لا سبيل إليه ولا شاهد يشهد عليه عادة على أن اختلافهم في تشخيص مدة اللبث لم يكن من الاختلاف المذموم الذي هو اختلاف في العمل في شيء حتى يؤدي إلى الهلاك فينهى عنه وإنما هو اختلاف في النظر ولا مناص.

• ومنها ما في آخرها أنه دخل فلم يدروا أين ذهب؟ وعمي عليهم (إلخ) كان المراد به ما في بعض

الروايات أن باب الكهف غاب عن أنظارهم بأن مسحه الله وعفاه، ولا يلائم ذلك ما في صدر الرواية أنه كان ظاهرا معروفا في تلك الديار فهل مسحه الله لذلك الملك وأصحابه ثم أظهره للناس؟

• وما في صدر الرواية من قول ابن عباس إن الرقيم لوح من رصاص مكتوب فيه أسماؤهم) روى ما في معناه العياشي في تفسيره، عن أحمد بن علي عن أبي عبد الله عليه السلام وقد روي في روايات أخرى عن ابن عباس إنكاره كما في الدر المنثور، عن سعيد بن منصور وعبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم والزجاجي في أماليه وابن مردويه عن ابن عباس قال: لا أدري ما الرقيم وسألت كعبا فقال، اسم القرية التي خرجوا منها.

ب. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن سنان عن البطيخي عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ قال: إن ذلك لم يعن به النبي ﷺ إنما عني به المؤمنون بعضهم لبعض، لكنه حالهم التي هم عليها.

١١. بعث أصحاب الكهف وسؤالهم عن مدة لبثهم وحاجتهم:

المقطع [١١] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ١٩-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٥٧»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. التساؤل سؤال بعض القوم بعضا، والورق بالفتح فالكسر: الدراهم، وقيل هو الفضة مضروبة كانت أو غيرها، وقوله: إن يظهروا عليكم أي إن يطلعوا عليكم أو إن يظفروا بكم.

ب. والإشارة بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ إلى إنامتهم بالصورة التي مثلتها الآيات السابقة أي كما أنمناهم في الكهف دهرا طويلا على هذا الوضع العجيب المدهش الذي كان آية من آياتنا كذلك بعثناهم وأيقظناهم ليتساءلوا بينهم.

ج. وهذا التشبيه وجعل التساؤل غاية للبعث مع ما تقدم من دعائهم لدى ورود الكهف وإنامتهم

إثر ذلك يدل على أنهم إنما بعثوا من نومتهم ليتساءلوا فيظهر لهم حقيقة الأمر، وإنما أنيموا ولبثوا في نومتهم دهرا ليبعثوا، وقد نومهم الله إثر دعائهم ومسألتهم رحمة من عند الله واهتداء مهيأ من أمرهم فقد كان أزعجهم استيلاء الكفر على مجتمعهم وظهور الباطل وإحاطة القهر والجبر وهجم عليهم اليأس والقنوط من ظهور كلمة الحق وحرية أهل الدين في دينهم فاستطالوا لبث الباطل في الأرض وظهوره على الحق كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه.

د. وبالجملة لما غلبت عليهم هذه المزعمة واستيأسوا من زوال غلبة الباطل أنامهم الله سنين عددا ثم بعثهم ليتساءلوا فيجيبوا بيوم أو بعض يوم ثم ينكشف لهم تحول الأحوال ومرور مآت من السنين عند غيرهم وهي بنظرة أخرى كيوم أو بعض يوم فيعلموا أن طول الزمان وقصره ليس بذاك الذي يميت حقا أو يحيي باطلا وإنما هو الله سبحانه جعل ما على الأرض زينة لها وجذب إليها الإنسان وأجرى فيها الدهور والأيام ليبلوهم أيهم أحسن عملا، وليس للدنيا إلا أن تغر بزينتها طالبيها ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه.

هـ. وهذه حقيقة لا تزال لائحة للإنسان كلما انعطف على ما مرت عليه من أيامه السالفة وما جرت عليه من الحوادث حلوها ومرها وجدها كطائف في نومة أو سنة في مثل يوم غير أن سكر الهوى والتلهي بلهو الدنيا لا يدعه أن ينتبه للحق فيتبعه لكن لله سبحانه على الإنسان يوم لا يشغله عن مشاهدة هذه الحقيقة شاغل من زينة الدنيا وزخرفها وهو يوم الموت كما عن علي عليه السلام: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ويوم آخر وهو يوم يطوي فيه بساط الدنيا وزينتها ويقضي على العالم الإنساني بالبيد والانقراض.

٢. وقد ظهر بما تقدم أن قوله تعالى: ﴿لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ غاية لبعثهم واللام لتعليل الغاية، وتنطبق على ما مر من الغاية في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً﴾:

أ. وذكر بعضهم: أنه بعض الغاية وضع موضعها لاستتباعه لسائر آثار البعث كأنه قيل ليتساءلوا بينهم وينجر ذلك إلى ظهور أمرهم وانكشاف الآية وظهور القدرة وهذا مع عدم شاهد عليه من جهة اللفظ تكلف ظاهر.

ب. وذكر آخرون: أن اللام في قوله: ﴿لِيَتَساءَلُوا﴾ للعاقبة دون الغاية استبعادا لأن يكون التساؤل وهو أمر هين غاية للبعث وهو آية عظيمة، وفيه أن جعل اللام للعاقبة لا يجدي نفعا في دفع ما استبعده إذ

كما لا ينبغي أن يجعل أمر هين للغاية مطلوبة لأمر خطير وآية عظيمة كذلك لا يحسن ذكر شيء يسير عاقبة لأمر ذي بال وآية عجيبة مدهشة على أنك عرفت صحة كون التساؤل علة غائية للبعث آنفا.

٣. ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ دليل على أن السائل عن لبثهم كان واحدا منهم خاطب الباقين وسألهم عن مدة لبثهم في الكهف نائمين وكأن السائل استشعر طولا في لبثهم مما وجده من لوثة النوم الثقيل بعد التيقظ فقال: كم لبثتم؟

٤. ﴿قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾:

أ. ترددوا في جوابهم بين اليوم وبعض اليوم وكأنهم بنوا الجواب على ما شاهدوا من تغير محل وقوع الشمس كأن أخذوا في النوم أوائل النهار وانتبهوا في أواسطه أو أواخره ثم شكوا في مرور الليل عليهم فيكون مكثهم يوما وعدم مروره فيكون بعض يوم فأجابوا بالترديد بين يوم وبعض يوم وهو على أي حال جواب واحد.

ب. وقول بعضهم: (إن الترديد على هذا يجب أن يكون بين بعض يوم ويوم وبعض لا بين يوم وبعض يوم فالوجه أن يكون ﴿أَوْ﴾ للتفصيل لا للترديد والمعنى قال بعضهم: لبثنا يوم وقال بعض آخر: لبثنا بعض يوم، لا يلتفت إليه:

• أما أولا فلأن هذا المعنى لا يتلقى من سياق مثل قوله: ﴿لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ البتة وقد أجاب بمثله شخص واحد بعينه قال تعالى: ﴿قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ: لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

• وأما ثانيا فلأن قولهم: ﴿لَبِثْنا يَوْماً﴾ إنما أخذوه عما استدلوا به من الأمور المشهودة لهم لجلالة قدرهم عن التحكم والتهوس والمجازفة والأمور الخارجية التي يستدل بها الإنسان وخاصة من نام ثم انتبه من شمس وظل ونور وظلمة ونحو ذلك لا تشخص مقدار اليوم التام من غير زيادة ونقيصة سواء في ذلك الترديد والتفصيل فالمراد باليوم على أي حال ما يزيد على ليلة بنهارها بعض الزيادة وهو استعمال شائع.

٥. ﴿قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ﴾ أي قال بعض آخر منهم ردا على القائلين: ﴿لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ﴾ ولو لم يكن ردا لقالوا ربنا أعلم بما لبثنا.

٦. وبذلك يظهر أن إحالة العلم إلى الله تعالى في قولهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾:

أ. ليس لمجرد مراعاة حسن الأدب كما قيل بل لبيان حقيقة من حقائق معارف التوحيد وهي أن العلم بحقيقة معنى الكلمة ليس إلا لله سبحانه فإن الإنسان محجوب عما وراء نفسه لا يملك بإذن الله إلا نفسه ولا يحيط إلا بها وإنما يحصل له من العلم بما هو خارج عن نفسه ما دلت عليه الأمارات الخارجية وبمقدار ما ينكشف بها وأما الإحاطة بعين الأشياء ونفس الحوادث وهو العلم حقيقة فإنما هو لله سبحانه المحيط بكل شيء الشهيد على كل شيء والآيات الدالة على هذه الحقيقة لا تحصى.

ب. فليس للموحد العارف بمقام ربه إلا أن يسلم الأمر له وينسب العلم إليه ولا يسند إلى نفسه شيئا من الكمال كالعلم والقدرة إلا ما اضطر إليه فيبدأ بربه فينسب إليه حقيقة الكمال ثم لنفسه ما ملكه الله إياه وأذن له فيه كما قال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وقال: ﴿قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا﴾ [البقرة: ٣٢] إلى آيات أخرى كثيرة.

ج. ويظهر بذلك أن القائلين منهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ﴾ كانوا أعلى كعبا في مقام المعرفة من القائلين: ﴿لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولم يريدوا بقولهم هذا مجرد إظهار الأدب وإلا لقالوا: ربنا أعلم بما لبثنا ولم يكونوا أحد الحزبين اللذين أشار سبحانه إليهما بقوله فيما سبق: ﴿ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً﴾ فإن إظهار الأدب لا يسمى قولا وإحصاء ولا الآتي به ذا قول وإحصاء.

د. والظاهر أن القائلين منهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ﴾ غير القائلين: ﴿لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فإن السياق سياق المحاورة والمجاوبة كما قيل ولازمه كون المتكلمين ثانيا غير المتكلمين أولا ولو كانوا هم الأولين بأعيانهم لكان من حق الكلام أن يقال: ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا بدل قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾

هـ. ومن هنا يستفاد أن القوم كانوا سبعة أو أزيد إذ قد وقع في حكاية محاورتهم ﴿قالَ﴾ مرة و﴿قالُوا﴾ مرتين وأقل الجمع ثلاثة فقد كانوا لا يقل عددهم من سبعة.

٧. ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾:

أ. من تتمة المحاورة وفيه أمر أو عرض لهم أن يرسلوا رسولا منهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاما يتغذون به والضمير في ﴿أَيُّها﴾ راجع إلى المدينة والمراد بها أهلها من الكسبة استخداما.

ب. وزكاء الطعام كونه طيبا وقيل: كونه حلالا وقيل: كونه طاهرا وووروده بصيغة أفعل التفضيل ﴿أَزْكى طَعاماً﴾ لا يخلو من إشعار بالمعنى الأول.

ج. والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ للطعام المفهوم من الكلام وقيل: للأزكى طعاما و(من) للابتداء أو التبعيض أي ليأتكم من ذلك الطعام الأزكى برزق ترتزقون به، وقيل: الضمير للورق و(من) للبداية وهو بعيد لإحواجه إلى تقدير ضمير آخر يرجع إلى الجملة السابقة وكونه ضمير التذكير وقد أشير إلى الورق بلفظ التأنيث من قبل.

٨. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ التلطف إعمال اللطف والرفق وإظهاره فقوله: ﴿وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ عطف تفسيري له والمراد على ما يعطيه السياق: ليتكلف اللطف مع أهل المدينة في ذهابه ومجيئه ومعاملته لهم كي لا يقع خصومة أو منازعة لتؤدي إلى معرفتهم بحالكم وإشعارهم بكم، وقيل المعنى ليتكلف اللطف في المعاملة وإطلاق الكلام يدفعه.

٩. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾:

أ. تعليل للأمر بالتلطف وبيان لمصلحته.

ب. ظهر على الشيء بمعنى اطلع عليه وعلم به وبمعنى ظفر به وقد فسرت الآية بكل من المعنيين والكلمة على ما ذكره الراغب مأخوذة من الظهر بمعنى الجارحة مقابل البطن فكان هو الأصل ثم أستعير للأرض فقيل: ظهر الأرض مقابل بطنها ثم أخذ منه الظهور بمعنى الانكشاف مقابل البطون للملازمة بين الكون على وجه الأرض وبين الرؤية والاطلاع وكذا بينه وبين الظفر وكذا بينه وبين الغلبة عادة فقيل: ظهر عليه أي اطلع عليه وعلم بمكانه أو ظفر به أو غلبه ثم اتسعوا في الاشتقاق فقالوا: أظهر وظاهر وتظاهر واستظهر إلى غير ذلك.

ج. وظاهر السياق أن يكون ﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم فإنه أجمع المعاني لأن القوم كانوا ذوي أيد وقوة وقد هربوا واستخفوا منهم فلو اطلعوا عليهم ظفروا بهم وغلبوهم على ما أرادوا.

د. ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي يقتلوكم بالحجارة وهو شر القتل ويتضمن معنى النفرة والطرد، وفي اختيار الرجم على غيره من أصناف القتل إشعار بأن أهل المدينة عامة كانوا يعادونهم لدينهم فلو ظهروا عليهم بادروا إليهم وتشاركوا في قتلهم والقتل الذي هذا شأنه يكون بالرجم عادة.

١٠. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾:

أ. الظاهر أن الإعادة مضمن معنى الإدخال ولذا عدي بفي دون إلى.

ب. وكان لازم دخولهم في ملتهم عادة وقد تجاهروا برفضها وسموها شططا من القول وافتراء على الله بالكذب، أن لا يقنع القوم بمجرد اعترافهم بحقية الملة صورة دون أن يثقوا بصدقهم في الاعتراف ويراقبوهم في أعمالهم فيشاركوا الناس في عبادة الأوثان والإتيان بجميع الوظائف الدينية التي لهم والحرمان عن العمل بشيء من شرائع الدين الإلهي والتفوه بكلمة الحق.

ج. وهذا كله لا بأس به على من اضطر على الإقامة في بلاد الكفر والانحصار بين أهله كالأسير المستضعف بحكم العقل والنقل وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾ [النحل: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] فله أن يؤمن بقلبه وينكره بلسانه وأما من كان بنجوة منهم وهو حر في اعتقاده وعمله ثم ألقى بنفسه في مهلكة الضلال وتسبب إلى الانحصار في مجتمع الكفر فلم يستطع التفوه بكلمة الحق وحرم التلبس بالوظائف الدينية الإنسانية فقد حرم على نفسه السعادة ولن يفلح أبدا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ٩٧]

١١. وبهذا يظهر وجه ترتب قوله: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ على قوله: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ويندفع ما قيل: إن إظهار الكفر بالإكراه مع إبطان الإيمان معفو عنه في جميع الأزمان فكيف رتب على العود في ملتهم عدم الفلاح أبدا مع أن الظاهر من حالهم الكره هذا فإنهم لو عرضوا بأنفسهم عليهم أو دلوهم بوجه على مكانهم فأعادوهم في ملتهم ولو على كره كان ذلك منهم تسببا اختياريا إلى ذلك ولم يعذروا البتة، وقد أجابوا عن الإشكال بوجوه أخر غير مقنعة:

أ. منها: أن الإكراه على الكفر قد يكون سببا لاستدراج الشيطان إلى استحسانه والاستمرار عليه وفيه أن لازم هذا الوجه أن يقال: ويخاف عليكم أن لا تفلحوا أبدا إلا أن يقضى بعدم الفلاح قطعا.

ب. ومنها: أنه يجوز أن يكون أراد يعيدوكم إلى دينهم بالاستدعاء دون الإكراه وأنت خبير بأن سياق القصة لا يساعد عليه.

ج. ومنها: أنه يجوز أن يكون في ذلك الوقت كان لا يجوز التقية بإظهار الكفر مطلقا وفيه عدم

الدليل على ذلك.

١٢. وسياق ما حكى من محاورتهم أعني قوله: ﴿لَبِثْتُمْ﴾ إلى تمام الآيتين سياق عجيب دال على كمال تحابهم في الله ومواخاتهم في الدين وأخذهم بالمساواة بين أنفسهم ونصح بعضهم لبعض وإشفاق بعضهم على بعض فقد تقدم أن قول القائلين: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ﴾ تنبيه ودلالة على موقع من التوحيد أعلى وأرفع درجة مما يدل عليه قول الآخرين ﴿لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾

١٣. ثم قول القائل: ﴿فَابْعَثُوا﴾ حيث عرض بعث الرسول على الجميع ولم يستبد بقول: ليذهب أحدكم وقوله: ﴿أَحَدَكُمْ﴾ ولم يقل اذهب يا فلان أو ابعثوا فلانا وقوله: ﴿بِوَرِقِكُمْ هذِهِ﴾ فأضاف الورق إلى الجميع كل ذلك دليل المواخاة والمساواة.

١٤. ثم قوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً﴾ وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ نصح وقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ إلخ نصح لهم وإشفاق على نفوسهم بما هم مؤمنون على دينهم.

١٥. ﴿بِوَرِقِكُمْ هذِهِ﴾ على ما فيه من الإضافة والإشارة المعينة لشخص الورق مشعر بعناية خاصة بذكرها فإن سياق استدعاء أن يبعثوا أحدا لاشتراء طعام لهم لا يستوجب بالطبع ذكر الورق التي يشتري بها الطعام والإشارة إليها بشخصها ولعلها إنما ذكرت في الآية مع خصوصية الإشارة لأنها كانت هي السبب لظهور أمرهم وانكشاف حالهم لأنها حين أخرجها رسومها ليدفعها ثمنا للطعام كانت من مسكوكات عهد مرت عليها ثلاثة قرون وليس في آيات القصة ما يشعر بسبب ظهور أمرهم وانكشاف حالهم إلا هذه اللفظة.

١٢. حكمة الله في العثور على أصحاب الكهف وبناء المسجد عليهم:

المقطع [١٢] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٦٣»:

١. ﴿وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾:

أ. قال في المفردات: (عثر الرجل يعثر عثرا وعثورا إذا سقط ويتجوز به فيمن يطلع على أمر من غير طلبه قال تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ يقال عثرت على كذا قال: ﴿وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ﴾ أي وقفناهم عليهم من غير أن طلبوا)

ب. والتشبيه في قوله: ﴿وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ﴾ كنظيره في قوله: ﴿وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ﴾ أي وكما أنساهم دهرا ثم بعثناهم لكذا وكذا كذلك أعثرنا عليهم ومفعول أعثرنا هو الناس المدلول عليه بالسياق كما يشهد به ذيل الآية وقوله: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾

ج. ضمير الجمع للناس والمراد بوعد الله على ما يعطيه السياق البعث ويكون قوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها﴾ عطفا تفسيريا لسابقه.

٢. ﴿إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾:

أ. ظرف لقوله: ﴿أَعْثَرْنا﴾ أو لقوله: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ والتنازع التخاصم قيل: أصل التنازع التجاذب ويعبر به عن التخاصم وهو باعتبار أصل معناه يتعدى بنفسه، وباعتبار التخاصم يتعدى بفي كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾)

ب. والمراد بتنازع الناس بينهم أمرهم تنازعهم في أمر البعث وإنما أضيف إليهم إشعارا باهتمامهم واعتنائهم بشأنه فهذه حال الآية من جهة مفرداتها بشهادة بعضها على بعض.

ج. والمعنى على ما مر: وكما أنمناهم ثم بعثناهم لكذا وكذا أطلعنا الناس عليهم في زمان يتنازعون أي الناس بينهم في أمر البعث ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق وأن الساعة لا ريب فيها.

د. أو المعنى أعثرنا عليهم ليعلم الناس مقارنا لزمان يتنازعون فيه بينهم في أمر البعث أن وعد الله بالبعث حق.

٣. وأما دلالة بعثهم عن النوم على أن البعث يوم القيامة حق:

أ. فإنما هو من جهة أن انتزاع أرواحهم عن أجسادهم ذاك الدهر الطويل وتعطيل شعورهم وركود حواسهم عن أعمالها وسقوط آثار القوى البدنية كالنشو والنماء ونبات الشعر والظفر وتغير الشكل وظهور الشيب وغير ذلك وسلامة ظاهر أبدانهم وثيابهم عن الدثور والبلى ثم رجوعهم إلى حالهم يوم دخلوا الكهف بعينها يماثل انتزاع الأرواح عن الأجساد بالموت ثم رجوعها إلى ما كانت عليها، وهما معا من

خوارق العادة لا يدفعها إلا الاستبعاد من غير دليل.

ب. وقد حدث هذا الأمر في زمان ظهر التنازع بين طائفتين من الناس موحد يرى مفارقة الأرواح الأجساد عند الموت ثم رجوعها إليها في البعث ومشرك يرى مغايرة الروح البدن ومفارقتها له عند الموت لكنه لا يرى البعث وربما رأى التناسخ.

ج. فحدوث مثل هذه الحادثة في مثل تلك الحال لا يدع ريبا لأولئك الناس أنها آية إلهية قصد بها إزالة الشك عن قلوبهم في أمر البعث بالدلالة بالماثل على المماثل ورفع الاستبعاد بالوقوع.

د. ويقوى هذا الحدس منهم ويشتد بموتهم بعيد الانبعاث فلم يعيشوا بعده إلا سويعات لم تسع أزيد من اطلاع الناس على حالهم واجتماعهم عليهم واستخبارهم عن قصتهم وإخبارهم بها.

٤. ومن هنا يظهر وجه آخر لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ وهو رجوع الضميرين الأولين إلى الناس والثالث إلى أصحاب الكهف وكون ﴿إِذْ﴾ ظرفا لقوله: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ ويؤيده قوله بعده: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ على ما سيجيء، والاعتراض على هذا الوجه:

أ. أولا: بأنه يستدعي كون التنازع بعد الإعثار وليس كذلك.

ب. وثانيا بأن التنازع كان قبل العلم وارتفع به فكيف يكون وقته وقته، مدفوع بأن التنازع على هذا الوجه في الآية هو تنازع الناس في أمر أصحاب الكهف وقد كان بعد الإعثار ومقارنا للعلم زمانا، والذي كان قبل الإعثار وقبل العلم هو تنازعهم في أمر البعث وليس بمراد على هذا الوجه.

٥. ﴿فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾:

أ. القائلون هم المشركون من القوم بدليل قوله بعده: ﴿قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ﴾ والمراد ببناء البنيان عليهم على ما قيل أن يضرب عليهم ما يجعلون به وراءه ويسترون عن الناس فلا يطلع عليهم مطلع منهم كما يقال: بنى عليه جدارا إذا حوطه وجعله وراءه.

ب. وهذا الشطر من الكلام بانضمامه إلى ما قبله من قوله: ﴿وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ﴾ ﴿وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ﴾ يلوح إلى تمام القصة كأنه قيل: ولما أن جاء رسولهم إلى المدينة وقد تغيرت الأحوال وتبدلت الأوضاع بمرور ثلاثة قرون على دخولهم في الكهف وانقضت سلطة الشرك وألقي زمام المجتمع إلى التوحيد وهو لا يدري لم يلبث دون أن ظهر أمره وشاع خبره فاجتمع عليه الناس ثم هجموا وازدحموا على

باب الكهف فاستنبئوهم قصتهم وحصلت الدلالة الإلهية ثم إن الله قبضهم إليه فلم يلبثوا أحياء بعد انبعاثهم إلا سويعات ارتفعت بها عن الناس شبهتهم في أمر البعث وعندئذ قال المشركون ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم.

ج. وفي قوله: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ إشارة إلى وقوع خلاف بين الناس المجتمعين عليهم أمرهم، فإنه كلام آيس من العلم بهم واستكشاف حقيقة أمرهم يلوح منه أن القوم تنازعوا في شيء مما يرجع إليهم فتبصر فيه بعضهم ولم يسكن الآخرون إلى شيء ولم يرتضوا رأي مخالفيهم فقالوا: ابنوا لهم بنيانا ربهم أعلم بهم.

د. فمعنى الجملة أعني قوله: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ يتفاوت بالنظر إلى الوجهين المتقدمين في قوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ إذ للجملة على أي حال نوع تفرع على تنازع بينهم كما عرفت آنفا فإن كان التنازع المدلول عليه بقوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ هو التنازع في أمر البعث بالإقرار والإنكار لكون ضمير ﴿أَمْرَهُمْ﴾ للناس كان المعنى أنهم تنازعوا في أمر البعث فأعثرناهم عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها لكن المشركين لم ينتهوا بما ظهرت لهم من الآية فقالوا ابنوا على أصحاب الكهف بنيانا واتركوهم على حالهم ينقطع عنهم الناس فلم يظهر لنا من أمرهم شيء ولم نظفر فيهم على يقين ربهم أعلم بهم، وقال الموحدون أمرهم ظاهر وآيتهم بينة ولنتخذن عليهم مسجدا يعبد فيه الله ويبقى ببقائه ذكرهم.

هـ. وإن كان التنازع هو التنازع في أصحاب الكهف وضمير ﴿أَمْرَهُمْ﴾ راجعا إليهم كان المعنى أنا أعثرنا الناس عليهم بعد بعثهم عن نومتهم ليعلم الناس أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها عند ما توفاهم الله بعد إعثار الناس عليهم وحصول الغرض وهم أي الناس يتنازعون بينهم في أمرهم أي أمر أصحاب الكهف كأنهم اختلفوا: أنيام القوم أم أموات؟ وهل من الواجب أن يدفنوا ويقبروا أو يتركوا على هيئتهم في فجوة الكهف فقال المشركون: ابنوا عليهم بنيانا واتركوهم على حالهم ربهم أعلم بهم أنيام أم أموات؟ قال الموحدون: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾

و. لكن السياق يؤيد المعنى الأول لأن ظاهره كون قول الموحدين: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ ردا منهم لقول المشركين: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾) والقولان من الطائفتين إنما يتنافيان على المعنى الأول،

وكذا قولهم: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وخاصة حيث قالوا: ﴿رَبُّهُمْ﴾ ولم يقولوا: ربنا أنسب بالمعنى الأول.

٦. ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾:

أ. هؤلاء القائلون هم الموحدون ومن الشاهد عليه التعبير عما اتخذوه بالمسجد دون المعبد فإن المسجد في عرف القرآن هو المحل المتخذ لذكر الله والسجود له قال تعالى: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ﴾ [الحج: ٤٠]

ب. وقد جاء الكلام بالفصل من غير عطف لكونه بمنزلة جواب عن سؤال مقدر كأن قائلا يقول فما ذا قال غير المشركين؟ فقيل: قال الذين غلبوا.، وأما المراد بغلبتهم على أمرهم فإن كان المراد بأمرهم هو الأمر المذكور في قوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ والضمير للناس فالمراد بالغلبة غلبة الموحدين بنجاحهم بالآية التي قامت على حقية البعث، وإن كان الضمير للفتية فالغلبة من حيث التصدي لأمرهم والغالبون هم الموحدون وقيل: الملك وأعوانه، وقيل: أولياؤهم من أقاربهم وهو أسخف الأقوال.

ج. وإن كان المراد بأمرهم غير الأمر السابق والضمير للناس فالغلبة أخذ زمام أمور المجتمع بالملك وولاية الأمور، والغالبون هم الموحدون أو الملك وأعوانه وإن كان الضمير عائدا إلى الموصول فالغالبون هم الولاة والمراد بغلبتهم على أمورهم أنهم غالبون على ما أرادوه من الأمور قادرون هذا، وأحسن الوجوه أولها.

د. والآية من معارك آراء المفسرين ولهم في مفرداتها وفي ضمائر الجمع التي فيها وفي جملها اختلاف عجيب والاحتمالات التي أبدوها في معاني مفرداتها ومراجع ضمائرها وأحوال جملها إذا ضربت بعضها في بعض بلغت الألوف، وقد أشرنا منها إلى ما يلائم السياق وعلى الطالب لأزيد من ذلك أن يراجع المطولات.

١٣. الجدال في عدد أصحاب الكهف:

المقطع [١٣] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٦٧»:

١. ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾:

أ. يذكر تعالى اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف وأقوالهم فيه، وهي على ما ذكره تعالى، وقوله الحق، ثلاثة مترتبة متصاعدة أحدها أنهم ثلاثة رابعهم كلبهم والثاني أنهم خمسة وسادسهم كلبهم وقد عقبه بقوله: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ أي قولا بغير علم.

ب. وهذا التوصيف راجع إلى القولين جميعا: ولو اختص بالثاني فقط كان من حق الكلام أن يقدم القول الثاني ويؤخر الأول ويذكر مع الثالث الذي لم يذكر معه ما يدل على عدم ارتضائه.

ج. والقول الثالث أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، وقد ذكره الله سبحانه ولم يعقبه بشيء يدل على تزييفه، ولا يخلو ذلك من إشعار بأنه القول الحق، وقد تقدم في الكلام على محاورتهم المحكية بقوله تعالى: ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ﴾ أنه مشعر بل دال على أن عددهم لم يكن بأقل من سبعة.

د. ومن لطيف صنع الآية في عد الأقوال نظمها العدد من ثلاثة إلى ثمانية نظما متواليا ففيها ثلاثة رابعها خمسة سادسها سبعة وثامنها.

٢. ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾:

أ. تمييز يصف القولين بأنهما من القول بغير علم والرجم هو الرمي بالحجارة وكأن المراد بالغيب الغائب وهو القول الذي معناه غائب عن العلم لا يدري قائله أهو صدق أم كذب؟ فشبه الذي يلقي كلاما ما هذا شأنه بمن يريد الرجم بالحجارة فيرمي ما لا يدري أحجر هو يصيب غرضه أم لا؟ ولعله المراد بقول بعضهم: (رجما بالغيب أي قذفا بالظن لأن المظنون غائب عن الظان لا علم له به.

ب. وقيل: معنى ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ ظنا بالغيب وهو بعيد.

٣. وقد قال تعالى: ﴿ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقال: ﴿خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فلم يأت بواو ثم قال: ﴿سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فأتى بواو:

أ. قال في الكشاف: (وثلاثة خبر مبتدإ محذوف أي هم ثلاثة، وكذلك خمسة وسبعة، رابعهم كلبهم جملة من مبتدإ وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم، فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة؟ ولم دخلت عليها دون الأولين؟ قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة

الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وبيده سيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ﴾ وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم، والدليل عليه أن الله سبحانه اتبع القولين الأولين قوله: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾، واتبع القول الثالث قوله: ﴿ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وقال ابن عباس: حين وقعت الواو انقطعت العدة أي لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات)

ب. وقال في المجمع: (في ذيل ما لخص به كلام أبي علي الفارسي: وأما من قال: هذه الواو واو الثمانية واستدل بقوله: ﴿حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ لأن للجنة ثمانية أبواب فشيء لا يعرفه النحويون)

٤. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾:

أ. أمر للنبي ﷺ أن يقضي في عدتهم حق القضاء وهو أن الله أعلم بها وقد لوح في كلامه السابق إلى القول وهذا نظير ما حكى عن الفتية في محاورتهم وارتضاء إذ قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم.

ب. ومع ذلك ففي الكلام دلالة على أن بعض المخاطبين بخطاب النبي ﷺ ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ إلخ كان على علم من ذلك فإن قوله: ﴿ما يَعْلَمُهُمْ﴾ ولم يقل: لا يعلمهم يفيد نفي الحال فالاستثناء منه بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يفيد الإثبات في الحال واللائح منه على الذهن أنهم من أهل الكتاب.

ج. وبالجملة مفاد الكلام أن الأقوال الثلاثة كانت محققة في عهد النبي ﷺ وعلى هذا فقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ﴾ المفيد للاستقبال، وكذا قوله: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾ إن كانا معطوفين على مدخول السين في ﴿سَيَقُولُونَ﴾ تفيد الاستقبال القريب بالنسبة إلى زمن نزول الآيات أو زمن وقوع الحادثة فافهم ذلك.

٥. ﴿فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً﴾:

أ. قال الراغب: (المرية التردد في الأمر وهو أخص من الشك، قال: والامتراء والمماراة المحاجة فيما

فيه مرية قال: وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب)، فتسمية الجدال مماراة لما فيه من إصرار المماري بالبحث ليفرغ خصمه كل ما عنده من الكلام فينتهي عنه.

ب. والمراد بكون المراء ظاهرا أن لا يتعمق فيه بالاقتصار على ما قصه القرآن من غير تجهيل لهم ولا رد كما قيل، وقيل: المراء الظاهر ما يذهب بحجة الخصم يقال: ظهر إذا ذهب، قال الشاعر: وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ج. والمعنى: وإذا كان ربك أعلم وقد أنبأك نبأهم فلا تحاجهم في الفتية إلا محاجة ظاهرة غير متعمق فيها، أو محاجة ذاهبة لحجتهم، ولا تطلب الفتيا في الفتية من أحد منهم فربك حسبك.

١٤. الاستثناء بالمشيئة عند التحدث عن المستقبل:

المقطع [١٤] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ـ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٧٠»:

١. ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾:

أ. الآية الكريمة سواء كان الخطاب فيها للنبي ﷺ خاصة أو له ولغيره متعرضة للأمر الذي يراه الإنسان فعلا لنفسه ويخبر بوقوعه منه في مستقبل الزمان.

ب. والذي يراه القرآن في تعليمه الإلهي أن ما في الوجود من شيء ذاتا كان أو فعلا وأثرا فإنما هو مملوك لله وحده له أن يفعل فيه ما يشاء ويحكم فيه ما يريد لا معقب لحكمه، وليس لغيره أن يملك شيئا إلا ما ملكه الله تعالى منه وأقدره عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره والآيات القرآنية الدالة على هذه الحقيقة كثيرة جدا لا حاجة إلى إيرادها.

ج. فما في الكون من شيء له فعل أو أثر، وهذه هي التي نسميها فواعل وأسبابا وعللا فعالة، غير مستقل في سببيته ولا مستغن عنه تعالى في فعله وتأثيره لا يفعل ولا يؤثر إلا ما شاء الله أن يفعله ويؤثره أي أقدره عليه ولم يسلب عنه القدرة عليه بإرادة خلافه.

د. وبتعبير آخر كل سبب من الأسباب الكونية ليس سببا من تلقاء نفسه وباقتضاء من ذاته بل بإقداره تعالى على الفعل والتأثير وعدم إرادته خلافه، وإن شئت فقل: بتسهيله تعالى له سبيل الوصول

إليه، وإن شئت فقل بإذنه تعالى فالإذن هو الإقدار ورفع المانع وقد تكاثرت الآيات الدالة على أن كل عمل من كل عامل موقوف على إذنه تعالى قال تعالى: ﴿ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ [الحشر: ٥] وقال: ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [التغابن: ١١] وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨] وقال: ﴿وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال: ﴿وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [يونس: ١٠٠] وقال: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

هـ. فعلى الإنسان العارف بمقام ربه المسلم له أن لا يرى نفسه سببا مستقلا لفعله مستغنيا فيه عن غيره بل مالكا له بتمليك الله قادرا عليه بإقداره وأن القوة لله جميعا وإذا عزم على فعل أن يعزم متوكلا على الله قال تعالى: ﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ وإذا وعد بشيء أو أخبر عما سيفعله أن يقيده بإذن الله أو بعدم مشيته خلافه.

و. وهذا المعنى هو الذي يسبق إلى الذهن المسبوق بهذه الحقيقة القرآنية إذا قرع بابه قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ وخاصة بعد ما تقدم في آيات القصة من بيان توحده تعالى في ألوهيته وربوبيته وما تقدم قبل آيات القصة من كون ما على الأرض زينة لها سيجعله الله صعيدا جرزا، ومن جملة ما على الأرض أفعال الإنسان التي هي زينة جالبة للإنسان يمتحن بها وهو يراها مملوكة لنفسه.

ز. وذلك أن قوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً﴾ نهي عن نسبته فعله إلى نفسه، ولا بأس بهذه النسبة قطعا فإنه سبحانه كثيرا ما ينسب في كلامه الأفعال إلى نبيه وإلى غيره من الناس وربما يأمره أن ينسب أفعالا إلى نفسه قال تعالى: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١]، وقال: ﴿لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]

ح. فأصل نسبة الفعل إلى فاعله مما لا ينكره القرآن الكريم وإنما ينكر دعوى الاستقلال في الفعل والاستغناء عن مشيته وإذنه تعالى فهو الذي يصلحه الاستثناء أعني قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾

ط. ومن هنا يظهر أن الكلام على تقدير باء الملابسة وهو استثناء مفرغ عن جميع الأحوال أو جميع الأزمان، وتقديره: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ أي لأجل شيء تعزم عليه، إني فاعل ذلك غدا في حال من

الأحوال أو زمان من الأزمنة إلا في حال أو في زمان يلابس قولك المشية بأن تقول: إني فاعل ذلك غدا إن شاء الله أن أفعله أو إلا أن يشاء الله أن لا أفعله والمعنى على أي حال: إن أذن الله في فعله.

٢. هذا ما يعطيه التدبر في معنى الآية ويؤيده ذيلها وللمفسرين فيها توجيهات أخرى:

أ. منها أن المعنى هو المعنى السابق إلا أن الكلام بتقدير القول في الاستثناء وتقدير الكلام: إلا أن تقول إن شاء الله، ولما حذف (تقول) نقل (إن شاء الله) إلى لفظ الاستقبال، فيكون هذا تأديبا من الله للعباد وتعليما لهم أن يعلقوا ما يخبرون به بهذه اللفظة حتى يخرج عن حد القطع فلا يلزمهم كذب أو حنث إذا لم يفعلوه لمانع والوجه منسوب إلى الأخفش.

• وفيه أنه تكلف من غير موجب، على أن التبديل المذكور يغير المعنى وهو ظاهر.

ب. ومنها أن الكلام على ظاهره غير أن المصدر المؤول إليه ﴿أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ بمعنى المفعول، والمعنى لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا ما يشاؤه الله ويريده، وإذ كان الله لا يشاء إلا الطاعات فكأنه قيل: ولا تقولن في شيء إني سأفعله إلا الطاعات، والنهي للتنزيه لا للتحريم حتى يعترض عليه بجواز العزم على المباحات والإخبار عنه.

• وفيه أنه مبني على حمل المشية على الإرادة التشريعية ولا دليل عليه ولم يستعمل المشية في كلامه تعالى بهذا المعنى قط وقد استعمل استثناء المشية التكوينية في مواضع من كلامه كما حكى من قول موسى لخضر: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً﴾ [الكهف: ٦٩]، وقول شعيب لموسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] وقول إسماعيل لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى غير ذلك من الآيات.

• والوجه مبني على أصول الاعتزال وعند المعتزلة أن لا مشية لله سبحانه في أعمال العباد إلا الإرادة التشريعية المتعلقة بالطاعات، وهو مدفوع بالعقل والنقل.

ج. ومنها أن الاستثناء من الفعل دون القول من غير حاجة إلى تقدير، والمعنى ولا تقولن لشيء هكذا وهو أن تقول: إني فاعل ذلك غدا باستقلالي إلا أن يشاء الله خلافه بإبداء مانع على ما تقوله المعتزلة أن العبد فاعل مستقل للفعل إلا أن يبدئ الله مانعا دونه أقوى منه، ومآل المعنى أن لا تقل في الفعل بقول المعتزلة.

وفيه أن تعلق الاستثناء بالفعل دون القول بما مر من البيان أتم فلا وجه للنهي عن تعليق الاستثناء على الفعل، وقد وقع تعليقه على الفعل في مواضع من كلامه من غير أن يرده كقوله حكاية عن إبراهيم: ﴿وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ [الأنعام: ٨٠] وقوله حكاية عن شعيب: ﴿وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقوله: ﴿ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الأنعام: ١١١] إلى غير ذلك من الآيات، فلتحمل الآية التي نحن فيها على ما يوافقها.

د. ومنها: أن الاستثناء من أعم الأوقات إلا أن مفعول ﴿يَشاءَ﴾ هو القول والمعنى ولا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقوله، والمراد بالمشية الإذن أي لا تقل ذلك إلا أن يؤذن لك فيه بالإعلام.

• وفيه أنه مبني على تقدير شيء لا دليل عليه من جهة اللفظ وهو الاعلام ولو لم يقدر لكان تكليفا بالمجهول.

هـ. ومنها: أن الاستثناء للتأبيد نظير قوله: ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] والمعنى: لا تقولن ذلك أبدا.

• وفيه أنه مناف للآيات الكثيرة المنقولة آنفا التي تنسب إلى النبي ﷺ وإلى سائر الناس أعمالهم ماضية ومستقبلة بل تأمر النبي ﷺ أن ينسب أعماله إلى نفسه كقوله: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١]، وقوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ [الكهف: ٨٣]

٣. ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً﴾:

أ. اتصال الآية واشتراكها مع ما قبلها في سياق التكليف يقضي أن يكون المراد من النسيان نسيان الاستثناء، وعليه يكون المراد من ذكر ربه ذكره بمقامه الذي كان الالتفات إليه هو الموجب للاستثناء وهو أنه القائم على كل نفس بما كسبت الذي ملكه الفعل وأقدره عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره.

ب. والمعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت أنك نسيته فاذكر ربك متى كان ذلك بما لو كنت ذاكرا لذكرته به وهو تسليم الملك والقدرة إليه وتقييد الأفعال بإذنه ومشيته.

ج. وإذ كان الأمر بالذكر مطلقا لم يتعين في لفظ خاص فالمندوب إليه هو ذكره تعالى بشأنه الخاص سواء كان بلفظ الاستثناء بأن يلحقه بالكلام، إن ذكره ولما يتم الكلام أو يعيد الكلام ويستثني أو يضمر

الكلام ثم يستثني إن كان فصل قصير أو طويل كما ورد في بعض الروايات أنه لما نزلت الآيات قال النبي ﷺ إن شاء الله أو كان الذكر باستغفار ونحوه.

د. ويظهر مما مر أن ما ذكره بعضهم أن الآية مستقلة عما قبلها وأن المراد بالنسيان نسيانه تعالى أو مطلق النسيان، والمعنى: واذكر ربك إذا نسيته ثم ذكرته أو واذكر ربك إذا نسيت شيئا من الأشياء، وكذا ما ذكره بعضهم بناء على الوجه السابق أن المراد بذكره تعالى خصوص الاستثناء وإن طال الفصل أو خصوص الاستغفار أو الندم على التفريط، كل ذلك وجوه غير سديدة.

٤. ﴿وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً﴾:

أ. حديث الاتصال والاشتراك في سياق التكليف بين جمل الآية يقضي هنا أيضا أن تكون الإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ إلى الذكر بعد النسيان، والمعنى وارج أن يهديك ربك إلى أمر هو أقرب رشدا من النسيان ثم الذكر وهو الذكر الدائم من غير نسيان فيكون من قبيل الآيات الداعية له ﷺ إلى دوام الذكر كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وذكر الشيء كلما نسي ثم ذكر والتحفظ عليه كرة بعد كرة من أسباب دوام ذكره.

ب. ومن العجيب أن المفسرين أخذوا قوله: ﴿هذا﴾ في الآية إشارة إلى نبإ أصحاب الكهف وذكروا أن معنى الآية: قل عسى أن يعطيني ربي من الآيات الدالة على نبوتي ما هو أقرب إرشادا للناس من نبإ أصحاب الكهف، وهو كما ترى.

ج. وأعجب منه ما عن بعض أن هذا إشارة إلى المنسي وأن معنى الآية: ادع الله إذا نسيت شيئا أن يذكرك إياه وقل إن لم يذكرك ما نسيته عسى أن يهديني ربي لشيء هو أقرب خيرا ومنفعة من المنسي.

د. وأعجب منه ما عن بعض آخر أن قوله: ﴿وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ﴾ عطف تفسيري لقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ﴾ والمعنى إذا وقع منك النسيان فتب إلى ربك وتوبتك أن تقول: عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا، ويمكن أن يجعل الوجهان الثاني والثالث وجها واحدا وبناؤهما على أي حال على كون المراد بقوله: ﴿إِذا نَسِيتَ﴾ مطلق النسيان، وقد عرفت ما فيه.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه

علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إذا حلف رجل بالله فله ثنياها إلى أربعين يوما، وذلك أن قوما من اليهود سألوا النبي ﷺ عن شيء فقال: ائتوني غدا، ولم يستثن، حتى أخبركم، فاحتبس عنه جبرئيل أربعين يوما ثم أتاه وقال: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً، إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ﴾

• أقول: الثنيا بالضم فالسكون مقصورا اسم الاستثناء وفي هذا المعنى روايات أخر عن الصادقين عليه السلام والظاهر من بعضها أن المراد بالحلف بت الكلام وتأكيده كما يلوح إليه استشهاده عليه السلام في هذه الرواية بقول النبي ﷺ، وأما البحث في تقييد اليمين به بعد انعقاده ووقوع الحنث معه وعدمه فموكول إلى الفقه.

١٥. مدة لبث أصحاب الكهف وغيب الله وحكمه:

المقطع [١٥] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٥ـ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٢٧٥»:

١. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدادُوا تِسْعاً﴾:

أ. بيان لمدة لبثهم في الكهف على حال النوم فإن هذا اللبث هو متعلق العناية في آيات القصة وقد أشير إلى إجمال مدة اللبث بقوله في أول الآيات: ﴿فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾

ب. ويؤيده تعقيبه بقوله في الآية التالية: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا﴾ ثم قوله: ﴿وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ إلخ ثم قوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ولم يذكر عددا غير هذا فقوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا﴾ بعد ذكر مدة اللبث كقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ يلوح إلى صحة العدد المذكور.

ج. فلا يصغي إلى قول القائل إن قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾محكي قول أهل الكتاب وقوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا﴾ رد له، وكذا قول القائل إن قوله: ﴿وَلَبِثُوا﴾ قول الله تعالى وقوله: ﴿وَازْدادُوا تِسْعاً﴾ إشارة إلى قول أهل الكتاب والضمير لهم والمعنى أن أهل الكتاب زادوا على العدد الواقعي تسع سنين ثم قوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا﴾ رد له، على أن المنقول عنهم أنهم قالوا بلبثهم مائتي سنة أو أقل لا ثلاثمائة وتسعة ولا ثلاثمائة.

د. ﴿سِنِينَ﴾:

• ليس بمميز للعدد وإلا لقيل: ثلاثمائة سنة بل هو بدل من ثلاثمائة كما قالوا، وفي الكلام مضاهاة لقوله فيما أجمل في صدر الآيات: ﴿سِنِينَ عَدَداً﴾

• ولعل النكتة في تبديل (سنمن ﴿سِنِينَ﴾ استكثار مدة اللبث، وعلى هذا فقوله: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ لا يخلو من معنى الإضراب كأنه قيل: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة هذه السنين المتمادية والدهر الطويل بل ازدادوا تسعا، ولا ينافي هذا ما تقدم في قوله: ﴿سِنِينَ عَدَداً﴾ إن هذا لاستقلال عدد السنين واستحقاره لأن المقامين مختلفان بحسب الغرض فإن الغرض هناك كان متعلقا بنفي العجب من آية الكهف بقياسها إلى آية جعل ما على الأرض زينة لها فالأنسب به استحقار المدة، والغرض هاهنا بيان كون اللبث آية من آياته وحجة على منكري البعث والأنسب به استكثار المدة، والمدة بالنسبتين تحتمل الوصفين فهي بالنسبة إليه تعالى شيء هين وبالنسبة إلينا دهر طويل.

هـ. وإضافة تسع سنين إلى ثلاثمائة سنة مدة اللبث تعطي أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية فإن التفاوت في ثلاثمائة سنة إذا أخذت تارة شمسية وأخرى قمرية بالغ هذا المقدار تقريبا ولا ينبغي الارتياب في أن المراد بالسنين في الآية السنون القمرية لأن السنة في عرف القرآن هي القمرية المؤلفة من الشهور الهلالية وهي المعتبرة في الشريعة الإسلامية.

و. وفي التفسير الكبير، شدد النكير على ذلك لعدم تطابق العددين تحقيقا وناقش في ما روي عن علي عليه السلام في هذا المعنى مع أن الفرق بين العددين الثلاثمائة شمسية والثلاثمائة وتسع سنين قمرية أقل من ثلاثة أشهر والتقريب في أمثال هذه النسب ذائع في الكلام بلا كلام.

٢. ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. مضي في حديث أصحاب الكهف بالإشارة إلى خلاف الناس في ذلك وأن ما قصه الله تعالى من قصتهم هو الحق الذي لا ريب فيه.

ب. فقوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا﴾ مشعر بأن مدة لبثهم المذكورة في الآية السابقة لم تكن مسلمة عند الناس فأمر النبي ﷺ أن يحتج في ذلك بعلم الله وأنه أعلم بهم من غيره.

٣. ﴿لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. تعليل لكونه تعالى أعلم بما لبثوا، واللام للاختصاص الملكي والمراد أنه تعالى وحده يملك ما في

السماوات والأرض من غيب غير مشهود فلا يفوته شيء وإن فات السماوات والأرض، وإذ كان مالكا للغيب بحقيقة معنى الملك وله كمال البصر والسمع فهو أعلم بلبثهم الذي هو من الغيب.

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ وهما من صيغ التعجب معناهما كمال بصره وسمعه، لتتميم التعليل كأنه قيل: وكيف لا يكون أعلم بلبثهم وهو يملكهم على كونهم من الغيب وقد رأى حالهم وسمع مقالهم.

ج. ومن هنا يظهر أن قول بعضهم: (إن اللام في ﴿لَهُ غَيْبُ﴾ إلخ للاختصاص العلمي أي له تعالى ذلك علما، ويلزم منه ثبوت علمه لسائر المخلوقات لأن من علم الخفي علم غيره بطريق أولى) انتهى، غير سديد لأن ظاهر قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أنه للتأسيس دون التأكيد، وكذا ظاهر اللام مطلق الملك دون الملك العلمي.

٤. ﴿ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍ﴾:

أ. المراد بالجملة الأولى منه نفي ولاية غير الله لهم مستقلا بالولاية دون الله، وبالثانية نفي ولاية غيره بمشاركته إياه فيها أي ليس لهم ولي غير الله لا مستقلا بالولاية ولا غير مستقل.

ب. ولا يبعد أن يستفاد من النظم، بالنظر إلى التعبير في الجملة الثانية ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ بالفعل دون الوصف وتعليق نفي الإشراك بالحكم دون الولاية أن الجملة الأولى تنفي ولاية غيره تعالى لهم سواء كانت بالاستقلال فيستقل بتدبير أمرهم دون الله أو بالشركة بأن يلي بعض أمورهم دون الله، والجملة الثانية تنفي شركة غيره تعالى في الحكم والقضاء في الحكم بأن تكون ولايتهم لله تعالى لكنه وكل عليهم غيره وفوض إليه أمرهم والحكم فيهم كما يفعله الولاة في نصب الحكام والعمال في الشعب المختلفة من أمورهم فيباشر الحكام والعمال من الأحكام ما لا علم به من الولاة.

ج. ويؤول المعنى إلى أنه كيف لا يكون تعالى أعلم بلبثهم وهو تعالى وحده وليهم المباشر للحكم الجاري فيهم وعليهم.

د. والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ لأصحاب الكهف أو لجميع ما في السماوات والأرض المفهوم من الجملة السابقة بتغليب جانب أولي العقل أو لمن في السماوات والأرض والوجوه الثلاثة مترتبة جودة وأجودها أولها.

هـ. وعليه فالآية تتضمن حجتين على أن الله أعلم بما لبثوا إحداهما حجة عامة لهم ولغيرهم وهي قوله: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فهو أعلم بجميع الأشياء ومنها لبث أصحاب الكهف، وثانيتهما حجة خاصة بهم وهي قوله: ﴿ما لَهُمْ﴾ إلى آخر الآية فهو تعالى وليهم المباشر للقضاء الجاري عليهم فكيف لا يكون أعلم بهم من غيره؟ ولمكان العلية في الجملتين جيء بهما مفصولتين من غير عطف.

١٦. الأمر بتلاوة كتاب الله وعدم تبديل كلماته:

المقطع [١٦] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٠٠»:

١. ﴿وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾:

أ. في المجمع: (لحد إليه والتحد أي مال) فالملتحد اسم مكان من الالتحاد بمعنى الميل والمراد بكتاب ربك القرآن أو اللوح المحفوظ، وكان الثاني أنسب بقوله: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ﴾

ب. وفي الكلام على ما عرفت آنفا رجوع إلى ما قبل القصة وعليه فالأنسب أن يكون قوله: ﴿وَاتْلُ﴾ إلخ عطفا على قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ﴾ والمعنى لا تهلك نفسك على آثارهم أسفا واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لأنه لا مغير لكلماته فهي حقة ثابتة ولأنك لا تجد من دونه ملتحدا تميل إليه.

ج. وبذلك ظهر أن كلا من قوله: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ﴾ وقوله: ﴿لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ في مقام التعليل فهما حجتان على الأمر في قوله: ﴿وَاتْلُ﴾ ولعله لذلك خص الخطاب في قوله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ بالنبي ﷺ مع أن الحكم عام ولن يوجد من دونه ملتحد لأحد.

د. ويمكن أن يكون المراد: ولن تجد أنت ملتحدا من دونه لأنك رسول ولا ملجأ للرسول من حيث إنه رسول إلا مرسلة، والأنسب على هذا أن يكون قوله: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ﴾ حجة واحدة مفادها: واتل عليهم هذه الآيات المشتملة على الأمر الإلهي بالتبليغ لأنه كلمة إلهية ولا تتغير كلماته وأنت رسول ليس لك إلا أن تميل إلى مرسلك وتؤدي رسالته، ويؤيد هذا المعنى قوله في موضع آخر: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ﴾ [الجن: ٢٣]

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن سلمان قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس فقالوا: يا رسول الله، لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم، يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف، جالسناك أو حادثناك، وأخذنا عنك فأنزل الله: ﴿وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً﴾ يهددهم بالنار)

• أقول: وروى مثله القمي في تفسيره لكنه ذكر عيينة بن الحصين بن الحذيفة بن بدر الفزاري فقط، ولازم الرواية كون الآيتين مدنيتين وعليه روايات أخر تتضمن نظيرة القصة لكن سياق الآيات لا يساعد عليه.

١٧. الصحبة الصالحة وعدم إغفال القلب عن ذكر الله:

المقطع [١٧] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٠٢»:

١. ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾:

أ. قال الراغب: (الصبر الإمساك في ضيق يقال: صبرت الدابة حبستها بلا علف، وصبرت فلانا خلفته خلفة لا خروج له منها، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه)

ب. ووجه الشيء ما يواجهك ويستقبلك به، والأصل في معناه الوجه بمعنى الجارحة، ووجهه تعالى أسماؤه الحسنى وصفاته العليا التي بها يتوجه إليه المتوجهون ويدعوه الداعون ويعبده العابدون قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وأما الذات المتعالية فلا سبيل إليها، وإنما يقصده القاصدون ويريده المريدون لأنه إله رب علي عظيم ذو رحمة ورضوان إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته.

ج. والداعي لله المريد وجهه إن أراد صفاته تعالى الفعلية كرحمته ورضاه وإنعامه وفضله فإنما يريد أن تشمله وتغمره فيتلبس بها نوع تلبس فيكون مرحوما ومرضيا عنه ومنعما بنعمته، وإن أراد صفاته غير

الفعلية كعلمه وقدرته وكبريائه وعظمته فإنما يريد أن يتقرب إليه تعالى بهذه الصفات العليا، وإن شئت فقل: يريد أن يضع نفسه موضعا تقتضيه الصفة الإلهية كأن يقف موقف الذلة والحقارة قبال عزته وكبريائه وعظمته تعالى، ويقف موقف الجاهل العاجز الضعيف تجاه علمه وقدرته وقوته تعالى وهكذا فافهم ذلك.

د. وبذلك يظهر ما في قول بعضهم: (إن المراد بالوجه هو الرضى والطاعة المرضية مجازا لأن من رضي عن شخص أقبل عليه ومن غضب يعرض عنه)، وكذا قول بعضهم: (المراد بالوجه الذات والكلام على حذف مضاف)، وكذا قول بعضهم: (المراد بالوجه التوجه والمعنى يريدون التوجه إليه والزلفى لديه هذا)

هـ. والمراد بدعائهم ربهم بالغداة والعشي الاستمرار على الدعاء والجري عليه دائما لأن الدوام يتحقق بتكرر غداة بعد عشي وعشي بعد غداة على الحس فالكلام جار على الكناية، وقيل: المراد بدعاء الغداة والعشي صلاة طرفي النهار وقيل: الفرائض اليومية وهو كما ترى.

٢. ﴿وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾:

أ. أصل معنى العدو كما صرح به الراغب التجاوز وهو المعنى الساري في جميع مشتقاته وموارد استعمالاته قال في القاموس: يقال: عدا الأمر وعنه جاوزه وتركه) فمعنى ﴿لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ﴾ لا تجاوزهم ولا تتركهم عيناك والحال أنك تريد زينة الحياة الدنيا.

ب. لكن ذكر بعضهم أن المجاوزة لا تتعدى بعن إلا إذا كان بمعنى العفو، ولذا قال الزمخشري في الكشاف: (إن قوله: ﴿لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ﴾ بتضمين عدا معنى نبا وعلا في قولك: نبت عنه عينه وعلت عنه عينه إذا اقتحمته ولم تعلق به، ولولا ذلك لكان من الواجب أن يقال: ولا تعدهم عيناك)

٣. ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا﴾:

أ. المراد بإغفال قلبه تسليط الغفلة عليه وإنساؤه ذكر الله سبحانه على سبيل المجازاة حيث إنهم عاندوا الحق فأضلهم الله بإغفالهم عن ذكره فإن كلامه تعالى في قوم هذه حالهم نظير ما سيأتي في ذيل الآيات من قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾

ب. فلا مساغ لقول من قال: إن الآية من أدلة جبره تعالى على الكفر والمعصية وذلك لأن الإلجاء

مجازاة لا ينافي الاختيار والذي ينافيه هو الإلجاء ابتداء ومورد الآية من القبيل الأول.

ج. ولا حاجة إلى تكلف التأويل كقول من قال إن المراد بقوله: ﴿أَغْفَلْنا قَلْبَهُ﴾ عرضناه للغفلة أو أن المعنى صادفناه غافلا أو أريد به نسبناه إلى الغفلة أو أن الإغفال بمعنى جعله غفلا لا سمة له ولا علامة والمراد جعلنا قلبه غفلا لم نسمه بسمة قلوب المؤمنين ولم نعلم فيه علامة المؤمنين لتعرفه الملائكة بتلك السمة، فالجميع كما ترى.

٤. ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ قال في المجمع: (الفرط التجاوز للحق والخروج عنه من قولهم: أفرط إفراطا إذا أسرف)، واتباع الهوى والإفراط من آثار غفلة القلب، ولذلك كان عطف الجملتين على قوله: ﴿أَغْفَلْنا﴾ بمنزلة عطف التفسير.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن عاصم الكوزي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول في قول الله: ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ قال: وعيد.

ب. وفي الكافي، وتفسير العياشي، وغيره عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ في ولاية علي عليه السلام.

• أقول: وهو من الجري.

١٨. الحق من الله، ومصير الكفرة:

المقطع [١٨] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٠٣»:

١. ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾:

أ. عطف على ما عطف عليه قوله: ﴿وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ فالسياق سياق تعداد وظائف النبي ﷺ قبال كفرهم بما أنزل إليه وإصرارهم عليه والمعنى لا تأسف عليهم واتل ما أوحي إليك واصبر نفسك مع هؤلاء المؤمنين من الفقراء، وقل للكفار: الحق من ربكم ولا تزد على ذلك فمن شاء منهم أن يؤمن فليؤمن ومن شاء منهم أن يكفر فليكفر فليس بنفعنا إيمانهم ولا يضرنا كفرهم بل

ما في ذلك من نفع أو ضرر وثواب أو تبعة عذاب عائد إليهم أنفسهم فليختاروا ما شاءوا فقد أعتدنا للظالمين كذا وكذا وللصالحين من المؤمنين كذا.

ب. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ من كلامه تعالى يخاطب به نبيه ﷺ وليس داخلا في مقول القول فلا يعبأ بما ذكر بعضهم أن الجملة من تمام القول المأمور به.

ج. ويظهر أيضا أن قول: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً﴾ في مقام التعليل لتخييرهم بين الإيمان والكفر الذي هو تخيير صورة وتهديد معنى، والمعنى أنا إنما نهيناك عن الأسف وأمرناك أن تكتفي بالتبليغ فقط وتقنع بقولك: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فحسب ولم نتوسل إلى إصرار وإلحاح لأنا هيأنا لهم تبعات هذه الدعوة ردا وقبولا وكفى بما هيأناه محرضا ورادعا ولا حاجة إلى أزيد من ذلك وعليهم أن يختاروا لأنفسهم أي المنزلتين شاءوا.

٢. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً﴾

أ. قال في المجمع: (السرادق الفسطاط المحيط بما فيه، ويقال: السرادق ثوب يدار حول الفسطاط، وقال: المهل خثارة الزيت، وقيل: هو النحاس الذائب، وقال: المرتفق المتكأ من المرفق يقال: ارتفق إذا اتكأ على مرفقه) والشيء النضج يقال: شوى يشوي وشيا إذا نضج.

ب. وفي تبديل الكفر من الظلم في قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ﴾ دون أن يقول: للكافرين دلالة على أن التبعة المذكورة إنما هي للظالمين بما هم ظالمون: وقد عرفهم في قوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥] والباقي ظاهر.

١٩. المؤمنون والجنات والأساور:

المقطع [١٩] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠-٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٠٤»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾:

أ. بيان لجزاء المؤمنين على إيمانهم وعملهم الصالح وإنما قال: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ﴾ ولم يقل: وأعتدنا

لهؤلاء كذا وكذا ليكون دالا على العناية بهم والشكر لهم.

ب. ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ﴾ في موضع خبر إن، وهو في الحقيقة من وضع السبب موضع المسبب والتقدير إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سنوفيهم أجرهم فإنهم محسنون وإنا لا نضيع أجر من أحسن عملا.

ج. وإذ عد في الآية العقاب أثرا للظلم ثم عد الثواب في مقابله أجرا للإيمان والعمل الصالح استفدنا منه أن لا ثواب للإيمان المجرد من صالح العمل بل ربما أشعرت الآية بأنه من الظلم.

٢. ﴿أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ﴾ العدن هو الإقامة وجنات عدن جنات إقامة والأساور قيل: جمع أسورة وهي جمع سوار بكسر السين وهي حلية المعصم، وذكر الراغب أنه فارسي معرب وأصله دستواره والسندس ما رق من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه، والأرائك جمع أريكة وهي السرير، ومعنى الآية ظاهر.

٢٠. مثل صاحب الجنتين وغروره بماله:

المقطع [٢٠] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٠٨»:

١. ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ﴾:

أ. أي واضرب لهؤلاء المتولهين بزينة الحياة الدنيا المعرضين عن ذكر الله مثلا ليتبين لهم أنهم لم يتعلقوا في ذلك إلا بسراب وهمي لا واقع له.

ب. وقد ذكر بعض المفسرين أن الذي يتضمنه المثل قصة مقدرة مفروضة فليس من الواجب أن يتحقق مضمون المثل خارجا، وذكر آخرون أنه قصة واقعة، وقد رووا في ذلك قصصا كثيرة مختلفة لا معول عليها غير أن التدبر في سياق القصة بما فيها من كونهما جنتين اثنتين وانحصار أشجارهما في الكرم والنخل ووقوع الزرع بينهما وغير ذلك يؤيد كونها قصة واقعة.

ج. ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ﴾ أي من كروم فالثمرة كثيرا ما يطلق على شجرتها وقوله: ﴿وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ﴾ أي جعلنا النخل محيطة بهما حافة من حولهما وقوله: ﴿وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً﴾ أي بين الجنتين ووسطهما، وبذلك تواصلت العمارة وتمت واجتمعت له الأقوات والفواكه.

٢. ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ الأكل بضمتين المأكول والمراد بإيتائها الأكل إثمار أشجارهما من الأعناب والنخيل.

٣. ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ الظلم النقص، والضمير للأكل أي ولم تنقص من أكله شيئا بل أثمرت ما في وسعها من ذلك، وقوله: ﴿وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً﴾ أي شققنا وسطهما نهرا من الماء يسقيهما ويرفع حاجتهما إلى الشرب بأقرب وسيلة من غير كلفة.

٢١. غرور صاحب الجنة وإنكاره للبعث:

المقطع [٢١] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤ـ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٠٩»:

١. ﴿وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ الضمير للرجل والثمر أنواع المال كما في الصحاح، وعن القاموس، وقيل: الضمير للنخل والثمر ثمره، وقيل: المراد كان للرجل ثمر ملكه من غير جنته، وأول الوجوه أوجهها ثم الثاني ويمكن أن يكون المراد من إيتاء الجنتين أكلها من غير ظلم بلوغ أشجارهما في الرشد مبلغ الاثمار وأوانه، ومن قوله: ﴿وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وجود الثمر على أشجارهما بالفعل كما في الصيف وهو وجه خال عن التكلف.

٢. ﴿فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾:

أ. المحاورة المخاطبة والمراجعة في الكلام، والنفر الأشخاص يلازمون الإنسان نوع ملازمة سموا نفرا لأنهم ينفرون معه ولذلك فسره بعضهم بالخدم والولد، وآخرون بالرهط والعشيرة والأول أوفق بما سيحكيه الله تعالى من قول صاحبه له: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً﴾ حيث بدل النفر من الولد، والمعنى فقال الذي جعلنا له الجنتين لصاحبه والحال أنه يحاوره: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ أي ولدا وخدما.

ب. وهذا الذي قاله لصاحبه يحكي عن مزعمة خاصة عنده منحرفة عن الحق فإنه نظر إلى نفسه وهو مطلق التصرف فيما خوله الله من مال وولد لا يزاحم فيما يريده في ذلك فاعتقد أنه مالكه وهذا حق

لكنه نسي أن الله سبحانه هو الذي ملكه وهو المالك لما ملكه والذي سخره الله له وسلطه عليه من زينة الحياة الدنيا التي هي فتنة وبلاء يمتحن بها الإنسان ليميز الله الخبيث من الطيب بل اجتذبت الزينة نفسه إليها فحسب أنه منقطع عن ربه مستقل بنفسه فيما يملكه، وأن التأثير كله عند الأسباب الظاهرية التي سخرت له.

ج. فنسي الله سبحانه وركن إلى الأسباب وهذا هو الشرك ثم التفت إلى نفسه فرأى أنه يتصرف في الأسباب مهيمنا عليها فظن ذلك كرامة لنفسه وأخذه الكبر فاستكبر على صاحبه، وإلى ذلك يرجع اختلاف الوصفين أعني وصفه تعالى لملكه إذ قال: ﴿جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ﴾ ولم يقل: كان لأحدهما جنتان، ووصف الرجل نفسه إذ قال لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ فلم ير إلا نفسه ونسي أن ربه هو الذي سلطه على ما عنده من المال وأعزه بمن عنده من النفر فجرى قوله لصاحبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ مجرى قول قارون لمن نصحه أن لا يفرح ويحسن بما آتاه الله من المال: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾ [القصص: ٧٨]

د. وهذا الذي يكشف عنه قوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً﴾ أعني دعوى الكرامة النفسية والاستحقاق الذاتي ثم الشرك بالله بالغفلة عنه والركون إلى الأسباب الظاهرية هو الذي أظهره حين دخل جنته فقال كما حكاه الله: ﴿ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً﴾

٣. ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الضمائر الأربع راجعة إلى الرجل، والمراد بالجنة جنسها ولذا لم تثن، وقيل: لأن الدخول لا يتحقق في الجنتين معا في وقت واحد، وإنما يكون في الواحدة بعد الواحدة.

ب. وقال في الكشاف: (فإن قلت: فلم أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلت: معناه ودخل ما هو جنته ما له جنة غيرها يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما) وهو وجه لطيف.

٤. ﴿وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وإنما كان ظالما لأنه تكبر على صاحبه إذ قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً﴾ وهو يكشف عن إعجابه بنفسه وشركه بالله بنسيانه والركون إلى الأسباب الظاهرية، وكل ذلك من الرذائل المهلكة.

٥. ﴿قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾:

أ. البيد والبيدودة الهلاك والفناء والإشارة بهذه إلى الجنة، وفصل الجملة لكونها في معنى جواب سؤال مقدر كأنه لما قيل: ودخل جنته قيل: فما فعل؟ فقيل: قال: ما أظن أن تبيد.

ب. وقد عبر عن بقاء جنته بقوله: ﴿ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ ونفي الظن بأمر كناية عن كونه فرضا وتقديرا لا يلتفت إليه حتى يظن به ويمال إليه فمعنى ما أظن أن تبيد هذه أن بقاءه ودوامه مما تطمئن إليه النفس ولا تتردد فيه حتى تتفكر في بيده وتظن أنه سيفنى.

ج. وهذا حال الإنسان فإن نفسه لا تتعلق بالشيء الفاني من جهة أنه متغير يسرع إليه الزوال، وإنما يتعلق القلب عليه بما يشاهد فيه من سمة البقاء كيفما كان فينجذب إليه ولا يلوي عنه إلى شيء من تقادير فنائه، فتراه إذا أقبلت عليه الدنيا اطمأن إليها وأخذ في التمتع بزينتها والانقطاع إليها، واعتورته أهواؤه وطالت آماله كأنه لا يرى لنفسه فناء، ولا لما بيده من النعمة زوالا ولا لما ساعدته عليه من الأسباب انقطاعا، وتراه إذا أدبرت عنه الدنيا أخذه اليأس والقنوط فأنساه كل رجاء للفرج وسجل عليه أنه سيدوم ويدوم عليه الشقاء وسوء الحال.

د. والسبب في ذلك كله ما أودعه الله في فطرته من التعلق بهذه الزينة الفانية فتنة وامتحانا فإذا أعرض عن ذكر ربه انقطع إلى نفسه والزينة الدنيوية التي بين يديه والأسباب الظاهرية التي أحاطت به وتعلق على حاضر الوضع الذي يشاهده، ودعته جاذبة الزينات والزخارف أن يجمد عليها ولا يلتفت إلى فنائها وهو القول بالبقاء، وكلما قرعته قارعة العقل الفطري أن الدهر سيغدر به، والأسباب ستخذله، وأمتعة الحياة ستودعه، وحياته المؤجلة ستبلغ أجلها، منعه اتباع الأهواء وطول الآمال الإصغاء لها والالتفات إليها.

هـ. وهذا شأن أهل الدنيا لا يزالون على تناقض من الرأي يعملون ما يصدقونه بأهوائهم ويكذبونه بعقولهم لكنهم يطمئنون إلى رأي الهوى فيمنعهم عن الالتفات إلى قضاء العقل.

و. وهذا معنى قولهم بدوام الأسباب الظاهرية وبقاء زينة الحياة الدنيا ولهذا قال فيما حكاه الله: ﴿ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾ ولم يقل: هذه لا تبيد أبدا.

٦. ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً﴾ هو مبني على ما مر من التأبيد في قوله: ﴿ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾

فإنه يورث استبعاد تغير الوضع الحاضر بقيام الساعة، وكل ما حكاه الله سبحانه من حجج المشركين على نفي المعاد مبني على الاستبعاد كقولهم: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] وقولهم: ﴿أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]

٧. ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً﴾:

أ. مبني على ما تقدم من دعوى كرامة النفس واستحقاق الخير، ويورث ذلك في الإنسان رجاء كاذبا بكل خير وسعادة من غير عمل يستدعيه يقول: من المستبعد أن تقوم الساعة ولئن قامت ورددت إلى ربي لأجدن بكرامة نفسي، ولا يقول: يؤتيني ربي، خيرا من هذه الجنة منقلبا أنقلب إليه.

ب. وقد خدعت هذا القائل نفسه فيما ادعت من الكرامة حتى أقسم على ما قال كما يدل عليه لام القسم في قوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ﴾ ولام التأكيد ونونها في قوله: ﴿لَأَجِدَنَ﴾ وقال: ﴿رُدِدْتُ﴾ ولم يقل: ردني ربي إليه، وقال: ﴿لَأَجِدَنَ﴾ ولم يقل: آتاني الله.

٨. والآيتان كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ [فصلت: ٥٠]

٢٢. رد المؤمن على الكافر المغتر:

المقطع [٢٢] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٧ـ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣١٢»:

١. ﴿قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ الآية وما بعدها إلى تمام أربع آيات:

أ. رد من صاحب الرجل يرد به قوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ ثم قوله إذ دخل جنته ﴿ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾ وقد حلل الكلام من حيث غرض المتكلم إلى جهتين: إحداهما استعلاؤه على الله سبحانه بدعوى استقلاله في نفسه وفيما يملكه من مال ونفر واستثناؤه بما عنده من القدرة والقوة والثانية

استعلاؤه على صاحبه واستهانته به بالقلة والذلة ثم رد كلا من الدعويين بما يحسم مادتها ويقطعها من أصلها فقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا بِاللهِ﴾ رد لأولى الدعويين، وقوله: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ﴾ إلى قوله: ﴿طَلَباً﴾ رد للثانية.

ب. فقوله: ﴿قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ﴾ في إعادة جملة ﴿وَهُوَ يُحاوِرُهُ﴾ إشارة إلى أنه لم ينقلب عما كان عليه من سكينة الإيمان ووقاره باستماع ما استمعه من الرجل بل جرى على محاورته حافظا آدابه ومن أدبه إرفاقه به في الكلام وعدم خشونته بذكر ما يعد دعاء عليه يسوؤه عادة فلم يذكر ولده بسوء كما ذكر جنته بل اكتفى فيه بما يرمز إليه ما ذكره في جنته من إمكان صيرورتها صعيدا زلقا وغور مائها.

٢. ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار ينكر عليه ما اشتمل عليه كلامه من الشرك بالله سبحانه بدعوى الاستقلال لنفسه وللأسباب والمسببات كما تقدمت الإشارة إليه ومن فروع شركه استبعاده قيام الساعة وتردده فيه.

ب. وأما ما ذكره في الكشاف، أنه جعله كافرا بالله جاحدا لأنعمه لشكه في البعث كما يكون المكذب بالرسول كافرا فغير سديد كيف؟ وهو يذكر في استدراكه نفي الشرك عن نفسه، ولو كان كما قال لذكر فيه الإيمان بالمعاد، فإن قلت: الآيات صريحة في شرك الرجل، والمشركون ينكرون المعاد، قلت لم يكن الرجل من المشركين بمعنى عبدة الأصنام وقد اعترف في خلال كلامه بما لا تجيزه أصول الوثنية فقد عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿رَبِّي﴾ ولا يراه الوثنيون ربا للإنسان ولا إلها معبودا وإنما هو عندهم رب الأرباب وإله الآلهة، ولم ينف المعاد من أصله كما تقدمت الإشارة إليه بل تردد فيه واستبعده بالإعراض عن التفكر فيه ولو نفاه لقال: ولو رددت ولم يقل: ولئن رددت إلى ربي، فما يذكر لأمره من الأثر السيئ في الآية إنما هو لشركه بمعنى نسيانه ربه ودعواه الاستقلال لنفسه وللأسباب الظاهرية ففيه عزله تعالى عن الربوبية وإلقاء زمام الملك والتدبير إلى غيره فهذا هو أصل الفساد الذي عليه ينشأ كل فرع فاسد سواء اعترف معه بلسانه بالتوحيد أو أنكره وأثبت الآلهة، قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾ ونعم ما قال: وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه)

ج. وقد أبطل هذا المؤمن دعوى صاحبه الكافر بقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ

نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ بإلفات نظره إلى أصله وهو التراب ثم النطفة فإن ذلك هو أصل الإنسان فما زاد على ذلك حتى يصير الإنسان إنسانا سويا ذا صفات وآثار من موهبة الله محضا لا يملك أصله شيئا من ذلك، ولا غيره من الأسباب الظاهرية الكونية فإنها أمثال الإنسان لا تملك شيئا من نفسها وآثار نفسها إلا بموهبة من الله سبحانه، فما عند الإنسان وهو رجل سوي من الإنسانية وآثارها من علم وحياة وقدرة وتدبير يسخر بها الأسباب الكونية في سبيل الوصول إلى مقاصده ومآربه كل ذلك مملوكة لله محضا، آتاها الإنسان وملكه إياها ولم يخرج بذلك عن ملك الله ولا انقطع عنه بل تلبس الإنسان منها بما تلبس فانتسب إليه بمشيته ولو لم يشأ لم يملك الإنسان شيئا من ذلك فليس للإنسان أن يستقل عنه تعالى في شيء من نفسه وآثار نفسه ولا لشيء من الأسباب الكونية ذلك، يقول: إنك ذاك التراب ثم المني الذي ما كان يملك من الإنسانية والرجولية وآثار ذلك شيئا والله سبحانه هو الذي آتاكها بمشيته وملكها إياك وهو المالك لما ملكك فما لك تكفر به وتستر ربوبيته؟ وأين أنت والاستقلال؟

٣. ﴿لكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾:

أ. القراءة المشهورة (لكن) بفتح النون المشددة من غير ألف في الوصل وإثباتها وقفا، وأصله على ما ذكروه (لكن أنا) حذفت الهمزة بعد نقل فتحتها إلى النون وأدغمت النون في النون فالوصل بنون مشددة مفتوحة من غير ألف والوقف بالألف كما في (أنا) ضمير التكلم.

ب. وقد كرر في الآية لفظ ﴿رَبِّي﴾ والثاني من وضع الظاهر موضع المضمر وحق السياق (ولا أشرك به أحدا) وذلك للإشارة إلى علة الحكم بتعليقه بالوصف كأنه قال: ولا أشرك به أحدا لأنه ربي ولا يجوز الإشراك به لربوبيته، وهذا بيان حال من المؤمن قبال ما ادعاه الكافر لنفسه والمعنى ظاهر.

٤. ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ من تتمة قول المؤمن لصاحبه الكافر، وهو تحضيض وتوبيخ لصاحبه إذ قال لما دخل جنته: ﴿ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾ وكان عليه أن يبدله من قوله: ﴿ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ فينسب الأمر كله إلى مشية الله ويقصر القوة فيه تعالى مبنيا على ما بينه له أن كل نعمة بمشية الله ولا قوة إلا به.

٥. ﴿ما شاءَ اللهُ﴾ إما على تقدير: الأمر ما شاءه الله، أو على تقدير: ما شاءه الله كائن، وما على التقديرين موصولة ويمكن أن تكون شرطية والتقدير ما شاءه الله كان، والأوفق بسياق الكلام هو أول

التقادير لأن الغرض بيان رجوع الأمور إلى مشية الله تعالى قبال من يدعي الاستقلال والاستغناء.

٦. ﴿لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ يفيد قيام القوة بالله وحصر كل قوة فيه بمعنى أن ما ظهر في مخلوقاته تعالى من القوة القائمة بها فهو بعينه قائم به من غير أن ينقطع ما أعطاه منه فيستقل به الخلق قال تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقد تم بذلك الجواب عما قاله الكافر لصاحبه وما قاله عند ما دخل جنته.

٧. ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً فَعَسى﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. قال في المجمع: (أصل الحسبان السهام التي ترمى لتجري في طلق واحد وكان ذلك من رمي الأساورة، وأصل الباب الحساب، وإنما يقال لما يرمى به: حسبان لأنه يكثر كثرة الحساب، قال: والزلق الأرض الملساء المستوية لا نبات فيها ولا شيء وأصل الزلق ما تزلق عنه الأقدام فلا تثبت عليه)

ب. وقد تقدم أن الصعيد هو سطح الأرض مستويا لا نبات عليه، والمراد بصيرورة الماء غورا صيرورته غائرا ذاهبا في باطن الأرض.

ج. والآيتان كما تقدمت الإشارة إليه رد من المؤمن لصاحبه الكافر من جهة ما استعلى عليه بأنه أكثر منه مالا وأعز نفرا، وما أورده من الرد مستخرج من بيانه السابق ومحصله أنه لما كانت الأمور بمشية الله وقوته وقد جعلك أكثر مني مالا وأعز نفرا فالأمر في ذلك إليه لا إليك حتى تتبجح وتستعلي علي فمن الممكن المرجو أن يعطيني خيرا من جنتك ويخرب جنتك فيديرني إلى حال أحسن من حالك اليوم ويديرك إلى حال أسوأ من حالي اليوم فيجعلني أغنى منك بالنسبة إلي ويجعلك أفقر مني بالنسبة إليك.

د. والظاهر أن تكون (ترن) في قوله: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَ﴾ إلخ من الرأي بمعنى الاعتقاد فيكون من أفعال القلوب، و﴿أَنَا﴾ ضمير فصل متخلل بين مفعوليه اللذين هما في الأصل مبتدأ وخبر، ويمكن أن يكون من الرؤية بمعنى الإبصار فأنا ضمير رفع أكد به مفعول ترن المحذوف من اللفظ.

هـ. ومعنى الآية إن ترني أنا أقل منك مالا وولدا فلا بأس والأمر في ذلك إلى ربي فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليها أي على جنتك مرامي من عذابه السماوي كبرد أو ريح سموم أو صاعقة أو نحو ذلك فتصبح أرضا خالية ملساء لا شجر عليها ولا زرع، أو يصبح ماؤها غائرا فلن تستطيع أن تطلبه لإمعانه في الغور.

٢٣. ندم الكافر وحسرته حين خسر ماله وجنته:

المقطع [٢٣] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٢-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣١٦»:

١. ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ الإحاطة بالشيء كناية عن هلاكه، وهي مأخوذة من إحاطة العدو واستدارته به من جميع جوانبه بحيث ينقطع عن كل معين وناصر وهو الهلاك، قال تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]

٢. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كناية عن الندامة فإن النادم كثيرا ما يقلب كفيه ظهرا لبطن، وقوله: ﴿وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾ كناية عن كمال الخراب كما قيل فإن البيوت الخربة المنهدمة تسقط أولا عروشها وهي سقوفها على الأرض ثم تسقط جدرانها على عروشها الساقطة والخوي السقوط وقيل: الأصل في معنى الخلو.

٣. ﴿وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾:

أ. أي يا ليتني لم أتعلق بها تعلقت به ولم أركن ولم أطمأن إلى هذه الأسباب التي كنت أحسب أن لها استقلالا في التأثير وكنت أرجع الأمر كله إلى ربي فقد ضل سعيي وهلكت نفسي.

ب. والمعنى: وأهلكت أنواع ماله أو فسد ثمر جنته فأصبح نادما على المال الذي أنفق والجنة خربة ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا ولم أسكن إلى ما سكنت إليه واغتررت به من نفسي وسائر الأسباب التي لم تنفعني شيئا.

٤. ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً﴾:

أ. الفئة الجماعة، والمنتصر الممتنع.

ب. وكما كانت الآيات الخمس الأولى أعني قوله: ﴿قالَ لَهُ صاحِبُهُ﴾ إلى قوله: ﴿طَلَباً﴾ بيانا قوليا لخطإ الرجل في كفره وشركه كذلك هاتان الآيتان أعني قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَما كانَ مُنْتَصِراً﴾ بيان فعلي له أما تعلقه بدوام الدنيا واستمرار زينتها في قوله: ﴿ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾ فقد جلى له الخطأ فيه حين أحيط بثمره فأصبحت جنته خاوية على عروشها، وأما سكونه إلى الأسباب وركونه

إليها وقد قال لصاحبه﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ فبين خطاؤه فيه بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وأما دعوى استقلاله بنفسه وتبجحه بها فقد أشير إلى جهة بطلانها بقوله تعالى: ﴿وَما كانَ مُنْتَصِراً﴾

٥. ﴿هُنالِكَ الْوَلايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾:

أ. القراءة المشهورة (الولاية) بفتح الواو وقرئ بكسرها والمعنى واحد، وذكر بعضهم أنها بفتح الواو بمعنى النصرة وبكسرها بمعنى السلطان، ولم يثبت وكذا ﴿الْحَقِّ﴾ بالجر، والثواب مطلق التبعة والأجر وغلب في الأجر الحسن الجميل، والعقب بالضم فالسكون وبضمتين: العاقبة.

ب. ذكر المفسرون أن الإشارة بقوله: ﴿هُنالِكَ﴾ إلى معنى قوله: ﴿أُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي في ذلك الموضع أو في ذلك الوقت وهو موضع الإهلاك ووقته الولاية لله، وأن الولاية بمعنى النصرة أي إن الله سبحانه هو الناصر للإنسان حين يحيط به البلاء وينقطع عن كافة الأسباب لا ناصر غيره.

ج. وهذا معنى حق في نفسه لكنه لا يناسب الغرض المسوق له الآيات وهو بيان أن الأمر كله لله سبحانه وهو الخالق لكل شيء المدبر لكل أمر، وليس لغيره إلا سراب الوهم وتزيين الحياة لغرض الابتلاء والامتحان، ولو كان كما ذكروه لكان الأنسب توصيفه تعالى في قوله: ﴿للهِ الْحَقِّ﴾ بالقوة والعزة والقدرة والغلبة ونحوها لا بمثل الحق الذي يقابل الباطل، وأيضا لم يكن لقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ وجه ظاهر وموقع جميل.

د. والحق والله أعلم أن الولاية بمعنى مالكية التدبير وهو المعنى الساري في جميع اشتقاقاتها كما مر في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥] أي عند إحاطة الهلاك وسقوط الأسباب عن التأثير وتبين عجز الإنسان الذي كان يرى لنفسه الاستقلال والاستغناء ولاية أمر الإنسان وكل شيء وملك تدبيره لله لأنه إله حق له التدبير والتأثير بحسب واقع الأمر وغيره من الأسباب الظاهرية المدعوة شركاء له في التدبير والتأثير باطل في نفسه لا يملك شيئا من الأثر إلا ما أذن الله له وملكه إياه وليس له من الاستقلال إلا اسمه بحسب ما توهمه الإنسان فهو باطل في نفسه حق بالله سبحانه والله هو الحق بذاته المستقل الغني في نفسه.

هـ. وإذا أخذ بالقياس بينه، تعالى عن القياس، وبين غيره من الأسباب المدعوة شركاء في التأثير

كان الله إبحانه خيرا منها ثوابا فإنه يثيب من دان له ثوابا حقا وهي تثيب من دان لها وتعلق بها ثوابا باطلا زائلا لا يدوم وهو مع ذلك من الله وبإذنه، وكان الله سبحانه خيرا منها عاقبة لأنه سبحانه هو الحق الثابت الذي لا يفنى ولا يزول ولا يتغير عما هو عليه من الجلال والإكرام، وهي أمور فانية متغيرة جعلها الله زينة للحياة الدنيا يتوله إليها الإنسان وتتعلق بها قلبه حتى يبلغ الكتاب أجله وإن الله لجاعلها صعيدا جرزا.

و. وإذا كان الإنسان لا غنى له عن التعلق بشيء ينسب إليه التدبير ويتوقع منه إصلاح شأنه فربه خير له من غيره لأنه خير ثوابا وخير عقبا.

ز. وذكر بعضهم أن الإشارة بقوله: ﴿هُنالِكَ﴾ إلى يوم القيامة فيكون المراد بالثواب والعقب ما في ذلك اليوم، والسياق كما تعلم لا يساعد على شيء من ذلك.

٢٤. ضرب مثل الحياة الدنيا بالنبات والهشيم:

المقطع [٢٤] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣١٨»:

١. ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾:

أ. هذا هو المثل الثاني ضرب لتمثيل الحياة الدنيا بما يقارنها من الزينة السريعة الزوال.

ب. والهشيم فعيل بمعنى مفعول من الهشم، وهو على ما قال الراغب كسر الشيء الرخو كالنبات، وذرا يذرو ذروا أي فرق، وقيل: أي جاء به وذهب، وقوله: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ ولم يقل: اختلط بنبات الأرض إشارة إلى غلبته في تكوين النبات على سائر أجزائه، ولم يذكر مع ماء السماء غيره من مياه العيون والأنهار لأن مبدأ الجميع ماء المطر، وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً﴾ أصبح فيه، كما قيل، بمعنى صار فلا يفيد تقييد الخبر بالصباح.

ج. والمعنى: واضرب لهؤلاء المتولهين بزينة الدنيا المعرضين عن ذكر ربهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء وهو المطر فاختلط به نبات الأرض فرف نضارة وبهجة وظهر بأجمل حلية فصار بعد ذلك هشيما مكسرا متقطعا تعبث به الرياح تفرقة وتجيء به وتذهب وكان الله على كل شيء مقتدرا.

٢٥. المال والبنون زينة والباقيات الصالحات خير:

المقطع [٢٥] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣١٨»:

١. ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ الآية بمنزلة النتيجة للمثل السابق وهي أن المال والبنين وإن تعلقت بها القلوب وتاقت إليها النفوس تتوقع منها الانتفاع وتحف بها الآمال لكنها زينة سريعة الزوال غارة لا يسعها أن تثيبه وتنفعه في كل ما أراده منها ولا أن تصدقه في جميع ما يأمله ويتمناه بل ولا في أكثره ففي الآية، كما ترى، انعطاف إلى بدء الكلام أعني قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها﴾ الآيتين.

٢. ﴿وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾:

أ. المراد بالباقيات الصالحات الأعمال الصالحة فإن أعمال الإنسان محفوظة له عند الله بنص القرآن فهي باقية وإذا كانت صالحة فهي باقيات صالحات، وهي عند الله خير ثوابا لأن الله يجازي الإنسان الجائي بها خير الجزاء، وخير أملا لأن ما يؤمل بها من رحمة الله وكرامته ميسور للإنسان فهي أصدق أملا من زينات الدنيا وزخارفها التي لا تفي للإنسان في أكثر ما تعد، والآمال المتعلقة بها كاذبة على الأغلب وما صدق منها غار خدوع.

ب. وقد ورد من طرق الشيعة وأهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام عدة من الروايات: أن الباقيات الصالحات التسبيحات الأربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وفي أخرى أنها الصلاة وفي أخرى مودة أهل البيت وهي جميعا من قبيل الجري والانطباق على المصداق.

٢٦. يوم تسير الجبال ويعرض الناس صفاً:

المقطع [٢٦] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٢١»:

١. ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾

أ. الظرف متعلق بمقدر والتقدير (واذكر يوم نسير) وتسيير الجبال بزوالها عن مستقرها وقد عبر

سبحانه عنه بتعبيرات مختلفة كقوله: ﴿وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤]، وقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقوله: ﴿فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦]، وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً﴾ [النبأ: ٢٠]

ب. والمستفاد من السياق أن بروز الأرض مترتب على تسيير الجبال فإذا زالت الجبال والتلال ترى الأرض بارزة لا تغيب ناحية منها عن أخرى بحائل حاجز ولا يستتر صقع منها عن صقع بساتر، وربما احتمل أن تشير إلى ما في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها﴾ [الزمر: ٦٩]

٢. ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي لم نترك منهم أحدا فالحشر عام للجميع.

٣. ﴿وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

أ. السياق يشهد على أن ضمير الجمع في قوله: ﴿عُرِضُوا﴾ وكذا ضميرا الجمع في الآية السابقة للمشركين وهم الذين اطمأنوا إلى أنفسهم والأسباب الظاهرية التي ترتبط بها حياتهم، وتعلقوا بزينة الحياة كالمتعلق بأمر دائم باق فكان ذلك انقطاعا منهم عن ربهم، وإنكارا للرجوع إليه، وعدم مبالاة بما يأتون به من الأعمال أرضى الله أم أسخطه.

ب. وهذه حالهم ما دام أساس الامتحان الإلهي والزينة المعجلة بين أيديهم والأسباب الظاهرية حولهم ولما يقض الأمر أجله ثم إذا حان الحين وتقطعت الأسباب وطاحت الآمال وجعل الله ما عليها من زينة صعيدا جرزا لم يبق إذ ذاك لهم إلا ربهم وأنفسهم وصحيفة أعمالهم المحفوظة عليهم، وعرضوا على ربهم، وليسوا يرونه ربا لهم وإلا لعبدوه، صفا واحدا لا تفاضل بينهم بنسب أو مال أو جاه دنيوي لفصل القضاء تبين لهم عند ذلك أن الله هو الحق المبين وأن ما يدعونه من دونه وتعلقت به قلوبهم من زينة الحياة واستقلال أنفسهم والأسباب المسخرة لهم ما كانت إلا أوهاما لا تغني عنهم من الله شيئا وقد أخطئوا إذ تعلقوا بها وأعرضوا عن سبيل ربهم ولم يجروا على ما أراده منهم بل كان ذلك منهم لأنهم توهموا أن لا موقف هناك يوقفون فيه فيحاسبون عليه.

ج. وبهذا البيان يظهر أن هذا الجمل الأربع: ﴿وَعُرِضُوا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونا﴾ ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ﴾ نكت أساسية مختارة من تفصيل ما يجري يومئذ بينهم وبين ربهم من حين يحشرون إلى أن يحاسبوا، واكتفي بها إيجازا في الكلام لحصول الغرض بها.

د. فقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ إشارة أولا إلى أنهم ملجئون إلى الرجوع إلى ربهم ولقائه فيعرضون عليه عرضا من غير أن يختاروه لأنفسهم، وثانيا أن لا كرامة لهم في هذا اللقاء، ويشعر به قوله: ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ ولو أكرموا لقيل: ربهم كما قال: ﴿جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [البينة: ٨] ﴿وقال إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٩]، أو قيل: عرضوا علينا جريا على سياق التكلم السابق، وثالثا أن أنواع التفاضل والكرامات الدنيوية التي اختلقتها لهم الأوهام الدنيوية من نسب ومال وجاه قد طاحت عنهم فصفوا صفا واحدا لا تميز فيه لعال من دان ولا لغني من فقير ولا لمولى من عبد، وإنما الميز اليوم بالعمل وعند ذلك يتبين لهم أنهم أخطئوا الصواب في حياتهم الدنيا وضلوا السبيل فيخاطبون بمثل قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونا﴾

٤. ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مقول القول والتقدير وقال لهم أو قلنا لهم: لقد جئتمونا، وفي هذا بيان خطإهم وضلالهم في الدنيا إذ تعلقوا بزينتها وزخرفها فشغلهم ذلك عن سلوك سبيل الله والأخذ بدينه.

٥. ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾:

أ. في معنى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] والجملة إن كانت إضرابا عن الجملة السابقة على ظاهر السياق فالتقدير ما في معنى قولنا: شغلتكم زينة الدنيا وتعلقكم بأنفسكم وبظاهر الأسباب عن عبادتنا وسلوك سبيلنا بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا تلقوننا فيه فتحاسبوا وبتعبير آخر: إن اشتغالكم بالدنيا وتعلقكم بزينتها وإن كان سببا في الإعراض عن ذكرنا واقتراف الخطيئات لكن كان هناك سبب هو أقدم منه وهو الأصل وهو أنكم ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا فنسيان المعاد هو الأصل في ترك الطريق وفساد العمل قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ [ص: ٢٦]

ب. والوجه في نسبة الظن بنفي المعاد إليهم أن انقطاعهم إلى الدنيا وتعلقهم بزينتها ومن يدعونه من دون الله فعل من ظن أنها دائمة باقية لهم وأنهم لا يرجعون إلى الله فهو ظن حالي عملي منهم ويمكن أن يكون كناية عن عدم اعتنائهم بأمر الله واستهانتهم بما أنذروا به نظير قوله تعالى: ﴿وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]

ج. ومن الجائز أن يكون قوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ إضرابا عن اعتذار لهم مقدر

بالجهل ونحوه والله أعلم.

٢٧. عرض الكتاب وعدل الله:

المقطع [٢٧] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٢٣»:

١. ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا﴾:

أ. وضع الكتاب نصبه ليحكم عليه، ومشفقين من الشفقة وأصلها الرقة، قال الراغب في المفردات: (الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ فإذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿مُشْفِقُونَ مِنها﴾)

ب. والويل الهلاك، ونداؤه عند المصيبة، كما قيل، كناية عن كون المصيبة أشد من الهلاك فيستغاث بالهلاك لينجى من المصيبة كما ربما يتمنى الموت عند المصيبة قال تعالى: ﴿يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا﴾ [مريم: ٢٣]

ج. ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ﴾ ظاهر السياق أنه كتاب واحد يوضع لحساب أعمال الجميع ولا ينافي ذلك وضع كتاب خاص بكل إنسان والآيات القرآنية دالة على أن لكل إنسان كتابا ولكل أمة كتابا وللكل كتابا قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً﴾ الآية: [الإسراء: ١٣] وقد تقدم الكلام فيها، وقال: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨] وقال: ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وسيجيء الكلام في الآيتين إن شاء الله تعالى.

د. وقيل: المراد بالكتاب كتب الأعمال واللام للاستغراق، والسياق لا يساعد عليه.

هـ. ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ تفريع الجملة على وضع الكتاب وذكر إشفاقهم مما فيه دليل على كونه كتاب الأعمال أو كتابا فيه الأعمال، وذكرهم بوصف الاجرام للإشارة إلى علة الحكم وأن إشفاقهم مما فيه لكونهم مجرمين فالحكم يعم كل مجرم وإن لم يكن مشركا.

٢. ﴿وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها﴾:

أ. الصغيرة والكبيرة وصفان قامتا مقام موصوفهما وهو الخطيئة أو المعصية أو الهنة ونحوها.

ب. وقولهم هذا إظهار للدهشة والفزع من سلطة الكتاب في إحصائه للذنوب أو لمطلق الحوادث ومنها الذنوب في صورة الاستفهام التعجيبي، ومنه يعلم وجه تقديم الصغيرة على الكبيرة في قوله: ﴿صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً﴾ مع أن الظاهر أن يقال: لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها بناء على أن الكلام في معنى الإثبات وحق الترقي فيه أن يتدرج من الكبير إلى الصغير هذا، وذلك لأن المراد، والله أعلم، لا يغادر صغيرة لصغرها ودقتها ولا كبيرة لكبرها ووضوحها، والمقام مقام الاستفزاع في صورة التعجيب وإحصاء الصغيرة على صغرها ودقتها أقرب إليه من غيرها.

٣. ﴿وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً﴾ ظاهر السياق كون الجملة تأسيسا لا عطف تفسير لقوله: ﴿لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً﴾ وعليه فالحاضر عندهم نفس الأعمال بصورها المناسبة لها لا كتابتها كما هو ظاهر أمثال قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]، ويؤيده قوله بعده: ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ فإن انتفاء الظلم بناء على تجسم الأعمال أوضح لأن ما يجزون به إنما هو عملهم يرد إليهم ويلحق بهم لا صنع في ذلك لأحد فافهم ذلك.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي: في قوله تعالى: ﴿يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ﴾ الآية: عن خالد بن نجيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة دفع للإنسان كتابه، ثم قيل له: اقرأ، قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: إنه يذكره فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعله، إلا ذكره كأنه فعله تلك الساعة، ولذلك قالوا: ﴿يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ، لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها﴾

• أقول: والرواية كما ترى تجعل ما يذكره الإنسان هو ما عرفه من ذلك الكتاب فمذكوره هو المكتوب فيه، ولولا حضور ما عمله لم تتم عليه الحجة ولأمكنه أن ينكره.

ب. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ قال: يجدون كل ما عملوا مكتوبا.

٢٨. سجود الملائكة وعداوة إبليس:

المقطع [٢٨] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ

لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٢٥»:

١. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾:

أ. تذكير ثان لهم بما جرى بينه تعالى وبين إبليس حين أمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن فتمرد عن أمر ربه.

ب. أي واذكر هذه الواقعة حتى يظهر لهم أن إبليس، وهو من الجن، وذريته عدو لهم لا يريدون لهم الخير فلا ينبغي لهم أن يفتتنوا بما يزينه لهم هو وذريته من ملاذ الدنيا وشهواتها والإعراض عن ذكر الله ولا أن يطيعوهم فيما يدعونهم إليه من الباطل.

٢. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾:

أ. تفريع على محصل الواقعة والاستفهام للإنكار أي ويتفرع على الواقعة أن لا تتخذوه وذريته أولياء والحال أنهم أعداء لكم معشر البشر، وعلى هذا فالمراد بالولاية ولاية الطاعة حيث يطيعونه وذريته فيما يدعونهم فقد اتخذوهم مطاعين من دون الله، وهكذا فسرها المفسرون.

ب. وليس من البعيد أن يكون المراد بالولاية ولاية الملك والتدبير وهو الربوبية فإن الوثنية كما يعبدون الملائكة طمعا في خيرهم كذلك يعبدون الجن اتقاء من شرهم، وهو سبحانه يصرح بأن إبليس من الجن وله ذرية وأن ضلال الإنسان في صراط سعادته وما يلجمه من أنواع الشقاء إنما هو بإغواء الشيطان فالمعنى أفتتخذونه وذريته آلهة وأربابا من دوني تعبدونهم وتتقربون إليهم وهم لكم عدو؟

ج. ويؤيده الآية التالية فإن عدم إشهادهم الخلقة إنما يناسب انتفاء ولاية التدبير عنهم لا انتفاء ولاية الطاعة وهو ظاهر.

د. وقد ختم الآية بتقبيح اتخاذهم إياهم أولياء من دون الله الذي معناه اتخاذهم إبليس بدلا منه سبحانه فقال: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ وما أقبح ذلك فلا يقدم عليه ذو مسكة، وهو السر في الالتفات الذي في قوله: ﴿مِنْ دُونِي﴾ فلم يقل: من دوننا على سياق قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ ليزيد في وضوح القبح كما أنه السر أيضا في الالتفات السابق في قوله: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ولم يقل: عن أمرنا.

٣. وللمفسرين هاهنا أبحاث في معنى شمول أمر الملائكة لإبليس، وفي معنى كونه من الجن وفي معنى، وقد قدمنا بعض القول في ذلك في تفسير سورة الأعراف.

٢٩. الله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولم يتخذ عضدا:

المقطع [٢٩] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٢٦»:

١. ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ ظاهر السياق كون ضميري الجمع لإبليس وذريته والمراد بالإشهاد الإحضار والاعلام عيانا كما أن الشهود هو المعاينة حضورا، والعضد ما بين المرفق والكتف من الإنسان ويستعار للمعين كاليد وهو المراد هاهنا.

٢. وقد اشتملت الآية في نفي ولاية التدبير عن إبليس وذريته على حجتين:

أ. إحداهما: أن ولاية تدبير أمور شيء من الأشياء تتوقف على الإحاطة العلمية، بتمام معنى الكلمة، بتلك الأمور من الجهة التي تدبر فيها وبما لذلك الشيء وتلك الأمور من الروابط الداخلية والخارجية بما يبتدئ منه وما يقارنه وما ينتهي إليه والارتباط الوجودي سار بين أجزاء الكون؛ وهؤلاء وهم إبليس وذريته لم يشهدهم الله سبحانه خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فلا كانوا شاهدين إذ قال للسماوات والأرض: كن فكانت ولا إذ قال لهم: كونوا فكانوا فهم جاهلون بحقيقة السماوات والأرض وما في أوعية وجوداتها من أسرار الخلقة حتى بحقيقة صنع أنفسهم فكيف يسعهم أن يلوا تدبير أمرها أو تدبير أمر شطر منها فيكونوا آلهة وأربابا من دون الله وهم جاهلون بحقيقة خلقتها وخلقة أنفسهم، وأما أنهم لم يشهدوا خلقها فلأن كلا منهم شيء محدود لا سبيل له إلى ما وراء نفسه فغيره في غيب منه مضروب عليه الحجاب، وهذا بين وقد أنبأ الله سبحانه عنه في مواضع من كلامه؛ وكذا كل منهم مستور عنه شأن الأسباب التي تسبق وجوده واللواحق التي ستلحق وجوده، وهذه حجة برهانية غير جدلية عند من أجاد النظر وأمعن في التدبر حتى لا يختلط عنده هذه الألعوبة الكاذبة التي نسميها تدبيرا بالتدبير الكوني الذي لا يلحقه خطأ ولا ضلال، وكذا الظنون والمزاعم الواهية التي نتداولها ونركن إليها بالعلم العياني الذي هو حقيقة العلم وكذا العلم بالأمور الغائبة بالظفر على أماراتها الأغلبية بالعلم بالغيب الذي يتبدل به الغيب شهادة.

ب. والثانية أن كل نوع من أنواع المخلوقات متوجه بفطرته نحو كماله المختص بنوعه وهذا

ضروري عند من تتبعها وأمعن النظر في حالها فالهداية الإلهية عامة للجميع كما قال: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠] والشياطين أشرار مفسدون مضلون فتصديهم تدبير شيء من السماوات والأرض أو الإنسان، ولن يكون إلا بإذن من الله سبحانه، مؤد إلى نقضه السنة الإلهية من الهداية العامة أي توسله تعالى إلى الإصلاح بما ليس شأنه إلا الإفساد وإلى الهداية بما خاصته الإضلال وهو محال، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ الظاهر في أن سنته تعالى أن لا يتخذ المضلين عضدا فافهم.

٣. وفي قوله: ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَما كُنْتُ﴾ ولم يقل: ما شهدوا وما كانوا دلالة على أنه سبحانه هو القاهر المهيمن عليهم على كل حال، والقائلون بإشراك الشياطين أو الملائكة أو غيرهم بالله في أمر التدبير لم يقولوا باستقلالهم في ذلك بل بأن أمر التدبير مملوك لهم بتمليك من الله تعالى مفوض إليهم بتفويض منه وأنهم أرباب وآلهة والله رب الأرباب وإله الآلهة.

٤. وما تقدم من معنى الآية مبني على حمل الإشهاد على معناه الحقيقي وإرجاع الضميرين في ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ﴾ و﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى إبليس وذريته كما هو الظاهر المتبادر من السياق، وللمفسرين أقوال أخر:

أ. منها قول بعضهم: إن المراد من الإشهاد في خلقها المشاورة مجازا فإن أدنى مراتب الولاية على شيء أن يشاوره في أمره، والمراد بنفي الاعتضاد نفي سائر مراتب الاستعانة المؤدية إلى الولاية والسلطة على المولى عليه بوجه ما فكأنه قيل ما شاورتهم في أمر خلقها ولا استعنت بهم بشيء من أنواع الاستعانة فمن أين يكونون أولياء لهم؟

• وفيه أنه لا قرينة على هذا المجاز ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي على أنه لا رابطة بين الإشارة بالشيء والولاية عليه حتى تعد المشاورة من مراتب التولية أو الإشارة من درجات الولاية، وقد وجه بعضهم هذا المعنى بأن المراد بالإشهاد المشاورة كناية ولازم المشاورة أن يخلق كما شاءوا أي أن يخلقهم كما أحبوا أي أن يخلقهم كاملين فالمراد بنفي إشهاد الشياطين خلق أنفسهم نفي أن يكونوا كاملين في الخلقة حتى يسع لهم ولاية تدبير الأمور.

• وفيه مضافا إلى أنه يرد عليه ما أورد على سابقه أولا أن ذلك يرجع إلى إطلاق الشيء وإرادة لازمه بخمس مراتب من اللزوم فالمشاورة لازم الإشهاد على ما يدعيه وخلق ما يشاؤه المشير لازم المشاورة

وخلق ما يحبه لازم خلق ما يشاؤه، وكمال الخلقة لازم خلق ما يحبه، وصحة الولاية لازم كمال الخلقة فإطلاق الإشهاد وإرادة كمال الخلقة أو صحة الولاية من قبيل التكنية عن لازم المعنى من وراء لزومات أربع أو خمس، والكتاب المبين يجل عن أمثال هذه الألغازات.

• وثانيا: أنه لو صح فإنما يصح في إشهادهم خلق أنفسهم دون إشهادهم خلق السماوات والأرض فلازمه التفكيك بين الإشهادين.

• وثالثا: أن لازمه صحة ولاية من كان كاملا في خلقه كالملائكة المقربين ففيه اعتراف بإمكان ولايتهم وجواز ربوبيتهم والقرآن يدفع ذلك بأصرح البيان فأين الممكن المفتقر لذاته إلى الله سبحانه من الاستقلال في تدبير نفسه أو تدبير غيره؟ وأما نحو قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ [النازعات: ٥] فسيجيء توضيح معناه إن شاء الله.

ب. ومنها قول بعضهم: إن المراد بالإشهاد حقيقة معناه والضميران للشياطين لكن المراد من إشهادهم خلق أنفسهم إشهاد بعضهم خلق بعض لا إشهاد كل خلق نفسه.

• وفيه أن المراد بنفي الإشهاد استنتاج انتفاء الولاية، ولم يقل أحد من المشركين بولاية بعض الشياطين لبعض ولا تعلق الغرض بنفيها حتى يحمل لفظ الآية على إشهاد بعضهم خلق بعض.

ج. ومنها قول بعضهم: إن أول الضميرين للشياطين والثاني للكفار أو لهم ولغيرهم من الناس، والمعنى ما أشهدت الشياطين خلق السماوات والأرض ولا خلق الكفار أو الناس حتى يكونوا أولياء لهم.

• وفيه أن فيه تفكيك الضميرين.

د. ومنها قول بعضهم: برجوع الضميرين إلى الكفار قال الإمام الرازي في تفسيره: (والأقرب عندي عودهما يعني الضميرين على الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ: إن لم تطرد عن مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل أني ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هم كسائر الخلق فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد؟ ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له: لست بسلطان البلد حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة فلم تقدم عليها؟ ويؤكده أن الضمير يجب عوده على أقرب المذكورات وهو في الآية أولئك الكفار لأنهم المراد

بالظالمين في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾)

• وفيه أن فيه خرق السياق بتعليق مضمون الآية بما تعرض به في قوله: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا﴾ بنحو الإشارة قبل ثلاث وعشرين آية وقد تحول وجه الكلام بالانعطاف على أول السورة مرة بعد مرة بالتمثيل بعد التمثيل والتذكير بعد التذكير فما احتمله من المعنى في غاية البعد.

• على أن ما ذكره من اقتراحهم على النبي ﷺ: (إن لم تطرد هؤلاء الفقراء من مجلسك لم نؤمن بك) ليس باقتراح فيه مداخلة في تدبير أمر العالم حتى يرد عليهم بمثل قوله: ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ﴾ إلخ بل اشتراط لإيمانهم بطرد أولئك من غير أن يبتني على دعوى ترد بمثل ذلك، نعم لو قيل: اطرد عن مجلسك هؤلاء الفقراء واكتفي به لكان لما قاله بعض الوجه.

• وكأن التنبه لهذه النكتة دعا بعضهم إلى توجيه معنى الآية على تقدير رجوع الضميرين إلى الكفار بأن المراد أنهم جاهلون بما جرى عليه القلم في الأزل من أمر السعادة والشقاء إذ لم يشهدوا الخلقة فكيف يقترحون عليك أن تقربهم إليك وتطرد الفقراء.

• ومثله قول آخرين: إن المراد أني ما أطلعتهم على أسرار الخلقة ولم يختصوا مني بما يمتازون به من غيرهم حتى يكونوا قدوة يقتدي بهم الناس في الإيمان بك فلا تطمع في نصرتهم فلا ينبغي لي أن أعتضد لديني بالمضلين.

• وكلا الوجهين أبعد مما ذكره الإمام من الوجه فأين الآية من الدلالة على ما اختلقاه من المعنى؟

هـ. ومنها أن الضميرين للملائكة والمعنى ما أشهدت الملائكة خلق العالم ولا خلق أنفسهم حتى يعبدوا من دوني، وينبغي أن يضاف إليه أن قوله: ﴿وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ أيضا متعرض لنفي ولاية الشياطين فتدل الآية حينئذ بصدرها وذيلها على نفي ولاية الفريقين جميعا وإلا دفعه ذيل الآية.

• وفيه أن الآية السابقة إنما خاطبت الكفار في قولهم بولاية الشياطين ثم ذكرتهم بضمير الجمع في قولها: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ولم يتعرض لشيء من أمر الملائكة فإرجاع الضميرين إلى الملائكة دون الشياطين تفكيك، والاشتغال بنفي ولاية الملائكة تعرض لما لم يحوج إليه السياق ولا اقتضاه المقام.

٣٠. الشركاء والموبق والنار:

المقطع [٣٠] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ

زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٢-٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٣٠»:

١. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾:

أ. هذا تذكير ثالث يذكر فيه ظهور بطلان الرابطة بين المشركين وبين شركائهم يوم القيامة ويتأكد بذلك أنهم ليسوا على شيء مما يدعيه لهم المشركون.

ب. فقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الضمير له تعالى بشهادة السياق، والمعنى واذكر لهم يوم يقول الله لهم نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم لي شركاء فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وبان أنهم ليسوا لي شركاء ولو كانوا لاستجابوا.

٢. ﴿وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾:

أ. الموبق بكسر الباء اسم مكان من وبق وبوقا بمعنى هلك، والمعنى جعلنا بين المشركين وشركائهم محل هلاك وقد فسر القوم هذا الموبق والمهلك بالنار أو بمحل من النار يهلك فيه الفريقان المشركون وشركاءهم لكن التدبر في كلامه تعالى لا يساعد عليه فإن الآية قد أطلقت الشركاء وفيهم، ولعلهم الأكثر، الملائكة وبعض الأنبياء والأولياء، وأرجع إليهم ضمير أولي العقل مرة بعد مرة، ولا دليل على اختصاصهم بمردة الجن والإنس وكون جعل الموبق بينهم دليلا على الاختصاص أول الكلام.

ب. فلعل المراد من جعل موبق بينهم إبطال الرابطة ورفعها من بينهم وقد كانوا يرون في الدنيا أن بينهم وبين شركائهم رابطة الربوبية والمربوبية أو السببية والمسببية فكني عن ذلك بجعل موبق بينهم يهلك فيه الرابطة والعلقة من غير أن يهلك الطرفان، ويومئ إلى ذلك بلطيف الإشارة تعبيره عن دعوتهم أولا بالنداء حيث قال: ﴿نادُوا شُرَكائِيَ﴾ والنداء إنما يكون في البعيد فهو دليل على بعد ما بينهما.

ج. وإلى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨]

٣. ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً﴾:

أ. في أخذ المجرمين مكان المشركين دلالة على أن الحكم عام لجميع أهل الاجرام، والمراد بالظن هو العلم، على ما قيل، ويشهد به قوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً﴾

ب. والمراد بمواقعة النار الوقوع فيها، على ما قيل ولا يبعد أن يكون المراد حصول الوقوع من الجانبين فهم واقعون في النار بدخولهم فيها والنار واقعة فيهم باشتعالهم بها.

ج. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً﴾ المصرف بكسر الراء اسم مكان من الصرف أي لم يجدوا محلا ينصرفون إليه ويعدلون عن النار ولا مناص.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن أبي معمر السعدان عن علي عليه السلام قال: قوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها﴾ أي أيقنوا أنهم داخلوها.

ب. أخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر يرى جهنم، ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة.

- أقول: وهو يؤيد ما تقدم أن المواقعة في الآية مأخوذة بين الاثنين.

٣١. صرف الأمثال في القرآن وجدال الإنسان:

المقطع [٣١] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٤ـ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٣١»:

١. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ قد مر الكلام في نظير صدر الآية في سورة أسرى [آية: ٨٩] والجدل الكلام على سبيل المنازعة والمشاجرة والآية إلى تمام ست آيات مسوقة للتهديد بالعذاب بعد التذكيرات السابقة.

٢. ﴿وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ و﴿يَسْتَغْفِرُوا﴾ عطف على

قوله: ﴿يُؤْمِنُوا﴾ أي وما منعهم من الإيمان والاستغفار حين مجيء الهدى.

٣. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا طلب أن تأتيهم السنة الجارية في الأمم الأولين وهي عذاب الاستئصال، وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً﴾ عطف على سابقه أي أو طلب أن يأتيهم العذاب مقابلة وعيانا ولا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه إيمان بعد مشاهدة البأس الإلهي قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ﴾ [غافر: ٨٥]

٤. فمحصل المعنى أن الناس لا يطلبون إيمانا ينفعهم والذي يريدونه أن يأخذهم عذاب الاستئصال على سنة الأولين فيهلكوا ولا يؤمنوا أو يقابلهم العذاب عيانا فيؤمنوا اضطرارا فلا ينفعهم الإيمان، وهذا المنع والاقتضاء في الآية أمر ادعائي يراد به أنهم معرضون عن الحق لسوء سريرتهم فلا جدوى للإطناب الذي وقع في التفاسير في صحة ما مر من التوجيه والتقدير إشكالا ودفعا.

٥. ﴿وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾:

أ. تعزية للنبي ﷺ أن لا يضيق صدره من إنكار المنكرين وإعراضهم عن ذكر الله فما كانت وظيفة المرسلين إلا التبشير والإنذار وليس عليهم وراء ذلك من بأس ففيه انعطاف إلى مثل ما مر في قوله في أول السورة: ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ وفي الآية أيضا نوع تهديد للكفار المستهزءين.

ب. والدحض الهلاك والإدحاض الإهلاك والإبطال، والهزوء: الاستهزاء والمصدر بمعنى اسم المفعول ومعنى الآية ظاهر.

٣٢. عاقبة الإعراض عن آيات الله ونسيان الذنوب:

المقطع [٣٢] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٣٣»:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ﴾:

أ. إعظام وتكبير لظلمهم والظلم يعظم ويكبر بحسب متعلقه وإذا كان هو الله سبحانه بآياته فهو أكبر من كل ظلم.

ب. والمراد بنسيان ما قدمت يداه عدم مبالاته بها يأتيه من الإعراض عن الحق والاستهزاء به وهو يعلم أنه حق، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً﴾ كأنه تعليل لإعراضهم عن آيات الله أو له ولنسيانهم ما قدمت أيديهم، وقد تقدم الكلام في معنى جعل الأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم في الكتاب مرارا.

٢. ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾:

أ. إياس من إيمانهم بعد ما ضرب الله الحجاب على قلوبهم وآذانهم فلا يسعهم بعد ذلك أن يهتدوا بأنفسهم بتعقل الحق ولا أن يسترشدوا بهداية غيرهم بالسمع والاتباع، والدليل على هذا المعنى قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ حيث دل على تأييد النفي وقيده بقوله: ﴿إِذاً﴾ وهو جزاء وجواب.

ب. قال في روح المعاني: (واستدلت الجبرية بهذه الآية على مذهبهم والقدرية بالآية التي قبلها، قال الإمام: وقل ما تجد في القرآن آية لأحد هذين الفريقين إلا ومعها آية للفريق الآخر، وما ذاك إلا امتحان شديد من الله تعالى ألقاه الله على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين)

ج. أقول: وكلتا الآيتين حق ولازم ذلك ثبوت الاختيار للعباد في أعمالهم وانبساط سلطنته تعالى في ملكه حتى على أعمال العباد وهو مذهب أئمة أهل لبيت عليه السلام.

٣٣. الغفران والظلم والأجل:

المقطع [٣٣] من سورة الكهف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٨-٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٣/ ٣٣٣»:

١. ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾:

أ. الآيات، كما سمعت، مسرودة لتهديدهم بالعذاب وهم فاسدون في أعمالهم فسادا لا يرجى منهم صلاح وهذا مقتض لنزول العذاب وأن يكون معجلا لا يمهلهم إذ لا أثر لبقائهم إلا الفساد لكن الله سبحانه لم يعجل لهم العذاب وإن قضى به قضاء حتم بل أخره إلى أجل مسمى عينه بعلمه.

ب. فقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ صدرت به الآية المتضمنة لصريح القضاء في تهديدهم

ليعدل به بواسطة اشتماله على الوصفين: الغفور ذي الرحمة ما يقتضي العذاب المعجل فيقضي ويمضي أصل العذاب أداء لحق مقتضيه وهو عملهم، ويؤخر وقوعه لأن الله غفور ذو رحمة.

ج. فالجملة أعني قوله: ﴿الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ مع قوله: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ بمنزلة متخاصمين متنازعين يحضران عند القاضي، وقوله: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ أي ملجأ يلجئون منه إليه بمنزلة الحكم الصادر عنه بما فيه إرضاء الجانبين ومراعاة الحقين فأعطي وصف الانتقام الإلهي باستدعاء مما كسبوا أصل العذاب، وأعطيت صفة المغفرة والرحمة أن يؤجل العذاب ولا يعجل؛ وعند ذلك أخذت المغفرة الإلهية تمحو أثر العمل الذي هو استعجال العذاب، والرحمة تفيض عليهم حياة معجلة.

د. ومحصل المعنى: لو يؤاخذهم ربك لعجل لهم العذاب لكن لم يعجل لأنه الغفور ذو الرحمة بل حتم عليهم العذاب بجعله لهم موعدا لا ملجأ لهم يلجئون منه إليه، فقوله: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ كلمة قضاء وليس بحكاية محضة وإلا قيل: بل جعل لهم موعدا فافهم ذلك.

هـ. والغفور صيغة مبالغة تدل على كثرة المغفرة، وذو الرحمة، ولامه للجنس، صفة تدل على شمول الرحمة لكل شيء فهي أشمل معنى من الرحمن والرحيم الدالين على الكثرة أو الثبوت والاستمرار فالغفور بمنزلة الخادم لذي الرحمة فإنه يصلح المورد لذي الرحمة بإمحاء ما عليه من وصمة الموانع فإذا صلح شمله ذو الرحمة، فللغفور السعي وكثرة العمل ولذي الرحمة الانبساط والشمول على ما لا مانع عنده، ولهذه النكتة جيء في المغفرة بالغفور وهو صيغة مبالغة وفي الرحمة بذي الرحمة الحاوي لجنس الرحمة فافهم ذلك ودع عنك ما أطنبوا فيه من الكلام في الاسمين.

٢. ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾:

أ. المراد بالقرى أهلها مجازا بدليل الضمائر الراجعة إليها، والمهلك بكسر اللام اسم زمان.

ب. ومعنى الآية ظاهر وهي مسوقة لبيان أن تأخير مهلكهم وتأجيله ليس ببدع منا بل السنة الإلهية في الأمم الماضين الذين أهلكهم الله لما ظلموا كانت جارية على ذلك فكان الله يهلكهم ويجعل لمهلكهم موعدا.

ج. ومن هنا يظهر أن العذاب والهلاك الذي تتضمنه الآيات ليس بعذاب يوم القيامة بل عذاب

دنيوي وهو عذاب يوم بدر إن كان المراد تهديد صناديد قريش أو عذاب آخر الزمان إن كان المراد تهديد الأمة كما مر في تفسير سورة يونس.